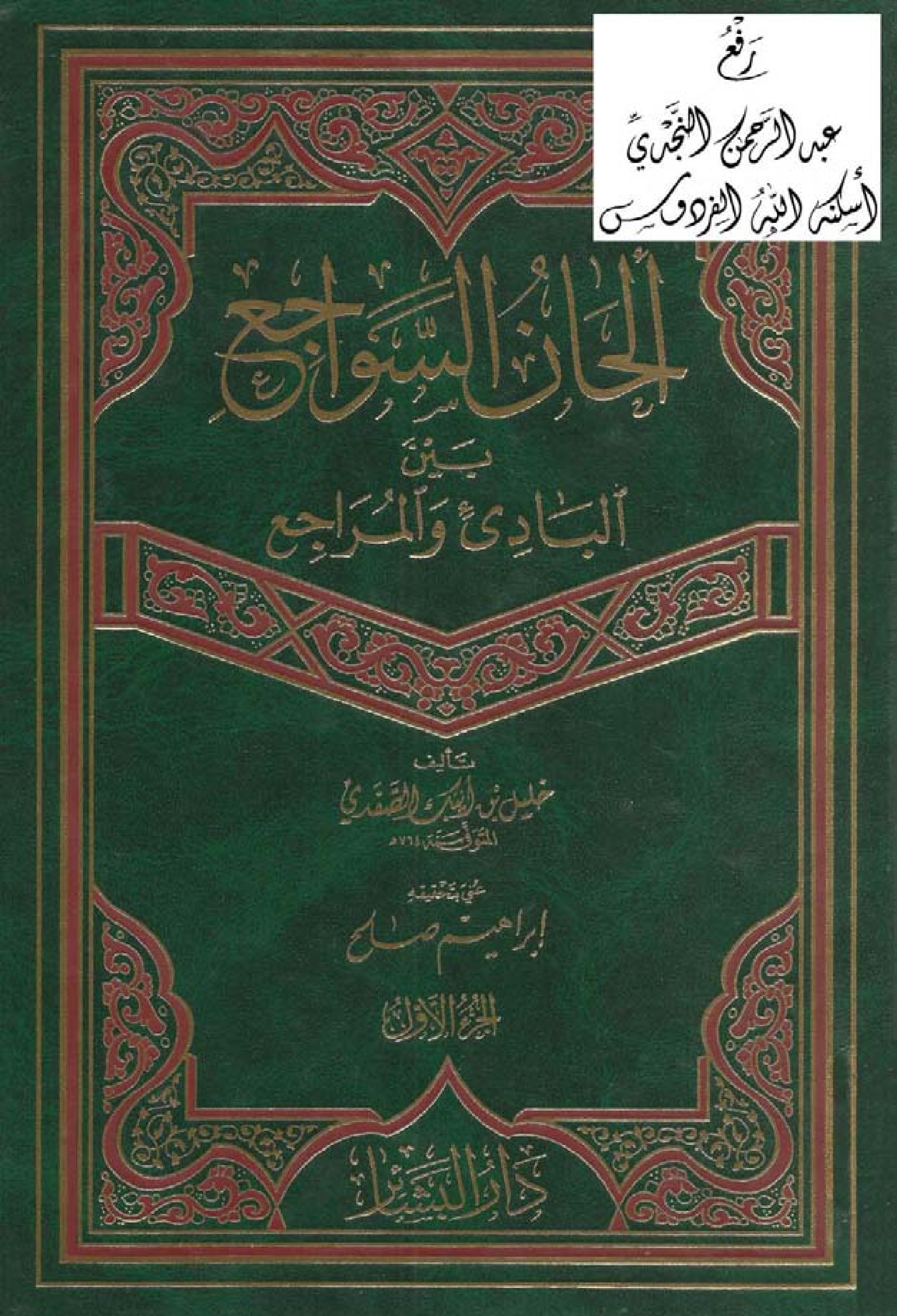

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
ألحان السواجع
بين
البادي والمراجع
تأليف
خليل بن أيبك الصفدي
المتوفى سنة ٧٦٤هـ
عني بتحقيقه
إبراهيم صالح
الجزء الأول
دار البشائر

ألحان السواجع

بين

البادي والمراجع

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

العنوان : ألحان السواجع بين البادئ والمراجع
الجزء الأول
تأليف : خليل بن أيبك الصفدي
تحقيق : إبراهيم صالح
عدد الصفحات : ٤٤٠ صفحة
قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤سم
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة
التنضيد والإخراج : زياد ديب السروجي
المطبعة : المطبعة الدمشقية



دار البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - شارع ٢٩ أيار - جادة كرجية حداد
هاتف : ٢٣١٦٦٦٨ - ٢٣١٦٦٦٩
ص. ب ٤٩٢٦ سورية - فاكس ٢٣١٦١٩٦

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

ألحان السواجع

بين البادئ والمراجع

تأليف

خليل بن أيبك الصفدي
المتوفى سنة ٧٦٤هـ

الجزء الأول

عني بتحقيقه
إبراهيم صالح

دار البشائر



رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة التّحقيق :

الحمدُ لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه ، والصَّلاة والسَّلام على سيّدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه وتابعيه .

وبعد :

المؤلّف[1] :

هو الإمام البارع ، الأَديبُ المفتنُّ ، القاضي[2] ، صلاحُ الدِّين[3] ، أَبو الصَّفاء ، خليل بن الأَمير عزِّ الدِّين أَيْبَك[4] بن عبد الله ، الأَلْبَكيُّ[5] ،

---

(1) ترجمته في : المعجم المختص للذَّهبي ٩١ وذيل العبر للحسيني ٣٦٤ وطبقات الشافعيّة الكبرى للسُّبكي ١٠/ ٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١٨/ ٦٨٠ ووفيات ابن رافع ٣٨٦ وتذكرة النبيه لابن حبيب ٣/ ٢٦٨ والمنتقى من درَّة الأَسلاك ٣٥٣ والذَّيل على العبر للعراقي ١/ ١٣٤ وتعريف ذوي العلا للتّقيّ الفاسي ١٤١ والمقفّى الكبير للمقريزي ٣/ ٧٦٧ والسُّلوك ٣/ ٢/ ٨٧ ودرر العقود الفريدة ٢/ ٧٧ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٢٢٧ وطبقات الشافعيّة له ٣/ ٢١٩ والدُّرر الكامنة لابن حجر ٣/ ٨٧ والنُّجوم الزّاهرة لابن تغري بردي ١١/ ١٩ والمنهل الصّافي ٥/ ٢٤١ والدّليل الشّافي ١/ ٢٩٠ والذّيل التّام للسّخاوي ١/ ٢٠٠ وشذرات الذّهب لابن العماد ٨/ ٣٤٣ والبدر الطّالع للشوكاني ١/ ٢٤٣ .

(2) لفظة القاضي ، من ذيل العبر للحسيني - وفي وفيات ابن رافع : الفارسيّ - تحريف - إذ ليس الصَّفديُّ فارسيّ الأصل ، بل هو تركيٌّ من أبناء الأجناد ، واسم أبيه دليل واضحٌ على ذلك ، فأَيْبك - بالتّركيّة - تعني : السّيّد القمر .

(3) عُرف في بداية أمره بلقب غرس الدّين ، ثم تلقّب بصلاح الدّين ؛ وفي هذا الكتاب مراسلات عديدة خوطب فيها بلقب غرس الدّين ، شعراً ونثراً ؛ وربّما أنف منه فيما بعد فغيّره إلى فلان الدّين

(4) النُّجوم الزّاهرة ، والمنتقى من درّة الأسلاك .

(5) قال الذّهبي في المعجم المختصّ : من موالي الأَمير الكبير فارس الدّين الأَلبكيّ .
وهو الأمير فارس الدّين ألبكي التُّركيّ الظّاهريّ ، من كبار الأُمراء وشجعانهم ، ولاّه الملك المنصور ولاية صفد ، فأقام بها عشرة أعوام ، ثم جرت له أمور ، فتوفي بحمص سنة ٧٠٢ هـ . (الوافي =

الصَّفديُّ ، الشّافعيُّ .

وُلد في صفد ، سنة ستٍّ وتسعين وستّمئة ، وقيل : سبعٍ وتسعين وستّمئة[(١)] .

حفظ القُرآن العزيز في صِغره[(٢)] ، ولم يُمكنه أَبوه من الاشتغال بالعِلم حتى استوفى عشرين سنةً[(٣)] ؛ تعانى خلالها الرَّسم فمهرَ فيه ، وكتب الخطَّ المنسوب[(٣)] .

ثم طلب العلم بنفسه ، فقرأَ على علماء عصره ، وطاف مع الطَّلبة ، وكتب الطِّباق ؛ فسمع الحديث الشَّريف من يونس الدَّبُوسيّ بالقاهرة ، وبدمشق من المِزِّيّ والبَنْدَنيجي وغيرهما .

وبرع في النَّحو واللُّغة ، وحُبِّبَ إِليه الأَدب فولعَ به ، وقال الشِّعر الحسن ، ثم أَكثرَ جدّاً من النَّظم والنَّثر والتَّرسُّل .

ثم انخرط في الوظائف الرَّسميَّة في الدَّولة ، وكانت تدور خلالها بينه وبين رجالات عصره ـ عُلماء وأُدباء ـ مكاتباتٌ ومراسلاتٌ ، عليها مدارُ كتابنا هذا ـ « أَلحان السَّواجع » .

وتصدَّى لرواية الحديث الشَّريف في الجامع الأُمويّ بدمشق ، فسمع منه بعضُ أَشياخِه ، كالذَّهبيّ وابن كثيرٍ والحُسينيّ ، حتّى قال الذَّهبيُّ : سمع منِّي ، وسمعتُ منه[(٤)] .

= بالوفيات ٩/ ٣٥١) .

(١) في المقفّى الكبير : سنة ٦٩٠ !. قال الصَّفدي : [الترجمة ١٠٦ من هذا الكتاب] :

فــي عــامِ ســتٍّ بعــد تسعيــن الّتــي ... بعــد الثّمــانِ السّــتِّ قَــدْرُ مَــولــدي
ونَشــأْتُ حيــثُ وُلــدتُ فــي صَفَــدٍ ومــا ... قلَّــدتُ غيــرَ الشّــافعــيِّ محمَّــدِ

(٢) المنهل الصّافي .

(٣) الدّرر الكامنة .

(٤) المعجم المختص .

ويستفادُ من استقراء تواريخ الرَّسائل المتبادلة بينه وبين العلماء والشعراء المذكورين في هذا الكتاب ، أنَّه ولي كتابة الدَّرْج بصفد سنة ٧١٦ وحتى سنة ٧٢٣ ، دخل خلالها دمشق سنة ٧١٨ .

ثم عمل في دمشق حتى بداية ٧٢٤ فعاد إلى صفد ، ومرض في تلك السَّنة .

وفي سنة ٧٢٧ نراه ينتقل إلى القاهرة ، ويبقى فيها حتى بداية سنة ٧٢٩ ، حيث ينتقل إلى الرَّحْبَة[1] ، ليكون موقِّعاً للدَّست وكاتباً للسِّرِّ فيها .

وكان الذي رشَّحه لهذا العمل هناك هو أبو بكر محمَّد بن محمود بن سلمان ابن فهد ؛ وكان الصَّفديُّ مُستاءً من وجوده في الرَّحبة ، حيث لا أَصحاب ولا أَصدقاء ولا فضلاء ؛ وكان يتشوَّقُ كثيراً إلى مصر .

وفي عام ٧٣١ عاد من الرَّحبةِ إلى دمشق ، وتوجَّه في ٧٣٢ إلى القاهرة ، فبقيَ فيها سنةً ثم عاد إلى صفد ؛ فبقيَ فيها حتى ٧٣٦ ليعود إلى القاهرة .

ثم ينتقل سنة ٧٣٩ إلى دمشق ، فيستقرُّ فيها حتى سنة ٧٤٥ حيث يُطلب إلى القاهرة .

وفي أَوائل سنة ٧٤٦ عاد إلى دمشق فحطَّ فيها عصا التَّرحال ؛ ووُلد له فيها سنة ٧٥٣ ولدٌ ذَكرٌ في ليلة الأَحد ٢٩ صفر ، أَسماه محمَّداً ، وكنَّاه أَبا بكرٍ ، ولقَّبه تاجَ الدِّين .

وفي شوَّال ، سنة ٧٥٦ جلس في توقيع الدَّست الشَّريف بالشَّام ، فبقي فيها حتى وُلِّي كاتباً للسِّرِّ بحلب سنة ٧٥٩ فانتقل إليها .

---

(١) الرَّحبة : أَو رحبة مالك بن طوق التَّغلبيّ ، وتقع أَطلالها اليوم قريباً من مدينة الميادين في محافظة دير الزُّور بسورية .

قال ابن حبيب[1] : لمَّا توفِّي أَبو إِسحاق إِبراهيم بن شهاب الدِّين أَبي الثَّناء محمود بن سلمان الحلبي ، صاحب ديوان الإنشاء بحلب سنة ٧٦٠ ولي عوضه صلاح الدِّين الصَّفديّ في أَوائل سنة ٧٦١ وباشر مدَّةً يسيرةً .

وقال[1] : في أَوائل رمضان سنة ٧٦١ باشر الصفدي صحابة ديوان الإنشاء بحلب ، عوضاً عن أَبي إِسحاق إِبراهيم . . . واستقرَّ بالوظيفة شهوراً ، ثم عُزِل ونقل إِلى دمشق مباشِراً وكالة بيت المال فيها .

وفي سنة ٧٦١ عاد إِلى القاهرة ليتسلَّم رسميّاً قرار تعيينه وكيلاً لبيت المال بدمشق .

واستمرَّ في منصبه هذا بدمشق حتى وافاهُ الأَجلُ في عاشر شوّال من سنة ٧٦٤ هـ[2] بالطاعون ، ودفن في مقبرةِ الصُّوفيَّة[3] .

وهكذا نرى أَن حياة الصَّفديّ لم تكن مستقرَّةً ، بل كان دائمَ الانتقال بين خَمس مدنٍ ، هي صفد ، والقاهرة ، ودمشق ، وحلب ، والرَّحبة ؛ وما يقع على طريقها كحمص وحماة والعريش وغزَّة ، يمرُّ بها ، أَو قد يستقبل بها مسؤولاً ، كما حدث سنة ٧٦١ حين زار حماة لتلقّي النّائب الجديد .

* * *

أَقوال العُلماء فيه :

● قال الذَّهبيُّ في « المعجم المختصّ » : الإمام العالم ، الأَديب البليغ الأَكمل ، طلب العلم ، وشارك في الفضائل ، وساد في علم الرَّسائل ، وقرأ الحديث ، وكتب المنسوب ، وجمع وصنَّف ، والله يمدُّه بتوفيقه ؛ سمع منِّي

---

(١) تذكرة النبيه ٣/ ٢٢٧ و٢٣٤ .

(٢) في المقفّى الكبير : مات ليلة عاشوراء ! ! .

(٣) مقبرة الصّوفية كانت تقع مكان مشافي كلِّيَّة الطِّبِّ ، جنوبي التكيَّة السُّليمانيَّة .

وسمعتُ منه .

● وقال الحسيني في « ذيل العبر » : شيخنا القاضي الأَديب ، كان من بقايا الرُّؤساء الأَخيار .

وقال في « معجمه »[١] : وإِليه المنتهى في مكارم الأَخلاق ومحاسن الشّيم .

● وقال تاج الدِّين السُّبكيّ في « طبقاته » : الإِمام الأَدِيب ، النَّاظم النّاثر ، أَديب العصر ؛ كانت بيني وبينه صداقة منذ كنت صغيراً[٢] ، فإِنَّه كان يتردَّدُ إِلى والدي ، فصحبتُه ، ولم يزل لي مصاحباً إِلى أَن قضىٰ نَحْبَهُ ؛ وكنتُ قد ساعدتُه آخر عمره ، فوليَ كتابة الدَّست بدمشق ، ثم ساعدتُه فولي كتابة السِّرِّ بحلب ، ثم ساعدتُه فحضر إِلى دمشق على وكالة بيت المال وكتابة الدَّسْتِ ، واستمرَّ بها إِلى أَن مات بالطَّاعون .

كنتُ أَصحبه منذ كنت دون سنِّ البلوغ ، وكان يُكاتبُني وأُكاتبُه ، وبه رغبتُ في الأَدب ، فربَّما وقع لي شعر ركيك من نظم الصِّبيان ، فكتبه هو عنِّي إِذ ذاك[٣] .

● وقال ابن حبيب في « تذكرة النبيه » : كان عالماً فاضلاً ، كاتباً مُجيداً ، رئيساً جليلاً ، إِماماً في معرفة الأَدب ، رأساً في صناعة الإِنشاء ، بارعاً في النَّظم والنَّثر .

● وقال في « دُرَّة الأَسلاك » : إِمامٌ زخر يمُّ براعته ، ونطق بالصَّواب

---

(١) تاريخ ابن قاضي شهبة ٢/٢٢٨ والدرر الكامنة .

(٢) ولادة تاج الدِّين السُّبكيّ سنة ٧٢٧ هـ . فبينهما من العمر أَكثر من ثلاثين سنة .

(٣) ثم ذكر مراسلة بينهما ، هي في كتابنا هذا ، وتاريخها شهر ربيع الأَول سنة ٧٦٤ أَي سنة وفاة الصفدي ، فلعلّها من أَواخر ما كتبه . بينما تجد تاريخ الرِّسالة في طبقات الشافعيّة ٧٦٣ . والله أَعلم .

لسانُ يراعته ، وفاضل جَليت عن أَيسر أَدبه ، وظهرت نفائس رسائله وكتبه ؛ كان حسن المحاضرة والأَخلاق ، معدوداً من الحفَّاظ والحذَّاق ، رُحلةً لذوي الطَّلب ، وقُدوةً في فنون الأَدب ، رأساً في صناعة الإِنشاءِ وأَحكامها ، ماهراً في تنضيدِ عقود القريض ونظامها .

● وقال المقريزي في « المقفّى الكبير » : وكان إِماماً أَديباً ، له همَّةٌ عاليةٌ في التَّحصيل ؛ إِذا صنَّف كتاباً راجعَ أَهل العلم ، فيما يحتاج إِليه فيه من موادِّ العلم .

● وقال ابن قاضي شهبة : قال بعضهم : ولولا ثقل في سمعه ، لَوُلِّي كتابة السِّرِّ بالشّام .

● وقال ابن حجر : وكان محبَّباً إِلى النَّاس ، حسن المعاشرة ، جميل المودَّة ؛ وكان في الآخر ثقل سمعُه .

* * *

مؤَلَّفاته :

● في « طبقات السُّبكيّ » : قال الصَّفديّ : وكتبتُ بيدي ما يقارب خمسمئة مجلَّدٍ .

قال : ولعلَّ الذي كتبتُ في ديوان الإِنشاء ضِعْفا ذلك .

● وفي « تاريخ ابن قاضي شُهبة » : قال ابن أَيْدُغْدي في « معجمه » : قال لي صلاح الدِّين الصَّفدي : إِنَّه كتب بخطِّه أَزيد من ثمانمئة مجلَّدة .

● وقال السُّبكيُّ : صنَّف الكثير في التَّاريخ والأَدب ؛ قال لي : إِنَّه كتب أَزيد من ستّمئة مجلَّدٍ تصنيفاً .

● وقال ابن كثير : كتب ما يُقارب مئين من المجلَّدات .

● وذكر الصَّفديّ في « ترجمته لنفسه » أَسماء مصنَّفاته ، وهي نحو الخمسين مصنَّفاً ، منها ما أكمله ، ومنها ما لم يكمله . « شذرات الذّهب » .

وأمَّا ما ذكرته مصادر ترجمته من مؤلَّفاته ، فهي :

١ـ اختراع الخُراع ، في مخالفة النقل والطِّباع : طبع بتحقيق الدكتور فاروق اسليم ؛ في اتّحاد الكتَّاب العرب بدمشق ، سنة ٢٠٠٠ م .

٢ـ أَعيان العصر ، وأَعوان النَّصر : طبع بتحقيق الدكتور علي أَبو زيد وزملائه ، في دار الفكر بدمشق ، سنة ١٩٩٨ م .

٣ـ الاقتصار على جواهر السُّلك ، في الانتصار لابن سناء المُلك : ذكره الأُستاذ هلال ناجي في مقدّمة الكشف والتنبيه ، وذكر أَنَّ منه نسخة في بغداد .

٤ـ أَلحانُ السَّواجع بين البادىء والمُراجع : وهو كتابنا هذا ، وسيأتي الحديث عنه .

٥ـ تُحفة ذوي الأَلباب ، فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنُّوَّاب : طبع بتحقيق إِحسان بنت سعيد خلوصي وزهير حميدان الصمصام ، في وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ م . ثم أُعيد طبعه في دار صادر ببيروت .

٦ـ ترجمته لنفسه : وهي في نحو كرّاسين ؛ ذكر فيها مشايخه ، وعدَّد مصنَّفاته ، وأَنشد جملةً من منتخب شعره . (تاريخ ابن قاضي شهبة ، وشذرات الذهب) . قال ابن قاضي شهبة : ولقد لخَّصتُها في التَّاريخ الكبير

٧ـ التَّذكرة الصَّفديّة : تقع في ستّة وثلاثين جزءاً . منها نسخ من أَجزاء متفرّقة في مكتبات العالم .

٨ـ تصحيح التَّصحيف ، وتحرير التَّحريف : طبع بتحقيق السَّيِّد الشَّرقاوي ، في مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٧ م .

٩ـ تَمام المُتون ، في شرح رسالة ابن زيدون : طبع بتحقيق محمَّد أَبو الفضل إِبراهيم ، في دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٦٩ م .

١٠ـ تَوشيع التَّوشيح : طبع بتحقيق أَلبير مطلق ، في دار الثقافة ببيروت ١٩٦٦ م .

١١ـ جرُّ الذَّيل في أَوصاف الخيل .

١٢ـ جلوة المحاضرة في خلوة المذاكرة .

١٣ ـ جنان الجناس : طبع في القسطنطينية ١٢٩٩ هـ . ثم طبع بتحقيق الأُستاذ هلال ناجي في مجلَّة الذَّخائر ببيروت [ضمن العددين ٣و٤ سنة ٢٠٠٠ م] .

١٤ـ حرم المُدَح في تهذيب لُمَح المُلَح للحظيري .

١٥ـ الحسن الصَّريح في مئة مليح : طبع بتحقيق الدكتور أَحمد فوزي الهيب ، في دار سعد الدِّين بدمشق ٢٠٠٣ م .

١٦ـ حقيقة المجاز إِلى الحجاز .

١٧ـ حَليُ النَّواهد ، على ما في الصِّحاح من الشَّواهد .

١٨ـ ديوان شعره : سيأتي قول ابن تغري بردي فيه .

١٩ـ رشف الرَّحيق في وصف الحريق : أَثبتها ابن فضل الله العمريّ في ترجمته من مسالك الأَبصار ، الجزء الثاني عشر [ص٤٨٥ ـ ٤٩٤] (بتحقيقي) .

٢٠ـ رموز الشجرة النُّعمانيّة .

٢١ـ الرَّوض الباسم ، والعَرْف النّاسم .

٢٢ـ زهر الخمائل في ذكر الأَوائل .

٢٣ـ الشُّعور بالعور : طبع بتحقيق الدُّكتور عبد الرَّزّاق حسين ، في عمّان ١٩٨٨ م .

٢٤ـ صرف العين في وصف العين .

٢٥ـ طبقات النُّحاة .

٢٦ـ طراز الألَغاز .

٢٧ـ طرد السمع عن سرد السَّبع .

٢٨ـ عَبرة اللَّبيب بعبر الكئيب .

٢٩ـ غُرَّة الصُّبح في اللَّعب بالرُّمح .

٣٠ـ غوامض الصِّحاح : طبع بتحقيق الدكتور عبد الإلَه نبهان ، في معهد المخطوطات بالكويت ١٩٨٦ م .

٣١ـ الغيث الذي انسجم ، في شرح لاميَّة العجم : مطبوع في القاهرة وبيروت .

٣٢ـ فضُّ الختام ، عن التَّورية والاستخدام : طبع بتحقيق المحمدي عبد العزيز الحناوي ، بالقاهرة ١٩٧٩ م .

٣٣ـ الفضل المنيف في المولد الشَّريف .

٣٤ـ قهر الوجوه العابسة ، بذكر نسب الجراكسة : مطبوع في القاهرة ١٢٨٧ هـ و١٣١٦ هـ .

٣٥ـ كشف الحال في وصف الخال : طبع بتحقيق (؟ !) سهام صلاّن ، في دار سعد الدِّين بدمشق ١٩٩٩ م .

٣٦ـ كشف السِّرِّ المبهم ، في لزوم ما لا يلزم : نوقش رسالة ماجستير في جامعة دمشق ، عن نسخة الظاهريَّة .

٣٧ـ الكشف والتَّنبيه ، على الوصف والتَّشبيه : طبع بتحقيق الأُستاذ هلال ناجي ، في دار الحكمة ـ بريطانيا ١٩٩٩ م .

٣٨ـ لذَّة السَّمع في وصف الدَّمع . مطبوع في مطبعة الموسوعات ، بالقاهرة .

٣٩ـ المثاني والمثالث .

٤٠ـ المجاراة والمجازاة .

٤١ـ مختار شعر أَبي تمّام[1] : قال في الوافي ١١/ ٢٩٤ : والذي أَقوله أَنا : إِنّني اخترتُ شعر الاثنين [المتنبي وأَبي تمّام] فجاء مختار أَبي تمّام قريباً من ثمانمئة بيت ، من جملة ثمانية آلاف بيتٍ .

٤٢ـ المختار من شعر ابن دانيال : طبع بتحقيق محمد نايف الدُّليمي ، بالموصل ١٩٧٩ م .

٤٣ـ مختار شعر المتنبي[1] : قال في الوافي ١١/ ٢٩٤ : . . . . اخترتُ شعر الاثنين [المتنبي وأَبي تمَّام] فجاء مختار المتنبِّي أَلفاً وستّمئة بيتٍ ، من جملة ستّة آلاف بيتٍ .

٤٤ـ المقترح في المصطلح .

٤٥ـ منتخب شعر مجير الدِّين ابن تميم : طبع بتحقيق الأُستاذ هلال ناجي ود . ناظم رشيد ، في عالم الكتب ـ بيروت ١٩٩٩ م .

٤٦ـ نجد الفلاح في مختصر الصِّحاح .

٤٧ـ نجم الدَّياجي في نظم الأَهاجي .

٤٨ـ نُصرة الثّائر على المثل السَّائر : طبع بتحقيق الدكتور محمد علي سلطاني ، في مجمع اللُّغة العربيّة بدمشق ١٩٧٢ م .

٤٩ـ نفائس الحماسة[1] : قال في الوافي ١١/ ٢٩٣ عند ذكر حماسة أَبي تمَّام : وقد اخترتُ جيِّدها ، فكان أَلف بيتٍ ومئة بيتٍ وثلاثة وعشرين بيتاً ؛ وسمَّيتُ ذلك نفائس الحماسة ، بعدما رتَّبتُ كلَّ بابٍ منها على حروف المعجم .

٥٠ـ نفوذ السَّهم ، فيما وقع للجوهريّ من الوهم .

٥١ـ نَكت الهِميان ، في نُكتِ العميان : طبع بتحقيق أَحمد زكي باشا ، في المطبعة الجمالية بالقاهرة ١٩١١ م .

٥٢ـ الوافي بالوفيات : وهو أَعظم كتبه ؛ طبع معظمه حتى الآن بإِشراف جمعيّة

---

(١) لم يذكره أحد قبلي .

المستشرقين الألَمان .

* * *

شعره :

● قال ابن تغري بردي في « المنهل الصّافي » : وشعر الشَّيخ صلاح الدِّين كثيرٌ ، وفَضْلُهُ غزيرٌ .

وهو شاعرٌ مُجيدٌ ، على أَنَّ جَيِّدَهُ يزيدُ على رديئِه ، ولولا أَنَّه كان ضَنيناً بنفسِه ، راضياً بشعرِهِ ، لكان يندرُ له الرَّديءُ ، ويكثرُ منهُ الجيِّدُ .

فإِنَّه كان غَوّاصاً على المعاني ، مبتكراً للنُّكتةِ البديعةِ ، عارفاً بفُنون الأَدبِ .

لكن رأَيتُ من نظمه بخطِّه ، عندما يعارضُ بعضَ مَن تَقَدَّمَهُ من مجيدي الشُّعراءِ ، في معنىً من المعاني اللَّطيفة ، فيأخذُ ذلك المعنى أَو النُّكتةِ ، فينظمها في بيتين ، ويُجيد فيهما بحسب الحالِ ، ثم ينظم أَيضاً في ذلك المعنى بيتين أُخر ، ثم بيتين ، ثم بيتين ، ولا يزال ينظم في ذلك المعنى ، وهو يقولُ : وقلتُ أَنا ؛ إِلى أَن يَمَلَّهُ النَّظَرُ ، وتسأَمَهُ النَّفْسُ ، ويَمُجَّهُ السَّمْعُ .

فلو ترك ذلك ، وتحرَّىٰ في قريضِه ، لكان من الشُّعراء المجيدين ، لِما يَظْهرُ لي من قُوَّةِ شعره ، وحُسنِ اختراعه .

* * *

النُّسخ الخَطِّيَّةُ المعتمدة :

تيسَّرَ لي من مخطوطات هذا الكتاب أَربع نسخٍ ، هي :

١ ـ نسخة أ : هي نسخة رئيس الكُتَّاب بإِستانبول ، رقمها ٦٢٦ .

وهي نسخة جليلة ، تامَّة ، خزائنيَّة ، مكتوبة بخطٍّ فارسيٍّ أَنيقٍ ، منقولةٌ

من نسخة تلميذ المؤلِّف ؛ تقع في مجلَّدين ، ينتهي الأَوَّل في الورقة ٨٩ ب . وبها يبدأ الجزء الثاني ، وينتهي في الورقة ١٧٥ ب .

وصفحاتها من القطع الكبير ، وفي كل صفحة ٢٥ سطراً .

كاتبها محمَّد بن أَحمد الرُّجيحي الحنبليّ الشَّيبانيّ ، فرغ منها في أَواخر شهر الله المحرَّم الحرام ، سنة ٩٩٣ هـ .

ميَّز بداية الترجمات والمُراسلات بخطٍّ جليل ، وميَّز الشِّعر بوضع فاصلةٍ كبيرةٍ بين الشَّطرين .

الخطأ فيها نادرٌ ، والضَّبط فيها قليل ، وعلى حواشيها أَسماء المترجمين بخطٍّ كبيرٍ .

وبالجملة فإِنَّها من النُّسخ الأُمّات ، نادرة المثال ؛ ولهذه المزايا اتّخذتُها أَصلاً .

في بدايتها دائرةٌ كبيرة ، كُتب فيها ما يلي :

بِرَسْمِ

سيِّدِنا العلاَّمة الحَبْر البَحْر الفَهّامة ، مَن خَصَّه الله تعالىٰ بِالنَّفْسِ القُدْسِيَّةِ ، الرَّضِيَّةِ المَرْضِيَّةِ ، والرِّئاسَةِ الأُنْسِيَّةِ ، ظَهِير المِلَّةِ الحَنيفيَّة ، نَصيرِ الشَّرِيعَةِ المُصْطَفَوِيَّةِ ، مُحيي السُّنَّةِ المحمَّديَّة ، شَرَفِ الأَنامِ ، صَدْرِ مصرَ والشّامِ ، المُشَرَّفِ على التَّمامِ ، قُطب دائرةِ الأَنامِ ، رئيسِ القُضاةِ والحُكّام ، المَحفوفِ بِعنايَةِ المَلِكِ العلاَّمِ ، فَريدِ عَصره وزَمانه ، ووحيدِ دَهرِهِ وأَوانِهِ ، نُخْبَةِ الزَّمانِ ، ومِصباحِ البَيانِ ؛ أَخرجهُ اللهُ من بينِ أَصْلينِ أَصيلين ، وفَرْعين وَرِعَيْن ، وتَبلينِ نَبيلين ، من أَصلِ شَجرةٍ في بِحارِ الوِلايَةِ والعُلومِ مَغروسةٌ ، مَولانا القاضي شِهاب الدِّين بن شَعبان ، القاضي حينئذٍ بالخانقاه ، وكاتب الولايةِ بمصر المحروسَة ، التي هي بالسَّادةِ العُلماءِ الموالي مَأنوسَةٌ ،

أَجرىٰ اللهُ تعالى مَعْدِلَتَهُ على صَفَحاتِ الأَنامِ ، ورَبطَ أَطْنابَ دَولتِه بأَوتادِ الخُلودِ وخُلودِ الدَّوامِ ، ومَتَّعَ بوجودِهِ كافَّةَ الأَنامِ ، ولا زالَ مَرجعاً للخاصِّ والعامِّ ؛ وأَدام عِزَّهُ وسَعْدَهُ ، وحَرَسَ بعَينِ عِنايته مَجْدَهُ وجَدَّهُ ، ورحم أَباهُ وجَدَّهُ ، وأَظلَّ فيضانُ غَمامِ إِنعامِهِ على أَغصانِ نِسيانِ الإِمْكانِ ، ليجتنيَ من أُرُمِ كَرَمِهِ ورَوْضَةِ نِعَمِه كلُّ قاصٍ ودانٍ ؛ خلمةَ العبدِ الفقيرِ المُذْنِبِ المُستغفِرِ الجاني محمَّد بن أَحمد الرُّجَيحي الحَنْبَليّ الشَّيبانيّ ، رجَّحَ الله تعالىٰ في القيامةِ ميزانَه ، وصانَه عمَّا شانَه ، والحمدُ للهِ وحدَهُ ، وصلَّىٰ الله عل مَنْ لا نبيَّ بعدَه ، سيِّدنا محمَّدٍ وعلىٰ آله وصَحبه أَجمعين ، وسلَّم تسليماً كثيراً دائماً سرمداً إِلى يومِ الدِّين ، وحسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل ، نِعْمَ المولى ونِعْمَ النَّصير ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلاَّ باللهِ العَليِّ العظيمِ .

وكانَ الفراغُ مِن كِتابةِ ذلك ونَسْخِهِ ، في أَواخرِ شهرِ اللهِ المحرَّم الحرام ، سنة ثلاثٍ وتسعين وتِسعمئة ، أَحسنَ الله تعالى خِتامَها ، وقَدَّرَ في خيرٍ تَمامَها ، بِمَنِّه وكَرَمِه ؛ آمين .

وفوقَ الدَّائرة ، على الزَّاويةِ اليُمنى العُلويّة : الله حسبي . من كتب أَبي بكر رستم بن أَحمد الشّرواني .

وتحت الدّائرة ختم مكتبة رئيس الكُتّاب .

وثمة تملُّك لا يُقرأ ، كُتب فوق الدّائرة صُعوداً .

٢ـ نسخة ب : هي نسخة مكتبة قليج علي بإِستانبول ، رقمها ٧٩٤ .

وهي نسخة يشيع فيها الخطأ والتحريف والتَّصحيف ، وفيها نقصٌ في مواضع عدَّةٍ ، أَكبرها في نهاية الكتاب ، إِذ ينتهي الموجود منه أَثناء ترجمة ابن نُباتة المصري .

ولكنَّها تتميَّز بإِضافة بعض التَّرجمات التي لم ترد في النُّسَخ الأُخرى ،

وتُضيف أَكثر من مئة بيتٍ من الشعر .

كتب النَّاسخ أَسماء المترجمين بالحمرة .

تقع في ٢٢٩ ورقة من القطع العادي ، كتبت بخطٍّ يقرب من النَّسخ ، وفي كلِّ صفحة ٢١ سطراً .

وكاتبها لم يكن من أَهل العلم . وقد ميَّزتُ زيادات هذه النسخة بوضعها بين قوسين ، وقد تلتقي مع زيادات م في بعض الأَحيان .

في صفحة العنوان : اسم الكتاب : كتاب أَلحان السّواجع بين البادىء والمراجع . تأليف الشيخ صلاح الدِّين خليل بن أَيبك الصَّفديّ رحمه الله .

وتحت ذلك تملُّكات مختلفة ، نصُّها :

١ـ ملكه الفقير كمال بدري ، سنة ١٠١٣ .

٢ـ ثم ملكه العبد الفقير إِليه تعالى جمال الدِّين القادري البابلي ، مدرّس الصّاحبيَّة بحلب المحميَّة ، في ربيع الأَوَّل سنة ١٠١٧ .

٣ـ ملكه العبد الفقير إِلى لطف مولاه الغنيّ القدير ، أَبو الوفا بن عمر العُرضي[1] ، وفَّقه الله تعالى لما يُرضي ، في أَواسط جمادى الأُولى سنة ١٠٦١ بعد موت المرحوم العلاَّمة الشيخ جمال الدِّين البابلي .

٤ـ ثم وهبناه لحامله مولانا أَكمل الفاضلين ، وأَفضل الكاملين ، مولانا رمضان أَفندي الزَّيني . كتبه أَبو الوفا .

٥ـ انخرط في سلك مُلك العبد الفقير إِلى الله رمضان بن عبد الرَّحمن بن الشيخ عثمان الزّيني ، وذلك بالشّراء الشّرعي من شيخ الإِسلام وتركته ، حضرة الشيخ وفا عرضي زادة ، فسح الله في أَجله ، آمين . وذلك في غرَّة شهر

---

(١) أَبو الوفا بن عمر العُرضي: هو مؤرخ حلب، صاحب كتاب « معادن الذَّهب في الأَعيان المشرَّفة بهم حلب » المتوفى سنة ١٠٧١هـ.

رجب سنة ١٠٦٦ .

٦ـ ثم ساقه يد الدَّوران إِلى نوبة الفقير إِليه عزَّ شأنه ، أَبو السُّعود الحسيني ، غُفر له ، سنة ١١١٧ .

٧ـ نظر فيه العبد الفقير عبد القادر عفي عنه .

٣ـ نسخة س : هي نسخة مكتبة الإِسكوريال بأَسبانية ، رقمها ٣٢٦ .

وهي نسخة جليلة ، خزائنيّة ، مكتوبة بخطٍّ نسخيٍّ جميلٍ ، بضبطٍ كامل لا يخلو من خطأ .

تقع في ١٧٨ ورقة من القطع الكبير ، وفي كل صفحة ١٧ سطراً .

ولم يصلنا من هذه النُّسخة ـ مع الأسف ـ سوى الجزء الأَوَّل فقط .

صفحتها الأُولى مزخرفة بعناية ، جاء فيها : الجزء الأَوَّل من الأَلحان (؟) السّواجع بين البادىء والمراجع .

تأليف الشيخ الإِمام العالم العلاَّمة صلاح الدِّين خليل بن أَيبك الصَّفدي ، أَدام الله عزَّه .

ومن هذه العبارة الأَخيرة يمكن أَن نفهم أَنَّها كتبت في حياة المؤلِّف .

وهي تلتقي في مواضع النقص مع نسخة ب ، دون الزيادات التي انفردت بها تلك النُّسخة .

وهذه النُّسخة من الأَصل من مكتبة مولاي زيدان ملك المغرب ؛ تلك المكتبة التي سطا عليها قراصنة الأَسبان أَثناء نقلها في البحر ، فاستقرَّت في دير الإِسكوريال قرب مدريد .

فقد جاء في رأس صفحة العنوان : تملّكه عبد الله ، المعتمد عليه ، المفوّض أَمره إِليه ، زيدان أَمير المؤمنين بن الخلفاء الرّاشدين ؛ وفَّقه الله ، وأَخذ بيده . آمين .

وعلى حاشيتها اليسرى بعض تملُّكات ، نصُّها :

١ـ من كتب يحيى بن عبد العزيز بن . . . . بن علي بن طريمة . . . .

٢ـ إعارة الزَّمان إلى الفقير عبد القادر بن محمد الجريري الأَنصاري ، عفا الله عنه .

٣ـ الحمد لله ، ملكه من فضل ربّه الفتَّاح ، يحيى بن محمّد الملاّح الحنفيّ ، غفر الله له وللمسلمين آمين .

٤ـ **نسخة م** : هي نسخة مكتبة الأَحقاف بمدينة تريم ، في حضرموت اليمن . (بلا رقم) .

وهي نسخة تامَّة ـ دون الزِّيادات التي انفردت بها نسخة ب ـ وليس بها من نقص سوى خمس ورقات من نهاية ترجمة عمر بن داود بن هارون ، إلى منتصف ترجمة عمر بن الوردي ؛ ولعلَّها سقطت أثناء التصوير .

كتبت بخطٍّ يقرب من النَّسخ ، وبها ضبطٌ غير دقيق ، والإعجام ليس دائماً في محلِّه . رؤوس العبارات والتراجم بالحمرة ، وقد طمست أَثناء التصوير فلم تظهر .

تقع في ٢٤٤ ورقة ، وليس بها ذكر للناسخ ولا سنة نساخته .

وتتميَّزُ بإِضافة بيت ونصف من الشعر ، وبعض الكلمات هنا وهناك ؛ وقد تلتقي مع نسخة ب في بعض تلك الكلمات .

وقد تنفرد بقراءات أَكثر دقَّةً ممَّا ورد في النسخ الأُخرى ، وببعض الشروح في الهامش ؛ وقد أَثبتُّها كلّها في حواشي هذه الطبعة .

* * *

قِصَّتي مع هذا الكتاب :

تفضّل بزيارتي ذات يوم من عام ٢٠٠٢ م الأَخ الباحث الأُستاذ إياد أَحمد الغوج حفظه الله تعالى من مدينة عمّان في المملكة الأُردنيَّة الهاشميَّة ، وكنت قد بدأتُ بتحقيق كتاب « حياة الحيوان الكبرى للدَّميري » فعرضَ عليَّ العمل في كتاب « أَلحان السَّواجع للصَّفدي » وذكر من مزايا هذا الكتاب ما لا يقوله إلاَّ كلُّ طبٍّ خبيرٍ .

ثمَّ تكرَّم ـ حفظه الله ـ فزوَّدني بثلاثِ نسخٍ خطيَّةٍ ، هي (أ ، ب ، س) . فأَوقفتُ كتاب الدَّميري مؤَقَّتاً ، ثم انصرفتُ كليّاً إلى ما يستلزمه الكتاب الجديد من نسخٍ وتحقيقٍ . فتمَّ ذلك ـ بحمد الله ـ في مُدَّةٍ وجيزةٍ .

ولمَّا انتهيتُ من تحقيقه نهائياً ، وأَردت دفعه للطباعة ، زارني أَخي الكريم الدكتور مروان العطيَّة حفظه الله ، وأَعلمني أَنه قرأَ في صحيفة « الجزيرة » السُّعودية (العدد ١٠٨٨ تاريخ الخميس ٨ جمادى الأُولى ١٤٢٣ هـ/ ١٨ تموز ٢٠٠٢ م) مقالاً للأُستاذ عبد الرَّحمن بن محمد الدخيل ، تحت عنوان : « صلاح الدِّين خليل بن أَيبك الصَّفدي (٦٩٦ ـ ٧٦٤ هـ) يذكر فيه آثاره العلميَّة ، وما طبع منها وما لم يُطبع ؛ فذكر كتاب « أَلحان السّواجع » وقال : حقَّقه د. محمَّد عبد الحميد سالم ، الكويت : مكتبة دار العروبة . ط ١ . ١٩٨٥ في مجلّدين .

ثم راجعت مقدِّمات كتب الصَّفدي المطبوعة ، فلم أَجد أَحداً ذكر ذلك غير السَّيِّد الشَّرقاوي في مقدّمة « تصحيح التَّصحيف » . إذ قال عند ذكر الكتاب : وقد حقَّقه الدُّكتور محمَّد سالم بالقاهرة ١٩٨٤ م كما ذكر لي أُستاذي الدّكتور رمضان عبد التَّوَّاب .

فأَخذتُ أَبحثُ في فهارس المكتبات العامَّة الكبرى في دمشق (مكتبة

الأَسد ، والمكتبة الظَّاهريَّة ، ومكتبة جامعة دمشق ، ومكتبة مجمع اللُّغة العربيَّة) فلم أَقف على ذكر هذا الكتاب أَلبتَّة .

فَعُدتُ إِلى أَخِي مروان فأَخبرتُه بذلك ، فاستطاع عن طريق أَحد أَصدقائه جزاه الله خيراً أَن يرسل إِليَّ خمسين صفحة مصوّرة من بداية الكتاب ، وتظهر على الصفحة الأُولى بجلاءٍ عبارة : الناشر مكتبة دار العروبة بالكويت ـ لا كما ذكر السَّيِّد الشَّرقاوي : بالقاهرة ـ وفي أَعلى الصفحة الأُولى عبارة إِهداء من المحقِّق إِلى مكتبة الملك سعود بالرِّياض .

عندها طلبتُ من أَخي الدّكتور يحيى مير علم حفظه الله ـ الأُستاذ في جامعة الكويت ـ أَن يستوضح مشكوراً من دار العروبة عن أَمر هذا الكتاب ، وأَن يُزوِّدني بنسخة منه ؛ فأَتاني الجواب بأَن الكتاب لم يطبع في دار العروبة ، ولا علم لهم بذلك ! .

فطلبتُ هذه المرَّة من أَخي الدّكتور محمد أَحمد الدَّالي حفظه الله ـ الأُستاذ في جامعة الكويت ـ أَن يسأَل الدُّكتور خالد عبد الكريم جمعة صاحب دار العروبة شخصيّاً ، فكان الجواب بالنّفي ، وزاد بأَن أَرسل إِلَيَّ قائمة مطبوعات دار العروبة ، وليس فيها ذكر أَلحان السَّواجِع ! .

ثمَّ تكرَّم الدُّكتور الدَّالي ـ مشكوراً ـ فاتَّصل هاتفيّاً بالأَخ الدُّكتور عبد العزيز التُّويجري حفظه الله ، وكان في تلك السّاعة يطوف بالبيت الحرام معتمراً ، وطلب منه نسخة مصوّرة من مطبوعة الكتاب من مكتبة جامعة الملك سعود ؛ فوعد خيراً ؛ ثمَّ تكرَّم ـ جزاه الله خيراً ـ بتصوير الكتاب بجزأيه وإِرساله إِليَّ إِهداءً .

جزى الله خيراً كلَّ الإِخوة الذين أَتعبتُهم معي في قصَّة الكتاب .

* * *

فهذه المطبوعة ـ ورمزها « ط » ـ أَظنُّها رسالة جامعيَّةً ، قُدِّمت إلى كليّة الأَلسن ـ جامعة عين شمس ـ لنيل درجة الدُّكتوراه ، ولم يُطبع منها سوى عدد قليل من النُّسخ ، تكفي لجنة المناقشة ، وبعض النُّسخ التي بقيت معه أَهدى إحداها إلى جامعة الملك سعود عندما تعاقد للتدريس فيها .

ويبدو ـ كونها رسالةً ـ واضحاً من طريقة تحقيق الكتاب ، فلم يلتزم السَّيِّد المحقِّق منهجاً معيَّناً معروفاً في التَّحقيق ، وإنَّما كان يعمل على طريقة : (الشَّيءُ بالشَّيءِ يُذكر) . فكلَّما مرَّ ببيتٍ من الشِّعر يقول : يُذكِّرُني هذا بقولِ فلانٍ ـ ثم يسردُ بيتاً أَو أَبياتاً ـ أَو يقول : أَذكرُ به قولَ فلانٍ . . . أَو لعلَّه من قول فلانٍ . . . . ممَّا أَدَّى إلى تضخُّم حجم الكتاب بما لا طائل تحته .

وقد بذل في الحقيقة جهداً مشكوراً ، ولكنّ عدم تمرُّسه بأَساليب التَّحقيق العلميِّ ـ وتحقيق كتب الرِّجال خاصَّةً ـ أَوقعه في عددٍ لا بأس به من الأَخطاء ؛ سأذكر نَزْراً يسيراً منها ، لأَنَّ عدم وجود هذه الطَّبعة في أَيدي الباحثين لن يمكِّنهم من المقارنة بين الطَّبعتين :

في الصفحة ١/ ٤١ : ورد ذكر مرج الغَسُولة ، فلم يتمكّن من تحديد المكان ، مع أَنَّه مذكور في معجم البلدان .

وفي ١/ ٨٠ : ورد ذكر ابن دُنينير . فترجم في الهامش لابن دينارٍ .

وفي ١/ ٩٩ : ورد هذا البيت :

لم يبقَ عندي زبدةٌ من بعدها لفتى زَبادة

فقرأه : . . . زيدة × . . . زيادة . ثم ترجم في الهامش لشخصٍ ينتهي نسبه إلى ابن زياد الغسَّاني . وهو ابن زَبادة ، يحيى بن سعيد بن هبة الله الشَّيباني .

وفي ١/ ١٧٥ : ورد هذا البيت :

لا جعـــلَ الله انتظـــاري لكـــم مثـل انتظـار الحـاكـم الفـاطمـي

فقال في الهامش : إشارة إلى ما هو مشهور بين الشّيعة ، من انتظار بعض طوائفهم للإمام المنتظر . وليس بذاك ، بل هو إشارة إلى انتظار بعض الطّوائف للحاكم الفاطمي الذي يعتبرونه إلّهاً لهم .

وفي ١/ ٣٣٤: جاء ذكر «سنير» ضمن بيتٍ من الشِّعر؛ فأَخذ يشرح الكلمة لغوياً. وسنير في الحقيقة: الجبل المطلُّ على حمص، بينها وبين بعلبك.

وفي ١/ ٣٩٤ : جاء : وما صاحب الحكم . فأَخذ يبحث في الهامش عن صاحب الحكم ، ثم استقر رأيه على أَنّه الثّعالبيّ ! .

وصواب العبارة : وما صاحب « المحكم » . والمقصود به ابن سيده ، العالم اللُّغويّ المشهور .

وفي ١/ ٤٣٦ : ترجم في الحاشية لابن النَّشائي ؛ ولم يعلم أَنَّ لابن النَّشائي ترجمة في هذا الكتاب .

وفي ١/ ٥٣٨ : يذكر الشَّيخ عماد الدِّين شيخ السَّلاميَّة . ثم يقول في الهامش : لم أَستطع فيما توصَّلت إِليه من مصادر ، الوقوف على ترجمته ، أو معرفة المدرسة السَّلاميَّة .

والصَّواب : الشَّيخ عزّ الدِّين شيخ السَّلاميَّة . والمدرسة المذكورة من مدارس دمشق المشهورة ؛ ذكرها النُّعيمي في « الدّارس في تاريخ المدارس » وترجم للشَّيخ عز الدِّين المذكور .

وفي ٢/ ٩٧ : يرد في الشّعر ذكر كلمة « نمجا » . فيقول في الهامش: هكذا بأَلحان ، ولعلها يلجا . والنّمجا : خنجر ، أَو ضربٌ من السَّكاكين له غمدٌ .

وفي ٢/ ٢١٩ : يضبط بيتاً من الشعر ضبطاً خاطئاً ، ويتذكر به بيتاً ينطبق على فهمه الخاطىء .

وفي٢/ ٢٤٥ : ترد عبارة : ولا لمح شطراً ، ولا سطراً. وصواب العبارة : ولا لمح سطراً ، ولا سطرىٰ. وسَطرىٰ : من قرىٰ دمشق الدّائرة، مكانها مشفى الهلال الأَحمر السوري ، في شارع بغداد ، بدمشق .

وفي ٢/ ٢٤٦ : يورد بيتاً من الشعر لعمرو بن مسعدة على هيئة النثر : وكل ما يصحّ [= يصلح] للمولى على العبد حرام .

وفي ٢/ ٢٥٠ : يرد في المتن ذكر الشَّمس ابن حمَّاد . فيترجم في الهامش لجمال الدِّين ابن حمَّاد . ولم يعرف أَن المقصود بالشَّمس : شمس الدِّين ، وأَنَّ المترجم هو شمس الدِّين محمَّد بن إِسماعيل بن حمَّاد ، التَّاجر السَّفَّار ، المترجم في البداية والنهاية ١٨/ ٣٦٧ .

وفي ٢/ ٣٦٧ : يرد في الشّعر : بحمل زنكي . والصّواب : بحمل رَنكي . والرَّنك : علامة يتميَّز بها الأُمراء عند تنصيبهم وتوليتهم .

إِلى غير ذلك من أُمورٍ كثيرة لا فائدة من ذكرها ، وإِطالة المقدِّمة بها .

ـ جزى الله الدُّكتور محمد عبد الحميد سالم خير الجزاء ، فقد كان سبَّاقاً إِلى إِحياء الكتاب ، ولكنه أَبقاه مقصوراً على دائرة أَساتذته وجامعته ؛ ولولا تلك النُّسخة التي أَهداها لمكتبة جامعة الملك سعود ، لما علم بها أَحدٌ .

ـ وجزى الله إِخواني الذين ذكرتهم في قصّتي هذه ، خير الجزاء ؛ فقد كانوا نعم العون .

ـ والحمد لله في البدءِ والختام ، ومنه أَستمدُّ العون ، وعليه التّكلان ؛ وما توفيقي إِلاَّ باللهِ .

* * *

هذا الكتاب

نمطٌ فريدٌ في التَّأليف ، يجمع بين فَنِّ التَّراجم ، وبين أَدب التَّرسُّلِ شعراً

ونثراً ، في زمنٍ معيَّنٍ ، وأَماكن محدَّدة ؛ يُشكِّل المُؤلِّف قطب دائرة هذا الكتاب ، فمنه تصدر المكاتبات ، وإِليه تعودُ ؛ في قالبٍ من أُسلوب كُتَّاب الإِنشاء في العصر المملوكيّ .

وتأْتي أَهميَّته أَيضاً من كونه متمّماً للكتابين العظيمين : « الوافي بالوفيات » و« أَعيان العصر » فهو رديفٌ كامل لهما ؛ إِليه يحتاجان ، وبه يكتملان .

وإِذا أَضفنا إِلى ذلك هذه التّرجمات التي انفرد بها كتابنا هذا ، وهذه القصائد التي لم ترد في أَيِّ مصدرٍ آخر ، وتلك الرَّسائل النَّثريَّة التي لا توجد في سواه ؛ أَدركنا أَنَّنا أَمام كتابٍ لا يمكن للمكتبة العربيَّة أَن تستغنيَ عنه .

ويظهر واضحاً في هذا الكتاب إِعجاب الصَّفدي برجالات آل السُّبكيّ ، فقد ترجم لسبعة فضلاء منهم ، بعضهم أَسنُّ منه ، وبعضهم من أَقرانه ، وبعضهم أَصغر منه سنّاً ؛ ولو أُفردت ترجماتهم لكان جزءاً لطيفاً .

فلِلَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ أَن وفَّقنا لخدمةِ هذا الأَثر النَّفيس من آثار الصَّلاح الصَّفديّ ، وأَكرمنا بإِظهاره للنَّاسِ في ثوبٍ من التَّحقيق أَرجو أَن يُثيبنا الله عليه يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إِلاَّ مَن أَتى الله بقلبٍ سليمٍ .

وآخر دعوانا أَن الحمدُ لله ربِّ العالمين .

دمشق الشام

٢٦ ربيع الثاني ١٤٢٣ هـ — وكتب

٢٦ حزيران ٢٠٠٣ م — إبراهيم صالح

ثم

٢٨ صفر الخير ١٤٢٥ هـ

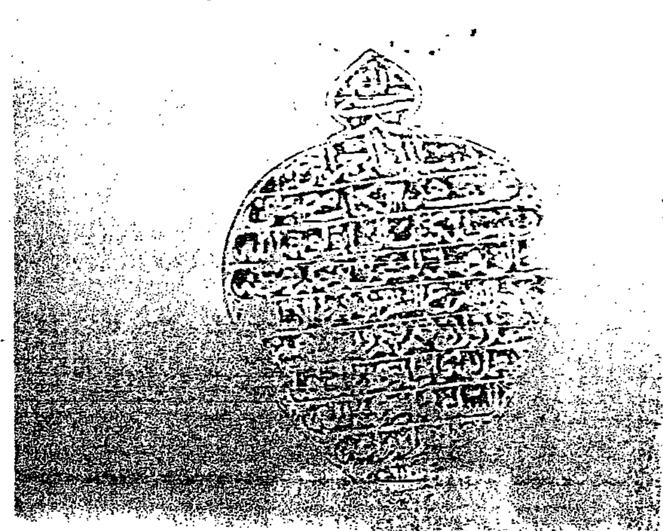
١٨ نيسان ٢٠٠٤ م



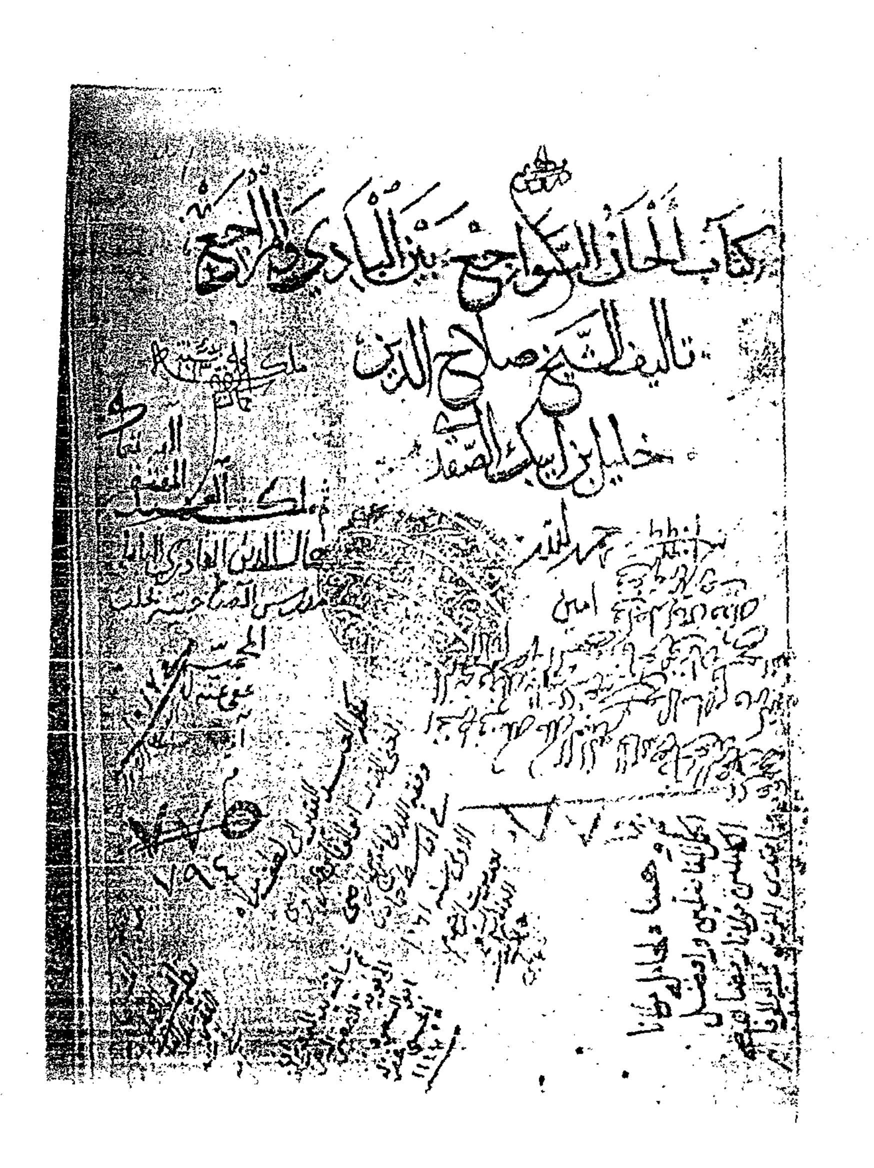
الصفحة الأولى من أ

الحمد لله الذي جعل البادي أميراً وعز للمراجع أن يكون مأموراً ومرج منهما بحرين يلتقيان
يخرج منهما اللؤلؤ منظوماً ومنثوراً نحمده على نعمه التي تزاحم من شكرها وشغله من عقل
عن حمدها ونزيد من أدى الواجب وتأتي إلى مستحبها تارة بمعنى متقدم وتارة بمعنى متأخر
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة جبلت عليها الجبلة وأثبت
بالعقيدة الصحيحة الهادية واستوحشت من البدع العليلة المضلة وثبتت دعائم أدلتها
لما غدت شبه الباطل مضمحلة ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل من أجاب وأجاد
وأعان على نوائب الدهر وأعاد وأبان فضل هذه اللغة العربية فأبان ما سواها وأباد
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين خلصوا من النفاق فأخلصوا وسابقوا إلى اتباعه فما
تقصروا ولا تربصوا وصدقوا في محبته وبالغوا فما ترخصوا ولا ترخصوا صلاة يتضوع
نشرها عنبراً ويتنوع بشرها دراً ما تواصل الأحباب وتراسل الأصحاب وسلم تسليماً
كثيراً إلى يوم الدين وبعد فقد كنت قديماً جمعت كتابي الذي وسمته بالمجاراة والمجازاة
وأودعته جملة من مجاراة الشعراء ومجازاة الأدباء وليس لي فيه بعد المقدمة غير النقد بالحجج
ولا لي في قوافيه حظ في جر ولا نصب ولا رفع وقد أحببت الآن أن أجمع ما دار بيني
وبين فضلاء عصري والأئمة الذين يجب أن تكتب محاسنهم بالذهب المصري مما
بدأت فيه وراجعت وقلدت فيه وتابعت ليكون ذلك في هذه الأوراق مجموعاً
وبيت طايره في غصون الغصون منها مسموعاً على أنني لم أعتن قديماً بمثل هذا
وأهملت من ضبط شيئاً كثيراً إهمالاً أذى فإنني ضيعت منه في زمن الصبا بيا وأوا
وكنت لمثل هذا النوع لا أرى من الاحتراز وجهاً سائغاً فلما اضطررت إلى جمعه وطمحت
نفسي إلى سقيا غيثه وصعه أخذت التقط من كل بقعة وأجمعه كما في قول العوام من
كل زوج زوجة وكم أصابتني في هذا الموسم سآمة وكم لزمني في بعض المواضع بعض إعادة
وقد تركت في بعض المراسلات والمراجعات ساقطاً وتجاوزت مساقطاً
وحياً ضاء رجاء أن تطلقني في هذا النطاق بما يسد الخلة ويشفي العلة ويبقي الغلة

بداية الكتاب في أ



نهاية الكتاب في أ



كتاب ألحان السواجع بين البادي والمراجع
تأليف الشيخ صلاح الدين
خليل بن أيبك الصفدي

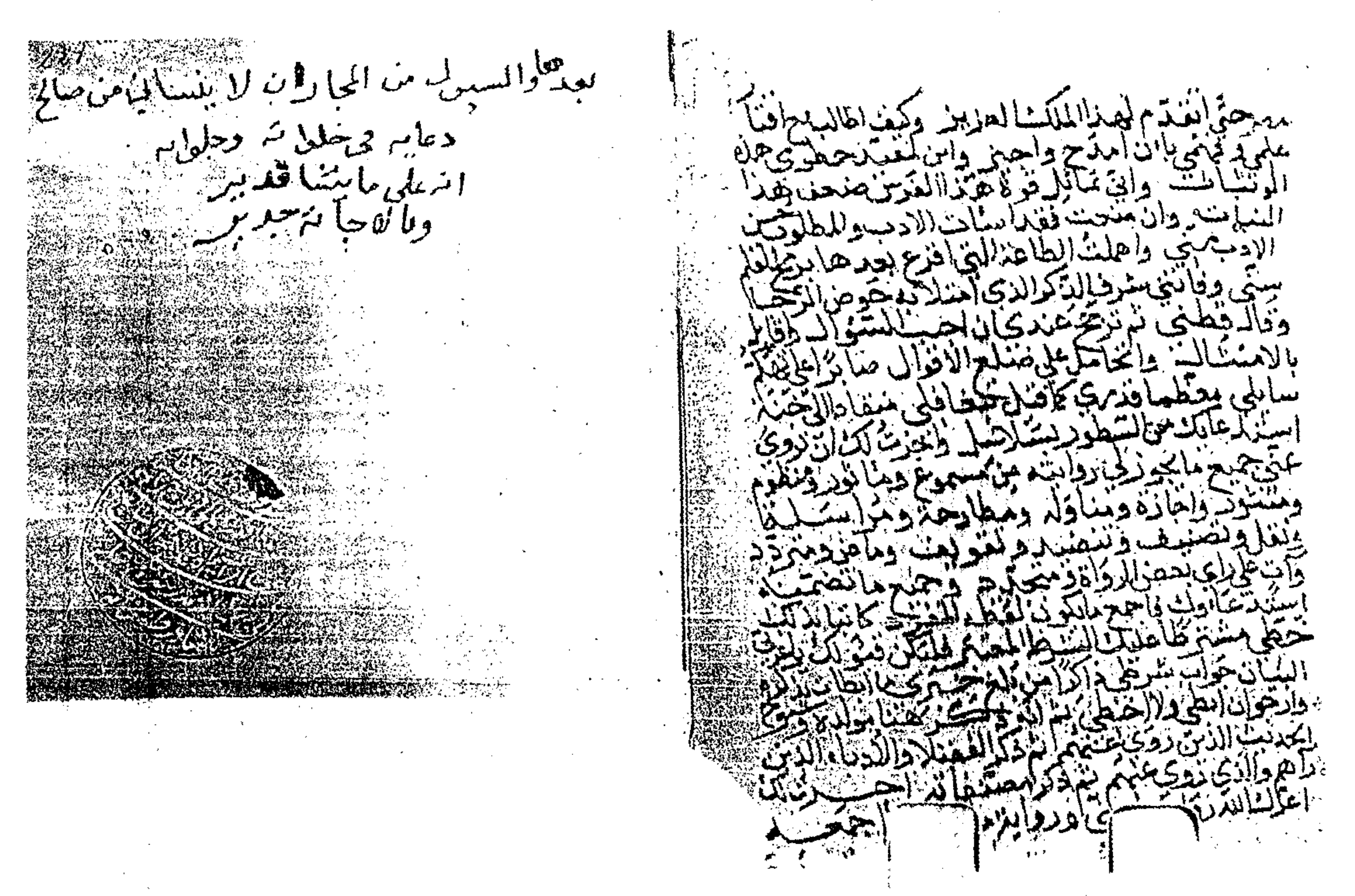
صفحة العنوان في ب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل البادي اميرا وقدمه للمراجع أن يكون مأمورا
ومرج منهما بحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان يخرج منهما
اللؤلؤ منظوما ومنثورا احمده على نعمه التي تراجع من شكره وتعاهد
من غفل عن عهدها وتؤيد من ادى الواجب وادكر ما وتاتي الى مستحقها
تارة بمعنى متقدم وتارة بمعنى متأخر ونشهد ان لا اله الا الله
وحده لا شريك له شهادة جبلت عليها الجبلة وآنست بالعقيدة
الصحيحة الهادية واستوحشت من البدع لعلية المضلة ونشهد
دعائم ادلتها المساعدة بشبه الباطل مضمحلة ونشهد ان محمدا عبده
ورسوله افضل من اجاب واجاد واعان على نوايب الدهر واعاد
وابان فضل هذه اللغة العربية فابان ما سواها واباد صلى الله عليه
وعلى آله وصحبه الذين خلصوا من النفاق فاخلصوا وسابقوا الى اتباع
ما نصروا ولا تربصوا وصدقوا في محبته وبالغوا فما حرصوا ولا
ترخصوا صلاة يتضوع نشرها عاطرا ويتنوع نثرها دهرا
ما تواصل الاحباب وتراسل الاصحاب وسلم تسليما كثيرا الى يوم
الدين وبعد فقد كنت قديما جمعت كتابي الهدايا وسميته
بالمحاداه والمحلاه واودعته جملة من محاورة الشعرا ومجاراة الادبا
وليس لي فيه بعد التقدم غير المتفرد بالجمع ولا لي في قوافيه حظ في جر
ولا نصب ولا رفع وقد احببت الآن ان اجمع ما دار بيني وبين فضلاء
عصري والائمة الذي يجب ان تكتب محاسنهم بالذهب المصري
فابتدأت فيه ما جمعت وقلت فيه وما بعثت يكون ذلك في هذه

الاوراق

بداية الكتاب في ب



...حتى أتقدم لهذا الملك العزيز وكيف أطالب بما أفنا
علي يد تمنعني بأن أمدح وأحسن وابن لمعتد حظوى هذه
الوثبات وإني تمايل قوة هذا الغرض ضعف بهذا
النبات وإن منحت فقد أساءت الأدب والمطلوب حسن
الأدب مني وأهملت الطاعة التي أفزع بعدها بريء الظلم
سني وفاتني شرف الذكر الذي امتلأ به حوض الرجا
وقال قطني ثم ترجح عندي أن أجيب السؤال وأقابل
بالامتثال وأحامل على ضلع الأقوال صابراً على تهكم
سائلي معظماً قدري كما قيل حفاظاً على منفاد الحضرة
استدعائك من السطور بسلاسل وأجزت لك أن تروي
عني جميع ما يجوز لي روايته من مسموع وما تورد ومنظوم
ومنثور وإجازة ومناولة ومطارحة ومراسلة
ونقل وتصنيف وتنضيد وتعويض وما هو مترجم
وآت على رأي بعض الرواة ومن تكرر وجميع ما تضمنه
استدعاؤك وأجمع ما يكون لفظ [illegible] كما أبدلت
خطي مشترطاً عليك الشرط المعتبر فلكن قولك في
البيان جواب شرطي ذاكراً من [illegible] ما يطاب بذكره
وإن خوان أخطى ولا أخطى ثم أذكر هنا مولده والشيوخ
المحدثين الذين روى عنهم ثم ذكر الفضلاء والأدباء الذين
رآهم والذي روى عنهم ثم ذكر مصنفاته أجرانا
أعزك الله [illegible] ورواية [illegible] جمعه

بعد هذا والمسؤول من المجاز له أن لا ينساني من صالح
دعائه في خلواته وجلواته
إنه على ما يشاء قدير
وبالإجابة جدير

نهاية الكتاب في ب



بداية الكتاب في م

[illegible]

عجبت لمعسول الرضاب ثم تهت ... تحاكي أنابيب القلمين ...

تناقص مقدارا القرب ... على الرأس رأس والثواني لبته

في حلب امرؤ أعجوبة ... تخرج أذكى الناس من عقله

... شيخ الهدى عذب اللمى ... لا يقدر اليوم على مثله

وهو بلا عقل جريح الحشا ... والدود لا تشبع من أكله

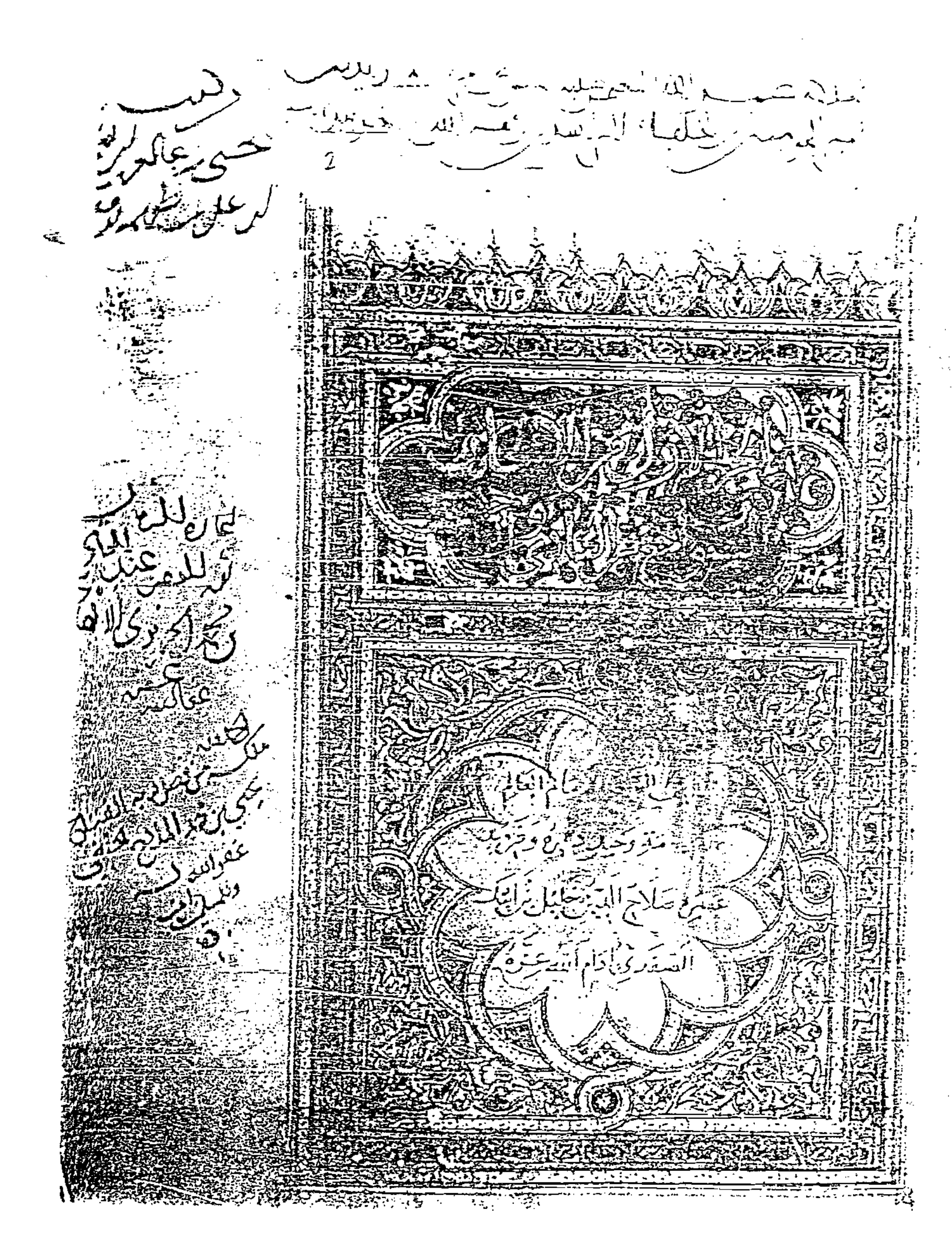
لا يبرح البول على رأسه ... والقيد لا ينفك من رجله

له عيون وهو أعمى وفي ... عينيه آذان على شكله

نامر بيننا بين الورى قد ... اكشف لنا عنه وعن أصله

تم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه

نهاية الكتاب في م



صفحة العنوان في س

بسم الله الرحمن الرحيم   عفوك اللهم

الحمد لله الذي جعل البادي أميرا، وقدّر للراجع أن يكون مأمورا، ثم مرج منهما بحرين شقيقين يخرج منهما اللؤلؤ منظوما ومنثورا، نحمده على نعمه التي تراجع من شكر، ونتعاهد من غفل عن حمدها وتزيد من أدّى الواجب وأذكر، ونأوي إلى مستحقها تارة بمعنى متقدم وتارة بمعنى مبتكر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة جبلت عليها الجبلّة، وأثبتت بالعقيدة الصحيحة الهادية واستوحشت من البدع الجليلة المضلّة، وتثبت دعائم أدلتها لما غدت شبه الباطل مضمحلة، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفضل من أجاب وأجاد، وأعان على نوائب الدهر وأعاد، وأبان فضل هذه اللغة العربية فأبان من ساواها وأباد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين خلصوا من النفاق فأخلصوا، وتسابقوا إلى اتباعه فما نقصوا، ولا انتقصوا، وصدقوا في محبته وبالغوا فما ترخصوا ولا رخصوا، صلاة يتضوع نشرها عطرا، ويتنوع بشرها درّا، ما تواصل الأحباب، وتراسل الأصحاب، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين وبعد فإني كنت قدما جمعت كتابي الذي وسمته بالمجاراة والمجازاة وأوردت جملة من مجاراة الشعراء، ومجاراة الأدباء،

بداية الكتاب في س

وفتّح أجفاناً من الزهر أغمضت وَدَبَّ به فهو في الحمى تبسّما
ولم أنسَ وجه الروض مستبشراً ضاحكاً بأزهاره كالدرّ لمّا تنظّما
فمذ فتحت فيه البروق جفونها تبرقع منها بالحيا وتلثّما

لبعضهم
من لم يبادر قبل الموت تائبة فالعمر عن سعة الآمال قد ضاقا
فإن أمت قبل أن يقضي الغفار لنا فاعلم يقيناً بأني مت مشتاقا

وقد دعا كاتبه الفقير علي محمد [illegible] الى [illegible] الله [illegible]
بجاه المولى [illegible] [illegible]
عام [illegible]
من لم يردك [illegible] والله ما تذهب لي ساعة الا وفيها اذكركم
الوالد
معـ[illegible] الارض التي تشرف بالاقدام وتتلو آيات محاسنها
اذا الليل واطراف النهار [illegible] دعاء يرفعه في الاسحار
[illegible] خالص المحبة والتكريم [illegible]
[illegible]
[illegible]
مفرد
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

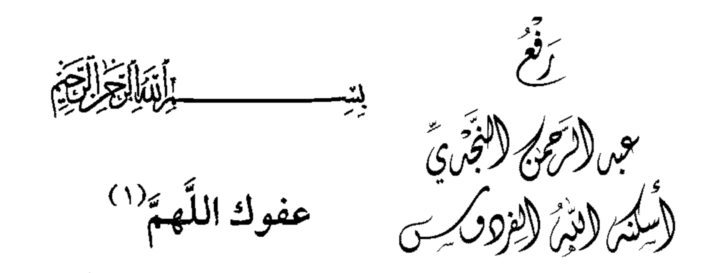
نهاية الكتاب في س

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الجُزْءُ الأَوَّلُ



عفوك اللّهمَّ(١)

[٢ ب] الحمدُ للهِ الذي جعلَ البادىءَ أميراً ، وقَدَّرَ للمُراجِعِ أَنْ يَكُونَ مأموراً ، ومَرَجَ منهما بَحْرَيْنِ يَلْتقِيانِ ، ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : ٢٠] يَخْرُجُ منهُما اللؤلؤ منظوماً ومَنْثوراً .

نَحْمَدُهُ(٢) على نِعَمِهِ التي تُراجِعُ مَن شَكَرَ ، وتَتعاهَدُ مَن غَفَلَ عن حَمْدِها ، وتَزيدُ مَن أَدَّىٰ الواجبَ وادَّكَرَ(٣) ، وتأْتي إلى مُسْتَحِقِّها تارةً بمعنىً مُتَقَدِّمٍ ، وتارةً بمعنىً مُبْتكَرٍ .

ونَشهدُ(٤) أَن لا إِلَهَ إلاَّ الله ، وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ(٥) ، شهادةً جُبِلَتْ عليها الجِبِلَّةُ ، وأَنِسَتْ بالعَقيدةِ الصَّحيحةِ الهادِيَةِ ، واستوحَشت من البِدَعِ العَليلةِ المُضِلَّةِ ، وثَبَتَتْ دعائمُ أَدِلَّتِها لمّا غَدَتْ شُبَهُ الباطِلِ مُضْمَحِلَّةً .

ونَشهدُ أَنَّ سيِّدَنا محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ ، أَفضَلُ مَنْ أَجابَ وأَجادَ ، وأَعان على نَوائبِ الدَّهرِ وَأَعادَ ، وأَبانَ فَضْلَ هذه اللُّغَةِ العربيَّةِ ، فَأَبانَ سِواها وأَبادَ ؛ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ الَّذين خَلَصُوا من النِّفاقِ فأَخلَصوا ، وسابَقوا

---

(١) من س .
(٢) في م : أَحمده .
(٣) الكلمة ساقطة من أ ، م . وفي ب : وابتكر . والمثبت من س .
(٤) في م : وأَشهد .
(٥) لا شريك له . ساقطة من م .

إلى اتِّباعِهِ فما تَصَبَّروا ولا تَرَبَّصُوا ، وصَدَقوا في مَحَبَّتِهِ وبالغوا ، فما تَخَرَّصوا ولا تَرَخَّصوا ؛ صلاةً يَتَضَوَّعُ نَشْرُها عِطْراً ، ويَتَنَوَّعُ بِشْرُها دُرَّاً ، ما تَواصَلَ الأَحبابُ وتَراسَلَ الأَصحابُ ، وسَلَّمَ تَسليماً كثيراً إِلى يومِ الدِّيْنِ .

وبعدُ :

فقد كنتُ قديماً جَمعتُ كتابي الذي وَسَمْتُهُ « **بالمُجاراةِ والمُجازاةِ** »[1] وأَوْدَعْتُهُ جُملةً من مُجاراةِ الشُّعراءِ ومُجازاةِ الأُدباءِ ، وليس لي فيه بعدَ المُقَدِّمةِ غيرُ التَّفَرُّدِ بالجَمْعِ ، ولا لي في قَوافيهِ حَظٌّ في جَرٍّ ولا نَصْبٍ ولا رَفْعٍ ؛ وقد أَحببتُ الآنَ أَن أَجمعَ ما دارَ بيني وبين فُضلاءِ عَصْري ، والأَئِمَّةِ الذين يجبُ أَن تُكتَبَ مَحاسِنُهم بالذَّهَبِ المِصْريّ ، ممّا بَدَأْتُ[2] فيه وراجَعتُ ، وقَلَّدتُ فيه وتابَعْتُ ، ليكونَ ذلك في هذه الأَوراقِ مَجموعاً ، ويَبيتَ طائِرُهُ في غُصونِ الغُصونِ منها مَسموعاً .

على أَنَّني لم أَعْتَنِ قِدْماً بمثلِ هذا ، وأَهملتُ من ضَبْطِهِ شيئاً كثيراً إِهمالاً آذى[3] ؛ فإِنَّني ضَيَّعْتُ منه في زمنِ الصِّبا جانباً وافراً ، وكنتُ لمثل هذا النَّوعِ لا أُريهِ من الاحْترازِ وَجْهاً سافِراً ، فلمَّا اضطُررتُ إِلى جَمعه ، وظَمِئَتْ نَفْسي إِلى سُقْيا غَيْثِهِ وهَمْعِهِ ، أَخذتُ أَلْتَقِطُهُ من كلِّ بُقْعَةٍ ، وأَجمعُهُ ـ كما في قولِ العَوامِّ ـ من كلِّ زَوْقٍ رُقْعَةً ، فكم أَصابتني في هذا السَّوْمِ سآمَةٌ ، وكم لَزِمَتْني في بعضِ المواضِعِ بعضُ غَرامَةٍ[4] .

---

(١) في تاريخ بروكلمن ٦/ ١٢١ : المنتقى من المجاراة والمجازاة ، منه نسخة خطيَّة في مكتبة طوپ قپوسراي بإِستانبول تحت رقم ٢٦١٧ .

(٢) في م : بُدِئت .

(٣) في ب ، س : وربَّ إِهمالٍ آذىٰ .

(٤) في م : من غرامة .

وقد(١) تركتُ في بعض البَدْآتِ والمُراجَعاتِ بَياضاً ، وغادرتُ منها مَناهلَ لم أَرِدْها وحِياضاً ، رجاءَ أَن تُظْفِرني يَدُ التَّطلُّبِ بما يَسُدُّ الخَلَّةَ ، ويَشفي العِلَّةَ ، ويَنْفي الغُلَّةَ ، [٣ أ] فمتى وجدتُ جُدْتُ ، وثَنَيْتُ إليهِ الطُّلْيَةَ(٢) وَعُدْتُ(٣) : [من الكامل]

وَعَلَيَّ أَنْ أَقْضي صَلاتي بَعْدَما ... فاتَتْ إذا لم أَقْضِها في وَقْتِها

ولْيعذرِ الواقفُ على ما هو فيه مُنْحَطُّ العملِ ، غيرُ راقٍ إلى درجةِ الكمالِ بَدْرُهُ ، ولم تُشْرِقْ شَمْسُهُ في الحَمَلِ ؛ فإنَّ فيه أَشياءَ لم تُهَذِّبْها الرَّوِيَّةُ وأَعْجَلَها الارْتِجالُ ، وأَلْقاها الفِكْرُ من رأْسِ القلمِ ، فجاءت فيهِ بُنَيَّاتُ الطَّريقِ ، لعدمِ الوُصولِ إلى رَبَّاتِ الخُدورِ والحِجالِ(٤) : [من الطويل]

وَلَيْسَ يُعابُ المَرْءُ في يَوْمِ جُبْنِهِ ... إذا عُرِفَتْ مِنْهُ الشَّجاعَةُ بالأَمْسِ

وقد رَتَّبْتُهُ على حُرُوفِ المُعجمِ ، فأَذكرُ في الحرفِ اسْمَ مَنْ كتَبَ إليَّ وكتبتُ إليه ، وجلا أَبْكارَهُ الغُرَّ عليَّ وجَلَوْتُ عليهِ ، وباللهِ الاسْتعانَةُ ، وعليه الاتِّكالُ في إبْلاغِ النَّفْسِ عُذْرَها وأَداءِ الأَمانَةِ ؛ لا إِلَهَ غيرُه ، ولا وَليَّ سِواهُ سُبحانَهُ .

* * *

(١) في م : وكم تركت .
(٢) الطُّلْيَةُ : العُنق .
(٣) البيت لأبي العلاء المعري ، في شروح سقط الزند ٣/ ١٠٣٢ .
(٤) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ٥٢ . أو لعمرو بن معدي كرب في ديوانه ١٢٩ . أو لعبد الله بن عنقاء الهُجيمي في الأشباه والنظائر للخالديين ٢/ ٣٠٣ . وروايته في س : × . . . في الأمس .

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

حَرْفُ الهَمْزَةِ

١ * إبراهيم بن أَحمد بن محمَّد(١) :

القاضي أَمينِ الدِّين ابن الشَّيخِ الإمام شِهابِ الدِّين ابن الشَّيخ شَمس الدِّين ابن غانِم .

أَحدُ كُتَّاب الإنشاءِ الشَّريف بالشَّام المَحروسِ .

● **كتبتُ أَنا جوابَه من رَحْبَةِ مالِكِ بن طَوْقٍ(٢) ، في سنة ثلاثين وسَبعمئة(٣) :**

[من الطويل]

كِتابُكَ نُورٌ صُنْتُهُ لِجُفوني ... وتاجُ عُلاً أَعْدَدْتُهُ لِجَبيني
أَتاني فلا واللهِ ما احْتَجْتُ بَعْدَها ... إلى أَنْ تُقِرَّ الحادِثاتُ عُيوني
ونَفَّسَ من ضِيقٍ بِرَحْبَةِ مالِكٍ ... أُكابِدُهُ من لَوْعَةٍ وحَنينِ
فَما الطَّرْفُ إذْ أَبْصَرْتَهُ بِمُسَهَّدٍ ... ولا القَلْبُ إذْ عايَنْتَهُ بِحَزينِ
تُغازِلُني أَلفاظُهُ في سُطورِهِ ... بِسِحْرِ مَعانٍ من لَواحِظِ عِيْنِ

---

(١) في أ ، م : أَحمد بن أَحمد بن محمد . . . وفي ب : أَحمد بن محمد . . . ! . والمثبت من س . وهو إِبراهيم بن أَحمد بن محمد بن سليمان بن غانم ، المقدسي الأَصل ، الدمشقي ؛ ولد بدمشق سنة ٦٩٩ واشتغل ومهر في الأَدب ، وكتب في ديوان الإِنشاء ، وكان صاحب دُعابة ومجانة ونوادر وتواضع ؛ مات في جمادى الآخرة سنة ٧٦١ هـ .
ترجمته في : الدُّرر الكامنة ١/ ١٣ ـ ١٤ وأَعيان العصر ١/ ٥٦ .

(٢) رحبة مالك بن طوق التَّغلبيّ : مدينة بناها المذكور بين الرَّقَّة وبغداد ، على شاطىء الفرات ، أَسفل من قرقيسياء . (معجم البلدان ٣/ ٣٤) .
قلت : وأَطلالها بحذاء مدينة الميادين ، وهي قريبة من مدينة دير الزّور في الجمهورية العربية السورية .

(٣) القصيدة في أَعيان العصر ١/ ٦٠ .

وَأَنْظُـرُ فـي مَنْشـورِهِ مُتَنَـزِّهـاً فأَشْهَدُ سَجْعَ الوُرْقِ فَوْقَ غُصونِ
غَدَوْتَ أَمينَ الدِّينِ بالفَضْلِ بادِئاً وَفُـزْتُ بِسَبْـقٍ فـي العَـلاءِ مُبيـنِ
بَعَثْـتَ مِثـالاً مـا ظَفِـرْتُ بِمِثْلِـهِ وحَسْبُـكَ مـن حُسْـنٍ بِغَيْـرِ قَـرينِ
فَمـا كـلُّ حُسْـنٍ مِثْلُـهُ بِمُكَمَّـلٍ ولا كُـلُّ دُرٍّ مِثْلُـهُ بِثَميـنِ
بَضـائِعُـهُ تَجْلـو عَلَـيَّ مَحـاسِنـاً وَلَسْـتُ علـى هـذا لهـا بِـزَبُـونِ
لأَنَّ الـذي وَشّـى مَطـارِفَ حُسْنِهـا فَتـىً حـازَ أَشْتـاتَ الفَضـائِـلِ دُونـي
أَضَعْتُ أَنا فَضْلي وأَصْبَحَ حافِظاً وكيـفَ يَضيـعُ الفَضْـلُ عنـدَ أَميـنِ

● **وكتبَ هو إلى القاضي ناصر الدِّين[1] ، صاحب ديوان الإنشاءِ الشَّريفِ ، ونحن بِمَرْجِ الغَسُولَةِ[2] ، وقد زادَت الأَمطارُ والرِّياحُ** : [من الطويل]

وَلَيْلَـةَ بِتْنـا والـرِّيـاحُ عَـواصِـفٌ بِـوَبْـلٍ كَنَبْـلٍ للخِيـامِ يُخَـرِّقُ
فَقُلْـتُ لِصَحْبـي : دُونَكُـمْ وسَفِينَـةً وإِلاَّ بـلا شَـكٍّ مِـن المـاءِ نَغْـرَقُ
فقـالـوا : يُنَجِّينـا الإِلَـهُ بِسَعْـدِ مَـنْ لَنـا نـاصِـرٌ مـن كـلِّ خَطْـبٍ يُـؤَرِّقُ

● **فكتبَ إليه المُشارُ إليهِ[3]** : [من الطويل]

لَئِـنْ أَرْسَـلَ اللهُ الـرِّيـاحَ فـإِنَّهـا مُبَشِّـرَةٌ والقَـوْلُ فيهـا مُصَـدَّقُ
ولَيـسَ ـ مَعـاذَ اللهِ ـ إِرْسـالُهـا لِمـا يُخافُ ولُطْفُ اللهِ بالخَلْقِ مُحْدِقُ[4]
وحِكْمَتُها سَوْقُ السَّحابِ إِلى رُباً لِيَحْيـى بِهـا مَيْـتٌ ويَظْهَـرَ رَوْنَـقُ[5]

---

(١) هو محمد بن يعقوب بن عبد الكريم . ستأتي ترجمته برقم ٩٤ من هذا الكتاب .
(٢) الغَسُولة : قرية من قرى دمشق . (معجم البلدان ٤/٢٠٤) .
قلت : ولا تزال تحمل الاسم ذاته ، وتقع على طريق مطار دمشق الدولي . وتلفظ الآن بتشديد السِّين المضمومة .
(٣) الأَبيات الأَربعة الأَخيرة في أَعيان العصر ١/٥٨ .
(٤) في م : . . . إرساله لها × .
(٥) في م : وحكمته . . . وفي س : . . . إلى دنا × .

وقـد ظَهَـرَتْ آثـارُ صُنْـعِ إِلٰهِنـا ... وأَصْبَحَ نَـوْرُ الـرَّوْضِ وَهْـوَ مُحَدِّقُ
فَلَسْـتَ تَـرى زَهْـرَ الشَّقِيـقِ مُبَكِّـراً ... بِقَطْـرِ النَّـدىٰ إِلاَّ كُـؤُوسـاً تَـدَفَّـقُ
وأَغْصانُ أَشْجارِ الرِّياضِ عَرائِسٌ ... تُـزَفُّ لِيَجْلوها الغَـديرُ المُـرَوَّقُ[1]
وكُـلٌّ مـن الطَّيْـرِ المُغَـرِّدِ سـاجِـعٌ ... يُـرَجِّـعُ أَلْحـانـاً عَليهِـنَّ رَوْنَـقُ
وكُـلٌّ بِشُكْـرِ اللهِ يَنْطِـقُ صـادِحـاً ... [٣ ب] ومن عَجَبٍ خُرْسٌ تَقومُ فَتَنْطِقُ
أَيا مَنْ غَدا يَسْتَوْعِبُ الوَقْتَ مَدْحُهُ ... لِنَقْـصِ فعـالٍ وهـو قَـوْلٌ مُلَفَّـقُ
إِذا مـا شَكَـرْتَ اللهَ زادَكَ رِفْعَـةً ... فَشُكْـرُكَ إِيَّـاهُ شِعـارٌ مُـوَفَّـقُ
نُسَـوِّدُ أَوراقـاً ونَكْتُـبُ مَـأْتَمـاً ... ويَظْهَـرُ منكَ القَـوْلُ وَهْـوَ مُـزَوَّقُ
ونَظْمُـكَ عِنْـدي جَـوْهَـرٌ ونِظـامُـهُ ... بَليـغٌ وهـذا النَّظْـمُ بـالصِّـدْقِ أَلْيَـقُ

فتأَذَّىٰ القاضي أَمِينُ الدِّينِ المشارُ إِليهِ ، وقال : قد تُبْتُ عن نظمِ الشِّعرِ ؛

فكتبتُ أَنا إِليهِ ارتجالاً[2] : [من السريع]

تـابَ أَمِيـنُ الـدِّيـنِ مـن نَظْمِـهِ ... وخَلَّـصَ الأَقْـوامَ مـن ذَمِّـهِ
وقـال : لا عُـدْتُ إِلـى مِثْلِهـا ... فقلـتُ : لا تَهْـرُبَ مـن سَهْمِـهِ[3]
فقـال لـي : واللهِ لـو أَنَّـهُ ... مِسْـكٌ لَمـا مِلْـتُ إِلـى شَمِّـهِ[4]
فقـد كَفـى مـا نِلْتُـهُ مـن أَذىٰ ... ومـا الْتَقَـىٰ قَلْبِـيَ مـن هَمِّـهِ

● **وكتبَ إِليه القاضي ناصرُ الدِّين المشارُ إِليه[5]** : [من السريع]

---

(١) في م : × . . . . المصفق .
(٢) الأبيات في أَعيان العصر ١/٥٨ .
(٣) قوله : لا تهرب ، أَصلها : لا تَهربَنْ ، فحُذفت النون وبقيت فتحة الباء دليلاً عليها . وفي هامش س : لا تَسْتَخْفِ . قلتُ : وهي رواية جيّدة .
(٤) روايته في ب :
فقـال لـي : لـو أَنَّـه سُكَّـرٌ (؟) ... واللهِ مـا مِلْـتُ إِلـى شَمِّـهِ
(٥) عدا الثالث والرابع ، في أَعيان العصر ١/٥٨ ـ ٥٩ .

إنْ كانَ قد تابَ بلا مِرْيَةٍ   وأَحْسَنَ التَّوْبَةَ مِنْ جُرْمِهِ
وقَدَّمَ الإخْلاصَ في فِعْلِهِ   وقَوْلُهُ دَلَّ على حَزْمِهِ
ونَحْنُ قد أَمْسَكَ إقْلاعُهُ   عن ذَنْبِهِ العَزْمَ على ذَمِّهِ
لأَنَّهُ سَيِّدُ إخْوانِهِ   وَهْوَ أَمينُ الدِّينِ في قَوْمِهِ
وإن أَعادَ القَوْلَ في مَا بَدا   منهُ ولاحَ الزَّيْفُ في نَظْمِهِ
فإِنَّني مُسْتَأْنِفٌ هِمَّةً   في مَنْعِهِ ، والقَوْلَ في ذَمِّهِ

● **فكتبتُ أَنا أَيضاً**[1] : [من السريع]

إنَّ أَمينَ الدِّيْنِ مُذْ تابا   أَغْلَقَ لِلآدابِ أَبْوابا
وكانَتِ الأَعْطافُ مِن نَظْمِهِ   وَنَثْرِهِ تَهْتَزُّ إعْجابا
وكيفَ يَنْسى لَذَّةً طالَما   دارَ لها بالكَعْبِ دُولابا
ما زالَ مُذْ شَبَّ على نَظْمِهِ   حتَّى رَأَيْنا رَأْسَهُ شابا
وذِهْنُهُ في كلِّ مَعْنىً إذا   حاوَلَهُ يَسْبِقُ نَشَّابا
فإِنْ يَكُنْ أَمْسى غشيماً كما   يَزْعُمُ أَعْطَيْناهُ رَكّابا[2]

● **وكتبَ هو إليَّ ، وقد تَخَلَّفْتُ عن التَّوَجُّهِ إلى المَرْجِ صُحْبَةَ الجماعَةِ المُوَقِّعين**[3] : [من الطويل]

خَليليَّ ما المَرْجُ الخَصيبُ بِطَيِّبٍ   إذا لَمْ يَرَ إبراهيمُ وَجْهَ خَليلِهِ
وما هو إلاَّ مارِجٌ بَعْدَ بُعْدِهِ   ولو زارَهُ جالَ النَّدى بِنَجِيلِهِ

● **وكنتُ قد كتبتُ أَبياتاً ، لمَّا حَصَلَ (لي) يَرَقانٌ ، أَعتذرُ فيها عن عدمِ التَّوَجُّهِ إلى المرجِ ، جاءَ منها في الجوابِ** : [من الخفيف]

---

(١) الأَبيات في أَعيان العصر ١/ ٥٩ .
(٢) وسقط ما بعد ذلك من س .
(٣) البيتان في أَعيان العصر ١/ ٥٩ . وهما ساقطان من م .

يا ابْنَ سِيْنا الزَّمانِ مِنْكَ شِفائي ... وَوَلائي المَشْهُورُ فيكَ نَجاتي
جاءَ لِلْعَبْدِ مِنْكَ قانونُ نَظْمٍ ... في إِشاراتِهِ حُلى النَّغَماتِ
ما تَرى عِلَّتي التي قد عَرَتْني ... وبَرَتْني بَرْيَ المُدى القاطِعاتِ(١)
فَصَفاريَ هذا وأَبْيَضُ شَيْبي ... نَرْجِسٌ لِلنُّفُوسِ غَيْرُ مُواتي(٢)
تَمَّ عِنْدي تَشْبيهُ شَيْبي بِتَمٍّ ... قد غَدا ناظِراً بِعَيْنِ البُزاةِ(٣)

● وكتبتُ أَيضاً : [من السريع]

صَفَّرَني ذا اليَرَقانُ الذي ... بِمِثْلِهِ الأَسْقامُ لم تَظْهَرِ
يَنْفِرُ مَنْ يُبْصِرُني مُقْبِلاً ... حَتَّى كَأَنِّي مِن بَني الأَصْفَرِ

● وكتبتُ أَيضاً : [من الطويل]

تَصَدَّقَ خَلاّقي عَلَيَّ بِصِحَّةٍ ... تَسُرُّ وأَعْفاني زَماناً وَعافاني
ومَرَّ على غَيْري سَقامٌ وصِحَّةٌ ... ولم يُرَقانٍ مِثْلَ ذا يَرَقاني

● فكتبَ هو إِليَّ(٤) : [من الكامل]

حاشاكَ من أَلَمٍ أَلَمَّ بِمُهْجَةٍ ... قد مَسَّها أَلَمٌ من اليَرَقانِ
وكُفِيْتَ كُلَّ مُلِمَّةٍ ومَخافَةٍ ... [٤ أ] ولَبِسْتَ ثَوْبَ سَلامَةٍ وأَمانِ(٥)
مُتَمَتِّعاً مُتَنَعِّماً في جِلَّقِ الْـ ... ـفَيْحاءِ ذاتِ جَنىً وذاتِ جِنانِ
وَتَرى بِها أَتْرابَها وكَواعِباً ... بِخُدودِهِنَّ شَقائِقُ النُّعمانِ
يا أَوْحَداً في جِيْلِهِ بِجَميلِهِ ... كم في فُنُونِ فَناكَ من أَفْنانِ

---

(١) في ب : . . . التي غَيَّرَتني × .
(٢) سقط عجز هذا البيت وصدر الذي يليه من ب ، وتلفّق الموجود ممّا بقي منهما .
(٣) التّمّ : طائرٌ نحو الإوزّ ، في منقاره طولٌ ؛ عنقه أطول من عنق الإوزّ . (حياة الحيوان ١/٥٣٦) .
(٤) الأبيات في أعيان العصر : ١/٥٩ ـ ٦٠ .
(٥) في م : . . . ومخوفة × .

مَن ذا يُضارِعُ بَحْرَ شِعْرِكَ في الورىٰ ... يـا خَبْـرَ عِلْـمٍ مـا لَـهُ مِـن ثـانِ

٢ * إِبراهيم بن محمود بن سَلمان بن فَهْد[١] :

القاضي الكبيرُ الرَّئيسُ جَمال الدِّين ، أَبو إِسحاق ، بن العلاَّمة شيخِنا الإِمام الكاتب الأَديب شِهابِ الدِّين بن الإِمام زينِ الدِّين الحَلَبيّ ، كاتب السِّرِّ الشَّريف بحلبَ المحروسَة .

● **كتبَ إليَّ وهو بالقاهرةِ ، وأَنا بها ، في سنة ٧٤٥ مُلْغِزاً في اسْمِ غُلْبَك[٢]** : [من السريع]

إِنَّ اسْـمَ مَـن أَهْـواهُ تَصْحيفُـهُ ... وَصْفٌ لِقَلْبِ المُـذْنَفِ العـانـي[٣]
وشَطْـرُهُ مِـن قَبْـلِ تَصْحِيفِـهِ ... يُقـادُ فيـه المُـذْنِبُ الجـانـي[٤]
وإِنْ أَزَلْـتَ الـرُّبْـعَ مِنْـهُ غَـدا ... مُصَحَّفـاً لـي مِنْـهُ ثُلْثـانِ[٥]
وَهْـو إِذا صَحَّفْتَـهُ ثـانِيـاً ... اسْـمٌ لِمَحْبُـوبٍ لَنـا ثـانِ[٦]

● **فكتبَ الجوابَ إِليه عن ذلك[٧]** : [من السريع]

لُغْـزُكَ يـا مَـنْ رُؤْيَتـي وَجْهَـهُ ... تَكْحَـلُ بـالأَنْـوارِ أَجْفـانـي

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ١/ ١٢٧ والوافي بالوفيات ٦/ ١٤٣ وذيل العبر للحسيني ٣٣٠ وتذكرة النبيه ٣/ ٢٣٦ والمنتقى من درّة الأَسلاك ٣٢٠ ووفيات ابن رافع ٢/ ٣٥٦ وتعريف ذوي العلا ١٢٠ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٣/ ١٤٩ ودرر العقود الفريدة ١/ ١٢٣ والدرر الكامنة ١/ ٧١ والمنهل الصافي ١/ ١٧٢ والدليل الشافي ١/ ٢٨ والنجوم الزاهرة ١٠/ ٣٣٣ والذيل التّام ١/ ١٦٩ .
ـ مولده سنة ٦٧٦ هـ . ووفاته سنة ٧٦٠ هـ .

(٢) الأَبيات في أَعيان العصر ، والوافي ، والأول والثاني في الدرر الكامنة .

(٣) يريد : عليل .

(٤) يريد : غلّ .

(٥) يريد : علي ـ ثلثاه : لي .

(٦) يريد : عليّك .

(٧) الأَبيات في أَعيان العصر ، والوافي .

هَــدىٰ ضَميــري لِحِمــى حَلِّــهِ وأَيَّـــدَ القَـــوْلَ بِبُـــرْهـــانِ
إِن زالَ مِنْــهُ الــرُّبْــعُ مَــعْ قَلْبِــهِ فَــإِنَّــهُ لِلْمُــذْنِــبِ الجــانِــي[1]
« عَليــكَ » تَصحيــفُ الــذي رُمْتَــهُ فــالقَلْــبُ فــي تَصْحِيفِــهِ الثّــانــي[2]

● وأَنشدتُ جماعةَ الدِّيوانِ ـ كُتَّاب الإِنشاءِ الشَّريفِ بمصر ـ لُغْزاً كنتُ نَظَمْتُهُ بالشّامِ المحروسِ في مِثْقابٍ ، وهو[3] : [من السريع]

مــا غــائِــصٌ فــي يــابِــسٍ كُلَّمــا جَلَــدْتَــهُ سَــوْطــاً أَجــادَ العَمَــلْ
ذو مُقْلَـــةٍ غــاصَ بِهــا رَأْسُـــهُ والــرَّأْسُ فــي العــادَةِ مَــأْوىٰ المُقَــلْ

● فكتبَ إِليَّ القاضي جمالُ الدِّين الجوابَ : [من السريع]

« مِيْقاتُ » ما أَلْغَزْتَ لي في اسْمِهِ تَـــمَّ بِتَصْحيفـــي لَـــهُ واكْتَمَـــلْ
يَـــدورُ بـــالقَـــوْسِ مَـــدى سَيْـــرِهِ بَـــدْءاً وعَـــوْداً لِيُتِـــمَّ العَمَـــلْ

● وكتبتُ أَنا إِليه أُهَنِّئُهُ بِعَوْدِهِ إِلى كتابةِ السِّرِّ الشَّريفِ بحلبَ المحروسَة في سنة ٧٥٢[4] : [من الطويل]

بِعَــوْدَتِــكَ الغَــرَّاءِ قَــرَّتْ نَــواظِــرٌ وأَمْسَتْ وُجُوهُ البِشْرِ وَهْيَ نَواضِرُ
فَــرَوْضُ الأَمــانِــي ظِلُّــهُ بِــكَ وارِفٌ وَحَوْضُ التَّهاني طَلُّهُ مِنْكَ وافِرُ[5]
لأَنْبــائِــكَ الحُسْنىٰ أَصَخْنا مَسامِعاً فَيــا طِيْــبَ مــا أَمْلَــتْ عَلَيْنــا البَشــائِرُ
وَفَيْنــا بِنَــذْرٍ أَوْجَبَتْــهُ علــى الــوَرىٰ صَنــائِعُــكَ الّــلاتــي حَــوَتْهــا المَــآثِـرُ
وَقُمْنــا بِمــا أَلْــزَمْتَنــا مِــن مَحــامِــدٍ إِذا تُلِيَــتْ تَسْعَــىٰ إِليهــا المَنــابِــرُ

---

(١) يريد : كبل .
(٢) تصحيفه الثاني : عليل .
(٣) البيتان وجوابهما في الوافي . وانظر إجابة أحمد بن علي السبكي عنهما في الوافي ٧/ ٢٥١ .
(٤) الأول والثاني والسادس والسابع من مقطوعة في جنان الجناس ٩٣ [ضمن مجلة الذخائر ع ٤] .
(٥) في أ ، ب ، س : ظله منك وافر . والمثبت من م .

لَـكَ اللهُ مَـوْلـيً جُـوْدُهُ مَـلأَ المَـلا فَرَوْضُ النَّدىٰ بالفَضْلِ زاهٍ وزاهِرُ
رَوىٰ خَبَرَ الإِحْسانِ عَنْكَ أُولو النُّهى وحَقَّقَـهُ عِنْـدَ الأَنـامِ التَّـواتُـرُ
فـلا عَـدِمَ الإِسْـلامُ شَخْصَـكَ كُلَّمـا تَـرَنَّـحَ غُصْـنٌ فَـوْقَـهُ نـاحَ طـائِـرُ

يُقَبِّلُ الأَرضَ ، ويُهَنِّىءُ نفسَه والأَنامَ والأَيّامَ ، ومَن خَطَّ الطُّروسَ ووشَّعَ بُرودَها بالأَقلامِ ، ومَنْ كتبَ الإِنشاءَ فآخىٰ من كلامهِ بينَ الجوهرِ في النِّظامِ[1] ، ومَن نَظَمَ قَريضَهُ فأَخْمَلَ في الخمائِلِ ساجِعاتِ الحَمامِ ؛ لأَنَّ مَولانا ـ بَسَطَ اللهُ ظِلَّهُ ـ بَرَكَةُ هذا الوُجودِ ، ومِن هَبّاتِ نَسيمِهِ يَنْشَقُ النَّاسُ عَرْفَ الهِباتِ والجُودِ .

ويُنْهي ما حصلَ له من الابْتِهاجِ [٤ ب] والسُّرورِ ، والهناءِ الذي التْحَفَ منهُ بالتُّحفِ وحَباهُ الحُبورُ ؛ فاللهُ تعالى يُديمُ أَيّامَ مَولانا التي هي أَمانٌ من الحوادِثِ والغِيَرِ ، وجَمالُ الكُتُبِ والسِّيَرِ ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ ، إِنْ شاءَ اللهُ تَعالى .

● **فكتب هو الجوابَ إِليَّ عن ذلك** : [من الطويل]

بِفَضْلِ صَلاحِ الدِّيْنِ سُرَّتْ سَرائِرُ وَوافَـتْ إِليهـا بـالتَّهـانـي البَشـائِـرُ
وبـالسَّبْـقِ مِنْـهُ حـازَ كُـلَّ فَضِيلَـةٍ فـإِحْسـانُـهُ والفَضْـلُ وافٍ ووافِـرُ
أَتـانـي كِتـابٌ منـهُ أَبْهَـجَ نـاظِـري حَكَى الرَّوْضَ رَوَّاهُ من السُّحْبِ ماطِرُ
حَوى من بَديعِ النَّظْمِ عِقْدَ بَلاغَةٍ لَـهُ جَـوْهَـرٌ مِـن طِـرْسِـهِ مُتَنـاثِـرُ[2]
وكَـمْ فيـهِ مـن مَعنـىً يَـروقُ بَـديعُـهُ فيا حُسْنَ ما أَمْلَتْ عليهِ المَحابِرُ
فأَعْجَزَني عن وَصْفِ ما قد حَواهُ من بَيـانٍ فَـوَصْفِـي عنـدَ ذلـكَ قـاصِـرُ
ولـم أَسْتَطِـعْ رَدَّ الجـوابِ لأَنَّنـي أُحـاوِلُ أَنْ تَـدنـو إِلـيَّ الـزَّواهِـرُ

---

(١) في م : بين الجواهر والنظام .
(٢) في س : × . . . في طرسه . . .

فَسامِحْ بِفَضْلٍ منكَ عَبْداً مُقَصِّراً فإِنَّكَ بالإِغْضاءِ للعَيْبِ ساتِرُ

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، لا زالَت مَطالِعُها مَشارقَ الأنوارِ ، ومَرابعُها مَراتِعَ التَّهاني ومَواطِنَ المَسارِّ ، ويُنْهي وُرودَ المُشَرَّفِ العالي ، المُشتملِ من جَواهِرِ البَديع على ما يُخْجِلُ زُهْرَ اللآلي ؛ فَقَبَّلَهُ المَمْلوكُ حينَ وافاهُ ، وأَجَلَّ مَحَلَّهُ حينَ تَلَقَّاهُ ، وكَلِفَ بِمَضْمونِهِ فكُلَّما انْتَهىٰ إِلى مُنْتهاهُ ، أَعادَ لَثْمَهُ وابْتداهُ ؛ وعَلِمَ ما تَفَضَّلَ بهِ مَولانا من تَهْنِئَةِ المَمْلُوكِ بالمَنْصِبِ الَّذي كان المملوكُ عنهُ بِفَضْلِ اللهِ في غِنىٰ ، والرُّتْبَةِ التي ما ازْدادَ المَملوكُ[1] بِها إِلاَّ التَّعَبَ والعَنا ، وتَحَقَّقَ المَملوكُ صَدقَةَ[2] مَولانا التي أَلِفَها قَديماً وآنِفاً ، ومَحَبَّتُه التي لم يَزَلِ المَملوكُ على مِثْلِها مُقيماً وبِمِثْلِها عارفاً .

وعِلْمُ مَولانا الكريمِ مُحيطٌ ، بأَنَّ المَملوكَ كان قد حُطَّ عنهُ واسْتَراحَ[3] وسَكَنَ ، وأَغْلَقَ الدُّكَّانَ ولَزِمَ الوَطَنَ .

فلمَّا اتَّفَقَ بعد ذلكَ للمَملوكِ ما اتَّفَقَ من المَقادِيرِ التي لا مَحيدَ عَنْها ، والأُمور التي - إِن سَخِطَ أَو رَضِيَ - لا بُدَّ منها ، ما أَمْكَنَهُ إِلاَّ التَّسْلِيمُ لِحُكْمِ اللهِ وأَمْرِهِ ، والرِّضا بِما قَدَّرَهُ من حُلْوِ القَضاءِ ومُرِّهِ ؛ ولَعَلَّ ذلك أَن لا يكونَ لِشَرٍّ قَضاهُ اللهُ ، بل لِخَيْرٍ قَدَّرَهُ ، ورِزْقٍ يَسَّرَهُ ، وأَجْرٍ ساقَهُ وقَرَّرَهُ .

والمملوكُ يَرجو أَن تكونَ الآخرةُ إِلى خَيرٍ ، فقد قَرُبَتِ المَنْزِلَةُ وَحُثَّ إِليها السَّيْرُ ؛ وقد تَقَلَّدَ المَملوكُ لمولانا هذا الإِحسانَ ، وهو يَعْتَذِرُ من التَّقصيرِ عن القِيامِ بِشُكْرِ هذهِ العَوارفِ الحِسانِ ؛ فلو كان بينَ يَدَي مَولانا لانْفَتَحَ لهُ من المَعاني كلُّ بابٍ ، واقْتَبَسَ من فَوائِدِهِ وفَرائِدِهِ ما يَنْظِمُه في سِلْكِ هذا

---

(١) في ب : وجه المملوك . وفي م : بها المملوك .

(٢) في ب : صداقة مولانا .

(٣) في م : وراح .

الجَوابِ ؛ وإِنَّما بُعْدُهُ عن فَضائِلِ مَولانا ، أَوْجَبَ لهُ الاعْتِرافَ بتَقْصِيرِهِ ، والتَّعويضَ بقَليلِ اللَّفْظِ عن كَثيرِهِ ، وما ثَمَّ غَيْرُ صَفْحِ مَولانا الجميلِ ، واللهُ يُبلغُهُ من الأَماني نِهايَةَ التَّأْمِيلِ ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ ، إِن شاءَ اللهُ تعالى .

● ولمَّا أَبْطَأَ عنِّي جَوابُهُ هذا ، لأَنَّ حامِلَهُ أَخَّرَهُ عِنْدَهُ ، كتبتُ أَنا كتاباً إِليه في هذا المَعنىٰ ، وافْتَتَحْتُهُ بقَولِ القائِلِ(١) : [من البسيط]

أَتَـمَّ سَعْـدَكَ مَـن لَقَّـاكَ أَوَّلَـهُ ... ولا اسْتَـرَدَّ حَيـاةً مِنْـكَ مُعْطيهـا

● فكتبَ هو إِليَّ الجوابَ : [من البسيط]

يـا مـالِكـاً لـم تَـزَلْ تَـأْتـي عَـوارِفُـهُ ... يُعِيـدُهـا كَـرَمـاً مِنْـهُ ويُبْـدِيهـا

وافـىٰ مُشَـرَّفُـكَ العـالـي فَقَبَّلَـهُ ... عَبْـدٌ لأَنْعُمِـكَ الـلاَّتـي تُـواليهـا

لا زِلْـتَ تَـرْقـىٰ إِلـى العَلْيـاءِ مَنْـزِلَـةً ... [٥ أ] لا يَسْتَطيـعُ مُـدانٍ أَنْ يُـدانيهـا

ولا بَرِحْتَ مَدىٰ الأَيَّامِ تَرْفُلُ في ... مَـلابِـسٍ مِنْـكَ بـالتَّقْـوىٰ تُحَلِّيهـا

يُقَبِّلُ الأَرضَ ، لا زالَت ساحاتُها تُقَبَّلُ وتُخْدَمُ ، وأَوصافُ مَحاسِنِها يُبْدأُ بِها الذِّكْرُ الجَمِيلُ ويُخْتَمُ ؛ ويُنْهي بعدَ دُعائِهِ الذي فَرْضُهُ عليهِ تَحَتَّم ، واعْتِدادُهُ بِمِنَنِهِ التي كلُّ ذي جُودٍ من كَرَمِها يَتَعلَّمُ(٢) .

٣ * إِبراهيم بن عليّ(٣) :

الشَّيخ بُرهانُ الدِّين ، المعروفُ بابن غُلامِ النُّوريّ(٤) ، وبالمِعمارِ ،

---

(١) البيت للمتنبي في ديوانه ٤/ ٢٦٨ .

(٢) كذا في أ ، ب ، س ، م . والرسالة ناقصة .

(٣) ترجمته في : أعيان العصر ١/ ١٤٦ والوافي بالوفيات ٦/ ١٧٣ وتعريف ذوي العلا ٦١ وفوات الوفيات ١/ ٥٠ وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٥٥٧ والدرر الكامنة ١/ ٤٩ والمنهل الصافي ١/ ١٨٨ والدليل الشافي ١/ ٣٢ وحسن المحاضرة ١/ ٤٩٤ .

(٤) تصحّف في تاريخ ابن قاضي شهبة إلى : ابن علاّم النُّوري ! .

وبالحَجَّارِ ، رحمهُ الله تعالى .

وفاته بالقاهرة سنة ٧٤٩ في طاعونِ مصر .

● **كتبَ إليَّ وقد وَرَدْتُ القاهرةَ في سنة ٧٤٥ في زمنِ المَلِكِ الصّالح إسماعيل بن الملِكِ النَّاصر محمَّد بن قَلاوون رَحمهم اللهُ أَجمعين**[١] : [من السريع]

وافىٰ صَلاحُ الدِّيْنِ مِصْراً فيَا نِعْمَ خَليلٍ حَلَّها بالفَلاحْ[٢]
فَلْيَهْنِها الإقْبالُ إذْ أَصْبَحَتْ بالمَلِكِ الصّالِحِ دارَ الصَّلاحْ

● **فكتبتُ الجوابَ إليه**[٣] : [من السريع]

خَليلُ في الشَّامِ هِلالٌ بَدا وبَدْرُ إبراهيمَ في مِصْرِ لاحْ[٤]
ذا كامِلٌ من حَيْثُ ذا ناقِصٌ وذاكَ بُرْهانٌ وهذا صَلاحْ

٤ * إبراهيم بن عبدِ الله بن عَسْكَر[٥] :

الأَديبُ الفاضِلُ ، الشَّيخ بُرهانُ الدِّين ، أَبو إِسحاق ، ابن الشَّيخ الإمام العلاَّمة شَرَف الدِّين ، القِيْراطيّ المِصْريّ .

---

(١) هما في أَعيان العصر ، والوافي ، والمنهل الصافي .
(٢) في م : × . . . بالصَّلاح ! .
(٣) هما في أَعيان العصر .
(٤) في م : خليل بالشام . . . × .
(٥) ترجمته في : الذيل على العبر ٢/٤٨٩ والعقد الثمين ٢/٢١٧ ودرر العقود الفريدة ١/٧٢ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٣/١٢ وإنباء الغمر ١/٣١٢ والدرر الكامنة ١/٣١ والمنهل الصافي ١/٨٩ والدليل الشافي ١/١٨ والنجوم الزاهرة ١١/١٩٦ وحسن المحاضرة ١/٤٩٤ وشذرات الذهب ٨/٤٦٥ .
وفي م : إبراهيم بن محمود بن عسكر ! ! .
ـ توفي بمكة سنة ٧٨١ هـ . ومولده سنة ٧٢٦ هـ .
ـ الترجمة ساقطة من س .

● لمَّا تُوفِّي شيخُنا شيخُ الإسلام قاضي القُضاة ، تَقِيُّ الدِّين ، أَبو الحسن ، عليّ السُّبْكِيُّ الشَّافعيُّ ، رثاهُ بقَصيدةٍ نُونيَّةٍ[1] ، فجهَّزها وَلَدُهُ ـ الشَّيخُ الإمامُ العلاَّمة بَهاءُ الدِّين ، أَبو حامد ، أَحمدُ ـ إليَّ ، قَرينَ ما رُثِيَ به ، فكتبتُ الجوابَ إليه ، وقلتُ عند ذِكْرِ القَصيدةِ : [وأَمَّا نُونِيَّة سيِّدنا الشَّيخ بُرهان الدِّين القيراطي ،][2] فإِنَّ المملوكَ وازَنَ بِقناطيرِهِ قِيْراطَها ، وأَهدىٰ منها إِلى الرُّؤوسِ والآذانِ تِيْجانَها وأَقْراطَها ؛ وقال : [من السريع]

وَزَنْتُ أَهْلَ النَّظْمِ في عَصْرِنا ... مِن غَيْرِ إِجْحافٍ وإِسْقاطِ
فَأَهْلُ مِصْرَ عِنْدَ وَزْني لَهُمْ ... زادُوا على الدُّنْيا بِقِيْراطِ

فَنُونُها يَسْبَحُ من فُنُونِها في يَمٍّ ، ويَحْكِي لمن غابَ عن المَأْتَمِ ما تَمَّ ، واللهُ يُمْتِعُ الآدابَ بهذهِ الفَوائِد الغَضَّةِ ، ولا يُؤاخِذُهُ بِما صَنَعَتْ بِنا بِنْتُ فِكْرِهِ ، فإِنَّها جَمَعَتِ الأَحْزانَ وجَعَلَتِ الدُّموعَ مُرْفَضَّةً .

● **ثمَّ إِنَّ جوابَ الشَّيخ بهاءِ الدِّينِ عادَ مَعطوفاً على قَصيدةٍ نَظَمَها الشَّيْخُ بُرْهانُ الدِّين القِيْراطيّ** : [من السريع]

يا حاكِماً عُدِّلَ أَقْوالُهُ ... فلمْ تُرَعْ يَوماً بِإِسْقاطِ
أَقَمْتَ لِلشِّعْرِ عَموداً لَهُ ... بِأَرْضِ مِصْرَ أَيَّ فُسْطاطِ
بَناتُ أَفْكارِكَ فيهِ غَدَتْ ... مَصُونَةً عن شُبَهِ الواطي
تَسْمو قَوافيهِ فَيَخْتَطُّها ... مِن فِكْرِكُمْ عَزْمَةُ مُحْتاطِ
لَجَجْتَ في أَبْحُرِهِ سابِحاً ... إِذْ وَقَفَ النَّاسُ على الشَّاطي
حلَّى لَنا مِصْرَ وقد حَلَّها ... مِن دُرَرِ النَّظْمِ بِأَسْماطِ

---

(١) القصيدة في طبقات السُّبكي ١٠/ ٣٣١ ـ ٣٣٣ .

(٢) ما بين معقوفين من ط . وفوق كلمة (فإِنّ) في الأَصل إشارة استلحاق ، وليس في الهامش شيءٌ ، فلعله نسي .

جَــزَّارُهــا أَمْسَــتْ تَقــاطِيفُــهُ
تُــدعــى وقــد بــارَتْ بــأَسْقــاطِ

مُـذْ جـاءَهـا مِنْـكَ القَـريـضُ الـذي
يَخْشـىٰ مُضـاهيـهِ سُطـا السّـاطـي

كـانَ الـرَّبيـعُ الطَّلْـقُ وافـى لَهـا
فَشُنِّفَـــتْ مِنْـــهُ بِـــأَقْـــراطِ

لَـــو شَهِـــدَ الـــوَرّاقُ تَحْبِيـــرَهُ
بَـــرىٰ لَـــهُ أَقْـــلامَ خَطّـــاطِ

أَو سَـــرَّحَ الحِلِّـــيُّ فـــي رَوْضِـــهِ
طَـرْفـاً أَبـىٰ تَقْـرِيـظَ أَمْشـاطـي

حَلْـيٌ وحَلْـوىٰ كـم شَـدَدْنـا لَـهُ
مَنـــاطِـــقَ الشُّكْـــرِ بِـــأَوْســـاطِ

مَقْبُـــولُ أَعْمـــالِـــكَ فِيـــهِ رَمـــىٰ
أَعْمـــالَ أَقْـــوامٍ بـــإِحْبـــاطِ

طُفْـتَ وطـافَ النّـاسُ بَيْـتَ العُـلا
فَفُتَّهُـــمْ سَبْقـــاً بِـــأَشْـــواطِ

قالَ العِدىٰ : أَفْرَطْتَ في مَدْحِهِ
فَقُلْـتُ : هـذا فَـوْقَ إِفْـراطـي

إِن نَثَـــرَ الـــدُّرَّ لنـــا نـــاظِمـــاً
قُلْنـا لَـهُ : يـا خَيْـرَ لَقّـاطِ

أَو شُبِّهَـــتْ بِـــالبِيْـــضِ أَقْـــلامُـــهُ
فَغَيْـــرُهـــا يُـــدْعـــىٰ بِمِشْـــراطِ

أَصـابَ أَغْـراضـاً تَسـامَـتْ فَـلا
تَـدْنُـو إِليهـا خُطْـوَةُ الخـاطـي

[٥ ب] سـاءَ مِـزاجُ النّـاسِ أَو خِلْتُهُـمْ
قـــد طُبِعـــوا مِـــن شَـــرِّ أَخْـــلاطِ

عـن شُغُـلِ الخَيْـراتِ قَـد أَصْبَحُـوا
أَفْـــرَغَ مِـــن حَجّـــامِ ســـابـــاطِ(١)

أَفْـدي مَـراثيـكَ التـي صُغْتَهـا
فـي عـالِـمٍ حَبْـرٍ بِـأَقْسـاطِ(٢)

قـالَـتْ لَنـا السّـاعَـةُ لَمّـا قَضـىٰ :
مَصْـرَعُ ذا مِـن بَعْـضِ أَشْـراطـي

مَضـىٰ إِمـامـاً لِلْـوَرىٰ حُجَّـةً
وفـازَ فـي الخُلْـدِ بِـأَنْمـاطِ

ونـاطَ بـي حُـزْنـاً ثِيـابَ الأَسـىٰ
فـاليَـوْمَ ذاتـي ذاتُ أَنْـواطِ(٣)

---

(١) حجّام ساباط: يُضربُ به المثل في الفراغ، يُقال : أَفرغ من حجّام ساباط. (ثمار القلوب ١/ ٣٧٧).

(٢) في ب : × جرّ بإسقاط .

(٣) ذات أنواط : شجرة عظيمة خضراء ، كانت قريش ومَن سواهم من الكفّار من العرب يأتونها كلَّ سنةٍ ، فيعلّقون عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عندها يوماً . (ثمار القلوب ١/ ٤٦٠ و٢/ ١٠٠٥) .

وعامُنا في مِصْرَ مِنْ أَجْلِهِ ... عامُ ابْنِ هَمَّامٍ بِدِمْياطِ[1]
اغْضِ صَلاحَ الدِّينِ يا سَيِّداً ... مُنْتَخَباً مِن خَيْرِ أَسْباطِ
فَمِصْرُ قالَتْ للشّآمِ ارْجَحي ... بِسَيِّدٍ لِلنَّجْمِ حَطَّاطِ
جَميعُ أَجزائي غَدَتْ دُونَهُ ... كيفَ أُساويهِ بِقِيْراطِ
ما لِلمثاقيلِ إذا وازَنَتْ ... دُرّاً وَتِبْراً غيرَ أَقْساطِ
رِضاكَ عمَّا قُلْتُ يا سَيِّدي ... يُسْخِطُ ضِدِّي أَيَّ إِسْخاطِ
أَرْقَصَني مُطْرِبُهُ فَرْحَةً ... بَيْنَ بَني الدُّنْيا بآباطي

● **فكتبتُ أَنا الجوابَ إِليهِ عن ذلك :** [من السريع]

غَيْداءُ ما احْتاجَتْ لِمَشّاطِ ... أَم دُرُّ بَحْرٍ ما لَهُ شاطي
أَو رَوْضَةٌ فَيْحاءُ أَمْ حُلَّةٌ ... مِن رَقْمِ تِنِّيسٍ ودِمْياطِ
أَمْ شِعْرُ مَنْ زادَتْ قَناطِيرُهُ ... فَضْلاً وقد سُمِّي بِقِيْراطي
نَعَمْ وإِلاَّ لَيْسَ ذا دارِجاً ... في حُكْمِ إِدْراجٍ وإِسْقاطِ
فالحَبَّةُ انْضافَتْ إِلى أُخْتِها ... كَأَنَّها مِن خَرْطِ خَرَّاطِ
مُحْكَمَةُ الأَلْفاظِ مِنْ أَجْلِها ... قَدْ سَقَطَتْ حِكْمَةُ سُقْراطِ
لو دَخَلَتْ سَمْعَ أَبُقْراطِ ها ... جَنَّتْهُ وَحَلَّتْهُ بِأَقْراطِ
تَشَعَّبَتْ فيها مَجارٍ من الـ ... آدابِ تَحْتاجُ لِقُنْياطِ[2]
يا خَجْلَتي مِنْها وقد بَيَّنَتْ ... في النَّظْمِ أَوْهامي وأَغْلاطي
وَصَحَّ عِنْدي أَنَّ كُلَّ الذي ... عَمِلْتُهُ اخْتَصَّ بِإِحْباطِ
وكنتُ من نَظْمي أَرىٰ أَنَّني ... أَرْفُلُ منهُ في سَكِرْلاطِ[3]

---

(١) الإشارة إلى الحارث بن همّام بطل مقامات الحريري في المقامة الدّمياطيّة ، وما عاناه في دمياط ، عام هياطٍ ومياطٍ . (مقامات الحريري ٢٥ وشرح المقامات للشريشي ١٥٨/٢) .

(٢) في ب : . . . بحارٌ من الـ× . وفي م : ×تحتاج لقناط .

(٣) لعلّ السّكرلاط ضربٌ من الثياب .

حَتَّىٰ أَتَتْني وإذا مِعْطَفي ... يَلْتَفُّ في بُرْنُسٍ بُرْناطِ[1]
زَفَفْتُها خَوْداً إلى جِلَّقٍ ... في خَلَقٍ شَقَّتْ وأَسْماطِ
حُلَّتُها جَلَّتْ فَما مَسَّها ... راحَةُ رَفَّاءٍ وخَيَّاطِ
وشِعْرُها شَعْرُ فَتاةٍ سَما ... عن كَفِّ مَحَّارٍ وأَمْشاطي
أَمَّا السِّراجانِ فقد أَصْبَحا ... قُدَّامَها في زِيِّ نَقَّاطِ[2]
وابنُ الحَريريِّ مَقاطِيعُهُ ... أَكْسَدُ من مَقْطَعِ سُنْباطِ[3]
وكُلُّ مِصْرِيٍّ مُصِرٌّ على ... فَضْلِكَ من عُرْبٍ وأَقْباطِ
وكُلُّ شامٍ شامَ مِنْكَ السَّنا ... وغارَ حتَّىٰ كُلُّ غَرْناطي
فاحْفَظْ لآلي النَّظْمِ إنْ جُزْتَ في الْـ ... ـقَصْرَيْنِ من غِيْلَةِ بَطَّاطِ
لا تَمْشِ إلاَّ باحْتِرازٍ عَلىٰ ... نَظْمِكَ من لِصٍّ وشَرَّاطِ
كيفَ أُجارِي في المَعالي لِمَنْ ... أَناتُهُ تَسْبِقُ أَشْواطي
ولو رأَىٰ تلكَ وذي حاكِمٌ ... ما ارْتابَ في الحُكْمِ بِإِسْقاطي
لو شِئْتَ جَبْرِي في جوابي لها ... لكانَ في عِدَّةِ أَسْفاطِ
فَخُذْ فهذا بَعْضُ ما عُقِّنَتْ ... وخُزِنَتْ في الذِّهْنِ أَخْلاطي
لا أَنْسَ ما قد أَذْكَرْتَني بِهِ ... من فَقْدِ جَبْرٍ جِدِّ مُحْتاطِ
يَلْقُطُ بالذَّوْقِ الذي عِنْدَهُ ... مَتْنَ الأَحادِيثِ بِمِلْقاطِ
ويُخْرِجُ الأَحْكامَ مِن ضِمْنِها ... والماءُ يَحْتاجُ لإِنْباطِ

---

(١) في م : × . . . بُرلاط .

(٢) السِّراجان : الأوّل : عمر بن محمد بن حسن ، سراج الدّين الورّاق ، الشاعر المشهور ؛ توفي سنة ٦٩٥ هـ . (فوات الوفيات ٣/ ١٤٠) .
والثاني : عمر بن مسعود الأديب ، سراج الدّين المحار الحلبي ، صاحب الموشحات والأَزجال ؛ توفي سنة ٧١١ هـ . (فوات الوفيات ٣/١٤٦) .

(٣) الحريري : صاحب المقامات ، مشهور .

إنْ قـالَ فـالنّـاسُ سُكـوتٌ لَـهُ كـأنَّهُـمْ أَبْنـاءُ أَنْبـاطِ
يَمْشـي إِلـى الجَنّـاتِ بـالعِلْـمِ فِـي سُـرادِقٍ مـن فَـوْقِ أَنْمـاطِ
عَليـهِ مـن خَـلاّقِـهِ رَحْمَـةٌ تَضيـقُ عَنْهـا خُطْـوَةُ الخـاطِـي

وجَهَّزتُ هذه القَصيدةَ طَيَّ كتابٍ إِلى الشَّيخِ الإمامِ بَهاءِ الدِّين أَبي حامِدٍ ، وكتبتُ عند ذِكْرِ هذه القَصيدة :

وانتقلَ المملوكُ إلى القَصيدةِ الطّائيَّةِ والبَلاغَةِ الطّائِيَّةِ ، فلو أَنَّ الطّائِيَّين[1] حَيّانِ لَسَلَّما قبلَ أَنْ سَلَّما ، واعتَرفا لِشاعِرِنا بالفَضْلِ ونَدِما على كُلِّ ما كَلَّما ، ولو كانَتْ هذه الطّاءُ حَرْفَ الرّاءِ ، لما زادَتْ على هذه العِدَّةِ ، ولا أَذْعَنَتْ لِناظِمِها وجاءَتْهُ في جِدَةِ هذا الرَّوْنَقِ والجِدَّةِ .

يا مولانا ، هذا [٦ أ] الشَّيْخُ بُرهانُ الدِّينِ ، نَكَتَ حرفَ الطّاءِ ، أَخذ جميعَ ما فِيهِ من النُّكَتِ ، وعَلِمَ أَنَّ الذي يُجارِيهِ إِنْ أَفْلَحَ جاءَ سُكَيتاً وسَكَتَ .

أَمّا قولُهُ : مِصْرٌ وفُسْطاطُ ، فلم يُمَرَّ بالمَملوكِ مثلُها ، ولا فاءَ عليهِ ظِلُّها .

وأَمّا تَقاطِيفُ[2] الجزّارِ[3] وأَسْقاطُهُ ، فلو كانَ حَيّاً صَحَّ حَذْفُهُ من هذه الصِّناعةِ وإِسْقاطُهُ .

وأَمّا ذِكْرُهُ الأَقْراطَ مع الرَّبيعِ والتَّشنيفِ ، فَصِناعةٌ فائِقَةٌ في النَّظْمِ والتَّصنيفِ .

وأَمّا تَسْريحُ الحِلِّيِّ وتَقْرِيظُ الأَمْشاطي ؛ فهذا قولُ مَنْ خاضَ لُجَّةَ هذا الفَنِّ ، وتَرَكَ النّاسَ على الشّاطي .

---

(١) هما أَبو تمام والبحتري .
(٢) في م : تقاطيع .
(٣) الجزّار : أَبو الحسين ، يحيىٰ بن عبد العظيم بن يحيىٰ ، الشاعر المشهور ؛ توفي سنة ٦٧٩ هـ . (فوات الوفيات ٤/ ٢٧٧) .

وأَمَّا الأَوْساطُ والشَّدُّ مع الحَلوىٰ ، فما يجدُ المَملوكُ ولا غَيرُهُ صَبْراً على هذِهِ البَلْوىٰ .

وأَمّا أَنَّهُ يأْخُذُ المَثَلَ مَوْزوناً في حَجّامِ ساباطِ ، فهذا أَسْعَدُ عَمَلٍ مُنَزَّهٍ عن الإِحْباطِ .

وأَمّا عامُ ابنِ همَّامٍ بدِمْياطِ ، فقد زادَ إِعْجابي بهِ في الإِفْراطِ .

وأَمّا الرَّقْصُ بالآباطِ فَرْحَةً ، فَأَمْرٌ ما يَحتاجُ الحُسْنُ شَرْحَهُ .

وما كانَ المَملوكُ مع هذه النُّكَتِ الأَدبيَّةِ ، إِلاَّ أَنَّهُ جَرىٰ على عادةِ الكُتَّابِ في سَدِّ المَخْزومَةِ ، وبعثَ بجوابِ أَلفاظِهِ مع الاعْترافِ مَرْحُومةً ، وإِنْ كانَتْ من الحُسْنِ مَحْرومةً ؛ ولكنَّ المَملوكَ واثِقٌ بِأَنَّ مَولانا يَسُدُّ خَلَلَها ، ويُبْرِدُ غُلَلَها ، ويُبْرِىءُ عِلَلَها ؛ ولولا أَنَّ مَولانا واسِطَةُ هذه الوَساطَةِ ، لَما أَجابَ ، وضَرَبَ بينَهُ وبينَ المُجاراةِ أَلْفَ حِجابٍ ، ولكن هي في خَفارَةِ إِحْسانِهِ ، وإِنارَةِ زَهْزَهَتِهِ لها واسْتِحْسانِهِ ؛ إِن شاءَ الله تعالى .

٥ * أَحمد بن إسماعيل[١] :

الصَّدْرُ شِهابُ الدِّينِ المصريّ ، المعروفُ بِسُمَيْكَة .

● **كتبَ هو إِليَّ لمَّا قَدِمْتُ إِلى القاهرة في سنة ٧٤٥ :** [من الرمل]

أَرْضَ مِصْـرَ اسْتَبْشِـرِي ثـمَّ ابْشِـرِي ... فَلَقَـدْ فُقْـتِ علـى كُـلِّ الأَراضـي[٢]
إِذْ بِـكِ الغَـرْسُ زَكَـتْ أَفْنـانُـهُ ... فاضْحَكي زَهْواً على غَيْظِ الغِياضِ

---

(١) ترجمته في : الدُّرر الكامنة ١/٣٤٥ . وفيه : أَحمد ، الأَديب المصري النّادريّ ، المعروف بسُميكة . . . وكان كثير الإِسراف على نفسه ، وانصلح قبيل موته وأَقلع ، إِلى أَن مات في الطاعون العامّ عام ٧٤٩ هـ .

(٢) في م : . . . أَبشري واستبشري × .

● **فكتبتُ أنا إليهِ** : [من الرمل]

أَحْــــرُفٌ أَمْ زُخْــــرُفٌ أَمْ زَهَـــرُ راقَ لِـلأَعْيُـنِ فـي وَسْـطِ الـرِّيـاضِ
مــا رَأَتْ عَيْنــايَ خَطَّــاً أَسْــوداً قَـطُّ أَحْلـىٰ مِنْـهُ فـي ذاكَ البَيـاضِ

٦ * أَحمد بن بَلْبان[١] :

الشَّيخُ الإمامُ الفاضِلُ ، شِهابُ الدِّينِ ، ابن النَّقيبِ ، الشَّافعيّ .

مُفتي دارِ العَدْلِ الشَّريفِ ، ومُدَرِّسُ العادِلِيَّةِ الصَّغيرَةِ[٢] وغَيرها بالشَّامِ المحروسِ .

● **كتبتُ إليهِ من الرَّحْبَةِ المحروسَةِ ، أَوَّلَ قُدومي إِليها في سنة ٧٢٩[٣] أَسأَلُه عن خَبَرِ جَماعةٍ مِن الأَصحابِ بالقاهرةِ المحروسَةِ ، من جُمْلَةِ كِتابٍ[٤]** :

[من المتقارب]

رَحَلْــتُ وفــي مِصْــرَ لــي ســادَةٌ يَطُــولُ عَنــائي بِهِـمْ واكْتِئــابــي
جَفَــوْنــي وضَنُّــوا بِــأَخْبــارِهِـمْ فَـأَصْبَحْـتُ أَطْلُبُهـا مـن صِحـابـي
عَســـىٰ خَبَـــرٌ عَنْهُـــمُ صـــادِقٌ أُطـــالِعُـــهُ مِـــن كِتــابِ الشِّهــابِ

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ١/ ٢٠١ وذيول العبر ٣٦٣ والبداية والنهاية ١٨/ ٦٧٩ ودرر العقود الفريدة ١/ ٣٤٨ والوفيات لابن رافع ٢/ ٣٨٥ وتعريف ذوي العلا ٢١١ وغاية النهاية ١/ ٤١ والدرر الكامنة ١/ ١١٥ وإِنباء الغمر ١/ ٢١ والذيل على العبر ١/ ١٣٠ وطبقات الشافعية للسبكي ٩/ ١٨ والذيل التام ١/ ٢٥٥ والدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٢٤ وشذرات الذهب ٨/ ٣٤٢ .
ـ وفاته سنة ٧٦٤ هـ . ومولده سنة ٦٩٤ هـ .
ـ نقل ابن حجر في الدرر الكامنة عن ابن سندٍ قولَه : كان اسم أَبيه بلبان ، فغيَّره عبد الرَّحمن .
قلت : وسمّى جدَّه عبد الرَّحيم ، على معنى أَنَّ النَّاس كلّهم عبيد ربِّ العالمين .
ثم ترجم له ثانية في : أَحمد بن عبد الله البعليكي (الدرر ١/ ١٩٠) .

(٢) المدرسة العادليّة الصُّغرى : داخل باب الفرج ، شرقي باب القلعة الشرقي . (الدارس ١/ ٣٦٨) .
وموقعها الآن في سوق العصرونية بدمشق .

(٣) في س : ٧٣٩ . وفي ب ٧٦٩ ! والمثبت من أ .

(٤) الأَبيات في أَعيان العصر .

● **فكتبَ هو الجوابَ إليَّ** : [من المنسرح]

يا غَرْسَ ذي العَرْشِ لا شَريكَ لَهُ   أَنْبَتَــــكَ اللهُ ثـــمَّ لا حَصَـــدَكْ
أَلـومُ مَن يَـرْتَجِـي لَحـاقَـكَ فـي الْـ   ـمَجْدِ كَما لا أَلُومُ مَن حَسَدَكْ[1]
جـاراكَ أَهْـلُ العَـلاءِ فـانْقَطَعَـتْ   أَنْفـاسُهُـمْ قَبْـلَ قَطْعِهِـمْ أَمَـدَكْ

حَرَسَ اللهُ نُقودَ فَضْلِهِ المَطبوعَةَ ، وغَرَسَ لهُ في القُلوبِ مَوَدَّةً كَثِمارِ الجَنَّةِ ، غيرَ مَقْطُوعَةٍ ولا مَمْنُوعَةٍ ، ويُنْهي ـ بعدَ دُعاءٍ يَستغرِقُ أَوقاتَ فِكْرِهِ ، ووَلاءٍ [٦ ب] يقومُ مَقامَ شُكْرِهِ ، وثَناءٍ لا يُكَرِّرُهُ لاحْتِياجِ مَولانا إِليهِ ، ولكنْ لَذَّةً بِذِكْرِهِ ـ وُرودَ مِثالِهِ الكَريمِ ، وقد راقَ مَنْظَرُهُ ، وفاقَ خُبْرُهُ وخَبَرُهُ ، وهو الذي اشتملَ حقيقةً على الإِحسانِ والمحاسِنِ ، وأَشْبَهَ الحبيبَ في ظَرْفِهِ وطَرْفِهِ ؛ فَلا عَجَبَ أَنَّ القلبَ لِبُعْدِهِ آسٍ ، والدَّمْعُ آسِنٌ[2] : [من السريع]

عـارَضَ بـالإِحْسـانِ حُسْنـاً لَـهُ   لا يَبْلُـغُ الـوَصْـفُ مَـدى كُنْهِـهِ
لَيْـسَ لَـهُ عَيْـبٌ سِـوى أَنَّـهُ   لا تَقَـعُ العَيْـنُ علـى شِبْهِـهِ

لا كما وصفَ به مولانا كتابَ المملوكِ ، وأَخذَ بِهِ في طُرُقِ التَّهَكُّمِ عندَما سَلَكَ بِهِ ذلكَ السُّلوكَ[3] ، وكَشَّرَ حينَ شَبَّهَهُ بالدُّرِّ ، وقد أَحاطَ بالأَعْناقِ في السُّلوكِ[3] ، وأَظنُّ مَولانا قصدَ تَنْبيهَ المملوكِ على الأَدبِ مع أَهلِ الأَدَبِ ، وَطَلَبَ هذا الأَمْرَ مع الطُّلاَّبِ ، وما كلُّ وَقْتٍ يَنجَحُ الطَّلَبُ ؛ والرُّجوعَ إِلى زيدٍ وعَمرٍو ، فما هذا ممَّا يَحصلُ بالاشتغالِ بكلامِ العَرَبِ .

يا مولانا ، قد فهمَ المملوكُ الإِشارةَ ، وامتثلَ للإِمارةِ[4] ؛ وهو يَستغفرُ

---

(١) في م : . . . في الفضل . . . .
(٢) البيتان لابن الرومي ، في ديوانه ٦/٢٦١٧ .
(٣) ما بينهما ساقط من م بسبب انتقال النظر .
(٤) في أ : للإشارة ! وفي س : للإسارة . والكلمتان ساقطتان من م .

اللهَ تعالى من التَّلْطِيخ[1] على هذا الفَنِّ البَديع ، الذي ما عَرَفَ منهُ غَيرَ الاسْتِعارَةِ ، فقابَلَهُ بالتَّقْبيلِ على العادَةِ ، وعَرَفَ كَيفَ تكونُ الإجابَةُ والإجادَةُ ، فَسَقىٰ اللهُ رياضَ هذِهِ اليَراعةِ ، التي ما رأىٰ المملوكُ أَحْلىٰ من ثِمارِ غَرْسِها ، ورَعى عُهودَ هذه البَراعَةِ ، التي ما شاهَدَ أَجْلَىٰ من مَرُوضِ طِرْسِها .

فلقد فتَكَتْ أَبْكارُ مَعانيها بالألْباب، فَعَدِّ عن المُدامِ يُصَفِّقُ بالرَّحيقِ، وفتَنَتِ القَلْبَ المُؤْمِنَ إلاَّ أَنَّ لهُ منها عَذابَ جَهَنَّمَ وعَذابَ الحريقِ ، واسْتَوْقَفَتِ النَّواظِرَ بِبَدائِعِ حُسْنِها ، والخَواطِرَ بِبَدائِهِ[2] إحْسانِها ، فَعَدَلا عن بُنَيَّاتِ الطَّريقِ[3] :

[من الكامل]

وَحَديثُها السِّحْرُ الحَلالُ لَو انَّهُ ... لَمْ يَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ
إنْ طالَ لَمْ يُمْلِلْ وإنْ هِيَ أَوْجَزَتْ ... وَدَّ المُحَدَّثُ أَنَّها لم تُوجِزِ
شَرَكُ العُقولِ وفِتْنَةٌ ما مِثْلُها ... لِلْمُطْمَئِنِّ وعُقْلَةُ المُسْتَوْفِزِ

فأَمَّا ما تَصَدَّقَ بِهِ من وَصْفِ أَشْواقِهِ ومَكارِمِهِ إلى غيرِ ذلكَ ، فقد شَكَرَ المَملوكُ لِمَولانا هذهِ العَوارِفَ ، وَذَمَّ أَيَّاماً أَضاعَ المَملوكُ فيها زَهْرَ الآدابِ من غَرْسِ ظِلِّهِ الوارِفِ ، ونَدِمَ حيثُ لا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ على ما فَرَّطَ في جانِبِ تلكَ المَعارِفِ ؛ ولكنْ ما شاهَدَ المَملوكُ كَتَعاسَتِهِ في تلكَ الأَيَّامِ ولا كَحَظِّهِ النَّاقِصِ، ولا سَمِعَ بِأَعْثَرَ من جَدِّهِ فيها وهو على الأَعْقابِ ناكِصٌ[4] : [من الكامل]

وإذا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَحْروماً أَتىٰ ... ماءً لِيَشْرَبَهُ وغاضَ فَصَدِّقِ

فقد يَجمعُ اللهُ الشَّتيتَيْنِ[5] ، وقد يَطْوي اللهُ للبعيدِ الأَمَلِ شُقَّةَ البَيْنِ .

---

(١) في م : من التطليح . والتَّطليح : الإلحاح . ولعلها أنسب من التلطيخ في هذا المقام .

(٢) في أ ، م : بدائع !.

(٣) الأبيات لابن الرومي ، في ديوانه ٣/ ١١٦٤ والمستطرف ٢/ ١٨٣ .

(٤) البيت للإمام الشافعي ، في ديوانه ٥٤ (بيجو) .

(٥) من بيت المجنون ، في ديوانه ٢٩٣ و٣١٥ : =

● فكتبتُ أنا الجوابَ إليه :

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ويَستمرُّ على وَلائِهِ الذي لم يَحْتَجْ ـ إِذْ يُحْتَجُّ بِهِ ـ إلى بُرهانِ تأْييدٍ ولا تأْييدِ بُرْهانٍ ، ولم يَعْتَزِ ـ إِذْ يُعْتَزُّ بِهِ ـ عَوْنَ أَنْصارٍ ولا نَصْرَ أَعْوانٍ ؛ وثَنائِهِ الذي يَتَرَنَّحُ لهُ الغُصْنُ ويَتَرَنَّمُ لهُ[1] الطّائرُ ، ويَتَغَنّىٰ بِهِ الرّاكِبُ ويَتَغَنَّمُ السّائرُ : [من السريع]

لا طـــابَ لِلْمِسْـــكِ شَـــذا نَفْحِـــهِ   إِنْ كانَ أَذْكىٰ من ثَنائي عَليكْ[2]

ويُنْهي وُرودَ [٧ أ] المُشَرَّفِ العالي ، فَقَرَنَ وُفودَهُ بالإِفادَةِ ، وجُودَهُ بالإِجادَةِ ، وأَبانَ الضُّرَّ وأَبادَهُ وأَعانَ الصَّبْرَ وأَعادَهُ ؛ فكم في أَلفاظِهِ من فاكِهَةٍ لَذيذَةٍ وشَرابٍ ، وكم في وَصْلِ خَطِّهِ من حِكْمَةٍ وفَصْلِ خِطابٍ ؛ قد قُسمَ الحُسْنُ بينَ لَفْظِهِ وَمَعْناهُ ، واقْتَصَرَ الجَمالُ على مَجموعِهِ ، فما تَخَطّاهُ حَرْفاً ولا تَعَدّاهُ ؛ فأَينَ نَقْصُ ابنِ زَيدونَ في الأَدَبِ عن كَمالِهِ ؟ وإِخْلالُ ابنِ أَبي الخِصالِ من خِلالِهِ ؟ وأَينَ عَطَلُ صاحِبِ القَلائِدِ من « عُقودِهِ » ؟ وحَوالَةُ ابنِ الصَّيْرَفيِّ في نُقودِهِ ؟ وأَينَ قُصورُ الفاضِلِ من تَفَنُّنِه ؟ وَوَهْنُ العِمادِ من تَمَكُّنِه ؟ هَيهاتَ ، ما لابْنِ شُهَيْدٍ حَلاوَتُهُ ، ولا لِصاحِبِ « المُرْقِصِ والمُطْرِبِ » تِلاوَتُهُ ، فلو رَآهُ ابنُ بَسّامٍ عَبَسَ وقَطَبَ ، وجلسَ بينَ يَديهِ وَتَأَدَّبَ ، ولو عايَنَهُ البَديعُ كَفَّ ما نَشَرَ مِن إِنشائِهِ ، ورَمىٰ قَلَمَ المُكاتَبَةِ بِداية َ وانْسَلَّ بِدائِهِ : [من الطويل]

إِذا كـانَ هـذا شَأْنُ مَنْ قَـدْ ذَكَـرْتُـهُ   فَما قَدْرُ وَصْفِي في نِظامٍ وفي نَثْرِ
وَمَنْ كانَ مَعْدوداً مع الشُّهْبِ العُلا   فَيا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ يُدْرِكُهُ شِعْرِي ؟

= وقـــد يجمـــعُ اللهُ الشَّتيتَيـــنِ بعـــدَمـــا   يَظُنّـــانِ كـــلَّ الظَّـــنِّ أَنْ لا تَـــلاقِيـــا

(١) له ؛ من م .

(٢) في أ : . . . ذا لفحة × ! . وفي م : إِذاً نفحه × . وهي رواية جيدة .

واللهُ يُمْتِعُ أَبْناءَ الأَدَبِ بهذِهِ الفَضائِلِ ، ويَزيدُهُم بِبَقاءِ مَولانا كَريمَ أَخْلاقٍ ولُطْفَ شَمائِلَ ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

٧ * أَحمد بن الحسن بن محمَّد(١) :

مُجير الدِّين الخيّاط ، الشّاعر الدِّمَشقيّ .

● كتبَ هو إليَّ في سنة ٧٣١ فكتبتُ أَنا إِليهِ الجوابَ :

وقفَ المملوكُ على القَصيدةِ التي أَضْحَتْ بُيوتُها كالقُصورِ ، وأَلفاظُها طالَتْ على أَبْناءِ الزَّمَنِ لِما عِنْدَهُم من الفَتْرَةِ والقُصورِ ، وكلماتُها أَحاطَت بمَعانيها إِحاطَةَ الهالاتِ بالشُّموسِ والدّاراتِ بالبُدورِ ؛ فَنَظَرَ إِلى الحَسناءِ التي غَلا مَهْرُها ، وَعَلا قَدْرُها ، وغَلَبَ أَمْرُها ، وخَلَبَ سِحْرُها ، وطابَ نَشْرُها ، وطالَ بِشْرُها(٢) ؛ وقلبَ وَجْهَهُ في سَماءِ حُسْنِها ، واعترفَ بالعَجْزِ عن تَساوي أَلفاظِهِ بِوَزْنِها ؛ ونَظَرَ فِكْرُهُ في نُجومِ أَلْفاظِها للمُعارضَةِ فقالَ : إِنِّي سَقيمٌ ، وعَوَّذَ حاءَ قافِيَتِها وميمَ مَلاحَتِها بحَم ؛ فكم فيها من أَلِفٍ هيَ كالغُصْنِ الرَّطِيبِ ، وعَيْنٍ كالطَّرْفِ الفاتِرِ من الشّادِنِ الرَّبيبِ ، وميمٍ كأَنَّهُ سُرَّةُ كاعِبٍ أَوْ مَبْسَمِ حَبيبٍ ؛ وَجَلالَةٍ أُعيذُ طِرْسَها بالبُرْدَةِ وقَلَمَها بالقَضِيبِ ؛ وعَلِمَ أَنَّ بَحْرَها لِفَضْلِ مَولانا مَديدٌ(٣) ، وَتَيَقَّنَ أَنَّهُ أَرادَ الإِعْجازَ فَحَصَلَ لَهُ ما يَطْلُبُ وتَمَّ له

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر : ١/ ٢١١ والوافي بالوفيات ٦/ ٣٣٢ وتذكرة النبيه ٢/ ٢٥١ والمنهل الصافي ١/ ٢٨٢ والدليل الشافي ١/ ٤٤ والدرر الكامنة ١/ ١٢٢ .
ـ في م : . . . ابن الخياط .
ـ توفي سنة ٧٣٥ هـ ، وقد قارب السَّبعين أَو تجاوزَها (الصفدي) . وقال ابن حبيب : مولده سنة ٦٦١ هـ .

(٢) في أ ، س ، م : وطال برّها .

(٣) قال المؤلف في الوافي : وكان قد كتبَ إِليَّ أَبياتاً في بحر المديد ، ولم يحضرني الآن نسختُها ، وكتبتُ جوابها نظماً ونثراً .

ما يُرِيدُ ، على أَنَّهُ حاوَلَ الجوابَ فقال فِكْرُهُ العاجِزُ : مُكْرَهٌ أَخاكَ لا بَطَلٌ[1] ؛ ورامَ النُّزولَ بينَ بُيوتِها فتَذَكَّرَ[2] : [من الرمل]

إِنَّ بِالشِّعْبِ الذي دُونَ سَلْعٍ　　لَقَتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ

فَثنىٰ عِنانَ رَوِيَّتِهِ النَّاضِبَةِ ، وكفَّ في كَفِّهِ أَقْلامَهُ العامِلَةَ النَّاصِبَةَ ؛ ثم إِنَّهُ قامَ بِما يَجِبُ عليهِ مِن الشُّكْرِ بعدَ هذِهِ الفَتْرَةِ ، وَحَلا قَوْلُهُ في فَمِهِ وكم لَهُ قَبْلَها من مَرَّةٍ مُرَّةٍ ، وقابَلَ ذلكَ البَحْرَ المديدَ الذي كُلُّهُ دُرَرٌ بِما لا يُساوِي دُرُّهُ ذَرَّةً[3] :

[من الكامل]

ومِنَ العجائِبِ والعَجائِبُ جَمَّةٌ　　شُكْرٌ بَطِيءٌ عن نَدىً مُتَسَرِّعِ

ورجعَ إِلى المدحِ الذي هو أَجْدَىٰ وأَجْدَرُ ، والثَّناءِ على مَحاسِنِ مَولانا التي هي من السُّحْبِ أَعْطىٰ ومن المِسْكِ أَعْطَرُ ، فقالَ : [من الرمل]

[٧ب] لِمُجِيرِ الدِّيْنِ بالفَضْلِ يَدٌ　　لَفْظُها قَدْ أَعْجَزَ العُرْبَ الفِصاحا
فَتَراهُ بَطَلاً قَد سَلَّ مِن　　لَفْظِهِ بَيْنَ قَوافِيهِ سِلاحا
وإِذا ما قَلَمٌ في كَفِّهِ　　هَزَّهُ في الطِّرْسِ أَنْساكَ الرِّماحا
ومَعانِيهِ التي قد لَطُفَتْ　　أَذْكَرَتْنا الأَعْيُنَ المَرْضىٰ الصِّحاحا
ومَتىٰ ما فاهَ بالشِّعْرِ تَجِدْ　　نَظْمَهُ قد راحَ يَسْقِي السَّمْعَ راحا
يا إِماماً نَظْمُهُ في عَصْرِهِ　　قامَ فيما بَيْنَنا يَدْعو الفَلاحا
أَدْهَشَتْنِي هذِهِ الأَبْياتُ بَلْ　　أَثْخَنَتْ رِقَّتُها قَلْبِي جِراحا

---

(١) المثل في : الميداني ٢/٣١٨ والعسكري ٢/٢١٣ و ٢٤٢ والزمخشري ٢/٣٤٧ . وفوق « أخاك » في أ : صح .

(٢) البيت للشنفرى في ديوانه ٣٩ (ضمن الطرائف الأدبية) . وينسب لتأبط شرّاً في ديوانه ٣٤٧ . وفي أ ، ب ، س ، م : إنَّ بالشعب الذي من دون سلع × ! .

(٣) البيت لابن حيوس ، في ديوانه ١/٣١٦ .

مَـنْ تُـرىٰ يَطْمَـعُ فـي إِلْحـاقِهـا فَضْلُها هَيْهاتَ قد فاتَ الرِّياحا[1]
لا تَسُمْنـي بَعْـدَهـا لـي مِحْنَـةً قـد كَفَتْني هـذِهِ الأُولـىٰ اقْتِـراحـا
وابْـقَ مـا غَنَّىٰ حَمامٌ في الـدُّجىٰ فَوْقَ قُضْبِ الأَيْكِ من شَجْوٍ وناحا

٨ * أَحمد بن الحَسن بن عبد الله بن أَبي عُمر محمَّد بن قُدامة[2] :

الإِمامُ العالِمُ العلاَّمةُ ، ذو الفنونِ ، جامعُ الفَضْلِ[3] ، الشَّيخ شَرَفُ الدِّين ، أَبو العبَّاس ، ابن قاضي القُضاة ، شرفِ الدِّين الحَنْبَليّ .

● كتبتُ أَنا إِليه مُلْغِزاً في « شَهر رَمَضان » المُعَظَّم[4] : [من السريع]

يـا فـاضِـلاً أَخْبـارُ أَشْعـارِهِ مَشْهُـورَةٌ فـي العُجْـمِ والعُـرْبِ[5]
وسَجْعُـهُ أَخْـرَسَ وُرْقَ الحِمـىٰ إِذا تَغَنَّـتْ فـي ذُرىٰ القُضْـبِ
وخَطُّـهُ أَزْرىٰ بِـزَهْـرِ الـرُّبـا إِنْ دَبَّجَتْهـا راحَـةُ السُّحْـبِ
قُـلْ لـيَ مـا اسْـمٌ قَـدْرُهُ مُحْتَـفٍ وحُكْمُـهُ فـي الشَّـرْقِ والغَـرْبِ[6]
فيـهِ لَنـا فـاكِهـةٌ قَـدْ غَـدَتْ تَـروقُ للنَّفْـسِ بِـلا قَلْـبِ[7]

---

(١) في ب : من يَرُم . . . × .
(٢) ترجمته في : المعجم المختص ١٦ ووفيات ابن رافع ٢/ ٣٥ ـ ٣٦ والذيل على العبر ٢/ ٢٩٤ وتعريف ذوي العلا ٢٠١ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٣٦٤ والدرر الكامنة ١/ ١٢٠ والنجوم الزاهرة ١١/ ١٠٨ والمنهل الصافي ١/ ٢٨٤ والدليل الشافي ١/ ٤٥ والذيل التام ١/ ٢٤٣ والدارس ٢/ ٤٤ والقلائد الجوهرية ٢/ ٤٩١ والمقصد الأرشد ١/ ٩٣ والمنهج الأحمد ٥/ ١٣٥ وشذرات الذهب ٨/ ٣٧٦ .
ـ وفاته سنة ٧٧١ هـ . ومولده سنة ٦٩٣ هـ .
ـ في أ ، س : . . . بن عبد الله أَبي عمر بن محمد . . ! . وفي م : أَحمد بن الحسين . . .
(٣) في س ، م : جامع الفضائل .
(٤) الأبيات في الوافي بالوفيات ١٩/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ومتكرر في الترجمة ٥١ .
(٥) في ب : يا قاضياً . . . × .
(٦) في م : . . . محتفٍ × .
(٧) يريد : رمّان .

إن عُكِسَ الخُمْسانِ مِن لَفْظِهِ   أَمْتَعَنا بِالأَكْلِ والشُّرْبِ[1]
وهو مع العَكْسِ بِلا آخِرٍ   « أُضْمِرَ » فافْهَمْ يا أَخا اللُّبِّ
بَيِّنْ مُرادِي يا إِمامَ الوَرىٰ   فَلَيْسَ ما أَلْغَزْتُ بِالصَّعْبِ
وَدُمْ قَرِيرَ العَيْنِ في نِعْمَةٍ   ما ازْدانَتِ الآفاقُ بالشُّهْبِ

فكتبَ هو الجوابَ عن ذلك : [من السريع]

يا فاضِلاً مَنْطِقُهُ باهِرٌ   بِفَيْصَلٍ مُرْبٍ على العُرْبِ
تَفْديكَ عَيْنٌ من عُيونِ الوَرىٰ   بِسائِلٍ من دَمْعِها الغَرْبِ
وناظِماً مَنْظُومُهُ فاخِرٌ   وناثِراً كاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ
أَوْجَبْتَ فَضْلاً وَسَلَبْتَ النُّهىٰ   حُمِدْتَ في الإِيْجابِ والسَّلْبِ
سَأَلْتَ عمَّا أَمْرُهُ ظاهِرٌ   وَذِكْرُهُ في أَشْرَفِ الكُتْبِ
إِمْساكُنا أَيَّامَهُ واجِبٌ   بِنِيَّةٍ عن قَدْرِهِ تُنْبِي
فاكِهَةٌ ضَمَّنَتْها ذاتَهُ   شَرابُها من عِلَّةِ الكَرْبِ
مُصَنَّفاً في نَفْعِها حَصَّلوا   صَنَّفَهُ الحُذَّاقُ بِالطِّبِّ
مَعْ أَنَّني أَلْغَزْتُ في أُخْتِها   قَرِينَةٌ من جُمْلَةِ القُضْبِ[2]
تَفْضُلُها حَرْفاً ولَكِنَّها   تَنْقُصُ عن طَعْمٍ وَعَن لُبِّ
كِلاهُما لي من سَقامٍ دَوا   للنَّفْعِ والأَكْلِ مَعَ الشُّرْبِ
إِنْ قُلْتَ شِبْهاً فَلِنَصٍّ أَتىٰ   أَوْ قُلْتَ لا صُدِّقْتَ في السَّلْبِ
ثَلاثَةُ الأَخْماسِ مَعْمولُها   بِفَضْلِهِ يَصْعَدُ لِلسُّحْبِ[3]

(١) في أ : × امتنعنا . . . ! . والمراد : ضُم .
(٢) يريد : زيتون . وفي م : . . . في حكمها × .
(٣) يريد : زيت .

أَرْبَعَةُ الأَخْماسِ مَقْلوبَةً   من ساكِني البَحْرِ لَدىٰ الكَسْبِ[1]
تُفْقَدُ في التُّرْكِ ولكنَّها   مَوجودَةٌ في بَلْدَةِ العُرْبِ[2]
تُفَقَّدُ الأَعْراضُ إن عُطِّلَتْ   في أَضْعَفِ القَوْلَيْنِ في الخَطْبِ[3]
واللهُ يُبْقِي لي سَنا نُورِكُمْ   حَسْبيَ مِن أَفْضالِكُمْ حَسْبي

● فكتبتُ أنا الجوابَ عن ذلكَ ، وكان قد ألغزَ في « زَيْتُون » : [من السريع]

أَغْلَيْتَ قَدْرِي لِمَناطِ السُّهىٰ   مِن بَعْدِ ما قَدْ كانَ في التُّرْبِ
هذا جوابُ لَفْظِه مُذْ بَدا   يُصْبي وَمَعْناهُ غدا يَسْبي
أَجَبْتَ عمَّا كُنْتُ أَلْغَزْتُهُ   وذاكَ في الجَبْرِ غَداً حَسْبي
لكِنْ تَفَضَّلْتَ وأَتْحَفْتَني   بِمُلْغَزٍ سُرَّ بِه قَلْبي
مُخَمَّسٌ تَدْويرُهُ مُحْكَمٌ   قد أَتْقَنَتْهُ صَنْعَةُ الرَّبِّ
كأَنَّهُ زَيْدونُ في لَفْظِه   والدَّالُ مِثْلُ التَّاءِ لِلعُرْبِ
بُورِكَ في سَلْبَيْهِ في لا وَلا   فَلَيْسَ في شَرْقٍ ولا غَرْبِ[4]
وَيُسْتَمَدُّ النُّورُ مِن بَعْضِهِ   لَمَّا تكونُ الشَّمْسُ في الحُجُبِ
كانَ رَسولُ اللهِ مَعْ فَضْلِهِ   يَغُبُّهُ دَهْناً مِنَ الحُبِّ
هذا رَعاكَ اللهُ حَلُّ الذي   أَلْغَزْتَهُ في شِعْرِكَ العَذْبِ
[٨ أ] لا تَتَكَلَّفْ لي جَواباً فَما   أَنْتَ إِلى النَّظْمِ بِمُنْصَبِّ
إِذْ أَنْتَ في شُغْلٍ غَدا شاغِلاً   بِجِدِّهِ عن مُقْتَضىٰ اللَّعْبِ

● وكتبَ هو إليَّ أيضاً جَواباً ثانياً عن الأَوَّلِ : [من السريع]

---

(١) يريد : نوتيّ .
(٢) البيت ساقط من س .
(٣) في م : تفند . . . × . كذا بلا إعجام فيما بعد التاء ، ولعلها : تُفَنَّد ، تُقَيَّد .
(٤) يشير إلى قوله تعالى : ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور : ٣٥] .

يـا بـارِعـاً حَـلَّ ذُرىٰ الكَـوْكَـبِ — أَغْنـي كِيْـوانـاً ولـم يَغْـزُبِ
ومـاجِـداً بَـوَّأَهُ مَجْـدُهُ — مـن المَعـالـي غـايَـةَ المَطْلَـبِ
وبـاهِـراً إِحْسـانُـهُ سـائِـرٌ — مـن مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِلى المَغْـرِبِ
شَنَّفْـتَ سَمْعـي بِنِظـامٍ أَتـىٰ — عَمَّـا حَـوىٰ فَضْلُكُـم مُغْـرِبِ
كِتـابُـهُ دُرٌّ ولكنَّـهُ — مـن دُرَّةٍ دُرَّتْ ولـم تُثْقَـبِ
مِـن رَوْضَـةِ الفِكْـرِ التـي رَوْضُهـا — مِـدادُهُ مـن وابِـلٍ صَيِّـبِ
مِـن دَوْحَـةِ الـرُّقْـشِ التـي نَقْشُهـا — أَفْخَـرُ مـن نَقْـشٍ علـىٰ زَيْنَـبِ
كـأَنَّمـا المَعْنـى بِـأَوْراقِـهِ — صُبْـحٌ أَتـىٰ مـن جـانِـبِ الغَيْهَـبِ
سَمَـوْتَ بـالفَخْـرِ فَـلا لاحِـقٌ — لـو قَطَـعَ المِضْمـارَ بـالأَشْهَـبِ
وافْتَـرَّ مَنْظُـومُـكَ عـن لُـؤْلُـؤٍ — ففـاقَ ذا الثَّغْـرِ الشَّهـي الأَشْنَـبِ
غَنَّـتْ علـى أَوْراقِـهِ أَحْـرُفٌ — كـم مُهْجَـةٍ ذابَـتْ وقَلْـبٍ سُبـي
أَطْـرَبَـهُ المَعْنـىٰ الـذي قُلْتَـهُ — وكـانَ مـن قَبْلِـكَ لَـم يَطْـرَبِ
وأَوْقَـفَ القَلْـبَ لِتَغْـريـدِهـا — وقَيَّـدَ السَّمْـعَ فلـم يَـذْهَـبِ
وَطَـوَّقَ الـذِّهْـنَ لأَنْفـاسِهـا — بِطَـوْقِ فَضْـلٍ فـاخِـرٍ مُـذْهَـبِ
وَطَـرَّزَ الفِكْـرَ لإِبْـداعِهـا — مُعَطَّـراً مـن نَشْـرِهِ الطَّيِّـبِ
يَسْلُـبُ نُطْقـاً لِلنُّهـىٰ عـامِـداً — مـن لَفْظِـهِ المُسْتَعْـذَبِ المُعْجِـبِ
وتَسْحَـرُ الأَلْبـابَ أَنْفـاسُـهُ — بِسِحْـرِ لَفْـظٍ مُبْـدِعٍ مُغْـرِبِ(١)
يـا لَـكَ مـن بَحْـرِ حِجَـىٰ زاخِـرٍ — وحَبْـرِ عِلْـمٍ حُـوَّلٍ قُلَّـبِ
مَـنْ كـانَ مِـن غَيْـرِكَ مَطْلـوبُـهُ — فَلَيْـسَ يَبْغـي غَيْـرَكُـمْ مَطْلَبـي
قَـدَحْـتُ زَنْـدَ الفِكْـرِ كـي أَبْتَغـي — مَـرْتَعَـهُ مـن رَوْضِـكَ المُعْشِـبِ
وشِمْـتُ بَـرْقـاً مـا وَنـىٰ وَمْضُـهُ — ولَيْـسَ هـذا البَـرْقُ بـالخُلَّـبِ

---

(١) في ب : . . . أَلفاظه × .

أَلْغَــزْتُ مَعْنــىً بِحُــروفٍ غَــدَتْ　　ثَــلاثَــةً فــي العَــدِّ إِنْ تُحْسَــبِ
لَيْسَــتْ مِــن المُعْجَــمِ مَنْقُــوطَــةً　　جــاءَت مُعَــرَّاةً لــدىٰ المَكْتَــبِ
ليــسَ بِشَــيْءٍ إِنْ غَــدا واحِــداً　　وإِنْ يُكَــرَّرْ عَكْسُــهُ قــد حُبِــي
نَظيــرُ لا فــي النَّفْــي كــي يَفْهَمــوا　　إِنْ كُــرِّرَتْ مُنْتِجَــةُ المَطْلَــبِ
ليــسَ بــذي حَجْــمٍ يُــرىٰ ظــاهِــراً　　وبــاطِنــاً مِنْــهُ فلــم يُصْحَــبِ
يُطْلِقُــهُ النَّــاسُ علــى جــاهِــلٍ　　أَوْ هَمَــجٍ فــي فِعْلِــهِ أَوْ صَبِــي
يَخــافُــهُ النَّــاسُ جَميعــاً وَهُــمْ　　مِــن خَــوْفِ هــذا فــي عنــاً مُتْعِــبِ
جَميــعُ ذا العــالَــمِ فيــهِ غَــداً　　وذاكَ لا شَــيْءَ لَــهُ فــاعْجَــبِ

فكتبتُ أَنا الجوابَ إِليهِ عن ذلكَ ، وهو في « عدم »[(١)] :

٩ * أَحمد بن عبد الله بن مالك[(٢)] :

القاضي البليغُ ، الخطيبُ ، شِهابُ الدِّين ، أَبو العبَّاسِ ، ابن الخطيبِ الشَّيخِ الصّالحِ ، الخطيبِ بدرِ الدِّين[(٣)] أَبي محمَّد بن الشَّيخ جَمال الدِّين بن أَبي أَنَس الحَنْبَليِّ ، خطيب بيتِ لِهْيا[(٤)] من ضَواحي دمشق المحروسة .

---

(١) في هامش أ : قال المصنّف بعد هذه القصيدة : فكتبتُ أَنا الجواب إِليه عن ذلك ، وهو في « عدم » .
لكن لم أَجد الجواب في النُّسخة التي نقلتُ منها ، مع أنها بخط تلميذه .
وفي هامش م : هذا الجواب ساقط في الأَصل ، فاعلم ذلك .

(٢) ترجمته في : الذيل على العبر ٢/٤٧٦ ودرر العقود الفريدة ٣/١٤٠ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/٥٨١ والدرر الكامنة ١/١٨٤ وإِنباء الغمر ١/٢٧٩ وشذرات الذهب ٨/٤٥٨ .
ـ اسمه عند ابن قاضي شهبة وابن العماد : أَحمد بن محمد بن عبد الله بن مالك .
ـ ولادته عند ابن حجر : ٧٠٥ هـ . وعند ابن قاضي شهبة ٧٠٧ هـ . وعند ابن العماد : ٧٠٩ هـ ! .
ـ وفاته سنة ٧٨٠ هـ .

(٣) كذا في أ ، ب : وهو خطأ ، صوابه : فخر الدين (مصادر ترجمته) .

(٤) بيت لهيا : قرية مشهورة بغوطة دمشق . (معجم البلدان ١/٥٢٢) . وموقعها اليوم بين مشفى =

● كتبَ هو إليّ استدعاءَ إجازةٍ منّي إليهِ :

أمّا بعدَ حَمْدِ اللهِ المَدْعُوِّ بالحُسْنَىٰ من أَسْمائِه ، والصَّلاةِ والسَّلامِ على سَيِّدنا محمَّدٍ المَجْلُوِّ علينا من مَحاسِنِه الأَسْنىٰ من سِيْمائِهِ ، صَلاةً تَملأُ ما بينَ أَرْضِهِ وسَمائِه :

فالمَسْؤُولُ من إحسان فُلانٍ ، فَريدِ دَهْرِهِ ، وَوَحِيدِ عَصْرِهِ ، لِسانِ العَرَبِ ، مُبَلِّغِ الأَرَبِ ، مالِكِ أَزِمَّةِ الإِنْشاءِ والأَدَبِ ، تَرْجُمانِ الأُمَمِ ، المُسَلَّكِ على القَصْدِ الأَمَمِ ، قُدْوَةِ الأَوائِلِ والأَواخِرِ ، مادَّةِ بِحارِ العُلومِ الزَّواخِرِ ، الشَّيخ فُلانِ الدِّين ؛ جَمَعَ اللهُ بِهِ في دَوْحَةِ هذهِ الدَّوْلَةِ أَشْتاتَ الأَدَبِ ، ولَمَّ بِهِ شعثَ مَن جَعَلَ الصَّلاحَ شِعارَهُ ولا عَجَبَ ، وأَقامَ بِهِ أَبْياتَ الشِّعْرِ الذي لَولاهُ ما قامَ لها عَمودٌ ولا مُدَّ طُنُبٌ ؛ إجازَةَ كاتِبِ هذِهِ الأَحرفِ ، ما لَهُ من رِوايَةِ المُصَنَّفاتِ في الأَحاديثِ النَّبَوِيَّةِ ، والتَّأْليفاتِ الأَدَبِيَّةِ ، وما لَهُ من تَصنيفٍ وتَأْلِيفٍ ، وجَمْعٍ وانْتِقاءٍ ، وإِثْباتِ ذلكَ بِخَطِّهِ إِلى هذا التَّاريخِ ، وما لَعَلَّهُ يَقَعُ لهُ بعد ذلكَ ، إجازةً تَجعلُ حالَ [٨ ب] العَبْدِ مَنْصوباً على التَّمييزِ ، وتَرُدُّهُ بعدَ الخَفْضِ وهو عَزيزٌ ، وتَرفعُ قَدْرَهُ في الابْتِداءِ ، لِيَصِحَّ إِسنادُ الأَخبارِ عنهُ في الانْتِهاءِ ؛ وصِلَةً يَعودُ عائِدُها منكُمْ إليه ، وتَأْكيدَ عَطْفٍ من جَنابِكُم لم يُبَدَّلْ يوماً عليه .

ويُضافُ ذلك إِلى ما أَسْدَيْتُمْ إِليهِ من الإحسانِ ، فَيَصِيرُ بهِ ذلكَ العَطْفُ عَطْفَ بَيانٍ ، فَلا يَنصرِفُ عن بابِكُم لِما أَوْلَيْتُموهُ من العَدْلِ والمَعرِفَةِ ؛ كيفَ وبشعارِ الصَّلاحِ تَمَّتْ لَهُ تلكَ الصِّفَةُ ؟

قَدْ صَحَّ حَديثُهُ عنكُم ولم يكنْ مَوقوفاً ولا مُعَلَّلاً ، وراقَ لَفْظُهُ فيكُم

= الزِّهراوي للتوليد إلى ساحة العباسيِّين بدمشق .

فَأَضحىٰ حَسَناً مُسَلْسَلاً ؛ ليسَ لِعَروضيٍّ فيهِ تَقْطيعٌ ، ولا لِمُعانِي البَيانِ إليهِ نَرجيعٌ ، ولا لأُصوليٍّ إلى وَصْلِهِ وُصولٌ ، ولا لِلُغَويٍّ على مثلِ أَلفاظِهِ حُصولٌ ، ولا لِمَنْطِقِيٍّ لديهِ مَنْطِقٌ ولا جِدالٌ[1] ، ولا لِصاحِبِ التَّصريفِ تَصْريفٌ ولا مَجالٌ ، ولا لِفَقيهٍ عليهِ تَنْكِيتٌ ولا إشْكالٌ[1] ، ولا لصاحِبِ عِلْمِ التَّفسيرِ عن نَقْلِهِ زَوالٌ ، ولا لِمَنْ أَمْسى حَلَّ المُتَرْجَمِ فَنُّهُ ، أَنْ يُدْرِكَهُ فَهْمُهُ ولا ذِهْنُهُ .

فَبهذِهِ الإجازَةِ الصَّلاحِيَّةِ يَفوقُ أَقْرانَهُ ، ويَلتقطُ من بَحْرِها الزَّاخِرِ جُمانَهُ ، فَيُصبحُ والدُّرُّ منها في جِيْدِهِ عِقْداً ؛ وإنْ سَمَحْتُمْ فالخَطِيبُ ما زالَ لَكُمْ عَبْداً :

[من الوافر]

أَيا مَنْ قَدْ غَدا في الدَّهْرِ فَرْدا ... ومَنْ مَلَكَ الفَضائِلَ بالحِيازَةْ
عُبَيْدُكَ يَسْأَلُ الصَّدقاتِ إذْناً ... لِما يَرْويهِ عَنْكُمْ بالإجازَةْ

● **فكتبتُ أنا الجوابَ عن ذلك[2] :**

الحمدُ للهِ الذي إذا دُعِيَ أَجابَ ، وإذا أَنْعَمَ على الأديبِ بِذَوْقٍ أَتىٰ في نَظْمِهِ ونَثْرِهِ بالعُجابِ ، وإذا وَهَبَ البَليغَ فِطْرَةً سَليمةً لم يَكُنْ على حِجاهُ حِجابٌ .

نَحْمَدُهُ على نِعَمِهِ التي منها البَلاغَةُ ، وإتْقانِ ما لِصِناعَةِ الإنْشاءِ من حُسْنِ الصِّياغَةِ ، وصَيْدِ أَوابِدِ المَعاني التي مَنْ أَعْمَلَ فِكْرَهُ في اقْتِناصِها أَو رَوَّىٰ رَوَّاغَةٌ .

ونَشهدُ أَن لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ ، وَحْدَهُ لا شَريكَ له ، شَهادةً فُطِرَ الضَّميرُ على إخْلاصِها ، وجُبِلَ الفِكْرُ على اقْتِناءِ أَدِلَّتِها القاطِعَةِ واقْتِناصِها ، وجُعِلَتْ وِقايَةً

(١) ـ (١) ما بينهما ساقط من س .
(٢) نسخة الإجازة نقلها القلقشندي في صبح الأعشى ١٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤ .

لِقائِلِها يَضيقُ على الخَلائِقِ منَ القيامَةِ فَسِيحُ عِراصِها .

ونَشهدُ أَنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُه ، أَفْصَحُ مَن نَطَقَ بهذا اللِّسانِ ، وجاءَ من هذهِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ بالنُّكَتِ الحِسانِ ، وحَثَّ على الخَيْرِ وَحَضَّ على الإِحْسانِ ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ الذينَ رَوَوا أَقْوالَهُ ، وبَلَّغوا مَن لَم يَرَهُ سُنَنَهُ وأَفْعالَهُ ، وعَلموا أَنَّ هذهِ الشِّرْعَةَ المُطَهَّرَةَ ادَّخَرَها اللهُ لَهُ ، فلم تَكُ تَصْلُحُ إِلاَّ لَهُ[1] ، صَلاةً هامِيَةَ الغُفْرانِ ، نامِيَةَ الرِّضْوانِ ، ما أَجابَ مُجيزٌ لِمن اسْتَدْعىٰ ، وعَمِلَتْ إِنَّ في المُبتدأِ نَصْباً ولم تُغَيِّرْ على الخَبَرِ رَفْعاً ، وسلَّمَ تَسليماً كثيراً إلى يومِ الدِّينِ .

وبعدُ : فإِنَّ فَنَّ الرِّوايةِ من مَحاسِنِ الإِسلامِ ، ومَزايا العُلماءِ الأَعْلامِ ، وخَصائِصِ الفُضَلاءِ الذين تَخْفِقُ لهم ذَوائِبُ الطُّروسِ ، وتَنْتَصِبُ رِماحُ الأَقْلامِ؛ ولم تَزَلْ رَغْبَةُ السَّلَفِ تتوفَّرُ إِليهِ ، وتُشيرُ أَناملُ إِرْشادِهم لِلأَنام بالحَثِّ عليهِ .

قيلَ[2] للإِمامِ أَحمد رضيَ اللهُ عنه : ما تَشْتَهي ؟ فقالَ : سَنَدٌ عالٍ ، وبَيْتٌ خالٍ .

وما بَرِحَ الأَئِمَّةُ الكِبارُ يَرْتَحِلونَ إِلى أَقاصي الأَقاليمِ في طَلَبِهِ ، وَيَتَحَمَّلونَ المَشاقَّ [٩ أ] والمتاعِبَ فيهِ ويَتَجَمَّلُونَ بِسَبَبِهِ ؛ فقد ارْتَحَلَ الإِمامُ الشَّافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ وغيرُه إِلى عبد الرَّزَّاقِ باليَمَنِ ، وكانَ فيمن أَخَذَ عنهُ مَن هوَ بالتَّفضِيلِ عليهِ قَمِنٌ ، ولكنَّهُ فَنٌّ يَحتاجُ إِلى ذَوْقٍ يُعاضِدُ مَن لا يُعانِدُهُ ، وأَمْرٌ لا يَصْبِرُ عنهُ مَن أَلِفَهُ ، وما يَعْلَمُ الشَّوْقَ إِلاَّ مَن يُكابِدُهُ[3] ؛ فَما عِنْدَ مَن طَلَبَ الرِّوايَةَ أَجَلُّ من

---

(١) من قول أَبي العتاهية : [ديوانه ٦١٢]

فلـــم تـــكُ تصلـــحُ إلاّ لـــهُ ‏ ‏ ولـــم يـــكُ يَصلـــحُ إلاّ لهـــا

(٢) معاهد التنصيص ٢/ ١٤١ والغيث المسجم ٢/ ١٥٥ .

(٣) من قول الأبله البغدادي : [الوافي بالوفيات ٢/ ٢٤٥] :

=

أَبْناءِ جِنْسِهِ ، ولا عندَ المُفيدِ أَحْلىٰ من قَولِهِ : حدَّثنا فلانٌ ، أَو أَنْشَدنا فلانٌ لِنَفْسِهِ ؛ ولكنْ[1] : [من الكامل]

ما كُلُّ مَن طَلَبَ المَعالي نافِذاً فيها ولا كُلُّ الرِّجالِ فُحولا

ولمَّا كانَ الشَّيْخُ الإمامُ العالِمُ الأَوْحَدُ ، الكامِلُ البَليغُ ، المُفَوَّهُ الأَديبُ ، الخَطيبُ ، النَّاظِمُ النَّاثِرُ ، شِهابُ الدِّينِ ، بَرَكَةُ المُلوكِ والسَّلاطِينِ ، أَبو العبَّاسِ أَحمد الحَنْبَليّ ، خَطيبُ بَيْتِ لِهْيا ، أَمْتَعَ اللهُ (الوجودَ) بِفَوائِدِهِ ، ممَّن نَظَمَ فَوَدَّتِ الدُّرَرُ في أَسْلاكِهِ لو تَنَسَّقَتْ ؛ وَنَثَرَ فتَمَنَّتِ الدَّراري في أَفْلاكِهِ لو اتَّسَقَتْ ؛ وكَتَبَ فَرَقَمَ الطُّروسَ ووَشَّاها ، وغَشَّاها مِن زَهَراتِ الرِّياضِ بِما غَشَّاها ؛ وَحَلَّ المُتَرْجَمَ فَسَحَرَ عَقْلَ كلِّ لبيبٍ وخَلَبَ لُبَّهُ ، وَوَقَعَ على القَصْدِ فيهِ فَكَأَنَّهُ شَيءٌ من الغَيْبِ خَصَّ اللهُ قَلْبَهُ ، وأَتىٰ فيهِ بِبَدائِعَ لم يُساوِ ابنُ الصَّيْرَفيِّ[2] ولا ابْنُ دُنَيْنيرَ[3] عِنْدَها حَبَّةً ؛ وخَطَبَ فَصَدَعَ القُلوبَ ، وأَجْرىٰ ذَنُوبَ المَدامِعِ من أَهْلِ الذُّنوبِ ، وحَذَّرَ فكانَت أَسْجاعُهُ كأَلْحانِ إسْحاقَ[4] ، وسامِعُهُ يَبْكي بِأَجْفانِ يَعقوب ، كأَنَّما هُوَ في حُلَّةِ الخَطابَةِ بَدْرٌ في غَمامَةٍ ، أَو مِنْبَرُهُ غُصْنٌ وهو عليهِ حَمامَةٌ ، أَو هوَ بَحْرٌ وفَضائِلُهُ مِثْلُ مَوْجِهِ ودُرُّهُ يَحْكي كلامَهُ ، لو رَآهُ ابنُ

= ما يعرف الشوق إلاَّ من يُكابدهُ ولا الصَّبابةَ إلاَّ مَن يُعانيها

(١) البيت للمتنبي ، في ديوانه ٣/ ٢٤٥ .

(٢) أَبو القاسم ، علي بن منجب بن سليمان الصَّيرفي ، توفي سنة ٥٤٢ هـ . (الوافي بالوفيات ٢٢/ ٢٢٨) .

(٣) ابن دُنينير : هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم اللخمي الموصلي ، قتل لفساد عقيدته سنة ٦٢٧ هـ . (المقفى الكبير ١/ ٢٧٢) .

(٤) إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، أديب فاضل ، اشتهر بصنعة الغناء ؛ توفي سنة ٢٣٥ هـ . (الوافي بالوفيات ٨/ ٣٨٨) .

نُباتَةَ[1] ما أَوْرَقَتْ بالفَصاحَةِ أَعْوادُهُ ، أَو ابنُ المُنَيِّرِ[2] ما رُقِمَتْ بِالبَلاغَةِ أَبْرادُهُ ، أَو ابْنُ تَيْمِيَّةَ[3] ما حَظِيَتْ بالجُدودِ أَجْدادُهُ ، فأَرادَ أَنْ يُشَرِّفَ قَدْري ، ويُعَرِّفَ نُكْري ، فَطَلَبَ مِنِّي الإجازَةَ ، وأَنا أَحَقُّ بالأَخْذِ عنهُ ، واسْتَدْعىٰ ذلكَ مِنِّي ، ورُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إِلى مَنْ هو أَفْقَهُ منهُ .

فَنَعَم ؛ أَجَزْتُ لَهُ ـ فَسَحَ اللهُ في أَجَلِهِ ـ جَمِيعَ ما يَجُوزُ لي أَنْ أَرْوِيَهُ ، ممَّا هو لي بإِجازَةٍ أَو وِجادَةٍ .

وذكرتُ في الإِجازَةِ المذكورَةِ ما رَوَيْتُهُ من كتبِ الحديثِ ، ومن كتبِ الأَدَبِ ، وذكرتُ له جَماعةً[4] من أَشْياخي الذين أَخَذتُ عنهم ، وذَكرتُ له عِدَّةَ تَصانيفي إِلى تاريخِ شَهرِ اللهِ المُحَرَّمِ سنة ٧٥١ : [من الوافر]

إِجازَةَ قاصِرٍ عن كلِّ شَيْءٍ ... يَسيرُ من الرِّوايَةِ في مَفازَهْ
لِمَنْ مَلَكَ الفَضائِلَ واقْتَناها ... وحازَ مدىٰ العُلا سَبْقاً وَجازَهْ

● وكتبتُ إِليه مُلْغِزاً في « دِيْنارٍ » : [من الرجز]

يا فاضِلاً مِنْ بَحْرِهِ ... كُلُّ الوَرىٰ يَغْتَرِفُ
ويا خَطِيباً لَفْظُهُ ... دُرٌّ وسَمْعي صَدَفُ
إذا عَلا مِنْبَرَهُ ... قُلْتَ : حَمامٌ يَهْتِفُ
ويا شِهاباً كَمْ بِهِ ... عَنّا تَجلَّتْ سُدَفُ

---

(١) ابن نباتة الفارقي : الخطيب أبو يحيى ، عبد الرحيم بن محمد ، صاحب الخطب المشهورة ؛ توفي سنة ٣٧٤ هـ . (وفيات الأعيان ٣/ ١٥٧) .

(٢) ابن المنيّر : أحمد بن محمد بن منصور ، القاضي الإسكندراني ، له خطب مشهورة ؛ توفي سنة ٦٨٣ هـ . (فوات الوفيات ١/ ١٤٩) .

(٣) ابن تيميّة : الإمام أحمد بن عبد الحليم الحرّاني الحنبلي ، نزيل دمشق ، مجتهد قدوة ؛ توفي سنة ٧٢٨ هـ . (المنهج الأحمد ٥/ ٢٤) .

(٤) في م : جماعة الأدب من أشياخي .

مَـــا مُفْــــرَدٌ مُـــــذَكَّـــرٌ مُنَكَّـــــــرٌ مُعَــــــــرَّفُ
فِـــي جَمْعِـــهِ لَـــمْ يَنْصَـــرِفْ والجَمْــــعُ مِنْــــهُ يُصْــــرَفُ
عَــــروضُــــهُ واحِـــــدَةٌ وضَـــــرْبُــــهُ مُخْتَلِـــــفُ
مُخَمَّـــــــسٌ مُـــــــدَوَّرٌ مُحَـــــــرَّفٌ مُشَـــــــرَّفُ
مُنَقَّــــــشٌ ومـــــا لَـــــهُ كَـــفٌّ جَـــلاهـــا التَّـــرَفُ
أَعْيُنُنــــا مـــــن عَيْنِــــهِ شَــــوْقـــاً لَـــهُ لا تَطْــــرِفُ
أَصْفَـــــرُ لا مِــــنْ عِلَّــــةٍ تُـــــوهِنُـــــهُ وتُضْعِـــــفُ
[٩ ب] وَلَيْــسَ يَــدْرِي مــا البِلــىٰ ولا يَـــــراهُ التَّلَـــــــفُ
ونـــــارُهُ لـــــم تَلْتَهِـــــبْ ودِيْنُـــــــهُ لا يُعْـــــرَفُ(١)
بَيِّنْـــهُ لا بَـــرِحْـــتَ فـــي سَعْـــدٍ حَيـــاهُ يَكِـــفُ
وَدُمْـــتَ لِلْفَضْـــلِ الـــذي ثِمـــــارُهُ نَقْتَطِــــــفُ(٢)

● فكتبَ هو الجوابَ إليَّ عن ذلك : [من الرجز]

يـــا واحِـــداً فـــي عَصْـــرِهِ لِعَبْـــــدِهِ يُشَـــــرِّفُ
ويـــا إِمـــامـــاً عِلْمُـــهُ بَيْـــنَ الـــوَرىٰ لا يُخْلَـــفُ
إِنَّ الـــذي أَلْغَـــزْتَـــهُ بِـــأَرْضِ مِصْـــرَ يُعْـــرَفُ
تَهْـــوىٰ المُلـــوكُ وَصْلَـــهُ كَيْـــفَ الكَئِيـــبُ المُـــدْنَـــفُ
مُتَيَّـــمٌ فـــي عِشْقِـــهِ كَـــذا الـــرَّبيـــبُ الأَهْيَـــفُ
عُيُـــونُنـــا فـــي عَيْنِـــهِ ومـــا أَراهـــا تُسْعِـــفُ
وَحُسْنُـــهُ ولَفْظُـــهُ لِمَسْمَعـــي يُشَنِّـــفُ

---

(١) في م : × وذنبه لا يعرف .
(٢) في م : × ثمارُهُ تُقْتَطَفُ .

عُـــــذْراً لِعَبْــــدٍ فَهْمُــــهُ يَقْصُـــرُ بَـــلْ يُضَعَّـــفُ[1]
عـــن نَظْـــمِ دُرٍّ صُغْتَـــهُ لأَنَّ نَظْمــــي صَـــدَفُ
مُـــرَصَّـــعٌ فـــي ذَهَـــبٍ مُـــوَقَّـــعٌ مُـــؤَلَّـــفُ
فـــي مِثْلِـــهِ فَسَيِّـــدي يُلْغِـــزُ أَو يُصَحِّـــفُ
لا زِلْـــتَ فـــي سَعـــادَةٍ أَذْيـــالُهـــا تُـــرَفْـــرِفُ

١٠ * أَحمد بن عبد الله بن داود بن عليّ بن أَحمد بن محمَّد[2] :

شِهابُ الدِّين البَغداديّ ، الكاتبُ المعروفُ بالمُتَرْجِم .

● كتبَ تَقْرِيظاً على كِتابي « جِنان الجِناسِ »[3] : [من الرمل]

زِيْنَـــةُ المَـــرْءِ بَيـــانُ المَنْطِـــقِ مُقْـــرَنـــاً مِنْـــهُ بِحُسْـــنِ الخُلُـــقِ
وأَخَـــصُّ النَّـــاسِ فيـــهِ رَجُـــلٌ نَظَـــمَ الحِكْمَـــةَ نَظْـــمَ النَّسَـــقِ
فـي جِنـانٍ مـن جِنـاسٍ زُخْـرِفَـتْ بِحِســـانٍ مـــن لِســـانٍ ذَلِـــقِ
أَوْدَعَتْهـــا كَفُّـــهُ فـــي دَعَـــةٍ وأَمـــانٍ فـــي بُطـــونِ الـــوَرَقِ
نـــاظِمـــاً أَحْـــرُفَـــهُ فـــي أَسْطُـــرٍ ذاهِبـــاً فيهـــا لأَسْنـــىٰ الطُّـــرُقِ
كَنِظـــامِ الـــدُّرِّ مـــن أَنْـــواعِـــهِ زِيْنَـــةً فـــي صَفَحـــاتِ العُنُـــقِ
راكِـــبٌ أَسْـــوَدُهـــا أَبْيَضَهـــا كَـــرُكُـــوبِ اللَّيْـــلِ مَتْـــنَ الشَّفَـــقِ[4]
فَبَيـــاضٌ فـــي سَـــوادٍ حَـــالِـــكٍ وسَـــوادٌ فـــي بَيـــاضٍ يَقَـــقِ[5]

---

(١) في ب ، س ، م : × يقصرُ لا بل يضعفُ .
(٢) ترجمته في : الوافي بالوفيات ٧/ ١٤٠ .
ـ قال المؤلف في الوافي : وآخر عهدي به في سنة خمسٍ وأربعين وسبعمئة بدمشق ، ثم توجَّهَ إلى القاهرة .
(٣) القصيدة في الوافي .
(٤) في ب ، س ، والوافي : راكباً . . . × .
(٥) في ب : . . . حالكٍ × .

نَطَقَتْ وَهْيَ جَمادٌ كُلُّها وَعَجيبٌ نُطْقُ مَنْ لَمْ يَنْطِقِ
حَمَّلَتْنا بَعْدَهُ أَلْفاظُهُ في اصْطِلاحِ الشِّعْرِ ما لَمْ نُطِقِ
كُلَّ مَعْنىً دَقَّ فيها فاخْتَفىٰ عن سَنَا الفِكْرِ ونُورِ الحَدَقِ
في افْتِراقٍ واتِّفاقٍ قَصْدُهُ فَاغْنَ بالمُفْتَرِقِ المُتَّفِقِ
كَمَنَتْ فِطْنَتُهُ فيها كَما كَمَنَتْ أَشْخاصُنا في العَلَقِ
أَيُّها الطَّالِبُ يَبْغي شَأْوَهُ حَكَمَ العِلْمُ بِأَنْ لَمْ يُلْحَقِ[1]
لَسْتَ تَدْرِي مَن تُجاري فاتَّئِدْ أَنْتَ والبَرْقُ مَعاً في طَلَقِ
وَبَنو الفَضْلِ مَتى جاراهُمُ غَيْرُ ذِي الفَضْلِ يَقيناً يُسْبَقِ
هَكَذا المَعنىٰ فَكُنْ مُحْتَفِلاً وَكَذا الأَلْفاظُ فاسْمَعْ وَذُقِ
أَيُّ نارٍ لِخَليلٍ أَضْرَمَتْ حَذَراً مِنْها وإِنْ لَم تُحْرِقِ
قَلَبَتْ رَوْضاً أَريضاً أُنُفاً أَرِجَ الأَرْجاءِ بالفَضْلِ سُقي
فَبِها أَفْكارُنا في سِنَةٍ وبِها أَعْيُنُنا في أَرَقِ
سَحَرَ النَّاسَ بِها مَنْطِقُهُ فَأَعاذُوهُ بِرَبِّ الفَلَقِ
زِدْهُمُ سِحْراً ولا تَرْثِ لَهُمْ فَهْوَ ذَنْبٌ إِثْمُهُ في عُنُقي
لَوْ وَعىٰ نُطْقَكَ قُسٌّ لَم يَقُلْ: أَيُّها النَّاسُ، اسْمَعُوا مِن مَنْطِقي
دُمْتَ لِلنَّاسِ صَلاحاً ما شَدَتْ فَوْقَ غُصْنٍ صادِحاتُ الوُرُقِ

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ مُخْتَصراً[2]: [من الرمل]

أَرَياحينٌ أَتَتْ في طَبَقِ عَرْفُها سارٍ إِلى المُنْتَشِقِ[3]
[١٠ أ] أَم غُصونٌ من سُطورٍ قد شَدَتْ فَوْقَها الأَطْيارُ بَيْنَ الوَرَقِ
أَم ثُغورٌ بَسَمَتْ عن شَنَبٍ أَم نُجومٌ قد بَدَتْ في غَسَقِ

---

(١) في م: × . . . لم تلحق .
(٢) القصيدة في الوافي .
(٣) في س: × . . . سارٍ لمنتشقِ .

أَمْ عُقُـــودٌ وَيَـــدُ الإِحْســـانِ قَـــدْ جَبَـرَتْ عُطْلــي فَــزانَــتْ عُنُقِــي
هَكَـــذا النَّظْـــمُ الـــذي رَوْنَقُـــهُ لِسِـــوىٰ مَـــوْلايَ لَـــم يَتَّفِـــقِ
طِــرْسُـــهُ صَفْحَـــةُ خَـــدٍّ أَبْيَــضٍ وَلَـــهُ النِّقْـــسُ سَـــوادُ الحَـــدَقِ
قُلْـــتُ لِلْخِـــلِّ وَقـــد عـــايَنَـــهُ هَكَـــذا السُّكَّـــرُ يُهْـــدىٰ فَـــذُقِ
ثُـــمَّ لمَّـــا ذاقَـــهُ اهْتَـــزَّ لَـــهُ كَنَـــديـــمٍ صَفْـــوَةَ الـــرَّاحِ سُقِـــي
قـــال : هـــذا سُكَّـــرٌ أَو مُسْكِـــرٌ قُلْـــتُ : بـــل هـــذا وذا فـــي نَسَـــقِ
دُمْـــتَ يـــا فَـــرْدَ الـــوَرىٰ فـــي فَنِّـــهِ تَبْعَـــثُ البُسْتـــانَ لـــي فـــي الـــوَرَقِ

١١ * أَحمد بن عليّ بن محمَّد[١] :

القاضي ، الكاتبُ ، المُنْشِىءُ ، نَجْمُ الدِّين ابن الشَّيخ علاءِ الدِّين بن القاضي شَمْسِ الدِّين بن غانِم .

كاتبُ الإِنْشاءِ الشَّريفِ بالشَّامِ المحروسِ .

● **كتبَ هو إِليَّ من دمشقَ المحروسَة وأَنا بالقاهرة المحروسَةِ**[٢] : [من الكامل]

بي في الضَّميرِ من الفِراقِ ضِرامُ وَهَـــوىً يُهَيِّجُـــهُ جَـــوىً وغَـــرامُ[٣]
مُـذْ غـابَ عَنِّـي مَـن أَلِفْـتُ دُنُـوَّهُـمْ ونَبـــا بِهِـــمْ بَعْـــدَ المُقـــامِ مَقـــامُ
واسْتَوْطَنُوا مِصْرَ التي طابَتْ لَهُمْ داراً وأَيْـــنَ دِيـــارُهُـــمْ والشّـــامُ
سَمَحَتْ بِهِمْ أَيْدي النَّوىٰ واسْتَرْجَعَتْ فَكَـــأَنَّمـــا سَمَحَـــتْ بِهِـــمْ أَحْـــلامُ

---

(١) ترجمته في : الذيل على العبر ١/ ٢٧٤ وأَعيان العصر ١/ ٣٠١ والدّرر الكامنة ١/ ٢١٩ ودرر العقود الفريدة ١/ ٣٥٥ .
ـ وفاته سنة ٧٥٨ هـ .

(٢) ستة أَبيات من هذه القصيدة في درر العقود .

(٣) في م : لي في الضمير . . . × .

أَتُرىٰ يَعودُ بِهِم زَمانٌ قد مَضىٰ ... أَم هل تُرى لي مَعْهُمُ إِلْمامُ
غابُوا فلم تَطِبِ الحَياةُ لِبَيْنِهِمْ ... والنَّوْمُ بَعْدَهُمُ عَلَيَّ حَرامُ
والدَّهْرُ كانَ بِهِم كَيَوْمٍ واحِدٍ ... وأَراهُ عِيْداً كُلَّهُ لو دامُوا
كانَ الزَّمانُ بِهِم رَبيعاً وَجْهُهُ ... مُتَهَلِّلاً بِدُنُوِّهِمْ بَسَّامُ[1]
ونَأَوْا فَقَطَّبَ بالفِراقِ فَوَجْهُهُ ... جَهْمٌ وسُحْبُ المُبْهِجاتِ جَهامُ
لا أَوْحَشَتْ دارٌ خَلَتْ من أُنْسِهِمْ ... فَضِياؤُها في ناظِرِيَّ ظَلامُ
يا غائِبِيْنَ نَأَىٰ السُّرورُ لِبَيْنِهِمْ ... فَعَلَيْهِمُ وعلىٰ السُّرورِ سَلامُ
لي كُلَّما هَجَعَ الخَلِيُّ من الهَوىٰ ... دَمْعٌ يُقَرِّحُ مُقْلَتي وهُيامُ
طالَتْ لِهَجْرِكُمُ اللَّيالي وَحْشَةً ... فَكَأَنَّها وَحَياتِكُمْ أَعْوامُ
وَحَياتِكُمْ مانِمْتُ مُذْ فارَقْتُكُمْ ... مَن فارَقَ الأَحْبابَ كَيْفَ يَنامُ
ناشَدْتُكُمْ عُودوا على مُتَأَسِّفٍ ... لم تَبْقَ فِيهِ بَشاشَةٌ تُسْتامُ

● **فكتبتُ أَنا الجوابَ إِليه** : [من الكامل]

وافىٰ كِتابُكَ فاسْتَنارَ ظَلامُ ... وغَدَتْ بُدورُ الأُفْقِ وهيَ تَمامُ[2]
يا كاتِباً كَبَتَ العِدىٰ لَما كَبَتْ ... مِن خَلْفِهِ في شَوْطِها الأَقْلامُ
صلَّىٰ وَراءَكَ في القَريضِ جَماعَةٌ ... مِمَّنْ يُعانيهِ وأَنْتَ إِمامُ
أَهْدَيْتَ لي طِرْساً سُطورُ بَيانِهِ ... رَوْضٌ وَمَعْناها البَديعُ حَمامُ
فَكَأَنَّما تِلْكَ الحُروفُ جَواهِرٌ ... فيها تَأَنَّقَ جُهْدَهُ النَّظّامُ
لا بَلْ كُؤوسُ مُدامَةٍ من فَوْقِها ... قَد ذُرَّ من مِسْكِ الخِتامِ خِتامُ
لا بِدْعَ إِنْ مالَتْ بِعِطْفي نَشْوَةٌ ... فَمِنَ الكَلامِ إِذا اعْتَبَرْتَ مُدامُ

---

(١) في ا : × متهلل بدونهم بسّام ! . وفي ب : × متهللاً يدنو بهم بسّام ! . وفي م : × متهلل بدنوّهم . . . والمثبت من س .

(٢) في ب : × وبدت بدور . . .

يا ساكِنينَ دِمَشْقَ لي فيكُمْ وإنْ طالَ البُعادُ صَبابَةٌ وغَرامُ
بَيْني وَبَيْنَكُمُ إذا حَقَّقْتُمُ عَهْدٌ بِهِ شَهِدَ الصَّفا وذِمامُ
بِحَياتِكُمْ راعوا الوِدادَ فإنَّكُمْ عِنْدي على بُخْلِ الزَّمانِ كِرامُ
وَتَذَكَّرُوا تلكَ اللُّيَيْلاتِ التي في عَوْدِها قد خانَتِ الأيَّامُ
يا بُعْدَ ما أَرْجُوهُ من دَهْري وإلاَّ... أَيْنَ مِصْرُ من اللِّقا والشَّامُ
أَمَّا أَنا فإنِ اسْتَمَرَّ الحالُ في جَوْرِ النَّوىٰ فَعَلىٰ الحَياةِ سَلامُ

[١٠ ب] يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهِي وُرُودَ المُشَرَّفِ الكَرِيمِ ، فَوقفَ له قائِماً ، وَدَخَلَ بَحْرَ عَجائبِهِ عائِماً ، وجعلَ طائرُ قَلْبِهِ يُرفرِفُ على زُلالِ لَفْظِهِ حائِماً ، وسَرَّحَ طَرْفَهُ في رِياضِ سُطورِهِ سائِماً ، وفي تَأَلُّقِ بُروقِهِ شائِماً ، وغالَطَ نَفْسَهُ وقد رَآهُ يَقْظَةً فقالَ : إنَّها رُؤْيا مَن كانَ نائِماً ، وأَجْمَعَ مَنْ رَآهُ علىٰ أَنَّهُ فَرْدٌ في المحاسِنِ، فلم يَجِدْ على وَصْفِهِ في المُغالاةِ لائِماً ، وأَطْلَقَ دَمْعَهُ ، وَقَيَّدَ قَلْبَهُ ، فَراحَ ذلكَ هامِياً دامِياً ، وهذا هائِماً دائِماً ، فيا لَهُ من وارِدٍ وَرَّدَ خَدَّ الزَّمَنِ ، وَرَدَّ على الأَجْفانِ ما شَرَّدَ من الوَسَنِ ، وَسَرَّ نَفْسَ المَملوكِ بِرُؤْيَتِهِ ، ولا سُرورَ مَن بَلَغَ الوَطَرَ في الوَطَنِ ، وانْتَهَىٰ إلى ما فِيهِ من العَتْبِ ، فالَّذي يَتَسَمَّحُ يقولُ : حديثٌ ضَعيفٌ ، والذي يَتَسَمَّحُ يَقولُ : حديثٌ حَسَنٌ ؛ ثمَّ إنَّهُ رَجَعَ إلى ما أَلِفَتْهُ نَفْسُهُ الذَّليلَةُ، وقالَ: على كلِّ حالٍ أُمُّ عَمرٍو جَميلةٌ[١] : [من البسيط]

هذا عِتابُكَ إلاَّ أَنَّهُ مِقَةٌ قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلاَّ أَنَّهُ كَلِمُ

● **وكتبتُ إليهِ وأنا بِمَرْجِ الغَسُولَةِ**[٢] : [من الكامل]

---

(١) هذا شطر بيت سيأتي في الترجمة (٢١) وتمامه :
على كل حال أم عمرو جميلة وإن لبست خُلقانها وجديدَها
والبيت الآتي للمتنبي ، في شرح ديوانه المنسوب للعكبري ٣/ ٣٧٤ .
(٢) الأبيات في أعيان العصر .

مَـولايَ نَجْـمَ الدِّيْنِ يـا مَـنْ فَضْلُـهُ قَـدْ عَمَّنـي بِخَصـائِـصِ الإِحْسـانِ
أَوْحَشْتَنـــي فـــي سَفْــرَةٍ قَضَّيْتَهـــا بـالمَـــرْجِ مُنْفَــرِداً عـــن الخِـــلاَّنِ
فَبَكيـتُ لمَّـا أَنْ ذَكَـرْتُـكَ بـالـدِّمـا حتَّـى مَـلأْتُ المَـرْجَ بـالمَـرْجـانِ

● فكتبَ هو إِليَّ الجوابَ من دمشق المحروسة[١] : [من الكامل]

شَوْقي صَلاحَ الدِّينِ نَحْوَكَ لَمْ يَزَلْ مـعْ فَـرْطِ وَجْـدي آخِـذاً بِعِنـانـي
أَوْحَشْتَ عَيْني مُنْذُ سِرْتَ ولمْ تَزَلْ واللهِ يـا مَـوْلايَ نُصْـبَ عِيـانـي
راسَلْتَنـي بِلَطـائِـفٍ يـا حُسْنَهـا هـيَ فـي الضَّميرِ رَسـائِلُ الإِخْـوانِ
لا كـانَ هـذا المَـرْجُ أَجْرَىٰ عَبْرَتي فـي الخَـدِّ كـالبَحْـرَيْـنِ يَلْتَقِيـانِ[٢]
لمَّا بَكَيْتُ الخِلَّ صارَ الدَّمْعُ في عُنُـقِ المُحِـبِّ « قَـلائِـدَ العِقْيـانِ »

● وكتبتُ أَنا إِليهِ وقد انقطعَ عن الدِّيوانِ مُدَّةً[١] : [من الطويل]

أَمَوْلايَ نَجْمَ الدِّيْنِ أَوْحَشْتَ خاطِراً لِبُعْـدِكَ بَعْـدَ القُـرْبِ والأُنْسِ دائِبُ
فَنارُ الجوىٰ لم يُطْفِها مِن مَدامعي بِفَقْدِكَ لمَّا غِبْتَ عَنِّي السَّحائِبُ[٣]
وَقَـدْ أَظْلَـمَ الـدِّيـوانُ بَعْـدَكَ وَحْشَـةً ومـا حـالُ أُفْـقٍ نَجْمُـهُ عَنْـهُ غـائِـبُ

● فكتبَ هو الجوابَ إِليَّ عن ذلك[١] : [من الطويل]

أَيـا مـالِكـاً لـي مـن عُـلاهُ رَغـائِـبُ وفـي كُـلِّ وَقْـتٍ مِـن نَـداهُ غَـرائِـبُ
أَتَتْنِـيَ أَبْيـاتٌ حِسـانٌ لَطـائِـفٌ فَقَلْبـي عَلَيْهـا دائِـمُ الـوَجْـدِ ذائِـبُ
وأَنْتَ الَّذي ما زِلْتَ في أَبْحُرِ النَّدىٰ لَنا من أَياديكَ الكِرامِ عَجائِبُ[٤]

---

(١) الأَبيات في أَعيان العصر .
(٢) في أ : × في الخدّين . . . ! .
(٣) في ب ، س : × لفقدك . . . .
(٤) في ب ، س : وأَنت الذي ما زلت كالبحر في الورىٰ × .

● وكتبتُ أَنا إليهِ وقد وَعَدَني بأَن يَربطَ لي بَغْلَةً على حَشيشٍ عندَهُ في الرَّبيعِ[1] : [من الخفيف]

بَغْلَتــي هــذِهِ تُــريــدُ حَشيشــاً ... مــا أَنــا وَزْنَــهُ بِعَقْلِـي المَعيشــي
فــاصْطَنِعْنــي فــإِنَّ كُــلَّ مَليــكٍ ... وَوَزيرٍ في حَمْلِ هَمِّ الحَشيشي[2]

● فكتبَ هو الجوابَ إليَّ عن ذلكَ[1] : [من الخفيف]

يــا إِمامــاً قــد حــازَ كُـلَّ المَعــاني ... طُــولَ دَهْــري إِليــهِ كُــلُّ هَشيشــي
إِنَّ ذاكَ الحَشيــشَ صــارَ يَبيســاً ... فَــرَعــاهُ يــا مــالِكــي إِكْــدِيْشــي

● وكتبتُ أَنا إليهِ مُلْغِزاً في « تَميم »[3] : [من السريع]

مَــولايَ نَجْــمَ الــدِّيْــنِ يــا مَــنْ لَــهُ ... جَليــلُ وُدٍّ وَهــو أَزْكــىٰ حَميــمْ[4]
مــا اسْــمٌ رُبــاعــيٌّ لَــهُ أَوَّلٌ ... إِن زالَ عنــهُ لــم تَجِــدْ غَيْــرَ ميــمْ

● فكتبَ هو الجوابَ عن ذلك[3] : [من السريع]

[١١ أ] مَولايَ قد قَلَّدْتَ جِيْدي حُليً ... مِــن جَــوْهَــرِ اللَّفْــظِ بِعِقْــدٍ نَظِيْــمْ
أَهْــدَيْتَــهُ مِــن بَحْــرِ عِلْــمٍ لَــهُ ... ذَخــائِــرُ والقَلْــبُ فيهــا يَهيــمْ
مَــوَّهْــتَ مَعْنــاهُ فَتَــمَّ العَنــا ... والبَــدْرُ يَسْبــي مِنْــهُ تــاءٌ ومِيْــمْ

● وكتبَ هو إِليَّ أَيضاً ، وقد كانَ حَصَلَ له ضَعْفٌ : [من المجتث]

مَــولايَ عُــذْراً فــإِنِّــي ... أَصْبَحْــتُ واللهِ مُلْقَــىٰ
وَكَيْــفَ لا يَلْتَقــي مَــن ... أَضْنــاهُ حُبُّــكَ عِشْقــا

---

(١) البيتان في أَعيان العصر .
(٢) في ب : × ووزيرٍ في همّ حمل الحشيش ! .
والمراد من الحشيشيّ : جماعة الحشّاشين المعروفين بالاغتيالات لرجالات ذلك العصر .
(٣) البيتان والجواب عنهما في أَعيان العصر والدّرر الكامنة .
(٤) في م : × خليل ودّ . . .

فَــــإنْ تكُـــنْ لــــي حَيـــــاةٌ أَدَّيْــــتَ فَــــرْضَــــكَ حَقَّـــــا
وإنْ تكُـــــنْ ثَـــــمَّ أُخْـــرَىٰ « تَعيـــشُ أَنْـــتَ وتَبْقَــــىٰ »[1]

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهي أَنَّه لا يَسأَلُ مَولانا : كيفَ انْقَضَتْ ليلتُهُ من الأَلَمِ ؟ دَفَعَ اللهُ عن مَولانا ما يُحاذِرُهُ ؛ والمَرْجُوُّ حُصولُ اللُّطفِ من اللهِ تَعالىٰ ، وكان المملوكُ قد تَخَيَّلَ البارِحَةَ في الزَّهْرِ شَيئاً ، وما يَعلمُ هل هو صحيحٌ أَو فاسِدٌ ، وقد نَظَمَهُ ، وهو : [من البسيط]

انْظُرْ إلـى الزَّهْـرِ كَيْفَ قَـد جُلِّيَتْ عَـروسُـهُ وكَسـاهـا مِـن بَـدائِعِـه[2]
كَـأَنَّـهُ حيـنَ زُفَّـتْ نَحْـوَهُ فَـرَحـاً قَد أَوْقَدَ العَشْرَ يُشْرَىٰ مِن أَصابِعِهِ

● وكتبتُ أَنا إليهِ مُلْغِزاً[3] : [من الطويل]

أَلا خَبِّروني عن صَلاةِ امْرِىءٍ غَدَتْ يَحـارُ بَسيـطٌ عِنْـدَهـا وَوَجيـزُ
تَجـوزُ إذا صَلَّـىٰ إمـامـاً ومُفْـرَداً وإن كـانَ مَـأْمـومـاً فَلَيْـسَ تَجـوزُ

● فكتبَ هو الجوابَ عن ذلكَ : [من الطويل]

أَيـا سَيِّـداً قـد زانَ أَهْـلَ زَمـانِـهِ بِمـا يَقْتَنِيـهِ فـي العُـلا ويَحـوزُ
لَـهُ كُـلُّ عِلْـمٍ قـد تَـدانَـتْ فُـروعُـهُ عَليـهِ مِـنَ اللهِ العَـزيـزِ حُـروزُ
بِـهِ قَلَـمُ الإِنْشـاءِ أَصْبَـحَ كـاتِبـاً ومِنْـهُ بِمـا تَحْـوي يَـداهُ يَفـوزُ

---

(١) العجز مضمّن من قول أبي الحسين الجزّار بعد موت حماره : [الغيث المسجم ٢/ ٢٣٤]
كَـــم مـــن جهـــولٍ رآنـــي أَمشـــي لأَطلـــبَ رزقـــا
فقـــال لـــي : صـــرتَ تمشـــي وكـــلُّ مـــاشٍ مُلَقّـــىٰ
فقلـــتُ : مـــاتَ حمـــاري تعيـــشُ أَنـــتَ وتبقـــىٰ
أو من بيت البهاء زهير : [ديوانه ١٨٧]
تعيـــش أَنـــت وتبقـــىٰ أَنَـــا الـــذي مـــتُّ حقّـــا
(٢) في صدر البيت خلل عروضي . ويصحّ لو قال : انظر إلى الزّهر كيف قد [له] جلّيت × .
(٣) البيتان من قصيدة كتبها المؤلف إلى أحمد بن علي السُّبكي ـ وستأتي في ترجمته بعد هذه الترجمة برقم ١٢ ـ وهي في الوافي ٧/ ٢٥٠ ونكت الهميان ٤٩ تتضمن لغزاً في صلاة الأعمى الأصمّ .

لَغَزْتَ الذي في الصُّورَتَيْنِ صَلاتُهُ ... تَجـوزُ وفـي حـالٍ فَلَيْـسَ تَجـوزُ
فَـأَرْسَلْـتُ فِكْـرِي لَيْلَـةً فـي بَـلاغَـةٍ ... لَهـا فـي مَعـالـي المَشْـرِقَيْـنِ بُـرُوزُ
فَأَصْبَحْتُ كالأعْمىٰ بِهِ صَمَمٌ غَدا ... لَـهُ مـن دَوامِ الفَهْـمِ مِنْـكَ كُنـوزُ[١]

● وكتبَ هو إِليَّ وقد انقطعتُ عن الدِّيوانِ[٢] : [من الكامل]

أَصْبَحْتُ في الدِّيوانِ وَحْدي في عَناً ... وأَذىً أَراهُ بِخـاطِـري وبِعَيْنـي
كُنَّـا بِـهِ مُسْتَـأْمِنِيْـنَ وَلَفْظُنـا ... مِن لُطْفِهِ يُدْعىٰ بِذِي السَّجْعَيْنِ[٣]
وَبِـهِ صَـلاحٌ لَـمْ يَـزَلْ مـع عِلْمِـهِ ... تُـرْوىٰ عَـوالِيـهِ علـى السَّمْعَيْـنِ
فَنَـأَىٰ فَصِـرْتُ على البَـلا مُسْتَوْقِفاً ... أَبْكـي علـى مـا فـاتَ بـالـدَّمْعَيْـنِ
وبَلَـوْتُ أَقْـوامـاً لَبِسْـتُ لأَجْـلِ مـا ... أَخْشـاهُ مِـن تَنْكِيـدِهِـمْ دِرْعَيْـنِ

● فكتبتُ أَنا الجوابَ إِليهِ[٤] : [من الكامل]

حاشاكَ تُصْبِحُ في عَناً أَو في ضَنىً ... نَفْسي فِداؤُكَ في الوَرىٰ من ذَيْنِ
والقَصْـدُ أَنْ تُمْسِي وتُصْبِحَ سالِماً ... فـي صِحَّـةٍ ثَبَتَـتْ قَـريـرَ العَيْـنِ
وإِذا سَلِمْتَ وَدُمْتَ لي ما ضَرَّني ... مَـن رُحْـتُ أَفْقُـدُهُ مِـن الحَيَّيْـنِ
أَدْري مَحَبَّتَـكَ التـي صَحَّـتْ وَمـا ... رُمِيَتْ بِشَيْءٍ في الوَرىٰ من شَيْنِ
مِـن صِـدْقِ وُدِّكَ تَشْتَكـي وَتَـوَدُّ لـو ... أَصْلَحْـتَ مـا بَيْـنَ الـزَّمـانِ وبَيْنـي
مـا هَـذِهِ الفِتَـنُ التـي إِنْ أُخْمِـدَتْ ... نـارٌ أَجَـدَّتْ بَعْـدَهـا نـارَيْـنِ
فَكَـأَنَّهـا الفِتَـنُ التـي تُحْكـىٰ لَنـا ... فِيما مَضىٰ مِن فِتْنَةِ الحَكَمَيْنِ[٥]
أَلقىٰ العِدىٰ وَحْدي وما دِرْعِي سِوىٰ ... صَبْـرٌ تَنـاهَبَـهُ ظُبـا الجَمْعَيْـنِ

---

(١) في ب : × له من دوام الفكر . . . وما بعد ذلك ساقط من س .
(٢) القطعة في أعيان العصر ١/ ٣٠٥ .
(٣) في م : × من نطقه . . .
(٤) القصيدة في أعيان العصر .
(٥) يشير إلى ما حدث من التحكيم بين الإمام عليّ ومعاوية ، رضي الله عنهما .

يا دَهْرُ كُفَّ فقد كُفِيتَ فَما أَنا ... كابْنِ الزُّبَيْرِ ولا أَبي السِّبْطَيْنِ
ومَن الذي لم يَهْتَضِمْهُ زَمانُهُ ... أَوْ ما رَماهُ عَدُوُّهُ بالمَيْنِ
دَعْ ذا فإقْبالي علىٰ شَأْني غَداً ... أَوْلىٰ لِتَبْرَأَ ساحَتي من دَيْنَي(١)
ما بَعْدَ هذا الشَّيْبِ والسِّنِّ التي ... [١١ ب] أَرْبَتْ على السِّتِّينَ غَيْرُ الحَيْنِ
واللهُ أَعْدَلُ حاكِمٍ بَيْنَ الورَىٰ ... وَقَضاؤُهُ فَصْلٌ على الخَصْمَيْنِ

● **وكنتُ قد كتبتُ إلى القاضي المخدومِ ناصِرِ الدِّينِ ، كاتِبِ السِّرِّ الشَّريفِ ، وقد تَخَلَّفْتُ عن التَّوَجُّهِ إلى المَرْجِ صُحْبَةَ الموالي المُوَقِّعين** : [من مجزوء الرمل]

إنَّ لي في المَرْجِ سادَهْ ... أَوْحَشُوا دارَ السَّعادَهْ
يَفْعَلونَ الخَيْرَ دَأْباً ... رَغْبَةً غَيْرَ زَهادَهْ
وإذا جادوا بِفَضْلٍ ... قَرَنُوهُ بالإِجادَهْ
قد بَنَوا لِلمَجْدِ صَرْحاً ... أَسَّسُوهُ بالسِّيادَهْ
فإذا غابُوا وَفاؤوا ... مَلأُوا الدُّنْيا إفادَهْ
بِحُلُومٍ لا تُبارَىٰ ... وعُلُومٍ لا تُبادَهْ
لم يَكُنْ قَطُّ بِعادي ... أَبَداً عَنْهُمْ بِعادَهْ
لكِنِ الدَّهْرُ إذا حَطْـ ... ـطَ على حَظٍّ أَبادَهْ
وإذا كانُوا بِخَيْرٍ ... فَهْوَ قَصْدي وزِيادَهْ

● **فكتبَ المولى نَجْمُ الدِّينِ الجوابَ في غيرِ البَحْرِ** : [من مجزوء الكامل]

يا مَنْ لَهُ الإحْسانُ عادَهْ ... حُزْتَ الرِّئاسَةَ والسِّيادَهْ
يا مَنْ زَكَتْ أَعْمالُهُ ... وَصَلاتُهُ فيها الزِّيادَهْ

---

(١) في م : × . . . من ذَيْنِ .

يـــا مَـــنْ دَنـــا مِـــن قـــابِ قَـــوْ سَيْـــنِ الـــوَفـــاءِ إِلـــى الـــوِفـــادَهْ
نِلْـــتَ الفَضـــائِـــلَ والـــوَســـا ئِـــلَ والعِبـــادَةَ والـــزَّهـــادَهْ
بِـــــاللهِ أُقْسِـــــمُ أَنَّ مِثْـ ـلَـــكَ مـــا حَـــوَتْ دارُ السَّعـــادَهْ
أَوْحَشْـــــتَ مُقْلَـــــةَ مُغْـــــرَمٍ وأَذَبْـــتَ مـــن أَسَـــفٍ فُـــؤادَهْ
وَجَـــرَتْ مَحـــاجِـــرُهُ دَمـــاً أَجْـــرىٰ السُّهـــادُ بِهـــا مِـــدادَهْ
ونَفـــىٰ بِعـــادُكَ والـــذي تَـــدْرِيـــهِ مِـــن حـــالٍ رُقـــادَهْ
مَـــوْلايَ رِفْقـــاً بـــالـــذي حَقَّقْـــتَ بِـــالحُـــبِّ اعْتِقَـــادَهْ
والـــدَّهْـــرُ لا يَـــرْثـــي لَـــهُ أَيْضـــاً ولـــم يُـــزْكِ عِنـــادَهْ[1]
فَعَلَيْـــكَ مـــن دُونِ العَشيْـ ـرَةِ فـي الـدُّنـا أَلْقـىٰ اعْتِمـادَهْ
وإِليـــكَ أَلْقـــىٰ يـــا مُـــذيْـ ـبَ الـرُّوحِ فـي الجَسَـدِ انْقِيـادَهْ
جـــاءَتْ قَصيـــدَتُـــكَ التـــي يَقْضـــي بهـــا دَنِـــفٌ مُـــرادَهْ
تُجْلـــىٰ عَـــروســـاً قـــد غَـــدَتْ شَمْـــسُ النَّهـــارِ لَهـــا قِـــلادَهْ
وَتَضَمَّنَـــتْ وَصْـــفَ الـــذي قـــد زانَـــهُ رَبِّـــي وزادَهْ
فَنَشَقْـــتُ نَشْـــرَ عَبيـــرِهـــا وجَعَلْـــتُ مِيْسَمَهـــا وِســـادَهْ
وَوَدَدْتُ تَقْبيـــلَ الحُـــرُو فِ وسَيِّـــدي يُبْقـــي وِدادَهْ

● **فكتبتُ أَنا الجوابَ إِليهِ على هذا الوزنِ :** [من مجزوء الكامل]

يـــا مَـــنْ إذا أَبْـــدىٰ جِـــلادَهْ لـــم تَبْـــقَ فـــي قَـــرْنٍ جَـــلادَهْ
يـــا فـــارِســـاً أَقْـــلامُـــهُ يَـــوْمَ الطِّعـــانِ غَـــدَتْ صِعـــادَهْ
والصُّبْـــحُ أَشْبَـــهَ طِـــرْسَـــهُ واللَّيْـــلُ قـــد حـــاكـــىٰ مِـــدادَهْ
مـــا خَـــطَّ سَطْـــراً قَـــطُّ إِلْـ ـــلاَ زَفَّ لِـــلأَبْصـــارِ غـــادَهْ

(١) في م : × . . ولم يترك عناده .

أَخَذَ الكَواكِبَ في الدُّجى ... قَسْراً ونَظَّمَها قِلادَهْ
مَولايَ نَجْمَ الدِّيْنِ يا ... قَمَرَ الرِّئاسَةِ والسِّيادَهْ
جاءَتْ قَصيدَتُكَ التي ... أَهْدَتْ إلى طَرْفي رُقادَهْ
حَيَّتْ فَأَحْيَتْ مُغْرَماً ... قد فازَ بَعْدَكَ بالشَّهادَهْ
والدَّمْعُ عن مَطَرٍ رَوى ... والجَفْنُ حَدَّثَ عن قَتادَهْ[1]
عن واقِديٍّ ضُلوعِهِ ... عن مِسْعَرٍ أَزْكى فُؤادَهُ[2]
فاسْتَنْقَذَتْهُ من الجَوى ... وَرَنَتْ إليهِ بِما أَرادَهْ
غَرّاءُ حالِيَةُ الطُّلى ... نَظَري مَحاسِنَها عِبادَهْ
ناجَتْ بِلَفْظٍ قَدْ حَلا ... أَدّى لَهُ الشُّهْدُ الشَّهادَهْ
بِفَصاحَةٍ وبَلاغَةٍ ... تَرْمي لَبيداً بالبَلادَهْ
وعَبِيْدُ أَصْبَحَ عَبْدَها ... والبُحتريُّ أَبو عُبادَهْ
ويُعَدُّ مِن أَجْنادِها ... إن كانَ تَرْضاهُ جُنادَهْ[3]
رَقَّتْ حَواشِيْها فَطا ... رَ لِحُسْنِها ابْنُ أَبي جَرادَهْ[4]

---

(١) التورية في الشطر الأول ، بين المطر وبين مطرٍ راوٍ للحديث ؛ وفي رجال الحديث غير واحدٍ ممَّن يُسمّى بمطر ، وليس المقصود شخصاً بعينه .
والقتاد في الشطر الثاني : شجر صلب له شوكة كالإبر . (القاموس) ولعل الإشارة إلى قتادة بن دعامة السَّدوسيّ ، تابعيٌّ ، توفي سنة ١١٧ هـ . (الوافي ٢٤/ ١٩١) .
(٢) الواقد : مشعل النار . والواقدي : محمد بن عمر بن واقد الأسلميّ ، الإمام المدني ؛ توفي سنة ٢٠٧ هـ . (الوافي ٤/ ٢٣٨) .
والمِسْعَر : ما أُوقد به النّار . ومسعر بن كدام ، الهلاليّ الكوفيّ الحافظ ؛ توفي سنة ١٥٥ هـ . (الوافي ٢٥/ ٤٩٢) .
(٣) لعل الإشارة إلى جُنادة بن محمد الأزدي الهروي اللُّغوي ، العلاَّمة الأديب ؛ قتله الحاكم سنة ٣٩٩ هـ . (الوافي بالوفيات ١١/ ١٩٢) .
(٤) ابن أبي جرادة : هو أبو علي ، الحسن بن عليّ بن عبد الله بن محمد ، كان كاتباً فاضلاً ، شاعراً أديباً ؛ توفي سنة ٥٥١ هـ . (الوافي ١٢/ ١٧٣) .
=

لَـــم يَبْــقَ عِنْــدي زُبْـــدَةٌ   مِــن بَعْـدِهـا لِفَتــىً زَبـادَهْ[1]
وابْـــنُ الأَثيـــرِ فَـــأَوْجُــهُ   مِــنْ أَوْجُــهٍ سَكَنَـتْ وِهــادَهْ[2]
والأَرَّجــانــي مــا جَنــىٰ   زَهْــرَ القَــريــضِ ولا اسْتَفــادَهْ
عَطَّلْـــتَ فـــي الإِنْشـــاءِ فَنْـ   ـنَــاً كــانَ قَــدْ أَعْلــىٰ عِمــادَهْ[3]
[١٢ أ] فــارْفُــقْ بِعَبْــدٍ نَقْصُـــهُ   لِكَمـــالِ فَضْلِــكَ فـــي زِيـــادَهْ
وأَجِـــزْهُ واجْـــرِ علــىٰ عَــوا   ئِــدِ خَيْــرِهِ فــالخَيْــرُ عــادَهْ

١٢ * أَحمد بن عليّ بن عبد الكافي بن عليّ بن تمَّام بن يوسف بن موسى ابن تمَّام بن حامد بن يحيىٰ بن عمر بن عُثمان بن مِسوار بن سِوار بن سُلَيْم[4] :

الشَّيْخُ الإِمامُ العلاَّمةُ ، قاضي القُضاةِ ، بَهاءُ الدِّين ، أَبو حامد ، ابن العلاَّمة شيخِ الإِسْلامِ ، قاضي القُضاةِ ، تَقِيِّ الدِّين أَبي الحسن ، الحاكم بالشَّام المَحروسِ ، الأَنصاريّ ، الخَزْرَجيّ ، السُّبْكيّ ، الشَّافِعيّ .

---

(١) ابن زَبادة : يحيىٰ بن سعيد بن هبة الله الشيباني ، الكاتب الشاعر الفاضل ؛ توفي سنة ٥٩٤ هـ . (مسالك الأَبصار ١٢/ ٣١٢) .

(٢) ابن الأَثير : نصر الله بن محمد بن محمد ، الجزري الكاتب ، صاحب الرسائل ؛ توفي سنة ٦٣٧ هـ . (مسالك الأَبصار ١٢/ ٢٦٩) .

(٣) في أ : × قد كان . . . ! .

(٤) ترجمته في : المعجم المختصّ ٢٩ والوافي بالوفيات ٧/ ٢٤٦ ووفيات ابن رافع ٢/ ٥٧ والذيل على العبر ٢/ ٣٣٤ وتعريف ذوي العلا ٢١٣ والعقد الثمين ٣/ ٣٨٣ ودرر العقود الفريدة ١/ ٢٥٠ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٤٠١ وإنباه الغمر ١/ ٢١ والدّرر الكامنة ١/ ٢١٠ والنجوم الزاهرة ١١/ ١٢١ والمنهل الصافي ١/ ٤٠٨ والدليل الشافي ١/ ٦٢ والذيل التام ١/ ٢٥٣ والدارس ١/ ٣٦٦ وبغية الوعاة ١/ ٢٤٢ وحسن المحاضرة ١/ ٣٧٥ ودرّة الحجال ١/ ١٠٠ وشذرات الذهب ٨/ ٣٨٨ والبدر الطالع ١/ ٨١ .
ـ مولده سنة ٧١٩ هـ . ووفاته سنة ٧٧٣ هـ .
ـ قال ابن قاضي شهبة : وكان اسمه تمّاماً ، إِلى أَن جاوزَ سِنَّ التَّمييز ، ثم غُيِّرَ . وكذا في الدّرر الكامنة .

● كتبَ إليَّ من الشَّام المحروسِ ، وقد وَرَدَ إلى زيارةِ والِدِهِ ، وأنا بالقاهرةِ المحروسَةِ ، فاخْتَلَفْنَا في الطَّرِيقِ ، وذلكَ في سنة ٧٤٥ : [من الطويل]

خَليليَّ هَلْ مِن حِيْلَةٍ أَسْتَفِيدُها ... وَهَلْ مِن سَبيلٍ في الهَوى أَسْتَزِيدُها
وَلَيْسَ احْتِيالي في الأُمورِ بِنافِعٍ ... إذا كانَ مَنْ أَهْواهُ لَيْسَ يُريدُها
وما قَصَّرَتْ مِنْ بُغْيَةِ الوَصْلِ عَزْمَتي ... ولكنَّ دَهْري لا يَزالُ يَكيدُها[1]
ولمَّا تَمادَتْ شُقَّةُ البَيْنِ بَيْنَنا ... وشَقَّ تَمادِيها وطَالَ وُجودُها
ولم أَرَ في مِصْرٍ خَليلاً مُوَاتِياً ... ولا حاجَةً إلاَّ تَصَدَّىٰ صُدودُها
وكُنْتُ إذا ما جِئْتُ لِلشَّامِ زائِراً ... «أَرى الأَرْضَ تُطْوىٰ لي ويَدْنُو بَعيدُها»[2]
وتَسْهُلُ لي حتَّىٰ أُلِمَّ بِجِلَّقٍ ... ولو حالَ دُونَ السَّهْلِ مِنْها صُعودُها
أَتَيْتُ دِمَشْقاً كي أَفوزَ بِقُرْبِكُمْ ... وأُصْلِحَ أَحْوالاً أَضَرَّ شَديدُها[3]
فَلَمْ أَرَ فيها من صَلاحٍ ولَمْ أَجِدْ ... خَليلاً تَرىٰ نَفْسي بِها ما يُفيدُها
وعايَنْتُ وادِيْها تَفيضُ عُيونُهُ ... فَيَسْقُطُ مِن تِلْكَ القُلوبِ جَليدُها
وأَوْراقُهُ اصْفَرَّتْ فَما راقَ حُسْنُها ... وأَفْنانُهُ تَفْنىٰ ويَذْبُلُ عُودُها
وقَد بَكَتِ السُّحْبُ الرِّبا بِمَدامِعٍ ... تُجِيدُ لها السُّقْيا إذا ما تَجودُها
وثارَ بِثَوْرا ثُمَّ في بَرَدىٰ الرَّدىٰ ... وما زادَ إلاَّ النَّقْصَ منها يَزيدُها[4]
وَقَفْتُ بِها كَالمُسْتَجيرِ مُرَوَّعاً ... مَواقِفَ ثَكْلَىٰ ضاعَ مِنْها وَليدُها
أُناشِدُ مَن لاقَيْتُ بِاللهِ هَذِهِ ... دِمَشْقُ التي قَدْ كُنْتُ قِدْماً أَرودُها ؟

---

(١) في م : . . . عن بغية الوصل . . . × .

(٢) العجز لكثير عزّة ، في ديوانه ٢٠٠ من قوله :

وكنت إذا ما جئتُ سُعدىٰ بأرضها ... أرى الأرض تُطوى لي ويدنو بعيدُها
من الخفرات البيض ودَّ جليسُها ... إذا ما انقضت أُحدوثةٌ لو تُعيدها

ونسبهما الخالديان في الأشباه والنظائر ١/١٩٨ إلى العوامّ بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سُلمى .

(٣) في ب : × . . . أضرَّ تليدُها .

(٤) ثورا ويزيد : من فروع بردىٰ .

فَمـا لـيَ قَـد أَنْكَـرْتُ مِنْهـا مَعـاهِـداً وغادَرْتُها بالغَدْرِ ضاعَتْ عُهودُها
أَم ارْتَحَلَـتْ عَنْهـا رَكـائِـبُ مَـن لَـهُ مَنـاقِـبُ مَجْـدٍ لا يُطـاقُ جُحـودُهـا
أَقـامَ بِمِصْـرٍ فـاسْتَقـامَـتْ طَـريقُهـا وعـادَ إِلَيْهـا بـالمَسَـرَّةِ عِيْـدُهـا[1]
وحَـلَّ بِـوادِيْهـا فكَـمْ مـن فَضـائِـلٍ تَلـوحُ بَـوادِيْهـا ويَـدْنُـو شَـريـدُهـا
وأَقْـدَمَ فيهـا كُـلَّ سَعْـدٍ قُـدومُـهُ وجَدَّدَ نُعْمىٰ لَيْسَ يَبْلىٰ جَديدُها
فَتــىً لِلمعــالــي والعِـدىٰ مُتَيَقِّـظٌ فَهـاتِيـكَ يُبْـديهـا وهَـذِي يُبِيْـدُهـا
بَسيطُ الأَيـادِي وافِـرُ الفَضْـلِ كـامِـلٌ طَويلُ المَساعي في العُلىٰ ومَديدُها[2]
وجـامِـعُ أَشْتـاتِ الفَضـائِـلِ والتُّقـىٰ فَطـارِفُهـا يَـأْوِي لَـهُ وتَليـدُهـا
تجـاوَزَ فـي نَظْـمِ القَصيـدِ لِغـايَـةٍ حَوىٰ قَصَباتِ السَّبْقِ مِنْها قَصيدُها
يَشيـبُ لَهـا رَأْسُ الـوليـدِ ويَنْثَنـي لَبيـدٌ عـن الأَفْكـارِ وَهْـوَ بَليـدُهـا[3]
فَما ظافِرٌ في بَهْجَةِ الشِّعْرِ ظافِرٌ بِتِلْكَ وَلا القاضِي السَّعيدِ سَعيدُها[4]
وإِنْ عُـدَّتِ الكُتَّـابُ فَهْـوَ عِمـادُهُـمْ إِذا صَنْعَةُ الإِنْشاءِ مالَ عَمودُها[5]
فَما الفاضِلُ المَشْهُورُ فيها بِفاضِلٍ لَـدَيْـهِ ولا عَبْـدُ الحَمِيـدِ حَميـدُهـا
وفـي كـلِّ عِلْـمٍ نـالَ بـاعـاً مُسَـدَّداً وآراءَ حَـقٍّ لَيْـسَ يَنْبـو سَـديـدُهـا[6]
لَـهُ هِمَّـةٌ فَـوقَ السُّهـا حَـلَّ أُسُّهـا تَشُـدُّ مَبـانِيهـا العُـلا وتَشيـدُهـا
وعَزْمَةُ حَزْمٍ ما وَنَتْ عِنْدَما نَوَتْ ولا خابَ مَسْعاها وخانَتْ وُعودُها[7]

---

(١) في أ : × . . . . بالمسيرة عيدها .
(٢) في ب : . . . وافر الجود كامل × .
(٣) في أ : يشيب لها رأي الوليد . . × .
(٤) ظافر : هو ظافر الحداد ، شاعر الإسكندرية ، وديوانه مطبوعٌ مشهورٌ .
والقاضي السَّعيد : هو ابن سناء المُلك ، صاحب الديوان المشهور .
(٥) في م : × . . . فهو إمامهم × .
(٦) في م : × . . . ليس ينبو عديدُها .
(٧) في ب : × . . . وخانت عهودها . وفي م : وخابت وعودها .

ومَكْـرُمَـةٍ فـي طَيِّهـا كُـلُّ نِعْمَـةٍ ... [١٢ب]وقد نُشِرَتْ في الخافِقَيْنِ بُنودُها
وسُحْبُ أَيـادٍ حَيْثُمـا وَكَفَـتْ كَفَـتْ ... وعَمَّ نَداها في الوُجودِ وَجُودُها
مَـدائِحُـهُ تَكْسُـو القَـريـضَ مَحاسِناً ... ويَحْلُـو بِـأَفْـواهِ الـرُّواةِ نَشيـدُهـا
وأَوْصـافُـهُ مِثْـلُ الكَـواكِـبِ كَثْـرَةً ... وَقَدْ نُظِمَتْ في حُسْنِ سِلْكٍ عُقودُها
أَقَمْتَ صَلاحَ الدِّيْنِ في مِصْرَ مُصْلِحاً ... فَطافَتْ بِها بَعْدَ النُّحوسِ سُعودُها[(١)]
وأَظْلَـمَ مِـن أَيَّـامِ جِلَّـقَ بِيْضُهـا ... وأَمْسَتْ لَيالي مِصْرَ تُشْرِقُ سُودُها[(٢)]
تَحاسَدَتِ الأَمْصارُ فِيكَ ونافَسَتْ ... وزادَتْ بِـأَرْضٍ أَنْـتَ فيهـا وُفـودُهـا
فـأَعْطَيْـتَ كُـلاًّ مِـن وِصـالِـكَ حَظَّـهُ ... فَطـابَـتْ مَغـانِيهـا وزالَـتْ حُقُـودُهـا
فَمَنْ لِي بِمِصْرٍ بَعْدَما كُنْتُ أَبْتَغي ... نَـواهـا وأَنْ تَنْفَـكَّ عَنِّـي قُيـودُهـا[(٣)]
وبـالـرَّغْـمِ مِنِّـي أَن أَكُـونَ بِبَلْـدَةٍ ... تُبـاعِـدُ مـا بَيْنِـي وبَيْنَـكَ بِيْـدُهـا
إذا الجَهْـلُ أَمْسـىٰ لِلعُلـومِ مُـدَرِّسـاً ... فَأَنْتَ ولا نَقْصٌ عَلَيْكَ مُعيدُها[(٤)]
وإِنْ سادَ قَوْمٌ في الوَرىٰ بِجُدودِهِمْ ... فَعِنْـدَكَ نَفْـسٌ سَـوَّدَتْهـا جُـدودُهـا
وكَـم لَـكَ مِن أَعْـلامِ عِلْـمٍ وسُـؤْدَدٍ ... وأَوْصافِ مَجْدٍ لَيْسَ يُحْصىٰ عَديدُها
قَـدامَـتْ لَـكَ النَّعمـاءُ بَيْـنَ سِيـادَةٍ ... ونـابَـتْ بِسَعْـدٍ لا يَـزالُ يَـزيـدُهـا[(٥)]

● **فكتبتُ أَنا الجوابَ إليه عن ذلكَ :** [من الطويل]

خَليلـيَّ هَـلْ مِـن زَوْرَةٍ أَسْتَعيـدُهـا ... لَعَـلَّ الحَشـا يُطْفـىٰ بِـذاكَ وَقـودُهـا
وَهَلْ مُقْلَتي العَبْرىٰ يَزورُ هُجوعُها ... لَعَـلَّ جُفـونـي أَن يَـزُولَ هُجـودُهـا

---

(١) في أ، م : × . . نحو النُّحوس سعودُها .
(٢) في س : وأَظلمَ من آفاق جلّق . . . × .
(٣) في ب : × . . ولن تنفكّ . . .
(٤) في ب : . . . مدارساً × .
(٥) في ب : × وبانت . . .

وهَلْ جَمْعُ شَمْلِي مُمْكِنٌ بَعْدَ فُرْقَةٍ ... تَكُدُّ قُوىٰ نَفْسي ضَنىً وتَكِيْدُها[1]
وَدَعْ كُلَّ ذا هَلْ في مَدىٰ العُمْرِ فُسْحَةٌ ... فـإنَّ الأَمـانـي لا يَقِـلُّ عَـديـدُهـا
فـأَحْبِبْ بِـأَيّـامٍ مَضَـتْ لـم أَرُدَّهـا ... وأَقْبِـحْ بِـأَيَّـامٍ أَتَـتْ لا أُريـدُهـا
يُعانِدُني دَهْري فَيَعْكِسُ مَقْصِدي ... كـذا هـذِهِ الـدُّنْيـا يَكـونُ وُجـودُهـا
قَصَدْتُ حِمىٰ مِصْرٍ تُصاحِبُني المُنىٰ ... ويَحْسُنُ من غَذِّ الظُّنونِ وُعودُها[2]
علـى أَنَّ مَـن أَرْجُـوهُ فيهـا ذَخيـرَةً ... يَصُـدُّ عَـوادي غُـرْبَتـي وَيَصيـدُهـا
ويَغْـدُو فَيُنْسِينـي مَحـاسِـنَ مَـوْطِني ... بِحُسْـنِ أَيـادٍ لا يُطـاقُ جُحـودُهـا
فَمـا جِئْتُهـا إِلاَّ وعـالـي رِكـابِـهِ ... يَسيـرُ بِـهِ فـي كـلِّ أَرْضٍ بَـريـدُهـا
فَيَـا خَيْبَـةَ الآمـالِ فـي مـا أَرومُـهُ ... أَمـا آنَ لِـلأَقْـدارِ تَـأْتِـي سُعـودُهـا
أَبـا حـامِـدٍ قَلْبـي يَـرِفُّ علـى الـوَلا ... «رَفيفَ الخُزامىٰ باتَ طَلٌّ يَجودُها»[3]
وفـي كِبـدي لِلْبَيْـنِ لاعِـجُ لَـوْعَـةٍ ... ونارٌ على قَلْبي بَطِيءٌ خُمودُها[4]
إذا كُنْتَ في مِصْرٍ يَطِيبُ هَواؤُها ... ويُعْشِـبُ وادِيْهـا وَيَخْضَـرُّ عُـودُهـا
وإِنْ جِئْتَ أَرْضَ الشَّامِ رَوَّضْتَ رَبْعَها ... وفاحَتْ شَذىً أَغْوارُها وَنُجودُها
وبـاتَـتْ بُـروقُ الجَـوِّ بـاسِمَـةً كَمـا ... يُقَهْقِهُ من فَرْطِ السُّرورِ رُعودُها[5]
ويَنْـدىٰ علـى الأَكْبـادِ بَـرْدُ نَسِيْمِهـا ... وتُضْفي على الأَزْهارِ مِنْكَ بُرودُها[6]
أَلا يـا بَنـي قـاضـي القُضـاةِ عَلَـوْتُـمُ ... على رُتَبٍ فَوْقَ السِّماكِ مُهودُها[7]

---

(١) في ب : × . . . عنىً وتكيدها .
(٢) في ب : × من غدا الظنون فهودها .
(٣) العجز مضمّن من قولِ الحسين بن مطير الأسدي : [ديوانه ٤٥]
يُمَنِّيننـا حتـى تـرفَّ قلـوبُنـا ... رفيـف الخُـزامـىٰ بـات طَـلٌّ يَجـودُهـا
(٤) من قول الحسين بن مطير أيضاً : [ديوانه ٤٤]
لقـد كنـتُ جَلـداً قبـلَ أَن تُـوقـد النّـوى ... علـى كبـدي نـاراً بطيئـاً خمـودُهـا
(٥) في م : وباتت نجوم الجو . . . × .
(٦) البيت ساقط من س .
(٧) في ب : × . . . . خلودها .

لَكُمْ مَعْ كَمَالِ المَجْدِ والعِلْمِ والتُّقىٰ عُقُولٌ علىٰ جِيْدِ الزَّمانِ عُقودُها
وكَمْ لَكُمُ من هِمَّةٍ تَبْلُغُ المَدى وتَخْفِقُ ما بَيْنَ العَوالي بُنودُها
فَأَمَّا بَهاءُ الدِّينِ أَحمدُ فَهْوَ مَنْ يُفيتُ الأَعادي والموالي يُفيدُها
غَدا بارِعاً في كُلِّ عِلْمٍ أَما تَرىٰ قَواعِدَهُ في البَحْثِ كَيْفَ يُشيدُها
تَراهُ إِذا أَمْلىٰ فَوائِدَ دَرْسِهِ يُجَدِّلُ أَبْطالَ الوَغىٰ ويُبيدُها
نَوَدُّ لِما يَأْتي بِهِ مِن فَصاحَةٍ «إِذا ما انْقَضَتْ أُحْدُوثَةٌ لو يُعيدُها»(١)
تَرىٰ ذِهْنَهُ الوَقَّادَ كالسَّيْلِ طافِحاً إِذا ما اعْتَرىٰ الأَذْهانَ يَوْماً خُمودُها(٢)
مِنَ الخَزْرَجِيِّينَ الذينَ عُلاهُمُ بِطُولٍ يَفوقُ الفَرْقَدَيْنِ صُعودُها(٣)
أَمَوْلايَ قد حُزْتَ المَحاسِنَ كُلَّها [١٣ آ] فَدَعْ لِيَ مِنْها فُضْلَةً أَسْتَفيدُها
أُجارِي بِها آدابَكَ الغُرَّ قاصِراً فَإِمَّا أُدارِيْها وإِمَّا أَرُودُها
لَكَ العَطْفُ من جَوْرِ المعاني ولِيْنُها ولي دائِماً إِعْراضُها وصُدودُها
وعِنْديَ مِنْها مَيْتُها وقَديمُها وعِنْدَكَ منها حَيُّها وجَديدُها
بَعَثْتَ علىٰ بُعْدٍ مِنَ الدَّارِ بَيْنَنا مُشَرَّفَةً قد زادَ فيَّ حَسودُها
أَجَدْتَ مَعانيها وحَرَّرْتَ لَفْظَها فَفاقَتْ قَوافيها وَراقَ نَضيدُها
فَعينيَ تَسْتَجْلي حُلاها وكُلَّما تَأَمَّلَها فِكْري غَدا يَسْتَعيدُها
إِذا حاوَلَ الغِرُّ الدُّخولَ لِغابِها أَساوِدُها تَخْتالُهُ وأُسودُها(٤)
قَضىٰ كُلُّ ذِهْنٍ أَنَّها قَد تَفَرَّدَتْ بِحُسْنِ مَعانٍ قد تَزَكَّتْ شُهودُها
كَأَنَّ قَوافيها حِسانٌ تَبَرَّجَتْ وهاآتُها في الصَّدْرِ مِنْها نُهودُها
فَهَلْ أَلِفاتٌ في السُّطورِ تَعَدَّلَتْ غُصونٌ تَبَدَّتْ لِلعُيُونِ قُدودُها

---

(١) عجز ثاني بيتي كثيّر عزّة - وفي أ : لا تعيدها ! .
(٢) البيت ساقط من س .
(٣) في س : × يطولُ بفرق الفرقدين صعودُها .
(٤) في م : . . . لبابها × .

نَعَمْ هَـذِهِ الأَبْيـاتُ أَبْيـاتُ عَلْـوَةٍ جَلَتْها لِعَيْنِ العاشِقِيْنَ زَرودُها[1]
تَـراءَتْ لَهُـمْ مِنْهـا مَنـازِلُ صَبْـوَةٍ وقد خَطَرَتْ بَيْنَ المَضارِبِ غِيْدُها
تَسُوقُ قُلوبَ الشَّائِقينَ إلى الحِمىٰ إذا غـازَلَتْهـا رِقَّـةٌ وتَقـودُهـا
فَـلا أَعْيُـنٌ إلاَّ تَفيـضُ دُمـوعُهـا وَلا مُهَـجٌ إلاَّ يَـذوبُ جَليـدُهـا
لقـد شَنَّفَـتْ سَمْعَ الـوَرى بِنِظـامِهـا ورصَّعَ فـي تـاجِ الـزَّمـانِ فَريدُهـا
فَما في كِتابِ « العِقْدِ » دُرٌّ كَنَظْمِها ولا بَيْنَ أَصْواتِ « الأَغاني » نَشيدُها

يُقَبِّلُ الأَرضَ ، ويُنْهي وُرودَ القَصيدةِ الدَّالِيَّةِ ، والفَريدةِ التي ليسَ للأَفْكارِ على الإِتْيانِ بمثلِها دالِّيَّةٌ ؛ لَقد شَرَّفَتْ حرفَ الدَّالِ حتَّىٰ نَصَبَتْ قامَتَها من رَقْدَتِها ، وقَوَّمَتْ بعدَ الانْحِناءِ مَيْلَ حَدْبَتِها ؛ وأَقامَتِ الأَلِفَ فَانْتَصَبَتْ لِخِدْمَتِها ، فلهذا رُزِقَتِ الحَظَّ والجَدَّ ، وخُتِمَتْ بِها حُروفُ أَبْجَدَ .

وأَمَّا الهاءُ الَّتي قد جاءَت بعدَها رِدْفاً ، فَأَلِفُ الإِطلاقِ تَأَوَّدَتْ قامَةً واهْتَزَّتِ الهاءُ رِدْفاً ؛ فلا غَرْوَ أَن وَقَفَ الحُسْنُ على ذلكَ القَدِّ المُتَأَوِّدِ والرِّدْفِ المُهْتَزِّ ، وأَصْبَحَ ناظِمُها المُقْتَدِرُ مُوَفَّقاً لمَّا فاقَ ابنَ المُعتَزِّ ، وشَهِدَ النَّاسُ لِمن حاكَ وَشْيَها أَنَّهُ رَفيعُ البَزِّ ، فَعَيْنُ اللهِ على هذِهِ الكَلِمِ ، والمَحاسِنِ التي مَن عارَضَها فَقد سَلَّمَ لَها ، ومَنْ لم يَتَعَرَّضْ فَقَدْ سَلِمَ .

● **وكتبتُ أَنا إِليهِ ونحنُ بدمشقَ سنة ٧٤٤**[2] : [من البسيط]

أَبـا حـامِـدٍ إِنِّـي بِشُكْـرِكَ مُطْـرَبٌ كَـأَنَّ ثَنـائـي فـي المَسـامِـعِ شِيْـزُ[3]

---

(١) زَرود : رمالٌ بين الثعلبيَّة والخزيميَّة ، بطريق الحاج من الكوفة . (معجم البلدان ٣/ ١٣٩) .
(٢) القصيدة والجواب عنها في الوافي ٧/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ ونكت الهميان ٤٩ .
(٣) الشيز : لعلّه ضربٌ من الألحان . قال الصفدي في الكشف والتّنبيه ١٢٤ : « والاشتراك في كيفيَّةٍ مسموعةً كتشبيه أَطيط الرَّجل بأَصوات الفراريج . . . وكتشبيه أَصوات الضّفادع بالشِّيز ، وصوت الدُّولاب بالزَّمر ، كقول الشاعر :
وكـأَنَّمـا الـدُّولابُ يَـزْمُـرُ كُلَّمـا غَنَّـت ، وأَصـوات الضَّفـادع شيـزُ

لَقَدْ حُزْتَ فَضْلَ الفِقْهِ والأَدَبِ الذي يَفوتُ الغِنىٰ مَن لا بِذاكَ يَفوزُ[1]
وَفُتَّ المدىٰ مَهْلاً إلى الغايَةِ التي لَها عن لَحاقِ السّابِقينَ بُروزُ
فَأَصْبَحْتَ في حَلِّ الغَوامِضِ آيَةً تَميلُ إلى طُرْقِ الهُدىٰ وتَميزُ
كَأَنَّ حُروفَ المُشْكِلاتِ إذا أَتَتْ لَدَيْكَ على حَلِّ العَويصِ رُموزُ
وَأَثْرَيْتَ فاصْرِفْ لِلمَساكينِ فَضْلَةً فَعِنْدَكَ مِن دُرِّ البَيانِ كُنوزُ[2]
تُجيدُ القَوافي والقُوىٰ في بِنائِها فَبَيْتُكَ لِلْمَعْنىٰ الشَّرُودِ حَريزُ[3]
سَأَلْتُ فَخَبِّرْ عن صَلاةِ امْرِىءٍ غَدَتْ يَحارُ بَسيطٌ عِنْدَها وَوَجيزُ
تَجوزُ إذا صَلَّىٰ إماماً ومُفْرَداً وإنْ كانَ مَأْموماً فَليسَ تَجوزُ
فَأَوْفِ لَنا كَيْلَ الهُدىٰ مُتَصَدِّقاً فَأَنْتَ بِمِصْرٍ والشّآمِ عَزيزُ
فَمَنْ ذا الَّذي يُرْجىٰ وأَنْتَ كَما نَرىٰ مُجيدٌ مُجيبٌ لِلسُّؤالِ مُجيزُ

● **فكتبَ الجوابَ إليَّ سَريعاً** : [من الطويل]

أَيا مَنْ لِشَأْوِ العِلْمِ باتَ يَحوزُ ومَن لِسِواهُ المَدْحُ لَيْسَ يَجُوزُ[4]
ومَن حازَ في الآدابِ ما اقْتَسَمَ الوَرىٰ [١٣ ب] فَلَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ عَنْهُ نُشوزُ
ومَن ضاعَ عَرْفُ الفَضْلِ مِنْهُ ولمْ يَضِعْ بِجَدْواهُ عُرْفُ الجُودِ فَهْوَ حَريزُ
سَأَلْتَ وما المَسْؤُولُ أَعْلَمَ بالذي أَرَدْتَ ولا مِنْهُ عَلَيكَ بُروزُ
وقُلْتَ امْرُؤٌ لا يَقْتَدي غيرَ أَنَّهُ إماماً وفَرْداً بالجَوازِ يَفوزُ[5]
وذاكَ فَتىً أَعْمىٰ نَأَىٰ عَنْهُ سَمْعُهُ وَلَيْسَ لأَفْعالِ الأَنامِ يَميزُ[1]
فَهاكَ جَواباً واضِحاً قَد أَبَنْتُهُ ومِثْلي على حَلِّ الصِّعابِ ضَموزُ[6]

---

(١) في م : . . . فضل الله . . . × .
(٢) في ب : وآثرت . . . × . . من ذاك البيان . . .
(٣) في ب : تجدّ القوافي . . . × . وفي م : . . . في بيانها × .
(٤) في ب : أيا مَن لشأن . . . × .
(٥) ساقط من س .
(٦) في هامش م : الضَّمور ـ بضادٍ معجمةٍ وزاي ـ الأَسد . قاموس .

فَإِنْ كَانَ هَذا ما أَرَدْتَ فَإِنَّما بِفَضْلِكَ في الدُّنْيا تُفَكُّ رُموزُ[1]
وإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فالذي هو لازِمٌ جَوابٌ لِمَضْمُونِ السُّؤالِ يَحوزُ[2]
فَلا زِلْتَ تُبْدي من فَضائِلِكَ التي تَزِيدُ مع الإِنْفاقِ وهْي كُنوزُ
فَأَنْتَ صَلاحُ الدِّيْنِ والنَّاسِ والدُّنا وَأَنْتَ خَليلٌ والخَليلُ عَزيزُ[3]

● وكتبَ هو إليَّ من القاهرةِ المحروسَة ، وأنا بالشَّامِ المحروسِ ، مُلْغِزاً في « النِّيلِ »[4] : [من الطويل]

أَلا لَيْتَ شِعْري هَلْ أَبيتَنَّ لَيْلَةً بِوادٍ وحَوْلي صاحِبٌ وخَليلُ[5]
وهَلْ لي بِأَرْضِ الشَّامِ ما عِشْتُ عَوْدَةٌ فَيُنْعِشَني بعدَ البِعادِ وُصولُ
أَرىٰ قَدَمي لَمَّا تَجاوَزْتُ جِلَّقاً أَراقَ دَمي والوُدُّ لَيْسَ يَزولُ
فَصَبْري وَوَجْدي ذاكَ عَنِّي راحِلٌ وهذا لَهُ بَيْنَ الضُّلوعِ مَقيلُ
وَقَلْبي وطَرْفي ذاكَ من لاعِجِ الجَوىٰ يَجِفُّ وهذا بالدِّماءِ يَسيلُ
وفَودي وجِسْمي ذاكَ أَمْسىٰ سَوادُهُ يَحولُ وهذا بالفِراقِ نَحيلُ
قِصارُ اللَّيالي مُنْذُ شَطَّتْ بيَ النَّوىٰ « طِوالٌ ولَيْلُ العاشِقِينَ طَويلُ »[6]
ويَخْفِقُ قَلْبي للغُرابِ وخَفْقِهِ وما لي بِرَدِّ الخافِقَيْنِ سَبيلُ
وإِنِّي لَقالٍ للعَذولِ وَلَوْمِهِ لِمِثْلِيَ قالٌ لا يُفيدُ وَقِيْلُ
وكَمْ رُمْتُ أَنْ أَمْضي إِليكُمْ مع الصَّبا لِتَسْكُنَ عَنِّي لَوْعَةٌ وغَليلُ[7]

---

(١) في أ : فإن كان ما أردت . . × ! .
(٢) في ب : وإن لم يكن ذا . . . × جواب بمضمون . . . .
(٣) في ب : . . . والتُّقىٰ × .
(٤) أحد عشر بيتاً من هذه القصيدة في المنتقىٰ من درّة الأسلاك .
(٥) من قول سيّدنا بلال الحبشي رضي الله عنه : [المستطرف ٢/ ٢٦٣] :
ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
(٦) العجز للمتنبي ، وصدره : [ديوانه ٣/ ٩٥] :
لياليّ بعد الظاعنين شكول × .
(٧) في ب : × . . عني روعة وغليل .

فَعَوَّقَنـي دَهْـري ومـا بِـيَ عِلَّـةٌ وسـارَتْ إِلَيْكُـمْ والنَّسيـمُ عَليـلُ(١)
وخُلِّفْتُ عَنْكُـمْ لا عُـدولاً لِغَيْـرِكُـمْ وهَـل لَكُـمُ بَيْـنَ الأَنـامِ عَـديـلُ
سِـوىٰ أَنَّ صَبّـاً لاحَ مِنْـهُ لِمُقْلَتـي من الرّاحِ ما في الكاسِ مِنْهُ شَمولُ
يَطوفُ بِهِ السّاقي وقَد رَقَّ واغْتدىٰ يَروقُ جَميعَ الشَّرْبِ حِيْنَ يَجولُ(٢)
ويَلْعَبُ فـي هـامِ المُلـوكِ إذا عَـلا وتَـذْهَـبُ مِنْـهُ حَيْـثُ بـانَ عُقـولُ
إذا عـانَـقَ المَيّـاسُ صِـرْفَ رَحيقِـهِ تَميـدُ بِـهِ أَعْطـافُـهُ وتَميـلُ(٣)
يَسيـرُ ويَسْـري بَيْـنَ شَـرْقٍ ومَغْـرِبٍ لَـهُ كُـلَّ يَـوْمٍ نُقْلَـةٌ ورَحيـلُ
ويَقْطَعُـهُ ضَـرْبٌ مـن الكَـفِّ هَيِّـنٌ وإِنَّ حَـديـدَ الهِنْـدِ عَنْـهُ كَليـلُ
علىٰ البَحْرِ يَسْمُو مع جَهالَةِ أَصْلِهِ علـىٰ أَنَّـهُ لِلْبَحْـرِ سَـوْفَ يَـؤُولُ
ويَبْعُـدُ أَحْيـانـاً ويَقْـرُبُ تـارَةً لَنـا وكِـلا الفِعْلَيْـنِ مِنْـهُ جَميـلُ
كَـريـمٌ علـىٰ جِيْـرانِـهِ غَيْـرَ أَنَّـهُ عَليهِـمْ إذا جـادَ السَّحـابُ بَخيـلُ
وكم فِيهِ مِن قَصْرٍ رَفيعٍ على الوَرىٰ وليـسَ لِمَيْـلِ القَلْـبِ عَنْـهُ ذُهـولُ
يُخافُ ويُرْجىٰ يَوْمَ جُودٍ وسَطْوَةٍ وَلَيْـسَ لَـهُ فـي الحـالَتَيْـنِ مَثيـلُ
فَمَـنْ قـاسَـهُ بـاللَّيْـثِ فَهْـوَ مُقَصِّـرٌ ومَـنْ قـاسَـهُ بـالسَّيْـلِ فَهْـوَ جَهـولُ
أَخـو بِـدَعٍ لا بـالـوعـودِ يَفـي ولا لَـهُ عـن وِفـاقِ الكـافِـريْـنَ عُـدولُ
وكَمْ فِيهِ مِن عابٍ ونَقْصٍ وعَوْرَةٍ وفيـهِ علـىٰ كُـلِّ الأَنـامِ فُضـولُ
وفـي قَلْبِـهِ لِيْـنُ القَضيـبِ وإِنَّـهُ يَزيدُ علىٰ يُبْسِ الحَصىٰ ويَصولُ(٤)
ولَيْـسَ بِـأُنْثىٰ كـي يُبـاحَ نِكـاحُـهُ وفـي الأَرْضِ أَزْواجٌ لَـهُ وبُعـولُ
لَهُ اسْمٌ حَوىٰ اسْماً ثمَّ حَرْفاً مُسَكَّناً وفِعْـلاً وهـذا فـي الأَنـامِ قَليـلُ(٥)

---

(١) في ب : . . . وما لمي علّة × .
(٢) في ب : . . . وقد راق واغتدىٰ × .
(٣) في م : . . . طرف رحيقه × .
(٤) مقلوب لين : نيل .
(٥) الاسم : هو النُّون = السَّمك . والحرف : الياء الساكنة . والفعل : لامَ .

إذا أَنْتَ قَد صَحَّفْتَهُ هابَتِ العِدىٰ | حِمـاكَ وقـالَـتْ إِنَّـهُ لَنبيـلُ(١)
[١٤أ] ومِن عَكْسِهِ إِنْ زالَ حَرْفٌ فَلَنْ يُرىٰ | لَـدَيْـهِ عـن المُسْتَقْبِـلاتِ نُصـولُ(٢)
فيـا مَـنْ زَكَـتْ مِنْـهُ الفُـروعُ وأَيْنَعَـتْ | وطـابَـتْ لَـهُ فـي السَّـالِفِيْـنِ أُصُـولُ
ويـا مَـنْ لَـهُ جَـدٌّ عَظيـمٌ ونـائِـلٌ | عَميـمٌ وَمَجْـدٌ شـامِـخٌ وأَثيـلُ
أَبِـنْ لـيَ مـا أَلْغَـزْتُ فِيـهِ فَـإِنَّـهُ | لَـهُ مِنْـكَ أَصْـلٌ ثـابِـتٌ وأَصيـلُ(٣)
تَضَمَّـنَ نَظْمِـي ذِكْـرَهُ غَيْـرَ مَـرَّةٍ | صَـرِيحـاً لَـهُ بَيْـنَ العُيُـونِ مُثـولُ
ومَن ذا الـذي يُـدْعىٰ سِواكَ لِحَلِّـهِ | وأَنْـتَ زَعيـمٌ بـالعُلـومِ كَفيـلُ(٤)
جَمَعْـتَ بِحـارَ الشِّعْـرِ ثـمَّ سَلَكْتَهـا | فَـأَنْـتَ لَـدَيْنـا صـاحِـبٌ وخَليـلُ
وَأَلْبَسَـكَ العِـزُّ المُمَنَّـعُ حُلَّـةً | لَها انْسَحَبَتْ فَوْقَ السَّحابِ ذُيولُ
إذا غـابَ بَـدْرُ التَّـمِّ لـم نَبْـغِ عَـوْدَهُ | فَـإِنَّـكَ مِنْـهُ لِـلأَنـامِ بَـدِيـلُ
وإِنْ أَخْلَفَ الغَيْثُ العُهودَ تَواتَرَتْ | وفـاضَـتْ لَنـا مـن راحَتَيْـكَ سُيـولُ
وإِنْ فُلَّـتِ البِيْـضُ الصِّفـاحُ حَمَيْتَنـا | بِـأَبْيَـضِ رَأْيٍ لَيْـسَ فِيـهِ فُلـولُ
وإِنْ عَظُمَ الخَطْبُ الجَسيمُ علىٰ الوَرىٰ | ومِلْـتَ عليـهِ عـادَ وَهْـوَ ضَئيـلُ
وإِنْ قُلْتَ لم تَحْتَجْ إلى حُجَّةٍ وَهَلْ | يُقـامُ علـىٰ ضَـوْءِ النَّهـارِ دَليـلُ
صِفـاتُـكَ تُمْلينـي وذِكْـرُكَ مُسْعِفِـي | وقَلْبِـي رَسيـلٌ والغَـرامُ رَسـولُ(٥)
وإِذْ لم أَقُمْ من فَرْضِ مَدْحِكُمُ بِما | يُـوازي سَجـايـاكُـمْ ودامَ نُكـولُ(٦)
فَعُـذْراً فـإِنِّـي عـاجِـزٌ عـن حِسـابِهـا | إذا هـيَ عُـدَّتْ والفُـروضُ تَعُـولُ(٧)

---

(١) تصحيف نيل : نَبْل .
(٢) عكسه : لين ، وإذا زال منه حرف : لن . وفي م : . . . فلن ترى × . . . فضول .
(٣) نيل : فيه حرفان من : خليل ، اسم الصَّفدي . وفي حاشية م : ط : وأُصول .
(٤) في ب : . . . ندعو سواك لحلّه × .
(٥) في م : × ودمعي . . .
(٦) في م : وإن لم . . . كما × .
(٧) سقط هذا البيت من ب . وفي أ : × . . . والفروض نقولُ ! . وتعول : تزدادُ .

سَأَدْعُو لَكُمْ دَهْرِي بِإِخْلاصِ نِيَّةٍ يُقارِنُها عِنْدَ الإِلَهِ قَبولُ
فلا زِلْتَ مَأْوىٰ العِلْمِ ما ذَرَّ شارِقٌ وما عادَ لِلْبَدْرِ المُنِيرِ أُفولُ
مَقامُكَ مَأْهُولٌ وظِلُّكَ وارِفٌ وفَضْلُكَ مَأْمولٌ وبابُكَ سُولُ[1]

يُقَبِّلَ الأَرْضَ العاليةَ مَغْنىً ومَعْنىٰ ، الدَّانِيَةَ إِحْساناً وحُسْنى ، الجامِعَةَ لِشَوارِدِ النِّعَمِ رَشاداً ويُمْناً ، المانِعَةَ لِمَكائِدِ النِّقَمِ فُرادىٰ ومَثْنىٰ ، التي ضاعَ فيها نَشْرُ الفَضائِلِ وفاحَ ، وذاعَ منها بِشْرُ الفَواضِلِ فَلاحَ عليها الفَلاحُ : [من الكامل]

أَرْضٌ بِها فَلَكُ المَعالي دائِرٌ والشَّمْسُ تُشْرِقُ والبُدورُ تحُومُ
وبِها مِنَ الزَّهْرِ المُنَضَّدِ أَنْجُمٌ وَلَها على أُفُقِ السَّماءِ نُجومُ

واليَدَ التي : [من الكامل]

هِي للنَّدى مَمْدودَةٌ مَنْشورَهْ وعلى الرَّدىٰ مَرْدُودَةٌ مَقْصورَهْ

وبِأَنْواءِ الدِّيَمِ واكِفَةٌ ، وعلىٰ إِسْداءِ النِّعَمِ عاكِفَةٌ : [من الوافر]

يَدٌ دَرَّتْ وَرَدَّتْ كُلَّ باغٍ وخَوَّلَتِ الوَرىٰ كَرَماً ومَنّا
يُريكَ يَسارُها أَوْفىٰ يَسارٍ وبِاليُمنىٰ تَنالُ نَدىً ويُمْنا

والكَفَّ التي عَمَّ جَوْدُ جُودِها النَّاسَ كافَّةً ، وتَمَّ فَضْلُها فهيَ بالخَيْرِ حافَّةٌ ولِلشَّرِّ كافَّةٌ : [من الطويل]

إِلَيْها مَقاليدُ التَّقاليدِ تَنْتَهي ومِنْها مَناشيرُ التَّباشيرِ تَخْرُجُ[2]
وشابَهَتِ البَحْرَ الخِضَمَّ أَلا تَرىٰ أَصابِعَها فيها النَّدىٰ يَتَمَوَّجُ

ويُنْهي دُعاءَهُ الذي تُسابِقُهُ الإِنابَةُ ، ويُساوِقُهُ القَبولُ والإِجابَةُ : [من الطويل]

---

(١) روايته في ب :
عطاؤك مأمولٌ وظلُّك وافرٌ وفضلك مأمورٌ وبابك سول
وفي أ : × . . . . وبابك مسؤول ! .
(٢) في م : إليها مقاليد المقاليد . . . × .

فَإِنْ صَحَّ ظَنِّي واسْتُجِيبَ فَشَمْلُنا   سَيَجْمَعُهُ الرَّحمنُ في مِصْرَ عن قُرْبِ

وثَناءَهُ الذي يَنْمو على الحَدَثانِ ، ويَسْمُو فَلَيْسَ له ثانٍ ولا عَنْهُ ثانٍ ، فهو :

[من مجزوء الكامل]

بِعُرىٰ مَحاسِنِ وَصْفِكُمْ   مُتَعَلِّقٌ مُتَمَسِّكُ
وبِطِيْبِ رَيَّا ذِكْرِكُمْ   مُتَعَطِّرٌ مُتَمَسِّكُ

وَوَلاءَهُ الذي : [من الطويل]

تَعَوَّدَهُ قَلْبي اشْتِياقاً وإِنَّما   « لِكُلِّ امْرِىءٍ مِن دَهْرِهِ ما تَعَوَّدا »(1)
ويَحْفَظُ لِلْوَصْلِ القَديمِ أَيادِياً   «وَمن لَكَ بالحُرِّ الذي يَحْفَظُ اليَدا»(2)

وَوُرودَ(3) مُشَرَّفِهِ الذي [١٤ ب] شَرَحَ الصُّدورَ ، وَمَنَحَ القَلْبَ الفَرَحَ ، فَلَيْسَ لَهُ عنهُ صُدورٌ ، المُشْتَمِلِ على الإِحْسانِ الذي يَعجزُ عن شُكْرِهِ لِسانُ الإِنْسانِ ، والمُحتوي مِن الفَضْلِ العَميمِ ، على كُلِّ حَديثٍ وقَديم : [من الطويل]

تُقَصِّرُ عن مَبْداهُ غايَةُ غَيْرِهِ   « وعِنْدَ التَّناهي يَقْصُرُ المُتَطاوَلُ »(4)
وتَرْجِعُ أَيْدي النّاسِ دُونَ مَنالِهِ   وأَيْنَ الثُّرَيَّا مِن يَدٍ تَتَناوَلُ

فَعامَلَها المَملوكُ بالإِعْظامِ وبَجَّلَها ، وقابَلَها بِما يجبُ من الإِكرامِ وقَبَّلَها :

---

(1) العجز للمتنبي ، من قوله : [ديوانه ١/ ٢٨١]
لكُلِّ امرىءٍ من دهرِهِ ما تعوّدا   وعادةُ سيفِ الدَّولةِ الطَّعنُ في العِدا

(2) العجز للمتنبي ، من قوله : [ديوانه ٢٨٨]
وما قتلَ الأَحرار كالعفو عنهم   ومَن ذلك بالحرِّ الذي يحفظ اليدا
وفي ب : ويحفظ للفضل . . . × .

(3) في أ : وورد . وفي م : ورد .

(4) العجز لأبي العلاء المعري ، من قوله : [سقط الزند ٢/ ٥٥٢]
وإن كنت تبغي العيش فابغ توسُّطاً   فعند التناهي يقصر المتطاولُ
وينظر الغيث المسجم ١/ ١١٩ ـ ١٢٠ .

[من مجزوء الكامل]

تَقْبيـــــلَ مُشْتــــاقٍ بَـــــرا ... هُ مِـــنَ التَّفَـــرُّقِ مـــا بَـــرا[1]
عَبْــــدٌ يَهيــــمُ إذا تَفَكـ ... ـكَـــرَ فيكـــمُ وتَـــدَبَّـــرا
طـــابَـــتْ تَبـــاريـــحُ الهَـــوىٰ ... خَبَـــراً لَـــدَيْـــهِ وَمُخْبِـــرا
ويَشُـــوقُـــهُ مِـــن نَحْـــوِكُـــمْ ... عَـــرْفُ النَّسيـــمِ إذا سَـــرىٰ[2]
آهٍ علــــى عَيْــــشٍ تَقَضْـ ... ـضـــىٰ فـــي دِمَشْـــقَ وأَدْبَـــرا
وزَمـــانِ أُنْـــسٍ كـــانَ ثَـــوْ ... بُ اللَّهْـــوِ فيـــهِ مُحَبَّـــرا
أَرْتـــاحُ فيـــهِ مَسَـــرَّةً ... وأَشَـــمُّ مِنْـــهُ العَنْبَـــرا
وَلَّـــىٰ فَكَسْـــرِي بَعْـــدَهُ ... بِسِـــوىٰ اللِّقـــا لَـــنْ يُجْبَـــرا

وفَرِحَ المملوكُ بِصِحَّةِ مَولانا وعافِيَتِهِ ، وَتَشَرَّفَ بِمُراسَلَةِ مَولانا ومُكاتَبَتِه ، وابْتَهَجَ بِوُفودِها عليهِ ، واسْتَعْظَمَ وُرودَها إِليه[3] : [من الطويل]

أَتَتْنِي فَـآتَتْنـي الـذي كُنْـتُ طـالِبـاً ... وَحَيَّتْ فَأَحْيَتْ لي مُنىً ومَآرِبا[4]
وقَـد كُنْـتُ عَبْـداً لِلكِتـابَـةِ أَبْتَغـي ... فَـرَقَّـتْ علىٰ رِقِّـي فَصِرْتُ مُكـاتِبـا

وبادرَ المَملوكُ إلى امْتِثالِ الإِشارَةِ العالِيَةِ ، ولم يُمْهِلْ ممَّا رَسَمَ مَولانا شيئاً بِالجُمْلَةِ الكافِيَةِ ، وقد طالَعَ عُلومَ الوالِدِ ـ أَمْتَعَ اللهُ بِحياتِهِ ـ بِما اتَّفَقَ ، وأَعْلَمَهُ بِما سَيُعْلِمُ بِهِ مَولانا ويُزيلُ عنهُ القَلَقَ ، واللهُ يُحَقِّقُ ما تَعَلَّقَتْ بِهِ الأَطْماعُ ، ويُقَدِّرُ في الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ الاجْتِماعَ ، إن شاءَ اللهُ تعالى .

---

(١) في أ : تفريق مشتاقٍ . . × ! وفي م : × من التّشوّق ما برا .
(٢) في س : × . . . إذا انبرىٰ .
(٣) هما له في الذيل على العبر ٢/ ٣٣٦ وإنباء الغمر ١/ ٢٢ والمنتقى من درّة الأسلاك ٤١٤ وشذرات الذهب ٨/ ٣٨٨ .
(٤) من ب : أَتتني فآتاني . . . × .

● فكتبتُ أنا الجوابَ إليهِ عن ذلكَ[1] : [من الطويل]

أَزَهْرُ رِياضٍ جادَها وابِلُ الحَيا ... وطافَتْ عَليها لِلشِّمالِ شَمولُ
فَأَصْبَحَ عِطْفُ الغُصْنِ من مَرَحِ الصِّبا ... يَميدُ إذا هَبَّتْ صَباً ويَميلُ
وفاءَتْ علىٰ شاطي الجَداوِلِ دَوْحَةٌ ... فَحاكَتْ عِذارَ الخَدِّ وَهْوَ صَقيلُ
وإنْ ذُرَّ في أَقْطارِها مِسْكَةُ الدُّجىٰ ... أَسالَ عَلَيْها الزَّعْفَرانَ أَصيلُ
فَأَشْبَهَتِ الأَرْضُ السَّماءَ وقارَبَتْ ... بِأَنْجُمِ زُهْرٍ ما لَهُنَّ أُفولُ
أَمِ الطِّرْسُ وَشَّتْهُ أَنامِلُ فاضِلٍ ... تُقِرُّ لَهُ بالعَجْزِ عَنْهُ فُحولُ
أَبي حامِدٍ رَبِّ المحامِدِ والعُلا ... ومَنْ لا لَهُ فيما يَرومُ عَديلُ
مِنَ الخَزْرَجِيِّينَ الذينَ عُلاهُمُ ... غَدا ظِلُّها في الفَضْلِ وَهْوَ ظَليلُ
يَشيدونَ مَجْداً شَأْوُهُ غَيْرُ مُدْرَكٍ ... وطابَتْ فُروعٌ مِنْهُمُ وأُصولُ
حَباني بَهاءُ الدِّينِ أَزْكىٰ تَحِيَّةٍ ... تَطيبُ صَباً مِن نَشْرِها وقَبولُ
أَتَتْ تَتَهادىٰ في حُلِيٍّ بَلاغَةٍ ... يَقومُ الثَّنا في وَصْفِها ويَقولُ
فَأَبْصَرْتُ مِنْها رَوْنَقَ الأَدَبِ الذي ... يَعِزُّ علىٰ مَن رامَهُ ويَطولُ
وَحَقَّقَ لِي عِلْمي بِأَنَّكَ واحِدٌ ... « وليسَ سَواءً عالِمٌ وجَهولُ »[2]
تَفَرَّدَ فيما حازَهُ مِن فَضائِلٍ ... « وكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ »
مَباحِثُهُ في كُلِّ ظُلْمَةِ مُشْكِلٍ ... « لَها غُرَرٌ مَعْلومَةٌ وحُجولُ »
يَرُدُّ علىٰ أَهْلِ الفَضائِلِ قَوْلَهُمْ ... « ولا يُنْكِرُونَ القَولَ حِينَ يَقولُ »
« أَلا يا بَهاءَ الدِّيْنِ إِنَّكَ سَيِّدٌ ... قَؤولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعولُ »
أَجَدْتَ نِظاماً حينَ أَغْرَبْتَ مَقْصِداً ... وَلَطَّفْتَ مَعْنىً حَيْثُ أَنْتَ جَليلُ

---

(١) منها اثنا عشر بيتاً في المنتقى من درّة الأسلاك ٤١٥ .

(٢) الأعجاز الخمسة الآتية من قصيدة عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، في ديوانه ٨٩ ـ ٩٠ . وتنسب للسّموأل ، في ديوانه ١٠ ـ ١٢ .

وأَلْغَـزْتَ فـي جـارٍ كَثيـرٍ وَفـاؤُهُ   وَرُبَّتَمـا قـد راحَ وَهْـوَ قَليـلُ(١)
يَسيـرُ ويَسْـري مِثْلَمـا قُلْـتَ دائِمـاً   [١٥ أ] وتَمَّ جِناسُ اللَّفْظِ حِينَ يَسيلُ
تَجُـرُّ عليـهِ الـرِّيْحُ فاضِـلَ بُرْدِهـا   فَيُصْبِـحُ مِنْـهُ الـذَّيْـلُ وَهْـوَ بَليـلُ
إذا أَعْجَـبَ الكُفَّـارَ فَيْـضُ نَـوالِـهِ   فـإِحْسـانُـهُ لِلمُـؤْمِنِيـنَ وَصـولُ
عَـديمُ الـوَفا عِنْـدَ الصَّفـا فـإِذا بَـدا   تَغَيُّـرُهُ فـالخَيْـرُ مِنْـهُ جَـزِيـلُ
تَـراهُ بـلا كَـفٍّ وكَـمْ إِصْبَـعٍ لَـهُ   تُعَـدُّ أَيـاديهـا وذاكَ يَطـولُ
وآخِـرُهُ جَمْـعٌ وأَوْسَطُـهُ نِـداً   وأَوَّلُـهُ فـي البَحْـرِ لَيْـسَ يَـزولُ(٢)
وإِنْ قيلَ: ما هُو؟ قلتُ: ما هو حَقيقَةً   يَصوبُ على وَجْهِ الثَّرى ويَصولُ(٣)
أَخو السِّرِّ كَمْ غَطَّىٰ مِنَ النَّاسِ عَوْرَةً   وجُـرَّتْ عَليـهِ لِلقَبيـحِ ذُيـولُ(٤)
وحُلْـوٌ خَفيـفٌ لِلقُلـوبِ مُحَبَّـبٌ   وأَمَّـا سِـواهُ بـارِدٌ وثَقيـلُ
وَكُـلُّ عَـروضِـيٍّ يَـرىٰ أَنَّ بَحْـرَهُ   بَسيـطٌ مَـديـدٌ وافِـرٌ وطَـويـلُ
ضَعيفُ القُوىٰ ما رَدَّ راحَةَ لامِسٍ   صَبـورٌ لأَثْقـالِ الأَنـامِ حَمـولُ
وأَعْجَـبُ مـافيـهِ صَحيـحٌ لِغـايَـةٍ   فَيـا عَجَباً والقَلْـبُ مِنْـهُ عَليـلُ(٥)
تُـراعُ تِـراعُ الأَرْضِ مِنْـهُ إذا طَغـىٰ   ويُـؤْمَـنُ لَمَّـا أَنْ يُخـافَ سَبيـلُ
ومـا يُنْصَـرُ السُّلْطـانُ إِلاَّ بِكَسْـرِهِ   وذاكَ مُـرادٌ لِـلأَنـامِ وَسُـولُ
قَطَعْـتُ بِـهِ لَيْـلَ التَّمـامِ مُسَهَّـداً   ولَـم يَبْـدُ لـي مِنْـهُ عَلَيْـهِ دَليـلُ
فَـأَوْضَـحَ مَعْنـاهُ وأَبْـدىٰ غُمـوضَـهُ   أَخـوكَ جَمـالُ الـدِّيْـنِ دامَ يُنيـلُ
وَلَيْسَ بِبِدْعٍ أَنْ يَرىٰ صِنْوُكَ الهُدىٰ   وفِكْـرُكُمـا فـي الغـامِضـاتِ يَجـولُ

---

(١) في س: ... كبير وفاؤه ×.
(٢) آخره لأم - بتسهيل الهمزة -: جمعٌ. وأَوسطه نداء: يا يا، لاجتماع القوم. وأَوَّله نون: سمكٌ.
(٣) قوله: ما هو حقيقة: ماءٌ هو حقيقة.
(٤) في م: ... على الناس عورة ×.
(٥) القلب منه عليل: أوسطه حرف علّة (نيل).

فلا زِلْتَ مِثْلَ البَحْرِ يُبْدِي عَجائِباً ... ويَطْفَحُ من فَيَّاضِ فَضْلِكَ نِيْلُ

يُقَبِّلُ الأَرْضَ حيثُ سَحائبُ الفَضائِلِ تَجودُ ، وكَواكِبُ البَدائِعِ سُعودٌ ، ولَيالي المُحالِفِ بِيْضٌ وأَيّامُ المُخالِفِ سُودٌ ، ومَعاني النَّظْمِ والنَّثْرِ للفُصولِ فُصوصٌ ولِلعُقولِ عُقودٌ ، ومَجالِسُ الجُودِ منها لِجِباهِ الرَّاغِبينَ فيها مَجالُ سُجودٍ : [من الخفيف]

فَهْيَ أَرْضٌ لمَّا وَطِئْتَ عَلَيْها ... أَكْسَبَتْ عَنْبَرَ المَفارِقِ طِيْبا

ويُنْهي بعدَ وَلاءٍ لا يَزالُ منهُ بينَ خَفْقِ أَلْوِيَةٍ وبُنودٍ ، ودُعاءٍ لِصِدْقِ رَفْعِهِ إذا حَضَرَ إجابَةَ مَشْهَدٍ فالمَلائِكَةُ شُهودٌ ، وثَناءٍ يَتَبَلَّجُ وَيَتَأَرَّجُ بينَ نُجومِ نَرْجِسٍ وشُموسِ وُرودٍ : [من الخفيف]

فَتَراهُ في صَفْحَةِ الدَّهْرِ سَطْراً ... جَعَلَتْ نَقْطَهُ العُقولُ قُلوبا

وُرودَ المُشَرَّفِ الكريمِ ، فَضَوَّأَ بِنُورِهِ الوُجودَ ، وأَشْبَهَ طِرْسُهُ أَيّامَ الوِصالِ ، ونِقْسُهُ لَيالي الصُّدودِ ، وحَكَىٰ سَطْرُهُ الجَدْوَلَ المُطَّرِدَ ، ونَقْطُهُ الحَبَبَ المُنْتَضَدَ ، وهَمْزَتُهُ الطَّيْرَ الغَرِدَ ، وأَلِفُهُ الغُصْنَ الأُملودَ : [من الخفيف]

فَبَكَتْ مُقْلَتي سَحاباً وغَرَّ ... دَتْ حَماماً ثُمَّ اهْتَزَزْتُ قَضِيبا

ورأَيْتُ تلكَ الجَنَّةَ التي أُزْلِفَتْ ، والرِّياضَ التي تَزَيَّنَتْ بالأَزْهارِ وتَزَخْرَفَتْ ، والفَضائِلَ التي فُرِّقَتْ فَضائِلُها على المَحاسِنِ التي تَأَلَّفَتْ ، والفَوائِدَ التي رَسَبَتِ الجَواهِرُ ثِقْلاً وهذِهِ لِلُطْفِها طَفَتْ ، فلو رَآها الفاضِلُ لَنَقَصَ ، أَو ابنُ الأَثيرِ لاسْتَخَفَّهُ الطَّرَبُ وَرَقَصَ ، أَو ابنُ النَّبيهِ[1] لَرَقَدَ طَرْفُهُ ، أَو

(١) ابن النبيه : عليّ بن محمد بن الحسن ، كمال الدين ، الشاعر المصري المشهور ؛ توفي سنة ٦١٩ هـ . (فوات الوفيات ٣/٦٦) .

ابْنُ أَبي الإِصْبَعِ[1] لانقطَعَ عِنْدَها كَفُّهُ ، أَوِ الجَزَّارُ[2] لَعَدَّ نَفْسَهُ في الأَنْعامِ ، أَوِ السِّراجُ[3] لَطَفِئَ نُورُهُ ومَشىٰ بِغَيْرِ هُدىً في الظَّلامِ ، أَو ابنُ النَّقيبِ[4] لَشَقَّ النَّاسُ عَصا الطَّاعَةِ لَهُ في الأَدَبِ ، أَوِ النَّصيرُ الحَمَّاميُّ[5] لَكَسَرَ قَسْطَلَ نَصْرِهِ وَخَمَدَ ما عِنْدَهُ من اللَّهَبِ ؛ فَعَيْنُ اللهِ على هَذِهِ الكَلِمِ السَّحَّارَةِ ، والأَلْفاظِ الَّتي أَخْمَلَتْ ما في الأَحْداقِ [١٥ب] من نَظَراتٍ وما في الحَدائِقِ من نَضارَةٍ ، والمَعاني التي ما أَشْبَهَ الدَّياجي مِدادُها[6] إلاَّ وهيَ مِثْلُ الكَواكِبِ السَّيَّارَةِ ؛ لقد نُفِثَ سِحْرُها من الأَقْلامِ في العُقَدِ ، وشَدَّتْ كُلَّ لِسانٍ يُحاوِلُ الجَوابَ عَنْها بِحَبْلٍ من مَسَدٍ ، وَخَلَقَتْ في قُلوبِ أَهْلِ العَصْرِ لَها الحَسَدَ ، وأَمْسىٰ كُلُّ سَطْرٍ في رَوْضَتِها مُشْتَهىً وَعَلَيْها مِن سَبْقِ مَوْلانا رَصَدٌ ؛ فاحْبِسْ عِنانَكَ فما ثَمَّ مَنْ يُجاري ، وأَخْبأْ بَضائِعَ إِنْشائِكَ فَما تَصِلُ كَفُّ مُناوِىءٍ إِلى هَذِهِ الدَّراري ؛ فإِنَّكَ من أَهْلِ بَيْتٍ[7] : [من البسيط]

---

(١) ابن أَبي الإِصبع : عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر ، العداونيّ المصريّ ، الشاعر المشهور ؛ توفي سنة ٦٥٤ هـ . (الوافي ١٩/ ٧) .

(٢) الجزّار : يحيىٰ بن عبد العظيم ، أَبو الحسين ، الأَديب المصريّ ؛ توفي سنة ٦٧٩ هـ . (الفوات ٤/ ٢٧٧) .

(٣) السِّراج الورَّاق : عمر بن محمد بن حسن ، الشاعر المصريّ المشهور ؛ توفي سنة ٦٩٥ هـ . (الفوات ٣/ ١٤٠) .

(٤) ابن النقيب : الحسن بن شاور بن طرخان ، المعروف بالفُقَيْسيّ ، أَديب شاعر ؛ توفي سنة ٦٨٧ هـ . (الفوات ١/ ٣٢٤) .

(٥) النَّصير الحمَّاميّ : النَّصير بن أَحمد بن عليّ المناوي ، الأَديب المصريّ ، توفي سنة ٧١٢ هـ . (الفوات ٤/ ٢٠٥) .

(٦) في م : نِقْسها . وهما بمعنى .

(٧) البيت للعرندس الكلابي ، أَو لابنه عُبيد بن العرندس ، في : الحماسة بشرح المرزوقي ٤/ ١٥٩٥ وبشرح الأَعلم ٢/ ٩٠٣ وسمط اللآلي ١/ ٥٤٦ وكامل المبرّد ١/ ١٠٦ وسرح العيون ٤٢٣ ومعجم الشّعراء ١٧٣ .
وهو لعقيل بن العرندس في حماسة ابن الشجري ١/ ٣٥٩ . وبلا نسبة في تعبير الرُّؤيا ١١٢ .
ـ وفي هامش أ : يهدي . مقابل : يسري بها السّاري .

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ　　مِثْلَ النُّجُومِ التي يَسْرِي بِها السَّاري

فلقَد تَقَسَّمَ ذِهْنُ المَملوكِ في هذا اللُّغْزِ البَديعِ ، والنَّظْمِ الذي سَلِمَ فيهِ خاسِرٌ ومُسلمٌ مِنْهُ صَريعٌ ، تَلَعَّبَ[1] فيهِ مَولانا بِأنْواعِ عُلومِهِ ، وسَيَّرَ في لَيالي سُطورِهِ زَواهِرَ نُجومِهِ ، فما وَسَمَ المَمْلُوكُ فيهِ غُفْلاً ، ولا فَتَحَ منهُ قُفْلاً ، حتَّى أَبْرَزَهُ المَولىٰ القاضي جَمالُ الدِّينِ أَخو مَولانا شَمْساً تُسْفِرُ ، وَجَعَلَ أَبْياتَ مُعَمَّاهُ وعَويصَهُ خالِيَةً تَصْفِرُ ، فالشُّكْرُ لَهُ بِحَقٍّ واجِبٌ ، والثَّناءُ على إِفادَتِهِ إِيَّانا ضَرْبَةُ لازِبٍ ؛ والمَملوكُ يَتَّخِذُ هذهِ الحالَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ نَصْباً ، وَيَخْرُجُ من هذا الجَوابِ كَعَيْشِ أَبي الطَّيِّبِ لَمَّا قَطَعَهُ وَثْباً ؛ واللهُ يَجْعَلُ كَواكِبَ المَحامِدِ[2] له تَسيرُ في الآفاقِ شَرْقاً وَغَرْباً .

المَملوكُ يُقَبِّلُ الأَرْضَ بينَ يَدَيْ المَخدومِ المُحِبِّيِّ ، بَسَطَ اللهُ ظِلالَهُ ، وقد وَقَفَ على الفَضْلِ المُخْتَصِّ بِهِ في كِتابِ مَولانا قاضي القُضاة أَدامَ اللهُ أَيَّامَهُ ، فأَنشَدَ : [من الكامل]

وَوَعَـدْتَنـي يـا مـالِكـي بِـزِيـارَةٍ　　فَبَقيتُ طُوْلَ اللَّيْلِ أَتْلو ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾[3]

● **وكتبتُ أنا إليهِ أُهَنِّئُهُ من الشَّامِ المحروسِ ، وقد رُسِمَ لَهُ أَن يَكونَ مُفتي دارِ العَدْلِ الشَّريفِ بالأَبْوابِ العاليةِ ، في جُمادىٰ الآخرةِ ، سنة ٧٤٩** : [من البسيط]

عَجِبْتُ من دارِ عَـدْلٍ أَنْـتَ مُفْتيهـا　　وكَـوْنِها لَـمْ تَطِـرْ من عُجْبِهـا تِيْهـا
أَنَّىٰ تَطيرُ وفيها مِنْكَ طَوْدُ حِجىً　　عُلـومُـهُ تَمْـلأُ الـدُّنْيـا ومـا فيهـا

---

(١) في ب : نفث .
(٢) في أ ، المدائح . وفي هامشه : المحامد .
(٣) سورة الإنسان : ١ .

فالآنَ قد نَظَرَ الرَّأيُ الشَّريفُ بِما فِيهِ السَّدادُ وأَعْطى القَوْسَ باريها
وكانَ دَسْتاً شَريفاً لَيسَ يُعْوِزُهُ إلاَّ جَواهِرُ في الإفْتاءِ تُبْديها
تُهَنَّأُ الدَّوْلَةُ الغَرَّاءُ مِنْكَ بِكا فٍ في فُتُوَّتِها أَوْ في فَتاوِيها
فانْهَضْ بِعَزْمَتِكَ العُلْيا إلىٰ رُتَبٍ أَوْجُ النُّجومِ حَضيضٌ في مَراقيها
وَدَعْ حَسودَكَ في غَيْظٍ فَرُبَّتَما كانَتْ مَنايا النُّفوسِ في تَمَنِّيها[1]
لم يُدْنِكَ النَّاصِرُ السُّلْطانُ مِنْهُ سُدىً ولَمْ يَكُنْ أَمْرُكَ المَيْمُونُ تَمْويها
لكنَّ مِنْهاجَكَ الوَضَّاحَ مُشْتَهِرٌ فَما تُريدُ علىٰ عَلْياكَ تَنْبيها

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُهَنِّئُ نَفْسَهُ أَوَّلاً بِهذِهِ الوَظيفَةِ السَّنِيَّةِ ، والأَنامَ ثانياً ؛ فإنَّ العُلَماءَ هم أُولو الأَمْرِ المُطاعِ في البَرِيَّةِ ، ومَوْلانا بَسَطَ اللهُ ظِلَّهُ ثالِثاً[2] : [من الكامل]

ومِنَ العَجائِبِ أَنَّني هَنَّأْتُهُ وأَنا المُهَنَّأُ فيهِ بِالنَّعْماءِ

ويُنْهِي ما حَصَلَ له من السُّرورِ الذي نَفَّسَ عنهُ كُرَبَ الشَّوْقِ ، والفَرَحِ الذي أَبْهَجَهُ وكانَ البُعْدُ قد جَرَّهُ إلى الهَلاكِ بالطَّوْقِ ، وما يَظُنُّ المَملوكُ ، إلاَّ أَنَّ هذهِ مُقَدِّمَةٌ تُنْتِجُ[3] أَماني النُّفوسِ عاجِلاً ، وتُقِرُّ العُيونَ بِرُؤْيَةِ مَولانا كما نُحِبُّ ، فإنَّ ذلكَ لِقَذاها جَلا ، « وإنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذلكَ مَظْهراً »[4] ، [٢٦ أ] « ولَمْعَةُ البَرْقِ يأْتي بَعْدَها المَطَرُ » ، « والبَدْرُ أَوَّلُ ما يَكونُ هِلالاً »[5] : [من البسيط]

---

(١) في ب ، س ، م : × كانت منايا نفوس . . .
(٢) البيت لأبي إسحاق الصابي ، في يتيمة الدهر ٢/ ٢٨٣ ومسالك الأبصار ١٢/ ٣٧ .
(٣) في ب : تهيّج .
(٤) من قول النابغة الجعدي : [ديوانه ٨٥]
بلغنا السّماء مجدنا وجدودنا وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا
(٥) البيت للبحتري ، في ديوانه ١/ ١٧١ .
وروايته في أ : وأزرق البطح . . . × ! . وفي ب : وأزرق الصبح يأتي . . × . . . ثم ينهملُ .

وأَزرقُ الصُّبْحِ يَبْدو قَبْلَ أَبْيَضِهِ   وأَوَّلُ الغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ

فاللهُ يُوزِعُنا ـ مَعْشَرَ الأَوْلياءِ ـ شُكْرَ هذِهِ النِّعْمَةِ التي لا يُقَدِّرُها الجاهِلُ حَقَّ قَدْرِها ، ولا يَتَمَكَّنُ الطَّرْفُ الأَعْمىٰ من التَّمَلِّي بِسَنا شَمْسِها ، ولا من اسْتِجْلاءِ وَجْهِ بَدْرِها ، وقد قالَ المملوكُ : [من مجزوء الرمل]

حاسِدَ السُّبْكِيِّ بَغْياً   بِتَّ في خَطْبٍ وَشيكِ
أَنْتَ لِلسُّوقَةِ تُفْتي   وَهْوَ يُفْتي لِلْمَلِيكِ

ولكنَّ هذه الوظيفةَ المُبارَكَةَ مَنَعَتْنا التَّمَلِّي بِوَجْهِ مَوْلانا ، لا أَخْلى اللهُ من إحسانِهِ حَيْثُ كانَ ، فإِنَّهُ كانَ يَزُورُ دمشقَ المَحروسةَ في كلِّ سَنَةٍ فَيَزيدُها مَحاسِنَ ، ويُعَلِّمُها مِنْ أَخْلاقِهِ اللُّطْفَ ، فَتُمْسِي ونَسيمُها مُتَأَرِّجٌ ، وماؤها غَيْرُ آسِنٍ ؛ ولله القائِلُ(١) : [من الطويل]

أَبىٰ دَهْرُنا إِسْعافَنا في نُفُوسِنا   وأَسْعَفَنا في مَن نُجِلُّ ونُكْرِمُ
فَقُلْتُ لَهُ نُعْماكَ فيهم أَتِمَّها   وَدَعْ أَمْرَنا إِنَّ المُهِمَّ المُقَدَّمُ

واللهُ تَعالىٰ يُكْمِلُ بِهِ المَسَرَّةَ ، ويُديمُ لَهُ المَبَرَّةَ ، ويَجعلُ على الكَواكِبِ مَقَرَّهُ ، وإِلىٰ سَعادَةِ الدَّارَيْنِ مَمَرَّهُ ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

● **فكتبَ هو إِليَّ الجَوابَ عن ذلك** : [من البسيط]

أَهْلاً بِها مِن عُقُودٍ ظَلَّ مُهْديها   يُصْبي العُقولَ لِما أَبْدىٰ ويَهْديها
وَمِنْ رِياضٍ بَكَتْها السُّحْبُ فابْتَسَمَتْ   مِنْها الأَزاهِرُ وازْدانَتْ مَغانيها
ومِنْ كُؤُوسِ مُدامٍ قَد زَحَفْنَ علىٰ   جَيْشِ الهُمومِ بِلُطْفٍ في مَعانيها(٢)

---

(١) البيتان لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، في : أدب الكتاب ٢٣٤ والتذكرة الحمدونية ٤/١٥٧ ووفيات الأعيان ٢/٤١٨ و٣/١٢١ .

(٢) في أ ، س : قد زحفت على × .

للهِ أَبْيـاتُـكَ الغُـرُّ الحِسـانُ لَكَـمْ — أَبْـدَتْ بَـديـعَ القُـوىٰ فيهـا قَـوافيهـا
يَكـادُ بَـدْرُ الـدُّجـىٰ لَـوْلا تَكَلُّفُـهُ — إِذا بَـدا نُـورُهـا الـوَضَّـاحُ يَحْكيهـا
حَلَّتْ فَحَلَّتْ عُرىٰ الأَحْزانِ عن خَلَدي — كَأَنَّما السِّحْرُ حَشْوٌ في حَواشيها[1]
لا عَيْبَ فيها سِوىٰ إِتْعابِها لأَخي — جَهْلٍ يَرومُ لَها في الحُسْنِ تَشْبيها
وأَنَّهـا أَثْقَلَـتْ ظَهْـرِي بِـأَنْعُمِهـا — وَقَصَّـرَتْ يَـدَ شُكْـري عـن أَيـادِيهـا

ويُنْهي وُرودَ المُشَرَّفِ الكريمِ أَعْلاهُ اللهُ تَعالىٰ ، وأَدامَ عليهِ النِّعَمَ وَوالىٰ ، فَقَبَّلَهُ المَملوكُ ، وقابَلَهُ من الإِجْلالِ بِأَحْسَنِ السُّلوكِ ، واجْتَلَىٰ منهُ أَجْمَلَ عَروسٍ ، واجْتَنَىٰ ثَمَرَ الآدابِ من تِلكَ الغُروسِ ، واجْتَدَىٰ من كَلِمِهِ كُلَّ ما تَهْوىٰ النُّفوسُ ؛ غيرَ أَنَّهُ صادَفَ من المَملوكِ قَلْباً يَتَقَلَّبُ على الجَوىٰ ، وَيَتَطَلَّبُ سَبيلاً إِلى الفِرارِ من النَّوىٰ ، ويَتَصَلَّبُ على الحُبِّ كُلَّما انْشَوىٰ ، ويَتَغَلَّبُ عليهِ داعي الهَوىٰ ، فآنَسَ من جانِبِهِ نارَ المُؤانَسَةِ ، ولابَسَ منهُ ما جانَبَ بِهِ وَساوِسَهُ ، وحَمِدَ اللهَ تَعالىٰ على عافِيَةِ مَوْلانا التي هي غُرَّةٌ في جَبْهَةِ الزَّمانِ ، وقُرَّةٌ لِعُيونِ الأَعْيانِ ؛ وانْتَهىٰ إِلى ما تَفَضَّلَ بِهِ من التَّهْنِئَةِ بما هُوَ مَعدودٌ مِنْ إِحْسانِهِ ، فإِنَّ اللهَ تعالىٰ قَدَّرَهُ على يَدِهِ ولِسانِهِ ؛ ودُعاءُ المَملوكِ لِمولانا لهذا مُتَضاعِفٌ ، وثَناؤُهُ مُتَرادِفٌ ، وَوَلاؤُهُ على الوَلاءِ جارٍ وعلى البابِ الكَريمِ واقِفٌ ، وكانَ من حَقِّهِ أَنْ يُعَجِّلَ بالمُطالَعَةِ ، ويُقابِلَ هذِهِ الصَّدَقَةَ من الشُّكْرِ بِأَشَدِّ المُسارَعَةِ ، وإِنَّما عاقَتْهُ العَوائِقُ ، وشَغَلَهُ ما شَغَلَ جَميعَ الخَلائِقِ ، وهو أَمْرُ هذا الوَبا ، وما بَلَغَكُم عنهُ من النَّبا ، فإِنَّهُ قد عَمَّ البِلادَ والعِبادَ ، وغَمَّ النُّفوسَ وأَذابَ الأَكْبادَ ؛ وَفَدَ مِصْرَ في أَوَّلِ هذِهِ السَّنَةِ ، [١٦ ب] فَفَقَدَ أَهْلُها القَرارَ والسِّنَةَ ، وَقَدِمَ بِعساكِرِ المَنايا ، وأَلْقىٰ الرُّعْبَ في قُلوبِ البَرايا ، وأَبْقىٰ في صُدورِهِمُ البَلايا ؛ وشَهَرَ لِكُلِّ أَحَدٍ نِصابَهُ ، ونَزَلَ بِبابِ كُلِّ بَيْتٍ منهُ

(١) في س : × كأنَّما السِّحر حشرٌ . . .

عِصابَةٌ ، فالنَّاسُ بينَ مَيِّتٍ ومائِتٍ ، ومُتَوَقِّعٍ للفَواتِ وفائِتٍ ؛ وأَصْبَحَ كُلُّ جَبَّارٍ منهُ وهو خائِفٌ ، ويَظُنُّ أَنَّ الموتَ على بابِهِ واقِفٌ ، وماتَ كُلُّ حَيٍّ بالقُوَّةِ ، وَجَهَّزَ أُهُبَ المَوْتِ نَحْوَهُ ، إِنْ دَخَلَ بَيْتاً كانَ آخِرَ أَهْلِهِ خُروجاً ، وإِن عَدَلَ إِلى فِناءٍ أَجَّجَ نارَ الفَناءِ تَأْجيجاً ، فَقَصُرَتْ عندَ ذلكَ الآمالُ ، وكَثُرَتِ الأَعْمالُ ، وعَظُمَ التَّضَرُّعُ إِلى اللهِ والصِّياحُ ، وعَمِلَ النَّاسُ بِقَولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم(١) : « إذا أَصْبَحْتَ فَلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بالمَساءِ ، وإِذا أَمْسَيْتَ فلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بالصَّباحِ » .

غَيْرَ أَنَّ لَهُ خَلائِقَ مَحمودةً ، وغَرائبَ ليسَتْ في سِواهُ موجودَةً ؛ لا يُفَرِّقُ بينَ الشَّخْصِ وأَقارِبِهِ ، ولا يُؤَرِّقُ جَفْنَ المَوْجوعِ على ذاهِبِهِ ، بل إِنْ أَخَذَ واحِداً أَتْبَعَهُ بِجَميعِ أَهْلِهِ ، وَجَمَعَ شَمْلَهُ في الفَناءِ بإِعْدامِ ذلِكَ النَّسَبِ من أَصْلِهِ ؛ لا تَطولُ معهُ الأَمْراضُ ، ولا تَكْثُرُ علىٰ الجَسَدِ فِيهِ الأَعْراضُ ، وقد طالَتْ مُدَّتُهُ على الأُمَّةِ ، وقَوِيَتْ شِدَّتُهُ عليهم والغُمَّةُ ؛ واشْتَرَكَتْ في مُصابِهِ الخَلائِقُ والبُلْدانُ ، وعَمَّتِ الأَشْجانُ والأَحْزانُ .

وهذا أَمْرٌ لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ في الوُجودِ ، ولم يَقَعْ نَظيرُهُ في أَعْصارِ الجُدودِ ؛ وأَيَّ طاعُونٍ دَخَلَ الأَرضِينَ من كُلِّ جانِبٍ ، وَوَصَلَ إِلى المشارِقِ والمغارِبِ ؟ وطاعُونُ الجارِفِ بالنِّسْبَةِ إِليهِ كالبَرْقِ الخاطِفِ ، وطاعُونُ عِمْواسَ كالقَطْرَةِ منهُ في القِياسِ ، وطاعُونُ الأَشْرافِ خاصٌّ ببعضِ الأَصْنافِ ، وطاعونُ الفَتَياتِ ، لِغَيْرِ الأَبْكارِ لم يُواتِ(٢) ، فاللهَ اللهَ في التَّضَرُّعِ (إِلى اللهِ) في ارْتِفاعِ هذهِ النَّازِلَةِ ، وانْقِطاعِ هذهِ النِّقْمَةِ بِنِعْمَةٍ عاجِلَةٍ .

---

(١) موقوف ، من قول ابن عمر ، في الجامع الكبير للترمذي ٤/ ١٥٩ رقم ٢٣٣٣ .

(٢) انظر ذكر الطواعين وأوقاتها في : المعارف ٦٠١ والتعازي للمدائني ١١٨ والتعازي للمبرد ٢٠٩ والنجوم الزاهرة ١/ ١٤٠ و١٨٣ .

وأَمَّا عَدَمُ سَفَرِ المَملوكِ إلى دمشقَ هذهِ الأَيَّام ، فذلكَ من أَعْظَمِ الآلامِ[١] : [من البسيط]

مـا كُـلُّ مَـا يَتَمَنَّىٰ المَـرْءُ يُـدْرِكُـهُ ... تَجْري الرِّياحُ بِما لا تَشْتَهي السُّفُنُ

ومِمَّا سَنَحَ لِلْمَمْلوكِ عندَ وصُولِهِ إلى ها هُنا : [من الوافر]

أُحِبُّـــكَ لا لأَمْـــرٍ دُنْيَـــوِيٍّ ... يُسـاعِـدُنـي علـى طُـرُقِ النَّجـاحِ

ولكـــنْ كُـــلُّ ذي عَقْـــلٍ وَدِيْـــنٍ ... وَجَــدْنــاهُ يَميــلُ إلــى الصَّــلاحِ

والمَملوكُ يَسْأَلُ التَّشريفَ بالمَراسِمِ والخِدَمِ ، وما تَجَدَّدَ من النَّظْمِ في هذهِ الأَيَّامِ .

أَنْشَدَني الشَّيْخُ إبراهيم المِعْمارُ لِنَفْسِهِ[٢] : [من السريع]

يـا مَـنْ تَمَنَّـىٰ المَـوْتَ قُـمْ واغْتَنِـمْ ... هَـــذا أَوانُ المَـــوْتِ مـــا فـــاتـــا

قَــدْ رَخُــصَ المــوتُ علــى أَهْلِــهِ ... ومـــاتَ مَـــن لا عُمْـــرَهُ مـــاتـــا

واللهُ تَعالىٰ يَجْمَعُ الشَّمْلَ بِمَولانا على أَحْسَنِ الأَحْوالِ، ويُبَلِّغُها نِهايَةَ الآمالِ، والمَملوكُ يُقَبِّلُ الأَرضَ بينَ يَدَي الموالي ويُجِلُّهُمْ عن التَّلَفُّظِ[٣] ، ويَحْفَظُ لِسانَهُ عن ذلكَ أَشَدَّ التَّحفُّظِ ، غيرَ أَنَّهُ يُكْثِرُ مِن تِلاوَةِ سُورَةِ النَّمْلِ، ويَكْفي ذلك في العِلْمِ بهم ، جَمَعَ اللهُ بهم الشَّمْلَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إليهِ عن ذلك** : [من الكامل]

وافَـىٰ المُشَـرَّفُ والمُشَنَّـفُ مَسْمَعي ... فــازْدادَ فِيــهِ تَــوَلُّهـي وَتَـوَلُّعــي[٤]

---

(١) البيت للمتنبي ، في ديوانه ٤/٢٣٦ .

(٢) هما له في تعريف ذوي العلا ٦٢ والدرر الكامنة ١/٤٩ .

(٣) في س : بين يدي مَن يُجِلُّهم عن التلفظ . . . .

(٤) في ب : × . . . ترنُّمي وتوجُّعي .

فَعَجِبْتُ من شُغْلي بِبُعْدِكَ والنَّوىٰ [١٧أ]تَعْمي البَصائِرَ كَيْفَ لي قَلْبٌ يَعِي
وافىٰ وَلَيْلُ الهَمِّ قَد مَلأَ المَلا فَجلا دُجاهُ بِنُورِهِ المُتَشَعْشِعِ
فَنَفىٰ القَذىٰ عن ناظِري وشَفَىٰ الأَذىٰ من خاطِري وَنَفىٰ الجَوىٰ عن أَضْلُعي[١]
إِيْهِ بَهاءَ الدِّيْنِ إِيْهِ إِنَّ لِي طَرْفاً مَتىٰ يَطْمَحْ لِفَضْلِكَ يَطْمَعِ
وَكذاكَ لي نَفْسٌ مَتىٰ تَرْتَعْ لِخَطْبٍ قَد أَلَمَّ بِرَوْضِ لَفْظِكَ تَرْتَعِي
أَلْفاظُكَ الغُرُّ التي قَد زَيَّنَتْ آفاقَ كُتْبِكَ بالبُدورِ الطُّلَّعِ
لَمَّا عَلَوْتَ ذُرىٰ البَلاغَةِ في الورَىٰ « هَبَطَتْ إِلَيْكَ من المَحَلِّ الأَرْفَعِ »[٢]

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهي وُرودَ المُشَرَّفِ الكريمِ ، الذي[٣] تُشْرِقُ أَقْمارُ مَعانيهِ ، وتُزْهِرُ نُجومُ لَفْظِهِ التي طَلَعَتْ مِن المِدادِ في ظُلَمِ دَياجِيهِ ، فَبُهِتَ لِذلكَ الحُسْنُ ، وعَلِمَ كَيْفَ تَفْخَرُ[٤] القالَةُ اللُّسْنُ ؛ وقالَ[٥] : [من البسيط]

هذا قَرِيضٌ عن الأَمْلاكِ مُحْتَجِبٌ فَلا تُذِلْهُ بإِكْثارٍ على السُّوَقِ

فاللهُ يُمْتِعُ الوُجودَ بِكَمالِ مَولانا ، الذي لا تَزالُ تَدورُ عليهِ البُدورُ ، وتُضَمُّ على ما يَصْدُرُ من سُطورِهِ الجَوانِحُ في الصُّدورِ ، ولكنَّهُ وَرَدَ والنَّاسُ في وِرْدِ المَنِيَّةِ ، وكُلُّ نَفْسٍ في شُغْلٍ شاغِلٍ عَمَّا[٦] حَلَّ بها من شِدَّةِ هذهِ البَلِيَّةِ ، فإِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ راجِعونَ ، قَوْلَ مَنْ تَحَقَّقَ الظَّعْنَ دُونَ الإِقامَةِ ، وأَنابَ إِلى اللهِ وَتَعَوَّذَ من شَرِّ النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ؛ ما نُقابِلُ أَمْرَ اللهِ إِلاَّ بالرِّضىٰ ، ولا نَسْخَطُ لِما حَكَمَ بِهِ

---

(١) في ب : . . . ونفى الأذىٰ × .
(٢) العجز ، صدر بيت لابن سينا ، تمامه : [الوافي بالوفيات ١٢/ ٤٠٧ ووفيات الأعيان ٢/ ١٦٠]
هبطت إليك من المحلِّ الأرفعِ ورقاءُ ذاتُ تدلُّلٍ وتمنُّعِ
(٣) الذي : ساقطة من س .
(٤) في ب : تعجز .
(٥) البيت لأبي العلاء المعري ، في شروح سقط الزّند ٢/ ٦٧٧ .
(٦) في م : ممّا حصل بها من هذه البليّة .

من هذا الفَناءِ وقَضىٰ .

يا مَولانا ، أَوَّلُ ما دَخَلَ هذا الطَّاعونُ إلى الشَّامِ من غَزَّةَ ، وأَدْخَلَ إِصْبَعَ كُلِّ أَحَدٍ من رَزِيَّتِهِ تحتَ رَزَّةٍ[1] ، وَفَعَلَ فيها وفي تلكَ النَّاحِيَةِ ما فَعَلَ ، ورَمىٰ فلمْ يُخْطِ المَقاتِلَ ، كأَنَّما هو رامٍ من بَني ثُعَلٍ ، وما قُطَّ عَنْها حتَّىٰ وَثَبَ إِلى قَطْيا ، وباتَ يَبْري سِهامَهُ بِبَيْروتَ بَرْياً ؛ فقالَ المملوكُ : [من البسيط]

قد قُلْتُ للطَّاعُونِ وَهْوَ بِغَزَّةٍ   قد جالَ من قَطْيا إلى بَيْروتِ[2]
أَخْلَيْتَ أَرْضَ الشَّامِ من سُكَّانِها   وحَكَمْتَ يا طاعُونُ بالطَّاغُوتِ

وقالَ المَملوكُ أَيْضاً ، وأَرادَ ضَبْطَ تاريخِهِ بِحُروفِ الجُمَّلِ : [من البسيط]

يا عامَ « طاميمَ ذالٍ » فيكَ أَيُّ عَنا   قاسىٰ الأَنامُ رَداهُ من فِلَسْطِيْنِ[3]
كَمْ قَدْ رَأَيْنا فِناءً فِيهِ نَهْرُ فَنا   تَدورُ مِنْهُ طَواحينُ الطَّواعِيْنِ

ولَمَّا دَخلَ إلى صَفَد ، أَخْنىٰ عليها الذي أَخْنىٰ على لُبَدٍ[4] ، فما تَرَكَ بها أَحداً من الأَهْلِ والمَعارِفِ ، حتَّى اجْتَحَفَهُ سَيْلُهُ الجارِفُ ، فَكَمْ من صاحِبٍ جاءَنا عنهُ ناعِيْهِ ، وَدَعاهُ إِلى البِلىٰ داعِيْهِ ؛ وقالَ المَملوكُ[5] : [من المنسرح]

لمَّا افْتَرَسْتَ صِحابي   يا عامَ تِسْعَ اَرْبَعينا
ما كُنْتَ واللهِ تِسْعاً   بَلْ كُنْتَ سَبْعاً يَقِينا

ثم إِنَّهُ بعدَ ذلكَ حَلَّقَ إِلى جِلَّقَ وانْقَضَّ ، وَدَخَلَها فانْتَثَرَ عِقْدُ حياةِ أَهْلِها

---

(١) الرَّزَّة : حديدةٌ يدخل فيها القفل . (القاموس) .
(٢) قطيا : قرية في طريق مصر ، في وسط الرمل ، قرب الفَرَما . (معجم البلدان ٤/٣٧٨) .
(٣) قوله : يا عام طاميم ذالٍ . . . × . الطاء بحروف الجُمَّل = ٩ . والميم = ٤٠ . والذَّال = ٧٠٠ فالمجموع = ٧٤٩ سنة الطاعون المذكور .
(٤) من قول النابغة الذُّبياني : [ديوانه ٥]
أَضحت قفاراً وأَضحىٰ أَهلها احتملوا   أَخنىٰ عليها الذي أَخنىٰ علىٰ لُبَدِ
(٥) البيتان مما قالهما المؤلف في رثاء ابن الرَّسّام عليّ بن محمد الشافعي ، كما في أَعيان العصر ٣/ ٥٢٠ .

وارْفَضَّ ، وكانَ يَقْتُلُ بالرَّائِحَةِ ، فما دَخَلَ داراً إلاَّ تَحَقَّقَ كلُّ مَنْ فيها أَنَّ رُوحَهُ رائِحَةٌ ؛ فقالَ المَملوكُ : [من السريع]

دارَتْ مِـنَ الطَّـاعُـونِ كَـأْسُ الفَنـا فـالنَّفْـسُ مـن سَكْـرَتِـهِ طـافِحَـهْ
قَـد خـالَـفَ الشَّـرْعَ وأَحْكـامَـهُ لأَنَّـــهُ يُثْبِـــتُ بِـــالـــرَّائِحَـــهْ

ثمَّ إنَّهُ قتَلَ بذلكَ جَمْعاً لا يَعْلَمُ جُمْلَةَ عِدَّتِهِم ، إلاَّ الذي قَدَّرَ بِهِ نِهايَةَ مُدَّتِهِم ، وظهرَ بِنَوعٍ آخَرَ من الفَناءِ ، مُبالَغَةً في الحِرْصِ والاعْتِناءِ ، فَكانَ يَقْتُلُ بِظُهورِ حَبَّةٍ ، يَعِزُّ نَعْتُها على مَنْ وَصَفَ أَو شَبَّهَ ؛ فقالَ المَملوكُ : [من الكامل]

أَسَفي على أَكْنافِ جِلَّقَ إِذْ غَدا الطْـ ـطـاعُـونُ فيهـا ذا زِنـادٍ واري
[١٧ أ] المَوْتُ أَرْخَصُ ما يَكُونُ بِحَبَّةٍ والظُّلْـمُ زادَ فَصـارَ بـالقِنْطـارِ

وقالَ المَملوكُ أَيضاً : [من الخفيف]

أَيْقَظَتْنـا يَـدُ الغَـلاءِ مِـراراً لِنُـراعـي التُّقـى فلَـمْ نَتَنَبَّـهْ
وغَـدا الظُّلْـمُ بـالقَنـاطِيـرِ فِينـا فَلِهـذا الطَّـاعُـونُ صـارَ بِحَبَّـهْ

وزادَ أَمْرُهُ وأَغْرَبَ ، فكم من خِلٍّ كانَ فَقَدَ خِلَّهُ كَلَمْحِ البَصَرِ أَو هُوَ أَقْرَبُ ، وَخَلَتْ عِدَّةُ مَساكِنَ من سُكَّانِها ، وأَفْرَطَ الأَمْرُ حتَّىٰ كادَتْ دِمشقُ تَخْلو من أَرْبَعَةِ أَرْكانِها ، وعَمَّتِ الوَحْشَةُ ، ومَحىٰ الأُنْسُ من كُلِّ دارٍ نَقْشَهُ ؛ فقالَ المَملوكُ :

[من الكامل]

أَمَّـا دِمَشْـقُ فـإِنَّهـا قَـدْ أَوْحَشَـتْ مِـنْ بَعْـدِ مـا شَهِـدَ البَـرِيَّـةُ أُنْسَهـا
تـاهَـتْ بِعُجْـبٍ زائِـدٍ حتَّـىٰ لَقَـدْ ضَـرَبَـتْ بِطـاعُـونٍ عَظِيـمٍ نَفْسَهـا(١)

وأَقامَ على ذلكَ بُرْهَةً يَجولُ يَميناً وشِمالاً ، ويَجوبُ الدَّارَ(٢) بالخَرابِ

---

(١) في م : × . . . بطاعون كثير . . . ! .
(٢) في م : الدِّيار .

جُنوباً وشَمالاً ، فَظَهَرَ فتكُهُ ببَثْرَةٍ تَطلعُ خَلْفَ أُذُنِ الإنْسانِ ، فتَجُرُّهُ إلى مَصْرَعِهِ بِمَقاوِدَ وأَرْسانٍ ؛ فقالَ المَملوكُ : [من الطويل]

تَعَجَّبْتُ مِن طاعُونِ جِلَّقَ إذْ غَدا ... وما فاتَتِ الآذانَ وَقْعَةُ طَعْنِهِ
فَكَمْ مُؤْمِنٍ تَلْقاهُ أَذْعَنَ طائِعاً ... علىٰ أَنَّهُ قَد ماتَ من خَلْفِ أُذْنِهِ

واسْتَمَرَّ على ذلكَ حِيْناً ، لا يُهْمِلُ كِناساً ولا يَنْسَىٰ عَرِيناً ، حتَّىٰ جاءَ بِكُبَّةٍ تَخْرُجُ تحتَ الإبْطِ كأَنَّها عُمْلَةُ السَّارِقِ ، أَوِ الغَريمِ النَّكِدِ الذي لا يُفارِقُ غَريمَهُ أَو يُفارِقُ ؛ فقالَ المَملوكُ : [من الوافر]

رَعىٰ الرَّحْمٰنُ دَهْراً قد تَوَلَّىٰ ... يُجازِي بالسَّلامَةِ كُلَّ شَرْطِ
وكانَ النَّاسُ في غَفَلاتِ أَمْنٍ ... فَجا طاعُونُهُمْ من تَحْتِ إبْطِ

وجَرىٰ على هذا النَّمَطِ مُدَّةً ، وقاسىٰ النَّاسُ منهُ أَهْوالاً وشِدَّةً ، ثمَّ إنَّهُ جاءَ بِخِيارَةٍ تَطلعُ في الأَرْبِيَةِ ما كانَ للنَّاسِ معها الخِيْرَةُ ، ولا نَجَّاهُمُ التَّسليمُ والانْقِيادُ ، ولا التَّشاؤُمُ والطِّيَرَةُ ؛ فقالَ المَملوكُ : [من الخفيف]

ثَلَّ هذا الطَّاعُونُ عَرْشَ دِمَشْقٍ ... بِقَضاءٍ من رَبِّنا سُبْحانَهْ
فَلَكَمْ ماتَ بالخِيارَةِ شَخْصٌ ... كانَ يَبْدو كأَنَّهُ رَيْحانَهْ

واسْتَصْحَبَ الحالُ في ذلكَ زَماناً ، ولم يَجِدِ الأَنامُ مِنْهُ أَماناً ، ثمَّ إنَّهُ جاءَ بالطَّامَّةِ الكُبرىٰ ، والمُصيبةِ التي جَعَلَتْ كُلَّ عَيْنٍ منها عَبْرَىٰ ، فَمَنْ بَصَقَ دَماً ماتَ ، وحَلَّتْ بِهِ الآفاتُ وفاتَ ؛ فقالَ المَملوكُ : [من الكامل]

يا رَحْمَتا لِدِمَشْقَ من طاعُونِها ... فالكُلُّ مُغْتَبِقٌ بِهِ أَوْ مُصْطَبِحْ
كم هالِكٍ نَفَثَ الدِّما من حَلْقِهِ ... أَوَ ما تَراهُ بِغَيْرِ سِكِّينٍ ذُبِحْ

وقالَ أَيضاً : [من السريع]

مُصِيْبَةُ الطَّاعُونِ قَدْ أَصْبَحَتْ ... لَمْ يَخْلُ مِنْها في الوَرىٰ بُقْعَهْ

تَـدْخُـلُ فـي المَنْـزِلِ لَـوْ أَنَّـهُ مَـدينَـةٌ أَخْلَتْـهُ فـي جُمْعَـهْ

وقال أَيضاً : [من الكامل]

آمَنْـتُ بـاللهِ العَظِيـمِ مُقَـدِّرِ الطْـ طـاعُـونِ حتَّىٰ عَـمَّ كُـلَّ النَّـاسِ
كـم مَعْشَـرٍ فُقِـدُوا بِـهِ فـي جُمْعَـةٍ أَتَـراهُـمُ كـانُـوا مـنَ الأَشْـراسِ(١)

وقالَ أَيضاً : [من الخفيف]

لا تَثِـقْ بـالحَيـاةِ طَـرْفَـةَ عَيْـنٍ فـي زَمـانٍ طـاعـونُـهُ مُسْتَطِيـرُ
فَكَـأَنَّ القُبُـورَ شُعْلَـةُ شَمْـعٍ والبَـرايـا لَهـا فَـراشٌ يَطيـرُ

وقالَ أَيضاً : [من السريع]

قَـد نَغَّصَ الطَّاعـونُ عَيْشَ الـوَرىٰ وأَهْلَـكَ الـوالِـدَ والـوالِـدَهْ
كـم مَنْـزِلٍ كـالشَّمْـعِ سُكَّـانُـهُ أَطْفـاهُـمُ فـي نَفْحَـةٍ واحِـدَهْ

ومن عَجائِبِهِ التي لا تُحصىٰ ، أَنَّ الوَصِيَّ يَموتُ قبلَ مَنْ أَوْصَىٰ(٢) ، وليسَ لأَحَدٍ في هذا الأَمْرِ حِيْلَةٌ ، ولا لَهُ إِلى مَن قَدَّرَهُ غَيْرَ التَّسليمِ وَسيلَةٌ .

● ومن أَعجبِ ما وقفَ المَملوكُ عليهِ من التَّواريخِ الماضيةِ ، [١٨ أ] على البَرِيَّةِ الخالِيَةِ ، وهو أَنَّ سِبْطَ [ابن] الجوزي رحمهما الله تعالىٰ ، قال في « مِرآةِ الزَّمانِ » في سنة ٤٤٩(٣) :

وفي جُمادىٰ الآخرة : وَرَدَ كتابٌ من بُخارىٰ(٤) ، أَنَّهُ وَقَعَ عندَهم وَباءٌ عظيمٌ ، حتَّى خَرَجَ من هذا الإِقليمِ في يومٍ واحدٍ ثماني عشرةَ أَلفَ جِنازةٍ ،

---

(١) في س : × أَتراهم خُلقوا من الأَشراسِ .
(٢) في أ : قبل أَن أَوصىٰ . وفي م : قبل الموصي .
(٣) سبط ابن الجوزي ينقل عن تاريخ جدِّه ، المنتظم ١٦/١٧ . وانظر ما رواه ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ١٠/١٩٥ وما بعد .
(٤) في المنتظم : من تجّار ما وراء النهر .

وحُصِرَ مَن ماتَ فكانوا ألف ألفٍ وستَّمئةِ ألفٍ وخمسينَ ألْفاً إلى تاريخِ الكِتابِ ، وخَلَتِ الأسواقُ ، وأُغْلِقَتِ الأبوابُ ، وتَعَدَّىٰ الوَباءُ إلى أذْرَبِيجان ، ثمَّ إلىٰ الأَهْوازِ والبَصْرَةِ وواسِط وتِلكَ الأعمال .

وكانَتْ تُحْفَرُ زُبْيَةٌ[1] ويُلقىٰ فيها عِشرونَ وثلاثون من النَّاسِ ، وسَبَبُهُ قِلَّةُ القُوتِ والجُوعُ ؛ ومن مَاتَ قَريباً من دِجْلَةَ سَحَبُوا بِرِجْلِهِ وأَلْقوهُ فيها ؛ وكانَ الصِّغارُ يَنْبشُونَ المَوْتىٰ ويَشْوونَهم ويأْكُلونَهُم .

وكانَ لإِنْسانٍ أَرْضٌ يُسأَلُ في بَيْعِها بعَشَرَةِ دَنانِيرَ فلم يفعلْ ، فَباعَها بِخَمسَةِ أَرطالِ خُبْزٍ ، فأَكلَها وماتَ من وَقْتِهِ .

وَوصلَ إلى بَغدادَ نُسخةُ كِتابٍ ، كُتِبَ من سَمَرْقَنْدَ إلى بَلْخٍ ، أَنَّهُ يُدْفَنُ في كلِّ يَومٍ من صالحي المُؤمنين خَمسةُ آلافٍ وستَّةُ آلافٍ وأكثرُ .

واشتغلَ النَّاسُ بِدَفْنِ مَوتاهم ليلاً ونَهاراً ، وكُلُّ دارٍ يَدخلُها الموتُ يأْتي على الجَميعِ ، وكانَ المريضُ يَنْشَقُّ قَلْبُهُ عن دَمِ المُهْجَةِ ، فَيَخرجُ من فَمِهِ قَطْرَةٌ فَيموتُ ، أَو دُودَةٌ لا يُدْرَىٰ ما هِيَ فيموتُ ؛ وغُلِّقَ في البَلَدِ من دُورِ المُقَدَّمين وأَعْيانِهِم أَكثرُ من أَلْفَيْ دارٍ ، لم يَبْقَ فيها صَغيرٌ ولا كبيرٌ ولا وارِثٌ .

وكلُّ دارٍ كانَ فيها خَمْرٌ يموتُ أَهْلُها في ليلةٍ واحدةٍ .

وَمَنْ كانت معه امرأَةٌ حَرامٌ ، ماتا معاً . وماتَ قَيِّمُ مَسْجِدٍ وله خَمسونَ أَلفَ درهمٍ ، فلم يَقْبَلْها أَحَدٌ ؛ وَوُضِعَتْ في المسجدِ تِسعةَ أَيَّامٍ ، فدخلَ أَربعةُ أَنفسٍ من الخَليجِ ليلاً فأَخذوها ، فماتوا عليها .

وكلُّ مَن أَوْصىٰ إلى إِنْسانٍ ، ماتَ الوَصِيُّ قبلَ المُوصي .

---

(١) في ب : حفيرةٌ . وهما بمعنىٰ .

وكلُّ مُسلمَيْنِ كانَ بينَهما تَهاجُرٌ ، ولم يَصْطَلِحا ، ماتا .

وكانَ عندَ الفَقيهِ عبد الجبَّارِ بن أَحمد[1] ، سَبعمئة فَقيهٍ ، فماتَ عبدُ الجَبَّارِ والفُقهاءُ بِأَجْمَعِهم .

وماتَ عندَ رجلٍ من الأَغنياءِ خَمسونَ نَفراً ، فماتَ الجميعُ في ثلاثةِ أَيَّامٍ ، وخلَّفُوا أَكثرَ من أَلْفَي أَلف دِينارٍ ، فلم يَبْقَ منهم إِلاَّ طفلٌ صغيرٌ ابنُ خَمْسِ سنين ؛ والمالُ جَميعُه في الدَّارِ لا يَجْسُر أَحَدٌ أَن يَدخلَها .

ونَزَلَ تُركيٌّ من سطحٍ على مَريضٍ ، وعليهِ لِحافُ دِيباجٍ ، (فَأَخَذَهُ التُّركيُّ ، فماتَ التُّركيُّ)[2] ويَدُهُ في طَرَفِ اللِّحافِ وَطَرَفُهُ على المَرِيضِ .

ولا يُعلَمُ مَنْ ماتَ بِأَرْضِ المَشْرِقِ ، بل قِيلَ : إِنَّ سَمَرْقَنْدَ من عَشرةٍ في شوَّالٍ وإِلى سَلْخ ذي القَعْدَةِ ، أُحْصِيَ مَن خَرجَ من أَبوابِها من الجنائِزِ ، فكانُوا مِئَتي أَلفٍ وسِتَّةً وثلاثينَ أَلفاً .

وَأَصْلُ هذا الوَباءِ من تُركستان بلادِ الكُفَّارِ ، ثمَّ خَرجَ منها إِلى بلاصَغون[3] وكاشْغَر والشَّاش وفَرْغانة وتلك النَّواحي ، ووصلَ إِلى سَمرقند في سابع عشرين شهر رمضان من هذه السَّنَةِ ولم يَعْدُ النَّهْرَ ، حتَّى إِنَّ جَماعَةً من أَهْلِ بُخارىٰ عَبَروا إِلى بَلْخٍ ، فَنَزلوا في رِباطٍ منها ، فماتُوا جَميعهم دُونَ أَهْلِ بَلْخٍ .

وكانَ الموتُ في الشَّبابِ والكُهولِ والصِّبيانِ والنِّساءِ من العَوامِّ ؛ فَأَمَّا المُلوكُ والعَساكرُ والمشايخُ والعَجائزُ ، فلم يَمُتْ منهم إِلاَّ القَليلُ .

---

(١) في المنتظم : أَبو محمد عبد الجبَّار بن محمد الفقيه . . .

(٢) ما بين القوسين من س .

(٣) في أ ، س ، م : بلاد صغون ! وفي ب : بلاد عصورة ! ! .
وبلا ساغون : بلدٌ عظيمٌ في ثغور التُّرك ، وراء نهر سَيحون ، قريب من كاشغر . (معجم البلدان ١/٢٧٦) .

نَقَلَ المَملوكُ هذا الفَصْلَ مُختصراً من كلامِ صاحِبِ « المرآةِ » ولم يذكرْهُ لِمولانا إِلاَّ لأَنَّ هذا الطَّاعونَ جاءَنا في سنة ٤٩ ، وذاكَ كان في سنة ٤٩ أَيضاً ، وغالبُ هذِهِ الأَحْوالِ [١٨ ب] شاهَدْنا وُقوعَها ؛ وكانَ المَملوكُ يَظُنُّ أَنْ لا نَظِيرَ لهذا الطَّاعونِ ، حتَّىٰ وَقَفَ عل هذا الخَبَرِ[١] ، فَوَجَدَهُ مُطابقاً في أَكثرِ أَحْوالِهِ .

اللَّهُمَّ إِلاَّ أَنَّ هذا أَكثرُ عُموماً ، لأَنَّهُ قد طَبَّقَ الأَرْضَ ، وما خَلَتْ منهُ بَلْدَةٌ ولا قَرْيَةٌ ؛ إِلاَّ أَنَّ أَصْحابَ العَمودِ لم يُصِبْهُم من هذا الطَّاعونِ شيءٌ ، كالعَرَبِ والتُّركمانِ والأَكرادِ ، وهم الَّذين يَرحلونَ من أَرضٍ ويَنزِلونَ في غَيرِها .

وهذا زادَ على ما تَقَدَّمَهُ من الطَّواعين ، لأَنَّهُ كان في القِطاطِ ، وبعضِ الطُّيورِ ، وبعضِ الجِمالِ ، وغالِب الأَوابِدِ من حَيواناتِ البَرِّيَّةِ ؛ فإِنَّ جماعةً أَخبروا أَنَّهم رَأَوْا شَيْئاً كثيراً من الأَيائِلِ والحُمُرِ الوَحْشِيَّةِ مَطْرُوحَةً في البَرِّيَّةِ ، وتحتَ آباطِها خَرَّاجٌ ، ولم يَمُتْ حَيوانٌ من هذِهِ حَتْفَ أَنْفِهِ كالحَيَّةِ ، ولهذا سُمِّيَتْ أَوابد .

ولقد طَوَّلَ المملوكُ في هذه الخِدْمَةِ ، وهو يَسأَلُ بَسْطَ العُذْرِ في ذلك :

[من الرمل]

والـــذي قـــد راعَنـــي الأَمْـــرُ بِـــهِ　　　يَقْتَضِـــي أَكثَـــرَ مِمَّـــا قَـــد جَـــرىٰ

يا مَولانا ، هذا أَمْرٌ يُدْهِشُ العُقولَ ، والسَّلام .

وفَرَغَتْ مادَّةُ هذا الكلامِ ، واللهُ يَقينا في مَولانا كُلَّ مَحذورٍ ، ويُحَكِّمَ في عِداهُ كُلَّ ماضي الشَّبا مَطرورٍ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ، إِنْ شاءَ اللهُ تعالىَ .

● **وكتبتُ إِليهِ مُلْغِزاً في « البَرْقِيَّةِ »[٢] ، وهو مكانٌ مَعروفٌ داخلَ القاهرَةِ**

---

(١) الخبر : من س ، م .

(٢) البرقيّة : موضع بجوار مشهد الحسين رضي الله عنه بالقاهرة .

المَحروسَةِ : [من الوافر]

إِمـامَ النَّـاسِ فـي أَدَبٍ وفِقْـهِ ... ويَشْهَـدُ لـي بِـذا الجَـمُّ الغَفيـرُ
أَجِـبْ عَمَّـا أُعَمِّيـهِ فَـإِنِّـي ... سَـأَلْتُـكَ أَيُّهـا المَـوْلـىٰ الخَبيـرُ
بِقـاهِـرَةِ المُعِـزِّ لَنـا مَكـانٌ ... حَـواهُ السُّـورُ مَعْـروفٌ شَهيـرُ
يَـراهُ أُولـو النُّهـىٰ بَـرِّيَّـةً قَـدْ ... تَنَـزَّلَ وَسْطَهـا جَبَـلٌ كَبيـرُ

● فكتبَ هو الجَوابَ إِليَّ عن ذلكَ : [من الوافر]

أَفـاضِـلَ عَصْـرِنـا إِنِّـي بِمـا قَـدْ ... بَعَثْـتَ مِـنَ المُعَمّـىٰ لـي بَصِيـرُ
لَقَـدْ أَبْـداهُ فـي جُنْـحِ الـدَّيـاجـي ... وَمِيْـضُ البَـرْقِ وَهْـوَ بِـهِ شَهيـرُ
كَفـاهُ أَنَّ أَوْسَطَـهُ مُحيـطٌ ... بِكُـلِّ الأَرْضِ وَهْـوَ بِهـا يَـدُورُ(١)
وكـانَ لَـهُ أَبُـو حيَّـانَ يَـأْوي ... إِلـى أَن صـارَ تَحْـويـهِ القُبُـورُ
فَـإِنْ لَـمْ أُلْـقِ ثـانـي ذاكَ أَو ذا ... أَعَـزُّ بَقِيَّـةٍ لَيْسَـتْ تَبُـورُ

● وكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليه : [من الوافر]

جَـوابٌ مِثْلَمـا سَفَـرَتْ بُـدُورُ ... أَوِ ابْتَسَمَـتْ مِـنَ الغِيْـدِ الثُّغُـورُ
كَـأَنَّ حُـروفَـهُ أَجْفـانُ حِـبٍّ ... بِنَفْـثِ السِّحْـرِ أَغْـراهـا الفُتُـورُ(٢)
فَيـا لَـكَ مِـن جَـوابٍ لا جَـوابـي ... وقَـد وافـىٰ فَتَـمَّ بِـهِ السُّـرورُ
وَمـا أَلْغَـزْتُ فـي البَـرْقِيَّـةِ اسْمـاً ... سُـدى لكِـنْ لَـهُ مَعنـىً خَطيـرُ
قَصَـدْتُ إِلَيـهِ دُونَ سِـواهُ عِلْمـاً ... بِـأَنَّ بُـروقَ ذِهْنِـكَ تَسْتَطِيـرُ
كَـذا فَلْيَمْـضِ فـي حَـلِّ المُعَمّـىٰ ... أَخـو أَدَبٍ وإِلاَّ فَهْـوَ زُورُ

● وكتبَ هو إِليَّ مع سُكَّرٍ أَهْداهُ إِليَّ بالقاهِرَةِ المحروسَةِ : [من السريع]

---

(١) يريد : جبل قاف ، وزعم الأقدمون أنه يحيط بالأرض .
(٢) في ب ، س : . . أجفان صبٍّ × .

قَـدِمْـتَ فـانْهَـلَّ الحَيـا فـالـوَرىٰ	بـالبَحْـرِ والصَّيِّـبِ مَشْمـولَـهْ
مِـن بَلْـدَةٍ كُـلُّ فتـىً أَمَّهـا	يَنـالُ فـي أَكْثَـرِها سُـولَـهْ[1]

يُقَبِّلُ كذا ، ويَسْأَلُ قَبولَ شَفاعَتِهِ جَبْرَ الذي : [من الطويل]

علـى خَجَـلٍ وافـاكَ حتَّـىٰ كَـأَنَّـهُ	إذا أَنْـتَ عـايَنْـتَ اسْمَـهُ يَتَنكَّـرُ[2]

● فكتبتُ أنا الجَوابَ إليه : [من الخفيف]

جـاءَنـي جُـودُكَ الـذي جَعَـلَ الغَيْـ	ـثَ لَـهُ حـاسِـداً وفِيـهِ تَفَكَّـرْ
فـاقْتَسَمْنـا التَّصحيـفَ لَفْظـاً ومَعْنـىً	لَكَ مِنِّي شُكْرٌ ولي مِنْكَ سُكَّرْ[3]

● وكتبَ هو إليَّ لمَّا جَلستُ في تَوقيعِ الدَّسْتِ الشَّريفِ بالشَّامِ المحروسِ ، في شوّال سنة ٧٥٦ وأَكْثَرَ من التَّورِيَةِ : [من السريع]

لَمَّا اسْتَوىٰ دَسْتُ العُلا بالصَّلاحْ	اغْتَـرَفَـتْ أَيْـدِي الأَنـامِ السَّمـاحْ
وانْطَبَخَـتْ فِيـهِ لُحـومُ العِـدىٰ	واشْتَعَلَـتْ مـن فَـوْرِهـا بـاقْتِـداحْ
[١٩ أ] غَـلا وقـد فـاضَ نَـدىً واعْتَلَـىٰ	مَنـاصِبـاً تَـدْعـو لِطِيْـبِ اصْطِبـاحْ
ثُـمَّ تَهَـدّىٰ فـاهْتَـدىٰ نَحْـوَهُ	داعٍ يُنـادِي : عَجِّلُـوا لِلـرَّداحْ
لا رِيْـمَ فِيْـهِ إنْ حَلَلْتُـمْ بِـهِ	إلاَّ النَّـوالَ الطَّـافِـحَ المُسْتَبـاحْ
بَيَّضَـهُ قُـرْبُـكَ فـاعْجَـبْ لَـهُ	مُسَـوَّداً تُشْـرِقُ مِنْـهُ البِطـاحْ
وَقِّـعْ بِـهِ أَلْـوانَ مـا طـابَ مِـنْ	تَنْـويـعِ مَـنٍّ وبَـدِيـعِ اقْتِـراحْ[4]
وامْـلأْهُ حَـلاًّ مُحْكَمـاً يَقْتَضـي	تَحْـريـكَ عَيْـنٍ لِلْمَعـانِـي الصِّحـاحْ
وابْعَـثْ بِطـاقـاتِ المُنـىٰ لِلْـوَرىٰ	مُـرْسَلَـةً فَـوْقَ جَنـاحِ النَّجـاحْ

---

(١) في س : × . . . من أكبرها . . .
(٢) يتنكّر : تصحيفه : سكّر .
(٣) وسقط ما بعد ذلك من س ، حتى نهاية القصيدة الدّاليّة الآتية .
(٤) لعل الصّواب : × تنويع فنٍّ . . .

حتَّىٰ يَطِيبَ النَّاسُ عن دَهْرِهِمْ ويَحْمَدَ القَوْمُ السُّرىٰ في البِطاحْ[1]

يُقَبِّلُ الأَرضَ ، ويُهَنِّىءُ الزَّمان بِأَنْ خُفِّفَ من ذَنْبِهِ ، وَصُرِفَ عَنْهُ بعضُ ما تكاثَرَ من عَتْبِهِ ، وزالَ عنهُ شيءٌ من الشَّيْنِ ، ووَفَّتْ ذِمَّتُهُ بِقِسْطِ ما كانَ لكُمْ عليها من الدَّيْنِ .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ عن ذلك** : [من السريع]

دُرُّ حَبابٍ راحَ مِن فَوْقِ راحْ فَزانَ مِمَّنْ قَدْ سَقىٰ بَطْنَ راحْ
أَم بَرَدٌ رَصَّعَ تاجَ الرُّبا فَراحَ ثَغْراً باسِماً عن أَقاحْ
أَم مُقْلَةٌ مُذْ سَكَنَتْ مُهْجَتي ما حَفِظَتْ إلاَّ كِتابَ الجِراحْ[2]
أَم بِكْرُ فِكْرٍ خِدْنُها خِدْرُها فِيهِ مَغانٍ لِلْمَعانِي المِلاحْ
قد خَصَّني الجُودُ البَهائي بِها فَصاحَ لي بالكَلِماتِ الفِصاحْ
فَشَرَّفَتْ قَدْرِي كما شَنَّفَتْ سَمْعي فَما لي في المَعالي اقْتِراحْ[3]
وَهْيَ علىٰ رَأْسيَ تاجٌ وفي أُذْني شَنْفٌ وبِخَصْري وِشاحْ
بِتَوْرِياتٍ وارِياتِ السَّنا وباقْتِدارٍ زَنْدُها في اقْتِداحْ
فَمِنْ لُغاتٍ لَوْ رَأَىٰ الجَوْهَري أَلْفاظَها لَمْ يَفْتَخِرْ بالصِّحاحْ
وَمِن مَعانٍ لَو أَتىٰ مِثْلَها لِلأَرَّجاني لم يَزَلْ في انْشِراحْ
ولَمْ يَقُلْ من حُزُنٍ عِنْدَهُ «صَوْتُ حَمامِ الأَيْكِ عِنْدَ الصَّباحْ»[4]

---

(١) في ب : × . . . في الصّباح . وهو من المثل : عند الصَّباح يَحمدُ القومَ السُّرىٰ . (الميداني ٢/ ٣ والعسكري ٢/ ٤٢) .
وفي م : . . . عن ذكرهم × .

(٢) في م : . . . قد سكنت . . . × .

(٣) في م : × . . . . في المغاني . . .

(٤) مطلع قصيدة للأرجاني : [ديوانه ٨٠]
صوتُ حمام الأيك عند الصّباحْ جَدَّدَ تذكاري عند الصّياحْ

أَو لِـلأَبِيْـوَرْدِيِّ مـا فـاقَ فـي « أَمـاطَ واللَّيـلُ أَثِيثُ الجَنـاحْ »[1]
أَو لِلرَّضـي لـم يُرْضَ فـي قَوْلِـهِ : « نَبَّهْتُهُمْ مِثْلَ عَوالي الرِّماحْ »[2]
أَو لِلتِّهـامـي لاتَّهَمْنـاهُ لَمْـ ـمـا « قالَ : لا أَعْلَمُ كُلٌّ أَقاحْ »[3]
ولابْـنِ حَمْـديـسَ غَـدا راكِبـاً « نَجائِبَ اللَّهْوِ ذَواتِ المَراحْ »[4]
ولا الحَـريـري إِذْ غَـدا قـائِـلاً : « أَعْـدِدْ لِحُسَّـادِكَ حَـدَّ السِّلاحْ »[5]
والبُحْتـري مـا قـالَ مَـنْ فَـرْحَـةٍ : « باتَ نَديماً لِيَ حتَّىٰ الصَّباحْ »[6]
مِـنْ لُطْفِهـا قَـدْ أَذْكَـرَتْنـي صَبـاً كَـمْ عَـنَّ لـي فِيـهِ ارْتِيـادُ ارْتِيـاحْ
سُقْيـاً لَـهُ مـن زَمَـنٍ سـالِـفٍ كَـمْ فُـزْتُ فِيـهِ بِحَبِيـبٍ وراحْ
مَهْـلاً علـى ضَعْفِـي أَبـا حـامِـدٍ فَمـا أَرانـي مـن قُـرَيْـشِ البِطـاحْ
وقَـوْمُـكَ الأَنْصـارُ أَهْـلُ النُّهـىٰ وبَـدْرُهُـمْ زانَ سَمـاءَ السَّمـاحْ
وأَنْـتَ بـالخَـزْرَجِ فـي ذُرْوَةٍ سـالَ بِهـا وادِي المَعـانـي وَسـاحْ
رُحْـتَ إِمـامـاً والـوَرىٰ مِـن وَرا في كُلِّ عِلْمٍ غامِضٍ لاصْطِلاحْ[7]
وَنِلْـتَ قَبْـلَ البَـرْقِ أَقْصـىٰ المَـدىٰ لـو حُـطَّ مِثْلـي عَنْـهُ كـانَ اسْتَـراحْ

---

(١) مطلع قصيدة للأبيوردي : [ديوانه ١/ ٤٦٢]
أَمـاطَ ، واللَّيـلُ أَثيـثُ الجنـاحْ عـن مَبْسَـمِ الشمسِ لثـامَ الصَّبـاحْ
(٢) مطلع قصيدة للشريف الرّضي : [ديوانه ١/ ٢٥٤]
نَبَّهْتُهُـم مثـلَ عـوالـي الـرِّمـاحْ إِلـى الـوغـى قبـلَ نُمـومِ الصَّبـاحْ
(٣) من قول التهامي : [ديوانه ٩٧]
أَيّهمـا أَحلـىٰ تـرىٰ منظـراً فقـال : لا أَعلـم ، كـلٌّ أَقـاحْ
(٤) من قول ابن حمديس : [ديوانه ٨٩]
بـاكِـرْ إِلـى اللَّـذّاتِ واركَـبْ لهـا سـوابِـقَ اللَّهْـو ذواتِ المـراحْ
(٥) مطلع قصيدة للحريري : [المقامات ٣٨٤ وشرح الشريشي ٥/ ٢١٨]
أَعـدِدْ لحسّـادك حـدَّ السِّـلاحْ وأَوردِ الآمـلَ وِردَ السّمـاحْ
(٦) مطلع قصيدة للبحتري : [ديوانه ١/ ٤٣٥]
بـاتَ نـديمـاً لـيَ حتّـى الصَّبـاحْ أَغْيَـدُ مجـدولُ مَكـانِ الـوشـاحْ
(٧) في ب : × . . . غامض الاصطلاح .

فـاعْـذِرْ أَخـا التَّقْصِيـرِ والنَّقْـصِ إنْ ‌‌ وَنَـىٰ ولـم يَلْحَـقْ بِهُـوجِ الـرِّيـاحْ
وخَـلٍّ لـي فُضْلَـةَ شِعْـرٍ بِهـا ‌‌ أَسْتَعْطِـفُ الأَنْفُـسَ ذاتَ الجِمـاحْ
فـإنَّنـي مِـن صِـدْقِ وُدِّي لَكُـمْ ‌‌ قَـد طـارَ فـي الأَقْطـارِ عَنِّي وَطـاحْ

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهِي وُرودَ المِثالِ الكَريمِ ، أَعْلاهُ اللهُ تَعالىٰ ، وزادَ بِهِ خِلالَ الزَّمانِ جَلالاً ، وجَعَلَهُ لكُلِّ شَيْءٍ حَسَنٍ مِثالاً ؛ فوقفَ المَملوكُ منهُ على خَزائِنِ أَدَبٍ ، وقَلائِدِ ذَهَبٍ ، لو ظفرَ بِها الجاحِظُ ما مَضىٰ ذِكْرُهُ ولا ذَهَبَ ، ومَطالِبِ فَضْلٍ لا يَخْشىٰ مالِكُها من الفَقْرِ كيفَما وَهَبَ ؛ وَبَسَطَ بالدُّعاءِ كَفّاً قَبَضَتْ على الوَلاءِ ، وَرَفَعَ إلىٰ [١٩ ب] السَّماءِ بَصَراً طالَما خَفَضَهُ الخُضُوعُ لِمَوْلاهُ لمَّا أَخَذَ في الرَّفْعِ والاعْتِلاءِ ، وانْتَهىٰ إلى تلكَ التَّوْرِياتِ التي هي أَحَبُّ إليهِ مِمَّا تَجَدَّدَ له من هذهِ الوَظيفةِ ، وأَوْقَعُ في نَفْسِهِ من هذِهِ الرُّتْبَةِ التي هي من الغِنىٰ نَظيفَةٌ .

وَتَعَجَّبَ المَملوكُ من ثَمانيةِ أَبْياتٍ ، ضَمَّتْ من التَّورِيَةِ ثَمانيةً وعشرينَ ، ورأَىٰ في وَرَقِها زَهْرَ الرَّبيعِ وإِنْ كانَتْ قد جاءَتْهُ في تَشْرينَ ، وجَنىٰ من تلكَ الوَرَقَةِ ضُروباً من الثَّمَرِ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ هذا العَدَدَ وِفْقَ مَنازِلِ القَمَرِ ؛ إلاَّ أَنَّ هذِهِ كُلَّها مَنازِلُ سُعودٍ ، وبَدْرُ مَعانيها لا يَزالُ في صُعودٍ ؛ وللهِ الغَزِّيُّ أَبو إسحاق إبراهيم(١) إذْ يَقولُ : [من الوافر]

ومـا أَنـا فـي الثَّنـاءِ عَلَيْـكَ إلاَّ ‌‌ كَمَـنْ أَهْـدَىٰ إلى الصُّبْـحِ الشِّهـابـا
فَـلا يَشْغَلْـكَ طَـوْلُـكَ عـن قُصـورٍ ‌‌ فَمَـنْ بَلَـغَ المَـدىٰ نَسِـيَ الهِضـابـا
ونِـطْ بـي حُسْـنَ رَأْيِـكَ يَعْلُ كَعْبـي ‌‌ فـإِنَّ اللهَ نـاطَ بِـكَ الصَّـوابـا

وقد اسْتَطْرَدَ المَملوكُ بهذا البيتِ الثَّالِثِ ، وإنْ كانَ أَجْنَبِيّاً من هذا المَقامِ ،

---

(١) أَبو إِسحاق ، إِبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبي الغزّي . (سير أَعلام النبلاء ١٩/ ٥٥٤) .

ودَواءً إلاَّ أَن يُعالَجَ بِهِ مَنْ خَفِيَ على الطَّبيبِ ما عِنْدَهُ من السَّقامِ ؛ وهذا اسْتِطْرادٌ كالجُمْلَةِ التي تَعْتَرِضُ في بَعْضِ مَقاماتِ البَلاغَةِ ، وكالدُّرَّةِ التي تَزيدُ التَّاجَ حُسْناً ، وهي شَيْءٌ آخَرُ من وَراءِ صِناعَةِ الصِّياغَةِ ، ويَستطردُ المَملوكُ أَيضاً إلى قولِ الآخَرِ : [من الطويل]

وَمَنْ يَكُنِ الفَضْلُ بنُ يَحْيىٰ بن خالِدٍ شَفيعاً لَهُ عِنْدَ الخَليفَةِ يَنْجَحِ

ويأْتي فيما بعدُ حَلُّ هذا المُتَرْجَمِ ، وَكَشْفُ هذا السِّرِّ المُجَمْجَم ، أَو لَعَلِّي أَشْرَحُهُ شِفاهاً ، وأَفْتَحُ بِهِ بينَ يَدَيْكَ شِفاهاً[١] ، وقد كَشَفْتُ بِهِ لِمِثْلِكَ السِّتْرَ ، ورَفَعْتُ لَكَ الحِتْرَ[٢] ، وَشَفَعْتُ الوِتْرَ .

وقد طَوَّلَ المَملوكُ بِهذا الاعْتِراضِ ، وما بَقِيَ إلاَّ الدُّخولُ إلى الخُروجِ منهُ عن تَراضٍ ؛ فَيعودُ المَملوكُ إلى وَصْفِ تلكَ الأَبْياتِ ، وما اَوْدَعَتْها يَدُ القُدْرَةِ مِن المَحاسِنِ[٣] في التَّورياتِ ، ويَقولُ : إنَّ ناظِمَها لو كانَ كَشاجِمَ لَما زادَ ، بل ولا عَدىٰ بِها ثَلاثَةَ أَفْرادٍ ، فإِنَّهم يَزعمُونَ أَنَّهُ كانَ طَبَّاخَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، لا بل مُشْرِفاً لِتِلْكَ الصَّوْلَةِ ؛ دَعْ ذِكْرَ كَشاجم ؛ بل لو كانَ الصُّوليَّ وما وَضَعَهُ من المَناصِيبِ ، وتَخَيَّلَهُ بِذِهْنِهِ لَمَّا تَخَيَّلَ على تلكَ الأَعاجِيبِ ، لَما اتَّفَقَ له في دَسْتٍ واحِدٍ هذِهِ النُّكَتُ العَديدةُ ، والفَرائِدُ المُفيدةُ ؛ وبِاللهِ يُقْسِمُ المَملوكُ أَنَّ مَولانا ما تَرَكَ وراءَهُ فَضْلَةً ، ولا غادَرَ لِمَنْ يُجارِيهِ الجَوابَ إلاَّ عَضْلَةً .

واللهُ تَعالىٰ يُديمُ حياةَ مَولانا لأَهْلِ العُلومِ عامَّةً ، ولأَهْلِ الآدابِ خاصَّةً تامَّةً ، حتَّىٰ يُكْمِلُوا نَقْصَهُمْ ، ويُسيغُوا غَصَّهُمْ ، ويَسْتَجْلوا هذِهِ الأَبْكارَ التي

---

(١) في م : سفاها .

(٢) في أ ، م : الحبر . وفي ب : المتر ! وكله تصحيف . والحِتْرُ : ما يُوصَل بأَسفل الخباءِ إذا ارتفع من الأَرض ليكون سِتراً . (التاج « حتر » ١٠/ ٥٢٥) .

(٣) في م : يد القدرة والمحاسن .

لا عَهْدَ لهم بِنَظِيرِها ، ولا قُدْرَةَ لهم على نَضِيرِها ؛ فَما كلامُ مَولانا إلاَّ نُكَتٌ ، وما أَنْفَقَ قَلَمُهُ من ذَخائِرِ الأَدَبِ إلاَّ رَبَتْ وَزَكَتْ ؛ ولو وُفِّقَ مُجارِيهِ لَفَّعَ رَأْسَهُ بِرِداءِ حَيائِهِ وَسَكَتَ ، وأَخَذَ قَضِيبَ يَراعِهِ فَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ خَجَلاً وَنَكَتَ ، أُنهيَ ذلكَ .

● **وكتبتُ أَنا إليهِ ، وقد وَلاَّهُ الأَميرُ سيفُ الدِّيْنِ شيخو**(١) **تَدريسَ مَدرسَتِهِ بالقاهِرَةِ المحروسَة** : [من السريع]

[٢٠ أ] بُشْرىٰ المَعالي يا أَبا حامِدٍ ... بِـدَرْسِـكَ الحـاصِـدِ لِلْحـاسِـدِ
جَـدَّدْتَ بـالـدَّرْسِ بُلـوغَ المُنـىٰ ... لِصـادِرٍ فـي العِلْـمِ أَو وارِدِ
مَعْنـاهُ سـاوىٰ اللَّفْـظَ مـن غَيـرِ أَنْ ... يُعـابَ بـالنَّـاقِـصِ والـزَّائِـدِ
كـم مُنْشِـدٍ فِيـهِ قَـريـضَ الهَنـا ... وطـالِـبٍ بُغْيَتَـهُ نـاشِـدِ
فـابْشِـرْ بِعِـزٍّ لِلْعِـدىٰ شـائِـنٍ ... واهْنَـأْ بِسَعْـدٍ لِلْعُـلا شـايِـدِ
إِنْ أَنْـتَ فَسَّـرْتَ بِـهِ آيَـةً ... أَمْسَيْـتَ فِيـهِ ثـانِـيَ الـواحِـدي
وكـمْ حَـديـثٍ فـي الصَّحيحيـنِ قَـدْ ... أَسْنَـدْتَـهُ عـن ذِهْنِـكَ الـواقِـدي
وفـي أُصُـولِ الـدِّيْـنِ كـم غـايَـةٍ ... قـد حُـزْتَ فيهـا أَمَـدَ الآمِـدي
هـذا وأَمَّـا الفِقْـهُ لـو قـالَ لـي ... كُـلُّ صَحيـحِ الـذِّهْـنِ أَو فـاسِـدِ
مَـن حُجَّـةُ الإِسْـلامِ فـي عَصْـرِنـا ؟ ... قُلْـتُ لـه : هـذا أَبـو حـامِـدِ

● **وأَنشدني**(٢) **من لَفْظِهِ لِنفسِهِ بالشَّامِ المَحروسِ ، في شَعبان المُكَرَّم سنة ٧٤٨ قصيدةً مَدَحَ بها القاضي علاءَ الدِّين عليّ بن فَضْل الله ، كاتبَ السِّرِّ الشَّريفِ ؛ وهي** : [من الكامل]

---

(١) ترجمته في : الوافي بالوفيات ١٦/ ٢١١ والدرر الكامنة ٢/ ٢٩٣ والنجوم الزاهرة ١٠/ ٣٢٤ . وتوفي سنة ٧٥٨ هـ .
(٢) نهاية السقط في س .

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ عن الهَوىٰ لا أَنْتَهي … حتَّىٰ تَعودَ إِلى الحَياةِ وأَنْتَ هي
فَعِقالُ عَقْلي أَمْكَنَتْهُ يَدُ النَّوىٰ … وعُقودُ وَجْدي مُسْتَحِيلٌ أَنْ تَهي
شُكْراً لِعاذِلِيَ الجَهولِ فَإِنَّهُ … ما زادَ غَيْرَ تَوَلُّعي وتَوَلُّهي
أَرْتاحُ حِيْنَ يَفُوهُ باسْمِكَ ثُمَّ لا … أُصْغِي لِغِشٍّ بالرَّشادِ مُمَوَّهِ
ماذا يُخَوِّفُني بِهِ وأَنا الذي … أَسْتَعْذِبُ التَّعْذيبَ لَمْ أَتَكَرَّهِ
لا تَجْفُ صَبّاً لو نَظَرْتَ لأَمْرِهِ … لأَصَبْتَ ذا جَفْنٍ قَريحٍ أَمْرَهِ
واعْطِفْ عَلَيْهِ بِرَأْفَةٍ من قَبْلِ أَنْ … يَقضي علىٰ أَسَفٍ وعَيْشٍ أَسْفَهِ
واللهِ لا أَخْشَىٰ المَماتَ فإِنَّهُ … لأَلَذُّ من عُمْرِ البِعادِ الأَتْفَهِ(١)
لكنْ أَخافُ من العِدىٰ أَنْ يَنْسِبُوا … لَكَ قَسْوَةً قَبُحَتْ على المُتَأَلِّهِ
قَسَماً بِوَجْهِكَ والمَلاحَةُ قَدْ نَمَتْ … فِيهِ ومِنْهُ تَقَسَّمَتْ في الأَوْجُهِ(٢)
وبِغُرَّةٍ إِنْ تَحْكِها شَمْسُ الضُّحىٰ … فَضَحَ التَّشَبُّهُ شِيْمَةَ المُتَشَبِّهِ
وبِمَبْسَمٍ لَكَ لُؤْلُؤِيٍّ أَشْنَبٍ … عَذْبٍ نَميرٍ عاطِرِ المُسْتَنْكَهِ(٣)
وبِماءِ حُسْنٍ جالَ في خَدَّيْكَ لَمْ … يُطْفَىٰ لَهيبُهُما ولَم يَتَسَنَّهِ
وبِجَمْعِكَ الضِّدَّيْنِ من شَعْرٍ دُجىً … وجَبينِ صُبْحٍ قد تَجَلَّىٰ أَجْلَهِ
وبِأَهْيَفِ المِثْلَيْنِ قَدِّكَ مائِساً … وبِهِ حَلَفْتُ وغُصْنِ بانٍ قد زُهي
لا حُلْتُ عن أَحْلىٰ هَواكَ وإِنْ يَكُنْ … سَفَّهْتَ أَحْلامي وَزِدْتَ تَأَوُّهي
ولِغَيْرِ وَجْهِكَ لَمْ أَمِلْ دُنْيا فَذُو الْـ … ـوَجْهَيْنِ عِنْدَ اللهِ لَيْسَ بِأَوْجَهِ
إِنِّي أَغارُ عَلَيْكَ من رِيْحِ الصَّبا … إِنْ عانَقَتْكَ ومِنْ فَمِ المُتَفَوِّهِ
أَمِنَ التَّناصُفِ أَن تَبيتَ مُدَلَّلاً … ومُحِبُّكَ العاني بِقَلْبٍ مُدَلَّهِ

---

(١) في ب : × . . . من غَمِّ البعادِ . . .
(٢) في س : . . . قد سمت × .
(٣) في ب : × . . . عاطرهُ المُتَنَكَّه .

أَنْحَلْتَني أَضْعافَ سُقْمِ ذَوِي الهَوىٰ ... ونَحَلْتَني أَضْعافَ جِسْمٍ قد دُهي[1]
وكَسَوْتَني دَنَسَ الأَسىٰ فَبِمَدْمَعي ... لَمْ أُنْقِهِ ومِنَ الجَوىٰ لم أَنْقَهِ[2]
أَوَما خَشِيتَ اللهَ فِيَّ وأَنَّني ... أَفْدِيكَ من تَعْذِيبِهِ أَنْ يُبْدِهِ
أَمْ خِلْتَ أَنَّ الدَّهْرَ خالٍ من فتىً ... يُحْدَىٰ إِليهِ تَوَجُّهُ المُتَوَجِّهِ[3]
واللهِ لَوْ يَدْرِي ابنُ فَضْلِ اللهِ ما ... أَلْقاهُ لانْدَرَأَ الذي لا أَشْتهي
فَلَكَمْ أَزاحَ من الأَنامِ كَرِيهَةً ... وَلَكَمْ أَراحَ بَديعَ عَيْشٍ أَكْرَهِ
مَوْلىً إِلى الفارُوقِ نِسْبَةُ مَجْدِهِ ... أَكْرِمْ بِنِسْبَةِ ذا النِّجارِ الأَنْوَهِ
سَعِدَ الزَّمانُ وتاهَ مِنْهُ وازْدَهىٰ ... بِاللَّوْذعِيِّ الأَلْمَعِيِّ المِدْرَهِ
جارٍ على طُرُقِ الهُدىٰ فَعُلومُهُ ... أَقْوالُها اتَّجَهَتْ بِكُلِّ الأَوْجُهِ
فَلِكُلِّ عافٍ مِنْهُ عَيْنُ تَفَقُّدٍ ... وَلِكُلِّ عِلْمٍ مِنْهُ حُسْنُ تَفَقُّهِ
(فَطِنٌ فَهَلْ مِنْ مُشْكِلٍ لَمْ يَدْرِهِ ... عِلْماً وهَلْ من مُعْضِلٍ لم يَدْرَهِ
يُحْيي المَمالِكَ منهُ رَأْيٌ ثاقِبٌ ... إِنْ يَشْهَدِ الخَطْبَ ارْتَقىٰ لم يَشْدَهِ
فالبَحْرُ لو جاراهُ قالَ : الوَيْلُ لا ... تَطْمَعْ وكُنْ مِثْلي ولا تَتَشَبَّهِ
والبَدْرُ لو ضاهىٰ إِضاءَةَ وَجْهِهِ ... ما كانَ منهُ تَكَلُّفُ المُتَكَرِّهِ[4]
والنَّسْرُ لو عالاهُ قالَ لَهُ السُّها : ... حاوَلْتُ قَبْلَكَ ذا فقيل : مَهٍ مَهٍ)[5]
ذُو رِفْعَةٍ جازَتْ مَدىٰ الجَوْزاءِ في ... شَرَفٍ يَفُوتُ المُشْتَري والمُشْتَهي[6]
وعُلاً تُحاوِلُها العِداةُ فَتَنْثَني ... عَنْها ولم تَظْفَرْ بِغَيْرِ تَنَوُّهِ[7]

---

(١) في م : × . . . قد وهي .
(٢) في ب : . . . . فبمدمع × .
(٣) في أ ، س : × . . . المتجوّه .
(٤) في ب : × ما كان منه تَكَرُّهُ بالمُكْرَهِ .
(٥) ما بين القوسين من ب ، س .
(٦) البيت من س فقط .
(٧) في س : × . . . . بغير تَتَيُّهِ .

[٢٠ ب] فَبِهِمْ بَواطِنُ أَرْعَدَتْ بِتَشَوُّشٍ — ولَهُمْ ظَواهِرُ أَرْعَدَتْ لِتَشَوُّهِ

وفَضائِلٌ لَمْ تَخْفَ إلاَّ عَن فَتىً — أَعْمىٰ الهُدىٰ بالجاهِلِينَ العُمَّهِ

وقَريحَةٌ في الحالَتَيْنِ مُريحَةٌ — لأَخي الرِّوايَةِ إنْ بَدا والمُبْدَهِ

وبَديعُ نَظْمٍ لو تَقَدَّمَ عَصْرَهُ — قالَ الوَرىٰ : أُفٌّ لِشِعْرِ الأَفْوَهِ(١)

صاغَتْ قلائِدَهُ العُقولُ فَحُسْنُهُ — يُنْسي إصاباتِ الأَديبِ الأَبْلَهِ(٢)

قُسُّ الفَصاحَةِ ، لو تَسَمَّعَ لَفْظَهُ — سَحْبانُ لاسْتَحْيىٰ ولم يَتَفَوَّهِ

ولَهُ من الأَدَبِ النَّضِيرِ حَدائِقٌ — بِنَظِيرِها لَمْ يَأْتِ كُلُّ مُفَوَّهِ

كَمْ أَسْمَعْتَ صُمّاً وأَنْطَقَ فَضْلُها — خُرْساً وكم لاحَتْ لِعَيْنِ الأَكْمَهِ

أَقْلامُهُ نُصِبَتْ كَأَعْلامٍ علىٰ — إعْدامِ باغٍ عن هُداهُ مُنْهَنَهِ

من خَطِّها الخَطِّيُّ يَمْضِي هارِباً — ويَفيضُ عِنْدَ شَباتِها الرِّزْقُ الشَّهي

ما رَوْضَةٌ حَيَّا الحَيا أَفْنانَها — فَفِناؤُها زاهي المَعاطِفِ مُزْدَهِ

راقَتْ مَعانيها وَرَقَّ نَسيمُها — وَصَفَتْ بِما وَصَفْتَهُ لِلْمُتَنَزِّهِ

فَالزَّهْرُ بَيْنَ مُفَضَّضٍ وَمُذَهَّبٍ — والنَّهْرُ بَيْنَ مُصَفَّقٍ ومُقَهْقَهِ

يَوْماً بِأَنْضَرَ من شُذورِ سُطورِهِ — كالعِقْدِ مَنْظوماً بِهِ البَدْرُ البَهي

إيْهٍ عَلاءَ الدِّينِ مَن شانِيْهِ لَمْ — يُوهَبْ عُلاً ولِضِدِّهِ لَمْ يُؤْبَهِ

بالرَّغْمِ مِنّي أَنْ أُفارِقَ مَوْطِناً — لَكَ طالَما فِيهِ حَمِدْتُ تَوَجُّهي

ما غِبْتُ عن مَغْناكَ إلاَّ مُكْرَهاً — ولَقَد مَحىٰ الرَّحْمٰنُ ذَنْبَ المُكْرَهِ

فالعِزُّ عِنْدَكَ لا كَمَنْ هُو مُنْشِدٌ — العِزُّ في صَهَواتِ خَيْلِ الأَجْبَهِ

خُذْها قَصيدَةَ قاصِرٍ لولاكَ لَمْ — تَسْمَحْ قَريحَتُهُ ولَمْ يَتَنَبَّهِ

---

(١) الأَفوه الأَوديّ : صلاءة بن عمرو المذحجيّ ، أَبو ربيعة ؛ شاعر جاهليّ حكيمٌ . (الشعر والشعراء ١/ ٢٢٣) .

(٢) الأَبله البغدادي : محمد بن بختيار بن عبد الله ، الشاعر المشهور ؛ توفي سنة ٥٨٠ هـ . (الوافي ٢/ ٢٤٥) .

أَمْعَنْتُ في إِنْشائِها بَتَفَكُّري   فَنَعِمْتُ مِن إِنْشادِها بَتفَكُّهي
قامَتْ على عُمُدِ البَيانِ فَأَخْمَلَتْ   ذاتَ العِمادِ الكاتِبِ المُتَمَدِّهِ(١)
أَنَّىٰ تُساويها وهَذي قَد حَوَتْ   بِكَ الافْتِخارَ وتِلْكَ في فَرُّخْشَهِ
نَزَّهْتُها عن أَخْنَعِ اسْمٍ قالَهُ   مِن وَصْفِ غَيْرِ اللهِ بِالشَّاهِنْشَهِ
وَفَرَرْتُ مِمَّا لَم يَسُغْ لُغَةً فَلَمْ   أُتْبِعْهُ في نَعْتِ العِتاقِ الفُرَّهِ
وقَصيدَةُ الكِنْديِّ تَكْدي إِثْرَها   لَم يُفْتِها زَيْدٌ بِزَيْنٍ بل سَهي(٢)
وإِذا هُما افْتَخَرا عَلَيَّ وأَنْتَ ذو   مَدْحي شَمَخْتُ إِذاً بِأَنْفِ الأَنْبَهِ
ولَئِنْ تَداعَيْنا فإِنَّكَ حاكِمٌ   بَيْني وبَيْنَهُما بِخاطِرِكَ النَّهي
هَذا علىٰ أَنَّ القَريضَ فَضيلَةٌ   لَهُما وعِنْدي فَضْلَةُ المُسْتَنْزِهِ
هُوَ يَرْتَمي حَوْلي فَأَقْبَلُ عَفْوَهُ   طَوْراً وأَتْرُكُ تارَةً بِتَرَفُّهِ(٣)
لم يَمْتَلِئْ جَوْفي بِهِ خَوْفاً علىٰ   دِيْني وَلَم أَشْرَعْ إِليهِ وَأَشْرَهِ
لولا امْتِداحُكَ لَمْ أُعِرْهُ فِكْرَتي   كَلاً ولَم أَنْظُرْ إِليهِ وأَكْدَهِ
وطَرَحْتُهُ حتَّىٰ يَكُونَ كَمَجَّةٍ   في لُجَّةٍ أَو مُهْمَلٍ في مَهْمَهِ
لا زِلْتَ في نِعَمٍ يَدُومُ سُرورُها   والدَّهْرُ عن تَكْدِيرِ صافيها لَهي(٤)

---

(١) في ب : . . . فأَخمدت × . . . . المُتَمَرِّه . والإِشارة إِلى العماد الكاتب ، صاحب الخريدة .

(٢) الإِشارة إِلى قصيدة العماد . في مدح الملك المنصور عزّ الدِّين فَرُّخشاه بن شاهنشاه بن أَيوب ، وهي في ثلاثة وثمانين بيتاً ، مطلعها :

بَيْنٌ أَمَرَّ حلاوةَ العيشِ الشَّهي   وهوىً أَحالَ غضارةَ الزَّمنِ البَهي

وعارضها أَبو اليُمن زيد بن الحسن الكندي ، تاج الدِّين ، بكلمةٍ بديعةٍ في وزنها ورويّها وحُسْنِ زِيِّها ـ وهي في تسعةٍ وأَربعين بيتاً ـ مطلعها :

هل أَنت راحمُ عَبْرَةٍ وتَوَلُّهِ   ومُجيرُ صَبٍّ عند مأمنِهِ دُهي

[كتاب الرّوضتين لأَبي شامة ٣/ ١٣٠ ـ ١٣١] .

(٣) في ب : . . . فأقبل عذره × .

(٤) في ب : × . . . . كهي .

وَوُقيتَ صارِفَ فَضْلِ مَجْدٍ أَرْفَعِ ... وبَقِيتَ وارِفَ ظِلِّ سَعْدٍ أَرْفَهِ[1]

● فلمَّا سَمِعْتُ هذهِ القَصيدَةَ ، ورأَيْتُ ما جَمَعَتْ مِن المحاسِنِ دُرَّتُها الفَريدَةُ ، تُقْتُ إلى تَقْريظِها نَظْماً ، وَأَرَدْتُ أَنْ أُطْلِعَ قِبالَةَ قَمَرِها التَّمامِ في سَماءِ البَلاغَةِ نَجْماً ، وعَلِمْتُ أَنَّ كُلَّ نارٍ ليسَ عِنْدَها سَلامٌ ، وكُلُّ صَبٍّ لا يَجِدُ السَّلامَةَ عندَ سَلْمىٰ ؛ فَنَظَمْتُ هذهِ القَصيدَةَ التي تَجُرُّ رِداءَ الخَجَلِ ، وتَتَقَمَّصُ أَرْدِيَةَ الوَجَلِ ، وَأَيْنَ ذُبالَةُ السِّراجِ من الكَوْكَبِ الوَهَّاجِ ؟ والجَدْوَلِ النَّاضِبِ من البَحْرِ [٢١ أ] العَجاجِ ؟

وكانَ عُمْرُ إِنْشائِها في بُعَيْضِ لَيْلَةٍ ، لا جَرَمَ أَنَّ الإِتْقانَ ما جَرَّ عليها ذَيْلَهُ ، ولا أَعْطاها الإِحْسانُ حَيْلَهُ ؛ وهيَ : [من الكامل]

مَهْلاً فإِنَّ الشَّرْعَ أَصْبَحَ يَزْدَهِي ... بِكَ فَرْحَةً والشِّعْرُ فينا قد دُهِي[2]
والفِقْهُ لمَّا أَن تَعاظَمَ شَأْنُهُ ... بِعُلاكَ لم يَحْفِلْ بِذِكْرِ الأُشْنُهي[3]
وكذلكَ المَعْقولُ مَعْقودُ العُرىٰ ... بِكَ لم يُعَلِّقْ بَنْدُهُ بالبَنْدَهِي[4]
أَخْمَلْتَ أَرْبابَ القَريضِ فَأَصْبَحُوا ... يُدْعَوْنَ بالمَجْنُونِ أَوْ بِالأَبْلَهِ
أَمَّا الوليدُ فَشابَ مِنْكَ وهكذا ... مُتَنَبِّىءُ الأَشْعارِ لم يَتَنَبَّهِ
وَصَرَعْتَ عَنْتَرَةَ الفَوارِسِ فانْثَنىٰ ... قَلِقاً يُنادِي : يا لَصَمْتَ الأَفْوَهِ
لو كُنْتَ تَفْخَرُ بالقَريضِ تَوَجَّهَتْ ... مِنْكَ القَوافي نَحْوَ كُلِّ تَوَجُّهِ[5]

---

(١) سقطت كلمة « فضل » من صدر البيت في أ . وفي م : . . . صارف كل مجدٍ أرفع × .
(٢) في أ ، م : × . . . والشرع فينا . . . ! . وفي م : × . . . قد زهي .
(٣) الأشنهيّ : لعلّه أحمد بن موسى بن جوشين ، أبو العبّاس ؛ كان فقيهاً فاضلاً ؛ توفي سنة ٥١٥ هـ . (طبقات السبكي ٦/ ٦٦) أو : عبد العزيز بن عليّ بن عبد العزيز ، صاحب الفرائض المشهورة . وهما منسوبان إلى قرية أُشنه بأذربيجان . (طبقات السبكي ٧/ ١٧١) .
(٤) البندهي : محمد بن عبد الرَّحمن بن محمد المسعودي الفقيه الشافعيّ الصُّوفي ؛ توفي سنة ٥٨٤ هـ . (وفيات الأعيان ٤/ ٣٩٠) .
(٥) في س : × . . . . نحو كل تَجَوُّهِ .

لكنْ عَلِمْتَ فلمْ تَزَلْ مُتَواضِعاً ... أَيْنَ اللَّطِيفُ من الكَثيفِ العُنْجُهي
وَشَغَلْتَ نَفْسَكَ بالحَقائِقِ بُرْهَةً ... والحَقُّ يَشْرُفُ لا المَقالُ التُّرَّهي
قَلَمُ الشَّريعةِ في بَصيرَتِه كَما ... قَلَمُ القَريضِ غَدا بِطَرْفٍ أَكْمَهِ
هذا يَميسُ وذا يَئِنُّ من الجَوىٰ ... شَتَّانَ بَيْنَ تَأَوُّدٍ وتَأَوُّهِ
أَضْحىٰ الوُجُودُ مُخَلَّفاً بأَصيلِهِ ... فَرَحاً وَحُقَّ لَهُ بِفَضْلِكَ يَنْتَهي(١)
والغُصْنُ فَوْقَ النَّهْرِ مالَ فَحَبَّذا ... مُتَقَهْقِرٌ يَبْدو علىٰ مُتَقَهْقِهِ
يا مَنْ تَرَفَّعَ شِعْرُهُ لمَّا غَدا ... بَيْنَ الكَواكِبِ عن مَقالِ مُزَهْزِهِ
فُتَّ البَوارِقَ وَهْيَ تُجْهِدُ نَفْسَها ... سَبْقاً وفِكْرُكَ في أَناةِ مُرَفَّهِ
وعَلَوْتَ عَمَّنْ قَد غَدا مُتَرَوِّياً ... وَسَبَقْتَ بالإِحْسانِ لِلْمُتَبَدِّهِ
خَلِّ القَريضَ لَنا نُجَرِّعْ خَلَّهُ ... فالشَّهْدُ ما شاهَدْتُ لِلْمُتَفَقِّهِ
واتْرُكْ لَنا هَذِي الصِّناعَةَ نَرْتَزِقْ ... بِصُبابَةٍ مِن طَعْمِها المُتَسَنِّهِ
فَالنَّجْمُ مَعْقودٌ بِذَيْلِكَ طَرْفُهُ ... قَدْ راحَ بَيْنَ تَشَبُّثٍ وتَشَبُّهِ
لو شِئْتَ أَن تَضَعَ النُّجُومَ قَوافِياً ... لَتَنَزَّلَتْ طَوْعاً ولَمْ تَتَنَزَّهِ
بِقَصيدَةٍ لو كانَ أَنْبَهُ شاعِرٍ ... يَحْكِي فَصاحَتَها لأَصْبَحَ تَهْتَهي
لو قِيلَ : أَيُّ قَصيدَةٍ قد زُيِّنَتْ ... بالنَّظْمِ فَوْقَ الفَرْقَدَيْنِ ؟ لَقُلْتُ : هي
حَصَّلْتَها مِن كَنْزِ والِدِكَ الذي ... بِكَمالِهِ عِلْمُ الشَّريعَةِ قد زُهي
وَلِيَ القَضاءَ بِسِيرَةٍ عُمَرِيَّةٍ ... والعَدْلُ خَيْرُ مُنَوَّعٍ لِمُنَوِّهِ
فَرْدٌ غَدا في البَحْثِ سَبْعاً أَغْلَبا ... ما الظَّبْيُ في اللُّقيا لَهُ بِمُجَهْجِهِ
كم قَد أَبانَ العَجْزَ يَوْمَ جِدالِهِ ... مُسْتَوْدِعاً في خَصْمِهِ المُسْتَوْرِهِ(٢)
ما جاءَهُ واللهُ يَعْلَمُ قَصْدَهُ ... مَنْ يَشْتَكي إلاَّ رَأىٰ ما يَشْتَهي

---

(١) في م : × . . . . يلتهي .
(٢) في ب : × متودّعاً . . .

كم سَمَّ سَهْماً في قَضاءِ حُكومَةٍ ... ورَمىٰ بِهِ فَأَصابَ نَحْرَ السُّمَّهي[1]
فـالغَيْـثُ يَـرْوِي عـن عَطـايـا كَفِّـهِ ... والبَـدْرُ يَخْجَـلُ مـن مُحَيَّـاهُ البَهـي
أَمَّـا الحَـديـثُ فـإِنَّمـا هـو رُحْلَـةٌ ... فِيهِ فَلا تَطْرَبْ لِذِكْرِ المَنْدَهي[2]
والشَّـافِعـيُّ الأَشْعَـرِيُّ مُبَـرَّأٌ ... عَـن قَـوْلِ كُـلِّ مُعَطِّـلٍ وَمُشَبِّـهِ
قـد زانَ بَسْطَـةَ جِسْمِـهِ وعُلـومِـهِ ... فـالعِلْـمُ يُبْهـىٰ تَحْـتَ جِسْـمٍ بَهْبَهي
خُـذْهـا بَهـاءَ الـدِّيْـنِ نَفْثَـةَ نـاظِـمٍ ... قَـدزَفَّهـا لَـكَ فـي قَميـصٍ لَهْلَـهِ
تَنْقـادُ فـي بُـرُدِ الفَصـاحَـةِ رِقَّـةً ... وتَشِـفُّ عـن لَفْـظٍ تَـراهُ بَـرَهْـرَهـي
خَلَصَـتْ قَـوافيهـا فَهـاءُ رَوِيِّهـا ... خـالٍ مـن الإِضْمـارِ لَيْـسَ بَـهِ بَـهِ
اللهُ يَعْلَـمُ أَنَّنـي لـم أَنْتَحِـلْ ... وُدِّي ولا أَنـا فـي هَـواكَ بِمُكْـرَهِ
لكـنْ إِذا فَكَّـرْتُ فيمـا حُـزْتَـهُ ... أَمْسَيْـتُ بَيْـنَ تَفَكُّـرٍ وتَفَكُّـهِ
فـأَنـا بِـكَ الصَّـبُّ الـذي مِـن حُبِّـهِ ... أَضْحـىٰ يَهِيـمُ وجِسْمُـهُ سُقْمـاً يَهِي

● **ثمَّ إِنَّني بعد ذلكَ نَظَمْتُ قَصيدةً ،** [٢١ ب] **مَدَحْتُ بِها القاضي عَلاءَ الدِّينِ ابن فَضْلِ الله كاتبَ السِّرِّ الشَّريفِ ؛ وهي :** [من الكامل]

حاشا عُهُودِي في الصَّبابَةِ أَنْ تَهِي ... أَو أَنْ يُحَسِّـنَ لـي السُّلُـوَّ فَـأَنْتَهِـي
يـا عَـزَّ عِـزِّي فـي هَـواكِ مَـذَلَّتـي ... وتَـوَلُّعـي بِـكِ قَـد قَضـىٰ بِتَـوَلُّهِـي
أَصْبَحْتُ مِنْكِ تَوَجُّعي ومنَ الجَفا ... ءِ تَـوَجُّسـي وإِلـى حِمـاكِ تَـوَجُّهـي
فَتَـرَقُّقـي بـي فـي الهَـوىٰ وتَـرَفُّعـي ... عـن قِتْلَتـي وعـن الصُّـدودِ تَـرَفُّهِـي
قـد زادَ فِيـكِ تَـأَلُّفـي بِتَـأَلُّمـي ... وتَفَكُّـرِي فِيـكِ انْتَهـىٰ لِتفَكُّهِـي
ما تَلْتَقِي حَمَلاتِ طَرْفِكِ مُهْجَتِي ... فَخَفِـي إِلَهَـكِ فـي دَمـي يـا هَـذِهِ
فَـالصَّبْـرُ يَسْـأَمُنـي إِذا مـا سُمْتُـهُ ... والقَلْـبُ إِن لايَنْتُـهُ لا يَنْتَهِـي

---

(١) في هامش أ : أي المبطل .
(٢) المندهي : ابن مَنده ، الحافظ المشهور .

ماذا يَقُولُ الواصِفُونَ وقد غَدَتْ ... تُثْنِي البُدورُ على مُحَيَّاكِ البَهي
أَمَّا السُّها فإِلى جَمالِكِ قَد سَها ... وكذا المُثَقَّفُ قَدُّهُ بِكِ قد دُهي
كَحْلاءُ أَمَّا أَمْرُها في أَدْمُعي ... فَجَرىٰ على عاداتِ جَفْني الأَمْرَهِ
قد خَصَّها الباري بِلُطْفٍ زائِدٍ ... فَتَشِفُّ عن جِسْمٍ بَراهُ بَرَهْرَهي
ولَقَدْ أَقولُ وقد سَرَتْ أَظْعانُها ... لَيْلاً وَجَفْنُ الصُّبْحِ لم يَتَنَبَّهِ
يا مَنْ يُريدُ الشَّمْسَ قِفْ لا تَنْخَدِعْ ... عَمَّنْ تَجلَّتْ في المَحامِلِ فَهْيَ هي[1]
مِن أَيْنَ لِلشَّمْسِ المُنيرَةِ مَبْسَمٌ ... حُلْوُ المَذاقَةِ طَيِّبٌ أَلْمىٰ شَهي
عَطَفَتْ عَلَيَّ قَوامَها يا مَنْ رَأىٰ ... مُتَأَوِّداً يَحْنُو على مُتَأَوِّهِ
وَتَلَفَّتَتْ نَحْوي بِجِيْدٍ أَتْلَعٍ ... بِاللهِ قُلْ لِلظَّبْيِ لا تَتَشَبَّهِ
وَصْفي لَها بِرَوِيَّةٍ وَمَدائِحي ... لِعَلِيِّ بنِ فَضْلِ اللهِ ذاتُ تَبَدُّهِ
ذِي نِسْبَةٍ قُرَشِيَّةٍ عَدَوِيَّةٍ ... عُمَرِيَّةٍ وإِلى عَلِيٍّ تَنْتَهي
فالعِلْمُ مَعْلَمُهُ بِهِ لَمْ يَنْدَرِسْ ... رَعْياً لَهُ والحِلْمُ لَمْ يَتَسَفَّهِ
ما دَبَّرَ الأَمْلاكَ مِثْلُ يَراعِهِ ... حُفِظَ النِّظامُ بِهِ فَدامَ ولم يَهِ
بِسِيادَةٍ مَغْبُوطَةٍ وسِياسَةٍ ... مَضْبُوطَةٍ تَعْيا علىٰ المُتَفَوِّهِ
وبَلاغَةٍ لِسُمُوِّها يُجْبَىٰ لَها ... ثَمَراتُ كُلِّ عِبارَةٍ لم تُجْبَهِ
وَفَصاحَةٍ عُلْوِيَّةٍ عَلَوِيَّةٍ ... نَزَلَ البَليغُ لَها فَأَصْبَحَ تَهْتَهي
وعلى عِبارَتِهِ طَلاوَةُ رَوْنَقٍ ... مُتَرَقْرِقِ الأَمْواهِ لم يَتَسَنَّهِ
ويَغوصُ في طَلَبِ المَعالي ناقِداً ... ما يَخْتَفي بِتَفَقُّدِ المُتَفَقِّهِ
وكِتابَةٍ مِثْلِ الأَزاهِرِ نَضْرَةً ... أَوَ ما تَراها غُرَّةً في الأَوْجُهِ
بل كُلُّ حَرْفٍ كَوْكَبٌ مُتَوَقِّدٌ ... قَد صَحَّ ذلكَ بالقِياسِ الأَشْبَهِ
أَقْلامُهُ مِثْلُ الحَبابِ فَلِيْنُهُ ... حَظُّ المُحِقِّ وَسُمُّهُ لِلسُّمَّهِي

---

(١) في أ : × عمّن تحلّت في المحافل . . .

وَلَهُ مَعانٍ كم أَبانَ بَيانُها … نُكَتاً أَقَرَّ لَها البَديعُ البَنْدَهِي
وعُقُودُ نَظْمٍ لو تَعَقَّلَ حُسْنَها الْـ … ـمَجْنُونُ لَم تَخْطُرْ بِبالِ الأَبْلَهِ
فَكُثَيِّرٌ قَد راحَ منها ناقِصاً … وَقَضىٰ لها الحَكَمي بِصَمْتِ الأَفْوَهِ
يا مَنْ يُحاوِلُ وَصْفَهُ ارْجِعْ لا تَقَعْ … في مَهْمَهٍ لا يَنْتَهِي فَمَهٍ مَهِ
يا مَنْ يَلومُ نَوالَهُ في بَذْلِهِ … أُسْكُتْ فَما تَدْرِي إِذا قُلْنا مَهِ
أَتَقولُ لِلغَيْثِ المُلِثِّ إِذا هَمىٰ … مَهْلاً وَقَد رَوَّىٰ بِطاحَ المَهْمَهِ
جَمُّ العَطاءِ مع التَّيَقُّظِ لِلْعُلا … أَسَمِعْتَ قَطُّ بِوَهْبِ بنِ مُنَبِّهِ ؟
يا مَنْ أَتاحَ لَهُ الزَّمانُ خُطوبَهُ … ورَأَىٰ مَحاسِنَهُ بِطَرْفٍ أَكْمَهِ
لا تَشْتَكِي صَرْفَ الرَّدىٰ إِلاَّ إِلىٰ … عَلْيائِهِ حتَّىٰ تَرىٰ ما تَشْتَهِي
اِشْرَحْ لَهُ جَوْرَ الزَّمانِ وَكَيْدَهُ … واشْرَحْ فَلَمْ يَدْرَأْهُ غَيْرُ المِدْرَهِ
فَلو ارْتَحَلْتَ وسِرْتَ ما بَيْنَ المَلا … حتَّىٰ يَقولَ النَّاسُ هذا المَنْدَهِي
[٢٢ أ] لم تَلْقَ مِثْلَ فَخارِهِ ونِجارِهِ … بِهِما يُسامِرُكَ النَّدِيمُ فَتَلْتَهِي(١)
أَفْنىٰ اللَّيالي شُكْرُهُ وثَناؤُهُ … فالنَّاسُ بَيْنَ مُبَخْبِخٍ ومُزَهْزِهِ(٢)
مِن سُوءِ حَظِّي البُعْدُ عن أَبوابِهِ … مَن لَمْ يَنَلْ حَظّاً بِهِ لَمْ يُؤْبَهِ
أَمَّا الدُّنُوُّ فإِنَّهُ مِنْ بِشْرِهِ … بالرُّوحِ مِنْهُ فإِنَّهُ لَمْ يَشْرَهِ
قَدْ يَلْفِتُ السَّعْدُ العِنانَ فَتَمَّحِي … عَنِّي قَبائِحُ حَظِّيَ المُتَشَوِّهِ
يا سَيِّداً مَلأَ الزَّمانَ مَهابَةً … لَمَّا تَعاظَمَ شَأْنُهُ الشَّاهَنْشَهِي
خُذْها مُنَقَّحَةَ القَوافِي أَصْبَحَتْ … أُنْسَ النَّدِيمِ وخُضْرَةَ المُتَنَزِّهِ
سَلِمَتْ فَما احْتالَ الضَّميرُ لِهائِهِ … فيها ولم يَحْتَلَّها بِتَجَوُّهِ

---

(١) في م : . . . فخاره وثنائه × .
(٢) في م : . . . . شكره وفخاره × .

فَـــرَوِيُّهـــا مُتَحَـــرِّزٌ مُتَجَنِّـــبٌ   مَكْرَ الضَّميرِ ولَيْسَ فِيهِ بِمُكْرَهِ[1]
إِنَّ العِمـادَ علـىٰ وَجـاهَـةِ فَضْلِـهِ   قد قالَ في بَعْضِ القَوافِي وَجْهِهِ[2]
وَتَعَمَّـدَ المَمْلـوكُ فيهـا غَلْطَـةً   لا بُـدَّ مـن عَيْـبٍ تَـراهُ فَغَطِّـهِ
واسْلَـمْ وَدُمْ مـا رَكَّ شِعْـرُ مُبَلَّـدٍ   فأَتاكَ يَحْمِلُهُ فَقُلْتَ لَهُ : هَهي[1][3]

● **وكتبتُ أَنا إِليهِ وقد تَوَجَّهَ إِلى مَكَّةَ شَرَّفَها اللهُ تعالىٰ ، وجاور بِها في سنةِ ٧٦٠ وعادَ منها إِلى القاهرةِ في سنة ٧٦١** : [من السريع]

جِئْـتَ إِلـى الـدُّنْيـا مـن الآخِـرَهْ   إِذْ جِئْـتَ مـن مَكَّـةَ لِلقـاهِـرَهْ
فَلْيَهْنِهـا مِنْـكَ الغِنـىٰ بَعْـدَمـا   قَـد رُمِيَـتْ بـالفَقْـرِ والفـاقِـرَهْ
دَجَـتْ لَيـاليهـا فَلَـمْ تَنْبَلِـجْ   شَـوْقـاً إِلـى أَنْجُمِـكَ الـزَّاهِـرَهْ
تَقَبَّـلَ اللهُ تَعـالـىٰ الَّـذي   قَـد أَحْـرَزَتْ أَعْمـالُـكَ الطَّـاهِـرَهْ
ولـم تَـزَلْ يَـرْفَعُـكَ اللهُ فـي   مَنـازِلِ الـدُّنْيـا وفـي الآخِـرَهْ
كَـمْ عُمْـرَةٍ فـي الصَّـوْمِ مَبْـرورَةٍ   فـازَتْ بِهـا أَوْقـاتُـكَ العـامِـرَهْ
وَكَمْ طَوافٍ قد طَوَتْ في الدُّجىٰ   وفـي الضُّحىٰ أَشْـواطُـكَ الماهِـرَهْ
أَقْـرَرْتَ عَيْنـاً فيـكَ غـادَرْتَهـا   شَوْقاً على طُولِ المَدىٰ ساهِـرَهْ
أَقـولُ فـي الصَّيْـفِ إِذا مـا بَكَـتْ :   يـا طُـولَ هَـذي اللَّيْلَـةِ المـاطِـرَهْ
لَـمْ أَرَ عَيْنـاً بـالبُكـا غَيْـرَهـا   تَخْجَـلُ مِنْهـا الأَبْحُـرُ الـزَّاخِـرَهْ
فَبَـرِّدِ الآنَ لَظـىٰ مُهْجَتـي   مـن حُـرَقٍ فـي بـاطِنـي ظـاهِـرَهْ
وابْعَـثْ إِلَـيَّ اليَـوْمَ نَفْسـي التـي   رَدَدْتَهـا بـالأَمْـسِ فـي الحـافِـرَهْ
إِذا أَتـىٰ مِنْـكَ كِتـابٌ إِلـىٰ   عَبْـدِكَ جـاءَتْـهُ المُنـىٰ سـافِـرَهْ

---

(١) البيت ساقط من س .
(٢) سقط هذا العجز وصدر الذي يليه من ب ، فتلفّق ما بقي .
(٣) وسقط ما بعد هذه القصيدة ، إِلى نهاية الترجمة من ب ، س .

كَـأَنَّ قَلْبِـي غـابَ فـي جُنَّـةٍ عَـنِ الـرَّدىٰ أَو جَنَّـةٍ حـاضِـرَهْ
أَو عَيْنِـيَ القَـرْحـىٰ رَأَتْ فَـرْحَـةً أَو ذِهْنِـي الفـاتِـرَ أَلْقـى تِـرَهْ
وكيـفَ لا وَهْـوَ الـذي طِـرْسُـهُ ضَـمَّ فُنُـونَ الأَدَبِ الفـاخِـرَهْ
وَسَلَّـمَ الأَقْـوامُ مِـن عَجْـزِهِـمْ إِلَيْـهِ حُسْـنَ الكَلِـمِ السَّـاحِـرَهْ
كَـمْ نُكْتَـةٍ فـي الأَدَبِ المُنْتَقَـىٰ جـاءَتْ بِهـا أَلْفـاظُـكَ القـادِرَهْ
تَعْلـو ذُرىٰ النَّظْـمِ وتَـرْقَـىٰ فَعَـنْ رُتْبَتِهـا يَنْحَـدِرُ الحـادِرَهْ(١)
لا بَيْـتَ إِلاَّ والبَـديـعُ انْطَـوىٰ فِيـهِ وإِلاَّ النُّكْتَـةُ النَّـادِرَهْ
تَـرىٰ القَـوافـي وَهْـيَ فـي مَنْعَـةٍ فـإِنْ دَعَـا جـاءَتْ لَـهُ صـاغِـرَهْ
قَـد اطْمَـأَنَّـتْ منـهُ فـي بَيْتِـهِ ولـم تكُـنْ مـن قَلَـقٍ نـافِـرَهْ
تَجْمَـعُ شَمْـلَ الحُسْـنِ لا كـالـذي تُبْصِـرُهـا فـي بَيْتِـهِ حـائِـرَهْ
فَهْـوَ قَـريـضٌ شـائِـعٌ فـي الـوَرىٰ سـارَتْ بِـهِ أَمْثـالُـهُ السَّـائِـرَهْ
سُبْحـانَ مَـنْ سَخَّـرَ هـذا لَـهُ وَرَدَّنـا بـالصَّفْقَـةِ الخـاسِـرَهْ
والحَمْـدُ للهِ علـى عَـوْدِهِ فَقَـدْ أَمِنَّـا الـزَّلَّـةَ العـاثِـرَهْ

● **فَكتبَ هو الجَوابَ إِليَّ ، أَحْسَنَ اللهُ إِليهِ** : [من السريع]

[٢٢ ب] أَهْلاً بِها مِن رَوْضَةٍ ناضِرَهْ وأَعْيُـنٍ بِـاللُّطْـفِ لـي نـاظِـرَهْ
وأُفُـقِ عِلْـمٍ أَشْـرَقَـتْ فـي الـدُّجـىٰ أَنْـوارُهُ بِـالأَنْجُـمِ الـزَّاهِـرَهْ
أَوْ قَهْـوَةٍ حَلَّـتْ وَحَلَّـتْ عُـرىٰ فَهْمـي لِحُسْـنِ الكَلِـمِ السَّـاحِـرَهْ
أَبْيـاتُ نَظْـمٍ هَـدَمَـتْ لِلْـوَرىٰ قُصـورَ فَهْـمٍ واغْتَـدَتْ عـامِـرَهْ
وَصَيَّـرَتْ أَشْعـارَهُـمْ فَضْلَـةً فَقُـلْ دَواوينُهُـمُ صـاغِـرَهْ
ولـم تَقُـمْ دَورٌ لَهـا بَعْـدُ بَـلْ دارَتْ علـىٰ أَبْحُـرِهـا الـدَّائِـرَهْ

---

(١) الحادرة الذُّبياني : قطبة بن أَوس ، شاعر جاهليٌّ معروف . (ديوانه ٣٣) .

وحـــاذَرَ الشَّمَّـــاخُ أَنْ يَعْتَلــــي فَكَيْـــفَ لا يَنْحَـــدِرُ الحـــادِرَهْ
واشْتهِـرَتْ بـالحُسْـنِ مَـعْ أَنَّهـا فَـــريـــدَةٌ فـــي فَنِّهـــا نـــادِرَهْ
أَصْـــدَرَهـــا صَـــدْرُ الأَنـــامِ الـــذي عُلـــــومُـــــهُ وارِدَةٌ صــــادِرَهْ
يُقَصِّـــرُ الأَعْـــلامُ عَنْهـــا وَلَـــوْ أَسْهَـرَتِ الأَعْيُـنَ بـالسَّـاهِـرَهْ[1]
شَيْـخُ الـوَرىٰ واحِـدُ عَصْـرِ العُـلا وَذو الفُنُـــونِ الجَمَّـــةِ الــوافِــرَهْ
وَمَـنْ بِـهِ الـدَّهْـرُ ازْدَهـىٰ عِطْفُـهُ واخْتــالَ فــي حُلَّتِــهِ الفــاخِــرَهْ
لَـــهُ أَيـــادٍ وَعُـــلاً لـــم تَـــزَلْ لَهـــا الـــوَرىٰ حـــامِـــدَةً شــاكِــرَهْ
تكـــادُ أُوْلاهُـــنَّ مِـــنْ رَغْبَـــةٍ فــي المَجْـدِ أَنْ تَسْبِقَهـا العـاشِـرَهْ
وسِيْـرَةٌ فـي الشَّـرْقِ والغَـرْبِ قَـدْ تَــواتَــرَتْ أَمْثــالُهــا السَّــائِــرَهْ
يَمْشِي بِها في الأَرْضِ أَهْلُ التُّقىٰ وفـــي السَّمـــا أَجْنِحَـــةٌ طـــائِـــرَهْ
يـــا أَيُّهـــا الظَّمْـــآنُ رِدْ بـــابَـــهُ يُـــرْوِكَ مِـــنْ أَبْحُـــرِهِ الـــزَّاخِـــرَهْ
ويـــا أَخـــا التَّسْـــآلِ بـــادِرْ لَـــهُ فَعِنْـــدَهُ أَجْـــوِبَـــةٌ حـــاضِـــرَهْ
شَـوْقـي لَـهُ والـوَجْـدُ لا يَنْقَضـي مـــا أَشْبَـــهَ اللَّيْلَـــةَ بـــالغـــابِـــرَهْ
قَــد قَهَــرَتْنــي الشَّــامُ فــي بُعْــدِهِ فَصَــحَّ أَنَّ الشَّــامَ هــيْ القــاهِـرَهْ[2]
وَكَـــمْ لَـــهُ عِنْـــدِيَ مِـــنْ نِعْمَـــةٍ بـــاطِنَـــةِ المِنَّـــةِ أَو ظـــاهِـــرَهْ
لا بَـــرَّحَ الـــدَّهْـــرُ صَـــلاحَ الـــوَرىٰ تُنْعِشُهُـــمْ أَنْفـــاسُـــهُ العـــاطِـــرَهْ
فــي الحــالِ والعُقْبَــىٰ بِنَيْـلِ المُنَـىٰ فـــاليَـــوْمَ دُنْيـــا وغَـــداً آخِـــرَهْ

● **وكتبتُ أنا إليهِ ، وقد نابَ عنهُ في تَدريسِ المَنْصوريَّةِ وَلَدُهُ الشَّيْخُ الإمام تَقيّ الدِّين أَبو حاتم ، في سنةِ ٧٦٣ :** [من السريع]

فَـــوائِـــدُ الشَّيْـــخِ أَبِـــي حـــامِـــدٍ جَـــدَّدَهـــا دَرْسُ أَبِـــي حـــاتِـــمِ

---

(١) في أ : × . . . الأَعين السّاهرة ! . والمثبت من م .
(٢) في م : . . . من بَعده × .

أكْــرِمْ بِــهِ ابْنــاً لأبٍ مــاجِــدٍ كَــمْ مِــنْ ثنــاءٍ بــاسْمِــهِ بــاسِــمِ
المُـرْتَضَـىٰ ابـنُ المُجْتَبَـىٰ المُقْتَفـىٰ العــالِـمُ ابـنُ الفـاضِـلِ العـالِـمِ
يــا أَهْــلَ سُبْـكٍ ونِـدائـي لَكُــمْ يَـرْوِي الشَّـذا عـن عَـرْفِـهِ النَّـاسِـمِ
بــالعِلْـمِ والحِلْـمِ وكَسْـبِ الثَّنــا نَصَــرْتُــمُ دِيْــنَ أَبــي القــاسِـمِ
بَهــاؤُكُـمْ لَـو رُمْـتُ أُحْصـي الثَّنـا عليــهِ أَتْعَبْــتُ يَــدَ الــرَّاقِــمِ[1]
أَفْتــىٰ فَمــا خــالَفَــهُ حــاكِــمٌ ولــو يَكُــونُ الحــاكِـمَ الفـاطِمـي
قَــد جَمَّــلَ الــدَّهْــرَ بِــأَفْعــالِــهِ تَجَمُّـــلَ الخِنْصَـــرِ بــالخــاتَــمِ
يَـروي عــن الصَّــادِقِ فــي وَعْـدِهِ ويَقْتَـدي فـي الغَيْـظِ بـالكـاظِـمِ
عــارٍ مــن العــارِ وكــم نَشَـرَ الثْـ ـثَنــا عَلَيْــهِ حُلَــلَ النَّــاظِــمِ[2]
وتــاجُكُــمْ قــاضٍ غَــدا فَضْلُــهُ يَـرْوِي لَنـا « مُسْتَـدْرَكَ الحـاكِـمِ »[3]
وَذو التَّصــانِيــفِ التــي شَـرَّقَــتْ وغَــرَّبَــتْ مــا بَيْــنَ ذا العــالَــمِ
والــرَّافِعــي اِنْجَــرَّ إلــى خَلْفِــهِ ولــم يَكُــنْ فــي النَّقْــلِ بــالجـازِمِ
وَرُبَّ حَـــرَّانَ حَمــــاهُ ظَمــــا فَقْــرٍ فَمــا صــارَ إلــى حــارِمِ
ونَجْمُكُـــمْ هــذا رَأَيْنــا السُّهــىٰ سَهــا لَــهُ فــي لَيْلِــهِ العــاتِــمِ
[٢٣ أ] فَهْـوَ ابْـنُ حِبَّـانٍ إمـامُ الـوَرىٰ أَو السِّجِسْتــانــي أَبــو حــاتِــمِ
قَــدْ أَتْقَــنَ الآدابَ حتّــىٰ لَقَــدْ بَخَّــلَ فينــا أَدَبَ الحــاتِمــي
يَسْــرُدُ أَسْمــاءَ الــرِّجــالِ التــي فَــرَّطَ فــي إتْقــانِهــا الحــازِمــي
وســادَ فــي عَصْـرِ الصِّبـا مَعْشَـراً أَكْبَــرُهُــمْ فــي رُتْبَــةِ الخــادِمِ

---

(١) سقط صدر البيت من م .
(٢) في م :
عــارٍ مــن العــارِ ونشــر الثنــا عليــه مــن حلــل النــاظــم (؟)
وفي هامشه : هكذا في الأمّ .
(٣) المستدرك على الصّحيحين ، للحاكم النّيسابوري .

فَمـــا لأُمٍّ الشَّـــافعـــي مِثْلُـــهُ شَيْـخٌ ولـم يَبْلُـغْ مَـدىٰ الحـالِـمِ
فَيـا بَنـي السُّبْكِـيِّ قَـدْ سُـدْتُـمُ فَمَـــنْ تَميـــمٌ وبَنـــو دارِمِ
لَـو كُنْتُـمُ مـن قَبْـلِ ذا لـم يُقَـلْ : « خُـزَيْمَـةٌ خَيْـرُ بَنـي خـازِمِ »[1]
قامَتْ بِكُمْ سُوقُ العُلا في الوَرىٰ والنَّـاسُ مـا زالـوا مـع القـائِـمِ
تَـرْوونَ فيهـا الجُـودَ عـن نـافِـعٍ وفـي الـرَّدىٰ تَـرْوونَ عن عـاصِـمِ
قَصَّـرْتُ فـي مَـدْحـي عُـلاكُـمْ ولـو أَتَيْــتُ بــالصَّــادِحِ والبــاغِــمِ[2]

● فكتبَ هو إليَّ الجوابَ عن ذلك : [من السريع]

شُكْـراً مِـن العَبْـدِ أَبـي حـاتِـمِ علـى جَميـلٍ للـدُّعـا حـاتِـمِ[3]
مَنْظُـومَـةٌ مِـن نَثْـرِ دُرٍّ أَتَـتْ تَهْـزَأُ بـالنَّـاثِـرِ والنَّـاظِـمِ
جاءَتْ علىٰ شَرْطِ اقْتِراحي الذي كـانَ لِفِعْـلِ الحَمْـدِ كـالجـازِمِ
حِلْيَـةُ مُسْتَغْـنٍ لِمِصْـرَ أَتَـتْ فـي قِطَـعٍ مِـن تُحَـفِ القـادِمِ
جـاءَتْ مـن البَحْـرِ بِـأَصْنـافِ مـا يُهْـدَىٰ فَقُـلْ فـي قِطَـعِ الكـارِمِ
كَـأَنَّهـا الـرَّوْضُ بَكـاهُ النَّـدىٰ فَـافْتَـرَّ ثَغْـرُ الـزَّهَـرِ البـاسِـمِ
في النَّظْمِ والجُودِ سَمَتْ وازْدَرَتْ بـالجُـودِ أَو بـالأَدَبِ الحـاتِمـي
رَوَتْ حَـدِيثَ العِلْـمِ فَـالقَلْـبُ قـد حـامَ وأَرْوَتْ غُلَّـةَ الحـائِـمِ
فَقُـلْ لِمَـنْ يَطْمَـعُ فـي مِثْلِهـا : أَنْـتَ بِـوَجْـهِ المـاءِ كـالـرَّاقِـمِ
كُثَيِّـرٌ عَـنْ نَظْمِهـا قَـلَّ بَـلْ أَكْـدىٰ فَقُـلْ مِسكيـنٌ الـدَّارِمـي

---

(١) العجز صدر بيت لأبي نواس : [ديوانه ١/ ٢٨٨]
خـزيمـة خيـر بنـي خـازم وخـازم خيـر بنـي دارم
ودارم خيـر تميـم ومـا مثـل تميـم فـي بنـي آدمِ
(٢) الصّادح والباغم : اسم كتاب لابن الهبّاريّة . (كشف الظّنون ٢/ ١٠٦٩) .
(٣) في م : × . . . . خاتم .

لـو رامَهـا عَمـرٌو دُعـي ظـالِمـاً ... كـاسْـمِ أَبيـهِ قَبْلَـهُ ظـالِـمِ(١)
عـادَ بِهـا لـي يَـوْمَ عِيْـدٍ فَعَـنْ ... كَـأْسِ التَّصـابـي لَسْـتُ بِـالصَّائِـمِ
فَكَـمْ بِهـا بَيْـتُ عُـلاً شـادَهُ ... خَيْـرُ إِمـامٍ لِلـرَّدَىٰ هـادِمِ
حَبْـرٍ كَـريـمٍ مـاجِـدٍ أَرْوَعٍ ... بَحْـرٍ خِضَـمٍّ عـامِـلٍ عـالِـمِ
شَيْـخِ عُلـومٍ صـارَ فـي دَهْـرِهِ ... مِـن غَيْـرِ خَلْـفٍ عـالِـمِ العـالَـمِ
يُقَصِّـرُ الأَعْلَـمُ عـن نَحْـوِهِ ... قُصـورَ فَـدْمٍ لَيْـسَ بـالفـاهِـمِ
كَـذا المَعَـرِّيُّ زَعيـمُ العُـلا ... لِنُـورِهِ فـي النَّظْـمِ كـالغـارِمِ
حتَّـىٰ أَبـو الأَسْـوَدِ عَنْـهُ وَنَـىٰ ... فَلَيـسَ يُـدْعَـىٰ بِسِـوىٰ ظـالِـمِ
بِخِـدْمَـةِ العِلْـمِ يَسُـودُ الـوَرىٰ ... مـا سَيِّـدُ القَـوْمِ سِـوىٰ الخـادِمِ
ذو راحَـةٍ لِلْعُـدْمِ من جُـودِهـا النْـ ... ـنـاسِـخُ والمَنْسـوخُ للحـازِمِـي
مـاءُ النَّـدىٰ مِنْهـا جَـرىٰ ثُـمَّ كَـمْ ... فـي الـوَجْـهِ مـن مـاءِ حَيـاً دائِـمِ
فِعْـلَ النَّـدىٰ مِنْهـا تَعَـدَّىٰ إِلـى ... كُـلٍّ وَمَـعْ ذا صِفْـهُ بـالـلاَّزِمِ
ونُـورُ عِلْـمٍ لاحَ مـا مـاجِـدٌ ... لَـهُ لِشَمْـسِ الأُفْـقِ بـالعـادِمِ
إِنْ عَـمَّ خَطْـبٌ فـارْوِ مِـنْ عِلْمِـهِ ... عـن نـافِـعٍ فـي الـدِّيْـنِ أَو عـاصِـمِ
قـامَ بِـلا دُنيـا لِنَفْـعِ الـوَرىٰ ... فَكَيْـفَ والـدُّنْيـا مـع القـائِـمِ
وَحُبُّـهُ عَـمَّ جَمِيـعَ الـوَرىٰ ... كَطِيْـبِ كَـأْسِ المـاءِ لِلطَّـاعِـمِ
فَمَـنْ خَـلا مِـن حُبِّـهِ قَلْبُـهُ ... فَلَيْـسَ عِنْـدي مِـن بَنـي آدَمِ
يـا سَيِّـدي قُـلْ لـي مَتَـىٰ أَرْتَـوي ... مِنْـكَ بِـوَجْـهِ القـادِمِ الغـانِـمِ
وأَجْتَلـي ذاكَ المُحَيَّـا الـذي ... يَجْنـي ويَجْلـو كَـدَرَ الهـائِـمِ
فـي زَوْرَةٍ مَيْمـونَـةٍ لَـمْ يَكُـنْ ... صـاحِبُهـا لِلصَّحْـبِ بِـاللاَّئِـمِ
[٢٣ ب] تَمْنَـحُ ضَـرْعَ الهَـمِّ فيهـا لِمَـنْ ... عـادَىٰ وقَـرْعَ السِّـنِّ لِلنَّـادِمِ

(١) إشارة إلى اسم أبي الأسود الدُّؤلي : عمرو بن ظالم .

أَشْكُو إِلى الدَّهْرِ جَفاكُمْ وَما نَفْعُ التَّشَكِّي لِسِوىٰ راحِمِ
والحَزْمُ قَبْلَ العَزْمِ فانْهَضْ إِلى مِصْرَ نُهُوضَ الحازِمِ العازِمِ
واشْرَبْ من المَلَّاحِ في النِّيلِ ما يَحْلو لِمَنْ مَرَّ ولِلغانِمِ
والشَّامَ فاعْدِلْ عن مَلاحِيِّهِ فيها وخَلِّ العِنَبَ العاصِمي
لا جَعَلَ اللهُ انْتِظاري لَكُمْ مِثْلَ انْتِظارِ الحاكِمِ الفاطِمي
فَدُمْ بِرَغْمِ الفَدْمِ شانِئِكُمْ غَمْرِ إِذا اسْتَيْقَظَ كالنَّائِمِ
لا يَفْتَحُ الرَّاحَةَ عن طاعَةٍ كَأَنَّما يَلْعَبُ بالخاتِمِ

١٣ * أَحمد بن محمَّد بن قُرْصَة[١] :

● شِهابُ الدِّيْنِ بن شَمسِ الدِّيْنِ الأَنْصارِيّ ، الصَّعيديّ الأَصل ، المِصْرِيّ المَوْلِد .

● **كتبَ إِليَّ عدَّةَ قَصائد ، منها قَولُه**[٢] : [من الكامل]

ما لي أَرىٰ الشُّعَراءَ تَكْسِبُ عارا بِهِجائِهِمْ وَتَحَمَّلُوا أَوْزارا
مَدَحُوا الأَخِسَّاءَ اللِّئَامَ فَضَيَّعُوا الْـ أَشْعارَ لَمَّا أَرْخَصوا الأَسْعارا
فَلِذاكَ طُفْتُ بِبابِ كُلِّ مُهَذَّبٍ وجَعَلْتُ شِعْرِي في الكِرامِ شِعارا
وَجَعَلْتُ في حَلَبِ الشَّمالِ إِقامَتي يا حَبَّذا دارُ الكِرامِ جِوارا
وَلَكَمْ دَعا مَدْحي نَوالُ مُعَظَّمٍ فَأَبَتْ عُتُوّاً عَنْهُ واسْتِكْبارا
حتَّىٰ وَجَدْتُ لَها إِماماً عالِماً أَوصافُهُ تَسْتَغْرِقُ الأَشْعارا
لَولا صَلاحُ الدِّيْنِ لَمْ أَرَ جِلَّقاً ولَكُنْتُ مِمَّن جانَبَ الأَسْفارا

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ١/ ٣٥١ والوافي بالوفيات ٨/ ٨٣ والدّرر الكامنة ١/ ٢٩٣ .
ـ قتل بدمشق سنة ٧٥٢ هـ . ومولده بصعيد مصر سنة ٦٩٩ هـ .
ـ اسمه في أ ، م : أَحمد بن يحيىٰ بن قرصة ! .
(٢) القصيدة في أَعيان العصر والوافي .

أَسْدىٰ المَكارِمَ من أَكُفٍّ لم يَزَلْ مَعْـــروفُهـــا يَسْتَعْبِـــدُ الأَحْـــرارا
وصَنــائِعــاً غُـــرّاً أَفَــدْنَ مَنــائِحــاً عُــونــاً وَلَــدْنَ مَــدائِحــاً أَبْكــارا[1]
فَـوَجَـدْتُ فـي إِجْمـالِـهِ وجَمـالِـهِ مــا يَمْــلأُ الأَسْمــاعَ والأَبْصــارا[2]
مَـوْلـىً غَـدَتْ يُمْنـاهُ يُمْنـاً لامْـرِىءٍ يَبْغـــي نَـــوالاً واليَســـارُ يَســـارا
حَلَّـى الـزَّمـانَ وكـانَ قِـدْماً عـاطِـلاً وأَعــــادَ لَيْـــلَ الآمِليـــنَ نَهـــارا
وحَـوىٰ مَعـالـيَ فـي دمشـقَ مُقيمَـةً وحَـديثُهـا بَيْـنَ الـوَرىٰ قـد سـارا
بَلَغَــتْ بِـهِ رُتَبــاً قَــرَعْــنَ مَحَلَّــةً أَمْسَــتْ نُجُــومُ سَمــائِهــا أَقْمــارا
زانَــتْ فَضــائِلُــهُ بَـدائِـعَ نَظْمِهــا كـم مِعْصَـمٍ أَضْحـىٰ يَـزِيـنُ سِـوارا
ومُظَفَّــرُ الأَقْــلامِ كــم أَرْدى بِهــا مَلِكــاً وَخَــوَّفَ جَحْفَــلاً جَــرَّارا
عَجَباً لهـا تَجْـري بـأَسْـوَدَ فـاحِـمٍ يَكْسو الطُّروسَ ظَلامُهُ الأَنْوارا[3]
تَمْضي بِحَيْثُ تَرىٰ السُّيوفَ كَليلَةً وتَطولُ حَيْثُ تَرىٰ الرِّماحَ قِصارا
تَجْـري بِـواحِـدِهـا ثَـلاثُ سَحـائِـبٍ تَحْـوي الصَّـواعِـقَ والحَيا المِـدْرارا
وتَمُــدُّهُ بــالفَضْــلِ حِيــنَ تَمُــدُّهُ بِبَـــديهَـــةٍ لا تُتْعِـــبُ الأَفْكـــارا
إِنْ رامَ نــائِلَـــهُ العُفــاةُ أَمَــدَّهُ كَــرَمــاً وإِنْ رامَ الخَميــسُ مُغــارا
مَــلأَ الكِتــابَ تَهَــدُّداً فَكَــأَنَّمــا مَــلأَ الكِتــابَ أَسِنَّــةً وشِغــارا
تَجْني النَّواظِرُ من مَحاسِنِ خَطِّهِ رَوْضــاً وَمِــن أَلْفــاظِــهِ أَزْهــارا
خَــطٌّ رِمــاحُ الخَــطِّ مِــن خُــدَّامِـهِ إِنْ رامَ دَمْــراً أَو أَعَــزَّ ذِمــارا[4]
وبَــلاغَــةٌ تَضْحــىٰ بــأَدْنــىٰ فِقْـرَةٍ تُغْنـــي فَقيـــراً أَو تَقُـــدُّ فَقـــارا
ويَشيــمُ رُوَّادُ النَّــدىٰ مِــن بِشْــرِهِ بَــرْقــاً وَمِــن إِحْســانِــهِ أَمْطــارا

---

(١) في أ ، م : × . . . مناٸحاً أبكارا . وفي م : . . . مدائحاً × .
(٢) في ب : . . . في إجلاله وجماله × .
(٣) في م : × . . . أنوارا .
(٤) دمراً : هلاكاً .

بِشْـرٌ يُبَشِّـرُ بـالجَميـلِ وعـادَةُ الـ أَزْهـــارِ أَن تَتَقَـــدَّمَ الأَثْمـــارا
وَنَـدىً يَعُـمُّ ولا يَخُـصُّ كَـأَنَّـهُ هــامــي قِطــارٍ طَبَّــقَ الأَقْطــارا
يَسْتَصْغِـرُ الأَمْـرَ العَظيـمَ إِذا عَـرا بعَــزيمَــةٍ تَسْتَسْهِــلُ الأَوْعــارا[1]
ويَـرُدُّ غَـرْبَ الحـادِثـاتِ مُفَلَّـلاً بِسَعــادَةٍ تَسْتَخْــدِمُ الأَقْــدارا
[٢٤ أ] كـم ذَلَّلَـتْ صَعْباً وَرَدَّتْ ذاهِباً وحَمَــتْ أَذَلَّ وَذَلَّلَــتْ جَبَّــارا
ولقد عَرَفْتُ النَّاسَ مِن أَوْطارِهِمْ سُبْحـانَ مَـن خَلَـقَ الـوَرىٰ أَطْـوارا
يا مَنْ عَرَفْتُ بِجُودِهِ وَجْهَ الغِنىٰ حَقّــاً وَكُنْــتُ جَهِلْتُــهُ إِنْكــارا
أَغْنَيْتَنــي بِمَــواهِــبٍ مَـوْصُــولَــةٍ لَـم تُبْـقِ لـي عِنْـدَ الحَـوادِثِ ثـارا
لا زِلْــتَ فــي عِــزٍّ يَـدُومُ ونِعْمَـةٍ تُـوفـي علـى شُـمِّ الجِبـالِ وَقـارا

● **فكتبتُ أَنا جَوابَه عن ذلك ارْتِجالاً[2]** : [من الكامل]

يـا شـاعِـراً مَـلأَ الطُّـروسَ نَهـارا وأَسـالَ فِيـهِ مِـن الـدُّجـىٰ أَنْهـارا
ـمْ تُهْـدِ لـي نَظْمـاً بَـديعـاً إِنَّمـا أَهْــدَيْتَــهُ فَلكــاً أَراهُ مُــدارا
فـي كُـلِّ شَطْـرٍ بُـرْجُ سَعْـدٍ ثـابِـتٌ تَبْــدو مَعــانِيــهِ بِــهِ أَقْمــارا
لا أَرْتَضِــي بـالـرَّوْضِ تَشْبيهـاً لَـهُ إِنَّ الــزَّواهِــرَ تَفْضُــلُ الأَزْهــارا
قَلَّــدْتَنــي مِنْــهُ قَــلادَةَ مِنَّــةٍ تَسْتَــوْقِــفُ الأَسْمــاعَ والأَبْصــارا
يَغْنـى النَّـدِيـمُ بِـهِ فـإِنَّ قَـوافيـاً مِنْـهُ تُـديـرُ لِمَسْمَعَيْـهِ عُقـارا[3]
وتَـرىٰ اللَّبيـبَ إِذا تَعـاطـىٰ فَهْمَـهُ لَـمْ يـذْكُـرِ الأَوْطـانَ والأَوْطـارا
فَكَـأَنَّ ذاكَ الطِّـرْسَ وَجْنَـةُ أَغْيَـدٍ والسَّطْـرُ فِيـهِ قـد أَسـالَ عِـذارا
فاعْذِرْ شِهابَ الدِّيْنِ مَنْ تَقْصِيرُهُ أَضْحـىٰ يُلَفِّـقُ عِنْـدَكَ الأَعْـذارا

---

(١) في م : . . . إِذا غدا × .
(٢) القصيدة في أعيان العصر .
(٣) في م : . . . كأَن قوافياً × . وفي هامشه : في الأُمّ : فإِنَّ .

أَنـا لا أُطيـقُ جَـوابَ مَـن أَشْعـارُهُ تَنْهَـلُّ حِيـنَ يَـرومُهـا أَمْطـارا
وإِذا جَرىٰ في حَلْبَـةٍ قَصَّـرْتُ عـن غـايـاتِـهِ بـل لا أَشُـقُّ غُبـارا[1]
إِنَّ الغَـديـرَ وإِنْ تَعـاظَـمَ قـاصِـرٌ عـن أَنْ يُقـاوِمَ بَحْـرَكَ الـزَّخّـارا
وَكَـذا أَخـو النَّظْـمِ المُـزَلْـزَلِ رُكْنُـهُ لا يَسْتَكِـنُّ مـع الجِبـالِ قَـرارا
فَخُـذِ القَليـلَ إِجـابَـةً وإِجـازَةً واعْـذِرْ فَمِثْلُـكَ مَـن أَقـالَ عِثـارا
واعْتَـدَّ أَنَّـكَ لـم تَـزُرْ فـي جِلَّـقٍ أَحَـداً وأَنَّـكَ جِئْـتَ تَقْبِـسُ نـارا
فَـلأَنْـتَ تَعْلَـمُ أَنَّنـي لـم أَرْضَهـا لـو أَنَّ دِرْهَمَهـا غَـدا دِيْنـارا
مـا قَـدْرُهـا مِئَـةً لـو أَنِّـي سُقْتُهـا إِبـلاً تَكُـونُ حُمُـولُهُـنَّ بَهـارا

● وكتبَ هو أَيضاً[2] : [من المتدارك]

كَـمْ سَيْـفُ النَّظْـمِ أُجَـرِّدُهُ كَـمْ أُشْهِـرُهُ كَـمْ أُغْمِـدُهُ
كَـمْ أَنْظِـمُ عِقْـدَ جَـواهِـرِهِ فـي مَـدْحِ كَـريـمٍ أَقْصِـدُهُ
كـم أَجْمَـعُ مـن مَعْنـىً حَسَـنٍ وبَيـانُ الشَّـرْحِ يُشَيِّـدُهُ
وإِذا أَفْسَـدْتُ قَـواعِـدَهُ فَصَـلاحُ الـدِّيْـنِ يُسَـدِّدُهُ
حَبْـرٌ بَحْـرٌ كَـمْ فـاضَ نَـدىً إِن غـاضَ البَحْـرُ جَـرَتْ يَـدُهُ[3]
طـابَـتْ فـي الـذَّرِّ عَنـاصِـرُهُ وَرَبـا مَـرْبـاهُ وَمَـوْلِـدُهُ
لِسَمِّـي خَليـلِ اللهِ نَـدىً لِـذَوي الحـاجـاتِ تَفَقُّـدُهُ
وَلَـهُ قَلَـمٌ رَطْـبٌ وَتَصـا نِيْـفٌ فـي البَحْـثِ تُـؤَيِّـدُهُ[4]
فـالفـاضِـلُ دُوْنَ عِبـارَتِـهِ وكَـذا سَحْبـانُ ومَعْبَـدُهُ

---

(١) في م : فإذا جرى . . . × .
(٢) هذه القصيدة تُسمّى : قَطر الميزاب . وقد اكتفى الصفدي في أعيان العصر وابن حجر بإيراد الأبيات الثلاثة الأولى منها .
(٣) في ب : . . . كم فاق ندىً × .
(٤) في م : ولكم قلمٍ رطبٍ وتصانيفٍ . . .

وصِيـانَـةُ سِـرِّ المُلْـكِ لَـهُ قَيْـدٌ فـي القَلْـبِ يُخَلِّـدُهُ
غَـرْسٌ والعَنْبَـرُ طِيْنَتُـهُ فَلـذلـكَ جَـلَّ تَجَسُّـدُهُ(١)
فـالـوَرْدُ علـى خَـدَّيْـهِ وَمِـنْ إِشْـراقِ الشَّمْـسِ تَـوَقُّـدُهُ
وصَـلافَـةُ نَفْـسٍ قَـدْ شَـرُفَـتْ ومَكـارِمُ خُلْـقٍ يَعْضِـدُهُ
يـا مَـنْ أَنْشـاهُ اللهُ علـى الْـ إِنْشـاءِ فَـأَعْـذَبَ مَـوْرِدُهُ
بِـالبَـرْدِ تَـرَدَّدَ لـي كـانُـو نُ فَشَـقَّ عَلَـيَّ تَـرَدُّدُهُ
والبَـرْدُ يَشُـقُّ علـىٰ العُـرْيـا نِ ولَيْـلُ الصَّحْـوَةِ أَبْـرَدُهُ(٢)
لـو كـانَ البَـرْدُ حَـديـداً كُنْـ ـتُ بِحَـدِّ المِبْـرَدِ أَبْـرُدُهُ(٣)
لا تَسْـأَلْ عـن شَخْصـي أَحَـداً شَخْـصٌ كـالمَيِّـتِ تُلْحِـدُهُ
جِسْمـي وَرَقٌ وابْتَـلَّ عَسـا كَ بِبَعْـضِ فِـراكَ تُجَلِّـدُهُ
جَسَـدٌ بِـالنَّـارِ تُحَـرِّقُـهُ وبِـدِقِّ الفَحْـمِ تُـرَمِّـدُهُ
فَنَسيـمُ الصُّبْـحِ يُشَـرِّحُـهُ وجَليـدُ الأَرْضِ يُقَـدِّدُهُ
ويَطـولُ اللَّيْـلُ علـى سَهَـري فَـأَقـولُ : مَتـىٰ يَـأْتـي غَـدُهُ
وقِمـاشـي كـانَ لَـهُ صَلَـفٌ بِبَخـورِ العُـودِ أُعَـوِّدُهُ
[٢٤ ب] فَـأَتَـتْ فـي اللَّيْـلِ لَـهُ الأَمْطـا رُ فَـأَخْلَـقَ مِنْـهُ تَجَـدُّدُهُ(٤)
فَنُقـوطُ الـدَّلْـفِ يُصَفِّـرُهُ ودُخـانُ النَّـارِ يُسَـوِّدُهُ
فَـاصْلِـحْ حـالـي وانْعِـمْ بـالـي فَبِصـادِ صَـلاحِـكَ تُـرْشِـدُهُ
فَـاللهُ يُـديـمُ لَـكَ الإِفْضـا لَ وبِـالنَّعْمَـاءِ يُـؤَيِّـدُهُ

---

(١) في ب : وغراس العنبر . . . × .

(٢) في م : × وليل الصَّحوِ . . . .

(٣) سقط هذا البيت من ب .

(٤) في أ ، م : × . . . . تجلّده .

١٤ * أَحمد بن محمَّد[١] :

الأَميرُ الأَجَلُّ شِهابُ الدِّين ، المَعروفُ بالحاجِبيِّ .

● **أَنْشدَني لِنَفْسِهِ بِسُوقِ الكُتُبِ بالقاهرة المحروسَةِ سنة ٧٣٨**[٢] : [من البسيط]

أَقُولُ : شَبِّهْ لَنا جِيْدَ الرَّشا تَرَفاً ... يـا مُعْمِـلَ الفِكْـرِ فـي نَظْـمٍ وإِنشـاءِ
فَظَـلَّ يُجْهِـدُ أَيَّـامـاً قَـرِيْحَتَـهُ ... « وَشَبَّهَ الماءَ بَعْدَ الجَهْدِ بِالماءِ »

فَقُلْتُ لَهُ : أَطْلَقْتَ الرَّشأَ هنا ، ولو قلتَ : الرَّشأُ الذي سَباني ، أَو جِيْدَ مُعَذِّبي ؛ لَكانَ أَقْعَدَ في التَّوْطِئَةِ .

● **ثم أَنشدتُهُ فيما بعدُ لِنَفْسِي**[٣] : [من البسيط]

أَقولُ : شَبِّهْ لنا كَأْساً إِذا مَزَجَ السْـ ... ـساقي طَلاها اهْتَدىٰ في لَيْلِهِ السّاري
فَظَـلَّ يُجْهِـدُ أَيَّـامـاً قَـرِيْحَتَـهُ ... وَشَبَّـهَ النَّـارَ بَعْـدَ الجَهْـدِ بِـالنَّـارِ

فقالَ : إِلاَّ أَنَّني أَنا أَتَيْتُ بالمَثَلِ السَّائِرِ .

● **فَأَنْشَدْتُهُ فيما بعدُ لِنَفْسي**[٤] : [من البسيط]

أَتـىٰ الحَبِيبُ بِـوَجْـهٍ جَـلَّ خـالِقُـهُ ... لَمَّـا بَـراهُ بِلُطْـفٍ فِتْنَـةَ الـرَّائـي
فَلاحَ شَخْصٌ عَذولي وَسْطَ وَجْنَتِهِ ... فَقُلْتُ : شَبِّهْهُ لي في فَرْطِ لأْلاءِ[٥]

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ١/ ٣٦٦ والوافي بالوفيات ٨/ ١٦١ والدّرر الكامنة ١/ ٣١٢ والمنهل الصافي ٢/ ١٨٨ والدليل الشافي ١/ ٨٧ .
ـ وفاته سنة ٧٤٩ هـ . ومولده بعد السبعمئة بمدَّةٍ .

(٢) البيتان في أَعيان العصر والوافي والغيث المسجم ١/ ١٥٧ .

(٣) البيتان في أَعيان العصر .

(٤) الأَبيات في أَعيان العصر .

(٥) سقط هذا البيت من ب .

فَظَـلَّ يُجْهِـدُ أَيَّـامـاً قَـرِيْحَتَـهُ ... وَشَبَّهَ الماءَ بَعْدَ الجَهْدِ بالماءِ[1][2]

● ولمَّا سَمعَ قَولي[3] : [من الكامل]

قـالَـت لأَيْـرِي وَهْـوَ فيهـا ضـائِـعٌ ... كـالحَبْـلِ وَسْـطَ البِئْـرِ إِذْ تُلْقِيْـهِ :
قَدْ عِشْتَ في كُسٍّ كَبِيرٍ ، قُلْتُ : ما ... كَـذَبْـتْ ، لأَنَّ الكـافَ لِلتَّشْبِيْـهِ

قالَ هو مُخْتَصِراً ، وأَجادَ[4] : [من السريع]

رُبَّ صَغيـرٍ حِيـنَ وَلَّفْتُـهُ ... أَيْقَنْـتُ لا يُـدْخِـلُ إلاَّ اليَسيـرْ
أَلْفَيْتُـهُ كـالبِئْـرِ فـي وُسْعِـهِ ... حتَّىٰ عَجِبْنـا مـن صَغيـرٍ كَبيـرْ

● وكذا لمَّا سمعَ قَولي[5] : [من الكامل]

يا طِيْبَ نَشْرٍ هَبَّ لي مِن أَرْضِكُمْ ... فَـأَثـارَ كـامِـنَ لَـوْعَتـي وتَهَتُّكِـي
أَدَّىٰ تَحِيَّتَكُـمْ وأَشْبَـهَ لُطْفَكُـمْ ... وَرَوىٰ شَـذاكُـمْ إِنَّ ذا نَشْـرٌ ذكـي

● نَظَمَه أَيضاً ، وقالَ[6] : [من الكامل]

لا تَبْعَثُـوا غَيْـرَ الصَّبـا بِتَحِيَّـةٍ ... ما طابَ في سَمْعِي حَدِيْثُ سِواها
حَفِظَتْ أَحادِيْثَ الهَوىٰ وَتَضَوَّعَتْ ... نَشْـراً فَيـا للهِ مـا أَذْكـاهـا

ولمَّا أَنْشَدَنيها قُلتُ له : إلاَّ أَنَّكَ نَقَصْتَها صِفَةً عمَّا وَصَفْتُها بِهِ ؛ فاعْتَرَفَ .

---

(1) في هامش أ : وللحاجبي أن يقول أيضاً : إلاّ أنني وطّأتُ للمثل قبله ببيتٍ واحدٍ ، وأنت ببيتين .

(2) قال المؤلف في أعيان العصر ١/٣٦٧ وعنه ابن شاكر في فوات الوفيات ٣/١١٦ . وينظر الغيث ١/١٥٧ : قلت : وأصل هذا المثل أن الوجيه ابن الذروي دخل يوماً إلى الحمّام ، ومعه ابن وزير الشاعر ، فقال ابن وزير :

لله يـومـي بحمّـام نعمـتُ بهـا ... والمـاءُ مـا بيننـا مـن حـولهـا جـارِ
كـأنـه فـوق شفّـاف الـرُّخـام ضحـىً ... مـاءٌ يسيـل علـى أثـواب قصّـارِ

فقال ابن الذروي [تصحّف في الغيث إلى ابن الرومي !] :

وشـاعـرٍ أوقـد الطبـعَ الـذكـيَّ لـه ... فكـاد يحـرقـه مـن فـرطِ إذكـاءِ
أقـام يُعمـلُ أيـامـاً قـريحتـه ... وشبَّـه المـاءَ بعـد الجهـدِ بـالمـاءِ

(3) البيتان في أعيان العصر والوافي والغيث المسجم ٢/٢٣٧ .

(4) البيتان في الوافي والدرر الكامنة .

(5) هما في أعيان العصر والوافي والمنهل الصافي وهامش الدّرر الكامنة والكشف والتنبيه ٢٥٨ .

١٥ * أَحمد بن محمَّد بن أَبي بَكر بن عِماد الدِّين أَبي الحَرَمِ مَكِّيّ بن مُسلم ابن أَبي الخَوْفِ(١) ، شِهابُ الدِّين :

● كتبَ إِليَّ ونحنُ بالقاهرةِ المحروسَةِ سنة ٧٣٦(٢) : [من الطويل]

أَيا سَيِّداً سادَ الوَرىٰ بِفَضائِلٍ ... تَناهَتْ فَما أَضحىٰ لَهُنَّ عَديلُ
تَقَمَّصْتَ ثَوْبَ العِلْمِ والحِلْمِ والنَّدىٰ ... فَأَنْتَ صَلاحٌ لِلوَرىٰ وخَليلُ
وَلَسْتَ خَليلاً بَلْ خَليجاً لِوارِدٍ ... غَلِطْتُ فَسامِحْني فَنَيْلُكَ نِيْلُ

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ عن ذلكَ(٢) : [من الطويل]

أَيا ابْنَ أَبي الخَوْفِ الذي أَمِنَتْ بِهِ ... طَرائِقُ نَظْمٍ واسْتَبانَ دَليلُ
لَقَدْ فُتَّ غاياتِ الأُولىٰ سَبَقوا إِلىٰ ... نِهاياتِ فَضْلٍ ما لَهُنَّ سَبيلُ
فَأَنْتَ علىٰ مَرِّ الزَّمانِ كُثَيِّرٌ ... وَرَأْيُكَ في النَّظْمِ البَدِيعِ جَميلُ(٣)

١٦ * أَحمد بن يحيىٰ بن فَضْل الله بن المُجَلِّي بن دَعْجان بن خَلَف ابن أَبي الفَضْلِ نَصْر بن مَنْصور(٤) :

القاضي شِهابُ الدِّينِ ، أَبو العَبَّاسِ ، ابن القاضي مُحيي الدِّين ، صاحِبُ

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ١/ ٣٦٤ والوافي بالوفيات ٨/ ١٦٠ وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٥٦٦ والدّرر الكامنة ١/ ٢٥٦ .
ـ وفاته سنة ٧٤٩ هـ وله أَربعون سنة تقريباً .
(٢) الأَبيات في أَعيان العصر والوافي .
(٣) في س : فأَنت على هذا الزَّمان . . . × . والإِشارة إِلى الشاعرين : كُثَيِّر عَزَّة وجميل بثينة .
(٤) ترجمته في : المعجم المختص ٤٥ وذيول العبر ٢٧٥ وأَعيان العصر ١/ ٤١٧ والوافي بالوفيات ٨/ ٢٥٢ والبداية والنهاية ١٨/ ٥١٠ ووفيات ابن رافع ١/ ٢٨٣ وتذكرة النبيه ٣/ ١٢٥ وفوات الوفيات ١/ ١٥٧ والمقفى الكبير ١/ ٧٣٢ وتعريف ذو العلا ٦٤ وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٥٧٠ والدّرر الكامنة ١/ ٣٣١ والنجوم الزاهرة ١٠/ ٢٣٤ والمنهل الصافي ٢/ ٢٦١ والدليل الشافي ١/ ٩٦ والذيل التام ١/ ١٠٥ وحسن المحاضرة ١/ ٤٩٣ وشذرات الذهب ٨/ ٢٧٣ .
ـ ولادته سنة ٧٠٠ هـ . ووفاته سنة ٧٤٩ هـ .

ديوانِ الإنْشاءِ الشَّريفِ بالشَّامِ المحرُوسِ .

● **كتبَ هو إليَّ مُلْغِزاً في « زُبَيْدَة »**[1] : [من الخفيف]

[٢٥ أ] أيُّها الفاضِلُ الذي حازَ فَضْلاً ... ما عَلَيْهِ لِمِثْلِهِ مِنْ مَزِيْدِ
قَد تَدانىٰ عبدُ الرَّحيمِ إليهِ ... وتَناءَىٰ لَدَيْهِ عبدُ الحَميدِ
أَيُّ شَيْءٍ سُمِّي بِهِ ذاتُ خِدْرٍ ... تائِهٍ بالإِماءِ أو بالعَبيدِ
هُوَ وَصْفٌ لِذاتِ سِتْرٍ مَصونٍ ... وَهْيَ لم تَخْفَ في جَميعِ الوُجودِ
مُذْ مَضىٰ حِيْنُها بِها لَيْسَ تَأْتي ... وَهْيَ تَأْتي معَ الرَّبيعِ الجَديدِ
وَهْيَ مِمَّا يُبَشِّرُ النَّاسَ طُرّاً ... مِنْهُ مَأْتىً وَكَثْرَةً في العَديدِ
وحَليمٍ أَرادَهُ لا لِذاتٍ ... بَلْ لِشَيْءٍ سِواهُ في المَقْصودِ
ذاكَ شَيْءٌ مَن ارْتَجاهُ سَفيهٌ ... وَهْوَ شَيْءٌ مُخَصَّصٌ بالرَّشيدِ

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إليهِ**[2] : [من الخفيف]

يا فَريداً أَلْفاظُهُ كالفَريدِ ... ومُجيداً قد فاقَ عبدَ الحَميدِ
وإِمامَ الأَنامِ في كُلِّ عِلْمٍ ... وشَريكاً في الفَضْلِ للتَّوحيدي
عَرَفَ العالِمونَ فَضْلَكَ بِالـ ... ـعِلْمِ وقالَ الجُهَّالُ بِالتَّقْليدِ
مَنْ تَمَنَّىٰ بِأَنْ يَرىٰ لَكَ شِبْهاً ... رامَ نَقْضاً بالجَهْلِ حُكْمَ الوُجودِ[3]
طالَ قَدْري على السِّماكَيْنِ لمَّا ... جاءَني مِنْهُ عِقْدُ دُرٍّ نَضِيدِ[4]
شابَهُ الدُّرَّ في النِّظامِ ولمَّا ... شابَهَ السِّحْرَ شابَ رَأْسُ الوَليدِ

---

(١) الأبيات في أعيان العصر والوافي .
(٢) الأبيات في أعيان العصر والوافي .
(٣) في م : × رامَ نقصاً . . . .
(٤) في ب : × . . . درّ عقدِ نَضيدِ .

هُـوَ لُغْـزٌ فـي ذاتِ خِـدْرٍ مَنيـعٍ   نَـزَلَـتْ فـي العُلـىٰ بِقَصْـرٍ مَشيـدِ
هِـيَ أُمُّ الأَميـنِ ذاتِ المَعـالـي   مـن بَنـي هـاشِـمٍ ذَوي التَّـأْيِيـدِ
أَنْـتَ كُنْـتَ الهـادِي لِمَعْنـاهُ حَقّـاً   حِيْـنَ لَـوَّحْـتَ لـي بِـذِكْـرِ الرَّشيـدِ
دُمْـتَ تُهْـدي إِلـيَّ كُـلَّ عَجيـبٍ   مـا عَلَيْـهِ فـي حُسْنِـهِ مـن مَـزيـدِ

● **وكتبتُ أَنا إِليهِ مُلْغِزاً في « نَجْمٍ »**[1] : [من السريع]

يـا سَيِّـداً أَقْـلامُـهُ لـم تَـزَلْ   تُهْـدِي لآلـي النَّظْـمِ والنَّثْـرِ
قُـلْ لـيَ مـا اسْـمٌ لَـمْ يَـزَلْ قَلْبُـهُ   مُعَـذَّبـاً بِـالبِيْـضِ والسُّمْـرِ[2]
وَكُلُّـهُ فـي الأَرْضِ أَو فـي السَّمـا   وَثُلْثُـهُ يَسْبَـحُ فـي البَحْـرِ[3]

● **فكتبَ هو الجوابَ إِليَّ**[4] : [من السريع]

دُمْـتَ خَليلـي سـائِـرَ الـذِّكْـرِ   مِثْـلَ الـذي أَلْغَـزْتَ فـي القَـدْرِ
بَعَثْتَهـا نَجْمِيَّـةً قَـد حَلَـتْ   لكنَّهـا مـن سُكَّـرِ الشُّكْـرِ
تَطْلُـعُ بِـالنَّجْـمِ فـأَمَّـا الـذي   فـي مَطْمَـحِ الـزُّهْـرِ أَو الـزَّهْـرِ
عَجِبْـتُ مِنْـهُ كَيـفَ شَـقَّ الـدُّجىٰ   ومـا أَتـىٰ إِلاَّ مـع الفَجْـرِ[5]
مـن صَنْعَـةِ البَـرِّ ولكنَّـهُ   قـد جـاءَنـي فـي راحَـةِ البَحْـرِ
أَقْسَمْـتُ منـهُ قَسَمـاً بِـالِغـاً   بـالفَجْـرِ واللَّيْـلِ إِذا يَسْـرِي
لقـد أَغـرْتَ الغِيْـدَ إِذْ لـم تَجِـدْ   شَبيهَـهُ فـي الجِيْـدِ والثَّغْـرِ
بِعِقْـدِ دُرٍّ مـا لَـهُ قِيْمَـةٌ   يـا حُسْنَـهُ لِلْكَـوْكَـبِ الـدُّرِّي

---

(١) الأَبيات في الوافي وأَعيان العصر .
(٢) قلبُ نجم : مجنّ .
(٣) في الأَرض : نَبْتٌ على غير ساق . وفي السماء : الكوكب . وثلثه : النون = السّمك .
(٤) القصيدة في أَعيان العصر والوافي .
(٥) في س : . . . شقَّ الدُّمىٰ × ! .

مُسَهَّـدٌ تُـذْكَـىٰ لَـهُ مُقْلَـةٌ مَقْلُـوبَـةٌ كـالنَّظَـرِ الشَّـزْرِ
وهـو إذا حَقَّقْـتَ تَعْـرِيفَـهُ عَـرَفْـتَ منـهُ مَنْـزِلَ البَـدْرِ
بِـواحِـدٍ عَـدُّوا لَـهُ سَبْعَـةً تقيـسُ ذَيْـلَ اللَّيْـلِ بـالشِّبْـرِ
فـاعْـذِرْ أُخَـيَّ اليَـوْمَ إنْ قَصَّـرَتْ بَـديهَتـي واقْبَـلْ لهـا عُـذْري
فَلَيْـسَ بِـالأَلْغـازِ لـي عـادَةٌ ولا غَـزا فـي جَيْشِهـا فِكْـرِي

● **وكتبَ هو إليَّ وقد تواتَرَتِ الأَمطارُ والثُّلوجُ والرُّعودُ والبُروق في سنة ٧٤٤[١] :**

كيفَ أَصبَحَ مَولانا في هذا الشِّتاءِ الذي أَقْبلَ يُرْعِبُ مَقْدَمُهُ ، ويُرْهِبُ تَقَدُّمُهُ ، ويُريبُ اللَّبيبَ من بَرْقِهِ المُومِضِ تَبَسُّمِهِ ؟

وكيفَ حالُهُ مع[٢] رُعودِهِ الصَّارِخَةِ ، ورِياحِهِ النَّافِخَةِ ، وَوُجوهِ أَيَّامِهِ الكالِحَةِ ، وَشَرَرِ لَيالِيهِ التي لا يُبيتُ منها بِلَيْلَةٍ صالِحَةٍ ، وسَحابِهِ وأَمواجِهِ ، وجَليدِهِ والمَشْيِ فوقَ زُجاجِهِ ، وَتراكُم مَطَرِهِ الأَنيثِ[٣] ، وتَطاوُلِ لَيْلِ فَرْعِهِ الأَثيثِ ، ومَواقِدِهِ المَمْقُوتَةِ ، وذَوائِبِ جَمْرِهِ ، وَأَهْوِنْ بِهِ وَلو أَنَّ كُلَّ حَمْراءَ ياقُوتَةٌ ، وتَحَدُّرِ نَوْئِهِ المُتَصَبِّبِ ، وتَحَيُّرِ [٢٥ ب] نَجْمِهِ المُتَصَيِّبِ ؟

وَكيفَ هو مع جَيْشِهِ الذي ما أَطَلَّ حتَّىٰ مَدَّ مَضارِبَ غَمامِهِ[٤] ، وَظَلَّلَ الجَوَّ بِمِثْلِ أَجْنِحَةِ الفَواخِتِ من أَعْلامِهِ ؛ هذا علىٰ أَنَّهُ حَلَّ عُرىٰ الأَبْنِيَةِ ، وَحَلَّلَ مِمَّا تَلَفَ في ذِمَّةِ سالِفَ الأَشْتِيَةِ ؛ فلقد جاءَ من البَرْدِ بِما رَضَّ العِظامَ وأَنْخَرَها ، وَدَقَّ فَخَّاراتِ الأَجْسامِ وفَخَّرَها ، وَجَمَّدَ في الفَمِ الرِّيْقَ ، وعَقَدَ اللِّسانَ إلاَّ أَنَّهُ

---

(١) النّص في أَعيان العصر ١/ ٤٢٧ والوافي ٨/ ٢٥٧ ومسالك الأَبصار ١٢/ ٥٠٢ .
(٢) في أ ، م : في رعوده .
(٣) الأنيث : اللَّيِّن .
(٤) في ب : خيامه .

لِسانُ المِنْطيقِ ؛ وَيَبَّسَ الأَصابعَ حتَّىٰ كادَتْ أَغْصانُها تُوقَدُ حَطَباً ، وَقَيَّدَ الأَرْجُلَ فلا تَمْشِي إلاَّ تَتَوَقَّعُ(١) عَطَباً ؛ وأَتىٰ الزَّمْهريرُ بِجُنودٍ ما لِلقُوىٰ بِها قِبَلٌ ، وَحَمَّلَ الأَجْسامَ من ثِقْلِ الثِّيابِ ما لا يَعْصِمُ مِنْهُ مَنْ قالَ : ﴿ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ [هود : ٤٣] ومَدَّ من السَّيْلِ ما اسْتَبْكىٰ العُيونَ إِذا جَرىٰ ، واجْتَحَفَ ما أَتىٰ عليهِ ، وأَوَّلُ ما بَدأَ الدَّمْعُ بالكَرىٰ .

فَكيفَ أَنْتَ يا سَيِّدي في هذِهِ الأَحْوالِ ؟ وكيفَ أَنْتَ في مُقاساةِ هذِهِ الأَهْوالِ ؟ وكيفَ رَأَيْتَ منها ما شَيَّبَ بِثَلْجِهِ نَواصِي الجِبالِ ، وجاءَ بالبَحْرِ فَتَلَقَّفَ ثُعبانُهُ ما أَلْقَتْهُ هَراواتُ البُروقِ من عُصِيٍّ ، وخُيوطُ السُّحُبِ من حِبالٍ؟ .

أَمَّا نَحنُ فَبَيْنَ أَمْواجٍ من السُّحُبِ تَزْدَحِمُ ، وفي رَأْسِ جَبَلٍ لا يَعْصِمُ فِيهِ من الماءِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ ؛ وكيفَ سَيِّدُنا مع مَجامِرِ كانُونَ وشَرارِ بَرْقِها القادِحِ ، وَهَمِّ وَدْقِها الفادِحِ ، وقَوْسِ قُزَحِها المُتَلَوِّنِ ؟ رَدَّ اللهُ عليهِ صَوائِبَ سِهامِهِ ، وبَدَّلَ منهُ بِوَشائِعِ حُلَلِ الرَّبيعِ ونَضارَةِ أَيَّامِهِ ، وَجَعَلَ حَظَّ مَولانا من لَوافِحِهِ ما يُذَكِّيهِ ذِهْنُهُ من ضِرامِهِ ، ومن سَوافِحِهِ ما يُوَلِّدُهُ فِكْرُهُ من تُؤامِهِ ، وعَوَّضَنا وإِيَّاهُ بالصَّيْفِ واللهُ يَتَقَبَّلُ ، وأَراحَنا من هذا الشِّتاءِ وَمَشْيِ غَمامِهِ المُتَبَخْتِرِ بِكُمِّهِ المُسْبَلِ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

● **فكتبتُ أَنا الجوابَ إِليه(٢) :**

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، وَيُنْهي وُرُودَ هذِهِ الرُّقْعَةِ التي هي طِرازٌ في حُلَّةِ الدَّهْرِ ، وحَديقةٌ ذَكَّرَتْ زَمَنَ الرَّبيعِ وما تُهديهِ أَيَّامُهُ من الزَّهْرِ ؛ فَوَقَفَ منها على الرَّوْضِ الذي تَهَدَّلَتْ فُروعُ غُصونِهِ بالأَثْمارِ ، وَنَظَرَ منها إِلى الأُفُقِ الذي كُلُّ كَواكِبِهِ شُموسٌ وأَقْمارٌ ، فأَنْشَأَتْ لَهُ إِطْرابَةً ، وأَعْلَمَتْهُ أَنَّ قَلَمَ مَوْلانا يَفْعَلُ بالأَلْبابِ

---

(١) في ب : متوقَعةً .

(٢) الجواب في الوافي وأَعيان العصر ومسالك الأَبصار ٥٠٣/١٢ .

ما لا تَفْعَلُهُ نَغْمَةُ الشَّبابَةِ ، وأَرْشَفَتْهُ سُلافاً كُؤوسُها الحُروفُ وكُلُّ نُقْطَةٍ حَبابَةٌ ؛ وشاهَدَ أَوْصافَ هذِهِ الأَيَّامِ المُبارَكَةِ القُدومِ ، المُتَّصِلَةِ الظَّلامِ ، فلا أَوْحَشَ اللهُ مِن طَلْعَةِ الشَّمْسِ وحاجِبِ الهِلالِ وعُيونِ النُّجومِ ؛ فَما لَنا ولِهذِهِ السَّحائِبِ السَّحَّابَةِ ، والغَمائِمِ السَّكَّابَةِ ، والرُّعودِ الصَّخَّابَةِ ، والبُروقِ اللَّهَّابَةِ ، والثُّلُوجِ التي أَصْبَحَتْ بِحَصْبائِها حَصَّابَةً ، والبَرْدِ الذي أَمْسَتْ إِبَرُهُ لِغُصُونِ الجُلودِ قَطَّابَةً ، والزِّمِّيتاءُ[1] التي لا تَرْوِي عن أَبي ذَرٍّ إلاَّ ويَرْوي الغَيْثُ عن أَبي قِلابَةَ ؛ كُلَّما أَقْبَلَتْ فَحْمَةُ ظَلامٍ ، قَدَحَتْ فِيها البَوارِقُ شَرارَ جَمْرَتِها ، وكُلَّما جاءَتْ سَحابَةٌ كَحْلاءُ الجُفونِ ، رَجَعَتْ مَرْهاءَ لِما أَسْبَلَتْهُ من عَبْرَتِها ؛ فَما هذا شَهْرُ طُوْبَةٍ[2] ، إِنْ هذا إلاَّ جَبَلُ ثَهْلان ، وما هذا كانُونُ ، إِنْ هذا إلاَّ تَنُّورُ الطُّوفانِ ، فَإِلىٰ مَتىٰ قُطْنُ هذِهِ الثُّلُوجِ يُطْرَحُ على جِبابِ الجِبالِ ؛ وإِلىٰ مَتىٰ تُفاضُ دِلاصُ الأَنْهارِ ويَرْشُقُها قَوْسُ قُزَحَ بِالنِّبالِ ؟ وإِلىٰ مَتىٰ تُشَقِّقُ السَّحابُ ما لَها من الحُلَلِ والحِبَرِ ؟ وَإِلى مَتى تُرْسِلُ خُيوطَ المُزْنِ من الجَوِّ وفي أَطْرافِها على الغُدرانِ إِبَرٌ ؟ وإِلى مَتىٰ تَجْمُدُ عُيونُ [٢٦أ] الغَمامِ وتَكْحَلُها البُروقُ بالنَّارِ ؟ وإِلىٰ متىٰ نِثارُ هذِهِ الفِضَّةِ وما يُرىٰ من النُّجومِ دِيْنارٌ ؟ وإِلىٰ متىٰ نَحْنُ نَحْنو على النَّارِ حُنُوَّ المُرْضِعاتِ على الفَطِيمِ[3] ؟ وإِلىٰ متىٰ تَبْكي المَيازِيْبُ : [من الوافر]

بُكـاءَ الأَوْلِيـاءِ بِغَيْـرِ حُـزْنٍ إذا اسْتَـوْلَـوْا علـى مـالِ اليَتِيـمِ

وإِلى متىٰ هذا البَرْقُ تَتَلَوَّىٰ بُطونُ حَيَّاتِهِ ، وَتَتَقَلَّبُ حَماليقُ العُيونِ المُحْمَرَّةِ من أُسُودِ غاباتِهِ ؟ وإِلى متىٰ يُزَمْجِرُ عَتَبُ هذِهِ الرِّياحِ العاصِفَةِ ؟ وإِلى متىٰ يُرْسِلُ

---

(١) الزِّمِّيتاء : الوقور . (اللسان) .

(٢) طوبة : الخامس من شهور القبط ، ويبدأ في الخامسِ والعشرين من كانون الأول . (الأزمنة والأنواء ١٤٣) .

(٣) من قول المنازي أو حمدونة الأندلسية في وصف وادٍ : [وفيات الأعيان ١/ ١٤٣]

حللنـا دوحَـه فحنـا علينـا حنـوَّ المـرضعـات علـى الفطيـمِ

الزَّمْهَرِيرُ أَعْواناً تُصْبِحُ حَلاوَةُ الوُجوهِ بِها تالِفَةً ؟ أَتَرىٰ هذِهِ الأَمْطارَ تُقْلَبُ بالأَزْيارِ ، أَم هذِهِ المواليدُ التي تَنْتَهي فيها الأَعْمارُ ؟ كم من جَليدٍ يَذُوبُ بِهِ قَلْبُ الجَليدِ ، ويُرىٰ زُجاجُهُ الشَّفَّافُ أَصْلَبَ من الحَديدِ ، وَوَحْلٍ لا تَمْشِي هُريرةُ فِيهِ الوَحىٰ[1] ، وبَرْدٍ لا تَنْطِقُ فِيهِ نَؤومُ الضُّحىٰ .

اللَّهُمَّ حَوالَيْنا ولا عَلَيْنا ، لَقَدْ أَضْجَرَنا تَراكُمُ الثِّيابِ ، ومُقاساةُ ما لِهَذِهِ الرَّحْمَةِ من العَذابِ ، وانْجِماعُ كُلٍّ عن إِلْفِهِ ، وإِغْلاقُ بابِ القِبابِ ، وتَخَلُّلُ الضَّبابِ زَوايا البُيوتِ ، فالأَطْفالُ ضِبابُ الضَّبابِ ، كُلُّ ضَبٍّ منهم قد أَلِفَ باطِنَ نافِقائِهِ[2] ، وقَدَّمَ بَينَ يَديهِ الموتَ بِدايةَ بَدائِهِ ، قد حَسَدَ علىٰ النَّارِ مَنْ أَمسىٰ مُذْنِباً وأَصْبَحَ عاصِياً ، وتَمَنَّىٰ أَن يَرىٰ من فَواكِهِ الجَنَّاتِ عُنَّاباً وقَراصِيا .

فإِنْ كانَتْ هذِهِ الأَمْطارُ تُكاثِرُ مَكارِمَ مَولانا ، فَيا طُولَ ما تَسْفَحُ ؛ وإِنْ كانَتِ العَواصِفُ تَتَشَبَّهُ بِبَأْسِهِ ، فَيا طُولَ ما تَلْفَحُ ؛ وإِنْ كانَتِ البُرُوقُ تُحاكي ذِهْنَهُ المُتَسَرِّعَ ، فَيا طُولَ ما تَتَأَلَّقُ ؛ وإِن كانَتْ قَوْسُ قُزَحَ تَتَلَوَّنُ خَجَلاً من طُروسِهِ ، فَيا طُولَ ما تَتَأَنَّقُ ؛ وإِنْ كانَت الرُّعودُ تُحاكي جَوانِحَ أَعْدائِهِ ، فَيا طُولَ ما تَشْهَقُ وتَفْهَقُ ؛ وإِنْ كانَتِ السُّيُولُ تَجْرِي وراءَ جُودِهِ ، فإِنَّها تَجْري على طُولِ المَدىٰ وما تَلْحَقُ .

والأَوْلىٰ بِهذا النَّوْءِ الباكي ، أَنْ لا يُحاكي ؛ والأَلْيَقُ بِهذا الفَصْلِ المُبَغَّضِ ، أَن لا يَتَعَرَّضَ ؛ فَرَحِمَ اللهُ مَن عَرَفَ قَدْرَهُ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ مَولانا في الوُجودِ نَدْرَة ؛ أُنهي ذلك .

---

(١) من قول الأعشى : [ديوانه ١٠٥] والوحىٰ : الإسراع .

ودِّع هريرة إِنَّ الرَّكْبَ مرتحلُ وهل تطيقُ وداعاً أَيُّها الرَّجلُ
غرَّاء فَرعاءُ مصقولٌ عوارضُها تمشي الهُوَينىٰ كما يمشي الوحىٰ الوَجِلُ

(٢) النّافقاء : جحر الضَّبِّ . وسقطت كلمة « باطن » من م .

● فكتبَ هو الجَوابَ أيضاً عن جَوابي[1] :

ويُنْهي وُرودَ جَوابِهِ الكَريمِ ، فَوَقَفَ عليهِ ، وَتَيَمَّنَ لِمُجَرَّدِ إقْبالِهِ إليه ، وَقَبَّلَهُ لِقُرْبِ عَهْدِهِ بِيَدَيْهِ ، وَأَعَدَّهُ لِجَلاءِ المَرَهِ ، فَأَمَرَّهُ علىٰ عَيْنَيْهِ ، وَشَكَرَهُ وإنْ لَمْ تَزَلْ حَقائِبُ الشُّكْرِ مَحْطوطَةً لَدَيْهِ ، لا بَرِحَ الشُّهْدُ من جَنى رِيْقِهِ المُعَلَّلِ ، والطَّرَبُ بِكَأْسِ رَحيقِهِ المُحَلَّلِ ، والتِّيْه ـ وحاشاهُ مِنْهُ ـ في سُلوكِ طَريقِهِ المُذَلَّلِ ، والسَّحابُ لا يَطيرُ إلاَّ بِجَناحِ نَعْمائِهِ المُبَلَّلِ ، والرَّوْضُ لا يَبْرُزُ إلاَّ في ثَوْبِ زُخْرُفِهِ المُجَلَّلِ ، والبَرْقُ لا يَهْتَزُّ إلاَّ في مُسْبَلِ رِدائِهِ المُشَلَّلِ ، والجَهْدُ ولو كَلَّفَ لا يجيءُ بِمِثْلِ سَيْرِهِ المُذَلَّلِ ، والنَّصْرُ يَقْضي لِمَواضيْهِ على حَدِّ حُسامِهِ المُفَلَّلِ ، والفَجْرُ لولا بيانُهُ الوَضَّاحُ لَما أَرْشَدَ لَيْلَهُ المُضَلَّلَ ، والبَحْرُ لَوْلا عِرْقٌ من حَياءِ كَرَمِهِ الزَّاخِرِ لَما ذَمَّ على غَزَرِ المادَّةِ[2] نَوالَهُ المُقَلَّلَ ، والفَخْرُ وإنْ شَمَخَ أَنْفُهُ لا يُنافِسُ عِقْدَهُ المُوَشَّحَ ولا يَتَطاوَلُ إلى تاجِهِ المُكَلَّلِ ؛ وفَهِمَهُ فَهامَ ، واقْتَبَسَهُ فَجلا الأَوْهامَ ، وَنَظَرَ فِيهِ فَزادَ صِقالَ الأَفْهامِ ، وقَصَّرَ عن إدْراكِهِ فَما شَكَّ أَنَّهُ [٢٦ ب] إلْهامٌ ، وانْتَهىٰ فيهِ إلى الجَوابِ في وَصْفِ أَنْواءِ تلكَ اللَّيْلَةِ الماطِرَةِ ، وما مَوَّهَتِ السُّحُبُ من ذَهَبِ بَرْقِها ، وفَتَلَتْهُ الأَنْواءُ من خُيوطِ وَدْقِها ، ونَفَخَتْ فِيهِ الرِّياحُ من جَمْرِ كانُونِها ، وأَظْهَرَتْهُ حَقيقَةُ الرُّعودِ من سِرِّ مَكْنونِها ، وما بَثَّتْهُ عارِضَةُ ذلكَ العارِضِ المُمْطِرِ الذي هو أَقْوىٰ من شآبِيْبِها ، وأَوْفَىٰ مِمَّا أَرْقَتْهُ[3] السَّماءُ من جَلابِيْبِها ، وأَسْرىٰ من بَرْقِها المُومِضِ في غَرابِيْبِها ، وَأَسْرَعُ من سُرىٰ رِياحِها ، وقَد جَمَعَتْ أَطْواقَ السَّحائِبِ[4] وأَخَذَتْ بِتَلابِيْبِها .

---

(١) الجواب في الوافي ومسالك الأبصار ١٢/ ٥٠٥ .
(٢) في م : على غرب الماء . . .
(٣) لعلّ الصّواب : أرخته .
(٤) في م : أطراف السّحائب .

وَسَبَّحَ المَملوكُ من عَجَبٍ لِهذِهِ البَلاغَةِ التي كَمَّلَتِ الفَضائِلَ[١] ، وَفَضَلَتْ عن العِلْمِ وفي الرَّعيلِ الأَوَّلِ عِلْمُ الأوائِلِ ، وَفَضَّلَتْ مُبْدِعَها[٢] وحُقَّ لَهُ التَّفْضِيلُ ، وآتَتْهُ جُمْلَةَ الفَضْلِ وفي ضِمْنِها التَّفْضِيلُ ، وأَنْطَقَتْ لِسانَ بَيانِهِ وأَخْرَسَتْ كُلَّ لِسانٍ ، وَأَجْرَتْ قَلَمَ كَرَمِهِ وَأَحْرَزَتْ كُلَّ إِحْسانٍ ، ونَشَرَتْ عَلَمَ عِلْمِهِ وَأَدْخَلَتْ تَحْتَهُ كُلَّ فاضِلٍ ، وأَرْهَفَتْ شَبا حَدِّهِ وَقَطَعَتْ بِهِ كُلَّ مُناظِرٍ ومُناضِلٍ ؛ وقالَتْ للسَّحابِ وقد طَبَّقَ : إِليكَ ، فإِنَّ البَحْرَ قد جاءَكَ ، ولِلنَّوْءِ وَقد أَغْدَقَ : تَنَحَّ ، فإِنَّ هذا قد حَصَرَ أَرْجاءَكَ ، ولِلرَّعْدِ وقد صَرَخَ : اُسْكُتْ ، فَقد آنَ لهذِهِ الشَّقاشِقِ أَنْ تَسْكُتَ ، ولِلْبَرْقِ وقد نَسَخَ آيَةَ اللَّيْلِ : اسْتَدْرِكْ غَلَطَكَ لَئِلاَّ تُبَكَّتَ .

أَما تَرىٰ هذِهِ العُلومَ الجَمَّةَ وكيفَ زَخَرَ بَحْرُها ، وأَثَّرَ في الأَلْبابِ سِحْرُها ؛ وهذِهِ الفَضائلَ وكيفَ تَفَنَّنَتْ فُنُونُها ، وفَتَنَتْ عُيونُها ، وتَهَدَّلَتْ بالأَثْمارِ أَفْنانُها ، وتَزَخْرَفَتْ بالمَحاسِنِ جِنانُها ؛ وهذِهِ الأَلْمِعِيَّةَ وكيفَ ذَهَّبَتِ الأَصائِلَ ، وهذِهِ اللَّوْذَعِيَّةَ وما أَبْقَتْ مَقالاً لِقائِلٍ ، وهذِهِ الفَواضِلَ وقد تَوَقَّدَ ذُبالُها وَتَقَدَّدَ بِها أَدِيمُ الظَّلامِ وتَشَقَّقَ سِرْبالُها ، وهذِهِ البَراعَةَ التي فاضَتْ فَكُلٌّ منها سَكرانُ طافِحٌ ، وهذِهِ الفَصاحَةَ وما غادَرَتْ بينَ الجَوانِحِ ، وهذِهِ البَلاغَةَ وقد سالَتْ بِأَعْناقِ المَطِيِّ بِها الأَباطِحُ[٣] ، وهذِهِ الصِّناعَةَ وقد اسْتُعِينَ عليها من أَهْلِها بِصالِحٍ ، وهذِهِ الصِّياغَةَ وما تارِكٌ فَنَّ الجَوْهَرِ لَها إِلاَّ رابِحٌ ، وهذِهِ الحِكَمَ

---

(١) في م : التي كملت بها الفضائل .
(٢) في م : مبتدعها .
(٣) من قول كثيّر عزّة : [ديوانه ٥٢٥]

أَخــذنــا بــأَطــرافِ الأَحــاديــثِ بيننــا ... وســالــت بــأَعنــاقِ المَطِــيِّ الأَبــاطِــحُ

البَوالِغَ ، وهذِهِ النِّعَمَ السَّوابِغَ ، وهَذِهِ الدِّيَمَ التي لا تَمْلأَ حَوْضَها[1] من إناءٍ فارغٍ ، وهذِهِ الشِّيَمَ التي لو تنكَّرَتْ ثم مُزِجَتْ بالفُراتِ لَما شُرِبَ لِسائِغٍ ، (وهذِهِ الهِمَمُ التي تَرَقَّتْ بِوَجْهِها إلى السَّماءِ ، فَكَشَفَتْ غَيابَةَ عارِضِها)[2] وَكَفَّتْ غَوايَةَ البَرْقِ وقَد وَلَعَ وَخْطُ مَشيبِهِ بِخَطِّ عارِضِها ، حتَّىٰ جَلاَّها وَأَضْحاها ، ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: ٢٩] ، ونَفَخَ رَمادَ سَحابِها[3] المُنْجلي عن اللَّهَبِ ، وصَفَّحَ جَوَّها الفِضِّيَّ باللُّجَيْنِ وسَمَّرَتْهُ الشَّمْسُ بالذَّهَبِ ، وجَلا صَدَأَ تلكَ اللَّيْلَةِ عن صَفيحَةِ ذلك اليَوْمِ المُشْمِسِ ، وَبَدَّلَ بذلك الصَّحْوَ المُطْمِعَ من ذلكَ الغَيْمِ المُؤْيِسِ ، ونَقَّىٰ لازَوَرْدَ السَّماءِ من تِلْكَ الشَّوائِبِ ، وَوَقىٰ عِرْضَ ذلكَ النَّهارِ اليَقَقِ مِن المَعايبِ ، وأَتْرَعَ غَديرَ ذلك الصَّباحِ خالِصاً من الرَّنَقِ ، وَضَوَّعَ عَنْبَرَ ذلكَ الثَّرىٰ خالِياً من اللَّثَقِ ، وأَطْلَعَ شَمْسَ ذلكَ اليومِ تُوَشِّعُ جانِبَ مَشْرِقِها ، وَيُوَشَّىٰ بِذَوائِبِ الذَّهَبِ رِداءُ أُفْقِها ؛ فَقُلْتُ[4] : [من السريع]

كـأَنَّمـا اليَـوْمُ وَقَـدْ مَـوَّهَـتْ مَشْـرِقَـهُ الشَّمْـسُ وَلا جـاحِـدُ
ثَـوْبٌ مـن الشَّـرْبِ ولَكِنَّـهُ طُـرِّزَ مِنْـهُ كُمُّـهُ الـواحِـدُ

[٢٧ أ] أَستغفرُ اللهَ، بل بِشْرُ[5] ذلكَ البِشْرِ، بل ذلكَ المَلَكُ الكَريمُ، وصَفيحَةُ وَجْهِهِ المُتَهَلِّلِ الوسيمِ، لا بل صَفيحَةُ عَمَلِهِ، وصَبيحَةُ أَمَلِهِ، وأُنْموذَجُ إِيْثارِهِ ، وضَوْءُ يَدِهِ البَيْضاءِ ، وآثارِهِ ، وشَبيهُ ما يَفُضُّهُ لُؤْلُؤُهُ من نِثارِهِ ، وغيرُ هذا من أَيادِيهِ البِيْضِ علىٰ إِقْلالِ العَدِّلَهُ وإِكْثارِهِ ، فللّٰهِ تلكَ اليَدُ المُقَبَّلَةُ ، وتلكَ

---

(١) في ب : جوفها .
(٢) ما بين القوسين ساقط من أ .
(٣) في ب : سُخامها .
(٤) البيتان في مسالك الأبصار ١٢/ ٥٠٧ .
(٥) في ب : برّ . وفي س : برّ ذلك البرّ .

اليَدُ المُؤَمَّلَةُ ، ولله ِتلكَ المَواهِبُ المُجْزَلَةُ ، ولله ِتلكَ الرَّاحَةُ التي لا يُقاسُ بِها الثُّريَّا ولا تَجيءُ الجَوْزاءُ أُنْمُلَهُ ؛ ولله ِ ذلكَ البَيانُ السَّاحِرُ ، وذلكَ البَنانُ السَّاخِرُ ، وذلِكَ اللِّسانُ المُذَرَّبُ والبَحْرُ الزَّاخِرُ ، وذلكَ الإِنْسانُ الذي طالَ باعُ عِلْمِهِ ، وطارَ فَأَوْقَدَ ضِرامَ اليَوْمِ المُشْمِسِ شُعاعُ فَهْمِهِ ، وطابَ جَنىٰ عِزِّهِ وجَنابُ حِلْمِه ، وطافَ الأَرْضَ صِيْتُهُ ونَفَقَ كاسدُ الفَضْلِ بِاسْمِهِ ، ولله ِولله ِلِسَيِّدٍ جاءَ بالفَضْلِ كُلِّهِ ، وأَتىٰ بالأَمْرِ على حِلِّهِ ، واقْتَبَسَ من نُورِهِ وآوىٰ إِلىٰ ظِلِّهِ .

لقد أَلْبَسَ المَملوكَ رِداءَ الفَخارِ ، وعَرَّفَهُ العَوْمَ ، وكانَ لا يَطْمَعُ أَن يَشُقَّ بَحْرَهُ الزَّخَّارَ ، ومَحا عنهُ صِبْغَ دُجُنَّةِ تلكَ اللَّيْلَةِ ، وَقَصَّرَ من ذَيْلِها ، وقَهْقَرَ من سَيْلِها ، وأَخَذَ بِعَقِيصَتِها ، وأَغْرَقَ في تَيَّارِ النَّهارِ سَوادَ لَيْلِها ، وَأَطْلَقَ لِسانَهُ منَ الاعْتِقالِ ، وأَنْطَقَ بَيانَهُ فقالَ ، وَوَفَّقَهُ في البَيانِ ولولا تَوفيقُهُ لَما نَطَقَ ، وَوَقَّفَهُ ولولا إِيْقافُهُ لَغَبَّرَ علىٰ آثارِهِ في وَجْهِ مَنْ سَبَقَ ، وقامَ وأَقامَ الحُجَّةَ على البُلَغاءِ حيثُ لا يَجِدُ مَن يَقولُ إِلاَّ صَدَقَ . تَمَّت .

● **فَلَمَّا رَأَيْتُ ما هالَني ، وغَلَّ عَقْلي وغالَني ؛ كَتَبْتُ الجَوابَ عن ذلكَ نَظْماً ، وهو**(١) : [من الكامل]

جاءَ الجَوابُ يَزِفُّ مِنْكَ فَواضِلا ... وَيَرِفُّ في رَوْضِ البَيانِ خَمائلا
أَغْرَقْتَ غِرَّ السُّحْبِ حِيْنَ وَصَفْتَها ... يا مَنْ غَدا بَحْراً يَموجُ فَضائِلا
لو لَم تَكُنْ يُمْناكَ بَحْراً زاخِراً ... ما أَرْسَلَتْ تِلْكَ السُّطورَ جَداوِلا
ضَرْبٌ من السِّحْرِ الحَلالِ مَتىٰ تَشا ... أَخْرَجْتَهُ فَيَعودُ ضَرْباً داخِلا
ما إِنْ جَلا راوِيْهِ حُورَ بَيانِهِ ... إِلاَّ وزانَ مَشاهِداً ومَحافِلا
فَمَتىٰ يَرُومُ بِهِ اللَّحاقَ مُقَصِّرٌ ... والنَّجْمُ أَقْرَبُ مِن مَداهُ تَناوُلا

---

(١) القصيدة في الوافي ٨/ ٢٦٣ ومسالك الأبصار ١٢/ ٥٠٨ .

أَبْـــرَزْتَـــهُ أُفُقـــاً فَكُـــلُّ قَـــرِينَـــةٍ ... بُـرجٌ حَـوىٰ مَعْنـاهُ بَـدْراً كـامِـلا
فكَـأَنَّمـا تِلْـكَ الحُـروفُ حَـدائِـقٌ ... أَمْسَـتْ مَعـانيهـا تَصيـحُ بَـلابِـلا
وكَـأَنَّ ذاكَ الطِّـرْسَ خَـدٌّ رائِـقٌ ... والسَّطْـرُ فِيـهِ غَـدا عِـذاراً سـائِـلا
مَهْـلاً أَبـا العَبَّـاسِ قَـد أَفْحَمْتَنـي ... وتَـرَكْتَنـي بَعْـدَ التَّحلِّـي عـاطِـلا
بِـاللهِ قُـلْ لـي عِنْـدَمـا سَطَّـرْتَـهُ ... هَلْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَن تُجيبَ الفاضِلا
أَقْسَمْـتُ لـو جـاراكَ فـي إِنْشـائِـهِ ... مـا كـانَ ضَـمَّ علـى اليَـراعِ أَنـامِـلا
حَـرَّكْـتُ مِنْـكَ حَمِيَّـةً عَـدَوِيَّـةً ... مَلأْتَ فَضاءَ الطِّرْسِ مِنْكَ جَحافِلا
كَـمْ فِيـهِ مِـن لامٍ كَـلأْمَـةِ فـارِسٍ ... قَـدْ هَـزَّ مِـن أَلِفـاتِ خَطِّـكَ ذابِـلا
هَلْ شِئْتَ أَنْ تُنْشي الجَوابَ سَحابَةً ... تَنْـدىٰ فَجَـاءَتْ مِنْـكَ سَيْـلاً سـائِـلا
يـا فـارِسَ الإِنْشـاءِ رِفْقـاً بـالَّـذي ... نـازَلْتَـهُ يَـوْمَ التَّـرَسُّـلِ راجِـلا
لَـو رامَ أَنْ يَجْـري وَراءَكَ خُطْـوَةً ... نَصَبَتْ لَهُ تِلْكَ الحُروفُ حَبائِلا[1]
فاحْبِسْ عِنانَكَ قد تَجاوَزْتَ المَدىٰ ... وَتَـرَكْـتَ سَحْبـانَ الفَصـاحَـةِ بـاقِـلا
والفـاضِـلُ المِسْكِيـنُ أَصْبَـحَ فَنُّـهُ ... [٢٧ ب] من بَعْدِ ما قد راجَ فِيْنا خامِلا
فـاسْلَـمْ لِتَبْلِيـغِ النُّفـوسِ مَـرامَهـا ... فالدَّهْرُ في أَبْوابِ فَضْلِكَ ماثِلا
كـم فيـكَ لـي أَمَـلٌ يَـروقُ لأَنَّنـي ... أَدْرِي بِـأَنَّـكَ لا تُخَيِّـبُ آمِـلا[2]

● **فكتبَ الجَوابَ عن ذلكَ أَيضاً**[3] : [من الكامل]

وافـىٰ الكَمِـيُّ بِهـا يَهُـزُّ مَنـاصِـلا ... ويَـذُمُّ صِبْغـاً لِلشَّبيبَـةِ نـاصِـلا[4]
سَبَـقَ الظَّـلامَ بِهـا بِـزِينَـةِ لَيْلِـهِ ... ولو انَّهُ في الفَجْرِ حلَّىٰ العاطِلا[5]

---

(١) في م : نُصِبَتْ . وفوقها : معاً .
(٢) في م : × . . . لا تخيب الآملا .
(٣) القصيدة في الوافي ٨/ ٢٦٤ ومسالك الأبصار ١٢/ ٥٠٩ .
(٤) في م : × ويضمّ . . . .
(٥) في م : شقّ الظّلام . . . × .

حَمْـراءُ قـانِيَـةٌ يَـذُوبُ شُعـاعُهـا وتَرىٰ حَصا الياقوتِ منها سائِلا
حَمْـراءُ قـانِيَـةٌ يَحُـثُّ كُـؤوسُهـا وَقْـعَ الصَّـوارِمِ والـوَشِيْـجَ الـذَّابِـلا
ذَهَبِيَّـةٌ مـا عِـرْقُ عـانَـةَ كَـرْمَهـا لكنَّـهُ كَـفُّ الكَـريـمِ شَمـائِـلا
كَـفٌّ لِمُنْبَجِـسِ النَّـوالِ كـأَنَّمـا دُفَـعُ السُّيـولِ تُمِـدُّ مِنْـهُ نـائِـلا
كَـرَمٌ خَليلـيٌّ يُمِـدُّ سِمـاطَـهُ ويَشِـبُّ نـاراً لِلْقِـرىٰ وفَـواضِـلا
ولَهيـبُ فِكْـرٍ لـو يَطِيـرُ شَـرارَةٌ منـهُ لَمـا بَـلَّ السَّحـابُ الـوابِـلا
يُـذْكِـي بِـهِ فـي كـلِّ صُبْحَـةِ قَـرِّهِ فَهْمـاً لِنِيْـرانِ القَـرائِـحِ آكِـلا
عَجَبـاً لَـهُ مـن سـابِـقٍ مُتَـأَخِّـرٍ فـاقَ الأَواخِـرَ ثـم فـاتَ أَوائِـلا
دانَـوْهُ فـي شَبَـهٍ ومـا قِيْسـوا بِـهِ مَـن ذا تَـراهُ لِلغَمـامِ مُسـاجِـلا
مـاثِـلْ بِـهِ البَحْـرَ الخِضَـمَّ فَـإِنَّـهُ لا يَـرْتَضِـي خَلْقـاً سِواهُ مُمـاثِـلا
وافَـتْ عَقيلَتُـهُ ولـو بَـذَلَ امْـرُؤٌ فيها اسْتَقَلَّ مِن البُروجِ مَعاقِلا[1]
جاءَتْ شَبيهَ الخَوْدِ في حُلَلٍ لَها حُمْـرٍ كَنَـوَّارِ الشَّقيـقِ مَـواثِـلا[2]
قد خُضِّبَتْ بِدَمِ الحَسودِ أَما تَرىٰ أَثَـرَ السَّـوادِ بِهـا عَلَيْـهِ دلائِـلا
حُلَلٌ على سَحْبانَ تَسْحَبُ بُرْدَها وتَجُرُّ من طَرَفِ الذُّيولِ الفاضِلا[3]
خِلْـتُ الهِـلالَ يَلـوحُ طَلْـعَ نِقـابِهـا حتّـىٰ نَضَـتْ فَـرَأَيْـتُ بَـدْراً كـامِـلا
بِنْتُ القَريحَةِ ما وَنَتْ في خِدْرِها حُسْنُ المَليحَةِ أَنْ تُواصِلَ عاجِلا
جـاءَتْ تَصـوغُ مـن العِنـاقِ أَسـاوِراً لا بَلْ تَخوضُ من السُّيولِ خَلاخِلا
قَبَّلْتُهـا وأَعَـدْتُ تَقْبيلـي لَهـا إِنَّ المُتَيَّـمَ لا يَخـافُ العـاذِلا
وأَتَتْ وَجَيْشُ النَّوْءِ مَرْهوبُ السُّطا مَـلأَ الـوُجـودَ لَـهُ قَنـاً وقَنـابِـلا

---

(١) سقطَ البيت من م .
(٢) في ب : . . . . في حُلَلِ البَها × حُمراً . . . .
(٣) سقط البيت من س .

والبَـــرْقُ مَشْبـــوبُ الضِّـــرامِ لأَنَّـــهُ صـــادَ الغَـــزالَـةَ حَيْـثُ مَـدَّ حَبـائِـلا
وافَـتْ وَرَأْسُ الطَّـوْدِ يَشْكُـو لِمَّـةً قَـد عُمِّمَـتْ بِـالثَّلْـجِ شَيْبـا شـامِـلا
وَكَـأَنَّمـا نَثَـرَتْ قُـراضَـةَ فِضَّـةٍ أَيْـدِي البُـرُوقِ وقـد خُـرِقْنَ أَنـامِـلا
مَـلأَتْ بِـهِ كُـلَّ الفَضَـاءِ فـلا تَـرىٰ إلاَّ لُجَينـاً جـامِـداً أَو سـائِـلا
والأُفْـقُ كـالكَـأْسِ المُقَصَّـصِ مِلْـؤُهُ صَهْبـاءُ قـد عَقَـدَتْ حَبـاباً جـائِـلا
أَثْنـاءَ يَـوْمٍ قـد تَقَهْقَـرَ ضَـوْؤُهُ وبَـدا ذُبـالاً فـي الأَصـائِـلِ نـاصِـلا
والجَـوُّ مُنْخَـرِقُ القَمِيـصِ كَـأَنَّـهُ حَنِـقٌ يَقُـدُّ مِـنَ السَّحـابِ غَـلائِـلا
والسَّيْـلُ مُنْحَـدِرٌ يَسُـلُّ مُهَنَّـداً إِفْـرِنْـدُهُ ذَهَـبٌ يَمُـدُّ سَـلاسِـلا[1]
للهِ أَنْـتَ أَبـا الصَّفـاءِ فَـإِنَّنـي أَلْقـىٰ خَليـلاً مِنْـكَ لـي ومُخـالِـلا
أَنْـتَ الَّـذي حَلَّقْـتَ صَقْـراً أَجْـدلاً وَضَمَمْـتَ فـي بُـرْدَيْـكَ لَيْثـاً بـاسِـلا
يـا مَـنْ يُنَفِّـقُ سُـوقَ كُـلِّ فَضيلَـةٍ أَسْئِـرْ فَمـا أَبْقَيْـتَ بَعْـدَكَ فـاضِـلا

● **وكَتَبَ هو إلَيَّ من دمشقَ المحروسَة ، وأنا بالقاهِرَةِ المحروسَةِ ، يَصِفُ الثَّلْجَ الكائِنَ في شَهرِ اللهِ المُحَرَّمِ ، سنة ٧٤٥ :**

يُقَبِّلُ كذا ، لا رأىٰ في هذا الشِّتاءِ كيفَ حالُ أَوِدَّائِه ، وكيفَ حالُ بَلَدِهِ الذي رَقَّتْ عليهِ حتّىٰ القاسيةِ قلوبُ أَعدائِه ، وكيفَ حالُ النَّاسِ تحتَ ذُيُولِ هذِهِ الأَشْتِيَةِ المَجْرُورَةِ ، ونَوافِضِ هذه [٢٨ أ] الرُّعودِ المَقْرُورَةِ ، وقُزَحِ شُقْرِ هذِهِ البُروقِ المَفْرورَةِ ، وغُرَرِ هذِهِ الأَيّامِ المَغْرورَةِ ، وسَوافي هذِهِ الغُيوثِ المَذْرورَةِ ، وَضَرَرِ هذِهِ الأَنْواءِ الرِّواءِ بالأَرْضِ المَضْرورَةِ ، وسُيوفِ هذهِ السُّيولِ الحَدَّةِ المَطْرورَةِ ، ونُزولِ هذِهِ الثُّلوجِ بِعُقَدِ البَلاءِ المَصْرورَةِ ، ومَشْيِ الخَلائِقِ في أَرْدِيَةِ هذِهِ السُّحُبِ المَزْرورَةِ ، وعُبوسِ هذِهِ الثَّنايا الضَّاحِكَةِ وما

---

(١) في ب : . . . منحدراً . . . × .

هِيَ مَسْرورَةٌ ، ونوازِلِ هذِهِ الأمْطارِ التي وُلِدَتْ بِمَواقِعِها القُضُبُ مَخْتونَةً وداراتُ النَّهْرِ مَسْرورَةً ، وعَواصِفِ هذِهِ الأيّامِ التي كَأنَّ بِها جِنَّةً أو هيَ لِكَثْرَةِ المُرورِ مَمْرورَةٌ ، وَكَلَبِ بَرْدِ هذِهِ اللَّيالي الذي أَصْبَحَتْ تَتَشَكّاهُ الكُبودُ المَحْرورَةُ ، وبُعْدِ مَوْلانا الذي يَعْدِلُ عُمْرَةً كامِلَةً وحِجَّةً مَبْرورَةً .

فلقد أَنْسىٰ السَّنَةَ الماضِيَةَ[1] وَنَشَرَ مَيِّتَها المَدْروجَ ، وأَعادَ ماضِيْها ولَيْتَهُ إذْ جَمَّدَ النَّباتَ لا كَرَّرَ سُكَّرَ الثُّلوجِ ، وساءَ أَحوالَ المَدينَةِ ، وطافَ طُوفانُهُ بالجامِعِ وَغَرَّقَ السَّفِينَةَ ، وأَشابَ رَأْسَ النَّسْرِ وغَطَّىٰ الهِلالَ ، وكَسَرَ الصَّحْنَ وأَكَلَ الحائِطَ الشَّماليَّ باليَمِينِ والشِّمال ، وآذىٰ المَواذنَ والمُؤَذِّنينَ ، وأَخْرَسَ القُرَّاءَ والمُؤَمِّنينَ ، واقْشَعَرَّتْ لِبَرْدِ أَيّامِهِ البَرّادَةُ ، وشَهِدَ المَشْهَدُ بِغَماءِ غَمامِهِ ، وأَقامَتْ سَبّاباتِ المَواذِنِ للشَّهادَةِ ، وبَطُلَتْ أَلْوانُ بابِ البَريدِ المُعَدَّدَةُ ، وجَرَتْ أَرْكانُ جَيْرونَ وأَبْوابُهُ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ، وجال على الدَّهْماءِ والخَضْراءِ بِشُهْبِ خُيولِهِ ، وفَتَحَ أَفْواهَ أَوْدِيَتِهِ والْتَقَمَ أَرْقَمَ كلِّ نَهْرٍ مُتَلَوٍّ وشَرِبَهُ بِسُيولِهِ ، وساءَ بَياضُ يَوْمِهِ سُودَ مَراتِعِها وخُضْرَ مَرابِعِها ، وَشَوَّهَ في هذِهِ الشَّتْوَةِ الأَلْوانَ ، وَبَسَطَ ذَيْلَهُ على الوِهادِ وَعَقَدَ حُباهُ على الكُثْبانِ[2] .

وجاءَ هذا الشِّتاءُ بالعَجَبِ ، وَذَكَّرَ دمشقَ في هذِهِ السَّنَةِ بِما خَلا في الخالِيَةِ من واقِعَةِ حَلَبَ[3] ، وأَنْسىٰ في كُلِّ لَيْلَةٍ من لَيالي رَمَضانَ لَيْلَةَ جُمادىٰ ، وَدَفَنَ

---

(١) في م : فلقد أنشا السُّنَّة الماضية .

(٢) ينظر ما يقوله المؤرّخون في كائنة الثلج سنة ٧٤٥ ، في : تذكرة النبيه ٣/٦٣ والبداية والنهاية ١٨/٤٧٧ والذيل التام ١/٦٨ وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/٤١٣ .

(٣) قال الإمام ابن كثير في البداية والنهاية ١٨/٤٦٩ ـ ٤٧٠ : وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر منه [= شعبان سنة ٧٤٥] قبل الظهر ، جاءت زلزلة بدمشق لم يشعر بها كثير من الناس لِخفَّتِها ، ولله الحمدُ والمِنَّة ؛ ثم تواترت الأخبار بأنَّها شعَّثت في بلاد حلب شيئاً كثيراً العمران حتى سقط بعض الأبراج بقلعة حلب ، وكثير من دُورها ومساجدها ومشاهدها وجُدرانها ؛ وأمَّا في القلاع حولها فكثيرٌ جدّاً ؛ وذُكر أنَّ مدينة منبج لم يبقَ منها إلاَّ القليل ، وأن عامَّة السّاكنين بها هلكوا تحت =

ثَلْجُها سَوْءاتِ ثَلْجِ سَنَتِنا الماضِيَةِ ، وَذَرَّ عليها رَماداً ، وطالَتْ أَيَّامُهُ والأَعمارُ الذَّاهِبَةُ بِهِ قِصارٌ ، واسْتَطَالَتْ جُنودُهُ المُهاجِرَةُ وَقَلَّتِ الأَنْصارُ ، وجاءَتْ أَفْواجُهُ وكانَتْ في عِلْمِ الغَيْبِ ، وقَدِمَتْ من وَراءِ البُروقِ من بِلادِ الرُّومِ وقادِمُها صُهَيْبٌ ، وأَقْبَلَتِ السُّحُبُ بِخُيوطِ أَنْوائِها وَتَقَطَّعَتِ الأَسْبابُ ، وفَتَّحَتْ خُوَخَ البُروقِ في السَّماءِ المُفَتَّحَةِ الأَبْوابِ ، وأَصْبَحَتْ بِغارِبِ النَّوْءِ كُلُّ ذُرْوَةٍ كَأَنَّها سَنامٌ ، وبِمُجْتَحَفِ السَّيْلِ كُلُّ عَيْنٍ كَأَنَّها مَنامٌ ، وَوَقَعَ كلُّ جَبَلٍ على جَنْبِهِ وقد عَصَبَ رَأْسَهُ مِمَّا تَصَدَّعَ ، وفاضَ كلُّ وادٍ امْتَلأَ بَطْنُهُ ممَّا شَرِبَ وانْتَفَخَتْ رَوابِيْهِ مِمَّا تَضَلَّعَ ، وعَمَّتْ أَهْوالٌ ، وأَغَمَّتْ أَحْوالٌ ، وكانَ لِلمدينَةِ أَيُّ يَوْمٍ ، ولِلَيْلَتِها في يَوْمِهِ أَيُّ نَوْمٍ ، وَدَخَلَتْها بِالجَواريفِ البَقَرُ لجَرْفِ الثَّلْجِ ، وما دَخَلَتْ آلَةُ الحَرْثِ دارَ قَوْمٍ[1] .

هذا بعدَ تَوالي أَيَّامٍ ما نَعْرِفُ ما نَقُولُ فيها ، إلاَّ أَنَّها شَغَلَتِ الشَّيْخَ أَبا تَمَّام وشَيَّبَتِ الوَلِيدَ ، وَحَجَبَتِ الدَّارَ فَما نُظِرَ إليها إلاَّ من وراءِ زُجاجَةٍ من الجَلِيدِ ، وعَزَّ بِها حتَّىٰ على المَيِّتِ أَنْ يُقْبَرَ ، ولم يُرَ فيها [٢٨ ب] قَتيلٌ في بَيْتِهِ إلاَّ أَنَّهُ القَتيلُ المُصَبَّرُ ، ولم يَبْدُ من شُهُودِ الجِبالِ ذَواتِ الذَّوائِبِ ، إلاَّ كُلُّ مُعَذَّبٍ بالرَّحْمَةِ ،ولا مِنْ عُهُودِ الغَمامِ المُمْتَدِّ السَّحائِبِ إلاَّ كلُّ مَنْشُورٍ أَبْيَضَ كَالفَحْمَةِ .

فلمَّا راعَ المملوكَ مَنْظَرُهُ وساءَهُ ، ورأَىٰ نَهارَهُ الطَّويلَ وقد جَعَلَ طَرَفَ جَناحَيْهِ مَساءَهُ، اسْتَصْرَخَ على رُعودِهِ الصَّارِخَةِ، واسْتَعانَ على بُروقِهِ النَّافِخَةِ ،

= الرِّدم ، رحمهم الله .

وينظر : تاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٣٦٠ ـ ٣٦١ وتذكرة النبيه ٣/ ٥٨ ـ ٦٠ .

(١) الإشارة إلى قول الرّسول ﷺ عندما رأى سِكَّةً وشيئاً من آلة الحَرْثِ : « لا يدخلُ هذا بيتَ قومٍ ، إلاَّ أَدْخلَهُ الذُّلُّ » . (صحيح البخاري ٣/ ٦٦) .

واسْتَنْصَرَ عليْهِ بِكُلِّ مَنْ يَهْتِفُ بِهِ الدَّاعي ، وتَهْفو إليهِ المَساعي ، وأَرْسَلَ رُسُلَهُ يَشْكُو سَعْيَ هذا المَطَرِ المُفْسِدِ ، فجاؤُوا يَجْري وراءَهُم السَّاعي ، ولم يُدْعَ منهُمْ مَن لم يُسْتَرَشْ بِجَناحِهِ ، وَتُفْرَسْ عادِيَةُ هذا العَدُوِّ بِسِلاحِهِ ، ويُرَدَّ بِهِ أَشَدُّ بَأْساً من هذا الشِّتاءِ ، فأَمَّا هو وكَلْبُ بَرْدِهِ فَلا يُنَحَّىٰ بِحَجَرٍ لِنُباحِهِ .

وقد جَمَعَ المَملوكُ ذلكَ كُلَّهُ ـ الابْتِداآتِ والأَجْوِبَةَ ـ بينَ دَفَّتَيْ دفْتَرٍ ، وأَضافَ إليهِ مَقامَةً من ذَخائِرِ مَولانا التي لم يَزَلْ بِها يَتَكَثَّرُ ، وأَثْبَتَ هذا الكِتابَ ، وأَخْلىٰ مَكانَ الجَوابِ ، فَلَعَلَّهُ يُنْعِمُ بِهِ لا بَرِحَ مَنْعِماً ، ولا زالَ سالِماً ما عَلَيْهِ إلاَّ ما يَرِدُ من مَطَرِ السَّما ، ولا فَتِيءَ يُكْمِلُ النَّقْصَ ، ولو لم يَكُنْ مالِكاً لَما جُعِلَ ، وحاشاهُ من الرَّيْبِ مُتَمِّماً ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

● **فكتبتُ أنا الجَوابَ إليهِ :**

يُقَبِّلُ الأَرضَ التي يَخْجَلُ السَّحابُ من نَداها ، ويَشْفي لَثْمُ تُرابِها القُلوبَ من صَداها ، وتَؤُمُّها الأَيَّامُ بِالمَنِّ وتَعْدوها الخُطوبُ إلى عِداها ، تَقْبيلاً يَزْدادُ بِهِ شَرَفاً ، ويَعْتادُ تَكْرارَهُ ولا يَعْتَدُّهُ سَرَفاً ، وَيَجْعَلُ مَواطِئَها بِمَواقِعِ لَثْمِهِ رَوْضَةً أُنُفاً .

ويُنْهي وُرودَ المِثالِ العالي ، تَجَلَّىٰ حَبْرُهُ في حِبَرِهِ ، وَيَفْضَحُ زَهْرَ الأُفُقِ رَوْضُهُ بِزَهَرِهِ ، وَتَتَحَقَّقُ النَّواظِرُ حُسْنَ صَنائِعِهِ وما دَبَّجَهُ القَلَمُ فيهِ بِأَثَرِهِ ، ويُهدي إلى الأَسْماعِ إِنْعامَ أَنْغامِهِ ، ويَجْلو على العُيونِ صُوَرَ سُوَرِهِ ؛ فَوَقَفَ لَهُ وانْتَصَبَ ، وافْتَخَرَ بِوُرودِهِ على بَني الأَيَّامِ وانْتَسَبَ ، وانْتهىٰ إلى الإِشارَةِ الكَريمَةِ في أَخْبارِ الثُّلوجِ الَّتي طَمَّتْ وغَمَّتْ ، وأَوْضَحَتْ أَنْباءَها وما عَمَّتْ ، وساقَتْ إلى الشَّامِ قِطارَ القُطارِ وَزَمَّتْ[1] ، وَنَمَتْ بَرَكاتُ مَواقِعِها ونَمَّتْ وَتَمَّتْ ، وَهَمَتْ سَحائِبُها بالعَذابِ وأَهَمَّتْ ، فإنْ لَمْ تَبْلُغِ القُلوبُ الحَناجِرَ فقد

(١) في أ : وذَمَّت .

هَمَّتْ ؛ فإنْ كانَتْ هذهِ السَّنَةُ أَرْبَتْ بالثُّلوجِ على الأُولىٰ ، وزادَتْ عَرْضَ الأَرْضِ طُولاً ، وجَعَلَتْ صَحيحاتِ النَّواظِرِ حُولاً ، فَما يَظُنُّ المَملوكُ إلاّ أَنَّ اللهَ تَعالىٰ نَسَفَ جِبالَ الشَّامِ ثَلْجاً ، وَجَعَلَ حَواجِبَها المُمْتَدَّةَ على عُيُونِ الأَرْضِ بَلْجاً .

على أَنَّ الدِّيارَ المِصْرِيَّةَ في هذا العامِ وَصَلَ إِليها فَضْلَةُ ذلكَ البَرْدِ ، ورَمىٰ أَهْلَها بما[1] لا عَهِدُوهُ من مِزاجِها الذي كَأَنَّهُ زَمَنُ الوَرْدِ ، فلو تَرىٰ أَحَدَهُم وقد أَخَذَهُ النَّافِضُ ، وَنَحَّاهُ القَرُّ بِعامِلِهِ الرَّافِعِ الخافِضِ ، لا يَحْمِيهِ حِصْنُ فَرْوَةٍ ولا يُجِنُّهُ ، ولا يَصُدُّ عنهُ نَفْحَةَ زَمْهريرٍ ولا يُكِنُّهُ ؛ لَتَوَهَّمْتَهُ أَخا وَجْدٍ يَهْتَزُّ طَرَباً ، أَو غُصْناً اعْتَوَرَ عليهِ رِيحا شِمالٍ وصَبا ، قَد رُكِّبَتْ أَعْضاؤُهُ من الزِّئْبَقِ فَما تَسْتَقِرُّ ، وَجَفَّتْ لَهَواتُهُ يُبْساً فَما تَسْتَدِرُّ ، لا يَمُدُّ كَفَّهُ ولو بايَعَهُ النَّاسُ على الخِلافَةِ ، ولا يُخْرِجُ يَدَهُ ولو كان فَقيراً إِلى كِيْسِ ذَهَبٍ أَوْ نَديماً إِلى كَأْسِ سُلافَةٍ ، وَلا يَنْبَعِثُ لِعَمَلٍ [٢٩ أ] كَأَنَّهُ إِنَّ وقد دَخَلَتْ عليهِ ما الكافَّةُ ، ولا يُصَدِّقُ حَديثَ شَمْسٍ ولو كانَ بالقُطْرِ الجَنوبيِّ شِتاءً ، ويقولُ : حَديثُ خُرافَةٍ[2] : [من الكامل]

ويَـرىٰ عِتـاقَ الطَّيْـرِ فـي وُكُنـاتِهـا   تَخْتـــارُ حَـــرَّ النَّـــارِ والسَّفُّـــودا
وإِذا رَمىٰ فَضَلاتِ كَأْسٍ في الهَوىٰ   عــادَتْ عليْــهِ مــن العَقِيــقِ عُقــودا

كم بَكىٰ أَنْفُهُ ، وَدَمْعُ جُفونِهِ أَحَقُّ بِتِلْكَ العَبَراتِ ، وكم طافَ بِكَعْبَةِ كانُونٍ وما أَتىٰ غَيْرَ الجَمَراتِ ، يَكادُ لِذلكَ البَرْدِ واليُبْسِ يَتَجَسَّدُ حتَّىٰ الكَلامُ ، وَيَتَوَسَّدُ الإِنْسان طَلَبَ الدِّثارِ تَحْتَ الرِّجامِ ، تَلْهَجُ الرِّعْدَةُ بِهِ لَهْجَ السُّكونِ بِحَرْفِ العِلَّةِ ، أَو عُيونِ العُشَّاقِ بالدُّموعِ المُسْتَهِلَّةِ ، أَو البَدائِعِ والبَدائِهِ بِكَلِمَاتِ مَولانا المُتَدَفِّقَةِ ، أَوِ الفَهاهَةِ والعِيِّ بِعبارَةِ المَملوكِ وكَلِماتِهِ المُتَلَفِّقَةِ .

---

(١) سقطت « لا » من أ .
(٢) البيتان للباخرزي ، في ديوانه ١٠٠ ـ ١٠١ . وبلا نسبة في الكشف والتنبيه ٢٤٦ .

لقد تَحَقَّقَ أَنَّ عُنْصُرَ النَّارِ ذَهَبٌ فَلَكُهُ ، وأَنَّ الأَثيرَ تَقَطَّعَتْ حُبُكُهُ ، يا رَحْمَتا لَهُ من عارٍ يَحْسَبُ أَنَّ النُّخَّ[1] نخا تَحْتَهُ فَنَكُ ، ويا عَجَباً لَهُ من عاجزٍ عَنِ الكَلامِ وَكَمْ دَقَّ بالحَنَكِ ، هذا وبَيْنَ الإِقْليمَيْنِ من هذا البُعْدِ الذي ما لِلُجِّهِ ساحِلٌ ، والمَسافَةِ التي إِذا سَرىٰ فيها طَيْفُ شَيِّقٍ أَصْبَحَ دُونَ الغايَةِ بِمَراحِلَ ، ولم يَصِلْ إِلَيْنا إِلاَّ فُضالاتُ تلكَ العَواصِفِ ، ولُفاظاتُ ما يَنْفُثُهُ فَمُ الجَوِّ من الرُّعودِ العَواصِفِ ، فَهذِهِ رُموزُ ما هُناكَ من التَّصريحِ ، وبَعْضُ شَرَرِ ما يَنْفُخُهُ كِيْرُ الرِّيْحِ ، فكيفَ بِمكانٍ كانَ فيهِ المَصْرَعُ ؟ ومَظَانٍّ ما يَنْشَأُ عن الرِّياحِ الأَرْبَعِ ، ومَواطِنَ إِذا كانَتِ الرِّيْحُ رُخاءً مَرَّتْ بِهِ وهي زَعْزَعٌ ، وبِقاعٍ أَصْبَحَ الغُرابُ الأَبْقَعُ بِثَلْجِها قُمْرِيّاً ، وبِلادٍ تَتَّخِذُ الشَّمْسَ في المَصِيفِ ظِهْرِيّاً ، كَأَنَّها بِلادُ أَبي الطَّيِّبِ التي لَبِسَتْ عليهِ مَسالِكَهُ ، وَغَدَتْ بِبَياضِها وهي سَوْداءُ حالِكَةٌ ، فَأَقْبِحْ بِتِلْكَ الأَرْضِ إِذا أَصْبَحَتْ ثُغوراً تَضْحَكُ ، وأَبْعِدْ بِتِلْكَ الأَنْداءِ التي يَنْحَلُّ منها الكافورُ وَيَنْحَكُّ ؛ ولقد كابَدَ المَملوكُ ثُلوجَها ولا إِلىٰ هذا الحَدِّ ، وعالَجَ أَنْواءَها ولكن ذلكَ لَعِبٌ وهذا جِدٌّ ، ولقد أَذْكَرَني ما قُلْتُهُ فيها في وَقْتٍ ، وهو[2] : [من السريع]

تَبّاً لَها مِن بَلْدَةٍ لا أَرىٰ ... فيها مَقامي واضِحَ النَّهْجِ
لأَنَّها في وَجْهِ سُكَّانِها ... وَأَهْلِها تَبْصُقُ بالثَّلْجِ[3]

وللهِ الوَداعيّ[4] حيثُ يَقولُ[5] : [من المنسرح]

أَقولُ والثَّلْجُ قد نُشِرْنَ لَهُ ... علىٰ وُجوهِ المَلا مُلاآتُ

---

(١) النُّخّ : بساطٌ طوله أكثر من عرضه . (القاموس) .
(٢) البيتان في الغيث المسجم ١/١١٨ والكشف والتنبيه ٢٤٩ .
(٣) في ب : كأنها . . . × .
(٤) الوداعي : عليّ بن المظفّر بن إبراهيم ، كاتب ابن وداعة ؛ توفي سنة ٧١٦ هـ . (الوافي بالوفيات ١٩٩/٢٢) .
(٥) البيتان في الكشف والتنبيه ٢٤٦ .

لَوْ لَمْ تَكُنْ قامَتِ القِيامَةُ ما بُدِّلَتِ الأَرْضُ والسَّماواتُ

واللهُ المَسْؤولُ في الإعانَةِ، والمَرْجُوُّ لِحُسْنِ العاقِبَةِ، لا إلَهَ إلاَّ هُوَ سُبحانَهُ؛ ومَولانا في وِقايَةٍ من اللهِ تَكُفُّ عنهُ الأَسْواءَ، وتَرُدُّ الأَدْواءَ، وتَصُدُّ اللّأْواءَ، ونِعْمَةٍ من اللهِ تُصاحِبُهُ صَباحَ مَساءَ، وتُبَلِّغُهُ من المآرِبِ والمَسارِبِ[1] حيثُ سارَ وحَيْثُ شاءَ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ.

● **وكَتَبَ هو إلَيَّ وقد تَواتَرَتِ الأَمْطارُ في شهر شُباط، من سنة ٧٤٦**: [من البسيط]

هِيَ السَّحائِبُ أَمَّا وَجْهُها فَنَدٍ | طَلْقٌ وأَمَّا نَداها فَهْوَ مِلْءُ يَدي
خُضْرٌ تَسُنُّ سُيوفَ البَرْقِ آوِنَةً | إنَّ السَّحابَ لَجلاَّءٌ لِكُلِّ صَدي
ما كانَ أَمْشيرُ مِمَّنْ لا يُشيرُ بِما | أَوْمَتْ إليهِ بِكَفٍّ خُضِّبَتْ وَيَدِ[2]
جاءَتْ بِجَمْرَةِ كانُونٍ وقد طُفِئَتْ | نِيرانُ كانُونَ لا بالماءِ والبَرَدِ
عادَتْ عَلَيْنا وقد وَلّىٰ الشِّتاءُ بِما | [٢٩ ب] فِيهِ وَفاءَ عَلَيْنا الصَّيْفُ بالمَدَدِ
وجاءَ شَهْرُ شُباطٍ فَوْقَ عاتِقِهِ | بِزاخِرِ البَحْرِ تَحْتَ العارِضِ البَرِدِ
طالَتْ عَلَيْنا لَهُ أَيّامُ مُدَّتِهِ | كَأَنَّ أَيّامَهُ أَضْحَتْ بِلا عَدَدِ
لَقَدْ جَرىٰ وَهْوَ مُمْتَدُّ العِنانِ بِلا | نِهايَةٍ في مَدىٰ سَبْقٍ ولا أَمَدِ
ودامَ يَهْمي سِجالَ المُزْنِ ساكِبَةً | والبَرْقُ يَخْمُدُ مِنْهُ كُلُّ مُتَّقِدِ
وقد خَفى البَرْقُ في أَثْنائِها وَجَرَتْ | سَواكِبُ المُزْنِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ البَدَدِ
فَأَرْمَدَتْ كُلَّ عَيْنٍ مَدُّ سائِلِها | لكِنْ عُيونُ الحَيا مِنْهُ بِلا رَمَدِ
وصَيِّبُ الرَّعْدِ لا يَنْفَكُّ يَزْجُرُها | أَما تَرىٰ الرَّعْدَ مِنْها مِثْلُ مُرْتَعِدِ

---

(١) في ب: والمشارب.

(٢) أَمشير: السادس من شهور القبط، ويبدأ في السادس والعشرين من كانون الثاني. (الأَزمنة والأَنواء ١٤٥).

يَرْمي رواشِقَ نَبْلٍ صَوْبُ ساكِبِهِ   فَتتَّقيهِ دُروعُ الرَّوْضِ بالزَّرَدِ[1]
وفاخِتِيُّ سَحابٍ فَضْلُ مُطْرَفِهِ   يَجُرُّ فَوْقَ الثَّرىٰ ذَيْلاً بِكُلِّ يَدِ
وَرُبَّ صَهْباءَ فَوْقَ الزَّهْرِ سائِرَةٍ   حَمْراءَ تَعْبَقُ بَيْنَ الماءِ والزَّبَدِ
وَرُبَّ وَطْفاءَ كَحْلاءِ المَدامِعِ ما   ذَرَّ الكَرىٰ بَيْنَ جَفْنَيْها من السُّهُدِ
وَرُبَّ رَيِّقِ مُزْنٍ طَعْمُ رِيْقَتِهِ   أَشْهىٰ من الرّاحِ أَوْ أَحْلَىٰ من الشُّهُدِ
لكِنَّهُ رُبَّما طالَ الثَّواءُ بِهِ   وعافَهُ النَّاسُ لِلتَّطْويلِ في المُدَدِ
فَرُبَّما جاوَزَ المِقْدارَ مَنْفَعَةً   وجاءَ بِالعَيْثِ صَوْبُ الغَيْثِ والنَّكَدِ
وكم تَضَرَّرَ بادٍ من تَثاقُلِهِ   وكم تَضَوَّرَ مِنْهُ ساكِنُ البَلَدِ

يُقَبِّلُ كذا ، لا زالَت سَنَةُ أَنْوائِها ماطِرَةً ، وسِنَةُ الكَرىٰ في مُقَلِ نَوّارِها خاطِرَةً ، وسُنَّةُ رِياضِها أَن تَتَبَرَّجَ مِنْها كلُّ عاطِرَةٍ ، ولا بَرِحَتْ أَلْسِنَةُ بُروقِها لِقُلوبِ السُّحُبِ فاطِرَةً ، وأَسِنَّةُ دَوْحِها من ذَلاذِلِ الأَنْداءِ قاطِرَةً ، لِتَحْفَظَ لِمَواثِيقِ السُّحُبِ العُهودَ ، ويُفَضَّ من وَثِيقِ السُّحُبِ العُقُودُ ، وتَعْلَمَ يَدُ الأَنْواءِ إذا ضَنَّتْ بالجُودِ كَيْفَ تَجُودُ .

مِن خَبَرِ هَذِهِ الخِدْمَةِ ، وإِنْ تَقَسَّمَتْ أَقْساماً ، وَسَرَّتْ أَقْواماً وساءَتْ أَقْواماً ، الإِعْلامُ بِأَخْبارِ هذا الشِّتاءِ ، وأَحْوالِ[2] هذا الحَوْلِ في الهَرَمِ والفَناءِ[2] ، وأَنَّ الصَّيْفَ أَقامَ إِلىٰ آخِرِ كانُون ، وما أُوقِدَتْ فِيهِ لِغَيْرِ شَمْسِهِ جَمْرَةٌ ، ولا عُرِفَ من قَوْسِ قُزَحَ في غَيْرِ جَناحِ شُعاعِهِ خُضْرَةٌ ولا حُمْرَةٌ ، ولا فُتِحَتْ فِيهِ للسَّماءِ أَبْوابٌ ، ولا بَرَزَتِ الأَرْضُ من صَنْدَلِ الطِّيْبِ[3] في إِزارٍ ولا أَثْوابٍ ، حتّىٰ إِذا قَيَّظَ النَّاسُ ، وقُيِّضَ الباسُ ، وقيلَ : هذا الشِّتاءُ قد آذَنَ

(١) في ب : يرمي سواكب . . . × .
(٢) في م : وأهوال . . . . والفَتاءِ .
(٣) في س : الطين .

بِذَهابٍ ، وهذا البَرْقُ لا تَفْضيضَ منهُ لِمَنْثُورِ مَصاحِفِ السَّماءِ ولا إِذْهابَ ، آبَ منهُ ما ظُنَّ أَنَّهُ لا يَؤوبُ إِلاَّ بعدَ آبٍ وأَيلولَ ، ولا يُرىٰ إِلى السَّنَةِ الآتِيَةِ رُدْنُ رَوْضٍ مَبْلولٌ .

وَأَقْبَلَ وَقد تَقَطَّعَ خَيطُ مُزْنِهِ ، وسَمَحَ منهُ بالكَثيرِ بعدَ طُولِ خَزْنِهِ ، وجاءَ وِعاءُ المَطَرِ في آخِرِ الشِّتاءِ مَحْلولَ الرِّباطِ ، وكُلُّ ما كَنىٰ عنهُ كانُونُ صَرَّحَ بِهِ شُباطُ ، فَجاءَ لا نَعْرِفُ أَيَّامَهُ من لَيالِيهِ ، ولا رَوائِحَهُ من غَوادِيْهِ ؛ وَتَواصَلَ مِدْراراً ، وسالَ وسأَلَ اسْتِمْراراً ، واسْتَدْرَكَ فائِتَ الغَمامِ ، وَأَقْبَلَ بالسُّحُبِ الثِّقالِ والبِحارِ العِظامِ ، ودَنا هَيْدَبُهُ منَ الأَرْضِ واقْتَرَبَ ، وحَلَّ صَيِّبُهُ وِكاءَهُ وَسَكَبَ بِأَفْواهِ القِرَبِ ، وَحَلَّ صَبيبَهُ إِلاَّ أَنَّهُ ما جاءَ بِدِمَقْسٍ[1] حَريرِهِ الأَبْيَضِ إِلاَّ مَحلولاً ، ولا طارَ جَناحُ غَمامِهِ الغِرْبيبِ الأَسْوَدِ إِلاَّ مَبْلولاً ، وَمَثَلَ فيهِ السَّحابُ وتَرْجَمَ عن البَحْرِ بِفيهِ ، وَهَبَّتْ فِيهِ عَواصِفُ الشِّتاءِ [٣٠ أ] وكانَ يُقالُ : إِنَّ رَوائِحَ الصَّيْفِ فِيهِ ، إِلاَّ أَنَّ سُيوفَهُ[2] لم تُسَلَّ ، وأَيْدي مُزْنِهِ في سَلاسِلِهِ لَم تُغَلَّ ، وصَوارِخَ رُعودِهِ ما كانَ منها في هذِهِ السَّنَةِ فَتَّاشٌ ، وطُرُقَ أَنوائِهِ لم يَكُنْ مِنْها في هَذِهِ المُدَّةِ رَشَّاشٌ ، وإِنَّما جاءَتْ وِفاقاً ، وأَتَتْ عَمْداً وإِنَّما كانَتْ اتِّفاقاً ؛ والرَّكْبُ قد حُبِسَ وما انْطَلَقَ ، وَلَجَأَ إِلى ذُرْوَةٍ وخافَ الغَرَقَ ، وأَضْحَتِ الإِبِلُ في حَورانَ قَبْلَ رَمْلِ عالِجٍ بَوارِكَ ، وسُرَّتْ فَلَجَأَتْ إِلى الشَّامِ[3] بِمِثْلِ أَفْواهِ الهِجانِ الأَوارِكِ ، وزادَ الأَمْرُ حتَّىٰ مُنِعَ طَوارِقُ أَخْبارِهِمْ أَنْ يَجينَ ، وجُعِلَ زادُ الحُجَّاجِ وَفائِقُ أَخْبارِهِمْ من عَجِينٍ ، هذا وكم من جَمَلٍ قد كُسِرَ ، وَرَجُلٍ مُطْلَقٍ في سَبيلِهِ في حِبالِ الشِّتاءِ وقد أُسِرَ ، وذِي هِمَّةٍ كانَ كأَنْ لَمْ يُفارِقِ المَدينَةَ قد

---

(١) في أ ، م : بدمشق ! .
(٢) في س ، م : أَنَّ سيوفَ بَرْقِهِ لم تُسَلَّ .
(٣) في م : وسُدَّت فَلَجاتُ الشَّام .

رَجَعَ ، وآخَرَ صَمَّمَ بِعِزِّ العَزْمَةِ إلاَّ أَنَّهُ لم يَحْمَدِ المُنْتَجَعَ .

وكانَ الرَّكْبُ الحِجازيُّ في هذِهِ السَّنَةِ بَحْراً يَعُجُّ عَجاجُهُ ، وبَرّاً يَضيقُ بِنازِليهِ فِجاجُهُ ، وأَكْثَرُ القَوْمِ غُرباءُ ، فَجاؤوا من بَعيدِ المَسْرىٰ ، وأَتَوْا من خَلْفِ دارِ قَيْصَرَ وكِسْرىٰ ، ورَكِبُوا الأَهْوالَ ، وبَذَلوا الأَموالَ ، وخاضُوا الأَوْحالَ ، إلىٰ هذِهِ الأَحْوالِ .

وقد حَبَّرَ المَملوكُ بِيْضَ الصَّحائِفِ بِسَوادِ[1] هذا الخَبَرِ ، وعَبَّرَ عن بَعْضِ هذِهِ العِبَرِ ، وإِنَّما الأَجْرُ على قَدْرِ المَشَقَّةِ ، ولولا هذا لما قاسَ ذِراعَ مَطِيِّهِ وقاسىٰ تلكَ الشُّقَّةَ ، وَمَن عَرَفَ ما يَطْلُبُ هانَ عليهِ ما يَبْذُلُ ، والصَّعْبُ في لِقاءِ الحَبيبِ يَسْهُلُ ، وهَؤلاءِ وَفْدُ اللهِ ورَسولِهِ صلَّىٰ الله عليه وسلَّم واللهُ ما يُضَيِّعُهُم ، ولا يُنْسى لَدَيْهِ صَنيعُهُمْ : [من الطويل]

وطُوبى لِمَنْ أَمْسىٰ على دارَةِ الحِمىٰ ‏ لَـهُ مَنْـزِلٌ أَو دُونَـهُ بِقَليـلِ

لا زالَتْ سَماؤُهُ مَصْحِيَّةً ، وشُموسُ أَيّامِهِ مَضْحِيَّةً .

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ إليهِ عن ذلك :

يُقَبِّلُ الأَرْضَ مَعْنىً ، وإِلاَّ فَأَيْنَ الأَرْضُ ؟ وَيَتَوَهَّمُ وُجودَها ذِهْناً ، وإِلاَّ فَهي مَفْقودَةٌ لِيَوْمِ العَرْضِ ، غَطَّتِ الأَمْطارُ ثَراها ، وشَطَّتْ مَنازِلُها وبَعُدَ حِماها ، وَحَطَّتْ بِها رَكائِبُ السُّيولِ فاجْتَحَفَتْ تُرْبَها فَما نَراها (تُرْباً) ، وبَلَغَ السَّيْلُ الرُّبا لا الزُّبىٰ ، وَزَكىٰ الغَيْثُ ونَمَتْ بَرَكاتُهُ وَرَبا ، وأَقْبَلَ شُباطُ فما آبَ آبٌ ، وَوَلّىٰ تَمُّوزُ هَرَباً ، فَأَيْنَ المَفَرُّ ولا عاصِمَ ؟ وأَيْنَ الخَلاصُ ونَحنُ بِمُدىٰ هذِهِ البُروقِ في حَزِّ الغَلاصِمِ ؟ وكيفَ وُضُوحُ الحُجَّةِ لِلنَّجاةِ ، وهذِهِ الرُّعودُ القاصِفَةُ تُخاصِمُ ؟ وكيفَ وكيفَ وكيفَ ؟ وهذا البَرْدُ قد فَعَلَ في الأَجْسامِ ما لا يَفْعَلُهُ

(١) في ب : ليسوَّد .

ذُبابُ الصَّيْفِ ، وأَهْونْ بِهِ ، بلْ ولا ذُبابُ السَّيْفِ .

ويُنْهي ورودَ الأَبْياتِ الدَّالِيَّةَ تَجُرُّ رِداءَ حُسْنِها ، وتَصِفُ شِدَّةَ حَلَّتْ بِنا ، وما نَحْنُ وَزْنَ مُزْنِها ، وتَسْرُدُ خَبَرَ النُّفوسِ التي ارْتاعَتْ في أَجْسادِها ، وما كأَنَّها في كِنِّها ، وتَتَّصِلُ بِرَوْضَةٍ حَمائِمُها ساجِعَةٌ ، وكَواكِبُ فَضْلِها للاسْتِقامَةِ راجِعَةٌ ، وعُيونُ مَحاسِنِها تَسْهَرُ لَها العُيونُ وهيَ مِلْءَ جُفونِها هاجِعَةٌ ، فَشَغَلَهُ حَلْيُها الذي لا يُعارُ لِسِواها ، وبُهِتَ لِهذِهِ النَّيِّراتِ التي رَفَعَ [٣٠ ب] قَلَمُهُ سَمْكَها فَسَوَّاها ، وَتَنَزَّهَ في نِقْسِها الذي أَغْطَشَ لَيْلَها ، وطِرْسِها الذي أَخْرَجَ ضُحاها .

وقالَ : أَلا هَكذا فَلْيَكُنْ كلامُ مَن أَنْشا ، وأَبْطَنَ المَعاني البَليغَةَ وغَشَّاها منَ الأَلْفاظِ وما غَشَّىٰ ، وكتبَ وهذا مَجازٌ ، وإلاَّ فالحقيقَةُ أَنَّهُ طَرَّزَ وَطَرَّفَ ، وَوَشَّعَ وَوَشَّىٰ ، وما يقولُ المَملوكُ إلاَّ أَنَّ مَولانا مَلَكَ هذا الفَنَّ والنَّاسُ عليهِ عِيالٌ ، وهو يَمْشي في نُورِ أَيَّامٍ والنَّاسُ يَخْبِطُونَ في ظُلماتِ لَيالٍ ، وهو يَقْطِفُ زَهْرَ الكَلامِ ويَجْني ثِمارَهُ ، وغَيْرُهُ يَحْتَطِبُ شَوْكَ السِّياجِ والسِّيالِ .

فلقد وَصَفَ هذِهِ الشَّدائِدَ بِما وَصَفَ ، وحكىٰ الحالَ الذي كم بارِقٍ فِيهِ لَمَعَ ، وكَمْ راعِدٍ قَصَفَ ، وأَطْرَبَ الأَلْبابَ فَلا خَدُّ وَرْدٍ إلاَّ في خَجَلٍ ، وَلا غُصْنُ بانٍ إلاَّ انْقَصَفَ ؛ وهو حَرَسَهُ اللهُ تَعالىٰ إذا وَصَفَ عَرَفَ ما يَقولُ ، وأَتىٰ بِما تَنْفَصِمُ لَهُ عُقودُ العُقولِ ، وحَسَّنَ ما يَهونُ وَرَوَّعَ ما يَهولُ ، وأَوْضَحَ المَعاني فَما تَخفىٰ إلاَّ على غَبِيٍّ أَو جَهُولٍ ، فاللهُ يُديمُ لنا هذِهِ الفَوائِدَ التي هي لِذُنوبِ هذِهِ الشَّدائِدِ كَفَّارَةٌ ، ولِهذِهِ السَّيِّئاتِ الشَّتَوِيَّةِ غَفَّارَةٌ .

وقد أَجابَ المَملوكُ عن هذِهِ الأَبياتِ الطَّائِلَةِ بِقُصورِهِ ، وأَتىٰ بِأَكْواخِهِ الضَّيِّقَةِ إلىٰ مَلِكِ الإنْشاءِ وهو في فَسيحاتِ قُصورِهِ ، وما ثَمَّ إلاَّ سِتْرُ مَولانا الذي عَوَّدَ إسْبالَهُ ، وحِلْمُهُ الذي يَسَعُ هَفَواتِ غَيْرِهِ ، ولو أَنْصَفَ نَتَفَ سِبالَهُ ؛

وهي[1] : [من البسيط]

ما لِلْغَمائِمِ قد أَرْسَتْ على البَلَدِ ... ولم تُفارِقْ مغانِيْهِ مَدىٰ الأَبَدِ[2]
وحِيْنَ لاحَتْ على بُعْدٍ طلائِعُها ... ساقَتْ إِلَيْنا بَرِيْدَ البَرْدِ والبَرَدِ
خاطَتْ عَلَيْها ثِيابَ السُّحْبِ فَالْتَأَمَتْ ... هَذا وخَيْطُ الحَيا خالٍ من العُقَدِ
ولم تَبِتْ أَعْيُنُ الأَنْواءِ باكِيَةً ... إلاَّ ولِلْبَرْقِ فيها حُمْرَةُ الرَّمَدِ[3]
كَم شَقَّقَ الرَّعْدُ جَيْباً من سَحائِبِهِ ... وقَلَّبَ البَرْقُ فيها قَلْبَ مُرْتَعِدِ
يا للعَجِيبِ قِبابُ السُّحْبِ قد وَقَفَتْ ... هذا الزَّمانَ وما قامَتْ على عَمَدِ
فاسْمَعْ حَدِيْثَ عَناءٍ قد أَحاطَ بِنا ... من عَهْدِ نُوحٍ وحتَّىٰ الآنَ لم يَرِدِ
أَبو قِلابَةَ يَرْوِي اليَوْمَ عن مَطَرٍ ... عن ثابِتٍ عن يَزِيدٍ واصِلَ السَّنَدِ
لا يُوحِشُ اللهُ من شَيْءٍ يُقالُ لَهُ ... شَمْسُ النَّهارِ فَما تَبْدُو لِمُرْتَصِدِ
أَمَّا النُّجُومُ فَشَيْءٌ كانَ في زَمَنٍ ... مَضىٰ حَميداً فقَد وَلَّىٰ ولم يَعُدِ
كَذا الفِراءُ وكانَتْ ذاتَ مَنْفَعَةٍ ... « أَقْوَتْ وطالَ عَلَيْها سالِفُ الأَبَدِ »[4]
وهَكَذا كُلُّ لِبْدٍ كُنْتَ تَعْهَدُهُ ... «أَخنىٰ عَلَيْهِ الذي أَخْنىٰ على لُبَدِ»[5]
وَمُذْ نَشَدْتُ ثِياباً أَسْتَعِينُ بِها ... « عَيَّتْ جَواباً وما بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ »
قَد أَقْفَرَتْ راحَتي من راحَتي وخَلَتْ ... « ولم أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ »
فَلا تَقُلْ إِنْ ذا لِلزَّرْعِ مَصْلَحَةٌ ... «يَسْعىٰ لِنَفْعِي ويَسْعىٰ سَعْيَ مُجْتَهِدِ»[6]

---

(١) ستة من هذه الأبيات في الكشف والتنبيه ٢٣٣ .
(٢) في ب ، س : × . . . مدى الأمدِ .
(٣) البيت ساقط من أ ، م .
(٤) الأعجاز الآتية مضمَّنة من داليّة النابغة الذُّبياني ، ديوانه ٢ ـ ٢٦ .
(٥) في س : . . . كنتُ أَعهدُهُ × .
(٦) هذا العجز والذي يليه مضمّنان من قول أُسامة بن منقذ في ضرسٍ له قَلَعَهُ : [ديوانه ١٥٢ ومختصر تاريخ دمشق ٤/ ٢٦٠]
وصاحِبٍ لا تملُّ الدّهر صحبتَه ... يشقىٰ لنفعي ويسعى سعيَ مجتهدِ=

فَلَيْتَ هذا الشِّتاءُ الصَّعْبُ مُذْ وَقَعَتْ « عَيْني عَلَيْهِ افْتَرَقْنا فُرْقَةَ الأَبَدِ »
بَرْدٌ لو انَّ الوَرىٰ جاءَتْ تُبايِعُني على الخِلافَةِ لم أَقْدِرْ أَمُدُّ يَدِي
ما نَحْنُ من قَوْمِ نُوحٍ كي يَطوفَ بِنا الطْـ ـطُوفانُ فافْهَمْ لِتَعْرِيضي على بُعُدِ
لَقَدْ سَكِرْنا مِنَ الهَمِّ المُبَرِّحِ لا من راحِ راحَةِ ساقٍ فاتِنِ الجَيَدِ
فالوَكْفُ راووقُنا والبَيْتُ باطِيَةٌ ونَحْنُ مِثْلُ حَبابٍ فيهِ مُنْتَضَدِ
فالأَنْفُ باكٍ لأَنَّ العَيْنَ جامِدَةٌ والجِلْدُ مِمَّا يُلاقي عادِمُ الجَلَدِ
قَد مَرَّ كانُونُ خِلْواً من أَذىً وقَذىً وجَمْرَةُ الشَّمْسِ لا تَخْبُو لمُتَّقِدِ
[٣١ أ] فَجا شباط بِسِيباطِ السَّحاب إِلىٰ أَنْ جَلَّلَ الأُفْقَ ثَوْباً لَمْ يُخَطْ بِيَدِ
فَكَمْ رَمىٰ نَبْلَ وَبْلٍ باتَ يَرْشُقُنا وَلَيْسَ تَمْنَعُهُ مَوضونَةُ الزَّرَدِ
ما كانَ أَغْنىٰ الوَرىٰ في ذا القُطوعِ وذا التْـ ـتَعْثيرِ عن لَقْطِ هذا اللُّؤْلُؤِ البَدَدِ
فَلا تَقُلْ إِنَّ هذا رَحْمَةٌ نَزَلَتْ فإِنَّ هذا قِياسٌ غَيْرُ مُطَّرِدِ
إِنْ دامَ لا دامَ عَمَّ الهُلْكُ أَجْمَعَنا وما لَنا غَيْرُ رُحْمىٰ الواحِدِ الصَّمَدِ

● **وَكَتَبَ هو إِليَّ عندَ قُدومي من القاهرة ، أَوائل سنة ٧٤٦ يَطلبُ منِّي جَواباً كتبتُه عن السُّلطانِ الملِكِ الصَّالِحِ إسماعيل ـ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ ـ إِلى السُّلْطانِ أَبي الحَسَنِ المَرِيْني صاحِبِ مُرَّاكِش**(١) : [من الطويل]

رَعىٰ اللهُ قَلْباً لا يَزالُ يَشُوقُهُ حَبيبٌ علىٰ طُولِ المَدىٰ وخَليلُ
وَدَهْراً أَعادَ اللهُ فِيهِ زَمانَنا وقُصِّرَ ذَيْلٌ لِلفِراقِ طَويلُ
فَما مِثْلُ مَنْ قَدْ كُنْتُ فارَقْتُ شَخْصَهُ وعادَ وقَلْبي بالبِعادِ عَليلُ
لقد جَلَّ يَوْمَ البَيْنِ قَدْرُ فِراقِهِ وهَل كَخَليلٍ في الفِراقِ خَليلُ

= لم يَبْدُ لي مُذ تصاحبنا فحين بدا لناظريّ افترقنا فرقة الأَبدِ
(١) رسالة أَبي الحسن المريني ، أَوردها المقري في نفح الطيب ٤/ ٣٨٦ . وجواب الصفدي عنها في ٤/ ٣٩٤ وما بعد . وينظر إجازة الصفدي برواية رسالته في ٤/ ٣٩٩ .

المَملوكُ يُقَبِّلُ كذا[١] ، التي جاءَتْ هيَ وبَواكِيرُ الرَّبيعِ علىٰ قَدَرٍ ، وَوَرَدَتْ قَبْلَ الوَرْدِ ، وَالبَدْرَةُ لِمَنْ بَدَرَ ، وعادَتْ وأَبْقَتِ النِّيلَ بِحُمْرَةِ خَجَلِهِ ، لأَنَّ أَبا الصَّفاءِ لا يُماثِلُهُ أَبو الكَدَرِ .

ويُنْهِي تَشَوُّقَهُ إِلى الرِّسالَةِ المَغْرِبيَّةِ وما كُتِبَ في جَوابِها ، وما يشُكُّ أَنَّهُ قَد ساقَ إِلى المغربِ الشَّمْسَ ، وأَنْسَىٰ بِيَوْمِهِ في الدِّيوانِ كلَّ أَمْسٍ ، وأَسْمَعَ المَرِيْنِيَّ ما لَم يَمُرَّ بِسَمْعِهِ من لِسانٍ ، وأَراهُ من مَقْدَمِهِ أَحْسَنَ من يَوْمِ فَتْحِ تِلِمْسان ، هذا إِلى مُتَجَدِّداتِ هذِهِ الرِّحْلَةِ مِمَّا لا يُوَلِّدُهُ من الدُّرِّ مَطَرُ نَيْسان .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ** : [من الطويل]

خَليلُكَ إِذْ وافىٰ حِماكَ تَرَفَّعَتْ ... بِهِ رُتَبٌ أَدْنَتْهُ فَهْوَ جَليلُ
وَصالَ وهابَتْهُ النَّوىٰ وسَما بِهِ ... إِلىٰ الشُّهْبِ فَرْعٌ لا يُرامُ طَويلُ
وعادَ فَعادَتْهُ المَسَرَّةُ بَعْدَما ... مَضَتْ مُدَّةٌ بِالبُعْدِ وَهْوَ عَليلُ
ومَن جاءَ مِن مِصْرٍ إِلىٰ الشَّامِ قاصِداً ... إِلَيْكَ تَلَقَّاهُ بِجُودِكَ نِيلُ

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهِي وُرُودَ المِثالِ الذي خَسَفَ حُسْنُهُ القَمَرَ ، وأَراهُ تَرَفُّعَ الزُّهْرِ وتَفَتُّحَ الزَّهَرِ ، وَفَضَحَ رَوْنَقُهُ الدَّراري ، وإِن تَنازَلَ فقد أَخْجَلَ الدُّرَرَ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّها دَوْحَةٌ أَخْرَجَها مَن ضَرَبَتْ أَعْراقُهُ الطَّيِّبَةُ إِلىٰ عُمَرَ ، وامْتَثَلَ ما رَسَمَ بِهِ مَوْلانا وجَهَّزَهُ ، عِلْماً بِأَنَّهُ قد أَهْدىٰ الذُّبالَةَ إِلى النَّيِّرِ الأَعْظَمِ ، وَجَهَّزَ النِّيْلَ المُحْتَرِقَ إِلى البَحْرِ المُفْعَمِ ، وَعَرَضَ على غُوطَةِ قاسِيُونَ حاجِزَ المُقَطَّمِ[٢] ، فَأَيْنَ جَوابُ الغَرْبِ مِمَّن مَلأَ المَشْرِقَ والمَغْرِبَ ذِكْرُهُ ؟ وأَيْنَ هَشِيمُ المُقِلِّ من مُكْثِرٍ سَدَّ الأَباطِحَ والرُّبا زَهْرُهُ ؟ فإِنْ كانَ فيها ما يَروقُ فَهو من بَضائِعِ مَولانا التي رَدَّها اللهُ عليهِ ، وساقَ هَدْيَ هَدِيَّتِها إِليهِ ، وإِلاَّ فَكلامُ العاجِزِ عَجوز ،

---

(١) في م : يقبّل الأرض .
(٢) في ب : حاجز حجر المقطّم .

ومُقابَلَةُ الشُّهُبِ بالحَصىٰ لا تَجوزُ ، واللهُ يُديمُ فوائِدَ مَولانا التي تَهْدي فَواكِهَ أَيْلولَ إِلى مَن في قَلْبِهِ حَرُّ تَمُّوز ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **وكتبَ هو إليَّ ، وأنا بِصَفَد المحروسَة ، في سنة تِسع عَشرة وسَبعمئة جَواباً :**

لا زالَـتْ فِطْنَتُـهُ داعِيَـةَ الإِسْـراعِ ، ومَحـاسِنُـهُ مِـلْءَ الأَبْصـارِ والأَفْـواهِ والأَسْماعِ ، ويُنْهِي وقوفَهُ على كُلٍّ من الجوابَيْنِ ، فَوَقَفَ النَّظَرَ عليهِ وحَبَسَهُ ، واسْتَأْنَسَ بِهِ فآمَنَ سَمْعُهُ وآنَسَهُ ، واجْتَنَىٰ [٣١ ب] مَعانِيْهِ فَتَحَقَّقَ أَنَّها من ثَمَراتِ ذلكَ الغَرْسِ ، وتَمَتَّعَ من مَحاسِنِهِ بِجَنَّاتٍ فيها ما تَلَذُّ الأَعْيُنُ وَتَشْتَهِي النَّفْسُ ، وعَلِمَ أَنَّهُما أَمِنا أَنْ يُعَزَّزَ بثالِثٍ ، وأَن يُضاهِيهما إلاَّ عابِثٌ ، وأَنَّهما الشَّمْسُ والقَمَرُ ، والبَحْرُ والمَطَرُ ، واسْتَتَرَ(١) بِهِما وتَهَنَّىٰ ، وقالَ(٢) : أَتاكَ المَجْدُ من هَنَّا وهَنَّا(٣) : [من الطويل]

سَمَتْ نَحْوَها الأَبْصارُ حتَّىٰ كَأَنَّها ... بنـارَيْـهِ مِـن هَنَّـا وثَـمَّ صَـوالـي

وقالَ : هكذا فَلْيَكُنْ مَن يُكاتِبُ ، وَبِمِثْلِ هذا فَلْيجاوِبْ مَنْ يُجاوِبُ ، وتَساوَتْ قِيْمَتُها فَلَم يَدْرِ أَيُّهما يُفَضِّلُ ، وَبَهَرَتْ أَنْوارُهُما حتَّىٰ دَهِشَ ، أَيُّهما يَبْدَأُ بِهِ وَيَتَأَمَّلُ ؛ إِلىٰ أَن وَجَدَ أَحَدَهُما مُوَشَّعاً بالخَطِّ الكَريمِ البَهائيِّ مَرْقومٌ ، مُشْتَمَلاً على رِياضٍ صَدَرَتْ من أَنامِلِهِ الشَّريفَةِ عن غُيومٍ ، وما جَعَلَهُ في أَثْناءِ ذلِكَ الكِتابِ إِلاَّ خَشْيَةَ أَنْ يَبْدَهَ العُقولَ فَيَشْدَهَها(٤) بالخَيالِ ، وما كانَ مَوْضِعُهُ الحَواشي إِلاَّ لِيُشْهِدَ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ عليهِ خَطُّ الكَمالِ ، ولا عَدِمَ المَملوكُ من عَوارِفِهِ

---

(١) في س : واسْتَسَرَّ . وفي م : واستبشر .

(٢) صدر بيت لأبي وجزة السَّعدي ، في ديوانه ١٦٠ . وعجزه :

وكُنْـتُ لـه بِمُغْتَلَـجِ السُّيـولِ

(٣) البيت لأبي العلاء المعري ، في سقط الزَّند ٣/ ١١٦٤ .

(٤) في م : فيدهشها .

في تالِدِ الفَضْلِ وطارِفِهِ : [من الخفيف]

مُحْسِناً لَم يَدَعْ لَنا بِأَيادِيْـ ـهِ على كَثْرَةِ الرَّجاءِ رَجاءَ
جادَ قَبْلَ السُّؤالِ بِرّاً فَلَمَّا لم نَسَلْ مِن نَداهُ جادَ ابْتِداءَ

ولقد اسْتَدْرَجَ كَرَمُهُ لِسانَ المَملوكِ ، عمَّا كانَ بِصَدَدِهِ مِن ذِكْرِ المُشَرَّفِ الوارِدِ ، وَوَصَفَ مِنَنَهُ التي تَثْبُتُ في الأَعْناقِ كالقَلائِدِ ؛ فإِنَّ المَملوكَ كان قد سَكِرَ بِما أَدارَهُ القَلَمُ البَّهائيُّ من كُؤُوسٍ تَصْرَعُ الأَلبابَ ، وتَضْرِبُ بَينَ المَرْءِ وعَقْلِهِ بِحِجابٍ ، وقد آنَ لِلمَملوكِ أَن يَصحو ، وأَن يَقْصِدَ طريقَ الأَدَبِ ويَنْحو ، فيقولَ : إِنَّ المُشَرَّفتينِ الكَريمتينِ وإِنْ ثُلِّثَتا[1] عَدَداً ، وسَلَكتا طَرائِقَ قِدَداً ، فَدَرُّهُما مُؤْتَلِفٌ ، وبِرُّهُما لا يَخْتلفُ ، وَوَصَلَ قَرينَهما ما أَنْعَمَ بإِنْفاذِهِ ممَّا كانَ المَملوكُ الْتَمَسَهُ من كَرَمِهِ ، واسْتَهْداهُ[2] من مَواهِبِ قَلَمِهِ .

وأَمَّا ما كانَ بَلَغَهُ من الأَخْبارِ عن الجَنابِ الزَّيْنيّ ، فالجوابُ عنهُ قَوْلُ مِهيار .

وأَمَّا المراثي الشِّهابيَّةُ ، فَنَظَمَ الجَنابانِ الشَّريفانِ العَلائيُّ والشِّهابيُّ وَلَدا غانِمٍ أَبْقاهُما الله تَعالىٰ قَصيدتَين ، بل فَريدتَين ، وكانَ الجَنابُ العالي ابنُ نُباتَةَ غائِباً عن مَوْتِهِ ، فلمَّا حَضَرَ عَمِلَ قَصيدةً هَتَفَ بِها كلُّ سامِعٍ ، واسْتَبْكىٰ بِها حتَّىٰ أَعْيُنَ النُّجومِ الطَّوالِعِ ؛ وعَمِلَ الأَديبُ شمسُ الدِّينِ محمَّد الخَيَّاطِ مَرْثِيَّةً لم يُرْفَعْ لَها عَلَمٌ ، ولا تَلَجْلَجَ بِها نَغَمٌ ؛ وتَقَدَّمَ من المَملوكِ نَظْمُ واحِدَةٍ ، وبلغَ المَملوكَ أَمْرٌ اقْتَضَىٰ كَتْمَها[3] ، ويَتَناسىٰ ما فيها ؛ وعُقَيْبَها يُجَهِّزُ بها وَرَقَةً مُحَبَّسَةً لِبَدائِعِها وحابِسَةً ، لِيقفَ عليها فَيَدفَعَ الأَرْبَعَةَ ويَكْتُمَ الخامِسَةَ ، وأَوصَلَ

---

(١) في أ ، ب ، س : تأَتَا ! .
(٢) بداية سقط في ب مقداره ورقة .
(٣) في س : اقتضى أن يخفيَها .

المَملوكُ إلى اليَدِ الكَريمَةِ النَّاجِيَةِ ، ابنِ المَقَرِّ الكَريميّ ، كِتابَهُ وقد وَعَدَ فيهِ بالزِّيارَةِ ، فَأَوْقَفَ اللَّواحِظَ دبادِبَ السُّبُلِ تَتَرَقَّبُ انْتِظارَهُ ، والمَسامِعَ رَبيئَةَ الرُّسُلِ لِتَتَسَمَّعَ أَخْبارَهُ ، والمُسْتَمَدَّ من تَفَضُّلِهِ أَنْ يُواصِلَ بِخِدَمِهِ ما دامَ في قَوْسِ القَطيعَةِ مَنْزَعٌ ، ولِلرَّأْيِ تَرَدُّدٌ يُخْشىٰ ويَتَوَقَّعُ ، واللهُ تَعالىٰ يُقَرِّبُهُ مَقيلاً ، ولا يُعْدِمُ المَملوكَ[1] خَليلاً على الحَقيقَةِ جَليلاً ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ .

● وكتبَ هو إليَّ بِصَفَدَ المحروسَة في سنة ٧٢٠ جَواباً عن كتابٍ عَطَفْتُهُ على مُوَشَّحَةٍ نَظَمْتُها مُعارِضاً [٣٢ أ] **بِها المَوْصليّ أَحمد بن حسن ، وسوف يأتي ذِكْرُها في ذِكْرِ جمال الدِّين يوسف الصُّوفيّ في حرف الياء :**

لا زالَتِ[2] البَلاغَةُ جَنىٰ غَرْسِها ، والبَراعَةُ شَأْنَ نَفْسِها ، وقَبَّلَ المَملوكُ تلكَ العَقائِلَ الطَّالِعَةَ ، واسْتَشْفىٰ بتِلكَ المَواهِبِ النَّافِعَةِ ؛ وفَهِمَ المَملوكُ الإِشارَةَ في تَأْخيرِ الجَوابِ البَهائِيِّ ، وقد عَلِمَ اللهُ أَنَّ المُشَرَّفَ المُشارَ إِليهِ حينَ وَرَدَ ، اسْتَبَقَ نَظَرُ المَملوكِ وبَنانُهُ إِلى تَأَمُّلِهِ والإِجابَةِ عنهُ ، وازْدَحَمَتْ في طَريقِ نُطْقِهِ أَلْفاظُها ، والأَلْفاظُ المَنْقولَةُ منهُ ، وجَهَّزَهُ مع قاصِدٍ ، لا شَكَّ أَنَّهُ عُرِفَ أَنَّهُ من هُدَّاءِ القَوْلِ ، فَنَبَذَهُ ظِهْرِيّاً ، وَجَعَلَهُ نَسْياً مَنْسِياً ، ولم يَتَأَخَّرِ المَملوكُ مُحْجِماً ، مع عِلْمِهِ بِأَنَّ الإِحْجامَ كانَ بِمِثْلِهِ أَلْيَقَ ، لِيَسْتُرَ تَقْصيرَهُ ، ويُخْفي عُيوبَ فَهاهَتِهِ ، ويُحيلَ المُحْسِنَ على إِحْسانِهِ الذي يَكفيهِ مُجازِياً ويُماثِلُه مُجارِياً .

وقد أَعادَ المَملوكُ إِلى الجَنابِ البَهائيِّ خِدْمَةً ثانيةً ، لعلَّ فَصاحَةَ المَولىٰ في الإِيْرادِ تُعْديها فَتُلْبِسُها المَحاسِنَ ، وتُكْسيها المَيامِنَ .

وأَمَّا إِشارَةُ المَولىٰ إِلى المُوَشَّحَةِ التي عارَضَ بها المَوْصِليَّ في الوَزنِ

---

(١) في س : ولا يعدم المملوك من بقائه خليلاً .

(٢) في م : يقبّل اليدَ ، لا زالت .

والرَّوِيِّ مُلتزماً ما جاءَ بِهِ المُشارُ إِليهِ في عَفْوِ قَريحَتِهِ من الغُصونِ والأَقْفالِ ، ونَسْجِهِ على ذلكَ المِنْوالِ ، فَقد تَأَمَّلَها الخادِمُ واسْتَمْلاها ، واسْتَجْلاها واسْتَحْلاها ، وأَحْضَرَها مع مُوَشَّحَةِ المَوْصِليّ ، فَأَقْسَمَ بالشَّمْسِ وضُحاها ، وذَكَرَ بها فَريدَةَ الجَمالِ ، فقالَ : والنَّهارِ إِذا جلاَّها ، والقَمَرِ إِذا تَلاها ، واللَّيْلِ من سَوادِ وَجْهِ مُعارِضِها إِذا يَغْشاها ؛ وَتَمَثَّلَ القَوافي على غُصونِها حَمائِمَ ، والحَشْوَ علىٰ سَجَعاتِها كَمائِمَ ، وعَذَرَها في اتِّخاذِ الأَقْفالِ على ما صانَ من دُرِّها وصاغَ من تِبْرِها ، وقابَلَها بكلِّ ما قيلَ في هذا النَّوعِ فَوَجَدَها كاسِفَةً ، وماثَلَها بِأَمْثالِها فَغَدَتْ على حَظِّها إِذا قِيْسَتْ أَحاسِنُ المَحاسِنِ آسِفَةً ، ولقد وَقَعَتْ مَوْقِعَ الاسْتِحْسانِ ، وَأَتَتْ كامِلَةَ الإِحْسانِ ؛ لو اهْتَدَتِ العَرَبُ الأُولى إِلى طَريقِها لَعَدَلَتْ إِلى المُوَشَّحاتِ عن القَصائِدِ ، ولو أَلِفَها الفَتْحُ بن خاقان لاسْتَفْتَحَ بِفَرائِدِها ما أَلَّفَ من « القَلائِدِ » ، وقد عَطَفَها المَملوكُ على مُوَشَّحَةِ المولىٰ جَمالِ الدِّين مُقْتَضَبَةً مِمَّا كُتِبَ عليها[1] من أَثْنِيَةِ بُلَغاءَ لم يُقَدِّروها حَقَّ قَدْرِها ، ولا نَهَضُوا بِشُكْرِها ، مع إِطالَةٍ تُفْضِي بِمُطالِعِها[2] إِلى المَلَلِ ، وتَشرحُ بَدائِعَها على وَجْهِ الجُمَلِ ، عارِيَةً مِمَّا حُلِّيَتْ بِهِ من وَصْفِهِمْ ، إِذا كانَتِ المَليحَةُ تَغْنى عن حُلِيٍّ وعن حُلَلٍ ؛ فإِنَّ المَملوكَ آثَرَ اسْتِنْساخَها ، واسْتَكْثَرَ نُسَّاخَها ، لكنْ ضاقَ فِتْرٌ عن مَسيرٍ[3] ، وشَهادَتُها لِنَفْسِها بَيِّنَةٌ لا تُدْفَعُ ، وحَسْبُ المَليحَةِ أَنْ تَأْتِي سافِرَةً ولا تَتَبَرْقَعَ .

مُحِبُّ المولىٰ الجَنابِ الزَّيْني يُتْحِفُهُ بِسَلامٍ أَريجِ النَّفْحَةِ ، بَهيجِ اللَّمْحَةِ ، اعْتَرَضَ بِهِ وَظائِفَ الأَدْعِيَةِ التي يَسْتَغْرِقُ بِها أَوْقاتَهُ ، فَقيلَ : هذِهِ شَذْرَةٌ في سُبْحَةٍ ، إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

---

(١) نهاية السقط في ب .

(٢) « بمطالعها » : ساقطة من أ ، م .

(٣) فوقها في أ : كذا .

● وكتبتُ إليهِ كتاباً ، جَواباً عن الأَميرِ سَيْفِ الدِّين طُقُزْتَمُر[1] نائِب الشَّامِ المحروسِ ، وقد طُلِبَ إلى البابِ الشَّريفِ تحتَ الاحْتِرازِ ، فلمَّا وَصَلَ إلى بِلْبِيْس جاءَ بالإِفْراجِ [٣٢ ب] عنهُ ، وأَن يعودَ إلىٰ الشَّامِ في سنة ٧٤٣ :

بَسَطَ اللهُ ظِلَّ المَقرِّ الشَّريفِ[2] الشِّهابيّ ، وخارَ لَهُ في الظَّعْنِ والإِقامَةِ ، وأَقْدَمَهُ على ما يَسُرُّ أَولياءَهُ من السَّلامَةِ ، وَأَطْلَعَ وَجْهَهُ الوَضَّاحَ على مَحَبَّتِه ، فإِنَّهُ يَجْلو الظَّلامَ والظُّلامَةَ .

المَملوكُ يُقَبِّلُ اليَدَ الشَّريفَةَ التي تُخْجِلُ الغَمامَةَ ، ويَخدمُ بِدُعاءٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَعْلامِ القَبولِ عَلامَةٌ ، وَيَصِفُ وُدَّاً ما سامَهُ من الإِخْلاصِ سآمَةً ، ويَذْكُرُ مَحَبَّةً ما لَها في الغَرامِ غَرامَةٌ ، ويَبُثُّ ثَناءً يَفْعَلُ بالأَلْبابِ ما لا تَفْعَلُهُ المُدامَةُ .

ويُنْهي إلى العَلَمِ الكَريمِ وُرودَ المُشَرَّفِ العالي ، فقابَلَ منهُ مُحَيَّا يَتَلأْلأُ نُوراً ، وحَباهُ حُبوراً ، وَمَلأَ حِجْرَ سَمْعِهِ لُؤْلُؤاً مَنْثوراً ، وأَعْلَمَهُ أَنَّ مَولانا يَنْقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسروراً ، وانْتَهىٰ منهُ إلى الإِشارَةِ العالِيَةِ من مُسابَقَتِه بالصَّدقاتِ الشَّريفَةِ ، وتَلَقِّيهِ إلى بِلْبِيْسَ بِما اسْتَقَرَّ بِهِ خاطِرُهُ الكَريمُ ، لِيَدْخُلُ مِصْرَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِناً ، ويَسْتَثِيرَ لَهُ من السَّعْدِ ما هو في ضَميرِ اللُّطْفِ كامِناً ، ويَجِدَ بِهِ مَقْعَدَ العُلا مُتَطامِناً ، وحُصولَ الرِّضىٰ الشَّريفِ عليهِ ، والإِفْراجِ عنهُ وعمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ .

فَسَرَّ المَملوكَ هذا البِناءُ الكَريمُ ، والخَبَرُ الذي آثَرَهُ اللُّطْفُ الإِلٰهِيُّ بالتَّقديمِ ، وعَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعالىٰ ما أَعادَهُ إِلاَّ لأَنَّ العَوْدَ أَحْمَدُ من أَحْمَدَ وأَحْسَنُ ؛ ولا رَدَّهُ إلى أُمِّهِ إِلاَّ كي تَقَرَّ عَيْنُها ولا تَحْزَنَ .

---

(١) ترجمته في : الوافي بالوفيات ١٦/ ٤٦٥ .

(٢) في م : المقرّ الكريم الشهابي .

وأَمَّا الإِشارَةُ إِلى ما تَضَمَّنَهُ كِتابُ المَقَرِّ الشَّريفِ العَلائيِّ ، أَخي مَولانا ، من أَنَّ ذلِكَ إِنَّما اتَّفَقَ بِمُطالَعَةِ المَملوكِ إِلى الأَبْوابِ الشَّريفَةِ ، وقِيامِ المَقَرِّ الكَريمِ السَّيْفيّ الدَّوادار ؛ فقد عَلِمَ المَملوكُ ذلكَ ، وقابَلَهُ بِشُكْرٍ تَلا سُورَةَ حَمْدِهِ ، وسَلَكَ فِيهِ طَريقاً أَتْعَبَ مَن جاءَ مِن بَعْدِهِ ؛ وما يَقولُ المَملوكُ إِلاَّ أَنَّ الشُّكْرَ لِلرِّياحِ لا للسَّحابِ ، ولِمَنْ أَدَّىٰ الرِّسالَةَ لا لِمَنْ خَطَّ الكِتابَ ، ولِمَنْ تَلَطَّفَ للاسْتِعْطافِ لمَّا أَنْ أَغْلَظَ العِتابَ ؛ واللهُ يُديمُ مَولانا السُّلطانِ ويُخَلِّدُ مُلْكَهُ ، ويَجْعَلُ المَمالِكَ دُرَّاً لا تُودَعُ إِلاَّ سِلْكَهُ ، ويُفيضُ مَلابِسَ إِحْسانِهِ على مَنْ أَمَّ حَرَمَهُ ، ويَجْبُرُ بِعَطْفِهِ مَنْ كَسَرَهُ الزَّمانُ وحَرَمَهُ .

وإِذْ أَخَذَ مَولانا حَظَّهُ من رُؤْيَةِ أَخيهِ ، وَثَبَتَتْ بِرُؤْيَتِهِ قَواعِدُ سَعْدِهِ وتَمَكَّنَتْ أَواخِيْهِ ، فما بَقِيَ إِلاَّ أَنْ يَعودَ إِلى وَطَنِهِ لِنُجَدِّدَ الخِدْمَةَ بِعَهْدِهِ ، وَنُهَنِّئَهُ شِفاهاً بِتَمامِ فَضْلِ اللهِ عليهِ وكَمالِ سَعْدِهِ .

فإِنَّ مَولانا صاحِبٌ قَدِيمٌ وأَخٌ كَريمٌ ، وَكُلُّنا نَشْءُ ذلكَ الرَّوْضِ النَّاصِرِيِّ النَّاضِرِ ، وكواكِبُ ذلكَ الأُفُقِ الذي ما طَلَعَ فيه إِلاَّ بَدْرٌ نَيِّرٌ أَو شهابٌ زاهِرٌ .

فَلْيَعُدْ قَريباً لِيُقِرَّ طَرْفَ وَطَنِهِ الدَّامِعِ الدَّامي ، ويُقارِنَ بَدْرَهُ السَّامي الشَّامي ؛ فما ضَلَّ مَن سارَ بَيْنَ بَدْرَيْنِ ، ولا ظَمِىءَ مَن تَرَدَّدَ بينَ بَحْرَيْنِ ، وما أَحْسَنَهُ مُبْتَدَأً رَفَعَ الخَبَرَيْنِ .

فإِنَّ مَولانا أَيْنَما حَلَّ حَلَّىٰ ، وَكُلَّما جَلَّ جَلَّىٰ ، وعَواطِفُ هذِهِ الأَيَّامِ تَضْمَنُ لَهُ الحُسْنىٰ ، وتُضْمِرُ لهُ المَوْرِدَ الأَهْنىٰ .

وَأَمَّا إِشارَتُهُ العالِيَةُ في الفَصْلِ الثَّاني ، في فَكِّ الخَتْمِ عن دارِهِ بِحُضورِ مَنْ وَضَعَ خَتْمَهُ عَليها ، فقد عُلِمَ ، وذلكَ أَمْرٌ مِمَّا لا حاجَةَ إِليهِ ، فإِنَّ العَواطِفَ الشَّريفَةَ شَمَلَتْ مَولانا ، والحاسِدُ حاصِدُ الخُسْرانِ ، [٣٣ أ] والواشي غاشي

الحِرْمانِ ؛ والمَملوكُ مُتَرَقِّبٌ طُلُوعَ شِهابِهِ النَّيِّرِ في أُفُقِ الشّامِ المَحروسِ قَريباً ، ومُتَطَلِّعٌ إلى أَنْ لا يَرىٰ لَهُ في فَلَكِ السُّعودِ مَغيباً ؛ فَيُحيطُ عِلْمَهُ الكَريمَ بذلكَ ، واللهُ يُقَدِّرُ لَهُ الخَيْرَ في ما هُنا أَو هُنالِكَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

● وكتبَ هو إليَّ من بِلْبِيْس :

يُقَبِّلُ كذا ، لا شانَ صَفْوَها كَدَرٌ ، ولا شابَ وُدَّها تَغَيُّرُ الغِيَرِ ، ولا شادَ اللهُ مَعْلَمَ مَجْدٍ إلاَّ ولها على صَدْرِهِ الوُرودُ ولِسِواها الصَّدَرُ ، ولا شاءَ بِخَيْرٍ إلاَّ وَلَها منهُ نَصيبٌ مُعَجَّلٌ أَو مُنْتَظَرٌ ، ولا شالَ بِضَبْعِ ماجِدٍ إلاَّ لِيُحِلَّها حَيْثُ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ ، ولا شاعَ حَديثُ وَفاءٍ إلاَّ بِما يُحَدِّثُ منها خَليلُ الصَّفاءِ ويَقولُ : كانَت فَلْتَةَ عُمَر .

ويُنْهي أَنَّهُ كَتَبَها من بِلْبِيْس ، قد عاجَلَهُ بِحَمْدِ اللهِ الفَرَجُ قَبْلَ قُدُومِهِ على قَلْعَةِ الجَبَلِ ومُعايَنَةِ أَهْوالِها ، وقَبْلَ حُلولِهِ بِمصرَ وتَوَقُّعِ زِلْزالِها ، وَقَبْلَ مُقابَلَةِ[1] القاهرةِ ورُؤْيَةِ أَطْلالِها ، وقِيلَ : ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩] وعُودوا إلى دِمشقَ بِمَشيئَةِ اللهِ سالِمينَ ، وكَفاهُ اللهُ خَطَراتِ تلكَ الوَساوِسِ ، وخَطِراتِ تِلْكَ الهَواجِسِ ، وخُطواتِ تلكَ البُقْعَةِ ورُؤْيَةَ أُولئكَ الأَبالِسِ ؛ والمَوْقِفَ المَخْشِيَّ هَوْلُهُ ، والسّائِلَ الثَّقيلَ قَوْلُهُ ، « والعِزُّ في البَدْوِ لَيْسَ العِزُّ في الحَضَرِ » ، وحَسْبُ المَرْءِ من المَساءَةِ النَّظَرُ .

فالحمدُ للهِ الذي تَدارَكَ بِلُطْفِهِ ، وغَلَّ يَدَ المُبْطِلِ وسَيُسْقِطُ رَأْسَهُ على كَفِّهِ ؛ وأُنْعِمَتِ الصَّدَقاتُ الشَّريفَةُ السُّلطانِيَّةُ المَلَكِيَّةُ الصّالِحِيَّةُ بالإِطْلاقِ ، وفَكِّ الخَتْمِ وَحَلِّ الوَثاقِ ، وجاءَتْ مَراحِمُهُ عُقَيْبَ ذلكَ السُّمِّ أَسْرَعَ تَخْليصاً من الدِّرْياقِ ، وجاءَتِ البُشْرىٰ بِمَا مَنَّ اللهُ بِهِ بِصَدَقاتِ سُلْطانِنا المَلِكِ الصّالِحِ لا بِسَبَبٍ من

(١) في س : مقاربة .

الأسْبابِ ، ولا بالسَّعْيِ إِلىٰ أحَدٍ ، ولا بالوُقوفِ لأِحَدٍ على بابٍ ، ولا بإِبْداءِ عُذْرٍ بِقَوْلٍ ولا بِكِتابٍ ، بل جاءَ هذا من عِندِ اللهِ بِمِنَّتِهِ لا بِمِنَّةِ مَخْلُوقٍ ، ولا بِسَعْيِ سابِقٍ ولا مَسْبوقٍ ، حتَّىٰ أَذْكَرَهُ كلمةَ عائِشَةَ رضيَ اللهُ عنها نَوْبَةَ الإِفْكِ[1] ، وأَذْكَرَتْهُ هذِهِ القَضِيَّةُ تِلْكَ القَضِيَّةَ ، وتَمَّتِ الأُمُورُ بِحَمْدِ اللهِ على أَكْمَلِ الوُجُوهِ المَرْضِيَّةِ .

اللَّهُمَّ ما أَصْبَحَ بي مِن نِعْمَةٍ أَو بأَحَدٍ من خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ ، اعْتِقاداً هو الذي لم نَزَلْ نَرْجِعُ إِليهِ ، ونَنْجَعُ ولا نُعَرِّجُ إِلاَّ عليهِ ، ونَهْجَعُ ثم نَنْتَبِهُ بِتَذْكيرِهِ ، ونُفْجَعُ ثم نُسَرُّ بمقادِيْرِهِ ، ولم يَبْقَ بإِذْنِ اللهِ إِلاَّ أَنْ يُصْرَفَ إِليهِ وَجْهُ السُّرىٰ ، ويُصْدَفَ في طَلَبِ السُّرْعَةِ المَقْدومِ عليهِ عائِقُ الكَرىٰ ، ويُسْعِفَ اللِّقاءُ بِهِ وبالأَوْطانِ ، ويُنْصِفَ الزَّمَنُ الجائِرُ بِلُطْفِ اللهِ وعَدْلِ السُّلطانِ ، ويُتْحِفَ القَدَرُ بِجَمْعِ الشَّمْلِ ، ويَعْلَمَ أَنَّها كانَتْ نَزْغَةً من نَزَغاتِ الشَّيْطانِ ؛ ومَولانا يَعذرُ في التَّقصيرِ ، فَما هو وَقْتُ الإِطالَةِ ، وهذا كَثيرٌ على الرَّاكِبِ المُجِدِّ في ما يُقَدِّمُ لَهُ من العُجالَةِ .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ عن ذلك :** [من السريع]

وَنِعْمَــةٍ جــاءَتْ كَمــا نَشْتَهِــي ... مــن عِنْــدِ رَبِّ العَــرْشِ مَســراهــا
[٣٣ ب] أَتَـتْ وقـد جَرَّتْ ذُيـولَ الهَنا ... بِـأَيِّ شُكْــرٍ نتَلَقَّــاهــا
رَوَتْ فَــرَوَّتْ أَنْفُســاً تَلْتَظــي ... مِــن حَــذَرٍ قــد كــانَ عَنَّــاهــا
فَـالحَمْــدُ للهِ علــى أَنَّنــا ... نَحْمَــدُ أُولاهــا وأُخْــراهــا
فـاللُّطْـفُ فـي مَبْـدَئِهـا كـامِـنٌ ... والسَّعْـدُ فـي مَضْمُـونِ عُقْبـاهـا
فَقُــلْ لِمَــنْ قَــد وَلِعَـتْ بـالمُنـىٰ ... مُهْجَتُــهُ : أَسْتَغْفِــرُ اللهَ

(١) قالت ـ رضي الله عنها ـ : بحمْدِ الله لا بحمدك . وثمة روايات أُخر بهذا المعنى . (حديث الإفك ، للمقدسي) .

إِنَّـــكَ إِنْ أَبْصَـــرْتَهَـــا مَـــرَّةً أَكْبَـــرْتَهَـــا أَن تَتَمَنَّـــاهَـــا

يُقَبِّلُ الأَرْضَ أَوَّلاً علىٰ هذِهِ النِّعْمَةِ شُكْراً ، وثانياً على عادَةِ خِدَمِه مُسْتَمِرًّا ، وثالثاً ورابعاً وخامساً وهَلُمَّ جَرًّا ، حتَّىٰ يَسْتَغْرِقَ الواوَ العَطْفُ ويَنْفَدَ في السَّجَعِ حَرْف الرَّا .

ويُنْهي وُرودَ المِثالِ الكَريمِ ، الذي كانَ أَماناً من الحَذَرِ ، ومُخَلِّصاً لِقَلْبِ المُحِبِّ الذي افْتَتَحَ الحُزْنَ واخْتَتَمَهُ وما شَعَرَ ، وبَراءَةً من الخَطْبِ الذي لو عالَجَهُ اللَّيْلُ لانْصَدَعَ أَو الصُّبْحُ لانْفَجَرَ ، وفَكّاً لأَنْفُسِ الأَوْلِياءِ من الجَزَعِ الذي لو حَلَّ بِالجِبالِ حَجَّرَ في الصَّبْرِ على الحَجَرِ ، وشَدْواً لأَصْواتِ البَلاغَةِ التي مَن لم يَطْرَبْ لَها قُلْنا لَهُ ما قالَتْهُ النِّسْوَةُ من قُرَيشٍ[1] : أَنْتَ أَغْلَظُ وَأَفَظُّ يا عُمَرُ :

[من الطويل]

أَلَيْـــسَ لأَخْبـــارِ الأَحِبَّـــةِ فَـــرْحَـــةٌ ولا فَـرْحَـةَ العَطْشـانِ فـاجَـأَهُ القَطْـرُ

فَقَبَّلَ المَملوكُ شَفَتَيْ عُنوانِهِ ، وَتَخَيَّلَ لَعَسَ مِدادِهِما إِثْمِداً فَكَحَّلَ بِهِ رَمَدَ أَجْفانِهِ ، وكَرَّرَ السُّجودَ حتَّىٰ قيلَ : هذا هُدْهُدٌ بينَ يَدَيْ سُليمانِ زَمانِه[2] ؛ وفَضَّهُ فلمَّا لَمَحَ تاجَ اسْمِهِ ، قامَ لَهُ وَلَبَّسَهُ لَثْماً ، وعَلِمَ أَنَّ البَرَكاتِ تَنَزَّلَتْ عليهِ لَمَّا سَمَّىٰ ، وأَحَبَّ جَمْعَ ما فِيهِ من مالِ البَلاغَةِ حُبّاً جَمّاً ، وأَكَلَ تُراثَ أَشْواقِهِ المُخَلَّفَةِ من حُروفِهِ أَكْلاً لَمّاً ، وَذَكَرَ من حَديقَتِهِ اليانِعَةِ ما أَنْساهُ نَخْلَتَيْ حُلوانَ[3]

---

(١) من حديث أَخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ٩٦ و١٩٩ و٧/ ٩٣ ومسلم (٢٣٩٦) وأَحمد في مسنده ١/ ١٧١ و١٨٢ .

(٢) يضرب المثل بسجود الهدهد ، فيقال : أَسْجَدُ من هدهد . (مجمع الأَمثال ١/ ٣٥٦ وثمار القلوب ٢/ ٧٠٧) .

(٣) نخلتا حلوان : كانتا بعَقَبة حلوان [= حلوان العراق] من غرس الأَكاسرة ، فضُرب بهما المثل في طول الصُّحبة وقِدَمِ المجاورة . (الميداني ١/ ٤٣٨ وثمار القلوب ٢/ ٨٤٢ وفي حاشيته مزيد تخريج) .

=

ومَحَلَّتَيْ سَلْمىٰ : [من البسيط]

وَرُحْتُ أَسْقيهِ من دَمْعي وأَلْثُمُهُ وكادَ يَذْهَبُ بَيْنَ الدَّمْعِ والقُبَلِ

ثم تأَمَّلَ ما اشْتَمَلَ عليهِ من جَنّاتٍ تَزَخْرَفَتْ ، وبُروقِ مَعانٍ تأَلَّقَتْ ، وسَحائِبِ سُطورٍ تأَلَّفَتْ ، ونَزَعاتٍ[1] فاضِلِيَّةٍ اقْتَدَرَتْ على الكَلامِ فتَصَرَّفَتْ ؛ أَسْتَغْفِرُ اللهَ ، بل في كَلامِ الفاضِلِ جُزَيْئاتٌ تُشْبِهُ هذِهِ الكُلِّيّاتِ ، ومَعابِرُ كانَ يَغوصُ فِكْرُهُ في لُجَّةِ بَيانِها على هذهِ الكَلِماتِ اللُّؤْلُؤِيّاتِ ، وَزَهَراتٌ كانَ يَقْتَطِفُها من هذِهِ الرِّياضِ ، وقَطَراتٌ كانَ يَرْتَشِفُها فَمُ قَلَمِهِ من هذِهِ الحِياضِ ، فلقَد أَتىٰ وادي مَولانا فَطَمَّ علىٰ قَرِيِّهِ ، وجاءَتْ جِيادُهُ وغُبارُ سَبْقِها يُنْفَضُ من هَوادي مَطِيِّهِ : [من الطويل]

وما زالَ يُنْبي النّاسَ فَضْلُ كلامِهِ بِأَنَّ كَلامَ العالَمينَ فُضُولُ

فاتَّخَذَها مَقاماً ، وحَنا علىٰ جَواهِرِها لأَنَّها يَتامىٰ ، وتَحَقَّقَ بَرَكَتَها فإِنَّ نارَ الخَليلِ رَجَعَتْ بِها بَرْداً وسَلاماً ، وَرَشَفَ من أَلْفاظِها مُداماً يُسَمِّيهِ النّاسُ كَلاماً ، وخَلَبَ لُبَّهُ سِحْرُها الحَلالُ ، وَكانَ يَظُنُّ السِّحْرَ حَراماً ، وفَهِمَ مِنْها ما وَقَرَ في قَلْبِهِ فَسَبَقَ النّاسَ إِلى البُشْرىٰ ، وصَحا قَلْبُهُ وَصَحَّ لَمّا تفَرَّقَ غَمامُ غَمِّهِ وتَفَرَّىٰ ، وَوَدَّ لَو شَهِدَ بَطْنَ خَبْتٍ وقَد لاقىٰ الهِزَبْرُ أَخاهُ بِشْراً[2] ، وعَلِمَ أَنَّ اللهَ

= ومحلّتا سلمى : عبارة وردت في شعر جرير : [معجم البلدان ٥/ ٢٥٢]

أَمنزلتي سلمى بناظرة اسلما وما راجع العرفان إلاّ توهّما

وفي ديوانه ٢/ ٩٧٩ : أَمنزلتي هند . . .

وفي شعر البحتري : [ديوانه ٣/ ١٩٥٤]

أَمحلّتي سلمى بكاظمة اسلما وتعلّما أَنّ الجوىٰ ما هجتُما

(١) في م : وبراعات فاضليّة .

(٢) من قول بشر بن عوانة : [مقامات البديع ٢٥٠ ومنتهى الطلب ٨/ ٢٥٦ وحياة الحيوان « الهزبر »]

أَفاطمُ لو شهدتِ ببطنِ خَبْتٍ وقد لاقىٰ الهِزَبْرُ أَخاكِ بِشْرا

تَعالىٰ أَرادَ لِمَوْلانا أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ عَزيزاً ، ويَجْعَلَ طِينَها الإِبْليزَ مِثْلَ كلامِهِ إِبْريزاً ، وأَنْ لا يَرىٰ فيها ما يُرَوِّعُ رُوْعَهُ ، وأَنْ لا يَرىٰ نَجْمَ اسْتِقامَتِهِ يُخالِفُ رُجوعَهُ ، فَحَفِظَهُ بِمُعَقِّباتٍ من بَيْنِ يَدَيْهِ ومن خَلْفِهِ ، ولم يُحْوِجْهُ إِلى غَيْرِ ما يَعْهَدُهُ من خَفِيِّ لُطْفِهِ(١) : [من الخفيف]

رُبَّ أَمْـرٍ أَتـاكَ لـم تَحْمَـدِ الْفُعْـ ـعـالَ فِيـهِ وتَحْمَـدُ الأَفْعـالا

فَاللهُ يُوزِعُنا ـ مَعاشِرَ [١٣٤أ] الأَوْلِياءِ ـ شُكْرَ هذهِ النِّعَمِ التي تَخَيَّلْنا وُقوعَها ، وتَحَيَّلْنا بِصِحَّةِ اليَقينِ على عَوْدِها فَنِلْنا رُجوعَها ، وما لَنا إِلاَّ الدُّعاءُ إِلى اللهِ بِأَنْ نَرىٰ بَدْرَ وَجْهِهِ وقد طَلَعَ من ثَنِيَّاتِ الوَداعِ ، وقد تَوَجَّهَ يَحُثُّ سُعودَهُ وانْقَطَعَ الخَصْمُ وبَطَلَ النِّزاعُ : [من البسيط]

مَنْ كانَ ذا أَمَلٍ في الدَّهْرِ يَقْصِدُهُ فَـإِنَّمـا أَمَلـي فـي أَنْ تَـرىٰ أَمَلَـكْ

وما أَمْرُ بِلْبِيْسَ مِمَّا يُلْتَبَسُ ، ولا تَحْبِيسُ عادَةِ السَّعادَةِ مِمَّا يُحْتَبَسُ ، وما بَقِيَ إِلاَّ عَوْدُ رِكابِهِ إِلى وَطَنِهِ ، ورُجوعُ دُرِّهِ إِلى لُجِّهِ ، وَذَهَبِهِ إِلى مَعْدِنِهِ ، لِنَأْمَنَ تَوَثُّبَ الباغي ونَزَواتِهِ ، ونَغْنَمَ الصَّفاءَ من وُدٍّ يَحْمِيهِ اللهُ من الشَّيْطانِ ونَزَغاتِهِ : [من الطويل]

وَكَـمْ لِظَـلامِ اللَّيْـلِ عِنْـدِيَ مِـنْ يَـدٍ تُخَبِّـرُ أَنَّ المـانَـوِيَّـةَ تَكْـذِبُ(٢)

والمَملوكُ يَسأَلُ بَسْطَ العُذْرِ عن جُرْأَتِهِ في هذا الجَوابِ ، ويَستغفرُ اللَّيْثَ الأَغْلَبَ من وَقاحَةِ الذِّئابِ ، لا بَل لَجاجَةِ الذُّبابِ ، فَأَيْنَ عُجالَةُ ذلِكَ الرَّاكِبِ من مُهْلَةِ هذا المُطْمِئِنِّ ؛ وَأَيْنَ ذلكَ الرُّوحُ الطَّاهِرُ من هذا الجَسَدِ المُسْتَجِنِّ ؟ وأَيْنَ مَنِ ارْتَجَلَ مِمَّنْ تَرَوَّىٰ ؟ وَأَيْنَ قَلْبُ الأَسَدِ من العَوَّا(٣) ؟ : [من الخفيف]

---

(١) البيت للمتنبي ، في ديوانه ٣/ ١٣٨ .

(٢) في س: . . عندك من يدٍ × . والبيت للمتنبي ، في ديوانه ١/ ١٧٨ . وفي هامش م : خ : عندك .

(٣) البيت لأبي العلاء المعري ، في شروح سقط الزند ١/ ٤٥٦ .

قَـدْ أَجَبْنـا قَـوْلَ الشَّـريـفِ بِقَـوْلٍ   فَـأَثَبْنـا الحَصـىٰ عـن المَـرْجـانِ

● **وكَتبتُ أَنـا إليهِ من الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ في سنة ٧٢٧ وهو بالشَّامِ المَحروسِ ، جَواباً عن كتابٍ وَرَدَ منهُ ، وَأُهَنِّئُهُ بِولايَةِ والِدِهِ القاضي مُحيي الدِّين كِتابَةَ السِّرِّ الشَّريفِ :** [من الطويل]

أَيـا سَيِّـداً حـازَ العُـلا وَحَـواهـا   وجـازَ نِهـايـاتِ النُّهـىٰ ومَـداهـا
وَغَبَّـرَ فـي وَجْـهِ الأَوائِـلِ سَبْقُـهُ   فَفـاتَ مَـدىٰ غـايـاتِها وشَـآهـا
وجـاءَتْـهُ أَسْـرابُ النُّجـومِ حـواسِـراً   بِكَـفٍّ الثُّـرَيَّـا تَسْتَعيـرُ حُـلاهـا
فَـأَبْهَجَهـا حتَّـىٰ أَضـاءَتْ بِجَـوِّهـا   وَأَلْحَفَهـا إِشْـراقَهـا وسَنـاهـا
أَتـانـي مِثـالٌ مِنْـكَ مِثْـلُ خَـريـدَةٍ   تَضَوَّعَ في صُبْحِ الوِصالِ شَذاها[1]
وَأَلْطَفُ من نَفْسٍ بَراها الهَوىٰ وَقَد   غَـدَتْ تَتَشَكَّـىٰ لِلحَبيـبِ عَنـاهـا
وَأَلْعَبُ بِـالأَلْبـابِ مِن بِنْـتِ كَـرْمَـةٍ   يَحُثُّـكَ مَحْبـوبٌ لِحَسْـوِ طِـلاهـا
تُطيـلُ إِليـهِ الـزَّاهِـراتُ تَـأَمُّـلاً   وتَعْجَـبُ مـن أَلْفـاظِـهِ وبِنـاهـا[2]
فَـواأَسَفـاً إِذْ لـم أَحُـلَّ بِجِلَّـقٍ   وأَقْـضِ بَقـايـا مُـدَّتـي بِحِمـاهـا
أُشـاهِـدُهـا فـي دَوْلَـةٍ مُحْيَـوِيَّـةٍ   سَقـاهـا الحَيـا وَسْمِيُّـهُ ورَعـاهـا
لَئِـنْ كـانَـتِ الآدابُ أُخْمِـلَ قَـدْرُهـا   فَقَـدْ عـادَ مَـن كـانَـتْ بِـهِ تَتَبـاهـىٰ
وإِنْ كانَ قِدْماً قد عَراها كَسادُها   فَهـا هـيَ قـد شَـدَّ الـزَّمـانُ عُـراهـا
وَيُعْمِـلُ في داجي المُهِمَّـاتِ فِكْـرَهُ   فَيُطْلِـعُ فيهـا شَمْسَهـا وضُحـاهـا
أَنـامَ بِهـا عَيْـنَ الأَنـامِ فَـرَدَّهـا   مُـوَسَّنَـةً مـن بَعْـدِ فَقْـدِ كَـراهـا[3]
إِذا رَأْيُـهُ أَغْنـاكَ عـن نَشْـرِ رايَـةٍ   لأَيَّـةِ حـالٍ تَسْتَطيـلُ قَنـاهـا

---

(١) في م : . . . . . شبه خريدةٍ × .
(٢) في م : × . . . . ونَباها .
(٣) في م : . . . عين الزَّمان . . × مؤنسة . . . .

فَيا فَوْزَ عَصْرٍ أَنْتُمُ ذُخْرُ أَهْلِهِ وبُشْري لَيالينا بِكُمْ وهَناها

يُقَبِّلُ الأَرْضَ لا زالَتْ مَرْكَزاً لِدائِرَةِ التَّهاني ، وقُطْباً لِفَلَكٍ تَرِدُ المَسَرَّةُ في مَجَرَّتِهِ على الدَّقائِقِ والثَّواني ، ومَعْقِلاً يَعْتَصِمُ بِهِ وَسائِلُ الآمالِ وعَقائِلُ الأَماني ، وحَرَماً تُحَثُّ إِليهِ نَجائِبُ البَشائرِ فَلا يَكُونُ لَهُ عَنْها تَواري ولا لَها عَنْهُ تَواني : [من الوافر]

إِلى أَن يَجْتَنِيَ منها قُطوفَ الْـ ـمَسَرَّةِ وهِيَ طَيِّبَةُ المَجاني
ويُبْدِعُ في عُلاها كُلَّ مَعنىً فَنَظْفَرُ بِالمعالي والمَعاني

تَقبيلَ مَن أُجِيبَتْ دَعَواتُهُ ، وشُغِلَتْ بِذلكَ لَهَواتُهُ ، ومُلِئَتْ بِما يُمْلِيهِ مِنْها خَلَواتُهُ ، وَيَسْتَمِرُّ على وَلائِهِ الذي لم يَحْتَجْ - إِذْ يُحْتَجُّ بِهِ - [٣٤ ب] إِلى دَليلٍ ، ولم يَجِدْ - إِذْ يَجِدُّ - في سُلوكِهِ مَشَقَّةَ سَبيلٍ ، ويَصِفُ ما يَجِدُهُ من شَوْقٍ شُقَّتْ لَهُ بالجَوىٰ جَوانِحُهُ ، وَمَلأَتِ الفُؤادَ فَوادِحُهُ ، وأَذابَتِ القُوىٰ قَوادِحُهُ .

ويُنْهي ما عِنْدَهُ من هذا الهَناءِ الذي عَمَّتِ الوُجودَ بَشائِرُهُ ، وَحَقَّقَ اللهُ بِهِ ظَنَّ كُلِّ مُؤَمِّلٍ فَما خانَتْ ضَمائِرُهُ ، وَوَجَدَتِ القُلوبُ لأَخْبارِهِ ما يَجِدُهُ المَشُوقُ إِذا تَرَنَّمَ فَوقَ الأَيْكِ طائِرُهُ ، فالآنَ أَعْطىٰ اللهُ القَوْسَ بارِيْها ، وأَنْزَلَ الدَّارَ بالطَّالِعِ السَّعيدِ بانِيْها ، وتَقَلَّدَتِ المَمالكُ عُقودَ الجَواهِرِ من بَحْرِ مُنْشيها ، فَيا لَهُ يَوماً حَلَّىٰ بِهِ الدَّهْرُ جِيْدَهُ من عَطَلِهِ ، وَظَفِرَ المُلْكُ بالرَّأْيِ البَريءِ من خَطائِهِ وخَطَلِهِ ، وعَلِمَ أَنَّ البَدْرَ في الوَهْنِ كما هو في سَحَرِهِ ، وأَنَّ الشَّمْسَ في رَأْدِ نَهارِها كما هيَ في طَفَلِهِ ؛ ولا أَقولُ إِلاَّ أَنَّ السَّيْفَ قد عادَ إِلى قِرابِهِ ، والمالَ خَرَجَتْ مِنْهُ زَكاتُهُ وعادَ إِلى نِصابِهِ ، والأَسَدَ آبَ بَعْدَما غابَ إِلى غابِهِ ، والدُّرَّ تَرَقَّىٰ إِلى التَّاجِ بعدَ أَنْ تَحَدَّرَ من سَحابِهِ ، والهِلالَ تَنَقَّلَ في مَنازِلِ السُّعودِ حتَّىٰ طَلَعَ بَدْراً في ارْتِقابِهِ ؛ فاللهُ يُمْتِعُ الأَيَّامَ والأَنامَ بهذِهِ النِّعْمَةِ الكُبرىٰ ، والمَسَرَّةِ التي أَضْحَتْ بعدَ فَتْرَةٍ وَرُسُلُها تَترىٰ ، ويُوزِعُ الأَوْلِياءَ شُكْرَ هذِهِ المانَّةِ الجَمَّةِ واليَدَ

الطُّولىٰ ، ويُعَرِّفُهُم قَدْرَ هذِهِ الكَرَّةِ ، فإِنَّ الأُخْرىٰ خَيْرٌ لهم من الأُولىٰ ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ .

● **فكتبَ هو إِليَّ الجَوابَ** : [من الطويل]

رَدَدْتَ علىٰ عَيْني لَذِيذَ كَراها ... فعاوَدَها طَيْفٌ أَطالَ نَواها
سَرىٰ في الدُّجىٰ حتَّىٰ تَجَلَّتْ نُجومُهُ ... فَواقِعَ تَطْفو فَوْقَ بَحْرِ دُجاها
وَهَبَّتْ لِمَسْراهُ نَوافِجُ رَوْضَةٍ ... تَجُرُّ عَلَيْهِ الرِّيْحُ ذَيْلَ صَباها
أَيادِيَ لو أَخْفَيْتُ حُسْنَ صَنِيْعِها ... لَنَمَّ عَلَيْها ضَوْؤُها وشَذاها
فَكَمْ مُزْنَةٍ أَخْجَلْتَ وَجْهَ سَحابِها ... بِجُودِكَ حتَّىٰ غاضَ ماءُ حَياها
وَقَرَّحْتَ بِالسَّبْقِ المُبَرِّزِ قَلْبَها ... فَضَمَّتْ على نارِ البُروقِ حَشاها

يُقَبِّلُ كذا ، مَتَّعَ اللهُ بِبَيانِ قَلَمِها المُؤازِرِ ، وحِكَمِها التي تَرْمُقُها النُّجومُ بِطَرْفٍ مُتَخازِرٍ ، وكَلِمِها التي تَبيتُ القَرائِحُ دُونَ أَبْكارِها مَشْدُودَةَ المآزِرِ .

ويُنْهي وُرُودَ مُشَرَّفِهِ بل مُشَنَّفِهِ ، فَأَطْنَبَ في نِعَمِهِ ، وَأَطْرَبَ بِنَغَمِهِ ، وَأَطْرَفَ بما تَحَلَّىٰ من صِياغَةِ قَلَمِهِ ، فاجْتَنَىٰ المَعاني من ثَمَراتِ غَرْسِهِ ، واجْتلىٰ مِنْهُ نِيْلَ مِصْرَ في عُرْسِهِ ، والْتَقَحَ بِهِ ذِهْنُهُ فَأَحْسَنَ التَّوليدَ ، والْتَمَحَ مِنْهُ عَجائِبَ بَيانٍ شَيَّبَتِ الوَليدَ ، وانْتَهىٰ إِلى عُهودِهِ الَّتي اهْتَزَّ بِها لِذِكْرِ إِلْفِهِ ، واعْتَزَّ بِها ثمَّ بَزَّ بالانْعِطافِ إِلى عِطْفِهِ ، وحَمِدَ اللهَ على هذِهِ الهَبَّةِ من رَقْدَتِها ، وَحَلَّ هذِهِ الهِبَّةِ من عُقْدَتِها ، واسْتَثْبَتَ أَنَّ صَحيفَتَهُ مَخْمورَةٌ بِلُطْفِهِ فَوَفَّاها حَدّاً من القُبَلِ ، مَسْحُورَةٌ بِبَيانِهِ فَلَمَّا تَمَثَّلَها ذَرَّتْ على أَعْطافِهِ فَتْرَةَ الكَسَلِ ، فَقَعَدَ لا يُجارِيها ولا يُباريها ، ثم أَخَذَ مِنْها وشَكَرَها بِمعانيها .

● **وكتبتُ إِليهِ قَرينَ أَغْنامٍ للضَّحايا**[(١)] : [من الطويل]

(١) البيتان في الوافي وتعريف ذوي العلا وأعيان العصر ١/ ٤٢٣ .

أَيــا سَيِّــداً أَرْجُــو دَوامَ ظِــلالِــهِ عَلَيْنا وأَنْ يُمْسي بِخَيْرٍ كَما يُضْحي
وَحَقِّـكَ مـا هَـذي ضَحـايـا بَعَثْتُهـا ولَكِنَّني سُقْتُ الأَعادي إِلى الذَّبْحِ

● فكتبَ إِليَّ الجَوابَ عن ذلك[1] : [من الطويل]

أَتَتْنـي ضَحـايـاكَ التـي قـد بَعَثْتَهـا لِتُصْبِحَ كَالأَعْداءِ في بُكْرَةِ الأَضْحىٰ
[١٣٥أ] وحَقِّكَ أَعْدانا كِلابٌ جَميعُهُمْ وحاشاكَ لا تَجْزي الكِلابُ لِمَنْ ضَحّىٰ

● وأَنْشَدَني لِنَفْسِهِ بحماة ، ونحنُ بشاطىءِ العاصي[2] : [من البسيط]

لَقَـدْ نَـزَلْنـا علـى العـاصـي بِمَنْـزِلَـةٍ زانَـتْ مَحـاسِـنَ شَطَّيْـهِ حَـدائِقُهـا
تَبْكـي نَـواعِيْـرُهُ العَبْـرىٰ بِـأَدْمُعِهـا لِكَــوْنِــهِ بَعْــدَ لُقْيــاهُ يُفــارِقُهــا

● فأَنْشَدْتُهُ أَنا أَيضاً لِنَفْسي[2] : [من الطويل]

وناعُورَةٍ في جانِبِ النَّهْرِ قد غَدَتْ تُعَبِّـرُ عـن شَـوْقِ الشَّجِـيِّ وتُعْـرِبُ
تُـرَقِّـصُ عِطْـفَ الغُصْنِ تِيْهـاً لأَنَّهـا تُغَنِّـي لَـهُ طُـولَ الـزَّمـانِ ويَشْـرَبُ

● وأَنْشَدَني هو أَيضاً لِنَفْسِهِ[3] : [من الكامل]

إِنَّــا نُقيــمُ علــى حَمــاةٍ حُجَّــةً فــي حُسْنِهــا وَلَهــا جَمــالٌ يَبْهَـتُ
ومِـن النَّـواعِيـرِ الفِصـاحِ خُصـومُنـا ولَهــا لِســانٌ نــاطِــقٌ لا يَسْكُــتُ

● فأَنْشَدْتُهُ أَنا أَيْضاً لِنَفْسي[3] : [من السريع]

نــاعُــورَةٌ أَنَّــتْ وَحَنَّــتْ فَقَــدْ شَــوَّقَــتِ الــدَّانِـيَ والقــاصــي
قَــدْ نَبَّهَتْنــي لِلْهُــدىٰ والتُّقــىٰ لَمَّـا غَـدَتْ تَبْكـي علـىٰ العـاصـي

---

(١) البيتان في الوافي وتعريف ذوي العلا وأَعيان العصر ١/ ٤٢٣ .
(٢) البيتان في النجوم الزاهرة والمنهل الصافي وأَعيان العصر .
(٣) البيتان في أَعيان العصر .

● **وأَنشدتُهُ أَيضاً لِنَفْسي ، وقد طالَ علينا المَرْكَزُ من شَمْسين[(١)] إلى حِمْصَ[(٢)]** : [من السريع]

مَحْبوبُ قَلْبي مِثْلُ بَدْرِ السَّما   أُدْنيهِ عُمْري وَهْوَ لي يُقْصي
بَيْني وبَيْنَ الصَّبْرِ في حُبِّهِ   ما بَيْنَ شَمسينَ إلى حِمْصِ

● **فأَنْشَدَني هو أَيضاً لِنَفْسِهِ[(٢)]** : [من الرجز]

لقَد تَمادَيْتَ مَدىً يا رَسْتَنُ   كَأَنَّما قُرْبُكَ ما لا يُمْكِنُ[(٣)]
لمَّا جَعَلْناكَ ضَميرَ قَصْدِنا   غَدَوْتَ مِمَّا لا تَراكَ الأَعْيُنُ

● **وكتبتُ أَنا إليهِ ، أَتقاضاهُ ما وَعَدَني بِهِ ، من قَلْعِ شَجرَةِ لَيْمونٍ مُخَتَّمٍ وتَجْهيزِها إليَّ ؛ والْتَزَمْتُ الياءَ قبلَ النُّونِ[(٤)]** : [من مخلع البسيط]

يا سَيِّداً فيهِ لي وَلاءُ   عِنْدَ جَميعِ الوَرىٰ تبَيَّنْ
للهِ لَيْمونَةٌ أَراها   لي مُونَةٌ غُصْنُها تَزَيَّنْ
كأَعْيُنِ الحاسِدينَ بَغْياً   لأَجْلِ ذا قَلْعُها تعَيَّنْ

● **فكتبَ هو إليَّ الجوابَ ، والتزمَ نُوناً قبلَ النُّونِ[(٤)]** : [من مخلع البسيط]

يا فاضِلاً ما لَهُ عَديلُ   لأَنَّهُ في الوَرىٰ تَفَنَّنْ[(٥)]
وَكُلُّ شَيْءٍ عاناهُ فِينا   علىٰ طَريقِ الهُدىٰ تَقَنَّنْ
أَمْرُكَ حُكْمٌ في كُلِّ عَقْلٍ   ما عاقَ إلاَّ مَن قد تَجَنَّنْ

---

(١) شَمسين : قرية تقع إلى الجنوب من مدينة حمص ، على طريق دمشق ؛ لا تزال معروفة بهذا الاسم .
(٢) البيتان في أَعيان العصر .
(٣) الرستن : بلدة بين حمص وحماة .
(٤) الأَبيات في أَعيان العصر .
(٥) في س : × . . في الورى تَعَيَّنْ .

١٧ * أَحمد بن يوسف بن هِلال بن أَبي البَركات[١] :

الحكيم الفاضلُ ، شِهابُ الدِّين ، الطَّبيبُ الصَّفَديُّ .

أَحدُ أَطِبَّاءِ السُّلطانِ المَلِكِ النّاصر محمَّد بن الملِك المنصور قَلاوون ، بالقاهرة المحروسَةِ .

● **وقفَ بالقاهرَةِ علىٰ شيءٍ كتبتُه من نَظْمي باللاَّزَوَرْدِ والذَّهَبِ ، وَزَمَّكْتُهُ[٢] ، فكتبَ إِليَّ في سنة ٧٢٧[٣]** : [من الكامل]

ومُـزَمِّـكٍ بـالـلاَّزَوَرْدِ كِتـابَـةً ... ذَهَبـاً فَقُلْـتُ وقـد أَتَـتْ بِـوِفـاقِ[٤]
أَأَخَـذْتَ أَجْـزاءَ السَّمـاءِ حَلَلْتَهـا ... أَم قـد أَذَبْـتَ الشَّمْـسَ فـي الأَوْراقِ
أَكَتَبْـتَ بـالـوَجْنـاتِ حُمْـرَتَهـا كَمـا ... مُخْضَـرَّهـا بِمَـرائِـرِ العُشَّـاقِ
هَبْـكَ النُّجـومَ عَلَـوْتَ ثـمَّ سَبَكْتَهـا ... أَنَّـىٰ أَطـاعَـكَ رَوْنَـقُ الأَحْـداقِ[٥]

● **وكتبَ هو إِليَّ أَيضاً[٣]** : [من الطويل]

مَعانيكَ والأَلْفاظُ قد سَحَرَا الوَرىٰ ... لِكُلٍّ مـن الأَلْبـابِ قـد أَعْطيـا حَظَّـا
فَهَبْـكَ سَبَكْـتَ التِّبْـرَ مَعْنـىً وَصُغْتَـهُ ... فَكَيْـفَ أَذَبْـتَ الـدُّرَّ صَيَّـرْتَـهُ لَفْظـا

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ١/ ٤٣٥ والوافي بالوفيات ٨/ ٢٩٥ ووفيات ابن رافع ١/ ٦١ والدّرر الكامنة ١/ ٣٤١ والنجوم الزّاهرة ٩/ ٣١٧ والمنهل الصافي ٢/ ٢٧٩ والدليل الشافي ١/ ٩٩ .
ـ مولده سنة ٦٦١ هـ . ووفاته سنة ٧٣٨ هـ .

(٢) التَّزميك : التَّزويق والتَّذهيب .

(٣) الأَبيات في أَعيان العصر والوافي .

(٤) قبل البيت زيادة في ط :
فُقْـتُ الأَنـامَ سيـادةً وزيـادةً ... وعلـوتَ [بيـاض]
أَعطـى الـذي قَسَـمَ الفضائـلَ فـي الـورى ... للنّـاسِ قيـراطـاً وأَنـت البـاقـي

(٥) هذا البيت من م فقط . وفي هامشه : هذا مفقود في نسخة الأَصل .
وروايته في ط والوافي : ورَقَمْتَها ببياضِها وسوادِها × . . . .

● **فكتبتُ أنا إليه**[1] : [من الطويل]

وَحَقِّكَ لـم أَكْتُبْ بِتِبْرٍ كَمـا تَـرىٰ ... سُطوراً غَدا في وَضْعِها مُنْيَةُ النَّفْسِ
ولكنَّمـا هَـذي أَشِعَّـةُ وَجْهِـكَ الْـ ... ـكَريمِ غَدَتْ تُلْقىٰ على صَفْحَةِ الطِّرْسِ

١٨ * إسماعيل بن محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن أَحمد بن خالد ابن نَصْر[2] :

القاضي عِمادُ الدِّين بن القاضي شَرَفِ الدِّيْنِ [٣٥ب] بن الصّاحب فَتْح الدِّين، ابن القَيْسَرانيّ، المَخْزوميّ، الخالِديّ؛ كاتبُ السِّرِّ الشَّريفِ بحلبَ المحروسَة، ومُوَقِّع الدَّسْتِ الشَّريف بالشَّامِ المحرُوسِ .

● **كتبَ هو إليَّ من دمشقَ المحروسة، وأنا بالقاهرة سنة ٧٣٢**[3] : [من الطويل]

إِلَيْكَ صَلاحَ الدِّينِ شَوْقُ امْرِىءٍ غَدا ... وقد صَحَّ دُونَ الجِسْمِ فِيكَ وِدادُهُ
تَرَحَّلْتَ عن مَغْنىٰ دِمَشْقَ فَشَوْقُنا ... إِليكَ طَوالَ الدَّهْرِ تَجْرِي جِيادُهُ[4]
إذا كُنْتَ في أَرْضٍ يَحُلُّ صَلاحُها ... وإِنْ كُنْـتَ فـي مَغْنـىً يَـزولُ فَسـادُهُ

● **فكتبتُ أنا الجَوابَ إِليهِ**[3] : [من الطويل]

أَتـانـي مِثـالٌ منـكَ يُفْـدى سَـوادُهُ ... بِعَيْنِـيَ بَـلْ يَغْلُـو عَلَيْهـا مِـدادُهُ
أَمِنْـتُ بِـهِ دَهْـري وَصُلْـتُ بِـوَصْلِـهِ ... على الخَطْبِ حتَّىٰ خافَ مِنِّي عِنادُهُ
وَصَرَّفْتُ في صِرْفِ الزَّمانِ أَنامِلي ... إِلى أَنْ غَدا في حُكْمِ أَمْرِي قِيادُهُ

---

(١) البيتان في أَعيان العصر .
(٢) ترجمته في : أَعيان العصر ١/٥١٦ والوافي بالوفيات ٩/٢١٧ وذيول العبر ١٩٣ والبداية والنهاية ١٨/ ٣٩٠ والمقفى الكبير ٢/ ٦٩ وتذكرة النبيه ٢/ ٧٣٢ والدّرر الكامنة ١/ ٣٧٨ والنجوم الزاهرة ٩/ ٣١١ والمنهل الصافي ٢/ ٤٢٣ والدليل الشافي ١/ ١٢٩ وشذرات الذهب ٨/ ١٩٨ .
ـ وفاته سنة ٧٣٦ هـ .
(٣) الأَبيات في أَعيان العصر .
(٤) في ب : × . . . يجري جوادُه .

وَأَطْفَأَ جَمْراً في الجَوانِحِ كُلَّما تَذَكَّرَكُمْ قَلْبي يَزيدُ اتِّقادُهُ
ولَو لَمْ يَرِدْ هذا المِثالُ لَما بَقِي مِن الخاطِرِ المُشْتاقِ إلاَّ رَمادُهُ
لَقَدْ أَصْبَحَ المَملوكُ عَبْداً مُكاتَباً وتَمَّ لَهُ مِمَّا يُريدُ مُرادُهُ
فَلا غَرْوَ أَنْ يَبْني على الأُفْقِ مَجْدَهُ لأَنَّكَ مِن دُونِ الأَنامِ عِمادُهُ
وإنَّ صَلاحاً نالَ عَطْفَكَ في الوَرىٰ عَلَيْهِ بَعيدٌ أَنْ يَراهُ فَسادُهُ
أَيا مَنْ لَهُ سَبْقُ المَعالي إذا جَرَتْ لِنَيْلِ العُلا يَوْمَ الفَخارِ جِيادُهُ
ومَن يَتَحَلَّىٰ الدَّهْرُ مِنْهُ بِماجِدٍ تَكَمَّلَ فِيهِ حِلْمُهُ وسَدادُهُ[1]
ومَن لاقَ مِن عَيْنِ الكَمالِ انْتِقاؤُهُ وصَحَّ على زَيْفِ الأَنامِ انتِقادُهُ
ومَنْ فَرَّعَتْهُ دَوْلَةٌ خالِدِيَّةٌ فَطارِفُهُ مَجْدٌ عَلا وتِلادُهُ[2]
لِيَهْنِىءْ بَني مَخْزومَ فَخْرٌ غَدا إلىٰ عِمادِهِمُ دونَ الأَنامِ مَعادُهُ
وفاحَتْ خُزامىٰ مَجْدِ مَخْزومَ في الوَرىٰ فَطالَتْ رَوابِيهِ وطابَتْ وِهادُهُ
ولَمْ لا وَسَيْفُ اللهِ خالِدُ مِنْهُمُ على عاتِقِ المُلْكِ الأَغَرِّ نِجادُهُ
فَكَمْ طالَ مِنْهُ لِلْعِدىٰ صَدْرُ أَبْتَرٍ وما قَصَّرَتْ في الدَّارِعِينَ صِعادُهُ
بَقِيتَ عِمادَ الدِّينِ ذُخْرَ امْرِىءٍ صَفَتْ لِبَيْتِكُمُ نِيَّاتُهُ واعْتِقادُهُ
وَأَخْلَصَ فيكُمْ حُبَّهُ وَوَلاءَهُ وَصَحَّ على طُولِ البِعادِ وِدادُهُ

١٩ * أَلْطُنْبُغا[3] :

الأَميرُ الأَجَلُّ ، علاءُ الدِّين الجاوُلي ، رحمه اللهُ تعالىٰ .

كانت بَيْني وبَيْنَهُ مُجاراةٌ ومُباراةٌ يَطْرَبُ لها الجَمادُ ، ويَهْتَزُّ لَها الفاضِلُ

---

(١) في أ ، م : × . . . . حكمه وسداده .
(٢) في ب : ومَن فَرْعُهُ من دوحةٍ خالديَّةٍ × . وفي س : ومن فَرَّعَتْهُ دوحةٌ خالديَّةٌ .
(٣) ترجمته في : أعيان العصر ١/ ٦١٠ والوافي بالوفيات ٩/ ٣٦٦ وفوات الوفيات ١/ ٢٠٥ وتذكرة النبيه ٣/ ٥٠ وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٣٧٩ والدّرر الكامنة ١/ ٤٠٧ والنجوم الزّاهرة ١٠/ ١٠٥ والمنهل الصافي ٣/ ٧١ والدليل الشافي ١/ ١٥٢ .
ـ وفاته سنة ٧٤٤ هـ .

والعِمادُ ، ولكن لم أَجِدْ منها شيئاً عند تَعليقي هذه الأَحْرف ، ولم أَقَعْ على ما لَعَلَّهُ يَسْمَحُ أَو يُطْرِفُ ، غيرَ ما أَذْكُرُهُ ها هُنا وأُسَطِّرُهُ ، وهو :

ما كَتَبَهُ إليَّ وقد وَرَدْتُ القاهرةَ سنة ٧٣٦ . وهي من مَرْذُولِ شِعْرِهِ[١] : [من الطويل]

إلَيْـكَ صَـلاحَ الـدِّيْـنِ أُهْـدي تَحِيَّـةً ... كَنَشْـرِ عَبيـرٍ فـي الجُيـوبِ إذا فُضَّـا
ومِـن عَجَبـي أَنَّ الـدِّيـارَ قَـرِيْبَـةٌ ... وما فُزْتُ مِنْكُمْ بالوِدادِ الذي أَرْضىٰ
فَمِنْ بُعْدِكُمْ قَلْبي تَأَلَّفَ بالأَسىٰ ... ومِنْ بَعْدِكُمْ لم أَدْرِ نوماً ولا غَمْضا
وإنِّـي علـى العَهْـدِ الـذي تَعْهَـدونَـهُ ... مُقيمٌ أَرىٰ حِفْظَ الوِدادِ لَكُمْ فَرْضا
وأَقْسَـمَ قَلْبـي لا يَقَـرُّ قَـرارُهُ ... ولا يَرْعوي حتَّىٰ يَرىٰ بَعْضُنا بَعْضا

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ إليهِ ارْتِجالاً[١] : [من الطويل]

أَيا جِيْرَةً قد عَوَّدوا الحِلْمَ والإغْضا ... وَحُبُّهُـمُ قـد مـازَجَ الـرُّوْحَ والأَعْضـا
وَحَقِّكُـمُ مـا أَهْمَـلَ العَبْـدُ خِـدْمَـةً ... لَكُـمْ وَجَبَـتْ لَكِنَّهـا بَعْـدَ ذا تُقْضـىٰ
أَأَنْسـىٰ جَميـلاً مِنْكُـمُ قَـد أَلِفْتُـهُ ... وحُسْـنَ وِدادٍ يُشْبِـهُ الـزَّهَـرَ الغَضَّـا
ولُطْفاً يُحاكي نَسْمَةَ الرَّوْضِ سِحْرُهُ ... فإنَّ لها في العاشِقِ البَسْطَ والقَبْضا
وأَيَّـامَ لَهْـوٍ قـد تَقَضَّـتْ بِقُـرْبِكُـمْ ... نُداوي بها مِنْ دَهْرِنا أَنْفُساً مَرضىٰ
أَلا خَفِّفُوا من عَتْبِكُمْ عن مُحِبِّكُمْ ... [٣٦ أ] فَذاكَ ضَعيفٌ لا يُطيقُ بهِ نَهْضا
فَـلا بُـدَّ أَن يَـأْتـي ويَـذْكُـرَ عُـذْرَهُ ... فَـإنْ تَقْبَلُـوهُ رَحْمَـةً قَبِّـلَ الأَرْضـا

● وأَنشدَني يوماً لنفسهِ[٢] : [من البسيط]

انْهَـلَّ أَدْمُعُهـا دُرَّاً وفـي فَمِهـا ... دُرٌّ وبَيْنَهمـا فَـرْقٌ وتِمْثـالُ[٣]

---

(١) الأَبيات في أَعيان العصر .
(٢) هما في : أَعيان العصر والوافي والفوات وتذكرة النبيه والدّرر الكامنة والنجوم الزاهرة والمنهل .
(٣) روايته في م : انهلَّ مَدْمَعُها دُرّاً ومَبْسَمُها× دُرّاً . . .

لأَنَّ ذا جـامِـدٌ فـي الثَّغْـرِ مُنْتَظَـمٌ   وَذاكَ مُنْتَشَـرٌ فـي الخَـدِّ سَيَّـالُ

● **فأَنشدتُه أنا لنفسي**[1] : [من السريع]

غـانِيَـةٌ فـي فَمِهـا جَـوْهَـرٌ   بِمِثْلِـهِ تَبْكـي هَـوىً هـائِـلا
فَـراحَ ذا فـي نَظْمِـهِ واقِفـاً   ولاحَ ذا مَـعْ نَثْـرِهِ سـائِـلا

● **وأَنشدَني لنَفسه أَيضاً**[2] : [من الوافر]

وَسُـودٍ صَيَّـرَتْهـا السُّـودُ بِيْضـا   فـلا تَطْلُـبْ مِـنَ الأَيَّـامِ بِيْضـا
فَبَعْـدَ السُّـودِ تَـرْجـو البِيْـضَ ظُلْمـاً   وقـد سَلَّـتْ عَلَيْهـا السُّـودُ بِيْضـا

● **فأَنشدتُهُ أَنا لنفسي**[2] : [من الطويل]

عَجِبْتُ لِـدَهْـرٍ سَـرَّنـي زَمَـنَ الصِّبا   وَكَـدَّرَ عَيْشـي بـالمَشِيْـبِ انْتِقـاضُـهُ
فَبَيَّـضَ عُمْـري مـن شَبـابـي سَـوادُهُ   وسَـوَّدَ دَهْـري مـن مَشِيْبـي بَيـاضُـهُ

● **وكتبتُ أَنا إِليهِ من صَفَد المحروسَة في سنة ٧١٨ أَتَشَوَّقُ إِليهِ وهو بدمشقَ المحروسَة ، من جُملةِ قَصيدةٍ**[3] : [من البسيط]

بـاللهِ يـا بـارِقـاً مـن قـاسِيُـونَ بَـدَتْ   أَعْـلامُـهُ خـافِقـاتٍ فـي دَيـاجِيْـهِ
قِفْ لي بِتِلْكَ الرُّبا إِن شِئْتَ تُسْعِفُني   وانْشُدْ فُؤادَ شَجٍ قَد عَزَّ فادِيْهِ[4]
ونَبِّـهِ الـوُرْقَ والظَّلْمـاءُ عـاكِفَـةٌ   لَيْـلاً لِتَحْكـي نُـواحـي فـي نَـواحِيْـهِ
وَخُذْ أَحاديثَ ما تَرْويهِ مِن خَبَرٍ   وحاكِ جِسْمي ضَنىً إِنْ كُنْتَ تَحْكيه
وَقُلْ قَضىٰ نَحبَهُ العاني أَسىً وجَوىً   وما قَضىٰ ما تَرَجَّىٰ من أَمانِيْهِ[5]

---

(١) هما في : أَعيان العصر والوافي والفوات وتذكرة النبيه والدّرر الكامنة والنجوم الزاهرة والمنهل .
(٢) هما في : الوافي وأَعيان العصر .
(٣) الأَبيات في أَعيان العصر .
(٤) في ب : × وأَنشد فؤاد شجيٍّ عزَّ فاديه .
(٥) في ب ، م : × وما قضى ما يُرجِّي . . .

كَـأَنَّمـا كـانَ عَيْـشٌ مَـرَّ غـانِيَـةً ... تُجْلـىٰ بِكُـمْ ولآليهـا لَيـالِيْـهِ[1]
أَحْبـابَنـا إِن تَمـادىٰ البُعْـدُ واتَّصَلَـتْ ... أَيّـامُـهُ واسْتَقَلَّـتْ فـي تَـراخِيْـهِ[2]
فَـلا تَضَنُّـوا علـىٰ المُضْنـى بِطَيْفِكُـمُ ... فَفِيـهِ لِلْـوالِـهِ المُشْتـاقِ مـا فِيْـهِ
يَكْفيـهِ إِنْ زارَهُ طَيْـفُ الخَيـالِ ولا ... يَكْفيـهِ مِنْكُـمْ بَلـىٰ واللهِ يَكْفِيْـهِ
فَـالصَّـبُّ إِنْ عـاقَـتِ الأَيّـامُ مَطْلَبَـهُ ... يَرْضىٰ بِدُونِ المُنىٰ أَو ما يُدانِيْهِ[3]

* * *

حَرْفُ الباءِ

٢٠ * أَبو بَكر بن محمَّد بن محمود بن سَلمان بن فَهْد[4] :

القاضي البَليغُ الرَّئيس ، شَرَفُ الدِّين ، كاتِبُ السِّرِّ الشَّريفِ بالقاهرة وبالشَّامِ ، ابن القاضي شَمْسِ الدِّين كاتِبِ السِّرِّ الشَّريفِ بالشَّامِ المحروسِ ، ابن العلاَّمَةِ الشَّيْخِ شِهاب الدِّين كاتِبِ السِّرِّ الشَّريف بالشَّامِ المَحروسِ .

● **كتبَ هو إليَّ من الشَّام المحروسِ ، وأَنا بالدِّيارِ المِصْرِيَّةِ المحروسَةِ ، يَطلبُ منِّي الحُضُورَ إلى الشَّامِ لِيُجَهِّزَني إلى الرَّحْبَةِ مُوَقَّعاً[5]** : [من الكامل]

---

(١) كذا في أ ، ب . وفي أَعيان العصر : كأَنما مرَّ عيشٌ كان غانيةً× تُجلىٰ . . . .
(٢) في ب : × . . . . في مراخيه .
(٣) بعد ذلك في س : فكتبَ هو الجوابَ إليَّ عن ذلك . قلت : وليس ثمة جواب .
(٤) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/ ١٢ والوافي بالوفيات ١٠/ ٢٥٩ وذيول العبر ٢٣٨ ووفيات ابن رافع ١/ ١٨٨ وتذكرة النبيه ٣/ ٥٦ وتعريف ذوي العلا ٢٧ وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٣٦٩ والدّرر الكامنة ١/ ٤٦٤ والنجوم الزّاهرة ١٠/ ١٠٦ والدليل الشافي ٢/ ٨٢٢ .
ـ مولده سنة ٦٩٣ هـ . ووفاته سنة ٧٤٤ هـ .
(٥) الأَبيات في أَعيان العصر .

يا فاضِلاً فَخَرَ الوَرىٰ بِخِلالِهِ وعَلا علىٰ أُفْقِ العُلا بِجَلالِهِ
شَرِّفْ دِمَشْقَ إِنْ ارْتَضَيْتَ بِزَوْرَةٍ واشْفِ الجَوىٰ مِنْ كُلِّ قُلْبٍ والِهِ
فَقُلُوبُنا من شَوْقِها جَمَراتُها لم يُطْفِها بالدَّمْعِ فَيْضُ سِجالِهِ
فَلَقَدْ مَلأْتَ دِيارَ مِصْرَ فَضائِلاً كَم فاضَ مِنْها النَّيْلُ عِنْدَ نَوالِهِ
فاجْعَلْ لَنا مِن تِبْرِ فَضْلِكَ فَضْلَةً يَغْنىٰ بِها المَضْرورُ عِنْدَ سُؤالِهِ[1]
إِنَّ الكريمَ هوَ الجَوادُ علىٰ الذي قد راحَ يَسْأَلُ مالَهُ في مالِهِ

● **فكتبتُ أنا الجوابَ إليه**[2] : [من الكامل]

قُمْ في الدُّجىٰ حتَّىٰ الصَّباحِ وَوالِهِ بِدُعاً يَقُومُ بِبَعْضِ حَقِّ نَوالِهِ
وأَمِلْ بِما تُمْليهِ أَعْطافَ الوَرىٰ واحْمَدْ أَبا بَكْرٍ علىٰ إِفْضالِهِ
واسْجَعْ فإِنَّكَ ما بَرِحْتَ مُطَوَّقاً إِمَّا بِضافي جاهِهِ أَوْ مالِهِ
مَوْلىً غَفِلْتَ وَنِمْتَ عن نَيْلِ المُنىٰ فَأَبىٰ وَصَيَّرَها شَواغِلَ بالِهِ
[٣٦ ب] واسْتاقَها غُرّاً إِلَيْكَ وَأَنْتَ لَمْ تَحْتَجْ إِلىٰ تَحْريكِهِ بِسُؤالِهِ
والبِرُّ أَفْضَلُ ما أَتىٰ عَفْواً وَلَمْ تَقْبِضْ يَدُ الرَّاجي حِبالَ مَنالِهِ
هذا هُوَ الفَضْلُ الذي فَضَحَ الحَيا وسَما بِجَدْواهُ على هَطَّالِهِ
تَلْهو بَنو الآمالِ عن مَطْلوبِها عِلْماً بِأَنَّ لَهُمْ كَريمُ خِلالِهِ
كَرَمٌ يَفيضُ على العُفاةِ سَحابُهُ وَيَسِحُّ وابِلُهُ علىٰ اسْتِرْسالِهِ
للهِ سَعْيُكَ في المَعالي إِنَّهُ جَعَلَ الثُّرَيّا في عِدادِ نِعالِهِ
وغَدا يَجُرُّ على المَجَرَّةِ ساحِباً يَوْمَ الفَخارِ الفَضْلَ من أَذْيالِهِ
وسَعىٰ فَأَدْرَكَ غايَةً مَن أَمَّها قامَتْ دَراريها مَقامَ ذُبالِهِ

---

(١) سقط البيت من ب .
(٢) القصيدة في أعيان العصر .

ما عاقَ نائِلَهُ عن العافي مَدىٰ ... وَعْدٍ ولا شانَ العَطا بمطالِهِ
يا آلَ محمودٍ لِيَهْنَأْ مَجْدُكُمْ ... شَرَفٌ أَنافَ على الوَرىٰ بِجَلالِهِ
أَقْسَمْتُ ما لِشَبا السُّيوفِ إِذا مَضَتْ ... في يَوْمِ مَعْرَكَةٍ جِلادُ جِدالِهِ
كلاَّ ، ولَمْ نَرَ قَطُّ بَحْراً مَدَّ مِن ... أَمْواهِهِ ما بَثَّ مِن أَمْوالِهِ
خَطٌّ أَظُنُّ الرَّوْضَ جَوَّدَ عِنْدَما ... شُقَّتْ كِمامُ الزَّهْرِ تَحْتَ مِثالِهِ
وَتَلَفُّظٌ إِنْ قُلْتَ سِحْرٌ لَمْ يَسْعْـ ... ـني أَنْ يَكونَ حَرامُ ذا كَحَلالِهِ
وخَلائِقٌ كالرَّوْضِ أَهْدىٰ نَشْرَهُ ... مَرُّ النَّسيمِ على ذَوائِبِ ضالِهِ
وسِياسَةٌ طاشَ العَدُوُّ لَها وَقَدْ ... سَكَنَ الوَلِيُّ وَقَرَّ مِنْ زِلْزالِهِ
فاللهُ يَحْرُسُ لِلزَّمانِ بَقاءَهُ ... ويُمَتِّعُ الدُّنْيا بِفَضْلِ كَمالِهِ

● **وكتبَ هو إليَّ ونحنُ على الأَهرامِ صُحْبَةَ الرِّكابِ الشَّريفِ ، مُلْغِزاً في « القُرْطِ »**(١) : [من مجزوء الرجز]

ما اسْمٌ ثُلاثِيٌّ تُرىٰ ... حُلَّتُهُ مُفَوَّفَهْ
اعْمَدْ إِلىٰ تَرْكِيبِهِ ... فِيهِ وَصَحِّفْ أَحْرُفَهْ
تَجِدْ جَنىً يُبْطِىءُ في الـ ... ـعَوْدِ بِهِ مَنْ قَطَفَهْ(٢)
واعْكِسْهُ إِنْ تَرَكْتَهُ ... مِنْ بَعْدِ أَنْ تُحَرِّفَهْ(٣)
تَرىٰ بِهِ ذا طُرُقٍ ... بَيْنَ الوَرىٰ مُخْتَلِفَهْ(٤)
أَبِنْهُ يا مَنْ فَضْلُهُ ... يُعْجِزُ مَن قَدْ وَصَفَهْ

---

(١) الأبيات في الوافي وأعيان العصر .

(٢) يريد : قَرَظ . والقارظان : يذكر بن عَنزة وعامر بن رُهم ، وكلاهما من عَنَزَة ، خرجا في طلب القَرَظ ، فلم يرجعا .
فقيل في المثل : لا آتيك أو يؤوبَ القارظ . وحتى يؤوب القارظ العَنَزيّ . (القاموس « قرظ ») .

(٣) عكسه : طرق . وتحريفه : طرف .

(٤) في ب : ترى به من طرق × .

● فكتبتُ أَنا الجوابَ إِليهِ عن ذلك(١) : [من مجزوء الرجز]

يـــا سَيِّــــداً قَـــدْ زانَـــهُ   رَبُّ العُـــلا وشَـــرَّفَـــهْ
وَقَـــدَّرَ الصَّـــوابَ فـــي   أَقْـــلامِـــهِ المُحَـــرَّفَـــهْ
وَأَوْضَـــحَ الفَضْـــلَ لِمَـــنْ   يَطْلُبُـــهُ وعَـــرَّفَـــهْ
أَبْـــدَعْـــتَ لُغْـــزاً حَسَنـــاً   صِفـــاتُـــهُ مُسْتَظْـــرَفَـــهْ
مُثَلَّـــثُ الحُـــروفِ كَـــمْ   رَبَّـــعَ رَبَّ مَعْـــرِفَـــهْ
خُضْـــرَتُـــهُ يـــانِعَـــةٌ   بِهَيْئَـــةٍ مُشَـــرَّفَـــهْ
كـــم زانَ أَرْضـــاً أَقْفَـــرَتْ   وَوَجْنَـــةً مُـــزَخْـــرَفَـــهْ
فـــالثُّلْـــثُ مِنْـــهُ سُـــورَةٌ   آيـــاتُهـــا مُشَـــرَّفَـــهُ(٢)
بَـــلْ جَبَـــلٌ أَحـــاطَ بـــالْـ   أَرْضِ وذاكَ مَعْـــرِفَـــهْ(٣)
وانْظُـــرْ لِثُلْثَيْـــهِ تَجِـــدْ   كِلَيْهِمـــا فـــي طَـــرَفَـــهْ(٤)
بَقِيْـــتَ مـــا جَـــرَّ النَّسِيْـ   ـــمُ فـــي الـــرِّيـــاضِ مُطْـــرَفَـــهْ
فـــي ظِـــلِّ سَعْـــدٍ تَـــرْتَقـــي   مِـــنَ النَّعيـــمِ غُـــرَفَـــهْ

● وكتبَ هو أَيضاً إِليَّ مُلْغِزاً في « حَلْفا »(٥) : [من السريع]

يـــا مـــاجِـــداً نَجْهَـــدُ فـــي وَصْفِـــهِ   وَفَضْلُـــهُ مِـــنْ بَعْـــدِ ذا أَوْفـــىٰ
مـــا اسْـــمٌ إِذا مـــا رُمْـــتَ إِيْضـــاحَـــهُ   عَـــزَّ وعَـــن فِكْـــرِكَ لا يَخْفـــىٰ
وَهْـــوَ رُبـــاعِـــيٌّ وفـــي لَفْظِـــهِ   تَـــراهُ حَقّـــاً نـــاقِصـــاً حَـــرْفـــا

---

(١) القصيدة في الوافي وأَعيان العصر .
(٢) سورة قٓ .
(٣) جبل قاف ، بزعمهم .
(٤) يريد : طر .
(٥) القصيدة في الوافي وأَعيان العصر .

صَحِّفْـهُ واحْـذِفْ رُبْعَـهُ تُلْفِـهِ مَـدينَـةً كـم قـد حَـوَتْ لُطْفـا[1]
وَهَـذِهِ البَلْـدَةُ تَصْحِيفُهـا خَلْـقٌ يَفـوتُ الحَـدَّ والـوَصْفـا[2]
وإنْ تُصَحِّـفْ بَعْضَهـا فَهْـيَ مـا زالَـتْ تُـرىٰ فـي أُذُنٍ شَنْفـا[3]
وذَلِـكَ الاسْـمُ علـى حـالِـهِ حَـرْفُـهُ يَـرْجِـعْ لِلصِّبـا « حِلْفـا »
لـم يُـرَ ذا حَـرْبٍ وَكَـمْ شَـبَّ مِـن نـارِ لِغَيْـرِ الـرَّوْعِ مـا تُطْفـا[4]
وإنْ تَشَـأْ صَحِّفْـهُ وانْظُـرْ تَجِـدْ « خَلْقـاً » سَـوِيّـاً قَـطُّ مـا أَغْفـىٰ
أَبِنْـهُ يـا مَـنْ لـم يَـزَلْ فِكْـرُهُ يَـرْفَـعُ عـن بِكْـرِ النُّهـىٰ سِجْفـا
لا زِلْـتَ تُبْـدِي لِلْـوَرَىٰ كُـلَّ مـا يَسْتَـوْقِـفُ الأَسْمـاعَ والطَّـرْفـا

● **فكتبتُ أنا الجوابَ عن ذلك[5] :** [من السريع]

يـا سَيِّـداً أَلْسُـنُ أَقْـلامِـهِ كَـمْ صَـرَّفَـتْ عـن عَبْـدِهِ صَـرْفـا
ومُحْسِنـاً مـا زالَ طِيْـبُ الثَّنـا عَلَيْـهِ حتَّـىٰ زَيَّـنَ الصُّحْفـا
أَلْغَـزْتَ شَيْئـاً لـم يَلِـنْ مَسُّـهُ فَـراحَ إِنْ صَحَّفْتَـهُ جِلْفـا
ومُفْـرَدٌ إِنْ أَلِـفٌ عُـوِّضَـتْ أُولاهُ يَـرْجِـعْ بعـدَ ذا « أَلْفـا »
ونِصْفُـهُ « حَـلَّ » وإِنْ تَحْـذِفِ الْـ أَوَّلَ مِـنْ أَحْـرُفِـهِ « لَفّـا »
وليـسَ بـالبَـدْرِ علـىٰ أَنَّـهُ بـاللَّيْـلِ كَـمْ قَـدْ نَـزَلَ الطَّـرْفـا[6]
أَمَّـا هُنـا فـي بَـرِّ مِصْـرَ وإِنْ صَحَّفْـتَ يُصْبِـحْ بَعْـدَ ذا خَلْفـا
إِن زاحَـمَ الشَّـاعِـرَ يُـذْكَـرْ بِـهِ كَشـاجِمـاً فـي الحـالِ والـزَّفّـا

---

(١) يريد : جلّق .
(٢) خلق ، تصحيف جِلّق .
(٣) حَلَق .
(٤) نار الحلفا : يُضربُ بها المثل في سرعة الإيقاد . (ثمار القلوب ٢/ ٨٣١) .
(٥) القصيدة في الوافي وأعيان العصر .
(٦) في ب : . . . ولو أنّه × .

لا زِلْتَ تَرْقَىٰ في العُلا صاعِداً ... مـا نَظَـمَ الشَّـاعِـرُ أَو قَفَّـىٰ
فـي ظِـلِّ عَيْـشٍ قـد صَفـا وِرْدُهُ ... وراحَ بـالإِقْبـالِ قَـد حُفَّـا

[٣٧ أ] ● وكتبَ هو إليَّ مُلْغِزاً في « الهواء »(١) : [من المتقارب]

أَيـا مـاجِـداً مـا وَهـىٰ فَضْلُـهُ ... ونَجْـمُ مَكـارِمِـهِ مـا هَـوىٰ
أَبِـنْ أَيُّمـا اسْـمٍ خَفَـىٰ مَنْظَـراً ... وَخَـفَّ ويُلْفـىٰ شَـديـدَ القُـوىٰ
ولا وَزْنَ فِيْـهِ وفـي وَزْنِـهِ ... إِذا أَنْـتَ حَقَّقْـتَ عَمْـداً سَـوىٰ

● فكتبتُ أَنا الجوابَ عن ذلك(١) : [من المتقارب]

أَيـا مَـنْ تُقَصِّـرُ أَمْـداحُنـا ... وأَوْصـافُنـا فِيـهِ عَمَّـا حَـوىٰ
كَـأَنَّـكَ أَلْغَـزْتَ لـي فـي الـذي ... غَـدا ولَـهُ النَّشْـرُ فيمـا انْطَـوى
إِذا مَـرَّ فـي الـرَّوْضِ خَـرَّتْ لَـهُ ... غُصُـونُ الأَراكِ وبـانُ اللِّـوىٰ
يُمَـدُّ ويُقْصَـرُ فـي لَفْظِـهِ ... فَلِلْجَـوِّ هـذا وذا لِلْجَـوىٰ

● وكتبتُ أَنا إِليهِ من صَفد المحروسة في سنة ٧٣٣ ، وقد بَعَثَ إِليَّ نَقْدَةَ ذَهَبٍ(٢) : [من البسيط]

يـا نَسْمَـةً لأَحـاديـثِ الحِمىٰ نَقَلَـتْ ... أَمَلْتِ قُضْبَ اللِّوىٰ من بَعْدِ ما اعْتَدَلَتْ
خَطَـرْتِ مـا بَيْنَهـا فـاعْتـادَهـا طَـرَبٌ ... فَرَنَّحَتْ عِطْفَها بالسُّكْرِ وانْفَتَلَتْ(٣)
فـإِنْ تَكُـنْ فَهِمَـتْ مَعنىً ظَفِـرْتُ بِـهِ ... فَعُذْرُها واضِحٌ في كُلِّ ما فَعَلَتْ
قَد كانَ لِلْمِسْكِ أَنْفاسٌ تَضُوعُ شَذاً ... فَمُذْ أَتَيْتَ بِأَخْبارِ الحِمىٰ خَمِلَتْ
بِـاللهِ كَيـفَ أَحِبَّـائـي الـذيـنَ نَـأَتْ ... بِيَ المَنـازِلُ عـن أَقْمـارِهِـمْ وَخَلَـتْ

---

(١) الأبيات في الوافي وأعيان العصر .
(٢) القصيدة في أعيان العصر .
(٣) في ب : × . . . . وانفلتت .

قَدْ كُنْتُ أَبْدَيْتُ أَعْذاراً لِقَلْبيَ في الْـ ـبقَاءِ من بَعْدِهِمْ بِاللهِ هل قُبِلَتْ
وهَلْ ـ عَفا اللهُ عَنْهُمْ ـ حالَ عَهْدُهُمُ فَمُهْجَتِي ما انْثَنَتْ عَنْهُمْ ولا انْتَقَلَتْ
آهاً من البُعْدِ آهاً إنَّ لي كَبِداً تَضَرَّمَتْ بلَظىٰ الأَشْواقِ واشْتَعَلَتْ
وأَدْمُعاً إنْ جرىٰ ذِكْرُ الوِصالِ جَرَتْ شُؤُونُها فَتَخالُ السُّحْبَ قَد هَطَلَتْ
وَمُهْجَةً سَأَلَتْ لو كانَ يَنْفَعُها : بأَيِّ ذَنْبٍ علىٰ التَّحقيقِ قَد قُتِلَتْ
وعَزْمَةً عاقَها حَظٌّ بِهِ ابْتُلِيتْ لَولاهُ كانَتْ على المَطْلُوبِ قد حَصَلَتْ
أَشْكُو اللَّيالي وما لي في الوَرَى حَكَمٌ يَكُفُّ عَنِّي عَوادِيَها التي اتَّصَلَتْ
يا دَهْرُ هَلْ نَهَضَتْ مِنْكَ الجِبالُ بما نَهَضْتُ فِيكَ من البَلْوىٰ أَوِ احْتَمَلَتْ
يا دَهْرُ إن عادَتِ الأَيَّامُ تَجْمَعُنا غَفَرْتُ ما عَرَفَتْ مِنِّي وما جَهِلَتْ
وإنْ ظَفِرْتُ بلَثْمِ التُّرْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ أَرْتَجِي زالَتِ البَأْساءَ وارْتَحَلَتْ
ذاكَ الذي إنْ عَلَتْ زُهْرُ الكَواكِبِ فِي مَحَلِّها تَلْقَها عن تُرْبِهِ نَزَلَتْ
ذاكَ الذي لا أَرىٰ إلاَّ سَجِيَّتَهُ علىٰ الهُدىٰ والتُّقىٰ والبِرِّ قد جُبِلَتْ
ذاكَ الذي خُلِقَتْ لِلْجُودِ راحَتُهُ فَفاقَتِ الغَيْثَ إذْ تَهْمِي وما احْتَمَلَتْ(١)
أَقُولُ إذْ عَمَّني بالتِّبْرِ نائِلُهُ هذا إلى السُّحْبِ إنْ جادَتْ وإنْ بَخِلَتْ
مَكارِمٌ فَهِمَتْ ما أَرْتَجِي فَهَمَتْ وَهِمَّةٌ فَعَلَتْ ما لَمْ يُطِقْ فَعَلَتْ(٢)
كم نِلْتُ خَمْسَ مِئِي من بَعْدِ خَمْسِ مِئِي كَذا أُعَدِّدُها يَوْماً وما انْفَصَلَتْ
ماذا تَرىٰ في أَيادٍ ما أُقابِلُها بالشُّكْرِ إلاَّ أَراها وهيَ قد فَضَلَتْ(٣)
لولا عُلا شَرَفِ الدِّيْنِ التي بَهَرَتْ كانَتْ شُموسُ النَّدىٰ والفَضْلِ قد أَفَلَتْ
أَقْلامُهُ الحُمْرُ في صَوْنِ المَمالِكِ لو تكونُ سَطْوَتُها لِلْبِيْضِ ما نَكَلَتْ

---

(١) في س : × . . . . وما احتفلت .
(٢) في ب ، س : . . ما أشتكي فهمت × .
(٣) في ب : × بالشكر لم أرها إلاّ وقد فضلت .

تَهْتَـزُّ فـي كَفِّـهِ مـن فـوقِ مُهْـرَقِـهِ ... لأَنَّهـا مـن مَعـانـي لَفْظِـهِ ثَمِلَـتْ[1]
وكـانَ فِيمـا مَضـىٰ لِلسِّحْـرِ تـرْجَمَـةً ... حتَّىٰ تَكَلَّمَ أَضْحَتْ وهيَ قد بَطَلَتْ
عِبـارَةٌ هـيَ أَنْـدىٰ مـن نَسِيـمِ صَبـاً ... مَرَّتْ على زَهَراتِ الرَّوْضِ وانْصَقَلَتْ
وأَسْطُـرٌ إِنْ أَقُـلْ مِثْـلَ العُقُـودِ فَمـا ... أَرىٰ العُقودَ إِلى تِلْكَ العُلىٰ وَصَلَتْ
[٣٧ ب] واوَحْشَتا لِمُحَيّاهُ الذي نَقَصَتْ ... لِحُسْنِـهِ طَلْعَـةُ الأَقْمـارِ إِذْ كَمَلَـتْ
فَلَسْـتُ أَحْسُـدُ إِلاَّ مَـنْ تكـونُ لَـهُ ... عَيْنٌ بِمَرْآهُ دُوني في الوَرىٰ كُحِلَتْ
هَـلِ اللَّيـالـي تُـريـني نُـورَ طَلْعَتِـهِ ... فَـرُبَّمـا غَلِطَـتْ أَوْ رُبَّمـا عَـدَلَـتْ
يـا آلَ مَحْمـودَ لا ثُلَّـتْ عُـروشُكُـمُ ... ولا ذَوَتْ زَهْـرَةٌ مِنْكُـمْ ولا خَمَلَـتْ
ولـم تَـزَلْ مِنْكُـمُ الأَعْنـاقُ حـالِيَـةً ... فإِنَّها إِنْ خَلَتْ مِن فَضْلِكُمْ عَطَلَتْ

● **فكتبَ هو إِليَّ الجوابَ عن ذلكَ[2]** : [من البسيط]

يا فاضِلاً مِنْهُ أَقْمارُ العُلىٰ كَمُلَتْ ... وَعَنْـهُ آثـارُ أَرْبـابِ النُّهـىٰ اتَّصَلَـتْ
وَمَـن مَحـاسِنُـهُ لِلنّـاسِ قَـد بَهَـرَتْ ... ومَـن مَكـارِمُـهُ كُـلَّ الـوَرىٰ شَمَلَـتْ
للهِ دَرُّ قَـوافٍ قَـد بَعَثْـتَ بهـا ... طالَت وعَنْها نُجُومُ الأُفْقِ قد نَزَلَتْ
لَقَـد أَطـاعَتْـكَ أَنْـواعُ البَـلاغَـةِ فـي ... ما قد أَشَرْتَ من التَّرْتِيبِ وامْتَثَلَتْ
ومـا أَظُنُّـكَ إِلاَّ قَـدْ بَعَثْـتَ لَنـا ... خَميلَةً عِنْدها زُهْرُ الدُّجىٰ خَمَلَتْ
فَـاللهُ يَشْكُـرُ إِحْسـانـاً حَبَـوْتَ بِـهِ ... فَمِـنْ أَيـادِيْـكَ أَنْـواءُ الحَيـا خَجِلَـتْ
مـا إِنْ وَعَـتْ أُذُنٌ مَعْنـىٰ بَـلاغَتِهـا ... إِلاَّ وَأَمْسَتْ بها الأَعْطافُ قد ثَمِلَتْ
فَالزُّهْرُ قد أُطْلِعَتْ والدُّرُّ قد نُظِمَتْ ... والزَّهْرُ قَد فُتِّحَتْ والسِّحْرُ عَنْكَ تَلَتْ
شَوْقي إِلَيْكَ صَلاحَ الدِّيْنِ ما عَلِمَتْ ... بِشَـرْحِـهِ أَلْسُـنُ الأَقْـلامِ بَـلْ جَهِلَـتْ
وَهَـلْ يُحِـسُّ جَمـادٌ بـالـذي فَعَلَـتْ ... بِيَ النَّوىٰ وَعَلَيْهِ أَضْلُعي اشْتَمَلَتْ

---

(١) في س : × . . . من معاني لطفه . . . .
(٢) القصيدة في أعيان العصر .

وَما أَظُنُّ النَّوى أَمْسَتْ تَزيدُ علىٰ هـذا وقـد فَعَلَـتْ فِيْنـا الـذي فَعَلَـتْ
كَـأَنَّنـي بِـكَ قـد أَقْبَلْـتَ مُنْتَصِـراً يَوْماً على فِئَةٍ بالحَقِّ قد خُذِلَتْ
وقد تراجَعَ فيكَ الدَّهْرُ وانْقَطَعَتْ عِصابَةُ الجَوْرِ عمَّا فيكَ وانْخَزَلَتْ
فاصْبِرْ فَما الصَّبْرُ إلاَّ شِيْمَةٌ كَرُمَتْ ومـا التَّجَلُّـدُ إلاَّ رُتْبَـةٌ نَبُلَـتْ
واللهُ يُبْقِيـكَ فـي خَيْـرٍ وفـي دَعَـةٍ ما حَرَّكَ الغُصْنُ أَعْطافاً قد انْفَتَلَتْ

● **وكتَبتُ إليه**(١) : [من البسيط]

وَفىٰ لَها الحُسْنُ طَوْعاً بالذي اقْتَرَحَتْ فَلَـوْ رَأَتْهـا بُـدورُ التِّـمِّ لافْتَضَحَـتْ
كَأَنَّها البَدْرُ في لَيْلِ الذَّوائِبِ قَد تَقَلَّـدَتْ بـالنُّجـومِ الـزُّهْـرِ واتَّشَحَـتْ
صَحَّـتْ على سَقَـمٍ أَجْفـانُهـا وَكَـذا أَعْطافُها وَهْيَ سَكْرىٰ بالشَّبابِ صَحَتْ
تَفْـرِي حَشـايَ وتُفْنِيهـا لَـواحِظُهـا ما ضَرَّ تِلْكَ الصِّفاحَ البِيْضَ لو صَفَحَتْ
مَهـاةُ حُسْـنٍ أُداريهـا إذا نَفَـرَتْ عَنِّي وأَعْطِفُها بالعَتْبِ إنْ جَمَحَتْ
قد حارَ في وَصْفِ أَغْزالي العَذُولُ بِها وقالَ : كَيْفَ حَلَتْ في غادَةٍ مَلُحَتْ
بَذَلْتُ في وَصْلِها رُوحي فقد خَسِرَتْ تِجارَةُ الحُبِّ في رُوحي وما رَبِحَتْ
زارَتْ لِتَمْنَحَنـي مِـن وَصْلِهـا مِنَنـاً أَهْـلاً بِهـا وبِمـا مَنَّـتْ ومـا مَنَحَـتْ
أَقْسَمْتُ ما سَجَعَتْ وُرْقُ الحَمائِمِ في رَوْضٍ علىٰ مِثْلِ عِطْفَيْها ولا صَدَحَتْ
وكُلَّمـا اعْتَـدَلَـتْ بـالمَيْـلِ قـامَتُهـا رَأَيْتُها فَوْقَ حُسْنِ الغُصْنِ قد رَجَحَتْ
وما اكْتَسى خَدُّها من لُؤْلُؤٍ عَرَقاً لكنَّهـا وَرْدَةٌ بـالطَّـلِّ قـد رَشَحَـتْ
ولـي أَمـانـيُّ نَفْسٍ طـالَمـا كَـذَبَـتْ فيها ولو جَنَحَتْ نَحْوَ الوَفا نَجَحَتْ
وَرُبَّ لَيْـلٍ خَفيـفِ الغَيْـمِ أَنْجُمُـهُ أَزاهِـرٌ قـد طَفَـتْ فـي لُجَّـةٍ طَفَحَـتْ
يَتْلـو الهِـلالُ الثُّـرَيّـا فـي مَطـالِعِهـا كَـأَنَّـهُ شَفَـةٌ لِلْكَـأْسِ قـد فُتِحَـتْ

---

(١) القصيدة في أعيان العصر .

وللنَّسيـــمِ رِســـالاتٌ مُـــرَدَّدَةٌ ... وجَمْرَةُ البَرْقِ في فَحْمِ الدُّجىٰ قَدَحَتْ

والزَّهْـرُ قـد أُوْقِـدَتْ مِنْـهُ مَجامِـرُهُ ... فَكُلَّمـا لَفَحَـتْ رِيْـحُ الصَّبـا نَفَحَـتْ

تَحْكي بِذاكَ الشَّذا الفَيَّاحِ طِيْبَ ثَناً ... علىٰ عُلا شَرَفِ الدِّيْنِ التي مُدِحَتْ

سَهْلُ الخَلائِقِ لا واللهِ ما اغْتَبَقَتْ ... بِمِثْلِها عُصْبَةٌ سَكْرىٰ ولا اصْطَبَحَتْ

مُسَـدَّدُ الـرَّأْيِ لـم تَقْصُـرْ إِصـابَتُـهُ ... عن الهُدىٰ إن دَنَتْ قُصْواهُ أَوْ نَزَحَتْ

[٣٨ أ] رَقـىٰ إِلـى غـايَـةٍ مـا نـالَهـا أَحَـدٌ ... ولا سَمَتْ نَحْوَها عَيْنٌ ولا طَمَحَتْ

بِهِمَّـةٍ لِجَمِيـعِ النَّـاسِ عـالِيَـةٍ ... ونِيَّـةٍ لِمَليـكِ العَصْـرِ قـد نَصَحَـتْ

يُدَبِّرُ المُلْكَ من مِصْرٍ إِلى حَلَبٍ ... بِعَـزْمٍ كـافٍ بِـهِ الأَيَّـامُ قـد فَـرِحَـتْ

يَسْتَعْمِلُ الحَزْمَ في كُلِّ الأُمورِ فَكَمْ ... قد جَدَّ لَمَّا رَأَىٰ بِيْضَ الظُّبا مَزَحَتْ

خَصَّتْـهُ عـاطِفَـةُ السُّلْطـانِ فَهْـوَ بِهـا ... يَأْسو جَوانِحَ دَهْرٍ طالَما جَرَحَتْ

حتَّـىٰ لَقَـدْ نَسَخَـتْ آيـاتُ سُـؤْدَدِهِ ... آياتِ مَن قد مَضىٰ من قَبْلِهِ وَمَحَتْ

يَهْدي عِداهُ وَلَيْسَ البَدْرُ يُفْكِرُ مع ... مَحَلِّهِ في كِلابِ الأَرْضِ إِنْ نَبَحَتْ

أَضْحَتْ على الجُودِ تُبْنىٰ راحَتاهُ وَما ... زالَتْ كَذاكَ وَما انْفَكَّتْ وما بَرِحَتْ

كانَتْ مَعاني الهُدىٰ والجُودِ قد خَفِيَتْ ... عَنَّا ومن مَجْدِهِ الوَضَّاحِ قد شُرِحَتْ

وكـانَ لِلْجُـودِ أَخْبـارٌ فَمُـذْ رُوِيَـتْ ... أَنْبـاؤُهُ نُسِيَـتْ هـاتِيْـكَ واُطُّـرِحَـتْ

لَـولا الـوُلـوعُ بِـأَنْ نَلْقَـىٰ لَهـا شَبَهـاً ... لَما رَنَتْ مُقْلَةٌ لِلشَّمْسِ إِذْ وَضَحَتْ(١)

دَعْنـي مـن الـوُزَراءِ الـذَّاهِبيـنَ فَمـا ... رَأَتْ لَـواحِظُهُـمْ هـذا ولا لَمَحَـتْ

هذا الذي إِنْ تَكُنْ آراؤُهُم فَسَدَتْ ... فـإِنَّهـا مِنْـهُ بـالتَّـأْييـدِ قـد صَلَحَـتْ

لا زالَ يَرْقَىٰ ويَلْقَىٰ السَّعْدَ مُقْتَبِلاً ... ما انْهَلَّتِ السُّحْبُ بالأَنْواءِ وانْسَفَحَتْ

وَمـا تَـأَلَّـقَ بَـرْقٌ لَيْـسَ يُشْبِهُـهُ ... إِلاَّ دِمـاءُ أَعـادِيْـهِ التـي ذُبِحَـتْ

---

(١) في س ، م : . . . نلقى له شبهاً × .

● فكتبَ هو الجوابَ إليَّ عن ذلكَ[1] : [من البسيط]

حَمائِمُ الأَيْكِ في الأَفْنانِ قد صَدَحَتْ ... أَمْ نَسْمَةُ الزَّهْرِ في الأَصْباحِ قد نَفَحَتْ
أَمْ رَوْضَةٌ دَبَّجَتْها كَفُّ ذي أَدَبٍ ... غَضٌّ لِغَيْرِ صَلاحِ الدِّيْنِ ما صَلَحَتْ
يا فاضِلاً فاقَ في الآفاقِ كلَّ سَناً ... بِنُورِ طَلْعَتِهِ الغَرَّاءِ مُذْ لَمَحَتْ
أَوْحَشْتَنا شَهِدَ اللهُ العَظِيمُ فَكَمْ ... جَوارِحُ بِسُيوفِ السُّقْمِ قد جُرِحَتْ
فَلا رَعىٰ اللهُ أَيَّاماً حَوادِثُها ... على تَفَرُّقِنا قَهْراً قد اصْطَلَحَتْ
أَهْلاً بِغادَتِكَ الحَسْناءِ إنَّ لَها ... مَحاسِناً في بُدُورِ التِّمِّ قد قَدَحَتْ
أَقْسَمْتُ ما ظَفِرَتْ يَوْماً بِمُشْبِهِها ... قَرِيْحَةٌ من أَخي نَظْمٍ ولا فَرِحَتْ
خَرِيدَةٌ وَلَّدَتْها فِكْرَةٌ قَذَفَتْ ... بالدُّرِّ من لُجَّةٍ بالفَضْلِ قد طَفَحَتْ
فَلا بَرِحْتَ تُرِيْنا كُلَّ آوِنَةٍ ... قَصيدَةً لو رَأَتْها الشَّمْسُ لافْتُضِحَتْ

● وكتبتُ إليهِ من الدِّيارِ المِصْريَّةِ المحروسَةِ ، وقد تَوَجَّهَ منها إلى الشَّامِ المحروسِ ، في شعبان سنة ٧٣٣ : [من مجزوء الكامل]

الصَّبْرُ بَعْدَكَ ما وفىٰ ... والنَّوْمُ أَسْرَفَ في الجَفا
والجِسْمُ ذابَ فَلَوْ أَرا ... دَ عن المَنِيَّةِ لاخْتَفىٰ
والدَّمْعُ سَلْ خَدَّيَّ عَنْـ ... ـهُ فَقَدْ جَرىٰ ما قَدْ كَفىٰ
والعَيْشُ لا وَصَفاءَ وُدْ ... دِي بَعْدَ بُعْدِكَ ما صَفا
أَفَما ٱشْتَفىٰ مِنِّي الحَسُو ... دُ بلىٰ أَقُولُ قَدِ ٱشْتَفىٰ
يا نازِحاً خانَ الزَّما ... نُ مُناايَ فِيهِ ومَا وَفىٰ
وَمُوَدِّعاً أَصْبَحْتُ إذْ ... فارَقْتُهُ مُتَخَلِّفا
أَنا لا أَقولُ فَقَدْتُهُ ... بل نُورُ عَيْنَيَّ انْطَفا

(١) القصيدة في أعيان العصر .

إنْ كـــانَ عَبْـــدُكَ لَـــمْ يَمُـــتْ فَعَلـــىٰ المَنِيَّـــةِ أَشْـــرَفـــا
لـــم يَنْـــسَ ذِكْـــرَكَ ســـاعَـــةً لا والنَّبِـــيِّ المُصْطَفـــىٰ
كـــم حَسْـــرَةٍ قـــد أَغْمَـــدَتْ لَـــكَ فـــي حُشـــاهُ مُـــرْهَفـــا
وَمَـــذَلَّـــةٍ أَخْنـــىٰ الـــزَّمـــا نُ بِهـــا علـــيَّ وأَسْـــرَفـــا
تُغْضِـــي جُفـــونـــي إن وَجَـــدْ تُ كـــرىً علـــىٰ وَخْـــزِ السَّفـــا
وَأَروحُ مـــا بَيْـــنَ الأَســـا وِدِ والأُسُـــودِ مُصَـــرَّفـــا
واللهِ مـــا أُفْنـــي الـــدُّجـــىٰ إلاَّ أَســـىً وَتَـــأَسُّفـــا
وَتَنَـــدُّمـــاً وَتَـــأَلُّمـــاً وَتَضَـــرُّمـــاً وَتَلَهُّفـــا(١)
يـــا سَيِّـــداً قـــد جَـــرَّ مِـــنْ فَـــوْقِ المَجَـــرَّةِ مُطْـــرَفـــا
وغَـــدا يَـــراعُ يَمِيْنِـــهِ يَـــوْمَ المُهِـــمِّ مُثَقَّفـــا
وطُـــروسُـــهُ مـــا تَـــرْتَضـــي بـــالـــرَّوْضِ فيهـــا أَحْـــرُفـــا
[٣٨ب] ونِثـــارُهُ ونِظـــامُـــهُ حَلَّـــىٰ البَيـــانَ وشَنَّفـــا
لـــو شـــاءَ صَـــكَّ قَفـــا ٱمْـــرِىءِ الْـ ـقَيْـــسِ الـــذي نـــادَىٰ « قِفـــا »
ونَـــوالُـــهُ مَـــن قـــاسَـــهُ بِحُبـــا الحَيـــا مـــا أَنْصَفـــا(٢)
كُـــنْ حَيْـــثُ كُنْـــتَ فَـــلا أَرىٰ لـــي عـــن جَنـــابِـــكَ مَصْـــرَفـــا(٣)
مِـــن أَيْـــنَ أَلْقـــىٰ مِثْـــلَ جَبْـ ـــرِكَ كَيْـــفَ شِئْـــتُ مُصَحَّفـــا(٤)
أَو مِثْـــلَ جُـــودِكَ لـــم يَـــزَلْ لـــي مُسْعِـــداً أَو مُسْعِفـــا
فـــإذا قَسَـــا زَمَنـــي علـــىٰ جِلْـــدي الضَّعيـــفِ تَعَطَّفـــا
وأَعـــادَ لـــي زَمَـــنَ الصِّبـــا بَعْـــدَ المَشِيْـــبِ وأَخْلَفـــا

---

(١) في ب : وشدائداً . . . × .
(٢) في س : × بحيا الحيا . . . .
(٣) في س : × لي عن جَنانك . . . .
(٤) تصحيف جبرك : خيرك .

هَيْهـــاتَ لـــم يَصْلُــحْ سِــوا ... كَ بِمِثْــــلِ ذا أَنْ يُـــوصَفـــا
فَمَتـــىٰ يَــرىٰ يَعْقُــوبُ حُــزْ ... نــي مــن جَمــالِــكَ يُــوسُفــا

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، لا قَطَعَ اللهُ لَها عن الأَوْلياءِ بِرّاً ، ولا أَمْطَرَ الإِعدامُ سِوىٰ سُحْبِ جُودِها ، فكم دَرَّ غَيْثُها دُرّاً وتِبْراً ، ولا رَفَعَ في السَّماءِ بارِقَةً غيرَ نارِ قِراها ، فكم رَفَعَتْ ذَوائِبُها في اللَّيْلِ أَلْوِيَةً حُمْراً ؛ ولا نَظَمَ في سِلْكِ طَرِيقِها غيرَ جَواهِرِ التَّقْبيلِ ، فكم أَدارَ اللَّثْمُ عليها دُرّاً ؛ ولا نَفَضَ من العُيونِ الرَّمَدَ إلاَّ تُرابُها[1] ، فإِنَّها تَبَرُّ بذلكَ وتَبْرا ؛ ولا بَرَّدَ الأَحْشاءَ الظَّامِئَةَ إلاَّ بلَثْمِ أَعْتابِها ، فقد أَضْحىٰ ثَناؤُها مُسْتَقْرىً على المَعالي مُسْتَقِلاً مُسْتَقِرّاً ، ولا أَخْلىٰ حِماها من العُفاةِ ، فإِنَّ النَّجاحَ غَدا بِها مُسْتَمَلاً مُسْتَمَدّاً مُسْتَمِرّاً ؛ ولا أَنْزَلَ بِجَنّاتِ جَنابِها غَيْرَ الشَّرَفِ ؛ فإِنَّها ما فارَقَتْهُ مُذْ عَرَفَتْهُ وهَلُمَّ جَرّا[2] : [من البسيط]

هِيَ الشِّفـاءُ لِـدائي لـو ظَفِـرْتُ بِهـا ... وَلَيْـسَ مِنْـه شِفـاءُ الـدَّاءِ مَبْـذولُ

لأَنَّها أَحَقُّ في الوَصْفِ بِقَوْلِ الأَوَّلِ : [من الطويل]

ورَبْعُ الذي أَهْواهُ يُروي تُرابُهُ الْـ ... ـعِطاشَ ويَشْفي تُرْبُهُ الأَعْيُنَ الرُّمْدا

وما أَظُنُّ القائِلَ عَني غَيْرَها في قَوْلِهِ : [من الوافر]

تُـــرابُهُـــمُ وَحَـــقِّ أَبــي تُــرابٍ ... أَعَــزُّ عَلَــيَّ مــن عَيْنــي اليَميــنِ

ولا أَعتقدُ أَنَّ الآخرَ أَرادَ سِواها في قَوْلِهِ : [من الكامل]

وحِمــىً يُــداسُ تُــرابُــهُ بِنِعــالِهِــمْ ... مِنِّــي بِــأَحْــداقِ الجُفــونِ يُبــاسُ

ويُنْهي ما يَجِدُهُ المَملوكُ من الأَشْواقِ التي يَسْتَعِرُ بِها القَلْبُ جَمْراً ، ولم

---

(١) في س : ولا نَفَضَ في العيونِ الرُّمْدِ إلاَّ تُرابَها .
(٢) البيت لهشام بن عقبة ، أخي ذي الرّمّة ، في شرح أبيات سيبويه ١/ ٤٢١ وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٠٤ .

يَسْتَعِزْ لها علىٰ ذاكَ صَبْراً ، فهو يَتَأَسَّىٰ ويَتَأَسَّفُ ، وَيَتَلَهَّبُ وَيَتَلَهَّفُ ، ويَتَحَرَّىٰ فَيَتَحَرَّقُ ، ويَتَسَلَّىٰ بالأَماني وعليها يَتَسَلَّقُ ، ويَتَمَلَّىٰ بها ولَها يَتَمَلَّقُ ، فآهاً على تلكَ اللَّيالي الماضِيَةِ ، والمُدَّةِ التي كُنتُ بِقُرْبِ مَوْلانا في عِيْشَةٍ راضِيَةٍ[1] : [من الطويل]

ذَكَرْتُ بِها وَصْلاً كَأَنْ لم أَفُزْ بِهِ　　وَعَيْشاً كَأَنِّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثْبا

● **فكتبَ هو الجوابَ إليَّ عن ذلك** : [من مجزوء الكامل]

أَنْتَ الخَليلُ أَبو الصَّفا　　والحِفْظُ شَأْنُكَ والوَفا
والفَضْلُ كانَ مُنَكَّراً　　وبِما صَنَعْتَ تَعَرَّفا
وأَنَرْتَ هذا الفَنَّ فِيْـ　　ـنا بَعْدَما كانَ انْطَفا
فالطِّرْسُ في يُمْناكَ كَمْ　　حَبَّرْتَهُ فَتَزَخْرَفا
واللَّفْظُ مِنْكَ إذا وَعا　　هُ السَّمْعُ عادَ مُشَنَّفا
أَفَأَنْتَ تَنْظُمُ أَمْ تُدِيْـ　　ـرُ على المَسامِعِ قَرْقَفا
دُمْ يا صَلاحَ الدِّيْنِ في　　نِعَمِ الإِلَـٰهِ مُشَرَّفا
وأَدِمْ هَدايَاكَ التي　　تَهْدي إِلىٰ المُضْنى الشِّفا
فَمُشَرَّفاتُكَ قَدْ حَكَتْ　　وُرْقَ الحَمامِ الهُتَّفا
مَنْ قالَ إِنَّكَ كاتِبٌ　　أَو شاعِرٌ ما أَنْصَفا
ما أَنْتَ إلاَّ واحِدٌ　　في فَنِّه لَنْ يُخْلَفا
حَقُّ البُدُورِ إذا بَدَتْ　　لَكَ في السَّما أَنْ تُكْسَفا
والبَرْقُ إنْ جاراكَ أَو　　باراكَ أَنْ يَتَوَقَّفا
فاللهُ يَجْمَعُ شَمْلَنا　　بِكَ في سُرورٍ قَدْ صَفا

---

(١) البيت للمتنبي ، في ديوانه ١/ ٥٨ .

[٣٩ أ] قَــد آنَ لِلــدَّهْــرِ الــذي قــــد خـــانَ أَنْ يَتَعَطَّفـــــا

يُقَبِّلُ كذا[١] لا زالَتْ تُدَبِّجُ المَهارِقَ ، وتُهْدي في طِرْسِها ونِقْسِها ما يُذَرُّ كافُورُهُ وعَنْبَرُهُ في المَفارِقِ ، وتَبْعَثُ من المَعاني النَّيِّرَةِ ما يُخْجِلُ بُدورَ المَغارِبِ وشُمُوسَ المَشارِقِ .

ويُنْهي بعدَ دُعاءٍ أَخْلَصَ في رَفْعِهِ سِرّاً وجَهْراً ، وثَناءٍ يَسْتَعِيرُ الرَّوْضُ منهُ زَهْراً والأُفْقُ زُهْراً ، وُرودَ المُشَرَّفِ الكَرِيمِ ، بل العِقْدِ النَّظِيمِ ، بل الأُفْقِ الذي كلُّ حَرْفٍ منهُ بَدْرٌ يَجْلو اللَّيْلَ البَهِيمَ ؛ فوقفَ لَهُ وعَليهِ ، وقَبَّلَ سُطورَهُ وهو يَخالُها أَنامِلَ مَولانا التي في يَدَيْهِ ، وانْتَهىٰ إلى ما ذَكَرَهُ من الشَّوْقِ الذي أَمْلاهُ عن خاطِرِ المَمْلُوكِ وقَلْبِهِ ، وَوَصَفَهُ فَتَعَجَّبَ كيفَ اطَّلَعَ مَولانا على ضَمِيرِ المَملوكِ الذي في جَنْبِهِ ، فَزادَ نارَ المَملوكِ لَهَباً ، وَجَدَّدَ حُزْناً وحَرَباً ، وباللهِ الاسْتِعانَةُ على هذا النَّوىٰ ، والحادِثَةِ التي هَدَّتِ القُوىٰ[٢] : [من الكامل]

فَلَــرُبَّمــا نُثِــرَ الجُمــانُ تَعَمُّــداً لِيَكُونَ أَحْسَنَ في النِّظامِ وأَجْمَلا

واللهُ يُرينا ذلكَ الوَجْهَ الذي يَعْلو نُورُهُ فَرْقَ الفَرْقَدِ ، ويُقَرِّبُ مَزارَ مَولانا بِلُطْفِهِ الخَفِيِّ ، وفَضْلِهِ الحَفِيِّ ، وَكَأَنْ قَدِ .

● وكتبتُ أَنا إِليهِ أَيضاً : [من المتقارب]

أَلا هَــلْ أَتَــىٰ طَيْفُكُــمْ أَوْ سَــرىٰ فَمِــنْ بَعْــدِكُــمْ مـا عَـرَفْـتُ الكَـرىٰ
وَأَيُّ مَنـــامٍ لِمَـــنْ دَمْعُــــهُ بِنَــوْءِ الثُّــرَيَّــا يَبُــلُّ الثَّــرىٰ
وَأَيُّ قَـــرارٍ لِعَيْـــنٍ غَـــدَتْ وَمَحْجَـرُهـا بِـالبُكـا اسْتَبْحَـرا[٣]

---

(١) قوله : كذا . كلمة وضعها المؤلف تواضعاً ، بدلاً من : يداً . وفي ب : يُقبّل الأرض . .

(٢) البيت لابن خفاجة ، في ديوانه ٣٦١ ونفح الطيب ١/١٠٦ .

(٣) في ب : × . . . بالبكاء انبرى . وفي م : × . . . استحجرا .

أَحِبَّتَنــــا هَــــلْ بَعَثْتُــــمْ لَنــــا سَــلامــاً فــإِنَّ الــدُّجــىٰ أَقْمَــرا[1]
وَمــــا يُبْعِــــدُ الآنَ أَنَّ الأَصِيْــــلَ يَضُــــوعُ النَّسِيْــــمُ بِــــهِ عَنْبَــــرا
لأَنَّ تَحِيَّــــاتِكُــــمْ تَحْتَــــوِي علــىٰ مِثْــلِ ذا اللُّطْــفِ أَوْ أَكْثَــرا
بَعُــدْتُــمْ عــن العَيْــنِ فــاسْتَــوْحَشَــتْ وقــــد حَكَــــمَ اللهُ أَنْ تَسْهَــــرا
وأُقْسِــمُ مــا القَلْــبُ فــي يَقْظَــةٍ ولــــو كــــانَ يَقْظــانَ لاسْتَشْعَــرا
وفــارَقَنــي راغِمــاً واغْتَــدَىٰ علــىٰ بــابِكُــمْ يَسْتَمِيْــحُ القِــرىٰ
ولٰكِــنْ إِلــى الآنَ فــي لَــذَّةِ الــزْ ــزَمــانِ الــذي قَــد مَضَــىٰ مُفْكِــرا
ولــو كــانَ يَــدْرِي قَضَــىٰ نَحْبَــهُ عَلَيْكُــــمْ ولٰكِنَّــــهُ مــــا دَرىٰ
حُــرِمْــتُ الــرِّضــا مِنْكُــمُ إِنْ رَأَتْ لَكُــمْ مُقْلَتــي مُشْبِهــاً أَوْ تَــرَىٰ
ولا سُــرَّ قَلْبِــيَ إِنْ حــالَ عــن وِدادِكُــــمُ قَــــطُّ أَوْ غَيَّــــرا
ولا فَــــرَّجَ اللهُ بَلْــــوايَ إِنْ رَضِيْــــتُ لِقَلْبِــــيَ أَنْ يَصْبِــــرا
وإِنْ قُلْتُ لا ذَنْبَ لي في النَّوىٰ كَــذَبْــتُ وقَــد جِئْــتُ مُسْتَغْفِــرا
ولٰكِــنْ أَتــانــي الــرَّدىٰ بَغْتَــةً فَــداوَيْــتُ مــن مَــرَضــي الأَخْطَــرا
لأَنِّــي بــإِحْســانِكُــمْ واثِــقٌ وَقُلْــتُ المُهِــمَّ الــذي قــد طَــرا
وخِلْــتُ السَّــلامَــةَ فــي هَــذِهِ فَقَــدْ جــاءَنــي عَطَبــي مــن وَرا
وإِنْ تَطْلُبُــوا الحَــقَّ فــي قِصَّتــي فَهــذا الــذي كــانَ قــد قُــدِّرا
ومــا لامْــرِىءٍ فــي القَضــا حِيْلَــةٌ إِذا كــانَ فــي فِعْلِــهِ مُجْبَــرا
فَيــا مــا جَــرىٰ مَــدْمَعــي بَعْــدَكُــمْ فَقُــولُــوا : عَفــا اللهُ عَمَّــا جَــرىٰ

● **فكتبَ هو الجوابَ عن ذلكَ :** [من المتقارب]

أَرَوْضٌ مــن الحَــزْنِ قَــد أَزْهَــرا وإِلاَّ فَــأُفْــقٌ وقَــد أَقْمَــرا

---

(١) في م : × سُلافاً . . . .

أَمِ الفـاضِـلُ البـارِعُ الأَوْحَـدُ الـ ـــذي فـاقَ مَـنْ خَـطَّ أَوْ مَـنْ قَـرا
أَرادَ الغِنـىٰ بَعْـدَ فَقْـري لَـهُ فَـأَهْـدىٰ إِلـى فـاقَتـي جَـوْهَـرا
وَشَـرَّفَنـي بـالقَـريـضِ الـذي بِـهِ نَفَـحَ الجَـوَّ لـي عَنْبَـرا
أَمَـوْلايَ بُعْـدُكَ هَـدَّ القُـوىٰ وَأَثَّـرَ فـي القَلْـبِ مـا أَثَّـرا
وغـادَرَ قَلْبِـيَ مِـن صَبْـرِهِ الْـ ـغَنِـيِّ بِـهِ مُفْلِسـاً مُقْتِـرا
فَـوَاللهِ لَـم أَنْـسَ عَيْشـاً مَضـىٰ نَضِيـراً بِـأُنْسِكُـمُ أَخْضَـرا
وإِنِّـي لأَذْكُـرُ إِحْسـانَكُـمْ وَحُـقَّ لِمِثْلِـيَ أَنْ يَـذْكُـرا
فَـلا تَحْسبُـوا أَنَّ قَلْبِـي سَـلا فَمِـنْ أَيْـنَ لِلصَّـبِّ أَنْ يَصْبِـرا
ولا بُـدَّ لِلـدَّهْـرِ أَنْ يَـرْعَـوي ويَفْتَـرَّ مِـن بَعْـدِ مـا أَفْتَـرا

● وأَنشدَني يَوْماً لِنَفْسِهِ مُلْغِزاً في « ليلٍ »[1] : [من الخفيف]

[٣٩ ب] أَيُّما اسْمٍ يَغْشىٰ الأَنامَ جَميعاً وإِذا مـا فَكَّـرْتَ « لـي » ثُلْثـاهُ
إِنْ تُـزِلْ فِـي هِجـائِـهِ مِنْـهُ حَـرْفـاً « لَـكَ » مِنْـهُ مُصَحّفـاً طَـرَفـاهُ

● فَأَنْشدتُه لِنَفْسي مُلْغِزاً في « فيل »[2] : [من الخفيف]

أَيُّمـا اسْـم تَـرْكِيبُـهُ مِـن ثَـلاثٍ وَهْـوَ ذو أَرْبَـعٍ تَعـالـىٰ الإِلٰـهُ
حَيَـوانٌ والقَلْـبُ مِنْـهُ نَبـاتٌ لَـم يَكُـنْ عِنْـدَ جُـوعِـهِ يَـرْعـاهُ[3]
« فِيْـكَ » تَصْحيفُـهُ ولكـنْ إِذا مـا رُمْـتَ عَكْسـاً يَكـونُ « لـي » ثُلْثـاهُ

● وأَنشدَني يوماً لنفسِهِ[4] : [من الطويل]

بَعَثْـتُ رَسـولاً لِلْحَبيـبِ لَعَلَّـهُ يُبَـرْهِـنُ عـن وَجْـدي لَـهُ وَيُتَـرْجِـمُ

---

(١) البيتان في الدّرر الكامنة وأَعيان العصر .
(٢) الأَبيات في أَعيان العصر . وبلا نسبة في المستطرف ٣/ ١٤٧ وحياة الحيوان « الفيل » .
(٣) يريد : ليف .
(٤) البيتان في أَعيان العصر وتاريخ ابن قاضي شهبة والدّرر الكامنة .

فَلمَّا رَآهُ حارَ مِنْ فَرْطِ حُسْنِهِ وما عادَ إلاَّ وَهْوَ فيهِ مُتَيَّمُ

● **فأنشدتُه لنفسي**[1] : [من الخفيف]

بِي غَزالٌ لمَّا أَطَعْتُ هَواهُ أَخَذَ القَلْبَ والتَّصبُّرَ غَصْبا
ما أَفاقَ العَذولُ من سَكْرَةِ العَذْ لِ عَليهِ حتَّىٰ غَدا فِيهِ صَبَّا

● **وكتبتُ إليهِ أُهَنِّئُهُ بالقُدُومِ مِنَ الحِجازِ الشَّريفِ إلى القاهرةِ ، في المُحَرَّم سنة ٧٣٣** : [من الوافر]

قَدِمْتَ مِنَ الحِجازِ معَ السَّلامَهْ بعَزْمٍ تَعْرِفُ العَلْيا اهْتِمامَهْ
وَوَجْهٍ تَشْتَهي الأَقْمارُ لَمَّا بَدَتْ في الأُفْقِ لو نالَتْ تُمامَهْ[2]
مُحَيَّا إِنْ يَضِلَّ الرَّكْبُ لَيْلاً كَفاهُمْ مِنْكَ أَنْ تُرْخي لِثامَهْ
وأُقْسِمُ لَو تَحَيَّرَ فِيهِ عافٍ تَعَرَّفَ لِلْمُؤَمِّلِ بالوَسامَهْ
فَيا لَكَ طائِفاً بالبَيْتِ يَسْعىٰ وَقَد شَكَرَ الإِلٰهُ لَهُ مَقامَهْ
ويا لَكَ مُحْرِماً عَرَفَتْهُ تِلْكَ الْـ ـمَشاعِرُ قَبْلَ أَنْ يَضَعَ العِمامَهْ
وطافَ ولم يَمَسَّ الطِّيبَ لكِنْ ثَناهُ يَفُضُّ عن مِسْكٍ خِتامَهْ
ولمَّا أَنْ رَأَىٰ الحَجَرَ الذي قد غَدا في صَحْنِ خَدِّ البَيْتِ شَامَهْ
تَلَقَّاهُ بِوَضَّاحِ الثَّنايا يُقَبِّلُهُ وما أَحْلَىٰ الْتِثامَهْ
ولمَّا لامَسَ الرُّكْنَ اليَماني تَمَنَّىٰ أَنْ يُدِيمَ لَهُ الْتِزامَهْ
وفي عَرَفاتَ كَمْ قد فاحَ عَرْفٌ لَهُ مِنْ عُرْفِ يُمْناهُ عَلامَهْ
(ولمَّا أَن أَفاضَ النَّاسُ فاضَتْ يَداهُ بِما حكىٰ الغَيْثُ انْسِجامَهْ
وكم أَوْلىٰ المُنىٰ بِمِنىٰ فَقيراً رَأَىٰ بَرْقَ النَّدىٰ مِنْهُ وشامَهْ

---

(١) البيتان في أعيان العصر .
(٢) في م : × . . . . تمامه .

وجاءَ يَزُورُ خَيْرَ النَّاسِ طُرّاً … ومَن شَرُفَتْ بِمَبْعَثِهِ تِهامَهْ
ومَلَّىٰ طَرْفَهُ لمَّا مَلاهُ … بأَنْوارِ المُظَلَّلِ بالغَمامَهْ
وَفازَ بِقُرْبِ مَنْ يُعْتَدُّ ذُخْراً … لِيَوْمِ الرَّوْعِ في هَوْلِ القِيامَهْ
وصَلَّىٰ والمعالي من وَراهُ … يُسَلِّمُ والرَّسولُ غَدا أَمامَهْ)(١)
فَأَثْرىٰ مَن بِيَثْرِبَ مِن نَداهُ … وَشَرَّعَ بالنَّدَىٰ فِيها خِيامَهْ
فكمْ من مُعْسِرٍ أَوْلاهُ يُسْراً … ونَوَّلَهُ من الجَدْوىٰ مَرامَهْ
مَكارِمُ مَنْ لَهُ في الجُودِ عِشْقٌ … فَلا سُعْدىٰ هُناكَ ولا أُمامَهْ
فَذَا رَأْسُ المَكارِمِ والعَطايا … فَدَعْني بَعْدُ مِنْ كَعْبِ بنِ مامَهْ
فَما يَدْرِي النَّدامَةَ حِينَ يَسْخُو … يَقولُ لِمَنْ لَحاهُ علىٰ النَّدىٰ : مَهْ
ولمَّا أَنْ قَضىٰ وَطَراً وَوَلَّىٰ … إِلَيْنا وَجْهَهُ رُزِقَ السَّلامَهْ
أَتىٰ وَالدَّهْرُ يَخْدُمُهُ بِسَعْدٍ … تَبَرَّأَ فِيهِ من كَذِبِ النَّجامَهْ
ومَلَّكَهُ سِيادَةَ كُلِّ قَوْمٍ … وقد أَلْقىٰ الزَّمانُ لَهُ زِمامَهْ
أَيا مَوْليَّ إِذا ما خَطَّ سَطْراً … فَما ابنُ هِلالَ إِلاَّ كالقُلامَهْ
وإِنْ نَظَرَ العَواقِبَ في خُطُوبٍ … قَد ٱسْوَدَّتْ فَزَرْقاءُ اليَمامَهْ
وإِنْ أَمْلىٰ عَلَيْنا الكُتْبَ نَثْراً … فَما سَجْعُ المُطَوَّقِ والحَمامَهْ
وإِنْ يَنْظِمْ فَمَنْ أَعْطىٰ اللآلي … بِجِيْدِ الغِيْدِ أَنْ تَحْكِي نِظامَهْ
بأَلْفاظٍ تَلَذُّ لِكُلِّ سَمْعٍ … فَما سامَتْ عِبارَتَهُ سآمَهْ
تَخَيَّرَكَ المَلِيْكُ لِسِرِّ مِصْرٍ … لأَنَّكَ كُنْتَ قد حَلَّيْتَ شامَهْ
وزادَكَ مِنْهُ قُرْباً واعْتِناءً … فَأَنْتَ وَلِيُّهُ ولَكَ الكَرامَهْ
تُجَرِّدُ مِنْكَ لِلأَعْداءِ رَأْياً … فَلَمْ تُحْوِجْهُ أَنْ يَبْري سِهامَهْ(٢)

---

(١) ما بين قوسين ساقط من أ ، م .
(٢) في ب : يجدّد . . . × .

وَقَـد أَغْنَيْتَـهُ إنْ جـاءَ خَطْـبٌ بـرَأْيِـكَ أَنْ يَسُـلَّ لَـهُ حُسـامَـهْ[1]
مَتـىٰ أَعْمَلْـتَ رَأْيَـكَ فـي مُهِـمٍّ فَقَـدْ أَخْمَـدْتَ فـي عَجَـلٍ ضِـرامَـهْ
فَأَضْحَتْ مِصْرُ تُجْلىٰ في ثِيابِ الْـ ـجَمـالِ لأَنَّهـا بـكَ مُسْتهـامَـهْ
مَتىٰ سَمِـعَ النَّدامـىٰ عَنْكَ ذِكْـراً فَمـا يَتَلَفَّتـونَ إلـى المُـدامَـهْ
ولا يَتَغَـزَّلـونَ بـذِكْـرِ سَلْمـىٰ ولا ظِـلِّ الأَراكَـةِ والبَشـامَـهْ
[٤٠ أ] ومَنْ أَصْغَىٰ لِمَدْحٍ فِيكَ يُتْلىٰ فَلَيْـسَ تَشُـوقُـهُ غِـزْلانُ رامَـهْ
وقَـد عَطَـفَ الـزَّمـانُ علـىٰ بَنِيْـهِ فَمـا أَبْقـىٰ لِـذي فَضْـلٍ ظُـلامَـهْ
وَقَـد نَفَقَـتْ بضـائِـعُ كُـلِّ عِلْـمٍ وَلَـذَّ لَهـا بِمَغْنـاكَ الإقـامَـهْ
فَحُـزْ مِصْـراً وَقُـلْ حَمْـداً لِـرَبٍّ هَـدى وأَحَلَّنـا دارَ المُقـامَـهْ
وَحَـقِّ مَكـارِمٍ أَوْ لَيْتَنِيهـا ولا نُجِّيْـتُ مـن دَرْكِ القَسـامَـهْ[2]
لقَـد طـابَـتْ بِظِلِّـكَ لـي حَيـاتـي وقَبْلَـكَ كُنْـتُ أُنْفِقُهـا غَـرامَـهْ
فَـلا زالَـتْ سُعـودُكَ فـي صُعـودٍ يُصـاحِبُهـا عُلُـوٌّ واسْتِقـامَـهْ
ونِلْـتَ مُنـاكَ مـازَهَـرَتْ نُجـومٌ ومـا انْشَقَّـتْ عـن الـزَّهْـرِ الكُمـامَـهْ

٢١ * أَبو بكر بن محمَّد بن سَلْمان[3] :

القاضي البَليغُ ، بَهاءُ الدِّينِ بن القاضي شَمْسِ الدِّينِ ابن غانم ، كاتِبُ السِّرِّ الشَّريفِ بصَفَد وبطَرابُلُس المحروسَتين .

● **كتبتُ إليهِ وأنا ضَعيفٌ بصَفَد المحروسة ، سنة ٧٢٤ :** [من البسيط]

---

(١) سقط البيت من س .

(٢) في ب : × . . . . القيامة .

(٣) ترجمته في : أعيان العصر ٢/٥ والوافي بالوفيات ١٠/ ٢٥٣ وتذكرة النبيه ٢/ ٢٦٠ والدّرر الكامنة ١/٤٥٨ .
ـ وفاته سنة ٧٣٥ هـ .
ـ في أ ، ب ، س : أبو بكر بن محمد بن غانم . وفي م : أبو بكر محمد بن غانم .

يــا سَيِّــداً بَــأْسُــهُ فِيْنــا ونــائِلُــهُ قَـد أَصْبَحـا غَيْـرَ مَـأْمـونٍ وَمَمْنُـونِ
هـذا السَّقـامُ الـذي مـا كُنْـتُ أُوْثِـرُهُ إلاَّ إذا مـا غَـدا فـي أَعْيُـنِ العِيْـنِ
أَو خَصْـرِ هَيْفـاءَ يَبْـرينـي تَلَفُّتُهـا أَو نَسْمَـةٍ خَطَـرَتْ مـن رَمْـلِ يَبْـريـنِ
أَما وقد عاثَ في جِسْمي السَّقامُ فَلا إِذْ كُلَّمـا قلـتُ عـافـانـي يُعَفِّينـي

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، صَرَفَ اللهُ الصُّروفَ عن حِماها ، وحَفِظَ ساحَتَها من الغِيَرِ وحَماها ، وجعلَ حَرَمَها لأَوْلِيائِها عُوذَةً من الأَسْواءِ ، فإذا قَبَّلَتْهُ شِفاهُ مَرْضاها شِفاهاً شَفاها .

ويُنْهي ، لا بل يَشكو حالَهُ التي ليسَ لهُ منها بَدَلٌ ، وآلامَهُ التي كَلَّمَتْ أَعْضاءَهُ ولم يُطِقْ جَلَدُهُ قَطْعَ ذلكَ الجَدَلِ ، وحُمَّاهُ التي يَلْدَغُهُ منها عَقْرَبٌ وتَرْمِيهِ قَوْسٌ ، فَلَيْتَ جِسْمَهُ مع ذاكَ حَمَلَ ، واتِّصالُ عِرْقِ عَرَقِها الذي لا يُقالُ معهُ : سآوي من جَميلِ الصَّبْرِ إلى جَبَلٍ(١) : [من الوافر]

إذا مــا فــارَقَتْنــي غَسَّلَتْنــي كَــأَنّــا عــاكِفــانِ علــى حَــرامِ
بَـذَلْـتُ لَهـا المَطـارِفَ والحَشـايـا فَعـافَتْهـا وبـاتَـتْ فـي عِظـامـي

ويَعجزُ المَملوكُ عن وَصْفِ ما حَصَلَ لِرَأْسِهِ من الصُّداعِ ولِجِسْمِهِ من الصُّدوعِ ، ولآمالِهِ المُعَلَّقَةِ من القَطْعِ ، ولِحَظِّهِ من القُطوعِ ؛ وما أَظُنُّ مَولانا تَرَكَ الزِّيارَةَ إلاَّ لِعِلْمِهِ أَنَّ المَملوكَ بَسَطَ جِسْمَهُ لِنَعْلِهِ وهو لا يَمْشِي على غَيْرِ الصَّحيحِ ، ولم يُسْمِعْ نَقْلَ الرِّياحِ الهابَّةِ ما تَضَمَّنَها من الثَّناءِ ، لأَنَّهُ لا يَقْنَعُ من المَوَدَّةِ بالرِّيحِ ، واللهُ المَسْؤولُ بِبَرَكَةِ سَلَفِهِ ، وَرُقَىٰ قَلَمِهِ في عاقِبَةِ العافِيَةِ ، وَعَوْدِ الصِّحَّةِ التي عُوِّدَ لُبْسَ بُرودِها الضّافِيَةِ ، وَوِرْدَ مَناهِلِها الصّافِيَةِ .

● **فكتبَ هو إليَّ الجَوابَ عن ذلك :** [من المتقارب]

---

(١) البيتان للمتنبي ، في ديوانه ٤/١٤٦ .

وَقَفْتُ علـى دَوْحَةٍ أَيْنَعَتْ رِياضُ عُلاها بِغَرْسِ العُلومِ
سَما لَفْظُها عن نَسِيمِ الصَّبا وَزَهْرِ الرِّياضِ وَزُهْرِ النُّجومِ
وَقَد بَشَّرَتْني بِأَنَّ الشِّفاءَ بِلُطْفِ الرَّحيمِ سَريعُ القُدومِ

يُقَبِّلُ كذا ، مَتَّعَ اللهُ بِفَضَائِلِها التي رَقَّت وراقَتْ لَفْظاً ومَعنىً ، وبِبَدائِعِها التي سَرَّتِ الأَبْصارَ والمَسامِعَ رَوْنقاً وحُسْناً ، حَلَّتْ حِينَ تَحَلَّتْ بِدُرَرِ الدَّراري ، وجَلَّت حِينَ تَجَلَّتْ في حُلَلِ فَضْلِها السَّهْلِ المُمْتَنِعِ على السّامِعِ والقاري فَتَمَتَّعَ بمحاسِنِها وتَمَلَّىٰ ، وتَلا عندَ مُعايَنَةَ خَطِّها وخِطابِها ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل : ١ ـ ٢] وَبَشَّرَهُ بِشْرُها[1] بِقُدُومِ العافِيَةِ ، وسَرَّهُ حالُ فِكْرِها الذي لا بَدَلَ لِقَديمِ خَبَرِها المَرْفوعِ عن حافِظِ تلكَ [٤٠ ب] المُقَدَّمَةِ الكافِيَةِ .

فلو تَتَوَّجَتِ الثُّرَيَّا بِأَكاليلِ البَهاءِ ، وَرَقَتْ على فَرْقِ الفَرْقَدِ ، لكانَتْ عندَ نِظامِ دُرِّها كالسُّهىٰ ، ولو حَمَلَ مِيزانَ اليَراعَةِ أَسَدُ البَراعَةِ لَدُهِشَ من حُسْنِ صِناعَةِ صِياغَتِها وَسَها ؛ فَيا لَها من رَوْضَةٍ عَذْبَةِ المَجاني ، وَدَوْحَةٍ جَنىٰ من غَرْسِها ثَمَرَ الأَماني ، وحَديقَةٍ سَرَحَتِ العُيونُ في لُطْفِ رَوْنَقِها حِينَ شَرَحَتِ الصَّدْرَ بِحُسْنِ مَنْطِقِها .

وكانَ نَتيجَةَ هذِهِ المُقَدَّمَةِ تَحصيلُ السُّرورِ والتَّهاني ، ونُزْهَةٌ أَبْدَتْ من شِعْرِها حِكْمَةً ومن بَيانِها سِحْراً ، قد اشْتَمَلا على أَحْسَنِ الأَلْفاظِ والمَعاني ؛ واللهُ يُوَضِّحُ بِفَضائِلِهِ إلى المَعالي سَبيلاً ، ويَجْعَلُ لَهُ حِرْزَ السَّلامةِ والعافِيَةِ على الدَّوامِ خَليلاً .

● وكَتَبَ هو إِليَّ من طرابُلُس المحروسَة ، وأَنا بدمشقَ المحروسَة ، وقدِ

---

(١) في س : برّها

انْقَطَعَتْ عنهُ مُكاتباتي[1] : [من السريع]

سُبْحانَ مَنْ غَيَّرَ أَخْلاقَ مَنْ ... أَحْسَنَ في حُسْنِ الوَفا مَذْهبا
كانَ خَليلاً فَغَدا بَعْدَ ذا ... لمَّا انْقَضىٰ ما بَيْنَنَا طُقْصُبا

وكتبَ هذينِ البَيْتَيْنِ في ذَيْلِ ثَلاثَةِ أَوْصالٍ بِيْضٍ وجَهَّزَها إِليَّ ، ولم يكتبْ غيرَها .

وهذا طُقْصُبا كانَ شابّاً حَسَناً نَجْتَمِعُ بِهِ ، ولَهُ عَمٌّ أَسودُ يُدْعىٰ خَليلاً وكُنّا نَكْرَهُهُ ، فَعَرَّضَ بذلكَ[2] .

● **فكتبتُ أنا الجَوابَ إِليهِ عن ذلك**[3] : [من السريع]

يا باعِثَ العَتْبِ إِلى عَبْدِهِ ... وما كَفاهُ العَتْبُ أَوْ نَدَّبا
ومُذْكِري عَهْداً لَبِسْنا بِهِ ... ثَوْبَ سُرورٍ بالبَها مُذْهَبا
مَرَّ فَلَمْ يَحْلُ لَنا بَعْدَهُ ... عَيْشٌ ولم نَلْقَ الهَوىٰ طَيِّبا
ما كُلُّ ذِي وُدٍّ خَليلٌ ولا ... كُلُّ مَليحٍ في الوَرىٰ طُقْصُبا
فَحَبَّذا تِلْكَ اللَّيالي التي ... كم يَسَّرَ اللهُ بِها مَطْلَبا
ما أَحَدٌ في مِثْلِها طامِعٌ ... هَيْهاتَ فاتَتْ في المُنىٰ أَشْعَبا

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهي ـ بَعْدَ دُعاءٍ يَرْفَعُهُ في كلِّ بُكْرَةٍ وأَصيلٍ ، ووَلاءٍ حصلَ منهُ النَّعيمِ المُقيمِ ، ولا يَقُولُ : وَقَعَ في العَريضِ الطَّويلِ ؛ وثناءٍ إِذا مَرَّ في الرِّياضِ النَّافِحَةِ صَحَّ بِهِ أَنَّ نَسيمَ السَّحَرِ عَليلٌ ؛ وحِفاظِ وُدٍّ يَتَمَنَّىٰ كُلُّ مَنْ

---

(١) البيتان في أعيان العصر والوافي والغيب المسجم ٢/ ١٧٦ .
(٢) قال المؤلف في مصدري الخبر : أشار بذلك إلى أمر طُقصُبا المذكور ، وكان له عَمٌّ أسود زوج أُمّه يدعى خليلاً ، وكان ينغّص علينا الاجتماع بحضوره ؛ ولمّا كتب هذه كان طُقصُبا رحمه الله تعالى قد توفّي بصفد من مدَّةٍ ، فَحَسُنَ لذلك إبراز البيتين في هذه الصُّورة .
(٣) الجواب بشعره ونثره في الأعيان والوافي والغيث المسجم ٢/ ١٧٧ .

جالَسَهُ لو كانَ لَهُ مِثْلُ المَمْلُوكِ خَليلٍ - وُرودَ المِثالِ الكَريمِ ، فقابَلَ منهُ اليَدَ البَيْضاءَ ، بل الدِّيمَةَ الوَطْفاءَ ، بل الكاعِبَ الحَسْناءَ ، وَتَلَقّىٰ مِنْهُ طُرَّةَ صُبْحٍ لَيْسَ لِلدُّجىٰ عَليها أَذْيالٌ[1] ، وغُرَّةَ نُجْحٍ ما كَدَّرَ صَفاءَها خَيْبَةُ الآمالِ ، فلو كانَ كلُّ وارِدٍ مِثْلَهُ لَفُضِّلَ المَشيبُ على الشَّبابِ ، ونَزَعَ المُتَصابي عن التَّسَتُّرِ بالخِضابِ ، وَرَفَضَ السَّوادَ ولو كانَ خالاً على الوَجْنَةِ ، وَعَدَّ المِسْكَ إذا ذُرَّ على الكافُورِ هُجْنَةً ؛ وَأَيْنَ سَوادُ الدُّجىٰ إذا سَجَىٰ من بَياضِ النَّهارِ إذا انْهارَ ، وَأَيْنَ وَجْناتُ الكَواعِبِ النَّقِيَّةِ من الأَصْداغِ المُسْوَدَّةِ بِدُخانِ العِذارِ ؛ وَأَيْنَ نُورُ الحَقِّ من ظُلْمَةِ الباطِلِ ؛ وَأَيْنَ العِقْدُ الذي كُلُّهُ دُرَرٌ من العِقْدِ الذي فِيهِ السَّبَجُ فَواصِلَ ؟ يا لَهُ من وارِدٍ تَنَزَّهَ عن وَطْءِ الأَقْلامِ المُسْوَدَّةِ ، وَعَلا عن السُّطُورِ[2] التي لا تَزالُ وُجوهُها بالمِدادِ مُرْبَدَّةً ، حتّىٰ جاءَ يَتَلأْلأُ بَياضاً وَيَتَّقِدُ ، وأَتىٰ يَتَهادَىٰ في النُّورِ الذي تَعْتَقِدُ فِيهِ المَجُوسيَّةُ ما تَعْتَقِدُ .

ولكنْ تَوَهَّمَ المَملوكُ أَنْ تكونَ صُحُفُ الوُدِّ أَمْسَتْ مِثْلَهُ عَفاءً ، وَظَنَّ بِأَبْياتِ العُهودِ السَّالِفَةِ أَن [٤١ أ] تكونَ مثلَ المُراسَلَةِ من الرُّقومِ خَلاءً[3] : [من الكامل]

لَـوْ أَنَّهـا يَـوْمَ المَعـادِ صَحيفَتـي ... مـا سَـرَّ قَلْبـي كَـوْنُهـا بَيْضـاءَ

فلقد سَوَّدَتْ حالَ المَملوكِ بِبَياضِها ، وعَدِمَ من عَدَمِ الفَوائِدِ البَهائِيَّةِ ما كانَ يُغازِلُهُ من صَحيحاتِ الجُفونِ ومِراضِها .

يا عَجَباً من مَولانا كيفَ اتَّخَذَ هذا الصَّامِتَ رَسولاً بعد هذِهِ الفَتْرَةِ ، وكيفَ

---

(١) من مقصورة ابن دريد : [شرح التبريزي ١٣]
إمّـا تَـرَي رأسـي حـاكـىٰ لـونُـهُ ... طُـرَّةَ صُبْـحٍ تحـتَ أذيـالِ الـدُّجـىٰ
(٢) في م : الطروس .
(٣) البيت لشهاب الدّين محمد بن يوسف ، المعروف بالتّلعفري ، في ديوانه ١٣٤ والغيث المسجم ٢/ ١٧٦ .
وروايته في م : × . . . . أنّها بيضاء .

رَكَنَ إليهِ في إبْلاغِ ما في ضَميرِهِ ولم يُحَمِّلْهُ من دُرَرِ الكَلامِ ذَرَّةً ، وكيفَ أَهْدىٰ عَروسَ تَحِيَّتِهِ ولم يُقَلِّدْها من كَلامِهِ بِشَذْرَةٍ ؛ وما أَحَقَّ تلكَ الأَوْصالَ الوارِدَةَ بلا إفادَةٍ ، الجائِدَةَ بزِيارَتِها التي خَلَتْ من الجُودِ بالسَّلامِ ، وإنْ لَمْ تُخْلِ زَوْرَتَها من الإِجادَةِ ، أَنْ يُنْشِدَها المَملوكُ قولَ البُحتريِّ أَبي عُبادَةَ[1] : [من الكامل]

أَخْجَلْتَنـي بِنَـدىٰ يَـدَيْـكَ فَسَـوَّدَتْ ... مـا بَيْنَنـا تِلْـكَ اليَـدُ البَيْضـاءُ
وَقَطَعْتَنـي بِـالـوَصْـلِ حتَّـىٰ إِنَّنـي ... مُتَخَـوِّفٌ أَنْ لا يَكـونَ لِقـاءُ

وما نَطَقَ هذا الوارِدُ إلاَّ بالعِتابِ مع ما نَدَّرَ وَنَدَّبَ ، وأَبْدىٰ غَيْرَ ما قَرَّرَهُ مِن الإِهْمالِ وَقَرَّبَ : [من الطويل]

علـىٰ كُـلِّ حـالٍ أُمُّ عَمـرٍو جَميلَـةٌ ... وإِنْ لَبِسَـتْ خُلْقـانَهـا وجَـديـدَهـا

وبالجُمْلَةِ فقد مَرَّ ذِكْرُ المَملوكِ في خاطِرِ مَولانا الكَريمِ ، وطافَ من حُنُوِّهِ طائِفٌ على المَوَدَّةِ التي أَصْبَحَتْ كالصَّرِيمِ ؛ وإذا كانَ الشَّاعِرُ قد قالَ : [من مجزوء الكامل]

ويَـدُلُّ هَجْـرُكُـمُ علـىٰ ... أَنِّـي خَطَـرْتُ بِبـالِكُـمْ

فَكيفَ بِمَنْ دَخَلَ ذِكْرُهُ الضَّميرَ وَخَرَجَ ، وذُكِرَ ثَمَّ على ما فِيهِ من عِوَجٍ ، وما اسْتَخَفَّ بي مَنْ أَمَرَني ، وَمَن ذَكَرَني فَما حَقَّرَني ؛ واللهُ تَعالىٰ يُديمُ حَياتَهُ التي هيَ الأَمانُ والأَماني ، ويُمْتِعُ بِأَلْفاظِهِ الفَريدَةِ التي هي أَطْرَبُ مِنَ المَثالِثِ والمَثاني ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

● **فكتبَ هو إِلَيَّ الجَوابَ عن ذلك**[2] : [من السريع]

يـا هـاجِـراً مَـنْ لَـمْ يَـزَلْ قَلْبُـهُ ... إِلَيْـهِ مِـن دُونِ الـوَرىٰ قَـد صَبـا

---

(١) ديوان البحتري ١/ ٢١ ـ ٢٢ .
(٢) الجواب شعره ونثره ، في الأعيان والوافي .

أَرْسَلْتَ مِنْ بَعْدِ الجَفا أَسْطُراً	أَرْقَصَ مِنْها السَّمْعَ ما أَطْرَبا
شَفَتْ فُؤاداً شَفَّهُ وَجْدُهُ	مِنْ بَعْدَ ما قد كادَ أَنْ يَذْهَبا
قالَ لَها العَبْدُ وقَدْ أَقْبَلَتْ	أَهْلاً وسَهْلاً بِكِ يا مَرْحَبا
أَحَلَّها قَلْباً صَحيحَ الوَلا	ما كانَ في صُحْبَتِها قُلَّبا
ولا نَسِي عَهْدَ خَليلٍ لَهُ	قَديمَ عَهْدٍ كانَ مع طُقْصُبا

قَبَّلَ مَواقِعَ تلكَ الأَنامِلِ التي يَحِنُّ إِليها(١) التَّقبيلُ ، وقابَلَ بالإِقْبالِ تلكَ الفَضائِلَ المَخْصوصَةَ بالتَّفْضِيلِ ، وقابَلَها بالثَّناءِ الذي إذا مَرَّ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ جَرَّ عليه من كَمائِمِ كُمِّهِ فَضْلَ المِنْدِيلِ ، وتَأَمَّلَها بِطَرْفٍ ما خَلا من تَصَوُّرِ مَحاسِنِ صَديقٍ ، ولا أَخَلَّ بما يَجِبُ عليه(٢) من التَّلَفُّتِ إِلى مَوَدَّةِ خَليلٍ ، وشاهَدَ منها الرَّوْضَةَ الغَنَّاءَ ، بل الدَّوْحَةَ الفَيْحاءَ ، بل الطَّلْعَةَ الغَرَّاءَ ، فَوَجَدَها قد تَسَرْبَلَتْ من المَعاني البَديهيَّةِ بِأَحْسَنِ سِرْبالٍ ، وتَحَلَّتْ من المَعاني البَديعةِ بما هو أَحْلىٰ في عَيْنِ المُحِبِّ المَهْجُورِ وقَلْبِهِ من طَيْفِ الخَيالِ ؛ لكنَّ مَولانا غابَ عن مُحِبِّهِ غَيْبَةً ما كانَت في الحِسابِ ، وهَجَرَهُ وهُو من خاطِرِهِ بالمَحَلِّ الذي كانَ يظنُّ(٣) أَنَّهُ إِذا ناداهُ بالأَشْواقِ أَجابَ ، واتَّخَذَ بِدْعَةَ الإِعْراضِ عن القائِمِ بِغَرَضِ الوَلاءِ سُنَّةً ، واشْتَغَلَ عَمَّنْ لَهُ عَيْنُ رِضىً عن نِسْيانِ ما مَضىٰ كَلَيْلَةٍ [٤١ ب] بِدِمْنَةٍ ، فخشيَ المَملوكُ من تَطاوُلِ المُدَّةِ ، وخامَرَ قَلْبَهُ(٤) تَقَلُّباتُ الأَيَّامِ فَخافَ أَنْ تَبْقىٰ أَسبابُ المُقاطَعَةِ مُمْتَدَّةً ، وَوَثِقَ(٥) بما تَيَقَّنَ من حُسْنِ الوَفاءِ ويَعْتَقِدُ ، فاقْتَضىٰ حُكْمُ التَّذْكارِ لُطْفَ الاخْتِصارِ ، تَوَصُّلاً إِلى تَفَقُّدِ التَّوَدُّدِ ، ومن عاداتِ السَّاداتِ

---

(١) في ب ، س : التي يحقُّ لها .

(٢) « عليه » ساقطة من أ ، م .

(٣) في م : يظنُّ به أَنَّه .

(٤) في م : وجاش قلبه .

(٥) في س : ووفق .

أَنْ تَفْتَقِدَ ، بِذِكْرِ أَيَّامٍ خَلَتْ مَسَرَّةً وهَناءً ، ولَيالٍ أَحْلىٰ من سَوادِ الشَّبابِ أَوْلَتْ بِوِصالِ الأَحْبابِ اليَدَ البَيْضاءَ : [من الكامل]

لَو أَنَّ لَيْلاتِ الوِصالِ يَعُدْنَ لي ... كانَتْ لَها رُوحُ المُحِبِّ فِداءَ

فَيا لَها من مَليحَةٍ أَقْبَلَتْ بعدَ إِعْراضِها ، ولَطيفَةٍ رَمَقَتْ بِإِيْماءِ جَفْنٍ مُواصَلَتِها وإِيْماضِها ، وبَديعَةٍ اسْتَخْرَجَ غَوَّاصُ مَعانيها من بِحارِ مَعاليها كُلَّ دُرَّةٍ ، وصَنيعَةٍ أَبدىٰ نِظامُ لآليها من غَرَرِ أَيادِيْها أَجْمَلَ غُرَّةٍ ، ورَفيعَةٍ جَدَّدَتِ السُّرورَ ، وَشَرَحَتِ الصُّدورَ ، فَعَلَتْ ـ بما فَعَلَتْ ـ إِكْليلَ المَجَرَّةِ ، ومُتَطَوِّلَةٍ رَغِبَ المُقَصِّرُ فيما يَخْتَصِرُ وَحَبَّبَتْ ، وَمُتَفَضِّلَةٍ قَضَتْ بِحَقِّ تَفْضِيلِها على ما سَبَقَ وإِن كانَ وأَوْجَبَتْ : [من الطويل]

مَوَدَّتُها في مُهْجَتِي لا يُزيلُها ... بِعادٌ ولا يُبْلي الزَّمانُ جَديدَها

واللهُ تَعالىٰ يشكرُ ما حَواهُ من فَضْلِ هذِهِ المَعالي والمَعاني ، ويُمْتِعُ بِفَضائِلِهِ التي تُغْني أَغانيها في مَعانِيها عن المَثالِثِ والمَثاني ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

● وأَخْبَرَني يَوماً أَنَّه زارَ قَبْرَ طُقْصُبا المذكورُ ، فَوَجَدَ قَبْرَهُ قد نَبَتَ بِهِ أَنْواعٌ من الزَّهْرِ ، وَطَلَبَ منِّي نَظْمَ شَيْءٍ في ذلكَ ، **فأَنشدْتُه**(١) : [من الطويل]

بِنَفْسي حَبيباً قَبْرُهُ راحَ رَوْضَةً ... خَمائِلُها مَسْروقَةٌ من مَخايِلِهْ
دَرَىٰ أَنَّهُ لا صَبْرَ لِلنَّاسِ بَعْدَهُ ... فَأَهْدىٰ لَهُمْ أَنْفاسَهُ في شَمائِلِهْ

● **وأَنشدتُه أَيضاً**(٢) : [من البسيط]

---

(١) الخبر والبيتان في الأعيان والوافي .
(٢) البيتان في الأعيان والوافي .

لا تُنْكِـرُوا زَهَـراً مـن حَـوْلِ تُـرْبَتِـهِ   أَضْحىٰ نَسِيْمُ الصَّبا مِن نَشْرِهِ عَطِرا[1]
هَذي مَحاسِنُ ذاكَ الوَجْهِ غَيَّرَها   بَطْنُ الثَّرىٰ فاسْتَحالَتْ فَوْقَهُ زَهَرا

● وأَنشدْتُه أَيضاً[2] : [من البسيط]

أَفْدي حَبيباً غَدا في التُّرْبِ مَضْجَعُهُ   وَفِيهِ لَـذَّ لِجَفْني الـدَّمْعُ والسَّهَـرُ
تَحْكي نُجومَ السَّما أَزْهـارُ تُـرْبَتِـهِ   لأَنَّ طَلْعَتَـهُ تَحْـتَ الثَّـرىٰ قَمَـرُ[3]

٢٢ * أَبو بَكر بن عُثمان[4] :

الشَّيخُ زَيْنُ الدِّين الصُّوفيّ ، عُرِفَ بابْنِ العَجَميّ .

● كَتَبَ إليَّ : [من الكامل]

مـا لـي علىٰ جَوْرِ الهُمـومِ نَصِيـرُ   إلاَّ طَلـىً يَسْعـىٰ بهـا يَعْفُـورُ
مَشْمـولَـةٌ فـي كُـلِّ يَـوْمٍ يَنْقَضـي   لأَخـي الهَـوىٰ مَـوْتٌ بِهـا ونُشُـورُ
طـابَتْ شَـذاً فَعَبِيْرُها بـالسُّكْرِ فـي   رَأْسِ الفَتـىٰ قَبْـلَ المَـذاقِ يَسيـرُ[5]
أَذْكـىٰ المِـزاجُ لَهِيْبَهـا فَعَجِبْتُ مِنْ   مـاءٍ بِـهِ فـي الكـأْسِ شَـبَّ سَعيـرُ
لَوْ لَمْ يُجدِ نَسْجُ الحَبابِ شِباكَها   كـانَـتْ لِفَـرْطِ اللُّطْـفِ ثَـمَّ تَطيـرُ
قـد لَقَّبُـوهـا بـالعَجـوزِ ذَوو الحِجـا   لَمَّـا عَـلاهـا بـالمِـزاجِ قَتيـرُ
مُذْ غِبْتُ عن وَجْدي وَتِهْتُ بِسَكْرَتي   أَضْحـىٰ بِهـا السَّـاقـي عَلَـيَّ يَـدُورُ
وافىٰ بِها فَرَأَيْتُ شَمْساً في يَدَيْ   قَمَـرٍ يُقِـلُّ جَمـالَـهُ خَيْـزورُ[6]

---

(١) في م : . . . من فوق تُربته × .
(٢) البيتان في الأعيان والوافي .
(٣) وسقط ما بعد ذلك من س حتى ترجمة حسن بن جعفر الفاضل ، الآتي برقم ٢٥ .
(٤) ترجمته في : الدّرر الكامنة ١/ ٤٤٨ ودرر العقود الفريدة ١/ ١٥١ نقلاً وتاريخ ابن قاضي شهبة ٣/ ٤٨٤ والنجوم الزّاهرة ١٢/ ١٣٥ والدليل الشافي ٢/ ٨١٧ ونزهة النفوس ١/ ٣٦٨ .
ـ وفاته سنة ٧٩٥ هـ . وولادته قبل ٧٢٠ هـ .
(٥) في ب : . . . . فعبيرها بالمسكِ في × .
(٦) الخيزور : الخيزران .

يَخْتـالُ كـالغُصْـنِ النَّضِيـرِ ومـا لَـهُ   فـي حُسْنِـهِ فـي العـالَميـنَ نَظيـرُ
إنْ ظَـلَّ منـهُ الخَـدُّ سَهْـلاً فـالجَنـا   منـهُ علـىٰ مَـرِّ الـزَّمـانِ عَسيـرُ
أَلِـفَ النِّفـارَ فَـلامَ فِيـهِ عـاذِلـي   فَـأَجَبْتُـهُ إنَّ الغَـزالَ نَفـورُ
عَجَباً لِغُصْـنِ قَـوامِـهِ ، كُـلُّ الـوَرىٰ   [٤٢ أ] بالعَذْلِ قد وَصَفُوهُ وَهْوَ يَجُورُ
وكـذاكَ نَضْـرَةُ طَـرْفِـهِ ونَشـاطُـهُ   وإليـهِ تُعْـزىٰ كَسْـرَةٌ وفُتـورُ
حُصِرَتْ مَعاني الحُسْنِ فِيهِ كَما غدَتْ   ذاتُ الصَّـلاحِ بِهـا الثَّنـا مَحْصُـورُ
العـالِـمُ الحَبْـرُ الكَـريـمُ الأَرْيَحِيْـ   ـيُ الأَلْمَعِـيُّ البـارِعُ النِّحْـريـرُ[1]
مَـوْلـىً يَـرىٰ مـا قـد حَـواهُ جَميعُـهُ   لِلسَّـائِليـنَ بِـأَنَّـهُ مَحْقُـورُ
وَكَذاكَ خَطْبُ الدَّهْرِ يَصْغُرُ عِنْدَهُ   ويَـراهُ سَهْـلَ الـدَّفْـعِ وَهْـوَ خَطيـرُ
مـا إنْ يُـرىٰ فـي دَهْـرِهِ مُتَظَلِّـمٌ   أَبَـداً ولا بَيْـنَ الأَنـامِ فَقيـرُ
عَـدْلاً وَجُـوداً بـاعُ كِسْـرىٰ عَنْهُمـا   قِـدْمـاً وقَيْصَـرَ عـاجِـزٌ وقَصيـرُ
حـازَ الأَثـالَ والمَنـايـا والكَـرِيْـ   ـمُ علىٰ الإرادَةِ والرَّدىٰ مَفْطورُ[2]
لُطْفاً يَـذُوبُ الصَّخْـرُ مِنْـهُ وعَـزْمَـةٌ   جَمَـدَ الـزُّلالُ لَهـا وكـادَ يَغُـورُ
خَجِلَتْ لَدَيْهِ السُّحْبُ لَمَّا أَقْلَعَتْ   ونَـداهُ فـي طُـولِ الـزَّمـانِ غَـزيـرُ
فَكَـأَنَّ بـارِقَهـا لَهِيْـبٌ فـي الحَشـا   مِنْهـا وصَـوْتُ الـرَّعْـدِ مِنْـهُ زَفيـرُ
فَيَسـارُهُ يُمْنـىٰ الغَمـامِ لِمُجْـدِبٍ   ويَمِيْنُـهُ فيهـا اليَسـارُ يَسيـرُ
لا العُـذْرَ يَـدْرِيْـهِ سِـوىٰ بَعْـدَ العَطـا   والعَفْـوَ إلاَّ وَهْـوَ ثَـمَّ قَـديـرُ
وافَـىٰ السَّمـاحَ مَسِيْحُـهُ فَـأَعـادَهُ   خَلْقـاً جَـديـداً رَبْعُـهُ مَخْفـورُ
ولقَـد أَتـىٰ حِيْـنٌ عَلَيْـهِ ولـم يَكُـنْ   شَيْئـاً يُظَـنُّ بِـأَنَّـهُ مَـذْكُـورُ

---

(١) في م : . . . الحبر الهمام . . . × .

(٢) الأثال : المجد والشرف . (القاموس) . وفي ب : حاز المعالي . . . × . وفي م : حاز الأماني . . . × .

أَقْنىٰ وأَغْنىٰ مُوقِعاً ومُوَقِّعاً ... فالعَزْمُ نارٌ والنَّوالُ بُحورُ
بِأَنامِلٍ في الطِّرْسِ شاهَدْنا النَّدىٰ ... مِنْها على الأَوْراقِ كَيْفَ يَسيرُ
إِنْ سَطَّرَتْ بَلْ طَرَّسَتْ بَلْ طَرَّزَتْ ... طِرْساً يَراعَتُهُ عَلاهُ النُّورُ
حُرُّ المَقالِ عَبِيْدُ بَعْضُ عَبِيْدِهِ ... ولِشَأْوِهِ لَمْ يَجْرِ قَطُّ جَريرُ
بِسَجِيَّةٍ يَهْديهِ واضِحُ نُورِها ... أَنّىٰ دَجَتْ يَوْمَ الهِياجِ أُمورُ
وَمَهابَةٍ لولا طَلاقَةُ بِشْرِهِ ... في الدَّسْتِ طاشَ إِذا رَآهُ وَقورُ
يُرْجىٰ ويُخْشىٰ وَعْدُهُ وَوَعِيْدُهُ ... كالسُّحْبِ فيها رَحْمَةٌ وثُبورُ
ساسَ المَمالِكَ فانْثَنَتْ مَخْفُورَةً ... إِذْ زانَها مِنْ رَأْيِهِ التَّدْبِيرُ
فَكَأَنَّهُ والدَّهْرُ من خُدّامِهِ ... يَجْري بِما يَخْتارُهُ المَقْدورُ
مِنْ مَعْشَرٍ إِن سُوجِلوا أَو جُولِسوا ... ذَلَّ النُّضارُ وَعَزَّ ثَمَّ نَظِيرُ
لِلْمُجْتَري والمُجْتَدي والمُجْتَلي ... حَرْبٌ ويَحْرٌ عِنْدَهُم وبُدورُ
كم قد تَراجَعَ في سَماءِ سُمُوِّهِمْ ... بَصَرٌ وَما فِيها لَدَيْهِ فُطورُ
فارْتَدَّ مُنْقَلِباً كَليلاً خاسِئاً ... كَمَداً إِلى أَهْلَيْهِ وَهْوَ حَسيرُ
عايَنْتُ في طُرُق العُلىٰ مُذْ جازَها ... دُرَّ الدَّراري عِقْدُهُ مَنْثُورُ
وجَلَبْتُ حِينَ وَرَدْتُ بَحْرَ نَوالِهِ ... أَيْتامَ دُرٍّ ضِدُّها المَقْهُورُ
سَبَتِ الصَّبا لُطْفاً وَصَحَّتْ فالصَّبا ... مُعْتَلَّةٌ وَلَها الغَداةَ هَريرُ
أَجْرَيْتُها عَرَبِيَّةً لِجَوادِهِ ... عِلْماً بِأَنَّ نِتاجَهُ التَّيْسِيرُ
قَد زانَها طُوْلٌ وفي أَبْياتِها ... عن حَصْرِ أَوْصافِ الصَّلاحِ قُصُورُ
مَنْ لَيْسَ يَحْصُرُ وَصْفَهُ إِنْ قَصَّرَتْ ... عَنْهُ قَصيدي إِنَّني مَعْذُورُ
ولَئِنْ قَصَرْتُ أَو اقْتَصَرْتُ فإِنَّني ... بِمَدِيْحِهِ لِلسّالِفينَ أَخيرُ
وَبِعُذْرِهِمْ لم يَظْفَروا بِمِثالِهِ ... بَحْرٌ لَنا مِن دُرِّهِ التَّحْبيرُ
فِيهِ سَما شِعْري سُمُوّاً لَيْسَ لِلشْـ ... ـشِعْرىٰ العَبُورِ على عُلاهُ عُبورُ

وَنَشَرْتُ حَمْداً فِيهِ يُحْمَدُ نَشْرُهُ فِي طَيِّهِ طِيبُ الشَّذا مَنْشُورُ
يُصْبِي الصَّبا وَيَرىٰ القَبُولُ قَبُولَها لُطْفاً فَيُدْبِرُ عن ذَكاهُ دَبورُ
يا مَنْ بِهِ دَسْتُ الرِّئاسَةِ قَدْ زَها وعَلا ذُراهُ من السَّعادَةِ نُورُ
إنْ شَرَّفَتْ يُمْناكَ فايَ بِلَثْمِها [٤٣ أ] فَلَيَلْثِمَنَّ يَمينيَ الجُمْهُورُ
دُمْ بِالمَعالي ساعِياً أَوْ بالمَسا عي عالِياً فَبِذاكَ أَنْتَ جَديرُ
لا زِلْتَ بالجَدِّ السَّعيدِ تَفُوزُ بالسْـ ـسَعْدِ الجَديدِ وسَعْيُكَ المَشْكُورُ
وَلْيَهْنِ دَهْراً أَنْتَ من حَسَناتِهِ يا ابْنَ الكِرامِ فَذَنْبُهُ مَغْفُورُ

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إليهِ عن ذلك ارْتِجالاً من رَأْسِ القَلَمِ** : [من الكامل]

أَرِياضُ حَزْنٍ نَبْتُها مَمْطُورُ وَنُجُومُ أَفْقٍ ضَمَّها الدَّيْجُورُ
أَمْ هَذِهِ نَفَثاتُ سِحْرٍ قاتِلٍ لِلصَّبِّ حينَ رَنَتْ إليهِ الحُورُ
أَمْ هذِهِ أَبْياتُ شِعْرٍ نَظْمُها يُزْهي فَيَخْجَلُ عِنْدَها المَنْثُورُ
وَنَعَمْ فهذا نَظْمُ مَنْ مَلأَ المَلا فَضْلاً وفاضَتْ مِن لَهاهُ بُحورُ
مَعنىً يَشِفُّ ضِياؤُهُ وعِبارَةٌ مِنْها تَضَوَّعَ في الزَّمانِ عَبيرُ
فَكَأَنَّما تِلْكَ القَوافي أَكْؤُسٌ بِالرَّاحِ قد راحَتْ عَلَيَّ تَدورُ
وَكَأَنَّما الأَلِفاتُ أَغْصانُ النَّقا وَكَأَنَّما هَمْزاتُهُنَّ طُيورُ
وَكَأَنَّما تِلْكَ السُّطورُ جَداوِلٌ فيها البَديعُ يَفوحُ ثُمَّ يَفُورُ
أَكْرِمْ بِها مِنْ دَوْحَةٍ أَغْصانُها مَرْفوعَةٌ وغَديرُها مَجْرورُ
ونَسيمُها في يَقْظَةٍ ورَقيبُها في غَفْلَةٍ ونَديمُها مَسرورُ
والظِّلُّ مَمْدودُ الرِّواقِ بِرَبْعِها والحُسْنُ في ساحاتِها مَقْصُورُ
لَوْ هَبَّ أَيْسَرُ نَفْحَةٍ من تُرْبِها لأَفاقَ من ذاكَ الشَّذا المَخْمورُ
لا عَيْبَ فيها غَيْرُ مَدْحٍ مُقَصِّرٍ هوَ مَعْ مَساوي ذاتِهِ مَشْكُورُ
حَسْبي بِها في خَلْوَتي لي جَلْوَةٌ إنْ ضَمَّني ثَوْبُ الدُّجىٰ المَزْرُورُ

لـي مـن مَعـانيهـا نَـديـمٌ مُـؤْنِـسٌ … بجَمِيـــعِ لَـــذَّاتِ الأَنـــامِ بَصِيـــرُ
أَنــا لا أَقــومُ بشُكْــرِ مُهْــديهــا ولــو … قَصَّــرْتُ عَنْــهُ فَــإِنَّنــي مَعْــذُورُ
هَيْهــاتَ ذاكَ أَمِيْــرُ نَظْــمٍ فــائِــقٌ … ولِــواؤُهُ مِـــن فَـــوْقِنــا مَنْشُــورُ
فَإِذا اجْتَهَدْتُ يَكُونُ غايَةُ قُدْرَتي … أَنِّــي عــلى حُسْــنِ الثَّنــاءِ قَــديــرُ
فَإِلَيْكَ زَيْنَ الـدِّيْنِ مَعْذِرَةُ امْرِىءٍ … فــي بــاعِــهِ عِنْـدَ الجَـوابِ قُصــورُ
فَـالنَّـاسُ مـا فيهـمْ بِفَضْلـي عـالِـمٌ … وَبفَضْـلِ نَظْمِـكَ يَشْهَـدُ الجُمهـورُ
فـــاللهُ يَجْعَلُنـــي كمـــا قـــد قُلْتُـــهُ … وَتَـــرُوحُ أَنْـــتَ وَذَنْبُـــكَ المَغْفــورُ

* * *

حَرْفُ الجِيْمِ

٢٣ * جَواد بن سُليمان بن غالب التَّنوخيّ[١] :

الأَميرُ الأَجَلُّ ، عزّ الدِّين ، أَميرُ الغَرْبِ .

● أَهدىٰ إِليَّ شيئاً من طَرائِفِ الجَبَلِ وهدايا بَيْروت ، فكتبتُ أَنا إِليهِ[٢] :

[من السريع]

يــا سَيِّــداً جــاءَتْ هَــدايــاهُ لــي … علـىٰ المُنـىٰ مِنِّـي وَوَفْـقَ المُـرادْ
أَنْـــتَ جَـــوادٌ ســـابِـــقٌ بِـــالنَّـــدىٰ … مَـن ذا الـذي يُنْكِـرُ سَبْـقَ الجَـوادْ

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/ ١٦٦ والوافي بالوفيات ١١/ ٢١٣ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٨٣ والدّرر الكامنة ١/ ٥٤٠ والمنهل الصافي ٥/ ٣١ والدليل الشافي ١/ ٢٥٣ .
ـ مولده في ٧٠٥ هـ . ووفاته سنة ٧٥٨ هـ .
ـ أَمير الغرب : يعني أَمير بيروت . (ينظر تاريخ بيروت لصالح بن يحيى) .

(٢) الخبر والأبيات جميعاً في : أَعيان العصر والوافي والمنهل الصافي ؛ والأَول والثاني من أَبيات المترجم في الدّرر الكامنة .

● وكتبَ هو إليَّ جَواباً[1] [من البسيط]

وافىٰ مِثالُكَ مَطْوِيّاً على نُزَهٍ ... يَحارُ مَسْمَعُهُ فيها وناظِرُهُ
فالعَيْنُ تَرْتَعُ فيما خَطَّ كاتِبُهُ ... والسَّمْعُ يَنْعَمُ فيما قالَ شاعِرُهُ
وإن وَقَفْتُ أَمامَ الحَيِّ أُنْشِدُهُ ... وَدَّ الخَرائِدُ لو تُقْنىٰ جَواهِرُهُ[2]

* * *

حَرْفُ الحاءِ

٢٤ * (حسن بن عليّ[3]) :

الشَّيخ بَدر الدِّين العبَّاسيّ ، المعروف بابن البَنَّا .

● كتبَ إليَّ وأنا بحلب المحروسة ، في سنة تسعٍ وخمسين وسبعمئة :

[من الكامل]

هيَ مُقْلَةٌ إنْ لَمْ تُعِنْكَ فَلاحِها ... فَسَماحُها بالدَّمْعِ عِيْنُ فَلاحِها
للظَّاعِنينَ عَليكَ حَقٌّ فاقْضِهِ ... مِنْ عَبْرَةٍ وَقَفَتْ على سَفَّاحِها
وَقَفَتْ صَباحُ أَمامَ صُبْحِ رَحِيلِهِمْ ... فَغَنِيْتُ عن مِصْباحِهِمْ بِصَباحِها

(١) الخبر والأبيات جميعاً في : أَعيان العصر والوافي والمنهل الصافي ؛ والأَول والثاني من أَبيات المترجم في الدّرر الكامنة .

(٢) في ب : × . . . . لو تغني جواهره .

(٣) ترجمته في : تذكرة النبيه ٣/ ٢٧٣ والمنتقى من درّة الأَسلاك ٣٦٥ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٢٤٩ وتعريف ذوي العلا ١٦١ والذيل على العبر ١/ ١٧٥ ولحظ الأَلحاظ ١٤٥ والدّرر الكامنة ٢/ ٢١ والنجوم الزّاهرة ١١/ ٨٤ والمنهل الصافي ٥/ ١٠ والدليل الشافي ١/ ٢٦٥ .
ـ وفاته سنة ٧٦٥ هـ . عن نحو سبعين سنة .
ـ هذه الترجمة ساقطة من أ ، س ، م . وهي من ب .

وَكَـأَنَّ طَـلاًّ سـاقِطـاً مِـن دَمْعِهـا ... تَحْكـي فَـرائِـدُهُ عُقـودَ وِشـاحِهـا
وَكَـأَنَّ راحـاً مِـن لَمـاهـا خـامَـرَتْ ... عَقْلـي تَـلاهـا راحُهـا مِـن راحِهـا
وإِذا الرِّياضُ زَهَتْ بِفاخِرِ زَهْرِها ... فالزَّهْرُ مِثْلُ الزُّهْرِ من وَضَّاحِها
زُهِيَـتْ بِـوَجْنَتِهـا وَوَرْدِ شَقيقِهـا ... وَسَنـا ثَنـايـاهـا ونَـوْرِ أَقـاحِهـا
وَكَـأَنَّ غُـرَّتَهـا الغَـزالَـةُ نَبَّهَـتْ ... في الحيِّ حُورَ العِيْنِ من فَضَّاحِها
يـا حُسْـنَ فـاتِنَـةِ العُقـولِ أَهكَـذا ... تُسْتَجْلَـبُ الأَرْواحُ مِـن أَشْبـاحِهـا
حَلَّلْتِ حَظْرَ دمِي ، كذا فَعَلَ الذي ... يَقْضِي علىٰ الإِقْبالِ عندَ طِماحِها
سَئِـمَ اللُّحـاةُ تَجَنُّبـي لِمَـلامِهِـمْ ... وقـد اطْمَـأَنَّ القَلْـبُ مِـن إِلْحـاحِهـا
لـم أَثْـنِ عـن حَلَـبِ عِنـانَ إِقـامَـةٍ ... جَنَفَتْ عَليَّ وقَد أَقَمْتُ بِساحِها[1]
كُـلُّ الـذي أَسْـدَتْ إِلـيَّ مَعـارِفـي ... سَلَبَتْـهُ مِـن عَقْلِـي عُيـونُ مِـلاحِهـا
والـدَّهْـرُ يَقْـرَعُ بـالنَّـوائِـبِ عـادِيـاً ... مَـن لا يُفِيـقُ الـدَّهْـرَ مِـن أَتْـراحِهـا
هِـيَ مَـوْطِـنُ النَّـائـي المُقِـلِّ كَـأَنَّمـا ... وَقَفَـتْ مَقـامَتُـهُ علـىٰ أَفْـراحِهـا
تَسْـرِي بِهـا الأَرْواحُ بيـنَ مـروّضٍ ... عَـن مُـزْنَـةٍ مُثْـنٍ علـى سَحّـاحِهـا
لم تَبْرَحِ الشَّهْباءُ مِن شُهُبِ السَّما ... بِمَنـائِـحِ كـالشُّهْـبِ مِـن مُـرْتـاحِهـا
لِمَّـــا أَرادَ اللهُ جَـــلَّ ثَنـــاؤُهُ ... إِصْـلاحَهـا شَـأْنـاً وبَسْـطَ جَنـاحِهـا
وافىٰ صَلاحُ الدِّينِ كاتِبَ سِرِّها ... قَسَمـاً تَعَيَّـنَ وهـو عَيْـنُ صَـلاحِهـا
رُفِعَـتْ تَـواقيـعُ البِـلادِ بِفـاضِـلٍ ... أَفْكـارُهُ وَقَفَـتْ علـىٰ اسْتِصْبـاحِهـا
فَكَـأَنَّهـا تَـرْمـي بِسَهْـمِ إِصـابَـةٍ ... مَـن رامَـهُ مـا طـاشَ عنـدَ كِفـاحِهـا
إِذْ أُنْشِـرَتْ مِنْهـا المَنـاشِيـرُ التـي ... مـاتَـتْ وَصَـحَّ البَعْـثُ مـن أَرْواحِهـا
بَحْـرُ الفَضـائِـلِ فِيـهِ يُـوجَـدُ دُرُّهـا ... فَصِحاحُهُ تُوهي عُقودَ صِحاحِها
فـي كـلِّ يَـوْمٍ منـهُ مَـوْرِدُ رَهْطِهـا ... كـالشَّمْـسِ عنـدَ غُـدُوِّهـا ورَواحِهـا

---

(١) في ب : لم اين غر . . . × ! وأثبت ما في أعلاه اجتهاداً .

سَلَكَ السَّبيلَ إلى مَشارِقِ حِلِّهِ ... عَرَفَ الصَّوابَ الحَقَّ من أَصْباحِها
كَشَفَتْ مَعارِفُها الغَوامِضَ لَمْ تَزَلْ ... مَصْرُوفَةً منها على إيْضاحِها
مُتَقَلِّدٌ فيها بِعَزْمٍ مُرْهَفاً ... يُغْنِيهِ عن خَطِّيِّها وصِفاحِها[1]
وإذا الصَّحائِفُ شَحَّ وَدْقُ سَحابِها ... فَيَراعُهُ السَّامي مَهَبُّ رِياحِها
وَكَأَنَّما أَقْلامُهُ عندَ العِدىٰ ... شُهُبُ النُّجومِ تَخُطُّ سُمْرَ رِماحِها
آخىٰ صَلاحُ الدِّينِ كُلَّ فَضيلَةٍ ... فَكَأَنَّهُ قد جاءَ لاسْتِفْتاحِها
وإذا الفَضائِلُ رَجَّحَتْ أَرْبابَها ... رَجَحَتْ فَضائِلُهُ علىٰ رَجَّاحِها
يَسْتَصْبِحُ السَّاري بِهِ في نَظْمِهِ ... فِقَرَ البَلاغَةِ يَقْتَدي بِسَماحِها
تَمَّتْ بِهِ رُتَبُ المَعالي حَيْثُما ... كانَت تَكُونُ بِهِ مَدارُ نَجاحِها
في حِلْمِ نَفْسٍ لا يَطِيشُ وَقارُها ... الحِلْمُ مَنْسوبٌ إلى أَسْجاحِها
وكِتابَةُ السِّرِّ التي صَلُحَتْ بِهِ ... أَحْوالُها ، والرَّأْيُ في إِصْلاحِها
وافَتْ إليهِ فَسَدَّ خُلَّةَ أَمْرِها ... سَدّاً تُمَيِّزُها على نُصَّاحِها
تَسْرِي صَحائِفُهُ كَأَنَّ بَريدَها ... من سابِحاتِ الشُّحْبِ من مِسْباحِها
اليُمْنُ مَنْشورٌ بِها في طَيِّها ... والنَّصْرُ مَقْرُونٌ إلىٰ أَلْواحِها
وبَدائِعُ الصُّحُفِ النَّفِيسَةِ أَوْجُهٌ ... تَتَطَلَّبُ الحاجاتِ عندَ صَباحِها
يا مَنْ فِراضُ المَجْدِ دَلَّتْ أَنَّهُ ... مُغْرىً بِها وبِنَدْبِها ومُباحِها
وَمُذَلِّلُ المُسْتَصْعَباتِ كَأَنَّها ... وَقْفاً جِيادُ الخَيْلِ عِندَ جِماحِها
أَهدىٰ إلى هَجَرٍ تِجارَةَ بائِسٍ ... تَمْراً تمرُّ بِهِ صَعيدَ بِطاحِها
حازَ المُعَلَّىٰ من عُلاكَ بِمَدْحِها ... وهو المُصيبُ ثَناً بِضَرْبِ قِداحِها
وهوَ الذي خَتَمَ القَريضَ بِشِعْرِهِ ... إِذْ كانَ دامَ عُلاكَ مِن مُدَّاحِها
حَمَلَتْ مَعارِفَنا اللَّيالي سالِفاً ... فَزَكا النِّتاجُ وطابَ عَقْدُ لِقاحِها

---

(١) في ب : متلد فيها بعزم مرهف × . ولعل ما ذهبت إليه هو الصّواب .

إنَّ المعـارِفَ كـالـرَّكـايـا بَعْضُهـا الْـ ـعَذْبُ الزُّلالُ صَفا على مُمْتاحِها
ولقـد أُتيـتَ بمـا تَجُـرُّ مِـن الحَيـا ذَيْـلاً يَـرومُ الصَّفْـحَ مـن لَمَّـاحِهـا
لا زالَــتِ الأَقْــلامُ عِنْــدَكَ تَقْتَفــي سُبُلَ المعالي فَهي خَيرُ سِلاحِها
ما فَضَّ خَتْمَ الزَّهْرِ أَنْفاسُ الصَّبا لَيْـلاً وفـاحَ شَـذاهُ من فَـوَّاحِهـا)[1]

٢٥ * حسن بن جَعفر[2] :

الفاضِل بَدْرُ الدِّينِ بن شَمْسِ الدِّين البِلْبِيْسي ، الطَّبيبُ بالقاهِرَةِ المحروسَة .

● **كتبَ إليَّ في سنة ٧٤٥ وأَنا بالقاهرة ، على وزنِ قَصيدَةٍ نَظمتُها أَنا ووقفَ هو عليها ، فقال :** [من البسيط]

قامَتْ مَقامَ الحُمَيَّا رِيقُهُ الخَضِرَهْ فَظَنَّهـا بَعْـضُ أَهْـلِ العَصْـرِ مُعْتَصَـرَهْ
وخـالَ فـي مِعْطَفَيْـهِ البـانَ مُنْهَصِـراً فقالَ في مِعْطَفَيْهِ البانُ مَن هَصَرَهْ
ولَـمْ يَكُـنْ لِلحُمَيّـا طِيـبُ رِيقَتِـهِ ولا نَضــارَتِــهِ لِلْبــانَــةِ النَّضِــرَهْ
[٤٣ أ] من الأَناسِيِّ في أَحْداقِهِ حَوَرٌ تَمَنَّـتِ الحُـورُ فـي أَحْـداقِهـا حَـوَرَهْ
وسِحْـرُ أَجْفـانِـهِ لـو كـانَ عـاصَـرَهُ فِرْعَوْنُ مُوسىٰ لأَغْناهُ عن السَّحَرَهْ
فـي نَفْسِـهِ صَلَـفٌ ، فـي قَـدِّهِ هَيَـفٌ صَبٌّ بِهِ كَلِفٌ ، أَمْراضُهُ خَطِرَهْ[3]
تَنـالُ مِـن خَصْـرِهِ وَصْـلاً مَنـاطِقُـهُ وذاكَ مَعْنـىً دَقيـقٌ وهـيَ مُخْتَصَـرَهْ
كَمِثْلِ لَفْظِ صَلاحِ الدِّيْنِ مُحْتَوِياً علـى مَعـانٍ مـن الإِيْجـازِ مُبْتَكَـرَهْ[4]
فَنظْمُـهُ اللُّـؤْلُـؤُ المَنْظُـومُ تَحْسَبُـهُ وتَحْسَـبُ اللُّـؤْلُـؤَ المَنْثُورَ مـا نَثَـرَهْ

---

(١) وليس في ب ردّ الصّفدي .
(٢) لم أقف له على ترجمة .
(٣) في ب : × صبٌّ به دَنَفٌ . . .
(٤) في س : × . . . مع الإيجاز . . .

يا شاعِراً شَنَّفَ الأَسْماعَ ما شَعَرَهْ ... وعَطَّرَ الكَوْنَ مِنْ أَنْفاسِهِ العَطِرَهْ
عادَ السُّرورُ لِمِصْرٍ حِينَ عُدْتَ لَها ... كهاجِرٍ وَصَلَ الصَّبَّ الذي هَجَرَهْ
كانَتْ وَقد غِبْتَ عَنْها ما لَها قَمَرٌ ... كاللَّيْلِ واللَّيْلُ يَرْجُو أَنْ يَرىٰ قَمَرَهْ
حَلَلْتَها فَلَها بالفَخْرِ أَلْوِيَةٌ ... مَعْقودَةٌ وبِكَ الأَمْصارُ مُفْتَخِرَهْ
قالَتْ دِمَشْقُ وقد جانَبْتَ جانِبَها : ... مَن غابَ عن جُودِ كَفَّيْهِ كَمَنْ حَضَرَهْ
يا مَن إذا عَبَرَتْ أَرْضاً رَكائِبُهُ ... تَبْقىٰ بِهِ وبِما يُمْلِيهِ مُعْتَبَرَهْ

● **فكتبتُ أنا الجَوابَ إليهِ ارْتِجالاً** : [من البسيط]

أَهٰذِهِ رَوْضَةٌ أَنْفاسُها عَطِرَهْ ... أَم أُفقُ لَيْلٍ جَلا لمَّا انْجلىٰ قَمَرَهْ
أَمْ قِطْعَةٌ مِن قَريضٍ راقَ قافِيَةً ... وَرَقَّ لَفْظاً كَدَوْحٍ تَجْتَلي زَهَرَهْ
فَما يَمُرُّ علىٰ سَمْعِ امْرِئٍ ولَهُ ... ذَوْقٌ فَيَبْلُغُ مِن تَكْرارِهِ وَطَرَهْ
بالَغْتَ مَوْلاي بَدْرَ الدِّينِ في مِدَحي ... والبَدْرُ كَيْفَ نَراهُ يَمْدَحُ الشَّرَرَهْ
غَرِيبُ مِصْرِكَ لَمَّا حَلَّ رَبْعَكَ قد ... أَضْحىٰ يُنَفِّقُ فيما بَيْنَكُمْ عُجَرَهْ
أَنْتُم أُناسٌ مَطابِيعٌ بِمِصْرِكُمُ ... أَهْدىٰ الشَّآمُ لَكُمْ من أَرْضِهِ بَقَرَهْ
ونَظْمُكُمْ يَخْلُبُ الأَلْبابَ رَوْنَقُهُ ... ومِصْرُ مَعروفَةٌ في النَّاسِ بالسَّحَرَهْ
وفي عِباراتِكُمْ لُطْفٌ يَزِيدُ علىٰ ... رِيحِ الصَّبا حِينَ شَقَّتْ رَوْضَةً نَضِرَهْ
ولَفْظُكُمْ قد حَلا في ذَوْقِ سامِعِهِ ... ولَيسَ نَظْمي فيكُمْ يانِعَ الثَّمَرَهْ

٢٦ * حسن [بن عمر بن الحسن] بن حَبيب[١] :

القاضي الفاضِلُ ، بدرُ الدِّين الحَلَبيّ .

---

(١) ترجمته في : الذيل على العبر ٢/٤٦٨ وتعريف ذوي العلا ٢٧٥ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/٥٥٩ وإنباء الغمر ١/١٤٩ والدّرر الكامنة ٢/٢٩ والنجوم الزّاهرة ١١/١٨٩ والمنهل الصافي ٥/١١٥ والدليل الشافي ١/٢٦٧ وشذرات الذهب ٨/٤٥١ والبدر الطالع ١/٢٠٥ .
ـ هو صاحب « تذكرة النبيه » و« درّة الأسلاك في دولة الأتراك » .
ـ وفاته سنة ٧٧٩ هـ . ومولده سنة ٧١٠ هـ .

● **كتبتُ إليهِ وقد وقفتُ له على قَصيدةٍ[(١)] امتَدَحَ بِها القاضي شَرَفَ الدِّين ابن المرحومِ شَمس الدِّين بن العلاَّمة المرحوم شِهابِ الدِّين أَبي الثَّناءِ محمود ، على هذا الوَزْنِ :**

وَقَفَ المَملوكُ علىٰ القَصيدَةِ التي سَلَبَتْ لُبَّهُ ، وكَشَفَتْ لَهُ عن البَيانِ حُجْبَهُ ، وَوَصَفَتْ مَناقِبَ مَمْدوحِها الذي أَشارَ إِليهِ ناظِمُها وَنَبَّهَ ، وسَرَدَتْ مآثِرَهُ التي كَفَّرَتْ خَطيئَةَ الزَّمَنِ بِوُجودِها وَمَحَتْ ذَنْبَهُ ، وَدَلَّتِ العُفاةَ على نَسَماتِ جُودِهِ التي كم لَها من هِبَةٍ في كُلِّ هَبَّةٍ ، واخْتارَتْ لَها منهُ كُفُواً أَضْحَتِ المَجَرَّةُ طَريقَهُ ، والثُّرَيَّا نَعْلَهُ ، والهِلالُ قُلامَتَهُ ، وأُزيدُهُ شَرَفاً إِذا قُلْتُ قَلْبَهُ .

فَوقَفَ المَملوكُ على كُلِّ بيتٍ منها مع حَسَدِهِ ، وقال : فَدَيْناكَ من رَبْعٍ وإِنْ زِدْتَنا كُرْبَةً ، وطافَ بِهِ على عَيْنِهِ وَرَأْسِهِ لمَّا كانَ في الأَدَبِ كَعْبَةً ؛ فَلو تعاطاها العَرَبُ الفِصاحُ لكانَتْ لِقُلوبِهم طابِخَةً وعلىٰ أَذهانِهم ضَبَّةً ، ولو رَآها ابنُ نُباتَةَ لَوَجَدَ في كلِّ خُطْبَةٍ خَطْبَهُ ، ولو اسْتَعْمَلَها الفاضِلُ في تَرَسُّلاتِهِ ما عَمِلَ اللهُ لَهُ ـ كما قيل ـ حَدْبَةً ، ولو نَظَرَ فَضْلَها الكِسائيُّ لَتَحَقَّقَ تَجَرُّدُهُ في العِلْمِ[(٢)] وسَلْبَهُ ، ولو عاصَرَها ابنُ يَعيش لَقَضىٰ في الوَقْتِ نَحْبَهُ ، ولو أُنْشِدَتْ لِحَمَّادٍ الرَّاوِيَةِ لَقِيَ منها عَرَقَ القِرْبَةِ ، ولو [٤٣ ب] شاهَدَ ابنُ البَوَّابِ سُطورَها لَتَأَخَّرَ عَمَّا يَسْتَحِقُّهُ من الرُّتْبَةِ ، ولو نَظَرَها ابْنُ مُقْلَةَ لَتَمَنَّىٰ أَن تكُونَ أَلِفاتُها هُدْبَهُ ، ولو سَمِعَها ابنُ الرُّوميّ لَقَطَعَ الرُّعْبُ منهُ ومن أَصْلِهِ صُلْبَهُ ، ولو سَعىٰ خَلْفَها ابنُ سَهْلٍ لَعَلِمَ أَنَّ طريقَها في النَّظْمِ صَعْبَةٌ ، ولو حاوَلَ ابنُ الخَيَّاطِ مَعانيها لكانَ

---

(١) بعض هذه القصيدة في تذكرة النبيه ٣/٢٦٨ ـ ٢٦٩ والمنتقى من درَّة الأَسلاك ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ، ومطلعها :

بيـن جسمـي وبيـن خَصْـرِك نِسْبَـهْ ... كيـف عنِّـي مَنَعْـتَ يـا غُصْـنُ قُـربَـهْ

(٢) في ب ، س : من العلم .

العَجْزُ وَقَعَ في قَبِّهِ[1] وضَرَبَ عليهِ قُبَّةً ، ولو تَعَوَّذَ بِكَلِماتِها عُمارَةُ اليَمَنيُّ لأَمِنَ خَرابَ عُمْرِهِ وَصَلْبَهُ ، وَلو ولَو ولَو[2] : [من الخفيف]

بَيْـنَ قَطْـرِ النَّـدىٰ وشِعْـرِكَ نِسْبَـهْ ... فَلِهَـذا أَلْفـاظُـهُ الغُـرُّ عَـذْبَـهْ

ما حَبيبُ الطَّائيُّ يا ابْنَ حَبيبٍ ... حامِداً في القَريضِ بَعْدَكَ كَسْبَهْ

وأَرىٰ ما نَظَمْتَ زَهْراً ولكِنْ ... هُوَ عِنْدي بِالأَنْجُمِ الزُّهْرِ أَشْبَهْ

وعَجِيبٌ مِن عِقْدِ دُرٍّ نَفيسٍ ... كُلُّ قَلْبٍ شَراهُ مِنْكَ بِحَبَّهْ

لو غَدا لَفْظُهُ هَدِيَّةَ صَبٍّ ... لِحَبيبٍ لَكانَ في البُعْدِ قُرْبَهْ

هو حالٍ في كُلِّ حالٍ أَراهُ ... نُصْبَ عَيْني والحالُ يَطْلُبُ نَصْبَهْ

ليسَ عِنْدي في الأُفْقِ والقَوْلُ حَقٌّ ... شُبْهَةٌ أَن تَبيتَ تَنْظِمُ شُهْبَهْ

فَرِحَتْ جِلَّقٌ بِقُرْبِكَ حتَّىٰ ... كان حِنَّا الأَصيلِ في الأُفْقِ خَضْبَهْ

وحَمامُ الغُصونِ بالسَّجْعِ أَضْحىٰ ... يَتَغَنَّىٰ وَرَقَّصَ الرَّوْضُ قُضْبَهْ

يا أَديباً أَتىٰ بِشِعْرٍ يَراهُ ... كُلُّ صَبٍّ يَفوقُ وَصْلَ الأَحِبَّهْ

وجَواداً جَرىٰ فَجَلَّىٰ فكانَتْ ... حَلَبٌ في القَرِيْضِ لِلنَّاسِ حَلْبَهْ

وَكَمِيّاً ما مَدَّ في النَّظْمِ باعاً ... فاقْتَضىٰ باعُهُ إِذا مُدَّ قَلْبَهْ

خاضَ بَحْرَ القَرِيضِ غَيْرُكَ لكِنْ ... لم يَذُقْ مِن زُلالِكَ العَذْبِ نُغْبَهْ

أَيُّ شَيْءٍ أَلْهاكُمُ يا بَني العَصْـ ... ـرِ فلم تَلْحَقُوا لَهُ قَطُّ رُتْبَهْ

هُوَ عِنْدي بالنَّصْرِ فازَ وتَبَّتْ ... يَدُ مَنْ قد غَدا بِهِ يَتَشَبَّهْ[3]

● فكتبَ هو الجَوابَ إِليَّ عن ذلك :

يُقَبِّلُ كذا ، ويُنْهي بعدَ وَلاءٍ اتَّخَذَهُ إِلْفاً وقَريناً ، ودعاءٍ استفتحَ بِهِ بابَ

---

(١) في ب : قَلبه .

(٢) معظم هذه القصيدة في تذكرة النبيه ٣/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠ وبعضها في المنتقى من درَّة الأسلاك ٣٥٥ .

(٣) وسقط ما بعد ذلك من س حتى نهاية الترجمة .

القَبولِ فَقيلَ لَهُ : ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ [الفتح : ١] وثَناءٍ بِهِ يُعْرَفُ عَرْفُ الرِّياضِ ، وانْتِماءٍ ليسَ له انْتِهاءٌ ولا انْقِراضٌ ، وشَوْقٍ إلى قُرْبِ أَيَّامِهِ المُسْتَنيرَةِ ، التي يَطولُ الشَّرْحُ في وَصْفِ مَحاسِنِها وإنْ كانَتْ قَصيرةً[1] : [من الطويل]

تَفَضَّلَتِ الأَيَّامُ في الجَمْعِ بَيْنَنا فلمَّا حَمِدْنا لَم تُدِمْنا على الحَمْدِ
جَعَلْنَ وَداعي واحِداً لِثَلاثَةٍ جَمالِكَ والعِلْمِ المُبَرِّحِ والمَجْدِ

وُصولَ الإنْعامِ الشَّريفِ الذي أَعْذَبَ شُرْبَهُ ، وأَمْطَرَ سُحْبَهُ ، وأَذْهَبَ غَيْظَهُ على الدَّهْرِ وعَتْبَهُ ، ورَفَعَ لَهُ بينَ المَلأ رُتْبَةً وأَيَّ رُتْبَةٍ ، وَأَعْلى قَدْرَهُ إلى أَن زاحَمَ في أُفُقِ التَّوفيقِ شُهْبَهُ ، وَنَبَّهَ منهُ حَظَّاً نامَ دَهْراً وصارَ لَهُ بِهِ في النَّاسِ نِسْبَةً .

فَيا للهِ ذلكَ البِرَّ الشَّامِلَ وَمُهْدِيْهِ ، والفَضْلَ الكامِلَ ومُبْديهِ ، وأَحْسِنْ بِطِرْسٍ يُصْبي أَهْلَ العِلْمِ بأَعْلامِهِ وأَفْوافِهِ ، وَأَلْفاظٍ أَخْجَلَتِ الدُّرَّ فَراحَ مُسْتَخْفِياً في أَصْدافِهِ ، وَفَصاحَةٍ تَعْقِلُ عُقولَ ذَوي الفِطَرِ السَّليمَةِ ، وفِقَرٍ يَفْتَقِرُ أَجْيادُ الحِسانِ إلى جَواهِرِ عُقودِها النَّظيمَةِ ، وَتَرَسُّلٍ يُظْهِرُ نَقْصَ الفاضِلِ وخُمولَ ابنِ النَّبيه ، وَخَطٍّ لو شاهَدَهُ ابنُ البَوَّابِ [٤٤ أ] عادَ قَلَمُهُ كَعَصا أَبيه[2] : [من الطويل]

فإِنْ كانَ زَهْراً فَهْوَ صُنْعُ سَحابِهِ وإِنْ كانَ دُرَّاً فَهْوَ مِن لُجَّةِ البَحْرِ

لَقد تَنَزَّهَ المَملوكُ في رَقْمِ أَنامِلِهِ الشَّريفَةِ ، واجْتَنى أَزْهارَ أَلْفاظِهِ العَذْبَةِ وأَبْكارَ مَعانيهِ اللَّطيفَةِ ؛ يا لَها مَعاني ظَهَرَتْ من البَلاغَةِ في أَحْسَنِ الأَنْواعِ ، وشَرَّفَتِ الأَبْصارَ وشَنَّفَتِ الأَسْماعَ ، وَسَبَتِ الأَلْبابَ وسَلَبَتِ النُّفوسَ ، وأَغْنَتْ عن تَرَنُّمِ أَلْسُنِ العِيْدانِ وارْتِشافِ شِفاهِ الكُؤوسِ[3] ، ما أَحْسَنَ ما جاءَتْ تَرْفُلُ في ثَوْبِ طِرْسُ راقِمِهِ على أَهْلِ العَصْرِ مُبَرِّزٌ ، وما أَحَقَّها بِقَوْلِ ابنِ

---

(١) البيتان للمتنبي ، في ديوانه ٢/ ٦٩ .
(٢) البيت ثالث ثلاثة لابن الحلاوي الموصلي ، في خزانة الأدب للحموي ٣/ ٩٦ .
(٣) في م : أفواه الكؤوس .

الرُّوميّ[1] : [من الكامل]

وَحَـدِيْثُهـا السِّحْـرُ الحَـلالُ لَـو أنَّـهُ لَـم يَجْـنِ قَتْـلَ المُسْلِـمِ المُتَحَـرِّزِ

شَكَرَ اللهُ تعالىٰ فَضْلَهُ الذي طَوَّقَ الأَجْيادَ ، وَنَفَعَ بِفَضائِلِه الوارِيَةِ الزِّنادِ ، وأَدامَ سَحَّ سَحابِهِ الذي جادَ وأَجادَ[2] ، وجعلَ أَنْوارَ سَمائِهِ ونارَ شَمْسِهِ ، هذه تَهْدي قُلوبَ الأَوْلِياءِ ، وهذه تتَأَجَّجُ في أَكْبادِ الحُسَّادِ .

وقد خَدَمَ المَملوكُ بهذِهِ الأَبْياتِ المُعْتَرِفَةِ بالقُصُورِ ، المُتَسَتِّرَةِ من الحياءِ في طَيِّ رَقِّها المَنْشورِ ، الطَّامِحَةِ إلى سَدِّ ظِلِّها[3] لدىٰ السَّبْرِ ، الطَّامِعَةِ في أَنْ تُلَمِّحَ عندَ المُقابَلَةِ بالجَبْرِ ، وهي : [من السريع]

سَفْـكَ دِمـا عُشَّـاقِـهِ قَـد أَبـاحْ لَمَّـا انتَضَـىٰ مِـنْ مُقْلَتَيْـهِ الصِّفـاحْ
أَهْيَـفُ مـا هَـزَّ قَنـاً قَـدُّهُ إلاَّ وغـارَتْ مِنْـهُ سُمْـرُ الـرِّمـاحْ
ولا تَبَـدَّىٰ وَجْهُـهُ سـافِـراً إلاَّ وَخِلْتُ الصُّبْحَ في الشَّرْقِ لاحْ
ذو مُقْلَـةٍ كَحْـلاءَ سَحَّـارَةٍ لا تُحْـوِجُ الصَّبَّ إِلـى شُـرْبِ راحْ
كـم أَطْلَقَـتْ سَهْمـاً وَكَـمْ قَيَّـدَتْ قَلْـبَ مُحِـبٍّ بِجِـراحِ اجْتِـراحْ
لا تَسْـأَلُـوهـا أَبَـداً عَـن دَمـي فَما علىٰ المَرْضىٰ السُّكارىٰ جُناحْ
يـا غُصْـنَ بـانٍ قُـصَّ لَمَّـا نَـأَىٰ مِـن طـائِـرِ القَلْـبِ جَنـاحُ النَّجـاحْ
ارْفَـعْ قِتـالـي فـي حُـروبِ الهَـوىٰ فـإِنَّنـي عَجْـزاً وَضَعْـتُ السِّـلاحْ
أُنْظُـرْ إِلـى الأَجْفـانِ واعْجَـبْ لَهـا مَكْسُـورَةً تُسْبـي العُقُـولَ الصِّحـاحْ
إِنْ أَفْسَـدَتْ أَسْيـافُهـا مُهْجَتـي ظُلْمـاً تَعَلَّقْـتُ بِعَـدْلِ الصَّـلاحْ
مَـولـىً لَـهُ أَعْـلامُ عِلْـمٍ إِذا مـا ظَهَـرَتْ تَهْـدي لِطُـرْقِ الفَـلاحْ

---

(١) ديوانه ٣/ ١١٦٤ .
(٢) في م : جاد وأعاد .
(٣) في م : سدِّ خَلَلِها .

رُبَّ مَعانٍ عَذْبَةٍ أَخْرَسَتْ | أَلْفاظُها العُرْبَ السَّراةَ الفِصاحْ
حَبْرُ الهُدىٰ بَحْرُ النَّدىٰ ماجِدٌ | يَرْتاحُ للإِحْسانِ أَيَّ ارْتِياحْ
يُثْني على مَعْروفِهِ مَن غَدا | إِلى حِمىٰ نادي نَداهُ وَراحْ
ذو قَلَمٍ قد جَلَّ عن قادِحٍ | يَنْفُذُ في الأَمْرِ نُفوذَ القِداحْ
إِنْ جادَ قُلْنا يا حَياءَ الحَيا | أَوجالَ غارَتْ مِنْهُ بِيْضُ الصِّفاحْ
يا حَبَّذا طِرْسٌ أَتىٰ مُنْعَماً | من رَبْعِهِ الحاوي سَماءَ السَّماحْ
مُسْتَمْلَحَ الوَصْفِ بِرَوْضاتِهِ | زَهْرٌ يُغيرُ الزُّهْرَ عندَ الصَّباحْ
مُحَقَّقَ المَنْسوبِ من خَطِّهِ | يُخْجِلُ رَيْحانَ خُدودِ المِلاحْ
لم أَنْسَ إِذْ وافىٰ وفي طَيِّهِ | نَشْرٌ نَفىٰ عَنَّا العَنا حِينَ فاحْ
لَمَّا دَنا أَكْرِمْ بِهِ زائِراً | حَلَّ الهَنا والبِشْرُ والإِنْشِراحْ
لا زالَ يُهْدي دُرَّهُ كَعْبَةً | لِلْقَصْدِ ما هَبَّتْ نَسيمُ الرِّياحْ

٢٧ * حسن بن عليّ(١) :

الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّين ابن المُحَدِّث الكاتِبِ .

● **كتبَ إِليَّ أَبياتاً لامِيَّةً [في سِنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة](٢) التزمَ فيها الجِيمَ(٣) ، فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ والتزمتُ الميمَ :** [من مجزوء الرجز]

[٤٤ ب] يا أَيُّها المَوْلىٰ الذي | في العِلْمِ فاقَ والعَمَلْ

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/ ٢١٠ والوافي بالوفيات ١٢/ ١٧٨ والدّرر الكامنة ٢/ ٢٥ وفوات الوفيات ١/ ٣٤٨ المقفى الكبير ٣/ ٤١٣ .
ـ وفاته سنة ٧٣٤ هـ .
(٢) الزيادة من أَعيان العصر .
(٣) في ب ، س : وهي . ثم ترك الناسخ بياضاً يتّسع لثلاثة أَسطرٍ .
وقال المؤلف في الوافي ١٢/ ١٨٠ : وكان قد أَنشدني شيئاً من شعرهِ ، وكتب إِليَّ أَبياتاً ملزومةً ، والتزمتُ الميم قبل اللاّم ، ولم أَجدْ أَبياته لعَدمِها عند تعليق هذه الترجمة .

وَمَــــن حَـــوىٰ فَضـــائِـــلاً　　كـــالقَطْـــرِ لمَّـــا أَنْ هَمَـــلْ
ومَـــــن لَـــــهُ تَجَمُّـــــلٌ　　أَرْبـــىٰ بِـــهِ علـــىٰ الجُمَـــلْ
والبَـــــدْرُ لا بِـــــدْعَ إِذا　　تَـــمَّ عُـــلاهُ واكْتَمَـــلْ
أَبْيـــاتُـــكَ الغُـــرُّ أَتَـــتْ　　والـــرَّوْضُ مِنْهـــا قَـــد خَمَـــلْ
حَلَـــتْ مَعـــانيهـــا التـــي　　كـــالشَّمْـــسِ حَلَّـــتْ فـــي الحَمَـــلْ
رَقَّـــصَ أَعْطـــافـــي بِهـــا　　لَحْـــنُ الخَفيـــفِ والـــرَّمَـــلْ
وأَبْـــرَأَتْ جُـــرْحِـــي الـــذي　　لـــو لـــم تَجِئْنـــي مـــا انْـــدَمَـــلْ
مَـــولايَ أَنْـــتَ صـــادِقٌ　　وذاكَ بِـــالعـــارِ اشْتَمَـــلْ
ولـــو بَـــدا عـــن مُـــوجِـــبٍ　　مِنِّـــي لَكـــانَ يُحْتَمَـــلْ
فـــاخْلَـــعْ وِداداً قَـــد غَـــدا　　مـــن قِـــدَمِ العَهْـــدِ سَمَـــلْ
فَغـــالِـــبُ النَّـــاسِ إِذا　　صَحِبْتَـــهُ جَفـــا ومَـــلْ
فـــاتْـــرُكْ مَـــن اسْتَنْكَـــرْتَـــهُ　　فـــي الـــوُدِّ يَـــرْعـــىٰ فـــي الهَمَـــلْ
واسْلَـــمْ وَدُمْ فـــي نِعْمَـــةٍ　　مـــا لَـــذَّ لِلْمَـــرْءِ أَمَـــلْ

٢٨ * حسن بن عليّ بن حَمد بن حُميد بن إبراهيم بن شَنار(١) :

القاضي البَليغ ، بدرُ الدِّين الغَزِّيّ ، كاتِبُ الإِنْشاءِ الشَّريف بالشَّام المحروسِ .

● **كتبَ إليَّ وَأَنا بِصَفَد المحروسَة ، في سنة ٧٣٣** : [من الطويل]

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/ ٢١٤ والوافي بالوفيات ١٢/ ١٨٤ ووفيات ابن رافع ١/ ٣٠٧ وتذكرة النبيه ٣/ ١٦٧ والمنتقى من درَّة الأَسلاك ٢٨٨ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٣٩ والدّرر الكامنة ٢/ ٢٢ والنجوم الزّاهرة ١٠/ ٢٨٨ والمنهل الصافي ٥/ ١١٠ والدليل الشافي ١/ ٢٦٧ .
ـ مولده سنة ٧٠٦ هـ . ووفاته سنة ٧٥٣ هـ .
ـ شنار : ضبطها المؤَلف بقوله : بفتح الشين المعجمة ، والنون ، وبعد الأَلف راءٌ .

تَقَلَّبْ فَلَيْسَ النَّارُ عاراً على التِّبْرِ ... وَلَيْسَ ثِقافُ السَّمْهَرِيِّ بِهِ يُزْرِي
وما السَّيْفُ مَسْلولاً بِشَيْءٍ وإِنَّهُ ... لَفِي الغِمْدِ أَحْرىٰ أَنْ يُضَمَّ إِلى الصَّدْرِ
وما زالَ لَيْثُ الغابِ يَأْلَفُ غِيْلَهُ ... وَيَأْنَفُ تَرْدادَ السَّفاهَةِ من كِبْرِ
وفي الحَجَرِ الصَّلْدِ الشَّرارُ فإِنْ جَرىٰ ... علىٰ صَفْحِهِ زَنْدٌ أَثارَ لَظىٰ الجَمْرِ
لقد صانَتِ الأَيَّامُ حَدَّكَ أَنْ يُرىٰ ... حَمائِلُهُ تُزْهىٰ على عاتِقِ الدَّهْرِ
وإِنْ جَعَلَتْكَ الحادِثاتُ رَهِيْنَةَ الْـ ... إِقامَةِ في بَيْتٍ مُنيفٍ ذُرىٰ الجُدْرِ
فَلَيْسَ بِمَخْفِيٍّ سَنا الشَّمْسِ إِنْ بَدَتْ ... ولا القَمَرِ المَرْئِيِّ في غُرَّةِ الشَّهْرِ
يَميناً لَقَد ساءَتْ مُعامَلَةُ العُلىٰ ... لَدَيْكَ وقد سارَتْ على مَنْهَجِ الغَدْرِ
أَيُمْنَعُ ما أَبْرَزْتَهُ من بَلاغَةٍ ... تُضِيءُ بِها أُفْقَ الدَّفاتِرِ والشِّعْرِ
وقد سارَ من ذِكْراكَ في كُلِّ وِجْهَةٍ ... نُجومٌ وَهَلْ يَخْفىٰ سَنا الأَنْجُمِ الزُّهْرِ
تَبَسَّمْ تَزِدْ حُسَّادَ فَضْلِكَ غُمَّةً ... تبيتُ لَهُمْ في كُلِّ جانِحَةٍ تَسْرِي(١)
وقُلْ أَنْتَ يا رَبَّاهُ مَفْزَعَ لاجِىءٍ ... رَمَتْهُ بَناتُ الدَّهْرِ من حَيْثُ لا يَدْرِي
فإِنَّ احْتِمالَ المَرْءِ ما يُعْجِزُ القُوى ... أَدَلُّ على الأَصْلِ الكَريمِ مِن الفَخْرِ
وَكُلُّ احْتِياجٍ لَيْسَ يُعْقِبُ ذِلَّةً ... تَقومُ مَقامَ الوَفْرِ والنَّائِلِ الدَّثْرِ
سِوىٰ ما أَصابَ الدَّهْرُ مِنْكَ فلا تَخَفْ ... فَما اللَّيْلُ مَخْشِيّاً على طَلْعَةِ البَدْرِ
إِذا ذَهَبَتْ دُنْياكَ فالدِّيْنُ مَكْسَبٌ ... وما زَهْرَةُ الدُّنْيا بِأَنْفَسِ ما تَشْرِي
ولا بُدَّ بَعْدَ اليَأْسِ أَن يُثْمِرَ الرَّجا ... وطُولُ احْتِباسِ الغَيْثِ أَوْفَرُ لِلقَطْرِ
عَلَيْكَ سَلامٌ من خَليلٍ وَفاؤُهُ ... وَفاءُ أَقاحِي الرَّوْضِ لِلوابِلِ الغَمْرِ

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ** : [من الطويل]

أَشِعْرُكَ أَمْ رَوْضٌ تَبَسَّمَ عن زَهْرِ ... وَلَفْظُكَ أَمْ عِقْدٌ تَنَضَّدَ من دُرِّ

---

(١) في م : × . . . في كل جارحة . . . .

بَعَثْتَ بأَبْياتٍ بها شُغِفَ النُّهىٰ من المَثَلِ السَّاري إلى الحِكْمَةِ البِكْرِ
وَأَوْدَعْتَها من لَفْظِكَ العَذْبِ قَهْوَةً إذا ارْتُشِفَتْ لا إِثْمَ فيها مَعَ السُّكْرِ
وَأَطْلَعْتَ هاتِيْكَ المَعاني كَواكِباً تُضِيءُ لأَهْلِ الفَهْمِ في حِنْدِسِ الحِبْرِ
فَهَوَّنْتَ ما أَلْقاهُ من حادِثِ الرَّدىٰ وعَرَّفْتَني قَدْرَ المَثُوبَةِ والأَجْرِ
وَلَذَّ لَدَيَّ الصَّبْرُ إِذْ أَمَرْتَ بِهِ فَيا مَنْ رَأَىٰ غَيْري تَلَذَّذَ بالصَّبْرِ(١)
وقاسَمْتَني فِيها هُمُوماً حَمَلْتُها وهذا دَليلُ الفَضْلِ في خُلُقِ الحُرِّ
وبالرَّغْمِ أَنْ أَلْقىٰ مُحَيَّاكَ سافِراً ولم تَلْقَ مِنِّي ما عَهِدْتَ من البِشْرِ
وهلْ لاقَ بالظَّمْآنِ مِثْلي إذا ٱلْتَظَتْ [٤٥ أ] حَشاهُ وذابَتْ أَنْ يَصُدَّ عَنِ البَحْرِ
ولكنَّ عُذْرِي واضِحٌ في تَخَلُّفي وما كُلُّ خِلٍّ صَدَّ مُتَّضِحُ العُذْرِ
وحَسْبي بِأَنِّي أَقْطَعُ اللَّيْلَ ساهِراً ويُحْرَمُ حتَّىٰ ناظِري رُؤْيَةَ البَدْرِ
وهَبْ أَنَّني صَبَّرْتُ قَلْبي على الأَذىٰ وقابَلْتُ هذا الأَمْرَ بالحَمْدِ والشُّكْرِ
أَلَيْسَ مِنَ الخُسْرانِ أَنَّ لَيالِياً تَمُرُّ بِلا نَفْعٍ وتُحْسَبُ من عُمْري

● **وكتبَ هو إليَّ وأنا بالقاهرةِ المحروسَة ، سنة ٧٣٢**(٢) : [من البسيط]

لَيلُ التَّجَنُّبِ مِنْ أَجفانِنا شُهُبُهْ ومُجْدِبُ الرَّبْعِ ما كانَتْ دَماً سُحُبُهْ
ما لِلنَّوىٰ أَطْلَعَتْ في غارِبٍ قَمَراً يُقِلُّهُ البانُ يَوْمَ البَيْنِ لا غَرَبُهْ
تَنَظَّمَتْ عَبَراتي في تَرائِبِهِ عِقْداً كما ٱنْتَثَرَتْ في وَجْنَتي سُحُبُهْ
يا مَنْ وَفىٰ الدَّمْعُ إِذْ خانَ الوِدادَ لَهُ غَدْرُ الحَبيبِ وَفاءُ الدَّمْعِ أَوْ سَبَبُهْ
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ صَبْري لا يُذَمُّ وَقَد مَضىٰ وفي ذِمَّةِ الأَشْواقِ أَحْتَسِبُهْ(٣)
يا نازِحاً سَكَنَ القَلْبَ الخَفوقَ ومِنْ إِحْدىٰ العَجائِبِ نائي الوَصْلِ مُقْتَرِبُهْ

---

(١) كذا صدره في أ ، س ؛ وفي ب : ولذَّ لديَّ الصَّبر والأَمر منك لي × . وسقطت كلمتا « إذ أَمرت » من م .
(٢) القصيدة في الوافي وأَعيان العصر .
(٣) في م : . . . لا يدوم وقد × وفىٰ . . . .

مـا لاحَ بَـرْقٌ ولا نـاحَـتْ مُطَـوَّقَـةٌ ولا تَنـاوَحَ مِـنْ بـانِ الحِمـىٰ عَـذَبُـهُ
إلاَّ تَسـاعَـدَ قَلْبـي والـدُّمـوعُ وأَحْـ ـناءُ الضُّلُوعِ على شَوْقٍ عَلا لَهَبُهُ
حَكَيْتَ يا بَرْقُ قَلْبي في الخُفوقِ ولَمْ يُفْتِـكَ إلاَّ لَهيـبُ الـوَجْـدِ لا شَنَبُـهُ
مَن لي بِأَغْيَدَ بَدْرِ التِّمِّ حِيْنَ بَدا قـد سـاءَ إذْ رامَ تَشْبيهـاً بِـهِ أَدَبُـهْ
مُمَنَّـعٌ بـالـذي ضَمَّـتْ غَـلائِلُـهُ مِـن القَنـا وبِمـا أَصْمَـتْ بِـهِ هُـدُبُـهْ
بَيْـنَ الأَسِنَّـةِ مَحْجُـوبٌ ولـو قَـدَروا مـا قَـوْسُ حـاجِبِـهِ أَغْنَتْهُـمُ حُجُبُـهْ
سَلَبْنَنـي بـالضَّنـا لَحْمـي لَـواحِظُـهُ وَهَمُّ أُسْدِ الشَّرىٰ المَسْلوبُ لا سَلَبَهْ[1]
لَـو لَـم تَكُـنْ رِيْقُـهُ خَمْـراً وَمَـرْشَفُـهُ كَـأْسـاً لَمـا كـانَ يَحْكـي ثَغْـرَهُ حَبَبُـهْ
كَـذا ابـنُ أَيْبَـكَ لَـولا ما حَـواهُ لَمـا عَنِ الكَتائِبِ أَغْنَتْ في الوَغىٰ كُتُبُهْ
ذادَ الأُولىٰ عن طَريقِ المَجْدِ ثم نَحا آثـارَهُ فَعَلَـتْ أَجْبـالَهُـمْ هُضُبُـهْ
وآبَ يَقْطِـفُ مِـن أَغْصـانِـهِ ثَمَـراً إذَا أَتـىٰ غَيْـرُهُ بـالشَّـوْكِ يَحْتَطِبُـهْ
أَقْـلامُـهُ فَـرَحـاً بـالفَضْـلِ أَنْمُلُهـا كُـلٌّ مُخَلَّـقُ ثَـوْبِ المَجْـدِ مُخْتَضِبُـهْ
تكـادُ أَلْسُنُهـا تَمْتَـدُّ مِـن شَغَـفٍ إلـى أَجَـلِّ مَعـانـي القَـوْلِ تَقْتَضِبُـهْ
بَـراعَـةٌ رَوَّعَـتْ لامـاتُ أَحْـرُفِهـا أَحْشـاءَ مُنْحَـرِفٍ لامـاتُـهُ يَلَبُـهْ[2]
أَضْحَتْ مُسَبِّبَةَ الأَرْزاقِ حِينَ حَكَتْ سَبَّـابَـةً لِعَـدُوٍّ قـد وهـيَ سَبَبُـهْ
يا مَنْ يُجيلُ قِداحَ المَيْسِرِ ازْمِ بِها وارْمِ الفِجـاجَ لِيُسْـرٍ نَجْمُـهُ طَلَبُـهْ
واقْصِدْ جَنابَ صَلاحِ الدِّيْنِ تَلْقَ فَتىً يَهُـزُّهُ حِيـنَ يُتْلـىٰ مَـدْحُـهُ طَـرَبُـهْ
بَنَـتْ علـى عُنُـقِ العَيُّـوقِ هِمَّتُـهُ بَيْتـاً يُمَـدُّ علـىٰ هـامِ السُّهـىٰ طُنُبُـهْ
قَـدْ أَتْعَبَـتْ راحَتـاهُ الكـاتِبِيْـنَ ولَـمْ يُدْرِكْهُ حِينَ جَرىٰ نَحْوَ العُلىٰ تَعَبُهْ
فاعْجَبْ لَها راحَةً تَسْقي اليَراعَ نَدىً إذْ لَمْ تكنْ أَوْرَقَتْ في ظِلِّها قُضُبُهْ

---

(١) « سلبتني » ساقطة من م .
(٢) في م : يَراعةٌ . . . × .

تَناسَبَ الدُّرُّ مِنْ أَلْفاظِها وإِلىٰ ... بَحْرِ النَّدىٰ لا إِلىٰ بَحْرِ الدُّنا نَسَبُهْ
يَرْضىٰ ويَغْضَبُ في حالَيْ نَدىً وَرَدىً ... وبَيْنَ هَذَيْنِ مَنْهوكُ الحِمىٰ نَشَبُهْ
رِضاهُ لِلطّالبي جَدْواهُ ثُمَّ علىٰ ... ما تَحْتَوي يَدُهُ من مالِهِ غَضَبُهْ

● فكتبتُ أَنا إِليهِ أَشْكُرُهُ[1] : [من البسيط]

أَغُصْنُ قَدٍّ أَقَلَّتْ بانَهُ كُثُبُهْ ... أَمْ دُرُّ ثَغْرِ حَبيبٍ زانَهُ شَنَبُهْ[2]
أَمْ رَوْضُ حَزْنٍ جَديدُ النَّبْتِ قد بَسَمَتْ ... فِيهِ أَقاحِيهِ لَمَّا أَنْ بَكَتْ سُحُبُهْ
أَمْ جانِبُ الأُفْقِ قد دَجَّتْ حَنادِسُهُ ... لِلْعَيْنِ لَمَّا ازْدَهَتْ في لَمْعِها شُهُبُهْ
أَمْ بِنْتُ فِكْرٍ جَلاها لي أَخو أَدَبٍ ... خِطابُهُ زانَ جِيْدَ الدَّهْرِ أَوْ خُطَبُهْ[3]
قَريضُهُ تَعْرِفُ الأَسْماعُ جَوْهَرَهُ ... فَتَنْتَقي حَلْيَها مِنْهُ وَتَنْتَخِبُهْ
فَلو هَمىٰ الشِّعْرُ قَطْراً قَبْلَهُ لَغَدا ... [٤٥ب] يَروي الرُّبا منهُ هامي الغَيْثِ مُنْسَكِبُهْ
وَنَثْرُهُ لم يُداخِلْ مَسْمَعَيْ أَحَدٍ ... إِلاَّ وَرَنَّحَ مِنْهُ عِطْفَهُ طَرَبُهْ
وَخَطُّهُ مِثْلُ صُدْغٍ زَرْفَنَتْهُ يَدُ الْـ ... ـحُسْنِ البَديعِ وقاني الخَدِّ مُلْتَهِبُهْ[4]
لِوَضْعِهِ شُهْدَةٌ بالحُسْنِ قَد شَهِدَتْ ... وقَد تَبَرَّأَ من ياقوتِهِ نَسَبُهْ[5]
ولاِبْنِ مُقْلَةَ عَيْنٌ ما رَأَتْ حَسَناً ... هذا ولو عايَنَتْهُ ما انْقَضىٰ عَجَبُهْ

---

(١) القصيدة في أعيان العصر .

(٢) في م : أَغُصْنُ بانٍ أَقَلَّتْ بانَهُ كُثُبُهْ × .

(٣) في ب : × خَطَّابُه . . . .

(٤) في ب : . . . مثل صدغ زركشته . . . × .
يقال : وقد زَرْفَنَ صُدْغَيْهِ : جَعَلَهما كالزُّرفين . والزُّرفين حَلَقَةُ الباب . (القاموس) .

(٥) في هامش م : شُهدة الكاتبة : معروفة ، من مشايخ الخطّ ، ولها سندٌ عالٍ في الحديث ، أَلحقت فيه الأَصاغر بالأَكابر ، ونسبها معروف ، واسمها زينب ؛ وقد ذكرها المؤرّخون كالذّهبي في النبلاء وغيره .
ياقوت : معروف ، من مشايخ الخطّ . [وطمس ما بعد ذلك] .
قلت : هو المعروف بياقوت المستعصي ، صاحب كتاب « أَسرار الحكماء » وفيه ترجمته .

هَذا هُوَ البَدْرُ لا النَّجْمُ البَصيصُ فَقَدْ مُدَّتْ علىٰ ابْنِ هِلالٍ في العُلىٰ طُنُبُهْ
جَزاكَ رَبُّكَ بَدْرَ الدِّيْنِ خَيْرَ جَزىً عن امْرِئٍ لم يَطُلْ نَحْوَ العُلىٰ سَبَبُهْ
بـالَغْـتَ فـي مَـدْحِـهِ فـاللهُ يَجْعَلُـهُ كَمـا تَقُـولُ لِتَعْلـو فـي الـوَرىٰ رُتَبُـهْ

● وكتبتُ أَنا إليهِ مُلْغِزاً في « ضَبُعٍ »[1] : [من الخفيف]

أَيُّهـا الفـاضِـلُ الـذي مَـنْ يُجـارِيْـ ـــهِ تَقَـوَّىٰ فِيْمـا ادَّعـىٰ وتَقَـوَّلْ
والـــذي مَـــن أَرادَ يُبْصِـــرُ قُسَّـــاً فَعَلَيْـــهِ دُونَ البَـــرِيَّـــةِ عَـــوَّلْ[2]
هــاتِ قُــلْ بــاللهِ مـا حَيَـوانٌ ثـــابِـــتُ الخَلْـــقِ قَـــطُّ لا يَتَحَـــوَّلْ
عَيْنُـــهُ إِنْ قَلَعْتَهـــا يَتَبَـــدَّىٰ حَيَـوانـاً غَيـرَ الـذي كـانَ أَوَّلْ[3]

● فكتبَ هو إليَّ الجوابَ عن ذلك[1] : [من الخفيف]

يـا إِمـامـاً طـالَ الـوَرىٰ بِمَعـانٍ في المَعالي يَفُوتُ مَن قد تَطَوَّلْ
وإِذا أَعْضَـــلَ السُّـــؤَالُ فَمـــا زا لَ عليـهِ فـي المُعْضِـلاتِ المُعَـوَّلْ
أَيُّ زَهْـــرٍ أَهْـــدَيْتَـــهُ غَـــضَّ عَنْـــهُ طَـرْفَـهُ ، واسْتَحـالَ زَهْـرَ المُحَـوَّلْ
حِيْـنَ أَلْغَـزْتَ فـي مُعَمّـىً هَـدانـي نَحْـوَهُ الفِكْـرُ حِيـنَ سَـوَّىٰ وَسَـوَّلْ
حَيَـــوانٌ إِن صَيَّـــرُوا رَأْسَـــهُ العَيْـ ـــنَ رَأَوْهُ إِلـى الجَمـادِ تَحَـوَّلْ[4]
فَـابْـقَ واسْلَـمْ تُفيـدُ عِلْمـاً وَجُـوداً فَهُمـــا لَيْـسَ لاِمْـرِئٍ مُتَـأَوَّلْ[5]

● وكتبتُ أَنا إليهِ ، وقد شرِبَ دَواءً : [من الطويل]

شَرِبْتَ الدَّوا في طالِعِ السَّعْدِ والمُنىٰ وَطَرْفُ الأَعادي عَن مَحَلِّكَ مَطْرُوفُ

---

(١) الأبيات في أعيان العصر .
(٢) في أ : . . . أن يبصر . . . × . وبه ينكسر الوزن .
(٣) ضبّ .
(٤) عضب .
(٥) في ب : × . . . . بمؤول .

فَكَرِّرْ علىٰ بَيْتِ الخَلا غَيْرَ قاصِرٍ   علىٰ رَغْمِ أَنْفِ الصِّلِّ والقَصْدُ مَعروفُ

قولي : على رَغْمِ أَنْفِ الصِّلِّ ؛ أَردتُ بِهِ قولَه من أَبياتٍ نَظَمَها في شخصٍ هَجاهُ وَشَبَّهَهُ بالصِّلِّ .

● **فكتبَ هو الجَوابَ إليَّ** : [من الوافر]

أَيـا شَيْخـي الـرَّئيـسُ لَقَـدْ أَتـانـي   شِفـاءٌ مِنْـكَ رِيْـشَ بِـهِ جَنـاحِـي

كَـلامٌ رَقَّ حتَّـىٰ كـادَ لُطْفـاً   يَسيـلُ وَسَـلْ عَـنِ المـاءِ القَـراحِ

شَـدَدْتُ بِـهِ قُـوايَ فَصَـحَّ عِنْـدي   وَحَقِّـكَ أَنَّـهُ بُشْـرىٰ الصَّـلاحِ

● **وكتبتُ أَنا إِليهِ وقد جاءَتْهُ بِنْتٌ**[1] : [من الوافر]

تَهَـنَّ بهـا وإِنْ جـاءَتْـكَ أُنْثـىٰ   لأَنَّ الشَّمْـسَ بـارِعَـةُ الجَمـالِ[2]

« وما التَّأْنِيثُ لاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ   ولا التَّـذْكِيـرُ فَخْـرٌ لِلهِـلالِ »[3]

« ولـو كـانَ النِّسـاءُ كَمَـنْ أَتـانـا   لَفُضِّلَـتِ النِّسـاءُ علـى الـرِّجـالِ »

● **فَكتبَ هو إِليَّ الجَوابَ**[1] : [من الوافر]

أَتـانـي مـن هَنـائِـكَ يـا رئيسـاً   تَتِيْـهُ بـهِ المَعـانـي والمَعـالـي

ومِـنْ آثـارِ جُـودِكَ مـا أَرانـي   حَيّـاً أَهْـدَتْـهُ لـي رِيْـحُ الشِّمـالِ

وكَـمْ أَقْـرَأْتَنـي وقَـرَأْتَ فَضْـلاً   يَفُـوتُ الحَصْـرَ مـن أَدَبٍ ومـالِ

● **وكتبتُ إِليهِ مع أُبلوجَةِ سُكَّرٍ ، وكنتُ قَبْلَها قَد أَهْدَيْتُ إِليهِ قَليلَ قَطْرٍ**[1] : [من المجتث]

أُبْلُـوجَـةٌ بَعَثْتُهـا   مَحَبَّـةٌ لَـكَ عِنْـدي

---

(١) الأَبيات في أَعيان العصر .

(٢) في م : . . . وقد جاءتك . . . . × .

(٣) البيتان للمتنبي ، في ديوانه ٣/ ١٨ . ورواية الثاني منهما : ولو كان النِّساءُ كمن فقدنا × . وكذا ورد في م ! .

فـــي اللَّـــوْنِ والكَـــوْنِ أَضْحَـــتْ   تَخـــــالُهـــــا نَهْـــــدَ هِنْـــــدِ

● فكتبَ هو الجَوابَ إليَّ[1] :

يُقَبِّلُ كذا ، ويُنْهي وُصولَ صَدَقَتِهِ الجارِيَةِ ، وهَدِيَّتِهِ التي جاءَت بينَ الحُسْنِ والإِحْسانِ مُتَهادِيَةً ، وهِنْدِيَّتِهِ التي قامَ نَهْدُها مَقامَ ثَغْرِ الغانِيَةِ ، [٤٦ أ] وأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ وَجْهِها ، وَكَأَنَّ القَمَرَ فِيهِ من كُلِّ ناحِيَةٍ ، نَهْدٌ أَبْرَزَهُ الصَّدْرُ ، وشَهْدٌ ما تَجَرَّعْتُ دُونَ اجْتِناءِ حَلاوَتِهِ من إِبَرِ النَّحْلِ مَرارَةَ الصَّبْرِ ، وهَرَمٌ أَكْسَبَ رَوْنَقَ الشَّبابِ وَجْهَ الدَّهْرِ ، وَوَجْهٌ طُبِعَ علىٰ دائِرَتِهِ لَيْلَةَ تَمامِهِ البَدْرُ .

فقابَلَ المَملوكُ تلكَ المِنْحَةَ[2] بِدُعائِهِ ، وشُكْرِهِ المُفْرِطِ وثَنائِهِ ، وَمَدْحِهِ الذي تَنْدَرِجُ شَواهِدُ وُدِّهِ الصَّادِقِ في أَثْنائِهِ ، وَتَذَكَّرَ بها مَا مَضىٰ ، وشَكَرَ يَدَ الكَريمِ الذي اسْتَأْنَفَ إِحْسانَهُ السَّابِقَ وما انْقَضىٰ ، فَذَكَرَ بِنُضارِ القَطْرِ السَّائِلِ ، ولُجَيْنِ هذا الماءِ القائِمِ قولَ القائِلِ[3] : [من الكامل]

وكَـــذا الكَـــريـــمُ إِذا أَقَـــامَ بِبَلْـــدَةٍ   ســـالَ النُّضـــارُ بِهـــا وقـــامَ المـــاءُ

● وكتبَ هو إليَّ في سنة ٧٥١ ونحن بدمشقَ المحروسَة ، في يومٍ وَقَعَ فِيهِ ثَلْجٌ كثيرٌ إلى الغايَةِ :

يُقَبِّلُ[4] المُشَرَّفَةَ بِتُرْبِها ، المُشْرِفَةَ على كِيوانِ الأَشْرَفِ بِعُيونِ شُهُبِها ، المُسْرِفَةِ بِما تَبْسُطُ من أَرْزاقِ الآمِلينَ أَيادي سُحُبِها ، المُشْرِقَةِ في الدَّهْرِ المُدْلَهِمِّ بِنُورِ رَبِّها .

ويُنْهي أَنَّهُ سَطَّرَها والثَّلْجُ قَد نَفَشَ صُوفَهُ ، ونُشِرَتْ شُفُوفُهُ ، وُدلِّيَتْ على

---

(١) النص في أعيان العصر .

(٢) في أ : المحنة ! وفي م : المحبة .

(٣) البيت للمتنبي ، في ديوانه ١/ ١٩ .

(٤) في ب ، س ، م : يقبل الأرض المشرّفة . . .

تَرائِبِ الجُدْرانِ ذَوائِبُهُ الشَّائِبَةُ وَدلِّيَتْ قُطوفُهُ ، ولُبِسَ علىٰ رَسْمِ المُتَعَمِّمينَ لِنَظَرِ هذا اليومِ المُقْبِلِ تَشْرِيفُهُ ، وبُسِطَ علىٰ بَطائِنِ الطُّرْقِ قُطْنُهُ الطَّائِرُ بقَوْسِ الغَمامِ نَديفُهُ ، وَلِيْثَ على وَجْهِ الثَّرىٰ خِمارُهُ ، وعلىٰ أَرْدافِ الرُّبا نَصيفُهُ ، وأَرْخِيَتْ على أَعْطافِ الأَغْصانِ عَذَبُهُ ، وَبَرَقَتْ في جِباهِ الأَنْهارِ أَسارِيرُهُ ، وبَدا في ثُغُورِ الجَداوِلِ شَنَبُهُ ، وأُرْسِلَتْ بِلُزُومِ المَحَجَّةِ البَيْضاءِ إِلى أَهْلِ الأَرْضِ نُجُبُهُ ، وأُسْدِلَتْ على وُجوهِ المَسالِكِ سُتُورُهُ المانِعَةُ وُحُجُبُهُ ، وحُمِلَتْ علىٰ رُؤُوسِ الأَغْصانِ وعُيونِ الزَّهْرِ أَمْواجُهُ الزَّاخِرَةُ وكُثُبُهُ ، وأَخَذَ الأَبْصارَ الرَّامِقَةَ بَرِيْقُهُ وَرَدَّها بَصيصُهُ ، ورُصِّعَتْ في بَدَناتِ الأَبْنِيَةِ فُصوصُهُ ، وسُدَّ بِهِ خِصاصُ كلِّ بَيْتٍ لَوْلاهُ ما ثُلَّتْ عُروشُهُ ولا هُدِمَتْ خُصوصُهُ ، وضَعُفَتْ قَوائِمُ الجُدْرانِ منه عن حَمْلِ ما ثَقُلَ علىٰ البُنْيانِ المَرْصوصِ مَرْصُوصُهُ ، وتَطايَرَتْ صُحُفُهُ البِيْضُ ، ونُشِرَ ثَوْبُهُ الطَّويلُ العَريضُ ، وَسَقَطَ طائِرُهُ وما كَلَّ جَناحُهُ ولا هِيْضَ[١] ، وَدَنا فَراشُهُ من سُرُجِ العُيُونِ الرَّامِقَةِ إِلى وَميضٍ ، وانْكَدَرَتْ نُجومُهُ المُنْحَدِرَةُ فَلَزِمَتِ الحَضيضَ ، فَكَمْ من ثُرَيَّا عُلِّقَتْ بِأَمْراسِ كَتَّانِهِ إِلى صُمِّ جَنْدَلٍ[٢] ، وكم عاوَدَتْ يَدُ الرِّيحِ بِهِ من فُتاتِ العِهْنِ في كُلِّ مَنْزِلٍ ، وقد سَلَسَ قِيادُ اللَّذَّةِ ، وأَصْبَحَتْ جَوامِحُ خُيُولِ اللَّهْوِ التي هي إِلى غاياتِ الأَفْراحِ مُغِذَّةً ، ولانَ جانِبُ السُّرورِ ، وفُكَّ جَيْبُ اللَّهْوِ المَزْرورُ ، وأُدِيْلَ مِنَ الظُّلْمَةِ النُّورُ ، وأَتىٰ أَمْرُ البَرْدِ بِلُزُومِ المَنْزِلِ فَقُبِلَ وقد فارَ التَّنُّورُ ، والحُرْمَةُ تَقْتَضي إِكْرامَ هذا الضَّيْفِ ، وتُلْزِمُ قَبُولَهُ فإِنَّهُ نازِلٌ رِحْلَتُهُ لِلشِّتاءِ لا لِلصَّيْفِ ، وإِكْرامُ نُزُلِهِ من شَواهِدِ الكَرَمِ ، والاعْتِدادُ لِمِثْلِهِ أَوْلىٰ ما شُدَّتْ بِهِ أَواصِرُ الحُرَمِ ، وهو فَما [٤٦ ب] خَرَجَ عن العادَةِ ولا

---

(١) « ولا هيض » ساقطة من م .

(٢) من قول امرىء القيس : [ديوانه ١٩]

كــأَن الثُّــريَّــا عُلِّقــت فــي مَصــامِهــا ... بــأَمــراسِ كتّــانٍ إِلــى صُــمِّ جنــدلِ

خَرَمَ، وقد أَتىٰ والزَّمانُ في شَبيبَتِهِ فَسَرَّ، ومِثْلُهُ لا يَأْتي على (الهُمومِ و) الهَرَمِ.

والخادِمُ يَتوَسَّلُ إلى أَخْلاقِ مَولانا السَّرِيَّةِ ، وطِباعِهِ التي خالَفَتْ من السُّوءِ ما في الطِّباعِ البَشَرِيَّةِ ، وشَمائِلِهِ التي : [من الطويل]

هيَ الماءُ أَو أَنْدىٰ من الماءِ رِقَّةً ولُطْفاً إِذا شِيبَتْ بِهِ الرَّاحُ واللَّمىٰ
تُجِيبُ إِذا هُزَّتْ بِعَزْمٍ كَأَنَّهُ صَفيحَةُ هِنْدِيٍّ إِذا هُزَّ صَمَّما

بِأَيَّامِ الصِّبا التي خَلَتْ عُهودُها المَواضي ، ولَيالي الوَصْلِ التي حُلَّتْ عُقودُها من خَلْفِ القاضي ، والنَّفْسِ المُطْمَئِنَّةِ بالْتِزامِ المَعْشوقِ إذا حَصَلَ التَّراضي ، في الاسْتِعْسافِ بِنَظَرِهِ ، وقَضاءِ وَطَرِ العَبْدِ الأَصْغَرِ وَوَطَرِهِ ؛ فإِنَّ النَّارَ قدِ الْتَهَبَ جَمْرُها ، واشْتَهَبَتْ سُودُها وحُمْرُها ، ولَبِسَتِ المَسالِكُ الثُّلوجَ ، وحَبَسَتْ عن الدُّخولِ إِلاَّ في لَذَّةٍ لا يَحْسُنُ معَها الخُروجُ ؛ والعَبْدُ عاكِفٌ في البَيْتِ لا يَريمُ ، ومَولانا البادِىءُ ولَهُ الفَضْلُ وكذا الكَريمُ ، والرَّأْيُ أَعْلى ، وأَحَقُّ بِأَنْ يُمْتَثَلَ ما يَقْتَضِيهِ وَأَوْلىٰ ، إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ عن ذلك :

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهي وُرودَ المُشَرَّفِ الكَريمِ في هذا اليَومِ الذي ابْيَضَّتْ رايَتُهُ ، وعَظُمَتْ في الآياتِ آيَتُهُ ، وَجُعِلَتْ إلى القِيامَةِ غايَتُهُ ، وَتَطايَرَتْ صُحُفُهُ ، ونُشِرَتْ مُلاءَتُهُ ، وغَطَّتِ الأَرْضَ لُحُفُهُ ، وانْتَشَرَ في الجَوِّ جَرادُهُ ، وَمَلأَ الفَضاءَ انْعِكاسُهُ واطِّرادُهُ ، وذَرَّ على الوجودِ من الكَآبَةِ رَمادُهُ ، ومُنِعَ كلُّ جَفْنٍ كَراهُ فَما يَرْجِعُ بِرُقاهُ رُقادُهُ ، وبَهَرَ كلَّ عارِفٍ بِبَياضِهِ[1] حتَّىٰ اتَّهَمَهُ سَوادُهُ ، وَأَذْهَلَ كُلَّ صَبٍّ عن إِلْفِهِ فَما تُلْهيهِ رَبابُهُ ولا سُعادُهُ ، فَأَقْبِحْ بِهِ وإِنْ كانَتْ ثُغُورُهُ ضَحَّاكَةً ، ويَدُهُ لِحَصا الكافُورِ فَرَّاكَةً ، وأَبْعِدْ بِهِ وإِنْ مَلأَ الفَضاءَ

(١) في م : وبهر كلّ طرفٍ بياضُه .

فِضَّةً ، وَجَعَلَ الوِهادَ والرُّبا بعدَ قَشَفِها وكَلِفَها غَضَّةً بَضَّةً .

فوقفَ المَملوكُ منهُ على حَدائِقَ ذاتِ بَهْجَةٍ، ورَأىٰ بِهِ طَرِيقَ البَيانِ ونَهْجَهُ ، وفَداهُ بِما لَهُ من عَيْنٍ وما يَمْلِكُهُ من مُهْجَةٍ ، وغَرِقَ من عَجائِبِهِ في لُجَّةٍ بَعدَ لُجَّةٍ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ قَلَمَ مَولانا مَجَّ فِيهِ دُرَّةً يَتيمةً في كُلِّ مَجَّةٍ ، فَهالَهُ ما وَقَفَ عليهِ من هذِهِ الأَوْصافِ ، وعَلِمَ أَنَّ الاعْتِرافَ لَهُ بالعَجْزِ من جُمْلَةِ الإِنْصافِ ، فما يَصْلُحُ هذا البَزُّ لابْنِ المُعْتَزِّ ، ولا هو ممَّا يُومي إِلى ابْنِ الرُّومي ، ولا هذا النَّمَّامُ من رَيْحانِ أَبي تَمَّامٍ ، ولا هَذا المُعْجِزُ الذي يُشَيِّبُ ممَّا افْتَخَرَ بِهِ أَبُو الطَّيِّبِ .

وبلاغَةُ المَعاني قَرَنَها مَولانا بِفَصاحَةِ العِبارَةِ ، وإِتْقانُ التَّشبيهِ ضَمَّهُ إِلى حُسْنِ الاسْتِعارَةِ ، فَلِلَّهِ هذهِ الكَلِمُ التي صاغَها لِسانُهُ ، وأَتىٰ بِها حَسَّانُهُ ، وَأَهْداها إِحْسانُهُ .

وقد قابَلَ المَملوكُ أَمْرَ مَولانا بامْتِثالِهِ ، وهو في عَزْمِ الحُضُورِ إِلى بابِهِ العالي لا زالَ أَوْلياؤُه في ظِلالِهِ ؛ هذا إِنْ تَقَشَّعَ هذا السَّحابُ ، وشَمَّرَ ذَيْلَهُ السَّحّابَ ، وأَقْلَعَ هذا النَّوْءُ الذي زادَ نَدْفُ قَطّانِهِ ، وضَيَّقَ فُسَحَ المَنْزِلِ علىٰ قُطَّانِهِ ، وإِلاّ فالطُّرُقُ قد طُمَّتْ خَنادِقُها ، وجالَتْ [٤٧ أ] في رُقْعَتِها أَوْلادُ الزِّنا وتَفَرْزَنَتْ بَيادِقُها ، وكلُّ خَمْسَةٍ أَو سِتَّةٍ قد وَقَفُوا عندَ سَبُعٍ صَنَعوهُ ، وإِذا مَرَّ بهم أَحَدٌ تَناوَلُوهُ بِكُراتِ الثَّلْجِ وشَقَّعوهُ أَو سَقَّعوهُ ؛ وما يُسْمَعُ لَهُ كَلامٌ ، واللهُ المُسَلِّمُ منهمْ ؛ والسَّلامُ .

وإِن أَمْكَنَتِ الفُرْصَةُ حَضَرَ المَملوكُ إِلى مَولانا ، ونالَ مَعروفَهُ ، وإِلاّ فَنادِرَةُ خَبَرٍ طَرىٰ مع الأَشْرفِ في مِثْلِ هذا اليَوْمِ مَعْروفَةٌ . أُنهيَ ذلكَ .

● وكتبَ هو إِليَّ أَيضاً(١) : [من مخلع البسيط]

---

(١) الأبيات في أعيان العصر .

يــا مــاجِــداً لَــمْ يَــزَلْ نَــداهُ أَوْلـىٰ بِتَقْـرِيـظِ كُـلِّ مُثْنـي
ومَــن غَــدا بـالصَّفـاءِ يُكْنـىٰ وَوُدُّنـا عَنْـهُ لَيْـسَ نَكْنـي
نَحْـنُ افْتِـراقـاً بَنـاتُ نَعْـشٍ فـي ظُلْمَـةِ الهَـمِّ والتَّمَنِّـي[1]
فَسِـرْ إِلَيْنـا نَكُـنْ ثُـرَيَّـا وادْخُـلْ عَلَيْنـا بِغَيْـرِ إِذْنِ
ولا تَـدَعْنـا نَئِـنُّ شَـوْقـاً ولا تَقُـلْ لِلـرَّسُـولِ : إِنِّـي

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ عن ذلكَ[2] :** [من مخلع البسيط]

أَبْيـاتُـكَ الغُـرُّ قَـدْ أَتَتْنـي فَشَـرَّفَتْنـي وَشَنَّفَتْنـي
شِعْـرُكَ فيهـا ظَـرِيـفُ لَفْـظٍ لَطِيـفُ مَعْنـىً خَفيـفُ وَزْنِ
قَـد أَثْقَلَـتْ كـاهِلـي بِشُكْـرٍ فَكَـلَّ مَتْنـي إِذْ كَلَّمَتْنـي
فـإِنْ أَفُـزْ بِـالمُثُـولِ فِيْكُـمْ فـإِنَّـهُ غـايَـةُ التَّمَنِّـي
وإِنْ تَخَلَّفْـتُ عـن حِمـاكُـمْ يا طُولَ دَقِّي في الجُرْنِ حُزْني[3]

● **وكتبَ إِليَّ وقد تَوالَتِ الأَمطارُ والثُّلوجُ في العَشْرِ الأَواخِرِ من شهرِ رَمضان المُعَظَّم ، سنة ٧٥٢ وذلك في تَشرين الثَّاني[4] :**

كيفَ مَوْلانا ، أَلْحَفُ اللهُ ظِلَّهُ ، وَأَرْشَفَ طَلَّهُ وَوَبْلَهُ ، وحَمَلَ على أَعْناقِ الأَيَّامِ كَلَّهُ ، وَجَعَلَ مِثْلَهُ السَّحابَ الجَوْدَ ولا أَعرِفُ مِثْلَهُ ، وضاهىٰ بِرِزْقِهِ هذا الغَيْثَ الواقِعَ على خِلافِ القِياسِ كُلَّهُ ؛ فإِنَّ هذا اليومَ قد عَزَّزَ الصِّنَّ والصِّنَّبْرَ[5]

(١) في م : نحن افترقنا . . . × .
(٢) الأبيات في أعيان العصر .
(٣) العجز مكسور الوزن ، ولو قال : يا طول دقّي بِجُرن حُزني ، لصحّ الوزن . وسقطت « دقي في الجرن » من م ومكانها فراغ .
(٤) النص في أعيان العصر .
(٥) الصِّنُّ والصِّنَّبْرُ : من أَيّام بَرْدِ العجوز ؛ قال الشاعر :
فـإِذا انقضـت أَيّـام شَهْلَتِنـا بـالصِّـنِّ والصِّنَّبْـرِ والـوَبْـرِ=

وعَجَزَ الصَّبْرَ ، وعَزَّىٰ سُكَّانُ الأَجْداثِ بالأَحْياءِ فَكُلُّ بَيْتٍ قَبْرٌ[1] : [من مجزوء الكامل]

يَــــوْمٌ كَــــأَنَّ سَمــــاءَهُ حُجِبَــتْ بِــأَجْنِحَــةِ الفَــواخِــتْ

جاءَ بالطُّوفانِ والبَحْرِ المُحيطِ ، وجابَ الصَّخْرَ بوادي الرَّبْوَةِ دَمُ سَيْلِهِ العَبيط ، وجالَ في وَجْهِ البَسيطَةِ حَياؤُهُ ، فَما انْبَسَطَتِ الخَواطِرُ لِجَوْهَرِهِ البَسيطِ ، أَخْفَتِ النُّجومَ في لَيْلِهِ ، وَاطَّلَعَ الحيُّ القَيُّومُ على زِنَتِهِ الرَّاجِحَةِ وكَيْلِهِ ، وَتَراكَمَتْ سُحُبُهُ السَّاتِرَةُ فَضاءَ الأُفُقِ بِفَضْلِ ذَيْلِهِ ، وَأَجْلَبَ على الوِهادِ والرُّبا بِرَجِلِهِ الطَّامَّةِ وخَيْلِهِ ، فَكَأَنَّما وَهَتْ عُرىٰ ذلكَ الزَّمهريرِ فَهَبَطَ ، أَو هِيْضَ جَناحُ السَّحابِ الجَوْنِ فَسَقَطَ ، أَو حُلَّ سِلْكُ النُّجومِ الزَّاهِرَةِ فَفُرِطَ جَوْهَرُ ذلكَ القَطْرِ لَمَّا انْفَرَطَ ، فالجُدْرانُ لِهَيْبَتِهِ مُطْرِقَةٌ ، والعِمْرانُ[2] قَد تَداعَتْ فلا تَقْبَلُ البِناءَ جُمُوعُها المُفَرَّقَةُ ، والطُّرُقُ قد شَرِقَتْ بالسُّيُولِ فَلا تَنْطِقُ آثارُها المُغَرِّبَةُ ولا المُشَرِّقَةُ ، وقد قُصَّ جَناحُ الارْتِكاضِ ، وحُصَّتْ قَوادِمُهُ فَما تَنْهَضُ ، وعَظْمُهُ مُنْهاضٌ ، والسَّيْلُ قد بَلَغَ الزُّبىٰ ، وسَوّىٰ بينَ الوِهادِ المُتَطامِنَةِ والرُّبىٰ ، وبَكَتِ السُّقُوفُ بِعُيونِ الدُّلْفِ ، وَحَمَلَها المَطَرُ بِيَدِهِ العادِيَةِ على خُطَّةِ خَسْفٍ ، واسْتَدَلَّ لَها بِمَنْطِقِ الرَّعْدِ على أَنَّ [٤٧ أ] قُدَّامَها الخَيْرُ ، فَقالَتْ : هذا خَلْفٌ ، وشَهْرُ الصَّوْمِ قَد بَلَغَ غايَتَهُ ، وعِيْدُ الفِطْرِ قَد نَصَبَ رايَتَهُ ، وَتَلا آيَتَهُ ، وَطلبَ منهُ الموسِرُ والمُعْسِرُ كِفايَتَهُ ؛ فَأَعاذَ اللهُ مَولانا من الطَّلَبِ فِيهِ ، ولا أَلْجَأَهُ إِلى

= وبــآمــرٍ وأَخيــه مُــؤْتَمِــرٍ ومُعَلِّــلٍ وبمُطْفِــىءِ الجَمْــرِ
ذَهَــبَ الشِّتــاءُ مُــوَلِيــاً عجــلاً وأَتتــكَ وافِــدةٌ مــن الحَــرِّ
[ثمار القلوب ١/ ٤٨٣ ـ ٣٨٤] .

(١) البيت لابن المعتز ، في ديوانه ٢/ ٢٢٣ ومن غاب عنه المطرب ١٠٧ (شعلان) و١٣٠ (سامرائي) والكشف والتنبيه ٢٢٨ .

(٢) في م : والبنيان .

السَّعْي لابْتِغاءِ فَضْلِ اللهِ إلاّ بِفِيهِ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

● **فكتبتُ أنا الجوابَ إليه**(١) :

العَجَبُ من سُؤَالِ مَولانا عن المَملوكِ بكيفَ حالُه ، وعندَهُ عِلْمُ هذا العَناءِ الذي نُصِبَ على الأَيْنِ ، والنَّصَبُ تَمييزُهُ وحالُهُ ، وهيَ حالُ أَبي الطَّيِّبِ وما عَلِمَ ابنُ مَنْصورٍ بها ، ولو عَلِمَ اسْتَعْمَلَ التَّبالُهَ ؛ أَما تَرىٰ هذا النَّوْءَ الذي ذُمَّ نَوالُهُ وحُمِدَ نَواهُ ، وأَذْهَلَ الصَّائِمَ عن صَوْمِهِ ، فَما بَيَّتَ أَمْرَهُ ولا نَواهُ ، وشَغَلَهُ عن حِسِّهِ فَما يَدْرِي أَأَفْطَرَ على تَمْرَةٍ أَم نَواهُ(٢) ؛ قد هالَ الجِبالَ أَمْرُهُ ، فَشابَتْ من الفَرْقِ إِلى القَدَمِ ، وغَمَرَتْ سُيولُهُ الأَباطِحَ والرُّبىٰ ، ولكنْ من الزِّيادَةِ بِدَمٍ ، كيفَ يَهْنَأُ العَيْشُ وبُروقُ الجَوِّ سُيوفٌ تُخْتَرَطُ ، ونَفَسُ هذِهِ الرُّعودِ يَخْرُجُ بعدَما حُبِسَ في حَشىٰ السَّحابِ وانْضَغَطَ ، وإِلْحاحُ سائِلِ هذا المَطَرِ ، فلو كانَ قَطْرُهُ دُرّاً لَما مَدَّ الفَقيرُ إِليهِ كَفّاً ولا الْتَقَطَ ، وَتَوالي هذهِ الغُيوثِ التي لو عايَنَها ابنُ هاني لَما قالَ(٣) : [من البسيط]

أَلُؤْلُؤٌ دَمْعُ هذا الغَيْثِ أَمْ نُقَطُ

كَأَنَّ الأَيَّامَ قَوافي انْدَمَجَتْ في اللَّيْلِ ، أَوِ النُّجومَ أَقاحي ولكنْ غَطَّاها تَراكُمُ السَّحابِ السَّحَّابِ لِلذَّيْلِ ، أَو كَأَنَّ اللهَ جَعَلَ الزَّمانَ سَرْمَداً ، فَلا يَتَعاقَبُ فيهِ شَمْسٌ ولا قَمَرٌ ، ولا تَصْفُو لُجَّةُ الأُفُقِ بِضَوْءٍ ولا تَرْمِيها الدَّياجي بِكَدَرٍ ، قد تَزاحَمَتِ الغَياهِبُ على المَواقِيْتِ بالمَناكِبِ ، وجُهِلَتِ المُدَدُ ، فَيا وَحْشَتَنا لِحاجِبِ الشَّمْسِ وَمُحَيّا القَمَرِ وعُيُونِ الكَواكِبِ ، أَكُلُّ هذا تَشْرِيعُ تِشْرين ، وشَرَهُ شَرِّهِ حتَّىٰ نَتَجَرَّعَ من أَمْرِهِ الأَمَرَّيْنِ ، وشُهْرَةُ شَهْرِهِ ، فَيا أَيّامَ كانُونَ إذا

---

(١) النص في أعيان العصر .

(٢) في أ : نواها .

(٣) ديوانه ١٩٥ . وعجزه : ما كانَ أَحْسَنَهُ لو كانَ يُلْتَقَطُ .

جِئْتِ ماذا تَبيعينَ وتَشْرين ؟ أَمَّا المَساكِنُ فَأَهْلُها مَساكِينُ ، وأَفْواهُهُم من الحُزْنِ مُطْبِقَةٌ فَما تَفْتَحُها السَّكاكِينُ ، قد انْتَبَذَ كلٌّ منهمْ زاوِيَةً من دارِهِ ، وَتَداخَلَ بَعْضُهُ في بَعْضِه لِتَضُمَّهُ بُقْعَةٌ على مِقْدارِهِ ، هَرَباً من تَوْقيعِ أَكُفِّ الوَكْفِ ، وَخَوْفاً من رُكُوعِ الجِدارِ وسُجودِ السَّقْفِ .

وما يَعتقدُ المَملوكُ أَنَّ في كانُونَ مِثْلَ هذِهِ الجَمَراتِ ، ولا أَنَّ ساباطَ شُباطَ وأَذىٰ آذارَ يَرْمي القُلوبَ بِمِثْلِ هذِهِ الحَسَراتِ ، وتَمامُ التَّعثيرِ في الرُّكوبِ إلى دارِ السَّعادَةِ ، والكِتابَةِ التي صارَتْ في هذا الزَّمانِ زيادَةً في نَقْصِ السِّيادَةِ ؛ واتِّساعِ هذِهِ الأَهْوالِ ، وضِيْقِ ذاتِ اليَدِ ، مُضافٌ إلى ضِيْقِ النُّفوسِ ، وبُصاقِ هذا الثَّلْجِ في وَجْهِ الضَّاحِكِ مِنَّا والعَبُوسُ ، وسُكْرِ هذِهِ المَيازِيْبِ التي لا تَبولُ إلاّ علىٰ الرُّؤُوسِ ، وَأَشْغالِ الدِّيوانِ التي تُكاثِرُ المَطَرَ ، ولا تَبْلُغُ الغايَةَ من الوَطَرِ ؛ فَنَحْنُ من الدِّيوانِ في جامِعَةٍ لا جامِعٍ ، وبابُ البَريدِ علىٰ عَدَدِ السَّاعاتِ وَدْقُهُ هامِعٌ ، وبَرْقُهُ لامِعٌ ، لا يَفْتُرُ وُرودُهُ ، ولا يَزالُ يَصِلُّ حَديدُهُ [٤٨ أ] وتَصِلُ وُفودُهُ ، وكُلُّ كِتابٍ يَصِلُ معه تَتَفَرَّعُ منهُ أَشْغالٌ عَدَدَ حُرُوفِهِ ، وَتُطْلَبُ في الوَقْتِ الحاضِرِ ، فلو كانَتْ بِالطَّابِعِ لانْهارَتْ جَوانِبُ جُروفِهِ ؛ وصاحِبُ الدِّيوانِ أَسْبَغَ اللهُ ظِلالَهُ في تَنْفِيذِ المُهِمَّاتِ أَسْرَعُ من هذِهِ البُرُوقِ ، وأَنْفَذُ من السَّهْمِ في القَضاءِ الذي لَيْسَ فِيهِ ما يَصُدُّ ولا ما يَعوقُ ، فهو إذا دَبَّرَ المُهِمَّاتِ نَجَّزَ ، وَدَمَّرَ العُداةَ وخَنَّزَ ، وهذا العِيْدُ قد أَقْبَلَ وما لَنا بِتَكالِيفِهِ قِبَلٌ ، وَكُلُّ مَنْ يَخْتَصُّ بِشَيْءٍ مِنها يَلْحَظُكَ بِطَرْفٍ مُتَخازِرٍ كَأَنَّما بِهِ قَبَلٌ ، والاسْتِعانَةُ باللهِ على هذِهِ الشُّرورِ التي اتَّصَلَتْ نُقَطُ خَطِّها ، والفِرارُ إليهِ من هذِهِ الخُطوبِ التي تَعجَزُ عن شَيْلِ سَيْلِها وَحَدِّ حَطِّها ، واللهُ يَرزقُ مَولانا وإيَّاهُ حَلاوَةَ الصَّبْرِ ، ويَجعلُ العَدُوَّ بينَ جائِحَتَيْ قَبْرٍ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِه .

٢٩ * حسنُ بن محمَّد(١) :

الشَّيْخُ الإمامُ ، البارعُ ، البَليغُ ، الخَطيبُ ، نَجْمُ الدِّين ، أَبو محمَّد ، بن الشَّيخِ كمالِ الدِّين القُرْطُبيّ ، خَطيبُ الجامعِ الظَّاهِرِيِّ [بِصَفَد] ، وكاتِبُ السِّرِّ الشَّريفِ بِها .

● **كتبَ هو إِلَيَّ يوماً ، وقد فارَقْتُهُ مُتَأَذِّياً(٢)** : [من السريع]

بِــالله لا تَغْضَــبْ لِمــا قَــدْ بَــدا ... فَــأَنْـتَ عِنْـدي مِثْـلُ عَيْنـي اليَميـنْ
مـا أَتْعَبَ النَّفْسَ سِوىٰ مَـنْ غَـدا ... يَجْحَــدُ مــا أَوْلَيْتُــهُ أَو يَمِيــنْ
وَأَنْــتَ عِنْـدِي جَـوْهَـرٌ قَـد صَفـا ... مِــن دَنَــسِ الــذَّمِّ نَفيــسٌ ثَميــنْ
وَوَالــذي يَعْلَــمُ مــا قُلْتُــهُ ... إِخْبـارُ مَـنْ أَخْلَـصَ فـي ذي اليَمينْ
ما حُلْتُ عن حُسْنِ الوَفا في الهَوىٰ ... وَأَنْـتَ فـي هـذا المَكـانِ الأَميـنْ(٣)

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ(٢)** : [من السريع]

بَــرَرْتَ فِيمــا قُلْــتَ يــا سَيِّــدي ... وَلَسْــتَ تَحْتــاجُ إِلــى ذي اليَمِيــنْ
واللهِ لــم أَغْضَــبْ وحــاشــا لِمَــنْ ... أَراهُ عِنْــدي مِثْــلَ عَيْنــي اليَميــنْ
ولــم يَكُــنْ غَيْظِــيَ إِلاَّ لِمَــنْ ... يَمِيـلُ عـن طُـرْقِ الـوَفـا أَو يَمِيـنْ
ويَفْتَــرِي البــاطِــلَ فــي قَــوْلِــهِ ... عَنِّـي وَلَيْـسَ النَّـاسُ عَنْـهُ عَميـنْ
وَيُظْهِــرُ الــوُدَّ الــذي إِنْ بَــدا ... ظــاهِــرُهُ والغِــشُّ فِيــهِ كَميــن

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/ ٢٣٢ والوافي بالوفيات ١٢/ ٢٥٦ وذيول العبر ١٣١ وتذكرة النبيه ٢/ ١٤٠ والدّرر الكامنة ٢/ ٤٤ والمنهل الصافي ٥/ ١٣٤ والدليل الشافي ١/ ٢٦٩ وشذرات الذهب ٨/ ١١٠ .
ـ مولده سنة ٦٥٨ هـ . ووفاته سنة ٧٢٣ هـ .
ـ ما بين حاصرتين زيادة لازمة من الأَعيان .
(٢) الأَبيات في أَعيان العصر والوافي .
(٣) في ب : × وأَنت في ذا المكين الأَمين . وفي س : × وأَنت في هذا المكينُ الأَمين .

فَغَثُّــهُ غَثَّـى نُفُــوسَ الــوَرَىٰ   مِمَّــنْ تَــرىٰ والسُّــمُّ منــهُ سَميــنْ

● وَنَظَمَ يوماً هذِهِ الأَبياتِ في سنةِ ٧١٩ بِصَفد المحروسَة : [من السريع]

قُــمْ نَنْتَهِــزْ فُــرْصَــةَ أَوْقَــاتِنَــا   فالوَقْتُ قد راقَ وَغَنَّىٰ الحَمامْ(١)
والــزَّهْــرُ قَــد أَبْــدىٰ لَنــا ثَغْــرَهُ   طُـولَ ابْتِسـامٍ مـن بُكـاءِ الغَمـامْ
فَمِنْـهُ مـا أَطْلَـعَ شَمْـسَ الضُّحـىٰ   وَمِنْــهُ مــا أَبْــدَعَ بَــدْرَ التَّمــامْ
ومنــهُ مــا لاحَــتْ يَــواقِيتُــهُ   مِثْــلَ كُــؤوسٍ مُلِئَـتْ مِـن مُـدامْ
إذا أُدِيْــرَتْ فَــوقَ أَغْصــانِهــا   جَلَـتْ بُـرُوقـاً فـي بَقـايـا غَمـامْ
تُــذَكِّــرُ العُشَّــاقَ مَحْبَــوبَهُــمْ   إذا تَبَــدَّىٰ مُسْفِــراً عــن لِثــامْ
يُضْـرِمُ فـي الأَحْشـاءِ نـارَ الأَسـىٰ   وَوَجْهُــهُ يَــدْخُــلُ دارَ السَّــلامْ
فكَـمْ لَهُـمْ مـن نَشْـوَةٍ فـي الهَـوىٰ   وكَـمْ لَهُـمْ مـن سَكْـرَةٍ بـالغَـرامْ
ولا تُسَــوِّفْ فَسُيُــوفُ الــرَّدىٰ   لَيْــسَ لَهــا دَأْبٌ ســوىٰ الانْتِقــامْ
أَيْــنَ مُلــوكُ الأَرْضِ مِمَّــنْ مَضَــىٰ   وَأَيْـنَ مَـن قـد سـادَ من عَهْـدِ حـامْ
ولا تَقُــلْ قَــدْري غَــدا سـامِيـاً   فَكَـمْ سَمـا مِثْلُـكَ مـن قَبْـلِ سـامْ

● واقترحَ عليَّ أَنْ أَنظمَ في مَعناها وَوَزْنِها ورَوِيِّها ، فنظمتُ حَسْبَما اقْتَرَحَهُ : [من السريع]

بـادِرْ صَفـا العَيْـشِ وصَفْـوَ المُـدامْ   واغْتَنِــمِ اللَّــذَّاتِ قَبْـلَ الحِمــامْ
[٤٨ ب] وانْفِ جُيُوشَ الهَمِّ إِن جاوَرَتْ   بِبِنْــتِ كَـرْمٍ أَو بِبِنْــتِ الكِــرامْ
فـالزَّهْـرُ في الـدَّوْحِ كَزُهْـرِ السَّمـا   إذا تَبَــدَّتْ فــي أَدِيْــمِ الظَّــلامْ
كَـمْ سَحَبَـتْ رِيْـحُ الصَّبـا ذَيْلَهـا   عَليـهِ حتَّـىٰ انْشَـقَّ منـهُ الكِمـامْ
فـي رَوْضَـةٍ حـاكَـتْ أَكُـفُّ الحَيـا   لَهـا بُـروداً مـا حَكـاهـا الأَنـامْ

---

(١) في ب : × . . . قد رقَّ وغنّى الحمام .

واسْتَخْـرَجَـتْ مَكْنُـونَ أَزْهـارِهـا مُـؤْتَلِـفَ الحُسْـنِ بَـديـعَ النِّظـامْ
وَجَـرَّدَ النَّهْـرُ بِهـا صـارِمـاً لَمّـا أَراهُ القَطْـرُ وَقْـعَ السِّهـامْ[1]
فَـدَعْ زَمـانـاً مَـرَّ بِـالمُنْحَنـىٰ وَعَـدِّ عـن ذِكْـرِ اللِّـوىٰ والخِيـامْ
وبـادِرِ الفُـرْصَـةَ مـا أَمْكَنَـتْ وأَسْعِـفِ الـدَّهْـرَ بِنَيْـلِ المَـرامْ
فَلَيْسَـتِ الـدُّنْيـا وإِنْ أَقْبَلَـتْ عليـكَ أَو وَلَّـتْ بِـدارِ المُقـامْ
فَحـامُ لَمّـا سـامَ فيهـا البَقـا دارَ بِـهِ صِـرْفُ المَنـايـا وحَـامْ
وكَـمْ أَبـادَ الـدَّهْـرُ مِـن مَعْشَـرٍ مِـنْ بعـدِ أَنْ قَصَّـرَ عنهـم وَنـامْ
وأَوْدَعَ الأَمْـلاكَ بَطْـنَ الثَّـرىٰ قَسْـراً ولـم يَـرْعَ لَـدَيْهِـمْ ذِمـامْ

● **وجاءَني منهُ كِتابٌ من صَفَد المحروسَة ، وَأَنا بدمشقَ المحروسة ، في سنة ثمان عشرة وسَبعمئة ، فيه نَظْمٌ ونَثْرٌ عَدِمتُهُ[2] ، فكتبتُ أَنا إِليهِ[3] :** [من الطويل]

تَذَكَّرْتُ عَيْشاً مَرَّ قِدْماً وقَد حَلا وَرَبْعـاً عَمَـرْنـاهُ بِلَهْـوٍ وقـد خَـلا
فَهاجَتْ لِيَ الذِّكْرىٰ غَراماً أَلِفْتُهُ وَشَنَّتْ علىٰ الأَحْشاءِ حَرْباً مُقَسْطَلا
وأَذْكَتْ دُموعُ العَيْنِ نارَ صَبابَتي وَجَـدَّدَ لـي وَجْـدي أَخيـراً وأَوَّلا
وللهِ صَبْـري فـي الـرَّزايـا فـإِنَّـهُ جَميـلٌ ولكِـنْ خـانَ فيكُـم وبَـدَّلا
وقيلَ : أَتَبْكِي في دِمَشْقَ من الأَسىٰ وإِنْ حَـلَّ جَيْشُ الهَمِّ فيها تَـرَحَّـلا
زَمـانـاً تَقَضَّـىٰ أَو رُبُـوعـاً تَطـاوَلَـتْ عُهـودُكَ مِنْهـا وانْمَحَـتْ بِيَـدِ البِلـىٰ
فَفاضَتْ جُفوني بالدُّموعِ لِقَوْلِهِمْ وقُلْـتُ لَهُـمْ : أَبْكـي حَبيبـاً ومَنْـزِلا
وهَلْ نافِعي أَنَّ الرِّياضَ تَدَبَّجَتْ بِسـاحـاتِهـا أَوْ صَـوْتَ قُمْـرِيِّهـا عَـلا

---

(١) في ب : وجدّد التبر . . . × .
(٢) في أ ، ب : عُدَّ منه ! . والإشارة إلى ضياع كتاب المترجم بما تضمَّن من نثرٍ وشعرٍ .
(٣) القصيدة في أعيان العصر .

وللْوُرْقِ من زَهْرِ الرِّياضِ مَجامِرٌ إذا حَـرَّكَـتْ عُـوداً تَحَـرَّقَ مَنْـدَلا
وقـد راحَ فيهـا الـدَّوْحُ لابِسَ حُلَّةٍ وصـاغَ مـن الأَزْهـارِ تـاجـاً مُكَلَّـلا
وغَنَّىٰ حَمـامُ الأَيْـكِ ثُـمَّ تَـراقَصَـتْ غُصونٌ سَقَتْها الرِّيْحُ كاساتِها مِلا
فَمـالَـتْ سُكـارىٰ ثُـمَّ صَفَّـقَ جَـدْوَلٌ فَأَلْقَتْ عليهِ من مَعاطِفِها الحُلى
فَمِنْ جَدْوَلٍ أَضْحىٰ حُساماً مُجَرَّداً ومِـن هَيْـفِ أَغْصـانٍ تَحَـرَّك ذُبَّـلا
ولِلْبَيْـنِ فـي الأَحْشـاءِ مـا لـو أَقَلَّـهُ ثَبيـرٌ قَليـلاً مَـلَّ ثـمَّ تَمَلْمَـلا
كَـأَنَّ اجْتِمـاعَ الشَّمْـلِ عِقْـدٌ تَعَلَّقَـتْ بِـأَسْـلاكِـهِ كَـفُّ النَّـوىٰ فَتَفَصَّـلا
فَفَـارَقْـتُ مَخْـدُومـاً حَمىٰ الله رَبْعَـهُ مِـن الـدَّهْـرِ يَـوْمـاً مـا أَبَـرَّ وَأَجْمَـلا
سَقـانـيَ طِفْـلاً قَهْـوَةَ العَلْـمِ والنُّهىٰ وزادَ إِلـىٰ أَنْ طـالَ قَـدْري واعْتَلـىٰ
وأَكْسَبَنـي لمَّـا اتَّصَفْـتُ بِـرِقِّـهِ مِـن الفَخْـرِ والعَلْيـاءِ مَجْـداً مُـؤَثَّـلا
وكـمْ نِعَـمٍ لَو رُمْتُ تَعْدادَها أَبَتْ وكانَتْ من الإِحْصاءِ لِلذَّرِّ أَسْهلا
إِذا غِبْـتُ عـن أَبْـوابِـهِ فَهِبـاتُـهُ إِلـيَّ كَـأَنْفـاسِ النَّسِيـمِ تَـوَصُّـلا
وإِنْ قَـذَفَتْنـي غُـرْبَـةٌ كـانَ جُـودُهُ سَحـابـاً يُـوافيني فَـأَعْطـىٰ ونَـوَّلا
ووافـىٰ كِتـابٌ منـهُ مـن بَعْـدِ فَتْـرَةٍ فَأَضْحَىٰ بِهِ دَمْعي على الخَدِّ مُرْسَلا
لَقَـد أَنْشَـأَتْـهُ راحَـةٌ كَـفَّ كَفُّهـا من الخَطْبِ ما أَعْيىٰ الأَنامَ فَأَعْضَلا
تَمَنَّىٰ مُلِـثُّ الغَيْـثِ لـو كـانَ بَطْنَهـا وَوَدَّتْ بِهـا الأَنْهـارُ لـو كُـنَّ أَنْمُـلا
علـى أَنَّ كُتْبـي لا تَـزالُ كَتـائِبـاً أُلاقي بِها في ساحَةِ الوَجْدِ جَحْفَلا
أُقَبِّـلُ فيهـا الأَرْضَ أَعْنـي مُـؤَدِّيـاً [٤٩ أ] بـذلـكَ فَـرْضـاً مـا أَراهُ تَنَفُّـلا
وإِنْ كانَ في الأَحْشاءِ ما يَمْنَعُ الفَتىٰ مِـن الـوَجْـدِ والتَّبْـرِيـحِ أَنْ يَتَـرَسَّـلا
فَـلا زَالَ مَحْـروسَ الجَنـابِ مُظَفَّـراً بِـأَعْـدائِـهِ مـا هَيَّـجَ الشَّـوْقُ مُبْتَلـىٰ

● **فكتبَ هو الجوابَ عن ذلكَ[1] :**

---

(١) الجواب نثراً وشعراً في أعيان العصر .

يُقَبِّلُ الباسِطَةَ ، أَلْهَمَها اللهُ الوفاءَ لِمَنْ وَفىٰ بِعُهودِهِ ، وأَطْلَعَ نَجْمَها المُتَّقِدَ في مَطالِعِ سُعودِهِ ، وَأَعادَ غُصْنَها إِلى مَنْبَتٍ سَما منهُ رافِلاً في خِلَعِ بُرُودِهِ ، مُثْمِراً بِدَوْحَةِ مَنْشَئِهِ الذي ما تَفَتَّحَ وَرْدُهُ إِلاَّ لَمَّا سَقىٰ ماءَ وَرْدِهِ عِندَ وُرودِهِ .

ويُنْهي بعدَ وَصْفِ شَوْقِهِ الذي تَطاوَلَ عليهِ لَيْلُهُ فاذْلَهَمَّا ، ولَمَعَ في دُجُنَّتِهِ بارِقُ اللَّواعِجِ فَأَضْرَمَ بينَ الجَوانِحِ نِيْرانَ الخَليلِ لمَّا ، وأَجْرَىٰ من جَفْنِهِ القَريحِ طُوفانَ نُوحٍ ، فَلأَجْلِ ذلكَ هَجَرَهُ الوَسَنُ ومن بَعْدِ الهِجْرانِ أَلَمَّ[1] بِهِ ما أَلَمَّا ، وَكابَدَ فُؤادُهُ هَمّاً ، والذي يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ بالسُّلُوِّ ما هَمَّا ، وعاهَدَهُ على الأَخْذِ بِسُنَّةِ الصَّبْرِ الجَميلِ فَلم يَفِ بِعَهْدِهِ ولم يَجِدْ لَهُ عَزْماً ، وأَرادَ القَلَمُ أَنْ يَصِفَ ما وَجَدَهُ بعدَ البُعْدِ من الأَسَفِ نَثْراً ، فَأَبَتِ البَلاغَةُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ نَظْماً ، وهو : [من الطويل]

نَـأَيْتُـمْ فَـأَمْسىٰ الـدَّمْعُ مِنِّي مُـوَرَّداً ... على صَحْنِ خَدٍّ صارَ بِالسُّقْمِ عَسْجَدا
إِذا مَـا بَـدَا فـي وَجْنَتـي مِنْـهُ صَيِّـبٌ ... رَأَيْـتَ مـن اليـاقُـوتِ نَثْـراً مُبَـدَّدا
وإِنْ نَظَمَتْـهُ فَـوقَ نَحْـري صَبـابَـةٌ ... تَبَيَّنْـتَ عِقْـداً بِـالشُّـذُورِ مُنَضَّـدا
ومـا حَثَّـهُ إِلاَّ بَـريـقٌ تَتَـابَعَـتْ ... لَـوامِعُـهُ يُبْـدِيـنَ نَصْـلاً مُجَـرَّدا
وَكَمْ أَذْهَبَ التَّذْهِيبُ مِنْهُ حُشاشَةً ... وَأَوْدَعَ حُـزْنـاً فـي الفُـؤادِ مُجَـدَّدا
بَـدا مـن سَنِيْـرٍ مُسْتَطِيـراً ضِيـاؤُهُ ... فَآنَسْتُ ناراً في الدُّجُنَّةِ مُذْ بَدا[2]
وَأَمْسَىٰ فُؤادِي كالكَليمِ ولم يَجِدْ ... علـى النَّـارِ لمَّـا أَنْ تَحقَّقَهـا هُـدىٰ
وكيفَ اهْتِداءُ الصَّبِّ والقَلْبُ والِهٌ ... وإِدْراكُـهُ مُـذْ غِبْـتَ عَنْـهُ تَشَـرَّدا
يَهِيـمُ إِذا هَبَّـتْ نُسَيْمَـةُ جِلَّـقٍ ... وَيَصْبُـو إِذا نـاحَ الحَمـامُ وغَـرَّدا

---

(١) « أَلَمَّ » من م .

(٢) في م : . . . . مستطيراً فؤاده × . وسَنير : جبلٌ بين حمصٍ وبعلبك . (معجم البلدان ٢٦٩/٣) .

وَيَـذْكُـرُ أَيَّـامـاً تقَضَّـتْ بِسَفْحِهـا ... فَيُبْدِىءُ نَوْحاً في الظَّلامِ مُرَدَّدا[1]
لَيالي يُجْلىٰ الرَّوْضُ في حُلَلِ الحَيا ... وغُصْـنُ النَّقـا يُبْـدي عليـه تَـأَوُّدا
تَبَسَّمَ ثَغْرُ الزَّهْـرِ لمَّـا بَكـىٰ أَسـىً ... ولاحَ كَصُبْحٍ بِالظَّلامِ قَد ارْتَدىٰ[2]
أَأَحْبـابَنـا غِبْتُـمْ فكَـمْ لـيَ وَقْفَـةٌ ... علـى صَفَـدٍ والقَلْـبُ مِنِّـي تَصَفَّـدا
وكم لي بِهاتِيكَ الطُّلولِ مَواقِفٌ ... وَقَفْتُ عَليها الدَّمْعَ إِذْ رُحْتُ مُنْشِدا
تَنـاءىٰ خَليـلٌ يـا خَليلـي فَـأَسْعِـدا ... بِدَمْعٍ يُضاهي المُزْنَ إِنْ كُنْتَ مُسْعِدا
وأَبْـدىٰ صُـدوداً والصُّـدودُ مَـلامَـةٌ ... وأَنْجَـزَ هِجْـرانـاً وأَخْلَـفَ مَـوْعِـدا
كَـذَا شِيْمَـةُ الـدَّهْـرِ الخَـؤُونِ وَدَأْبُـهُ ... يَخُـونُ وَفِيّـاً أَو يُكَـدِّرُ مَـوْرِدا

● **وأَنشدَني لنفسه على طَريقِ ابن رَشيقٍ في الأَبْياتِ المَشْهورَةِ**[3] : [من الكامل]

وَلَقَـدْ ذَكَـرْتُـكِ بيـنَ مُشْتَجَـرِ القَنـا ... والمَوْتُ يَخْتَطِفُ النُّفوسَ بِمِخْلَبِ
وأَسِنَّـةُ المُـرَّانِ مِثْـلُ كَـواكِـبٍ ... تَبْـدُو أَشِعَّتُهـا بِظُلْمَـةِ غَيْهَـبِ
ولَـوامِـعُ البِيْـضِ الـرِّقـاقِ كَـأَنَّهـا ... بَـرْقٌ تَـأَلَّـقَ مُـذْهَبـاً فـي مُـذْهَـبِ
والحَتْفُ قَد لَعِبَتْ كُؤُوسُ مُدامِهِ ... بِعُقُـولِنـا والـذِّكْـرُ غـايَـةُ مَطْلَبِـي

---

(١) في م : × فيبدي نُواحاً . . . .
(٢) في م : تبسَّم زهر الرَّوض . . . . × .
(٣) الأَبيات في أَعيان العصر .
قلت : وأَبيات ابن رشيق ، هي : [ديوانه ٤٨ ـ ٤٩ والغيث المسجم ٢/ ٣٩]
ولقـد ذكـرتُـكِ فـي السَّفينـة والـرَّدى ... مُتَـوَقِّـعٌ بِتَـلاطُـمِ الأَمْـواجِ
والجـوُّ يهطـلُ والـريـاحُ عـواصِـفٌ ... واللَّيْـلُ مُسْـوَدُّ الـذَّوائِـبِ داجِ
وعلـى السَّـواحِـلِ لِـلأَعـادي غـارةٌ ... يُتَـوَقَّعُـونَ لِغـارةٍ وهِيـاجِ
وعَلَـتْ لأَصحـابِ السَّفينَـةِ ضَجَّـةٌ ... وأَنـا وذِكْـرُكِ فـي أَلَـذِّ تَنـاجـي

● وأَمَرَني أَن أَنظمَ على هذا الأُسلوبِ ، فقُلتُ[1] : [من الكامل]

وَلَقَـدْ ذَكَـرْتُكُـمُ بِحَـرْبٍ يَنْثَنِـي ... عن بَأْسِها اللَّيْثُ الهِزَبْرُ الأَغْلَبُ
والصَّـافِنـاتُ بِـرَكْضِهـا قَـد أَنْشَـأَتْ ... لَيْـلاً وَكُـلُّ سَنـا سِنـانٍ كَـوْكَـبُ
والبِيْـضُ تَنْشُـرُ كُـلَّ مـا نَظَـمَ القَنـا ... [٤٩ ب] والنَّبْلُ يُشْكِلُ والعَجاجُ يُتَرِّبُ
وحُشـاشَـةُ الأَبْطـالِ قـد تَلِفَـتْ ظَمـاً ... وَدَمُ الفَـوارِسِ مُنْتَهِـلٌ صَيِّـبُ
والنَّفْـسُ تُنْهَـبُ بـالفَـوارِسِ والقَنـا ... وأَنـا بِـذِكْـرِكُـمُ أَمِيْـلُ وأَطْـرَبُ

● وكتبَ يوماً إِليَّ في الاعْتِذارِ من وَداعِ الحَبيبِ[2] : [من الكامل]

يَـوْمَ الـوَداعِ بَـدَتْ شَـواهِـدُ لَـوْعَتـي ... نـارُ الخَليـلِ تُشَـبُّ فـي الطُّـوفـانِ
وَأَرَدْتُ أَعْتَنِـقُ الحَبيـبَ فَخِفْـتَ أَنْ ... يَغْشـاهُ يَـمٌّ أَو لَظـىً نِيْـرانِ

● وطلبَ مِنِّي أَن أَنظمَ شيئاً في هذهِ المادَّةِ ، فقلتُ[3] : [من الكامل]

لَـمْ أَطَّـرِحْ يَـوْمَ الـوَداعِ عِنـاقَـهُ ... مَلَـلاً وَدَمْـعُ المُقْلَتَيْـنِ سَكُـوبُ
إِلاَّ مَخـافَـةَ أَنَّـهُ يَفْتَـرُّ عَـن ... بَـرَدٍ وتَبْـدُو حُـرْقَتـي فَيَـذوبُ

٣٠ * الحُسين بن سُليمان بن أَبي الحَسَن بن سُليمان بن رَيَّان[4] :

القاضي الفاضِلُ ، البليغُ ، شَرَفُ الدِّينِ بن الصَّحب جَمال الدِّينِ الطَّائيّ ،

---

(١) الأَبيات في أَعيان العصر والغيث المسجم ٢/ ٤٣ .
(٢) البيتان في أَعيان العصر والدّرر الكامنة .
(٣) البيتان في أَعيان العصر .
(٤) ترجمته في : الوافي بالوفيات ١٢/٣٦٩ والذيل على العبر ١/ ٢٧١ وتذكرة النبيه ٣/ ٣٢٢ والمنتقى من درّة الأَسلاك ٣٩٠ ودرر العقود الفريدة ٢/ ٤١ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٣٢٨ والدّرر الكامنة ٢/ ٥٥ والمنهل الصافي ٥/ ١٥٦ والدليل الشافي ١/ ٢٧٣ .
ـ مولده سنة ٧٠٢ هـ . ووفاته سنة ٧٧٠ هـ ـ وقيل : ٧٦٩هـ ـ .
ـ في م : الحسن بن سليمان . . . ! .

مُوَقِّعُ الدَّسْتِ الشَّريفِ بِحَلَب المحروسَة ، وناظِرُ الدَّواوين المَعمورَةِ بِحَماةَ المحروسة .

● كتبتُ أَنا من رَحْبَةِ مالك بن طَوق إلى أخيهِ القاضي بَهاءِ الدِّين الحسن كِتاباً ، وفيه عَتْبٌ عليهِ بسببِ انْقِطاعِ مُشَرَّفاتِهِ عَنِّي ، فكتبَ هو إليَّ في سنةِ ٧٢٩[١] : [من الكامل]

قَـرَّتْ بِمَنْصِبِـكَ الجَليـلِ عُيُـونُ وَرَنَـتْ إِلَيْـكَ مـن السُّعـودِ جُفـونُ
وَأَتَتْـكَ مـن رُتَـبِ السَّعـادَةِ غـادَةٌ يَسْبيـكَ مِنْهـا الحـاجِـبُ المَقْـرُونُ
وَدَعَتْـكَ لِلـرُّتَـبِ العَلِيَّـةِ فـازْقَهـا فـي نِعْمَـةٍ وقَـرِيْنُـكَ التَّمكيـنُ[٢]
واصْعَـدْ إِلـى دَرَجِ المَعـالـي راقِيـاً أَعْلـىٰ العُلـىٰ فَـلأَنْـتَ ثَـمَّ أَميـنُ
والْبَـسْ بِهـا الخِلَـعَ النَّفِيسَـةَ دائِمـاً وَلَـكَ السَّعـادَةُ فـي الأُمُـورِ تُعيـنُ
فَلَسَـوْفَ تَعْلُـو بَعْـدَهـا ويَطيـرُ مِـن أَرْجـائِهـا لَـكَ طـائِـرٌ مَيْمـونُ
ولقَـد أَتَـىٰ مِنْـكَ المِثـالُ إِلـى أَخي وَعَلَـيَّ فِيـهِ مـن العِتـابِ فُنـونُ
وَزَعَمْتَ أَنِّي حُلْتُ عن ذاكَ الوَفا لا كـانَ ذاكَ ولا أَراهُ يَكُـونُ
أَنـا لا أَحـولُ ولا أَميـلُ عـن الـوَفـا أَبَـداً وفـي ذا القَـوْلِ لَسْـتُ أَميـنُ
سَـلْ مـن ضَميـرِكَ عـن وِدادي إِنَّـهُ عِنْـدي الأَميـنُ وقَـوْلُـهُ المَـأْمُـونُ
لا تَنْسُبَنِّـي لِلمَـلالِ فـإِنَّنـي أَدْرىٰ بِمـا عِنْـدي وسَـوفَ يَبِيـنُ

وفي أَثناءِ الكِتابِ بَيْتان ، وهما : [من الكامل]

أَبْشِـرْ بهـا مِـنْ رَحْبَـةٍ قَـد أَصْبَحَـتْ كَهْفَ الغَريبِ وَمَأْمَناً لِلسَّالِكِ[٣]
وَحَلَلْتَهـا يـا مـالكـي فَـلأَجْـلِ ذا قَد أَصْبَحَتْ تُدْعىٰ بِرَحْبَةِ مالِكِ

---

(١) القصيدة في الوافي .
(٢) سقط البيت من أ ، م .
(٣) « كهف الغريب » ساقطة من م .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ**[1] : [من الكامل]

جـاءَتْ سُطـورُكَ والسُّـرورُ قَـرِيـنُ ... ولَهـا مـن الحُسْـنِ البَـدِيـعِ فُنـونُ
اللهُ أَكْبَـــرُ كَـــمْ تَلَظَّــتْ قَبْلَهـــا ... كَبِـدي عليـكَ وكـم بَكَتْـكَ عُيـونُ
ولَكَمْ سُرورٌ غابَ عن سِرِّي وكَمْ ... وَرَدَتْ عَلَــيَّ لأَجْــلِ ذاكَ مَنــونُ
حتَّــىٰ أَتَـتْ غَـرَّاءَ يَفْضُـلُ حُسْنُهـا ... لَيْلــىٰ وَلَكِنِّــي بِهــا المَجْنــونُ
يــا حُسْنَهــا مـن رَوْضَــةٍ هَمْـزاتُهـا ... فَـوقَ السُّطـورِ حَمـائِـمٌ وغُصُـونُ
أَسْتَغْفِـرُ اللهَ العَظِيـمَ غَلِطْــتُ فــي ... تَشْبِيهِهــا بِـالـرَّوْضِ وهــو الـدُّونُ
اعْـذُرْ فـإِنِّـي مـن بَقـايـا دَهْشَتـي ... لمَّـــا أَتَتْنـــي بَغْتَــــةً مَفتــونُ
بَلْ دِيمَةُ الفَضْلِ التي كم قد سَقَتْ ... زَهْـراً وكـم مِنْهـا اسْتَهَـلَّ هَتـونُ[2]
وَغَلِطْتُ أَيْضاً بل هيَ البَحْرُ الذي ... أَلْفــاظُهــا دُرُّ النُّهــىٰ المَكْنــونُ
وَأَنــا أُقيــمُ أَدِلَّــةً يَــرْضَــىٰ بهــا ... والصِّــدْقُ فيمــا أَدَّعــي مَضْمــونُ
مِــنْ وَزْنِهـا بَحْـرٌ ومِــن أَلْفـاظِهـا ... دُرَرٌ وقـــافِيَـــةُ القَصيـــدَةِ نُـــونُ
مــا هَـــذِهِ عِنْــدي بــأَوَّلِ مِنَّـــةٍ ... مــا أَجْـرُهــا لِتَمــامِهــا مَمْنُــونُ
[٥٠ أ] عِنْدي لِفَضْلِكَ كُلُّ طُولٍ سابغٍ ... وعلىٰ مَديحي فـي عُـلاكَ دُيـونُ[3]

● **وكتبتُ في أَثْناءِ الكِتابِ أَيْضاً** : [من الكامل]

وَلَقَـدْ حَلَلْـتُ بِبَلْـدَةٍ حـاشـا لَظـىً ... وقَبيـحِ مَنْظَـرِهـا الشَّنيـعِ الحـالِـكِ
وَسِعَتْ لأَنْواعِ العَذابِ على الفَتىٰ ... فَلِـذاكَ سَمَّـوْهـا بِـرَحْبَـةِ مـالِـكِ

● **وكتبتُ أَنا إِليهِ من صَفَد المحروسة ـ وهو بحلب المحروسة**[4] ـ ،

---

(١) القصيدة في الوافي .
(٢) في ب : . . . . التي بك كم سقت × . . . . عيونُ .
(٣) في ب : . . . . سائغ × . . . من علاك . . . .
(٤) الجملة المعترضة من س .

أَتَشَوَّقُ إِليهِ ، في سنة ٧٢٤ : [من البسيط]

هَبَّتْ نَسِيمُ الصَّبا لي من رُبا حَلَبِ فَأَسْكَرَتْني إِلى أَنْ مِلْتُ من طَرَبي(١)
فَيـا لَهـا نَسْمَـةً أَحْيَـتْ فُـؤادِيَ إِذْ تَنَفَّسَتْ نَفَّسَتْ عن مُهْجَتي كُرَبي
أَدَّتْ رَسائِلَ وُرْقُ الدَّوْحِ تَرْجَمَها وسَطَّرَ البَرْقُ ما أَمْلَتْهُ بالذَّهَبِ(٢)
فَهِمْـتُ لَمَّـا فَهِمْـتُ السِّـرَّ حِينَئِـذٍ وَرُحْتُ من راحِها والشَّوْقُ يَلْعَبُ بي
سَحَّ السَّحابُ علىٰ السَّاحاتِ من حَلَبٍ وجادَ أَكْنافَها بالواكِفِ السَّرِبِ(٣)
وإِنْ ونـىٰ حَثَّـهُ حـادي الـرُّعـودِ وإِنْ ضَلَّ الطَّريقَ اهْتَدَىٰ بالبَرْقِ من كَثَبِ
إِنْ شَحَّ بُخْلاً على تِلْكَ الدِّيارِ وَلَمْ يَسِـحَّ وَبْـلاً علـى الأَجْـراعِ والكُثُـبِ
فـإِنَّ لـي مَـدْمَعـاً يُغْنـي مَعـالِمَهـا إِذا تَـذَكَّـرْتُهـا عـن مِنَّـةِ السُّحُـبِ
أَوْطـانُهـا لِـيَ أَوْطـارٌ بِهـا وَمَغـا نِيْها غَنائي وفي تِلْكَ الرُّبا أَرَبي(٤)
لا تَسْكُـنُ النَّفْـسُ إِلاَّ فـي مَسـاكِنِهـا والقَلْـبُ عـن ساكِنِيْهـا غَيْـرُ مُنْقَلِـبِ
فيا نَسِيْمَ الصَّبا لا زِلْتَ تَخْطُرُ في رَوْضِ الخُزامىٰ بِذَيْلٍ مِنْكَ مُنْسَحِبِ(٥)
إِيْـهِ أَعِـدْ لـي حَـديثـاً لَـذَّ مَـوْقِعُـهُ في مَسْمَعي وشَفىٰ قَلْبي من الوَصَبِ
وَخُذْ بنا فِيهِ أَيْضاً فَهْوَ أَعْذَبُ لي علىٰ عَذابي بِهِ من ثَغْرِ ذِي شَنَبِ
وَكَـرِّرِ القَـوْلَ لا تَسْـأَمْ فـإِنَّـكَ إِنْ كَـرَّرْتَـهُ لـي حَـلا أَوْ زِدْتَـهُ يَطِـبِ
ولا تَقُلْ لَمْ أَقُمْ بالواجِباتِ علىٰ مِثْلي لِمِثْلِكَ فالمَعْرُوفُ لم يَخِبِ(٦)
فـإِنَّ شُكْـرِيَ عـن سُكْـري لَـهُ شُغَـلٌ حَتَّىٰ أَفيقَ من الوَجْدِ المُبَرِّحِ بي(٧)

---

(١) في ب : . . . من ورا حلب × .
(٢) في م : . . . . الدَّوح حين سَرَت × . وفي هامشه : خ : ترجمها .
(٣) في م : × . . . بالوابلِ السَّرِبِ .
(٤) « فيها غنائي » ساقطة من م .
(٥) في م : × ذيل الخزامىٰ . . .
(٦) في أ ، م : ولا تقل لي أقم . . . × .
(٧) في م : فإن شكري عن شكري . . . × .

لا تَحْسَبَنْ جَنَّةَ المَأْوىٰ سِوىٰ حَلَبٍ فَكَمْ رَأَيْتُ بِها من مَنْظَرٍ عَجَبِ[1]
وَكَمْ تَمَتَّعْتُ في بابِ الجِنانِ بِها مِن حُسْنِ وِلْدانِها والخُرَّدِ العُرُبِ
مَولايَ يا شَرَفَ الدِّيْنِ الذي اتَّضَحَتْ بِهِ المَعالي وكانَتْ قَبْلُ في حُجُبِ
وفاقَ بالفَضْلِ في الآفاقِ كُلَّ فَتىً وحَلَّ من مَجْدِهِ في مَعْقِلٍ أَشِبِ
وأَحْدَقَتْ بِعُلاهُ كُلُّ مَكْرُمَةٍ فَراحَ وَسْطَ العُلىٰ والفَضْلِ كالقُطُبِ
أَعِيْذُ فَضْلَكَ يا شَمْسَ العُلومِ ويا بَدْرَ المَحافِلِ بالسَّيَّارَةِ الشُّهُبِ
أَوْلَيْتَنِي نِعَماً لو رُمْتُ أُنْكِرُها لَما اخْتَفَى ذاكَ مِنِّي عِنْدَ كُلِّ غَبي
وكَيْفَ أَنْسىٰ الذي أَوْلَيْتَ مِن كَرَمٍ وقد تَعاطَيْتُ مِنْهُ أَرْفَعَ الرُّتَبِ[2]
فَيا رعىٰ اللهُ أَيّاماً نَعِمْتُ بِها من قُرْبِكُمْ ونَصيبي بَعْدَها نَصَبي
ما لي سِوىٰ مَحْضِ وُدِّي إِنْ رَضيتَ بِهِ فَإِنَّ ذلكَ لي من أَرْفَعِ القُرَبِ[3]
بَلىٰ وَطِيْبُ ثَناءٍ عَنْكَ أَنْشُرُهُ فَيَعْبَقُ المِسْكُ في الأَرْجاءِ والرَّحَبِ
وخِدْمَةٌ أَنْتَ تَدْري حَقَّ قُرْبَتِها نَعَم وما بَيْنَنا من نِسْبَةِ الأَدَبِ
فَعُدْ عَلَيَّ بِكُتْبٍ مِنْكَ تُنْجِدُني بِها وتُنْقِذُني من قَبْضَةِ الحَرَبِ
لا تَنْسَ حاشاكَ عَهْداً بَيْنَنا أَبَداً ودُمْ علىٰ وُدِّكَ الصَّافي من الرِّيَبِ[4]

● **وكتبَ هو إليَّ ، وَأَنا بِحلبَ المحروسَة ، في شهر رمضان سنة ٧٥٩**[5] : [من المتقارب]

كَلامُ العَواذِلِ ما يُسْمَعُ ودَعْوىٰ المَحَبَّةِ ما تُدْفَعُ
شَواهِدُها لَهَبٌ في الضُّلوعِ وَفَيْضُ الدُّموعِ التي تَهْمَعُ

(١) في م : . . . جنَّة الدُّنيا . . . × .
(٢) في م : . . . أَوليتني كرماً × .
(٣) في ب ، س : × . . . من أَنفع . . .
(٤) وسقط ما بعد ذلك في س إلى قوله : وكتبتُ أنا إليه أُعزِّيه في والده . . . .
(٥) في م : سنة ثمانٍ وخمسين وسبعمئة .

مَسَاكِينُ أَهْلُ الهَوى ما لَهُمْ مُعينٌ ولا شافِعٌ يَشْفَعُ
غَرامٌ يَغيبُ بِهِ وَعْيُهُمْ فَما يَعْرِفُ الصَّبُّ ما يَصْنَعُ
يُرَجُّونَ عَوْدَةَ أَفْهامِهِمْ إليهِمْ ، وما فاتَ لا يَرْجِعُ
وكيفَ يَعودُ لأَهْلِ الصَّبابَـةِ وَعْيٌ ومُسْتَبْعَدٌ أَنْ يَعوا
[٥٠ ب] ولي صاحِبٌ وُدُّهُ في الحَشا لَهُ مُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعُ
أَلِفْتُ بِهِ في زَمانِ الصِّبا فَما لِيَ عن حُبِّهِ مَرْجِعُ
تَمَكَّنَ مِن مُهْجَتي حُبُّهُ فَما لِسِواهُ بِها مَوْضِعُ(١)
صَلاحي خَليلي أَميري أَخي صَديقيَ ذُخْري الذي يَنْفَعُ(٢)
لَقد فاقَ في الفَضْلِ أَهْلَ الزَّمانِ وراقَتْ مَحاسِنُهُ أَجْمَعُ
وكم قد صَحِبْتُ مِن العالَمِيْنَ أُناساً وَهُمْ قَلَّ أَنْ يَنْفَعُوا
ولم أَرَ فيهِمْ مُقيماً على الْـوِدادِ سِواهُ إِذا ضَيَّعُوا
وَقَد كُنْتُ في حَلَبٍ شَيِّقاً إليهِ وَقَلْبي بها مُوجَعُ(٣)
أُرَجِّي اجْتِماعي بِهِ والنَّوىٰ تَحُولُ وتَنْأَىٰ بِيَ الأَرْبُعُ
وَكُنْتُ كَرِهْتُ مُقامي بِها وضاقَ عَلَيَّ الفَضا الأَوْسَعُ
وضاعَ بِها العُمْرُ لا فاضِلٌ إذا قُلْتُ يَفْهَمُ أَو يَسْمَعُ
وما زالَ في أَمَلي أَنَّنا نَنالُ اللِّقاءَ ونَسْتَجْمِعُ
إلى أَن قَضىٰ اللهُ أَنَّ البِعادَ يَزُولُ وشَمْلي بِهِ يُجْمَعُ
فَجاءَ مِن الشَّامِ في رُتْبَةٍ عَلَتْ وَهْوَ مِنْ قَدْرِها أَرْفَعُ
فَلَذَّ مَقامي بِها وانْجَلَتْ هُمومي وطابَ لِيَ المَرْبَعُ

---

(١) في أ ، ب : × فما لسواها . . . ! والمثبت من م .
(٢) في م : × صديقي وذخري . . .
(٣) في م : × . . . . به موجع .

ويَهْنِيكَ شَهْرُ الصِّيامِ الذي ... هِلالُ السُّعودِ بِهِ يَطْلُعُ
ولا زِلْتَ في نِعْمَةٍ ما شَدَتْ ... علىٰ الأَيْكِ قُمْرِيَّةٌ تَسْجَعُ

● فكتبتُ أنا الجوابَ : [من المتقارب]

أَرَوْضٌ غَدَتْ وُرْقُهُ تَسْجَعُ ... أَم الأُفْقُ أَقْمارُهُ تَطْلُعُ
وهَيْهَاتَ بل هذِهِ رُقْعَةٌ ... جَنابُ الذي خَطَّها أَرْفَعُ
بَليغٌ إذا فاهَ في مَحْفَلٍ ... فَحَظُّ الأَفاضِلِ أَنْ يَسْمَعُوا
وَأَقْلامُنا في الطُّروسِ اغْتَدَتْ ... لِتَعْظِيمِ إِنْشائِهِ تَرْكَعُ
فَضائِلُهُ قد سَرَىٰ ذِكْرُها ... فَلَم يَخْلُ من حُسْنِها مَوْضِعُ[1]
يُوَشِّي الطُّروسَ ولكنَّهُ ... يُوَشِّعُها بالضِّيا يُوشَعُ
إِمامُ القَريضِ إمامُ النُّحاةِ ... إِمامُ المَعاني التي تُبْدَعُ
إذا قِصَّةٌ خَطَّ فيها فَما ... يُوَقِّعُ بَلْ بالعِدىٰ يُوقِعُ[2]
أَخي صاحِبي شَرَفي سَيِّدي ... رَفيقي إِمامي الذي أَتْبَعُ
صَفا إِذْ تَكَدَّرَ وِرْدُ العِدىٰ ... ومَن لا صَفا كَيْفَ لا يُصْفَعُ
تَغَرَّبْتُ عن جِلَّقٍ واثِقاً ... بِهِ أَنَّ خَطْبَ النَّوىٰ يُدْفَعُ
فَأَلْفَيْتُ أُنْسِي بِهِ حاضِراً ... وما أَرْتَجي عِنْدَهُ أَجْمَعُ[3]
وَذَكَّرَني طِيبَ عَيْشٍ مَضىٰ ... سَقَتْهُ دُمُوعي التي تَهْمَعُ
فَما كانَ أَهْنا زَمانَ الصِّبا ... وأَوْقاتُهُ بالمُنىٰ تُقْطَعُ
يَجيءُ السُّرورُ كما نَشْتَهي ... وَيَكْمُلُ من قَبْلِ ما نَشْرَعُ
وكم قد أَعَدْنا سُروراً مَضىٰ ... بِعِزٍّ وَأَنْفُ العِدىٰ يُجْدَعُ

---

(١) في ب : . . . قد سما ذكرها × .
(٢) في م : × . . . بل في العدى . . .
(٣) في م : . . . بها حاضراً × .

وَأَحْكامُنا في الرَّدىٰ قد مَضَتْ فَلا نَتَخَشَّىٰ ولا نَخْضَعُ[1]
وَكُلُّ فَريقٍ إِذا ما اشْتَكىٰ إِلَيْنا ظُلاماتُهُ تُرْفَعُ[2]
فَآهٍ علىٰ عَوْدِ دَهْرٍ مَضىٰ وإِنْ كانَ ما فاتَ لا يَرْجِعُ
وما لي وذِكْرُ صِباً فائِتٍ وما فِيَّ لو عادَ مُسْتَمْتَعُ
ولكنْ عُلالَةُ ذِي أُلْفَةٍ بِتَذْكارِهِ لِلصِّبا يَنْزَعُ
أَيا شَرَفَ الدِّيْنِ أَنْتَ الذي بِهِ رُحْتُ لِلْخَطْبِ لا أَضْرَعُ
لِأَنَّكَ لي شَرَفٌ رُكْنُهُ بِفَرْقِ السِّماكِ غَدا يُوضَعُ
وَأَنْتَ مَعاذِي الذي أَرْتَجِي إِذا عَصَفَتْ لِلرَّدىٰ زَعْزَعُ
فَهُنِّيتَ شَهْرَ الصِّيامِ الذي غَدا نُورُهُ في الدُّجىٰ يَسْطَعُ
تَصومُ وتُفْطِرُ في صِحَّةٍ صَفا لَكَ من وِرْدِها المَشْرَعُ
وَيُؤْمِنُكَ اللهُ ما تَخْتَشِي وما تَتَّقِيهِ وَما تَجْزَعُ

● **وكتبَ إليَّ أيضاً ، وأنا بحلبَ المحروسَة[3] :** [من الطويل]

أَيا فاضِلاً في العِلْمِ ما زالَ بارِعاً إِماماً لَدَيْهِ مُشْكِلُ النَّحْوِ واضِحُ
لَقَد سَمِعَ المَمْلوكُ بَيْتَيْنِ فيهما سُؤالٌ لِأَرْبابِ الجَهالَةِ فاضِحُ
لَنا إِبِلٌ ما رَوَّعَتْها الصَّفائِحُ ولا نَفَّرَتْها بالصِّياحِ الصَّوائِحُ
إِذا سَمِعَتْ أَضْيافَنا من رُعاتِها أَتَيْنَ سِراعاً يَبْتَدِرْنَ الذَّبائِحُ
فَما مُقْتَضىٰ رَفْعِ الذَّبائِحِ فيهما وَوَجْهُ وُجوبِ النَّصْبِ في الحالِ لائِحُ
أَجِبْ عن سُؤالي واغْتَنِمْ أَجْرَ سائِلٍ لَهُ في صِفاتِ الفاضِلينَ مَدائِحُ

[٥١ أ] **فكتبتُ أنا الجَوابَ إليهِ ارْتِجالاً[3] :** [من الطويل]

---

(١) في ب : . . . في الورىٰ . . . × .
(٢) « فريق » ساقطة من م .
(٣) الأبيات والجواب ، في الطبقات السَّنِيَّة ٣/ ١٤٨ .

أَيا فاضِلاً أَضْحَتْ رِياضُ عُلومِهِ		لَهـا نَسَمـاتٌ بـالـذَّكـاءِ نَـوافِـحُ
ومَـن حـازَ ذِهْنـاً نـارُهُ قـد تَـوَقَّـدَتْ		وفِكْـراً بِـهِ مـاءُ البَـدائِـعِ طـافِـحُ
سُـؤَالُـكَ فـي رَفْـعِ الـذَّبـائِـحِ ظـاهِـرٌ		ومـا النَّصْـبُ فِيـهِ إِنْ تَحَقَّـقَ لائِـحُ
« إِذا سَمِعَتْ » يَحْتاجُ ذا الفِعْلُ فاعِلاً		وذلكَ في رَفْعِ « الذَّبائِحُ » بائِحُ
و«أَضْيافَنا» المَفْعولُ، فاسْمَعْ مَقالَ مَنْ		يُسامي على نَقْصِ العُلىٰ مَن يُسامِحِ
وخُذْ قَوْلَ شَيْخٍ قد تَدانَىٰ من البِلىٰ		لَـهُ شَبَـحٌ نَحْـوَ الضَّـرائِـحِ رائِـحُ

● وكتبَ إِليَّ أَيْضاً ، وأَنا بحلبَ المحروسَة : [من الرجز]

يـا فـاضِـلاً فـي النَّحْـوِ والقُـرْآنِ يـا		مَـن فـاقَ فـي عِلْمِهِمـا وحَـرَّرَهْ
ما اسْمٌ أَتىٰ في الذِّكْرِ وَهْوَ مُفْرَدٌ		مُعَـرَّفٌ وَصْفـاً لِجَمْـعٍ نَكِـرَهْ
أَجِبْ سُؤَالي واغْتَنِمْ شُكْري فَما		أَبْـذُلُـهُ إِلاَّ لِـذِهْـنٍ أَظْهَـرَهْ

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ عن ذلك : [من الرجز]

يـا مَـنْ إِذا راحَتُـهُ تَنـاوَلَـتْ		طِـرْسـاً فَقَـد رَوَّضَـهُ وَزَهَّـرَهْ
أَرىٰ الـذي أَرَدْتَـهُ « آلِهَـةٌ »		وبَعْـدَ « دُونَ اللهِ » فـاعْـرِفْ خَبَـرَهْ
فـإِنَّ دُونَ مُفْـرَدٌ مُعَـرَّفٌ		وقَـدْ أَتـىٰ وَصْفـاً لِجَمْـعٍ نَكِـرَهْ[1]
وإِنْ تَشَـأْ فَمِثْلُـهُ « آلِهَـةٌ »		إِلاَّ الإِلٰـهُ فـاتَّخِـذْهـا تَـذْكِـرَهْ

أَردتُ بذلك قولَهُ تعالى : ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات : ٨٦] أَو قوله تعالىٰ : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا[2]﴾ [الأنبياء : ٢٢] والمعنىٰ : غَيْرُ اللهِ .

● وكتبتُ أَنا إِلَيْهِ أُعَزِّيهِ في والِدِهِ القاضي جَمال الدِّين بن سُليمان ، وقد تُوفي رحمهُ اللهُ في جُمادىٰ الآخرة سنة ٧٤٩[3] : [من البسيط]

---

(١) في ب : × وقد أتىٰ وصف الجميع نكره .
(٢) « لفسدتا » من م فقط .
(٣) القصيدة في أعيان العصر ٢/٤٢٨ ـ ٤٣٠ .

أَظْمَأْتَ نَفْسَ المَعالي يا ابْنَ رَيَّانا ... حتَّىٰ تَوَقَّدَتِ الأَحْشاءُ نِيْرانا
وانْهَلَّ دَمْعُ الغَوادي فِيكَ من حَزَنٍ ... وَشَقَّقَ البَرْقُ في الآفاقِ أَرْدانا
وَمَزَّقَ الصُّبْحُ أَثْوابَ الدُّجىٰ ورَمىٰ ... حَلْيَ النُّجومِ وأَضْحىٰ فيكَ عُرْيانا
وكُلُّ ساجِعَةٍ في الأَيْكِ نائِحَةٌ ... تُمْلي من الوَجْدِ في الأَسْحارِ أَشْجانا[1]
أَتَتْ دِمَشْقَ بِكَ الأَخْبارُ من حَلَبٍ ... يا بِئْسَ ما خَبَّرَ النَّاعي وناجانا
وَدِدْتُ من حُرْقَتي لو كُنْتُ ذا صَمَمٍ ... وما سَمِعْتُ الذي أَنْكىٰ وأَبْكانا
تَكادُ صُمُّ الصَّفا تَنْشَقُّ من حَزَنٍ ... لو أَنَّ لِلصَّخْرِ قَبْلَ اليَوْمِ آذانا
تَكادُ تَبْكِي المَعالي فِيكَ من جَزَعٍ ... بالدَّمْعِ لو وَجَدَتْ لِلدَّمْعِ أَجْفانا
مَن لِلظَّلامِ إذا نامَ الأَنامُ غَداً ... « يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبيحاً وقُرآنا »[2]
ومَنْ لِمْحرابِكَ الزَّاكي فَلَيْسَ يَرىٰ ... مِن بَعْدِ فَقْدِكَ فِيهِ قَطُّ إِنْسانا
كم قَدْ خَتَمْتَ كِتابَ اللهِ مُتَّعِظاً ... وفي تَدَبُّرِهِ كَمْ رُحْتَ وَلْهانا
وكَمْ حَثَثْتَ الخُطا نَحْوَ الصَّلاةِ لأَجْـ ... ـلِ الصَّفِّ الأَوَّلِ في الأَسْحارِ عَجْلانا
تُواظِبُ الصَّوْمَ في يَوْمِ الخَمِيسِ وفي الِـ ... اثْنَيْنِ حتَّىٰ لَقَد أَمْسَيْتَ خُمْصانا
وكم مَمالِكَ قَد دَبَّرْتَ حَوْزَتَها ... فَكُنْتَ خَيْرَ وَزِيرٍ قَطُّ ما خانا
وتَسْتَقِيمُ بِكَ الأَحْوالُ ماشِيَةً ... حتَّىٰ تَفيضَ بِكَ الأَمْوالُ طُوفانا[3]
للهِ دَرُّكَ كم جَمَّلْتَ مَدْرَسَةً ... وبالكِتابَةِ كَم شَرَّفْتَ دِيْوانا
فَكُنْتَ في الجُودِ غَيْثاً والهُدىٰ عَلَماً ... وفي الحِجىٰ حُجَّةً والعِلْمِ ثَهْلانا[4]

---

(١) في أ ، م : × . . . . في الأَشجار أَشجانا .

(٢) في أ ، م : مَن للأَنام . . . × .

والعجز مضمَّن من قول حسان بن ثابت في رثاء سيِّدنا عثمان : [ديوانه ١/٩٦ « عرفات »]

ضَحَّوا بأَشمطَ عنوانُ السُّجودِ بهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيلَ تسبيحاً وقُرآنا

(٣) في س : صدر هذا البيت مع عجز الذي يليه ، ثم صدر الذي يليه مع عجز هذا البيت ! .

(٤) في ب : × . . . . سلطانا .

ثمَّ اعْتَزَلْتَ الوَرىٰ من غَيْرِ ما سَبَبٍ إلاَّ لِتَطْلُبَ من ذي العَرْشِ رِضْوانا[1]
ومَنْ أَرادَ من الأُخْرىٰ جَواهِرَها أَباعَ أَعْراضَ هذِي الدَّارِ مَجَّانا[2]
وكانَ أَرْبَحَ مالاً عِنْدَ خالِقِهِ وراحَ أَرْجَحَ يَوْمَ الحَشْرِ مِيْزانا
فاذْهَبْ فَأَيُّ ضَرِيحٍ بتَّ ساكِنَهُ تَرىٰ التُّرابَ بِهِ رَوْحاً ورَيْحانا
[٥١ ب] ولم يَمُتْ مَن بَنوهُ سادَةٌ نُجُبٌ لَمَّا بَنىٰ مَجْدَهُمْ شادوهُ إِتْقانا
وجَمَّلُوا المُلْكَ إذْ زانُوا مَناصِبَهُ وأَلْبَسُوها مِن العَلْياءِ تِيْجانا
إنْ كُوتِبُوا أَوْ لُقوا أَوْ خُوطِبوا وُجِدوا في الخَطِّ واللَّفْظِ والهَيْجاءِ فُرْسانا
بَهاؤُهُمْ ما يُباهي عَزْمَهُ أَحَدٌ وفيهِمْ شَرَفٌ باقٍ لَهُمْ زانا
وما شِهابُهُمُ خافٍ بمَطْلَعِهِ كَما كَمالُهُمُ قد حازَ إِحْسانا
تَعَزَّ يا شَرَفَ الدِّيْنِ الذي قَبَضَتْ يُمْنىٰ عُلاهُ من العَيُّوقِ أَرْسانا
بَيانُهُ ظاهِرٌ لو أَنَّ رَوْنَقَهُ لِلْبَدْرِ لم يَخْشَ عِنْدَ السَّيْرِ نُقْصانا
تاللهِ ما دارَ كَأْسٌ من بَلاغَتِهِ عَلَيَّ إلاَّ أَهُزُّ العِطْفَ نَشْوانا
لَهُ عِباراتُ نَظْمٍ كُلَّما سَحَبَتْ ذُيولَها أَعْثَرَتْ في الحالِ سَحْبانا
مِثْلَ « العُيونِ التي في طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنا ثم لم يُحْيِينَ قَتْلانا »[3]
فالنَّاسُ في حَلَبٍ حَلَّتْ بِهِمْ تُهَمٌ وَأَصْبَحَ القَوْمُ خُرْساً في خُراسانا
فَلا يُرَعْ لَكُمُ سِرْبٌ بحادِثَةٍ ولا رَمىٰ شَأْنَكُمْ خَطْبٌ ولا شانا[4]
ولا يُكَدِّرْ لَكُمْ سِرْبٌ بنازِلَةٍ ولا حَدَتْ لَكُمُ الأَحْداثُ أَظْعانا[5]
تَحُفُّكُمْ بَرَكاتٌ مِن تُقاهُ فَقَدْ أَخَذْتُمُ مِنْهُ حِرْزاً من سُلَيْمانا

---

(١) عجزه من بيت عمران بن حطان : [شعر الخوارج ٢٦]
يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها إلاَّ ليبلغَ من ذي العرش رضوانا
(٢) في م : × ابتاع أعراض هذا الذِّكر مجّانا .
(٣) البيت لجرير : إنَّ العيون . . . . [ديوانه ١/١٦٣] .
(٤) لفّق في أ وأعيان العصر من صدر هذا البيت وعجز الذي يليه بيتاً .
(٥) في م : ولا [بياض] لكم شرب بنازلة × .

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهي ما عِنْدَهُ من الأَلَمِ[1] لِهذِهِ النَّازِلَةِ ، والقَلَقِ لهذِهِ الرَّزِيَّةِ التي جَعَلَتِ الدُّموعَ هاميَةً هامِلَةً ، والجَزَعِ لهذِهِ الحادِثَةِ التي تَرَكَتِ الجَوانِحَ حامِيَةً ، فَلَيتَ القُوىٰ لو كانت حامِلَةً ، فإِنَّا للهِ وإِنَّا إِليهِ راجِعون ، قَوْلَ مَن فَقَدَ جَمالَهُ ، وعَدِمَ صَبْرَهُ واحْتِمالَهُ ، وفَجَعَهُ الدَّهْرُ بواحِدِهِ الذي ما رَأَتْ عَيْنُهُ مِثالَهُ ؛ رحمَ اللهُ ذلكَ الوَجْهَ الجَميلَ ، وقَدَّسَ تلكَ السَّريرةَ التي كانَ الصَّفاءُ لها أَلْزَمَ زَميلٍ ، وما بَقِيَ غيرُ الأَخْذِ في ما وَقَعَ بالسُّنَّةِ ، والصَّبْرِ علىٰ فَقْدِ مَن أَثارَ النَّارَ في الفُؤادِ وسَكَنَ الجَنَّةَ .

وقد جَهَّزَ المَملوكُ هذهِ القَصيدَةِ التي يَسْبَحُ نُونُها في الهَمِّ في يَمٍّ ، ويَشْرَحُ في هذا المَأْتَمِ ما تَمَّ ، إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● فكتبَ هو الجَوابَ إِليَّ[2] :

يُقَبِّلُ كذا ، ويُنْهي وُرودَ المِثالِ الشَّريفِ ، يَتَضَمَّنُ تَعْزِيَةً حَسُنَ لَفْظُها ، وَأَثَّرَ في القُلوبِ وَعْظُها ، وتَعَيَّنَ تَسْطِيرُها في صَحائِفِ الأَفْكارِ وحِفْظُها ؛ فَوقفَ المَملوكُ على مَحاسِنِها وأَحاسِنِها ، وشَمَلَتْهُ مَن مَكامِنِها بمَيامِنِها ، وتَسَلَّىٰ بما حَوَتْهُ من مُفَصَّلِ الرِّثاءِ ومَجموعِهِ ، وَأَسالَ من أَجْفانِهِ دَماً بَدَلَ دُموعِهِ ، فَيا لَها من رَزِيَّةٍ عَظُمَتْ فيها المآتِمُ ، ومُصابٍ كَشَفَتْ حُجُبُهُ السُّليمانيَّةُ عن حَزَنٍ لَه خاتَمٌ ، وتحقَّقَ المَملوكُ من أَثْناءِ أَبْياتِ القَصيدَةِ النُّونِيَّةِ بَرَكاتِ ذي النُّونِ ، ونظَرَ إِلى نُونِها وقد غاصَ في بَحْرِ الفَضائِلِ ، فاسْتَخْرَجَ دُرَّةُ المَكْنونَ .

وقد كتبَ المَملوكُ جَوابَ مَولانا مُعْتَرِفاً فِيهِ بالتَّقْصِيرِ ، مُغْتَرِفاً من مَنْهَلِ فَضْلِهِ الغَزيرَ ؛ وهو[3] : [من البسيط]

---

(١) « من الأَلم » ساقطة من أ ، م .

(٢) الجواب بنثره وشعره في أعيان العصر .

(٣) منها تسعة أبيات في المنتقى من درّة الأسلاك ٢٤٧ .

جَدَّدْتَ في القَلْبِ آلاماً وأَحْزانا أَسالَتِ الدَّمْعَ من جَفْنَيَّ طُوفانا
فَاعْجَبْ لِجَفْنٍ يُغيضُ الماءَ مَدْمَعُهُ ومُهْجَةٍ تَلْتَظِي بالحُزْنِ نِيْرانا
عَزَّيْتَنا في أَبِيْنا فاكْتَسَبْتَ بِهِ أَجْراً وأَوْلَيْتَنا فَضْلاً وإِحْسانا
أَكْرِمْ بِهِ مِن أَبٍ شاعَتْ مَناقِبُهُ في النَّاسِ واشْتُهِرَتْ بِالجُودِ إِعْلانا
كم باتَ في ظُلُماتِ اللَّيْلِ مُنْتَصِباً في خِدْمَةِ اللهِ يَقْضِي اللَّيْلَ يَقْظانا
كم خَتْمَةٍ قد تَلاها في النَّهارِ وكَمْ أَفْنَىٰ الحَنادِسَ تَسْبيحاً وقُرْآنا
[١٥٢أ] ولازَمَ الصَّوْمَ أَوْقاتَ الهَواجِرِ لا يَرْتَدُّ عن صَوْمِهِ دِيْناً وإِيْمانا
وكانَ يَخْشُنُ في دِيْنِ الإِلٰهِ تُقىً « عِندَ الحَفيظَةِ إِن ذو لَوْثَةٍ لانا »[1]
وكانَ يُخْشَىٰ ويُرْجَىٰ في نَدىً ورَدىً والصَّعْبُ مِن رَأْيِهِ تَلْقاهُ قد هانا
شِبْنا وأَذْهَلَنا عُظْمُ المُصابِ بِهِ فَكُلُّ صَبٍّ بِهِ ذُهْلُ بنُ شَيْبانا
سارَتْ جِنازَتُهُ والخَلْقُ تَتْبَعُها والحُزْنُ قَد عَمَّهُمْ فيها وغَشَّانا
حتَّىٰ مَلائِكَةُ الرِّضْوانِ مُذْ عَلِموا « طارُوا إِليهِ زُرافاتٍ وَوُحْدانا »[1]
نَعىٰ النُّعاةُ وضَجُّوا بِالنَّعِيِّ لَهُ فَأَوْرَثُوا القَلْبَ أَحْزاناً وأَشْجانا
جارَ الزَّمانُ ولم يَقْصِدْ بِمَصْرَعِهِ إِلاَّ لِيَهْدِمَ لِلْمَعْرُوفِ أَرْكانا
إِنَّ الخُطوبَ التي ساقَتْ مَنِيَّتَهُ « قَتَلْنَنا ثمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانا »[2]
مَن ذا يُوَفِّي عُلاهُ بالرِّثاءِ ولَو كانَ المُرَثِّي لَهُ قُسّاً وسَحْبانا
لم أَقْضِ بالشِّعْرِ حَقّاً مِن عُلاهُ ولو نَظَمْتُ في كلِّ يَوْمٍ فِيهِ دِيْوانا
لو قِيلَ مَن فاقَ أَرْبابَ الصَّلاحِ تُقىً كانَ الجَوابُ سُليمانَ بنَ رَيَّانا

---

(١) العجز مضمّن من قول قريط بن أُنيف : [شرح الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٥]
إِذاً لقام بنصري معشرٌ خُشُنٌ عند الحفيظة إِن ذو لُوثةٍ لانا
قومٌ إِذا الشَّرُّ أَبدى ناجذيه لهم طاروا إِليه زرافاتٍ وَوُحدانا
(٢) العجز مضمَّنٌ من قول جرير : [ديوانه ١/ ١٦٣]
إِنَّ العيونَ التي في طرْفها مرضٌ قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانا

إنِّـــي لأَعْلَـــمُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُـــهُ ... « أَوْفَىٰ البَرِيَّةِ عندَ اللهِ مِيْزانا »[١]
حَيَّــرْتَنــا بمِثــالٍ فِيــهِ تَعْــزِيَــةٌ ... بِــهِ اتَّعَظْنــا وعَــزَّانــا وسَــلاَّنــا[٢]
فِيـهِ قَـريـضٌ بَـديـعُ النَّظْـمِ مُشْتَمِـلٌ ... علـىٰ مَعـانٍ حِسـانٍ فُقْـنَ حَسَّـانـا
إنْ رُمْتُ تَشْبيهَهُ بالرَّوْضِ كانَ لَهُ ... فَضْلٌ علىٰ الرَّوْضِ لا يَحْتاجُ بُرْهانا
الرَّوْضُ يَذْبُلُ في وَقْتٍ[٣] وَنَظْمُكَ قَد ... وَقاهُ فِكْرُكَ طُولَ الدَّهْرِ ما شانا
أَو قُلْتُ أَلْفاظُهُ مِثْلُ الكَواكِبِ لَمْ ... أَكُـنْ مُـوَفِّيَـهِ بـالـوَصْـفِ تِبْيـانـا
إذِ الكَواكِبُ في ضَوْءِ النَّهارِ أَرىٰ ... أَنْـوارَهـا تَخْتفـي فـي الجَـوِّ أَحْيـانـا
لكنْ أَقُـولُ هُـوَ العِقْـدُ الثَّميـنُ وقـد ... نَظَمْـــتَ أَلْفــاظَــهُ دُرّاً وعِقْيــانــا
في أَحْمَرِ الطِّرْسِ قد سَطَّرْتَ أَحْرُفَهُ ... كـالـدُّرِّ خـالَـطَ يـاقُـوتـاً ومُـرْجـانـا
حَفِظْتَ عَهْدَكَ في حالِ الحَياةِ ومن ... بَعْـدِ المَمـاتِ فَحَيَّـا اللهُ مَـولانـا
كذا تَكُونُ صِفاتُ الحُرِّ يَحْفَظُ مَنْ ... يُحِبُّـهُ ويُـوافِـي كَيْـفَ مـا كـانـا
بِذا جَرَتْ عادَةُ الأَصْحابِ تَحْفَظُ في ... عَهْـدِ المَـوَدَّةِ أَصْحـابـاً وإخْـوانـا
لا ذُقْتَ فَقْدَ حَبيبٍ بَعْدَها وَحَمَتْ ... وِقــايَــةُ اللهِ مَــوْلانــا وإيَّــانــا

● وكتبَ هو إليَّ أَيضاً ، وهو بطَرابُلُس ، لُغْزاً في المِئْذَنَة ، وهو[٤] :

ما اسْمٌ إنْ قُصِدَ تَعْريفُهُ فَهو مَعروفٌ ، وإنْ طُلِبَ وُجِدَ في جُمْلَةِ الظُّرُوفِ ، خُماسيٌّ وليسَ فِيهِ إلاَّ أَربعةُ حُروفٍ ؛ حارَ النَّحويُّ في تَصريفِهِ ، وعَجَزَ عن تَأْليفِهِ ؛ مَفعولٌ وهو مَرفُوعٌ ، مَحمولٌ وهو مَوضوعٌ ، مَبْنِيٌّ يَدْخُلُهُ الإعْرابُ ، مَرفوعٌ وهو باقٍ على الانْتِصابِ ، يَقْبَلُ التَّصغيرِ والتَّكبيرِ ، وفيهِ التَّأْنيثُ

---

(١) العجز مضمّن من قول عمران بن حطّان : [شعر الخوارج ٢٦]
إنّـــي لأَذكـــره يـــومـــاً فـــأَحسبـــه ... أَوفـــى البَـــرِيَّـــةِ عنـــد الله ميـــزانـــا
(٢) في س ، م : جَبَرْتَنا . . . × .
(٣) « وقت » ساقطة من م .
(٤) النص في الوافي ، وأشار إليه في الغيث المسجم ٢١٩ . وعبارة « هو إليَّ أَيضاً » من م .

والتَّذكيرُ ، لا يَصِحُّ فيهِ مَعنىٰ العَطْفِ ، ولا يَدخلُهُ من الحَركاتِ إلاَّ الوَقْفُ ، لا يُسْتَعْمَلُ إلاَّ في النِّداءِ ، ولا يُعْرَبُ إلاَّ وهو باقٍ على البِناءِ ؛ وفيهِ نَوعانِ من أَدواتِ الشَّرْطِ والجَزاءِ ، له هَيْئَةٌ إلى التَّبْصِرَةِ مُفْتَقِرَةٌ ، وشَكْلُ خُطوطِهِ في الهَنْدَسِيَّاتِ مُعْتَبَرَةٌ ، وأَضْلاعٌ قامَتْ في البَسيطِ على كُرَةٍ ، وزَوايا قائِمَةٌ حَدَثَتْ على مُنْفَرِجَةٍ ، ومَعانٍ دَقيقَةٍ زادَتْ علىٰ دَرَجَةٍ ، والفَقيهُ يَرىٰ أَنَّهُ مُحَرَّمُ الابْتِياعِ ، ويُنْدَبُ إلى المُناداة عليهِ بشَرْطِ الاتِّباعِ ، مع أَنَّهُ عَيْنٌ طاهِرَةٌ يَصِحُّ بها الانْتِفاعُ ؛ كم صَلَّىٰ خَلْفَ إمامٍ ، واقْتُدِيَ بِهِ وهو أَمامٌ ، حِيْناً يُوجدُ في الشَّامِ ، وحِيْناً في بيتِ اللهِ الحَرامِ ، وحِيْناً تَراهُ قائِماً في ظَلامِ اللَّيْلِ والنَّاسُ نِيامٌ ؛ والعَروضيُّ [٥٢ ب] يَعْلَمُ أَنَّهُ بَيْتٌ بَرَعَ حُسْناً ، واسْتَقامَ وَزْناً ، ونُظِمَ على البَسيطِ وهو طَويلٌ ، ورُكِّبَ من سَبَبَيْنِ خَفيفٍ وثَقيلٍ ، يَنْزَحِفُ بحَذْفِ فاصِلَةٍ صُغْرَىٰ[1] ، ويَتَغَيَّرُ وَزْنُهُ فَتَرىٰ فِيهِ كَسْراً ، خُمْساهُ حَرْفٌ من الحُروفِ[2] ، وبَعْضُهُ في بَعْضِهِ يَطوفُ ، وإنْ حُذِفَ أَوَّلُهُ فَباقِيهِ بَلَدٌ مَعروفٌ[3] ، ومع ذلكَ فكلُّ حَرْفٍ منهُ ساكِنٌ يَصِحُّ عليهِ الوُقوفُ ، وفيهِ أَعمالٌ أَقْصَرْتُ عَنها ، واخْتَصَرْتَ مِنها ، خِيْفَةَ المَلَلِ ، وتَخْفيفاً في العَمَلِ ، وقد قَصَدتُ بَيانَ الجَوابِ ، وَرَصَدْتُ إحْسانَ الجَنابِ ، واللهُ المُوَفِّقُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ (للصَّوابِ) .

● **فكتبتُ أَنا إليهِ**[4] : [من البسيط]

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ   كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ[5]

---

(١) في س : فاصلة كبرى . خطأ .

(٢) يريد : إذ .

(٣) يريد : أذنة .

(٤) النص في الوافي حتى نهاية الأبيات الأربعة الآتية .

(٥) البيت للخنساء ، في ديوانها ٣٨٦ .

لَحقِيقٌ بأَنْ يَصِفَهُ مَولانا وَصْفَ الخَنْساءِ ، ويُعَدِّدَ مَحاسِنَهُ التي أَرْبَتْ كَثْرَتُها علىٰ رَمْلَةِ الوَعْساءِ ، ويَستغرقَ أوصافَهُ التي استوعَبَ في سَرْدِها ، ويَركضَ في مَيادِينِ البَلاغَةِ على مُطَهَّماتِ نُعوتِهِ وجُرْدِها ، حتَّىٰ أَبْدَعَ في مَقاصِدِهِ التي وَقَفَ لها كُلُّ سائِلٍ ، وقالَ فلمْ يَتْرُكْ مَقالاً لِقائِلٍ ، وفَتَحَ باباً لَيسَ لِلنَّاسِ عليهِ طاقَةٌ ، وأَصْبَحَ في التَّقَدُّمِ لِعِصابَةِ الأَدَبِ رَأْساً والنَّاسُ ساقَةٌ ، لا جَرَمَ أَنَّ هذا المُلْغَزَ فِيهِ ، قالَ بعضُ واصِفْيهِ[1] : [من الخفيف]

عَلَـــمٌ مُفْـــرَدٌ فَـــإِنْ رَفَعُـــوهُ رَفَعـــوهُ قَصْـــداً لأَجْـــلِ النِّـــداءِ
أَنَّثُـــوهُ ومِنْـــهُ قَـــد عُـــرِفَ التَّـــذْ كِيْـــرُ فَـــانْظُـــرْ تَنـــاقُـــضَ الأَشْيـــاءِ

وأَمَّا المَملوكُ فإِنَّهُ يقولُ فيه : إِنَّه صاحِبُ الرِّباطِ والزَّاوِيَةِ ، والمَقامِ الذي يُقالُ لِقاعِدَتِهِ : الجَبَلَ يا سارِيَةُ ، والقِسْمَةِ التي هِيَ على صِحَّةِ الاخْتِلافِ مُتَساوِيَةٌ ، كم في الزَّوايا من خَبِيَّةٍ حَنِيَّةٍ ؟ وكم عُلِّقَ عليهِ ذُرِّيَّةٌ من الكَواكِبِ الدُّرِّيَّةِ ؟ كم رَأَىٰ النَّاسُ في قِيامِهِ من قاعِدَةٍ ، وكم لَشَهادَتِهِ من كَلِمَةٍ إِلى العَرْشِ صاعِدَةٌ ؟ وكم تُلِيَتْ على الصَّحْنِ منهُ آيَةٌ من المائِدَةِ ؟ يَكادُ مَنْ عَلاهُ يُسامِرُ النُّجُومَ في الدُّجُنَّةِ ، ويُرْقَىٰ كُلَّ حينٍ وليسَ بِهِ في النَّاسِ جِنَّةٌ ؛ هِلالُهُ لا يَزيدُ ولا يَنْقُصُ في الطَّرْفِ ، وراقِيْهِ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ ، قَد حَسُنَ منهُ عَكْسُهُ المُصَحَّفُ ، وعَظُمَ قَدْرُهُ في البِناءِ فلا بِدْعَ إِذا تَشَرَّفَ ؛ عَجِبَ العَروضيُّ من بَحْرِهِ الطَّويلِ الوافِرِ[2] ، وَوَقَفَ على ساقٍ واحِدَةٍ ، وكم كانَ لهُ من حافِرٍ ، واسْتَقامَ خَطُّهُ وفيهِ الدَّائِرُ ، وشاهَدْنا القَرْنَصَةَ فيهِ وهو غَيْرُ طائِرٍ ، وأَقامَ مَكانَهُ ونِداؤهُ لِسائِرِ المُسلمينَ سائِرٌ ؛ يُجيبُ نِداهُ المُلوكُ والمَلائِكُ ، ويُرىٰ من يَعْلُوهُ وهو مُتَّكِيءٌ على الأَرائِكِ[3] : [من الطويل]

---

(١) البيتان من قطعة لابن خلكان ، في الغيث المسجم ٢/ ٢١٩ .
(٢) في ب : من بسيطه الطويل الوافر . وفي م : من بحره الطويل الزّاخر .
(٣) الثالث والرابع من الأبيات في الغيث المسجم ٢/ ٢١٩ .

إذا ما اطْمَأَنَّتْ دُونَهُ السُّحْبُ إنَّهُ ... لَهُ هِمَّةٌ لَمْ تَرْضَ إلاَّ التَّناهِيا
وَحَسْبُكَ أَنَّ القائِمِيْنَ بِحَقِّهِ ... يَحوزُونَ في الدَّارَيْنِ مِنْهُ المَعالِيا
شَهادَتُهُ ما رَدَّها غَيْرُ كافِرٍ ... وَيَقْبَلُها مَن كانَ بالحَقِّ قاضِيا
يَقولُ مُعاني الطِّبِّ يا عَجَباً لَهُ ... يَصِحُّ وقد ضَمَّتْ حَشاهُ المَراقِيا

الْتَقَطَ المَملوكُ هذِهِ الأَوْصافَ ممَّا غادَرَهُ سَيْلُ مَولانا المُجْتَحِفُ ، وَتَذَكَّرَها من فَوائِدِهِ التي ما يَزالُ يَحْتَفِلُ بِها إذْ يَلْتَحِفُ ، فإنْ صادَفَتْ مَحَلاً من خاطِرِهِ فَقد تَرَقَّىٰ إلى ما تَرَقَّبَ ، وإنْ لم يَكُنْ لَها مَوْقِعٌ فَأَيْنَ كَلامُ مَولانا ، وهو الدُّرُّ الذي تَنَظَّمَ ، من كَلامِ المَملوكِ وهو الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبْ[١] .

ولمَّا وَصَلَ فُلان الدِّينِ ، أَوْقَفَ المَملوكُ [٥٣ ا] علىٰ هذا اللُّغْزِ الَّذي أَنْشَأَهُ مَولانا ، فَأَنْشَأَ لَهُ الطَّرَبَ ، وأَحْدَثَ لَهُ العَجَبَ ، وتَأَمَّلَ تلكَ المَقاصِدَ التي قَصَدَها وَوَرَّاها ، وَأَخْفىٰ مَأْخَذَها وعَمَّاها ، فَوَجَدَها مَسالِكَ لا يَهْتَدِي منها اليَرْبُوعُ لِنافِقائِهِ ، وقالَ : كذا يَكُونُ سُلُوكُ الأَدَبِ الذي طالَ عَهْدُ الزَّمانِ بِهِ وَبأَبْنائِهِ ؛ وَأَلْزَمَ المَملوكُ المَولىٰ فلان الدِّينِ بِالجوابِ ، فاسْتَعْفىٰ من هذا المَقامِ الذي تَزِلُّ فِيهِ أَقْدامُ التَّخَيُّلِ ، ويَعْمىٰ الصَّوابُ فِيهِ عن طَرِيقِ التَّحَيُّلِ ، فَما أَقالَهُ من هذِهِ الوَرْطَةِ ، وقالَ : أُريدُ الجَوابَ وشَرْطَهُ ؛ فَأَخَذَ المَملوكُ على ما هُوَ فِيهِ من الهُمومِ التي تَعْتَلِجُ في صَدْرِهِ ، وتَناوَلَ القَلَمَ ، والقَلْبُ في ضِيْقِ أُنْبُوبِهِ ، والوَرَقُ والحالُ أَرَقُّ من طِرْسِهِ ، والمِدادُ والوُجودُ في عَيْنِهِ أَشَدُّ سَواداً من حِبْرِهِ ؛ وكَتَبَ وقد أَعْجَبَهُ طَنينُ رَأْسِهِ ، وسَوَّدَ وَجْهَ حَظِّهِ بِخَطِّهِ لا صَفْحَةَ قُرْطاسِهِ ، وقد عَطَفَها عليهِ وآراؤُهُ العالِيَةُ في كِتْمانِ سِرِّهِ من مَساوِيهِ ، والوُقوفِ عليهِ إنْ كانَ هذا القَدْرُ يُساوِيهِ .

---

(١) من قول امرىء القيس : [ديوانه ٥٣]
كَأَنَّ عيونَ الوحشِ حولَ خِبائِنا ... وأَرحُلِنا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ

● وكتبتُ أَنا إِليهِ من طَبرِيَّةَ ، ونحنُ بِصَفَد المحروسَة ، في سنة ٧٢٠[١] : [من الكامل]

وَلَقَدْ نَزَلْنا البَحْرَ مِن طَبَرِيَّةٍ ... وقُلوبُنا مِنْ شَوْقِها تَتَضَرَّمُ
وكَما عَلِمْتَ لِكُلِّ بَحْرٍ ساحِلٌ ... والمَوْجُ يَنْزِلُ في قَفاهُ ويَلْطِمُ
واللُّجُّ عَبَّسَ وَجْهَهُ من مَوْجِهِ ... غَيْظاً وفي حافاتِهِ يَتَبَسَّمُ
وَحَبابُ ذاكَ المَوْجِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... دُرَر تُبَثُّ على المِياهِ وتُنْظَمُ
والبَدْرُ قَد كَتَبَتْ أَشِعَّةُ نُورِهِ ... سَطْراً علىٰ وَجْهِ المِياهِ يُتَرْجَمُ
فَكَأَنَّما هُوَ رَوْضَةٌ من سَوْسَنٍ ... يَجْرِي بِها لِلتِّبْرِ نَهْرٌ مُفْعَمُ
وَكَأَنَّما شَرَرٌ حَواهُ دُخانُهُ ... لمَّا تَراءَتْ في حَشاهُ الأَنْجُمُ
ما شاقَنا إلاَّ مُحَيَّاكَ الذي ... أَبَداً بِهِ ظُلَمُ الدُّجىٰ تَتَضَرَّمُ
فَنُفوسُنا تَشْقىٰ لِبُعْدِكَ وَحْشَةً ... وَجَوىً ولكنَّ العُيونَ تَنَعَّمُ
والأُنْسُ بَعْدَكَ وَحْشَةٌ فَقَدِ اغْتَدىٰ ... وَجْهُ المَسَرَّةِ كالِحاً يَتَجَهَّمُ
ما كُنْتُ أَدْري أَنَّ قُرْبَكَ جَنَّةُ الْـ ... ـمَأْوىٰ وَأَنَّ البُعْدَ عَنْكَ جَهَنَّمُ
حتَّىٰ ارْتَحَلْتُ وفي الحَشا ما في الحَشا ... والوَجْدُ أَقْتَلُ والتَّصَبُّرُ أَرْحَمُ
لا تَسْأَلا عن حالَتي وصَبابَتي ... اللهُ والشَّوْقُ المُبَرِّحُ أَعْلَمُ[٢]

● وكتبَ هو إليَّ من حَلبَ المحروسَة ، في سنة ٧٥٣ : [من الطويل]

تَرَقَّىٰ إِلى العَلْياءِ مَنْ لَيسَ أَهْلَها ... ولو حَصَلَ الإِنْصافُ نِلْتُ أَجَلَّها
تَرَقَّوا بِفَرْطِ الجَهْلِ والمالِ في العُلا ... إِلىٰ رُتَبٍ كانَتْ مُناهُمْ أَقَلَّها
بُلِيتُ من الأَيَّامِ فِيما أَرومُهُ ... بِطائِفَةٍ قَد رَكَّبَ المالُ جَهْلَها
وَقَدْ أَصْبَحُوا بَيْنَ البَرايا أَعَزَّها ... وكانُوا قَديماً قَبْلَ ذاكَ أَذَلَّها

---

(١) في م : سنة خمس وعشرين وسبعمئة ! .
(٢) في ب ، م : لا تسألن . . . . × .

صُرُوفُ اللَّيالي قد تَضاعَفَ جَوْرُها ... أَمَا حَلَّها أَنْ يَبْسُطَ الدَّهْرُ عَدْلَها
أُرَجِّي بُلوغَ القَصْدِ مِن رُتَبِ العُلا ... إِذا لَمْ يَنَلْ مِثْلي المَعالي فَمَنْ لَها
لَعَلَّ لَها عُذْراً عن الغَدْرِ بي ولي ... مِنَ اللهِ أَلْطافٌ تُهَوِّنُ فِعْلَها
ولي عُقْدَةٌ في الرِّزْقِ أُحْكِمَ عَقْدُها ... بغَيْرِ الرِّضا والصَّبْرِ لَم أَرَ حَلَّها
أُعالِجُ فيها كُلَّ وَقْتٍ فَتَلْتَوِي ... عَلَيَّ وآمالي تَقولُ : لَعَلَّها
وما جادَ شِعْرُ ابنُ الحُسَيْنِ لأَنَّهُ ... فَصِيحٌ ولكنَّ اللُّهىٰ تَفْتَحُ اللَّها[1]
هِيَ النَّفْسُ لا تَرْضَىٰ بِعَيْشٍ مُنَغَّصٍ ... وَتَأْنَفُ مِنْ أَنْ تَقْتَضي الحالُ ذُلَّها
فَأَصْدَرْتُها عن مَوْرِدِ الحِرْصِ والعَنا ... وَأَوْرَدْتُها حَزْنَ الأُمُورِ وسَهْلَها
[٥٣ ب] أَصوغُ من الدُّرِّ النَّفِيسِ قَصائِداً ... وَأَيْنَ الذي في النَّاسِ يَعْرِفُ فَضْلَها
إِذا أُنْشِدَتْ في مَحْفَلٍ قالَ أَهْلُهُ ... جَواهِرُها في الحُسْنِ لَمْ نَرَ مِثْلَها
ولو فَهِمُوا حُسْنَ البَديعِ الذي بِها ... أَقَرُّوا وقالوا : ما سَمِعْناهُ قَبْلَها
تُعابُ بِقُرْبِ العَهْدِ لَوْ أَنَّ عَهْدَها ... قَديمٌ لَكانَتْ تُفْحِمُ العُرْبَ كُلَّها
وبي غادَةٌ كالغُصْنِ أَوْراقُ شَعْرِها ... على عِطْفِها قَدْ أَسْبَغَ اللهُ ظِلَّها[2]
تَرامىٰ على أَقْدامِها مُتَشَفِّعاً ... إِلَيْها بِها في مُغْرَمٍ رامَ وَصْلَها
حَواجِبُها مِثْلُ القِسِيِّ إِذا رَنَتْ ... لَواحِظُها تَرْمي إِلىٰ القَلْبِ نَبْلَها
وَخَصْرٌ دَقيقٌ أَثْقَلَتْهُ رَوادِفٌ ... إِذا ما مَشَتْ يَسْتَعْظِمُ الخَصْرُ حَمْلَها
فَقُلْتُ لِقُضْبِ البانِ : ما أَنْتِ قَدَّها ... وَأَرْدافِها : يا حِقْفُ ما أَنْتَ حَمْلَها
مِنَ التُّرْكِ ضاقَتْ عَيْنُها بِوِصالِها ... تَضايُقُها بالوَصْلِ أَوْجَبَ بُخْلَها
إِذا ما أَحَسَّ القَلْبُ مِنْها بِسَلْوَةٍ ... تَشَفَّعَ بالوُدِّ الصَّحيحِ فَسَلَّها
تَجَنَّتْ على ضَعْفي وَأَبْدَتْ مَلالَةً ... فَقُلْتُ وَقَدْ قَبَّلْتُ إِذْ ذاكَ رِجْلَها

---

(١) ابن الحسين : أحمد بن الحسين المتنبّي .
(٢) في ب : ولي غادةٌ . . . . × .

أَتَرْضَيْنَ أَنْ أَقْضِيَ ؟ وكانَ جوابُها : إِلى حَيْثُ أَلْقَتْ أُمُّ قَشْعَمَ رَحْلَها

إِذا اجْتَهَدَ اللُّوَّامُ فِيَّ بِعَذْلِهِمْ تَصامَمْتُ حتَّىٰ لَسْتُ أَسْمَعُ عَذْلَها
وإِنْ أَظْلَمَتْ سُبْلُ المَكارِمِ والعُلىٰ وَجَدْتُ صَلاحَ الدِّيْنِ يُوضِحُ سُبْلَها
خَليلي خَليلٌ لَسْتُ أَنْسىٰ وِدادَهُ ولي نَفْسُ حُرٍّ قَطُّ لَمْ تَنْسَ خِلَّها
تَغافَلَ عن وُدِّي وَأَهْمَلَ جانِبي بِتَأْخِيرِ كَتْبٍ لي وأَعْشَقَ وَصْلَها
لَقَدْ أَوْحَشَتْ داري لِبُعْدِ مَزارِهِ وآنَسَ داراً بَعْدَ ذلكَ حَلَّها
فَهَلْ يُمْكِنُ الدَّهْرُ الخَؤونُ اجْتِماعَنا بجِلَّقَ أَوْ أَنِّي أَحُلُّ مَحَلَّها
أَلَيْسَ لِهَذا البُعْدِ مِنْكَ نِهايَةٌ فَأَرْصُدَ بالصَّبْرِ الجَميلِ مَحَلَّها
مُحِبٌّ علىٰ صِدْقِ الوِدادِ مُحافِظٌ وصُحْبَتُهُ قَدْ أَبْرَمَ الدَّهْرُ حَبْلَها
عَلَيْكَ سَلامي مِثْلَما هَبَّتِ الصَّبا على الرَّوْضَةِ الغَنَّاءِ تَنْفُضُ طَلَّها

يُقَبِّلُ الأَرْضَ التي ما بَرِحَ يَشْتاقُها ، واليَدَ الشَّريفَةَ التي مِنَنُها في الأَعْناقِ أَطْواقُها ، ويَتَشَوَّفُ إِلىٰ مُشاهَدَةِ طَلْعَتِهِ الكَريمَةِ فقد آلَمَهُ فِراقُها .

ويُنْهي بعدَ أَدْعِيَةٍ يَتَّسِعُ في أَفْلاكِ القَبولِ نِطاقُها ، أَنَّ أَمْثِلَةَ مَولانا العالِيَةَ قَدْ تَأَخَّرَتْ عن المَملوكِ أَوْراقُها ، ومُنِعَ عنهُ إِطْلاقُها ، وكانَ يَجِدُ بها مَسَرَّةً يَمْتَدُّ رِواقُها ، ونَشْوَةً تُشْرِقُ بها مَشارِقُ القُلوبِ وآفاقُها ، وَلَذَّةً لو احْمَرَّتْ طُروسُها حَصَلَ لَها فِعْلُ المُدامِ وَلَوْنُها ومَذاقُها ، فَأَرْسَلَ هذِهِ الأَبياتِ مَدْعاةً لِمَوَدَّتِهِ ، وَتَذْكاراً بما سَبَقَ من صُحْبَتِهِ ؛ وهو يَسْأَلُ دَوامَ الإِحْسانِ في الإِتْحافِ بأَمْثِلَتِهِ ، واللهُ يَزيدُ في عُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ عن ذلك :** [من الطويل]

مُشَرَّفَةٌ أَلْحَفْتَني مِنْكَ ظِلَّها وبَرَّدْتَ قَلْبي حِينَ أَهْدَيْتَ طَلَّها
وَأَعْلَيْتَ قَدْري حينَ أَغْلَيْتَ قِيْمَتي بِلامِيَّةٍ قالَ الجَمالُ : تَمَلَّها
فلَمْ أَلْقَ ما بَيْنَ الحَدائِقِ شِبْهَها ولَمْ أَرَ ما بَيْنَ الكَواكِبِ مِثْلَها

مُخَدَّرَةٍ وافَتْ على الفِطْرَةِ التي   بإِدْراكِها تَسْمُو الخَلائِقَ كُلَّها
مُهَذَّبَةٍ جاءَتْ فَجادَتْ تَكَرُّماً   علىٰ مُغْرَمٍ ما زالَ يَعْهَدُ فَضْلَها
كَأَنِّي قَيْسٌ وهيَ لَيْلىٰ مَلاحَةً   رَأَىٰ دَلَّها يَوْماً فَراحَ مُدَلَّها
فَأَكْرِمْ بِها مِن بِنْتِ فِكْرٍ تَبَرَّجَتْ   وَزُفَّتْ إِلى مَنْ لَيْسَ تَرْضاهُ بَعْلَها
وزارَتْ بإِحْسانٍ وقد زَأَرَتْ بها   [١٠٤] أُسودُكَ فاسْتَجْلَىٰ الضِّيا واسْتَجَلَّها(١)
وَلَمَّا أَتَتْ نَحْوي سَجَدْتُ ولم أَطُلْ   إِلى تاجِها ذُلاً فَقَبَّلْتُ نَعْلَها
فَيا حُسْنَها من غادَةٍ قَد تَنازَلَتْ   إِليَّ وإِنْ كانَ السِّماكُ مَحَلَّها
وما كُنْتُ لولا جُودُ مُرْسِلِها أَرىٰ   عُيونيَ أَهْلاً أَنْ تُقارِبَ وَصْلَها
أَتَتْني وما أَبْقىٰ لِيَ الشَّوْقُ مُهْجَةً   أُعَلِّلُها بالقُرْبِ حتَّىٰ أَبُلَّها
فَقَدْ غَسَّلَتْ بِالدَّمْعِ أَدْرانَ وَجْنَتي   وَقد نَفَضَتْ عَيْني من الدَّمْعِ كُحْلَها
وَكانَتْ بأَحْشائي بَقايا تَصَبُّرٍ   فَمَدَّ إِلَيْها الدَّهْرُ كَفَّاً وَسَلَّها
فَأَلْزَمْتُ نَفْسي بِالجَوابِ فَلَمْ يَجُزْ   لَها أَنْ تُعاني أَو تُعارِضَ جَزْلَها
وَأَيْنَ مَدىٰ قَدْري فإِنْ شِئْتَ قُلْ لَها   فَكُثْرِيَ عِنْدي ما يُقاوِمُ قُلَّها
وخَيْلِيَ ما تَجْري بِمَيْدانِ رَكْضِها   كَذا ياسَميني ما يُوازِنُ رَطْلَها
وَجَزْعُ قَريضي ما يُقاسُ بِدُرِّها   كَذلكَ خَلِّي ما يُشابِهُ بَقْلَها
لَئِنْ عُلِّقَتْ لِلجاهِلِيِّ قَصيدَةٌ   فَقد عَلَّقَتْ هَذي علىٰ النَّاسِ قُفْلَها
ولكنَّها رَضَّتْ فُؤادِيَ إِذْ شَكَتْ   صُروفَ زَمانٍ ما يرىٰ الحُرُّ حَمْلَها
وَقد يَصْبِرُ الحُرُّ الكَريمُ على الأَذىٰ   إِذا شِدَّةٌ حَلَّتْ وبالصَّبْرِ حَلَّها
فإِنْ تَتَمَهَّلْ إِنْ أَصابَتْكَ مِحْنَةٌ   فإِنَّكَ جَرَّعْتَ الأَعادِيَ مُهْلَها
على هذِهِ الدُّنْيا الدَّنِيَّةِ غَضْبَةٌ   فَكَمْ قَد عَلا فيها امْرُؤٌ كانَ سُفْلَها
ولي فيكَ آمالٌ قَضىٰ لي تَفَرُّسي   بِصِدْقِ ظُنونٍ فِيكَ أَنْ لا أَمَلَّها

---

(١) في أ : . . . وقد رزأت بها × ! . وفي م : ورادت بإكرامٍ . . . . × .

وإلاَّ فَهَـوِّنْ مـا تَـراهُ مـن الأذىٰ فَما زالَـتِ الأيَّامُ تَصْحَبُ شَكْلَهـا

فَهَـلْ نـاصِرٌ تَلْقاهُ أَوْ هَـلْ مُساعِدٌ على عُصْبَةٍ لا يَغْلِبُ الحِلْمُ جَهْلَها

قد اسْتَحْوَذَ الشَّيْطانُ مِنْها على الهُدىٰ فَـأَبْعَـدَهـا عـن حَقِّـهِ وَأَضَلَّهـا[1]

وكيفَ يَجودُ النَّظْمُ والبُخْلُ قَد فَشا لَقَد صَدَقُوا أَنَّ اللُّهىٰ تَفْتَحُ اللَّها

أَمَوْلايَ لا تَجْزَعْ فإنَّكَ فارِسُ الْـ ـكِتابَةِ إِنْ جَرَّدْتَ لِلْحَرْبِ نَصْلَها

سَتَبْلُغُ ما أَمَّلْتَ يا مَنْ صِفاتُهُ تَسامَتْ ويا أَجْلىٰ الوَرىٰ وَأَجَلَّها

ويا مَنْ غَدَتْ أَقْلامُهُ سَمْهَرِيَّةً تَنَقَّشَ مِنْها الطِّرْسُ لمَّا اسْتَظَلَّها

نَشَرْتَ لِطَيٍّ بالمَحامِدِ بُرْدَةً فَوَسَّعْتَها مَجْداً وَوَسَّعْتَ أَزْلَها[2]

وَزِدْتَ بَني رَيَّانَ رَيّا تَضَوَّعَتْ ثَناءً وعَن كُلٍّ تَحَمَّلْتَ كَلَّها

وَفُقْتَ بما قَدْ نِلْتَهُ من فَصاحَةٍ علىٰ العَرَبِ العَرْبا ومَزَّقْتَ سُمْلَها[3]

فَقَدْ دُسْتَ دَوْساً حِينَ غالَبْتَ تَغْلِباً وشَيَّبْتَ شَيْباناً وَأَذْهَلْتَ ذُهْلَها

فَلا بُدَّ أَن تَحْظىٰ بقُرْبِكَ جِلَّقٌ فَقَد يَجْمَعُ الرَّحمٰنُ لي بِكَ شَمْلَها

فَأَنْتَ فَريدٌ في اللَّيالي تَهَنَّها وأَنْتَ وَحيدٌ في المَعالي فَدمْ لَها

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهي وُرودَ المِثالِ العالي ، أَعْلاهُ اللهُ وأَجَلَّهُ ، وَوَضَعَهُ تاجاً على فَرْقِ الفَرْقَدِ وأَحَلَّهُ ، فوقفَ لِوُرودِهِ ، وَحَلَّىٰ أُذُنَهُ وَجِيْدَهُ بشُنُفِهِ وعُقودِهِ ، وانْتَشَقَ من آثارِ أَنامِلِ مَولانا أَرَجَ بانِ الحِمىٰ وَزَرودِهِ ، وَقَبَّلَ شِفاهَ سُطورِهِ[4] التي لَعَسَها مِدادٌ ، وغازَلَ مَعانِيَهِ التي لمَّا تَمَلأَ بِها مَلأَتْ مَحاجِرَهُ بالسُّهادِ ، وقابَلَ منها مُحَيًا مِن أَيْنَ لِلْبَدْرِ تَمامُهُ ، وبَياضَ طِرْسٍ من أَيْنَ لِلصُّبْحِ ضِياؤُهُ ، وسَوادَ نِقْسٍ مِن أَيْنَ لِلَّيْلِ ظَلامُهُ ، وسِحْرَ أَلْفاظٍ من أَيْنَ لِلدُّرِّ قِيْمَتُهُ أَو

---

(١) في أ ، م : × فأبعدها في حقّه . . . .

(٢) أَزْلَها : ضِيْقَها .

(٣) في ب ، س ، م : × . . . . شملها .

(٤) في م : طروسه .

لِلْعِقْدِ انْتِظامُهُ(١) : [من الخفيف]

قُلْ فَكَمْ مِن جَواهِرٍ في نِظامٍ ... وُدُّها أَنَّها بِفِيكَ كَلامُ

وحاوَلَ المَملوكُ الجَوابَ فجاءَتْ هذِهِ العَوائِقُ التي ما احْتُسِبَتْ ، والحَوادِثُ التي لم تَكُنْ كَيومِ القِيامَةِ ، فإِنَّ [٥٤ ب] لكلِّ نَفْسٍ فِيهِ ما كَسَبَتْ وعَليها ما اكْتَسَبَتْ .

يا مَولانا ، هذِهِ مَصائِبُ طَمَّتْ وَعَمَّتْ ، وَصَرَّحَتْ بالشَّرِّ وما عَمَّتْ ، وَقَيَّدَتْ إِلَيْها الأَهوالَ وزَمَّتْ ، وَدَعَتِ الجَفَلى إِلى مآدِبِها ، وأَصَمَّ المَسامِعَ نَعْيُ نَوادِبِها ، فَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلاَّ باللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ ، قَوْلَ مَن ضاقَتْ بِهِ حِيْلَتُهُ ، واتَّسَعَتْ عليهِ بالهُمومِ لَيْلَتُهُ(٢) : [من البسيط]

قَد كانَ ما كانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ ... فَظُنَّ شَرّاً ولا تَسْأَلْ عَنِ الخَبَرِ

وَنسأَلُ اللهَ تعالىٰ في حُسْنِ الخاتِمَةِ ، وفَجْرِ هذِهِ اللَّيْلَةِ العاتِمَةِ ، فقد بَلَغَتِ القُلوبُ الحَناجِرَ ، وَحَزَّتِ الغَلاصِمَ بالخَناجِرِ ، وكَسَرَتْ براني الصَّبْرِ ، وحَسَدَ مَنِ امْتَطىٰ ظَهْرَ الأَرْضِ لِمَنِ اسْتَكَنَّ في جَوانِحِ القَبْرِ ، وهذِهِ رَزايا شُموسُ التَّثَبُّتِ بِها كاسِفَةٌ ، و﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم : ٥٨] .

اللَّهُمَّ اكْشِفْ هذِهِ البَلِيَّةَ عن البَرِيَّةِ ، ولَقِّ النُّفوسَ الظَّالِمَةَ وَوَقِّ البَرِيَّةَ ، وَأَجِرْنا علىٰ عادَةِ أَجْرِنا ، وعَجِّلْ فَكَّ أَسْرِنا بِأَسْرِنا ؛ إِنَّكَ بالإِجابَةِ جَديرٌ ، وعلى كَشْفِ هذِهِ اللَّأْواءِ قَديرٌ .

ويعودُ المَملوكُ إِلى ذِكْرِ الجَوابِ ، فَقد أَثابَ الحَصا عن المُرجانِ ،

---

(١) البيت للمتنبي ، في ديوانه ٤/ ١٠٠ .
(٢) البيت لابن المعتز ، في وفيات الأعيان ٣/ ٧٨ . وهو مما أهمله محقق ديوانه ، ينظر ٢/ ٢٥١ [الحاشية رقم ١] ! ! ! .

وجارىٰ مع ضِيْقِ دائِرَتِهِ مَن لَهُ البَلاغَةُ والفَصاحَةُ مُرْجانٌ ، لكنَّه وَثِقَ بِحِلْمِ مَولانا وعَفْوِهِ ، وبِما حازَهُ من صِفاتِهِ الرَّائِقَةِ اللاَّئِقَةِ وصَفْوِهِ[1] : [من البسيط]

أَرْسَلْتُ نَفْسي علىٰ سَجِيَّتِها ... وَقُلْتُ ما شِئْتُ غَيرَ مُحْتَشِمِ

واللهُ يُديمُ فَوائِدَ مَولانا لأَهْلِ الأَدَبِ ، ويَجعلُ بابَهُ كَعْبَةً يَنْسِلُونَ إِليها من كُلِّ حَدَبٍ ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

٣١ * الحُسين بن عليّ بن عبد الكافي[2] :

الإِمامُ الفاضِلُ ، أَقْضَىٰ القُضاةِ ، جَمالُ الدِّينِ بن مَولانا قاضِي القُضاةِ تَقيِّ الدِّين ، السُّبْكِيّ ، الشَّافعيّ ، نائِبُ الحُكْمِ العَزيزِ بِالشَّامِ المحروس .

● **كتبتُ أنا إليه**[3] : [من الكامل]

عِنْدي جَمالَ الدِّيْنِ مَسْأَلَةٌ غَدا ... تِبْيانُها فِيما لَدَيْكَ مُحَرَّرا

إِذْ أَنْتَ مِن بَيْتٍ جَميعُ بَنِيهِ قَد ... فازُوا بما حازُوا وقد سادُوا الوَرىٰ

إِنْ جاوَدوا أَلْفَيْتَهُمْ صَوْبَ الحَيا ... أَو جادَلُوا أَبْصَرْتَهُمْ أُسْدَ الشَّرىٰ[4]

فاطْلَعْ بِأُفْقِ الفَضْلِ شَمْساً أَشْرَقَتْ ... لا تَرْضَ أَنَّكَ فِيهِ بَدْرٌ أَسْفَرا

وأَعِدْ جَوابي عن سُؤالي إِنَّهُ ... لَكَ واضِحٌ إِنْ رُحْتَ فِيهِ مُفَكِّرا

---

(١) البيت ثاني اثنين لمحمّد بن كناسة ، أوّله : [الإعجاز والإيجاز ٢١٨]
فِيَّ انقباضٌ وحِشمةٌ فإِذا ... لقيتُ أَهلَ الوفاءِ والكَرَمِ

(٢) ترجمته في : المعجم المختص ٨٨ وأعيان العصر ٢/ ٢٧٣ وذيول العبر ٢٩٩ ووفيات ابن رافع ٢/ ٣٢٤ والبداية والنهاية ١٨/ ٥٦٣ وطبقات السبكي ٩/ ٤١١ وتذكرة النبيه ٣/ ١٨٦ وتعريف ذوي العلا ٩٧ والمقفى الكبير ٣/ ٦١٨ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٦٧ والدرر الكامنة ٢/ ٦١ والمنهل الصافي ٥/ ١٦٦ والدليل الشافي ١/ ٢٧٥ والذيل التام ١/ ١٤٠ والدارس ١/ ٢٣٩ وحسن المحاضرة ١/ ٣٧٦ وشذرات الذهب ٨/ ٣٠٤ .
ـ مولده سنة ٧٢٢ هـ . ووفاته سنة ٧٥٥ هـ .

(٣) القصيدة في أعيان العصر ، وبعضها في طبقات السبكي .

(٤) في م : × . . أَلْفَيْتَهم أُسد الشَّرى .

فَكَّـرْتُ والقُـرآنُ فِيـهِ عَجـائِـبٌ ... بَهَـرَتْ لِمَـنْ أَمْسـىٰ لَـهُ مَتَـدَبِّـرا
في ﴿ هَلْ أَتَىٰ ﴾ لَم ذا أَتانا شاكِرا ... حتَّـىٰ إِذا قـالَ ﴿ ٱلْكَفُورَ ﴾ تغَيَّـرا
فَـالشُّكْـرُ فـاعِلُـهُ أَتـىٰ فـي قِلَّـةٍ ... والكُفْـرُ فـاعِلُـهُ أَتـىٰ مُتَكَثِّـرا
فَعَـلامَ مـا جـاءا بِلَفْـظٍ واحِـدٍ ... إِنَّ التَّـوازُنَ فـي البَـدِيـعِ تَقَـرَّرا
لكنَّهـا حِكَـمٌ يَـراهـا كُـلُّ ذي ... لُـبٍّ وما كـانَـتْ حَـديثـاً مُفْتَـرى
فَـأَبِنْـهُ لا زِلْـتَ الجَـوادَ بِفَضْلِـهِ ... لِمَـنِ اسْتَعـانَ بِـهِ لإِشْكـالٍ طَـرا

● فكتبَ الجَوابَ إِليَّ عن ذلك سَريعاً(١) [من الكامل]

قَبَّلْـتُ أَسْطُـرَ فـاضِـلٍ بَهَـرَ الـوَرَىٰ ... مِمَّـا لَـدَيْـهِ عَجـائِـبٌ لَـنْ تُحْصَـرا
قَـد نـالَ فـي عِلْـمِ البَـلاغَـةِ رُتْبَـةً ... عَنْهـا غَـدا عَبْـدُ الرَّحيـمِ مُقَصِّـرا(٢)
وَأَرادَ مِنِّـي حَـلَّ مُشْكِلَـةٍ غَـدا ... تِبْيـانُهـا عِنْـدي كَصُبْـحٍ أَسْفَـرا
وجَـوابُـهُ أَنَّ الكَفُـورَ ولَـو أَتـىٰ ... بِقَليـلِ كُفْـرٍ كـانَ ذاكَ تَكَثُّـرا
بِخِـلافِ مَـن شَكَـرَ الإِلٰـهَ فَـإِنَّـهُ ... بِكَثيـرِ شُكْـرٍ لا يُعَـدُّ مُكَثِّـرا
فَـإِذَنْ مُـراعـاةُ التَّـوازُنِ هـا هُنـا ... مَحْظُـورَةٌ لِمَـنِ اهْتَـدَىٰ وتَفَكَّـرا
[٥٥أ] فاصْفَحْ فَعَجْزِي عن جَوابِكَ ظاهِرٌ ... كَظُهُـورِ مـا بَيْـنَ الثُّـرَيَّـا والثَّـرَىٰ

● وكتبَ هو إِليَّ أَيضاً مُلْغِزاً(٣) : [من البسيط]

يـا أَيُّهـا البَحْـرُ عِلْمـاً والغَمـامُ نَـدىً ... ومَـنْ بِـهِ أَضْحَـتِ الأَيَّـامُ مُفْتَخِـرَهْ
أَشْكُـو إِلَيْـكَ حَبيبـاً قَـد كَلِفْـتُ بِـهِ ... مُـوَرَّدَ الخَـدِّ سُبْحـانَ الـذي فَطَـرَهْ
خُمْساهُ قد أَصْبَحا في زِيِّ عارِضِهِ ... وفِيـهِ بَـأْسٌ شَـديـدٌ قَـلَّ مَـنْ قَهَـرَهْ
لا رَيْـبَ فِيـهِ وفِيـهِ الـرَّيْـبُ أَجْمَعُـهُ ... وفِيـهِ يُبْـسٌ ولِيْـنُ البـانَـةِ النَّضِـرَهْ

---

(١) القصيدة في أَعيان العصر ، وبعضها في طبقات السبكي .
(٢) عبد الرحيم : هو القاضي الفاضل .
(٣) خمسةٌ منها في أَعيان العصر والدّرر الكامنة وشذرات الذهب ، وبيتان في المقفى الكبير .

وفِيـهِ كُـلُّ الـوَرىٰ لمَّـا تُصَحِّفُـهُ ... وضَيْعَـةٌ بِبِـلادِ الشَّـامِ مُشْتَهِـرَهْ
وَفِيـهِ سِـرٌّ لَطِيـفٌ لا أَبـوحُ بِـهِ ... فافْهَمْهُ يا مَنْ زَكَتْ أَنْفاسُهُ العَطِرَهْ
وقد ذَكَرْتُ اسْمَهُ في غَيْرِ تَوْرِيَةٍ ... تَبِيْـنُ كـالبَـدْرِ والظَّلْمـاءُ مُعْتَكِـرَهْ
دامَتْ مَعالِيْكَ يا أَزْكَىٰ الوَرىٰ نَسَباً ... ومَـنْ لَـهُ طُـرُقٌ لِلْمَجْـدِ مُخْتَصَـرَهْ

● **فكتبتُ أنا الجَوابَ ، وهو في « ريباس »**[1] .

٣٢ * الحُسين بن عليّ بن أَبي بكرٍ محمَّد[2] :

العَدْلُ الفاضِلُ ، الشَّيْخُ بَهاءُ الدِّينِ بن تاجِ الدِّينِ ، المَوْصِليّ ، الحَنْبَلِيّ ، شيخُ الحَديثِ بالعَساكِرِيَّةِ[3] ، بِالشَّامِ المَحروسِ .

● **كتبَ هو إِليَّ مُلْغِزاً**[4] : [من الطويل]

وَمـا اسْـمٌ إِذا فَكَّـرْتَ فِيـهِ وَجَـدْتَـهُ ... يَحُـلُّ بِتَصْحِيـفٍ مَحَـلاً مُسَتَّـرا[5]
بَـديـعُ فِعـالٍ لَيْـسَ يُـدْرَكُ صُنْعُهـا ... إِذا فَكَّـرَ الإِنْسـانُ فِيـهِ تَحَيَّـرا
وَيُـزْري بِـهِ مَعْكُـوسُـهُ مُطْلَقـاً فَـإِنْ ... أَتىٰ فِيهِ تَصْحِيفٌ فَلا تَسْأَلِ القِرىٰ[6]

---

(١) في هامش أ : لم نجد الجواب في نسخة تلميذ المصنف . **قلت** : واللُّغز بلا جوابٍ شعريٍّ في أَعيان العصر . والرِّيباس: نبت ينفع الحصبة والجدري والطاعون. (القاموس).

(٢) **ترجمته في** : أَعيان العصر ٢/٢٧٧ والدّرر الكامنة ٢/٥٩ والمقصد الأَرشد ١/٣٤٦ والمنهج الأَحمد ٥/ ١٠٩ وشذرات الذهب ٨/ ٣٢١ .
ـ مولده سنة ٦٩٠ هـ . ووفاته سنة ٧٥٩ هـ .
ـ في س : الحسين بن عليّ بن أَبي بكر موسى ! .

(٣) بدل هذه العبارة في س : أَحد عُدول المسماريَّة . قلت : والعبارتان صحيحتان ، كما في مصادر ترجمته . فالمدرسة المسماريَّة : قِبلي القيمريَّة الكبرى داخل دمشق ، بالقرب من مئذنة فيروز ؛ وافقها الشيخ مسمار ـ وقيل : الحسن بن مسمار ـ الحوراني . (الدارس ٢/ ١١٤) . والعساكرية : أَراها دار الحديث النُّوريَّة ، التي بناها السُّلطان نور الدين الشهيد للحافظ ابن عساكر . (الدارس ١/ ٩٩) .

(٤) القطعة في أَعيان العصر .

(٥) يحلّ : تصحيف نَخْل .

(٦) معكوسه : لحن . وتصحيفه : بُخْلٌ .

فَتَصْحِيفُـــهُ مِنْـــهُ دَقيـــقٌ وبَعْضُــــهُ قَصيرٌ وبَعْـضٌ قَـد عَـلا وَتَجَبَّـرا[1]
وإِنْ صُحِّفَ التَّصْحِيفُ من عَيْنِ فِعْلِهِ فَذَلكَ مَحْبوبٌ إِلى سائِرِ الوَرىٰ[2]
وَقَـدْ جَمَـعَ الضِّـدَّيْـنِ نَفْعـاً وضِـدَّهُ وجَمْعـاً وتَفْـرِيقـاً وَحُلْـواً مُمَـرَّرا[3]
وقـد جـاءَ فـي التَّنْـزِيـلِ آيٌ بِـذِكْـرِهِ وذَلِـكَ أَمْـرٌ ظـاهِـرٌ لِلَّـذِي قَـرا
وجُمْلَتُهُ في اللَّيْلِ يُمْكِنُ حَصْرُها وإِنْ سِيْـمَ عَـدّاً فـي النَّهـارِ تَعَـذَّرا

● فكتبتُ أنا الجَوابَ ، وهو في « نحل »[4] : [من الطويل]

قَرِيْضُكَ فِيْنا قَد عَدا شامِخَ الذُّرىٰ نَـرىٰ طِـرْسَـهُ عِنْـدَ البَيـانِ مُـزَهَّـرا
تَغوصُ على المَعْنىٰ الخَفِيِّ بِفِكْرَةٍ تُريكَ دُجىٰ الإِشْكالِ في الحالِ نَيِّرا
أُحاشِيْكَ من عَكْسِ الذي قدْ أَرَدْتَهُ وأَلْغَـزْتَـهُ يـا فـاضِـلاً بَهَـرَ الـوَرىٰ[5]
وحـاشـاكَ مـن تَصْحِيفِـهِ فَهْـوَ خُلَّـةٌ غَدا بَعْضُها في النَّاسِ شَيْئاً مُقَرَّرا[6]
فَـلا زِلْـتَ تُهْـدي لِـلأَنـامِ بَـدائِعـاً من النَّظْمِ ما انْهَلَّ الغَمامُ على الثَّرىٰ[7]

● وكتبَ هو إِليَّ أيضاً مُلْغِزاً[8] : [من السريع]

وصـــاحِـــبٍ مُسْتَحْسَـــنٍ فِعْلُـــهُ لَيْـسَ لَـهُ ثِقْـلٌ علـى صـاحِـبِ
فَتـــىً ولكـــنْ سِنُّـــهُ رُبَّمـــا زادَتْ على السَّبْعِينَ في الغالِبِ[9]

---

(١) الدّقيق : نحيلٌ . والقصير : نَجيلٌ . والمتجبّر : نَخيلٌ .
(٢) المحبوب : نَجْلٌ .
(٣) الضّدّان : عَسَلٌ ولَسْعٌ .
(٤) الأبيات في أعيان العصر .
(٥) عكسه : لحن .
(٦) تصحيفه : بُخل .
(٧) في هامش أ رواية أُخرىٰ :
فلا زلت تهدي للأنام أياديا × من اللُّطف . . . . .
(٨) الأبيات في أعيان العصر والدّرر الكامنة .
(٩) في م : . . . سنُّه في الورى × .

قُلْتُ وَقد قالُوا : أَينْ ما اسْمُهُ   لِيُعْلِمَ الشَّاهِدُ لِلغائِبِ
« ظَنَنْتُمُ » تَصْحِيفَ مَعْكُوسِهِ   يَخْفىٰ ولَيْسَ الظَّنُّ بالكاذِبِ

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ ، وهو في « مِشْطٍ »[1] : [من السريع]

أَفْدِي بَهاءَ الدِّيْنِ مِن فاضِلٍ   في النَّظْمِ لم يَخْرُجْ عن الواجِبِ
أَلْغَزَ في شَيْءٍ غَدا حَمْلُهُ   علىٰ رُؤوسِ النَّاسِ في الغالِبِ
تَراهُ لا تَضْحَكُ أَسْنانُهُ   يا حُسْنَهُ مِن أَصْفَرٍ شاحِبِ
كم غاصَ في لَيْلِ شَبابٍ وكَمْ   قَد لاحَ في صُبْحٍ مِنَ الشَّايِبِ

● وكتبَ هو إليَّ أيضاً مُلْغِزاً[1] : [من مجزوء الرجز]

وصاحِبٍ بِكَرَمٍ   يَنْعَتُهُ مَنْ وَصَفَهْ[2]
يَجودُ بِالنَّفْعِ علىٰ   مَنْ دَهْرَهُ ما عَرَفَهْ
وَلَيْسَ يُكْسىٰ حُلَّةً   إلاَّ بِها قَد أَتْحَفَهْ
ولا يَزالُ عارِياً   وبَرْدُهُ قَدْ أَنْحَفَهْ
وعَكْسُهُ مُصَحَّفاً   تَقْبيلُ ثَغْرٍ بِشَفَهْ

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ ، وهو في « مِيْل »[1] : [من مجزوء الرجز]

[٥٥ ب] هَذا بَهاءُ الدِّيْنِ لا   يَزالُ يُبْدِي طُرَفَهْ
أَلْغَزَ في شَيْءٍ حَكىٰ   مِنْ كُلِّ قَدٍّ هَيَفَهْ
وفِيهِ مِن ذاكَ الذي   حُوشِيْتَهُ بَعْضُ الصِّفَهْ
بِطُولِ شِبْرٍ رَأْسُهُ   أَمْلَسُ رابي الهَدَفَهْ
إنْ غاصَ في شِقٍّ فَما   يُبُلُّ إلاَّ طَرَفَهْ

---

(١) الأَبيات في أَعيان العصر .
(٢) في م : وصاحبٍ مكرَّمٍ × .

● وكتبتُ أَنا إِليهِ مُلْغِزاً في « درهم » : [من مجزوء الرجز]

يـــا فــاضِـــلاً لا يَفْتُـــرُ　　عَنْـــهُ الثَّنـــا المُعَطَّـــرُ
وطِـــرْسُـــهُ مُـــوَفَّـــرُ　　علـــى رِيـــاضٍ تُـــزْهِـــرُ
ولَفْظُـــهُ المُجَـــوْهَـــرُ　　بِـــهِ الـــزَّمـــانُ يَفْخَـــرُ
مـــا مُفْـــرَدٌ مُـــذَكَّـــرُ　　وصَـــرْفُـــهُ لا يُنْكَـــرُ
مُـــرَبَّـــعٌ مُـــدَوَّرُ　　كـــالبَـــدْرِ لمَّـــا يَبْـــدُرُ
مَـــن حـــازَهُ مُسْتَبْشِـــرٌ　　وفيـــهِ هَـــمٌّ يُبْصَـــرُ
ودُرُّهُ لا يُنْثَـــــــــرُ　　كـــلامُـــهُ مُفَسَّـــرُ
مُـــــؤَرَّخٌ مُسَطَّـــــرُ　　بَيِّنْـــهُ فَهْـــوَ يُسْفِـــرُ
والـــوَجْـــهُ مِنْـــهُ نَيِّـــرُ
لا زِلْـــتَ غَيْثـــاً يُمْطِـــرُ　　صَـــوابَـــهُ فَيُشْكَـــرُ
مـــا دامَ وُرْقٌ تَهْـــدِرُ　　وصَـــوْتُهـــا يُكَـــرَّرُ

● فكتبَ الجَوابَ إِليَّ عن ذلك : [من مجزوء الرجز]

يـــا مَـــنْ بِـــهِ أَفْتَخِـــرُ　　مَـــعْ أَنَّنـــي أَعْتَـــذِرُ
لأَنَّنـــي مُقَصِّـــرٌ　　ولَسْـــتُ مَـــعْ ذا أَقْـــدِرْ
عـــن فَضْلِـــهِ أُعَبِّـــرُ　　لَـــهُ الثَّنـــاءُ العَطِـــرُ
فِيـــهِ البَيـــانُ يُحْصَـــرُ　　واللَّفْـــظُ مِنْـــهُ جَـــوْهَـــرُ
كَخَطِّـــهِ إِذْ يَسْطُـــرُ　　مـــاذَا يَقـــولُ المُكْثِـــرُ
سُـــؤَالُـــهُ المُحَبَّـــرُ　　مـــا مُفْـــرَدٌ مُـــذَكَّـــرُ
وصَـــرْفُـــهُ لا يُنْكَـــرُ　　جَـــوابُـــهُ مُحَـــرَّرُ
فَجَمْعُـــهُ مُكَسَّـــرُ　　لكِنَّـــهُ قَـــد يَعْسُـــرُ
مَـــن حـــازَهُ يَسْتَكْبِـــرُ　　وفيـــهِ هَـــمٌّ يُبْصَـــرُ

لا بِهجـــاءٍ يُـــذْكَـــرُ وذُرُّهُ لا يُنْثَـــــرُ
خَفيـــفُ وَزْنٍ يُكْسَـــرُ وَوَجْهُـــهُ مُـــدَوَّرُ
أَبْيَـــضُ حِيـــنَ يُسْفِـــرُ نَعَـــمْ وفِيـــهِ أَسْطُـــرُ
كَـــلامُـــهُ مُفَسَّـــرٌ لِمَـــنْ قَـــراهُ يَظْهَـــرُ
وَعَكْسُـــهُ المُعْتَبَـــرُ بِـــهِ أُمُـــورٌ تَبْـــدُرُ
ضـــارِبُـــهُ والمُظْهِـــرُ عَبْـــدُ المَلِيْـــكِ الأَبْخَـــرُ
وافَتْـــكَ مِنْـــهُ بِـــدَرٌ وتـــابَعَتْهـــا بِـــدَرُ
ولا زَمَتْـــكَ البِشَـــرُ وزالَ عَنْـــكَ الحَـــذَرُ
ولا بَـــرِحْـــتَ تُنْصَـــرُ

٣٣ * الحُسينُ بن عليّ بن مُصَدِّق(١) :

الشَّيخُ الإمام، شَرَفُ الدِّين، أَبو عبد اللهِ، الشَّيْبانيّ، الواسِطِيّ ، الصُّوفيّ.

● **أَنشدَني لنفسِهِ بالقاهرَةِ المحروسَة ، سنة ٧٢٨(٢) :** [من الطويل]

وَأَحْوَرَ أَحْوىٰ فاتِنِ الطَّرْفِ فاتِرٍ مَسيرُ بُدورِ التِّمِّ من دُونِ سَيْرِهِ
إذا جِئْتُ أَشْكُو طَرْفَهُ قالَ قَدُّهُ : «ومَنْ لَمْ يَمُتْ بالسَّيْفِ ماتَ بِغَيْرِهِ»(٣)

● **فأَنشدتُهُ أَنا لِنَفسي في مَليحٍ نائِمٍ(٤) :** [من الطويل]

سَبانيَ خَدٌّ مِن فَتىً كانَ نائِماً فقالَ عَذولٌ شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ :
أَتَهْوىٰ ولم تَدْرِ العُيونَ ؟ فقلتُ : دَعْ « ومَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ ماتَ بِغَيْرِهِ »

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/ ٢٧٢ والوافي بالوفيات ١٣/ ٢٤ والدّرر الكامنة ٢/ ٦٤ .
ـ مولده سنة ٦٦٠ هـ ! [كذا عند ابن حجر] ولم يذكر أَحدٌ تاريخ وفاته .
(٢) البيتان في أَعيان العصر والوافي والدّرر الكامنة .
(٣) العجز مضمّن من قول ابن نباتة السَّعدي : [وفيات الأَعيان ٣/ ١٩٣]
ومَن لم يمتْ بالسَّيفِ ماتَ بغيرِهِ تنوّعت الأَسبابُ والدّاءُ واحدُ
(٤) البيتان في أَعيان العصر والحسن الصريح ٥٥ و٣٩ .

● وأَنْشدتُهُ أَنا لنفَسي في مَليحٍ يُقابِلُ كِتاباً[1] : [من الرجز]

قـابَلْـتُ كُتْبـاً مـع حَبيـبٍ هـاجِـرٍ   فَسَــرَّ قَلْبــاً كــادَ أَنْ يَفْنــىٰ وَلَــهْ
فَقُلْتُ : يا وارِثَ قَلْبي في الهَوىٰ   جَمَعْـتَ بَيْـنَ الجَبْـرِ والمُقـابَلَـهْ

● فأَنشدَني هو لنَفسه[2] : [من الرجز]

قـابَلَنـي المَحْبـوبُ يَـوْمـاً وَغَـدا   يَمْنَحُنــي جَمــالَــهُ ونــائِلَــهْ
قُلْـتُ لَـهُ : يـا سَيِّـدِي جَبَـرْتَنـي   فَهَـلْ أَرىٰ مِـنْ بَعْـدِهـا مُـواصَلَـهْ
فَقــالَ لــي : هــذا الــذي فَعَلْتُــهُ   علــى سَبيــلِ الجَبْـرِ والمُقـابَلَـهْ

٣٤ * الحُسين بن محمَّد بن الحُسين بن محمَّد بن الحُسين بن محمَّد[3] بن زَيد بن الحُسين بن مُظَفَّر بن عليّ بن محمَّد بن إبراهيم ابن محمَّد بن عبد الله العَوْكلانيّ[4] بن موسى الكاظِم بن الإمام جَعفر الصَّادق بن الإمام محمَّد الباقِر ابن الإمام زَين العابدين[5] عليّ بن الحُسين بن عليّ بن أَبي طالِبٍ رضيَ اللهُ عنهم .

السَّيِّدُ الإمامُ ، البَليغُ ، المُنشيءُ ، الشَّريف ، [٥٦ أ] شِهابُ الدِّين ، مُوَقِّعُ الدَّسْتِ الشَّريفِ بالقاهرةِ المحروسَة ، وكاتِبُ السِّرِّ الشَّريفِ بحلبَ المحروسَة .

---

(١) البيتان في أَعيان العصر والحسن الصريح ٥٥ و٣٩ .
(٢) الأَبيات في أَعيان العصر والدّرر الكامنة .
(٣) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/ ٢٨٣ والوافي بالوفيات ١٣/ ٥١ ودرر العقود الفريدة ٢/ ٤٧ والدّرر الكامنة ٢/ ٦٦ ووفيات ابن رافع ١/ ٣٧٠ ولحظ الأَلحاظ ٣١ والنجوم الزاهرة ١١/ ١٠ والمنهل الصافي ٥/ ١٦٩ والدليل الشافي ١/ ٢٧٦ والبدر الطالع ١/ ٢٢٨ .
ـ مولده سنة ٦٩٨ هـ . ووفاته سنة ٧٦٢ هـ .
ـ في أ ، م : الحسين بن علي . . . ! .
(٤) ضبط المؤَلف هذه النسبة في الأَعيان بقوله : بالعين المهملة المفتوحة ، والواو السّاكنة ، وبعدها كاف مفتوحة ، ولام أَلف ، ونون ، وياء النِّسبة .
(٥) في أ : بن عليّ ! .

● كتبتُ أَنا إِلَيهِ من الرَّحْبَةِ المحروسَة ، سنة ٧٢٩[١] : [من الخفيف]

مـا لِقَلْبـي عـن حُبِّكُـمْ قَـطُّ سَلْـوَهْ ... كُلُّ حالٍ مِنْكُم لَدىٰ الصَّبِّ حُلْوَهْ
إِنْ بَخِلْتُـم ـ حـاشـاكُـمُ ـ بِـوَفـاءٍ ... أَوْ ثَنَتْكُـمْ بَعْـدَ التَّعَطُّـفِ قَسْـوَهْ
فَلَكُـمْ قَـد قَضـىٰ وما نَقَـضَ العَهْـ ... ـدَ مُحِـبٌّ ولـي بِـذَلِـكَ أُسْـوَهْ
يا ابْنَ بِنْتِ النَّبِيِّ قُلْ لي وَقَوْلي ... يـا ابْـنَ بِنْـتِ النَّبِـيِّ أَفْضَـلُ دَعْـوَهْ
هَـلْ بَـدا فـي الـوَفـاءِ مِنِّـيَ نَقْـصٌ ... أَوْ جَـرىٰ فـي الحِفـاظِ مِنِّـيَ هَفْـوَهْ
فَعَـلامَ الإِعْـراضُ والصَّـدُّ عَمَّـنْ ... لَم يَجِدْ في سِوىٰ مَعالِيْكَ صَبْوَهْ
كَيْفَ أَنْسَىٰ ساعاتِ وَصْلٍ تَقَضَّتْ ... وَبِعِطْفـي مِنْهـا بَقِيَّـةُ نَشْـوَهْ
مـا خَلَـتْ خَلْـوَةٌ ولـم أَلْـقَ فيهـا ... مِن عَذارى حَديثِكَ العَذْبِ جَلْوَهْ
حَيْـثُ لـي مـن فُنـونِ نَظْمِـكَ والنَّثْـ ... ـرِ مَتـىٰ مـا أَرَدْتُ كـاسـاتِ قَهْـوَهْ
ومَعـانٍ كـالحُـورِ زَفَّ حُـلاهـا ... مَنْطِـقٌ تَشْخَـصُ الأَفـاضِـلُ نَحْـوَهْ
كـانَ فـي مِصْـرَ لـي بِقُـرْبِـكَ أُنْـسٌ ... عـن أُنـاسٍ لَهُـمْ عـن الخَيْـرِ نَبْـوَهْ
وأَرىٰ رِقَّـةَ الحـواشـي التـي عِنْـ ... ـدَكَ تُغْنـي عَمَّـنْ غَـدا فِيـهِ جَفْـوَهْ
وإِذا مـا أَتَيْـتُ أَلْفَيْـتُ صَـدْراً ... مِنْـكَ لـي فـي حِمـاهُ حَـظٌّ وحُظْـوَهْ
واقْتَعَـدْتَ الفَخـارَ بَيْـنَ البَـرايـا ... وتَسَنَّمْـتَ فـي السِّيـادَةِ ذُرْوَهْ
وأَرىٰ أَنَّ لـي إِذا زُرْتُ أَرْضـاً ... أَنْتَ فيها التَّشْريفُ في كلِّ خُطْوَهْ
كَيْـفَ لا والـوَلاءُ فـي قَـوْمِـكَ الغُـرْ ... ـرِ أَراهُ فـي الـدِّيْـنِ أَوْثَـقَ عُـرْوَهْ
مُنْيَتـي أَنْ أَرىٰ حِمـاكَ بِعَيْنـي ... لا أَراكَ الحِمـىٰ ولا دارَ عَلْـوَهْ
آهِ لـو تُنْصِـفُ اللَّيـالـي إِذا مـا ... حَكَمَـتْ بِـالبِعـادِ مـن غَيْـرِ عَنْـوَهْ
أَوْ لَـوَانَّ الفِـراقَ يَقْبَـلُ مِنِّـي ... في اقْتِرابِ الدِّيارِ من مِصْرَ رِشْوَهْ[٢]

---

(١) القصيدة في أعيان العصر والوافي بالوفيات ؛ والنص النثري لم يرد فيهما .
(٢) في أ : أو لوان الفرار . . . × ! .

يـا زَمـانـاً بِمِصْـرَ وَلَّـىٰ حَميـداً   هَـلْ يُجيـبُ الإلَـهُ لـي فِيـكَ دَعْـوَهْ

يُقَبِّلُ الأَرضَ ، ويُنْهي ـ بعدَ وَلائِهِ الذي تَنْطِقُ بِهِ مَخايِلُهُ ، وتَشهدُ لَهُ دَلائِلُهُ ، ويَحملُ لِواءَهُ الذي هو في الحقيقَةِ حامِلُهُ ، وَوَفائِهِ الذي يَصْحَبُهُ إِلى وَفاتِهِ ، ويَرِفُّ على رُفَاتِهِ ، وتَشِفُّ عن صَفاءِ صِفاتِهِ في سَماءِ سِماتِهِ ، وثَنائِهِ الذي تَنَسَّمَتِ الرِّياضُ بِهِ في أَسْحارِهِ ، وَتَبَسَّمَتْ من حَديثِهِ ثُغورُ أَزْهارِهِ ، وَتَنَظَّمَتْ أَسْجاعُ ذِكْرِهِ في تَغْرِيدِ أَطْيارِها ـ أَنَّهُ قَد شَغَلَهُ أَلَمُ الإِعْراضِ عن أَلَمِ الشَّوْقِ ، وضاقَتِ الرَّحْبَةُ بِفَضائِها ، على أَنَّهُ لا رَحْبَةَ لابْنِ طَوْقٍ ، وتَحَرَّزَ بِالمُكاتَبَةِ إِلى مَولانا ، فَجاءَ بِطُوفانِ هَجْرِهِ من فَوْقٍ ، وتَطَلَّبَ الأَعْذارَ في تَرْكِ الجَوابِ ، فلم يَكُنْ لَها في النَّفْسِ ذَوْبُ قَبولٍ ولا ذَوْقٍ ؛ على أَنَّ المَملوكَ فارَقَ مَولانا وما صَفَّ لَهُ جَفاءٌ ، ولا جَفَّ لَهُ صَفاءٌ ، ولا تَوَسَّمَ من عَواطِفِهِ رَذِيّ[1] رَدٌّ ، ولا سَمِعَ من عَوارِفِهِ صَدِيَّ صَدٌّ[2] : [من الطويل]

وإِنْ يَكُنِ الفِعْلُ الذي ساءَ واحِداً   فَـأَفْعـالُـهُ الـلائـي سَـرَرْنَ أُلـوفُ

وقد جَهَّزَ المَملوكُ هٰذِهِ العُبودِيَّةَ ، وهيَ لِعَواطِفِهِ مُتَطَلِّبَةٌ مُتَطَلِّعَةٌ ، مُتَضَرِّمَةُ الأَحْشاءِ مُتَضَرِّعَةٌ ، مُتَجَرِّدَةٌ من الذُّنوبِ وإِنْ كانَتْ لِغُصَصِها مُتَجَرِّعَةٌ ؛ وما أَجْدَرَ مَكارِمَ مَولانا أَنْ يُجيبَ سُؤَالَها ويُجيدَ ، ويُعينَ نَوالَها ويُعيدَ ، ويُفيتَ وَبالَها ويُفيدَ[3] : [من الطويل]

[٥٦ ب] وإِنْ كانَ ذَنْبٌ عَنَّ أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ   علىٰ خَطَأٍ مِنِّي فَعُذْرِي علىٰ عَمْدِ

واللهُ لا يَعْطِفُ عن وَلِيِّهِ عَطْفَهُ ، ولا يَصْرِفُ عن صَفِيِّهِ لُطْفَهُ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

---

(١) الرَّذِيّ : الضعيف . (القاموس) . وفي م : ولا توهّم من عواطفه . . .
(٢) البيت للمتنبي ، في ديوانه ٢/ ٢٩٢ .
(٣) البيت لأبي تمام ، في ديوانه ٢/ ١١٧ .

● **فكتبَ هو الجَوابَ إليَّ عن ذلك**[١] : [من الخفيف]

أَنَسِيْمُ الصَّبا علىٰ الرَّوْضِ غُدْوَهْ ... سَحَبَتْ ذَيْلَهـا علـى كُـلِّ رَبْـوَهْ
وَسَرىٰ لُطْفُها إلى الدَّوْحِ فـازْتـا ... حَ فَكَمْ رَنَّحَتْ مَعاطِـفَ سَرْوَهْ
أَمْ سَقِيطُ النَّدىٰ على الوَرْدِ كاليا ... قُوتِ إِذْ يَجْعَلُ الَّلآلِيءَ حَشْوَهْ
أَمْ تَثَنِّي الغُصُونِ في حُلَلِ الزَّهْـ ... ـرِ سَقاها السَّحابُ كاساتِ قَهْوَهْ
أَمْ مَسيلُ المِياهِ بَيْنَ رِياضٍ ... بِنُضارِ الأَصيلِ أَمْسَتْ تُمَوَّهْ
أَمْ غِناءُ الحَمامِ غَرَّدَ في البا ... نِ وَأَضْحىٰ بِهِ يُرَجِّعُ شَدْوَهْ
أَمْ نُجومُ السَّماءِ زُهْرٌ أَمِ البَدْ ... رُ مُنيرٌ أَم مَشْرِقُ الشَّمْسِ ضَحْوَهْ
أَمْ وِصالُ الحَبيبِ بَعْدَ صُدُودٍ ... فَأَتىٰ ذا لِذا فَأَسْرَعَ مَحْوَهْ
أَمْ بَشيرُ الأَمانِ من بَعْدِ خَوْفٍ ... لِخَليعٍ رَأَىٰ الرَّبيعَ وَزَهْوَهْ
أَمْ حَديثُ العُذَيْبِ يَعْذُبُ في ... كُلِّ لَهاةٍ لِمَنْ تَذَكَّرَ لَهْوَهْ
أَمْ كِتابٌ قد جاءَني من خَليلٍ ... بارِعٍ فَالخَليلُ لم يَنْحُ نَحْوَهْ
رَحْبُ باعٍ لِرَحْبَةِ الشَّامِ وافىٰ ... ذا وَفاءٍ وعِفَّةٍ وفُتُوَّهْ
سامِقٌ فوقَ هَضْبَةِ المَجْدِ والعِزْ ... زِ سَبُوقٌ لَمْ يُدْرِكِ النَّاسُ شَأْوَهْ
ناظِمٌ ناثِرٌ بَليغٌ بَديعٌ ... ماهِرٌ باهِرُ المَقالَةِ أَفْوَهْ[٢]
حَيْثُما حَلَّ في المَمالِكِ حَلَّىٰ ... وغَدا وارِداً من الحَمْدِ صَفْوَهْ
بَعْدَ حَوْلَيْنِ قد أَتانِي فَأَهْلاً ... وحَباني عَذْبَ الكَلامِ وَحُلْوَهْ
وعَناني من بُعْدِ دارٍ ولكِنْ ... غَصَبَتْهُ أَيْدي الحَواسِدِ عُنْوَهْ
وأَرادوا خُمولَ ذِكْرِي فَغاروا ... مِنْهُ لمَّا أَعْلَىٰ بِذِكْرِي وَنَوَّهْ

---

(١) القصيدة بتمامها في الوافي ، وتنقص أَبياتاً في أَعيان العصر ؛ وأَربعة من أَوائلها في الدّرر الكامنة ، وقال : وهي نحو السبعين بيتاً .
(٢) في م : . . . بديعٌ بليغٌ × .

حَجَبُـوهُ عَنِّـي فَـأَظْهَـرَهُ اللَّـ ـهُ لِعَيْنِي ، أَتَحْجِبُ الشَّمْسَ هَبْوَهْ
قُمْـتُ للهِ شـاكِـراً ثُـمَّ حَلَّيْـ ـتُ وقد حَلَّ ساحَتِي كُلَّ حُبْوَهْ
غَيْـرَ أَنِّـي رَأَيْـتُ فِيـهِ عِتـابـاً مُضْـرِمـاً ما بَيْـنَ الجَـوانِـحِ جُـذْوَهْ
قـالَ : إِنِّـي بَخِلْـتُ بـالـوُدِّ ؛ كَـلاَّ مـا تَعَمَّـدْتُ إِنَّمـا هِـيَ سَهْـوَهْ
ورَمـىٰ أَسْهُمـاً تَمَـزَّقَ ثَـوْبُ الصَّبْـرِ مِنْهـا وَمِنْـهُ أَمَّلْـتُ رَفْـوَهْ
اِلْـزَمِ الـذَّنْـبَ قَبْـلَ ذَنْـبٍ فَـأَنْصِـفْ وَسَلِ القَلْبَ هَلْ نَوىٰ عَنْكَ سَلْوَهْ
لـم يَكُـنْ شَـأْنـي الصُّـدودُ بِـلا جُـرْ مٍ وحـاشـا لِـوَجْـهِ وُدِّي يُشَـوَّهْ
لَيْـسَ مِثْلـي مِمَّـن يَحُـولُ عـن الـوُدْ دِ ولا يُبْـدِلُ المَحَبَّـةَ جَفْـوَهْ
كَيْـفَ يَهْفُـو ثَبيـرُ حِلْمِـكَ يـا ذا الْـ ـثَّبْـتِ لمَّـا ظَنَنْـتَ مِنِّـي هَفْـوَهْ
أَذْكَـرَتْنـي أَبْيـاتُـكَ الغُـرُّ أَبْيـا تَ الإِمـامِ المَحْمـودِ أَنْفَـعِ قُـدْوَهْ
سابِقٌ قد هَدىٰ إِلى النُّجحِ قَصْدِي لـم يُطِقْ مَن سَعىٰ هُنالِكَ خُطْوَهْ
وَمَـعَ البُعْـدِ كـانَ يُـدْنـي لـي اللُّطْـ ـفَ ويَشْكُـو لَـهُ فُـؤادِيَ شَجْـوَهْ
كـانَ لـي والِـداً وَبَـرّاً شَفـوقـاً فَـذَوُوهُ لـي فـي المَحَبَّـةِ إِخْـوَهْ

منها :

يـا صَـلاحَ الـدِّيْـنِ البَليـغَ نِظـامـاً والـذي مِـن إِنْشـائِـهِ لِـيَ نَشْـوَهْ
لا تَلُمْنـي علـى تَـأَخُّـرِ كُتْبـي إِذْ أَثَلَّـتْ بِحَـدِّ ذِهْنـيَ نَبْـوَهْ
كُنْـتُ فـي شِـدَّةٍ وقَـد فَـرَّجَ اللَّـ ـهُ وَنَجَّـىٰ فَصِـرْتُ مِنْهـا بِنَجْـوَهْ
ونَسِيْـتُ الصِّنـاعَتَيْـنِ لأَنِّـي حُجَجٌ قَـد مَضَـتْ ولَـمْ أَلْـقَ حُظْـوَهْ
يَـرْجِـعُ الحَـظُّ القَهْقَـرىٰ فـإِذا مـا رُمْـتُ أَنْ يَمْشـي عـاجَلَتْـهُ كَبْـوَهْ
كُلَّمـا قُلْـتُ قَـد مَضَـىٰ الهَـمُّ إِذْ مَـرْ رَ مَسـاءٌ أَرىٰ المَسـاءَةَ غُـدْوَهْ
[٥٧ أ] وأُعـادِىٰ ظُلْمـاً وأُقْهَـرُ مِمَّـنْ مَهْلِـي لِلْفَخـارِ يَسْبِـقُ عَـدْوَهْ(١)

---

(١) سقط البيت من س .

أَنــا سِبْــطُ النَّبِــيِّ وابْــنُ عَلِــيٍّ شَــرَفٌ شــامِــخٌ لأَرْفَــعِ ذُرْوَهْ
وإِذا مـا اعْتَـرانـي الـدَّهْـرُ بـالعُـدْ وانِ أَمْسَكْـتُ مِنْهمـا أَيَّ عُـرْوَهْ

وكانَت تِسعةً وستِّينَ بيتاً ، وهذا القَدْرُ الذي أَثْبَتُّهُ[1] منها كافٍ .

● **وكتبتُ إِليهِ من دمشقَ المحروسَةَ أُهَنِّئُهُ بالدُّخولِ إِلى الدَّسْتِ الشَّريف ، وقد رُسِمَ لهُ بالتَّوقِيعِ بينَ يَدي مَولانا السُّلطانِ المَلِكِ الكامِلِ شَعبان[2] ، خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ ، في سنة ٧٤٦ :** [من الطويل]

أَيـا فَخْـرَ مُلْـكٍ أَنْـتَ فِيـهِ تُـوَقِّـعُ ويـا عِـزَّ دَسْـتٍ فِيـهِ لَفْظُـكَ يُسْمَـعُ
وَيـا بَهْجَـةَ الـدُّنْيـا بِمَجْـدٍ تُشَيْـدُهُ وتَنْصُـبِ رايـاتِ الطُّـروسِ وتَـرْفَـعُ
فَـأُقْسِـمُ مـا الأَقْـلامُ غَيْـرَ أَسِنَّـةٍ بكَفِّكَ في نَحْرِ المُحارِبِ تُشْرَعُ[3]
غَدا المُلْكُ مِنْها في غِنىً عن قَواضِبٍ تُجَـرِّدُ سُمَّـاً لِـلأَعـادِي تُجَـرَّعُ
وتُولي النَّدىٰ مَنْ أَخْلَصَ الوُدَّ قَلْبُهُ وَتُـوقِـعُ بـالأَعْـداءِ لَمَّـا تُـوَقِّـعُ
وكَـمْ أَطْـرَبَـتْ أَسْمـاعَنـا بِبَيـانِهـا فَهَلْ هِيَ في الأَوْراقِ وَرْقاءُ تَسْجَعُ
ولَيْسَتْ سُطورٌ في طُروسٍ تَخُطُّها ولكِـنْ كُـؤُوسٌ لِلسُّـلافِ تُشَعْشِـعُ
فَمـا أَنْـتَ إِلاَّ لِلْعَـدُوِّ مُشَـرِّدٌ وَمـا أَنْـتَ إِلاَّ فـي البَيـانِ مُشَـرِّعُ[4]
ولَفْظُـكَ بـالسِّحْـرِ الحَـلالِ مُقَنَّـدٌ وطِـرْسُـكَ فـي بُـرْدِ البَيـانِ مُقَنَّـعُ
وإِنْ قُلْتَ بَيْتاً في القَريضِ مُصَرَّعاً فَمـا هـو إِلاَّ بـالَّـلآلـي مُـرَصَّـعُ
وإِنْ كُنْتَ في حَفْلٍ فَما يَسَعُ الوَرىٰ سِوىٰ أَنْ تُوالي القَوْلَ والنَّاسُ تَسْمَعُ
فَيـا سَعْـدَ مَـنْ يُلْقـي لَـدَيْـكَ رِداءَهُ ويَلْقُـطُ دُرَّ القَـوْلِ مِنْـكَ وَيَجْمَـعُ

---

(١) « الذي أَثبتُّه » من س .
(٢) ترجمة الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ، في الوافي بالوفيات ١٦/ ١٥٣ وفيه مصادر ترجمته .
(٣) في ب : × . . . تسرع .
(٤) في ب : × . . . إلاّ للبيان . . .

ويا فَوْزَ عَيْنٍ لاحَظَتْكَ فَأَصْبَحَتْ   بِمَـرْآكَ مِـن دُونِ الأَنـامِ تُمتَّـعُ
وإنْ وَطِئَـتْ رِجْـلاكَ صَهْـوَةَ مِنْبَـرٍ   وَرُحْتَ بِزَجْرِ الوَعْظِ لِلسَّمْعِ تَقْرَعُ
فَـلا قَلْـبَ إلاّ وهـو بـالنَّـارِ يَلْتَظـي   ولا طَـرْفَ إلاّ وَهْـوَ بـالـدَّمْعِ يَهْمَـعُ
وإنْ كـانَ فـي الأَقْـوامِ رَبُّ فَضيلَـةٍ   تُعَـدُّ فَكُـلُّ الفَضْـلِ عِنْـدَكَ أَجْمَـعُ
فَمـا لِعُيُـونِ الـزَّهْـرِ عِنْـدَكَ مَطْمَـحٌ   ولا لِبُـرُوقٍ فـي لَحـاقِـكَ مَطْمَـعُ
مُحَيَّـاكَ بَـدْرٌ بِـالجَمـالِ مُنَـوَّرٌ   وَيُمْنـاكَ بَحْـرٌ بِـالجَميـلِ مُنَـوَّعُ
وعـافِيْـكَ بـالإحْسـانِ فِيْـكَ مُـرَوَّحٌ   وشـانِيْـكَ بـالأَحْـزانِ مِنْـكَ مُـرَوَّعُ
كَأَنَّ نُجُومَ الزُّهْرِ في الأُفْقِ أَعْيُنٌ   تَبيـتُ إلـى عُلْيـاكَ وهـيَ تَطَلَّـعُ
كَذا يا ٱبْنَ بِنْتِ المُصطَفىٰ فَلْتَكُ العُلا   فَمـا في قِسِيِّ الفَضْـلِ بَعْـدَكَ مَنْزَعُ
فَقُلْ لِلمُجارِي : قِفْ مَكانَكَ تَسْتَرِحْ   أَمـا لامِعـاتُ البَـرْقِ خَلْفِـيَ طُلَّـعُ
وَخُذْها رِياضاً جادَها فِكْرُ مُخْلِصٍ   لَـهُ بـالـوَلاءِ المَحْـضِ فِيْـكَ تَطَـوُّعُ
يُسَـرُّ إذا مـا جَـدَّدَ اللهُ رِفْعَـةً   لِقَـدْرِكَ عِلْمـاً أَنَّـهُ بِـكَ يُـرْفَـعُ
ويُخْلِصُ فِيكَ السِّرَّ إنْ باتَ داعِياً   وثَـوْبُ الـدَّيـاجي بـالبُـروقِ مُلَمَّـعُ
ويَسْأَلُ جَمْعَ الشَّمْلِ من بَعْدِ فُرْقَةٍ   تكـادُ حَصـاةُ القَلْـبِ مِنْهـا تَصَـدَّعُ
أُعِيْـذُكَ مِـن عَيْـنِ الحَسـودِ وبَغْيِـهِ   فَذو النَّقْصِ في الدُّنْيا بِذي الفَضْلِ مُولَعُ

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهي أَنَّ مَحَبَّتَهُ القَديمةَ ، وَوُدَّهُ الذي هو والوَفاءُ كَنَدْمانَيْ جَذِيْمَةَ ، وَوَلاءَهُ الذي يَعُدُّ الإِخْلاصَ في دَهْرِهِ غَنيمةً ، يُوجِبُ لهُ السُّرورَ بكلِّ ما يَتَجَدَّدُ لِمولانا من غُلُوِّ عُلُوٍّ ، ويَتَأَكَّدُ لَهُ من إشادَةِ مَجْدٍ سَمْكُهُ بُنِيَ على السُّمُوِّ ، ويَتَرَدَّدُ لَهُ من إقْبالِ نَمَّام عَرْفِهِ في نُمُوٍّ ، ويَتَأَبَّدُ لَهُ من دَوامِ سَعْدٍ يُكْمِدُ مَساءَ المُسيءِ ويُنَكِّدُ غُدُوَّ العَدُوِّ ، لأَنَّهُ بِحَمْدِ اللهِ تَعالى كمالُ المَراتِبِ ، وجَمالُ [٥٧ أ] المَناصِبِ ، وثِمالُ المَناسِبِ .

أَمَّا النَّسَبُ ، فإنَّهُ مُتَّصِلٌ بِالبَتُولِ وحَيْدَرَةَ ، وَمَنْ كانَ فَرْعَهُما فَأَكْرِمْ بِغُصْنٍ

تَهَدَّلَ من هذهِ الشَّجَرَةِ .

وَأَمَّا الفِقْهُ فإمامُ الحَرَمَيْنِ(١) صَلَّىٰ خَلْفَهُ وَسَلَّمَ ، وصاحِبُ « التَّنْبيهِ »(٢) أَغْمَضَ طَرْفَهُ وَهَوَّمَ .

وَأَمَّا الأُصُولُ ، فالسَّيْفُ الآمِديُّ(٣) فُلَّ حَدُّهُ وَتَثَلَّمَ ؛ وابنُ الحاجِبِ(٤) تَأَخَّرَ بعدَما تقَدَّمَ .

وَأَمَّا الخَطابَةُ ، فابنُ نُباتَةَ(٥) بَقِيَ معهُ في شَماتَةٍ ، وابنُ المُنَيِّرِ(٦) ذَهِلَ معهُ وتَحَيَّرَ .

وأَمَّا الأَدَبُ ، فالجاحِظُ جُحِدَ بَيانُهُ ، وابنُ بَسَّامٍ(٧) بَكىٰ لِزَمانَتِهِ زَمانُهُ .

وأَمَّا الخَطُّ ، فَهو بعدَ ابْنِ مُقْلَةَ(٨) إِنْسانُهُ ، وابنُ هِلالٍ(٩) ظَهَرَ بعدَ كَمالِهِ نُقْصانُهُ .

---

(١) هو أبو المعالي ، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ، شيخ الشافعيّة ؛ توفي سنة ٤٧٨ هـ . (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٦٨) .

(٢) هو الإمام الشيرازي ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي الشافعي ؛ توفي سنة ٤٧٦ هـ . (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٥٢) .

(٣) هو العلاّمة عليّ بن أبي عليّ بن محمد بن سالم التّغلبي ، فارس الكلام ؛ توفي سنة ٦٣١ هـ . (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٤) .

(٤) هو جمال الأئمّة أبو عمرو ، عثمان بن عمر بن أبي بكر الكردي ، الفقيه النّحوي ؛ توفي سنة ٦٤٦ هـ . (سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٦٤) .

(٥) مضت ترجمته في حواشي هذا الكتاب .

(٦) هو ناصر الدِّين أحمد بن محمد بن منصور الجذامي ، الإسكندراني ، له مصنّفات مفيدة ؛ توفي سنة ٦٨٣ هـ . (فوات الوفيات ١/ ١٤٩) .

(٧) هو أبو الحسن ، عليّ بن بسام الشّنتريني الأندلسي ، صاحب كتاب « الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة » . (المغرب لابن سعيد ـ قسم الأندلس ـ ١/ ٤١٧) .

(٨) هو أبو علي ، محمَّد بن عليّ بن الحسين بن مقلة ، يُضرب بخطّه المثل ؛ توفي سنة ٣٢٨ هـ . (ثمار القلوب ١/ ٣٤٥) .

(٩) هو أبو الحسن ، عليّ بن هلال ، المعروف بابن البوّاب ، الكاتب المشهور ؛ توفي سنة ٤٢٣ هـ . (وفيات الأعيان ٣/ ٣٤٢) .

وأَمَّا التَّرَسُّلُ ، فالعِمادُ[1] مالَ رُكْنُهُ ، وتَهَدَّمَ بُنْيانُهُ ، والجَزَرِيُّ[2] صَوَّحَ رَوْضُهُ وأَمْحَلَ بُسْتانُهُ .

وأَمَّا النَّظْمُ فابْنُ المُعْتَزِّ أَحاطَ بِهِ ذُلُّهُ وهَوانُهُ ، والشَّريفُ الرَّضِيُّ غَضِبَ لمَّا أُهْمِلَ دِيوانُهُ .

هذا إلىٰ غيرِ ذلِكَ من مَحاسِنَ تَعَدَّدَتْ ، وفَوائِدَ كُلَّما تَقَدَّمَ[3] الدَّهْرُ عليها تَجَدَّدَتْ ، وفَواضِلَ جَمَعَها التَّدوينُ وخُلِّدَت في الدَّفاتِرِ وجُلِّدَتْ ، وَمُروءَةٍ تَحَمَّلَتْ كلَّ مَشَقَّةٍ ، ولولا المَشَقَّةُ سادَ النَّاسُ[4] ، ورِئاسَةٍ تَنَوَّعَتْ من عَوارِفِها الأَجْناسُ .

وقد أَنْهىٰ المَملوكُ إلى العَلَمِ الكَريمِ ما تَجَدَّدَ لَهُ من البَهْجَةِ والسُّرورِ ، وشارَكَ فيها مُحِبِّي مَولانا ، وهم غالِبُ النَّاسِ وخُلاصَةُ الجُمهورِ ؛ فالحمدُ للهِ على هذِهِ النِّعمةِ التي انْتَبَهَ لها الدَّهْرُ بعد إِغْفائِهِ ، ولَحَظَ حَظَّ الفَضْلِ وخَصَّ أَبْناءَ إِنْشائِهِ ، واللهُ تَعالىٰ يُدِيمُ لَنا ـ مَعاشِرَ الأَرِقَّاءِ والمُحِبِّينَ ـ هذِهِ النِّعْمَةَ ، ويُمْتِعُ الأَبْصارَ والبَصائِرَ بِطُلُوعِ هذا الشِّهابِ الذي أَخْجَلَ البَدْرَ وَتِمَّهُ ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **فكتبَ هو الجَوابَ إليَّ عن ذلك** : [من الطويل]

خَليلٌ سَرىٰ عَنِّي وقَلْبي مُوَدِّعُ لَدَيْهِ فَلَيْتَ الجِسْمَ لَو كانَ يَتْبَعُ

---

(1) عماد الدِّين الأَصبهاني ، محمَّد بن محمَّد بن حامد القرشي ، صاحب « الخريدة » ؛ توفي سنة ٥٩٧ هـ . (مسالك الأبصار ١٢/ ٢٥٣) .

(2) هو نصر الله بن محمَّد بن محمَّد ، ابن الأَثير الجزري الكاتب ؛ توفي سنة ٦٣٧ هـ . (مسالك الأبصار ١٢/ ٢٦٩) .

(3) في ب ، س : تقادم .

(4) من قول المتنبي ، ديوانه ٣/ ٣٧٨ :

لولا المشقَّة ساد النَّاس كلُّهم الجودُ يُفقر والإقدام قتَّالُ

خَليــلُ صَفــاءٍ ذُو وَفــاءٍ بِعَهْــدِهِ ... إلــىٰ مَكْــرُمــاتٍ ســابِــقٌ مُتَسَــرِّعُ
بَديعُ الحُلىٰ وافي العُلا واجِبُ الوَلا ... لَــهُ جَــمٌّ بِــرٍّ واصِــلٌ يَتَبَــرَّعُ(١)
وغَيْثٌ لأَقْصىٰ الأَرْضِ يُهدي سَحائِباً ... تَمُــرُّ بِــأَقْطــارِ البِــلادِ فَتُمْــرِعُ
تَنَــوَّهَ قَــدْري حِيــنَ وافــىٰ كِتــابُــهُ ... بِفَضْــلٍ لَــهُ مِصْــراً وشــامــاً تَنَــوَّعُ
كِتابٌ حَكىٰ في لُطْفِهِ نَسْمَةَ الصَّبا ... وأَسْيَــرُ مِنْهــا فــي البِــلادِ وأَشْيَــعُ
أَتــانِــيَ فــي مُحْمَــرِّ طِــرْسٍ كَــأَنَّــهُ ... سَنا الشَّمْسِ في إِشْراقِها حِينَ تَطْلُعُ
تَضَــوَّأَتِ الآفــاقُ نُــوراً بِــهِ كَمــا ... تَــأَرَّجَــتِ الأَرْجــاءُ إِذْ يَتَضَــوَّعُ
فَقُلْــتُ لأَرْبــابِ البَــراعَــةِ كُلِّهِــمْ : ... كَذا فاسْلُكوا نَهْجَ البَلاغَةِ أَوْدَعوا
وَهَنَّــأَ مَــن بُقَيــاكَ أَقْصــىٰ مُــرادِهِ ... وَلُقْيــاكَ أَسْمــىٰ مــالَــهُ يَتَطَلَّــعُ
بِتَوْقِيعِ دَسْتِ المُلْكِ والمَجْلِسِ الذي ... تُــزالُ بِــهِ شَكْــوىٰ الضِّعــافِ وتُسْمَــعُ
وَسَــرَّكَ مــا قَــد سَــرَّنــي مِــن وَظِيفَــةٍ ... تَســامَــتْ فَكَــمْ مِنْهــا عَــدُوٌّ مُــرَوَّعُ
وَشَبَّهْــتُ بــالــرَّايــاتِ نَشْــرَ رِقــاعِهــا ... فَحــاكَــتْ أَكُفَّــاً بِــالــدُّعــا لَــكَ تَضْــرَعُ
وَصَلْتَ علىٰ بُعْدِ المَسافَةِ مُخْلِصاً ... وغَيْــرُكَ بــي مَــعْ قُــرْبِ داريَ يَقْطَــعُ
ومــا رُمْتُهــا لِلْمَعْلُــواتِ تَــدَرُّجــاً ... ولا رَغْبَــةً فــي رُتْبَــةٍ هِــيَ أَرْفَــعُ
ولكــنْ إِمــامُ الفَضْــلِ وابــنُ إِمــامِــهِ ... علــيّ بــن يَحيــىٰ الحــاكِــمُ المُتَشَــرِّعُ
ومَــن قَــدْرُهُ العَلْيــاءُ قــد شَــرُفَــتْ بِــهِ ... ومَن صَدْرُهُ الدَّهْناءُ بل هُوَ أَوْسَعُ
تَصَدَّقَ في أَمْري مِراراً وجادَ لي ... بِجَبْــرٍ وطَــوْلٍ فَضْلُــهُ المُتَطَــوِّعُ(٢)
[٥٨ أ] بِهِ انْصَرَفَتْ عَنِّي مِكائِدُ حُسَّدٍ ... على ضَرَرِي بِالظُّلْمِ والبَغْيِ أَجْمَعُوا(٣)
وكَــمْ منهــمُ مِــن كــادِحٍ بَلَــغَ المُنــىٰ ... ومَــعْ جَمْعِــهِ الــدُّنْيــا لَــهُ لَيْــسَ يَشْبَــعُ

---

(١) في ب : × . . . . متبرّع .
(٢) في م : × بخيرٍ . . .
(٣) في م : . . . . مكارهُ حُسَّدٍ × .

إذا نُزِعَتْ عن مَنْكِبِ الحُرِّ حُلَّةٌ فَعَنْهُ لِباسُ الفَضْلِ ما لَيْسَ يُنْزَعُ
وإِنْ دَفَعُوهُ عن وِلايَةِ مَنْصِبٍ فَعَنْ مَنْصِبِ اسْتِحْقاقِهِ لَيْسَ يُدْفَعُ[1]
وما بِيَدِ المَخْلوقِ مَنْعٌ وَلا عَطا ولكنَّهُ الخَلاَّقُ يُعْطي ويَمْنَعُ
وما هذِهِ الدُّنْيا بِدارِ إِقامَةٍ وبَعْضُ الوَرىٰ في السَّيْرِ للبَعْضِ يَتْبَعُ
وما القَوْمُ إِلاَّ هالِكٌ بعدَ هالِكٍ وما النَّاسُ إِلاَّ راحِلٌ وَمُوَدِّعُ
إِلَيْكَ صَلاحَ الدِّيْنِ زادَ تَشَوُّقي كما صُدَّ ظَمْآنٌ وفي الماءِ يَكْرَعُ
بِعادُكَ عَنِّي لم يَكُنْ بِإِرادَتي ولم أَدْرِ في قُرْبِ اللِّقا كَيْفَ أَصْنَعُ
لَكَ الأَدَبُ الغَضُّ الذي قَد حَلالَهُ جَنىً وعَلا مِقْدارُهُ المُتَرَفِّعُ
وأَقْلامُكَ الحُسْنىٰ بَهَرْنَ مَحاسِناً تُوَشِّي بِها الأَطْراسَ ثُمَّ تُوَشِّعُ
هِيَ الأَغْصُنُ الخُضْرُ التي تُثْمِرُ الغِنىٰ بها الخِلُّ يُرْعىٰ والمُعانِدُ يُرْدَعُ
لَقَدْ أَلْبَسَتْ عِطْفَيَّ لِلْفَخْرِ حُلَّةً شَأَتْ وَعَلَتْ عَمَّا بِصَنْعاءَ يُصْنَعُ
قَريضاً يُنَسِّينا الغَريضَ ومَعْبَداً عُلِيَّ مَحَلٍّ عَنْهُ يَجْبنُ أَشْجَعُ[2]
ويَتْبَعُهُ نَثْرٌ جَلَتْهُ كِتابَةٌ تُحَيِّرُني أَيُّ الثَّلاثَةِ أَبْدَعُ
وحُسْنُ مَقاطِيعٍ تَقَطَّعُ دُونَها قُلوبُ العِدىٰ في قالَبِ الحُسْنِ تُطْبَعُ
وكم كَلِماتٍ كامِلاتٍ مَحاسِناً طِوالٍ بِها شَمْلُ البَدائِعِ يُجْمَعُ
وعالي تَعاليقٍ أَبَنَّ غَرائِباً بِها مُلَحٌ مِمَّا يُقالُ وَيُسْمَعُ
وَجَمٌّ مَجاميعٍ أَفَدْنَ لَطائِفاً تَعَدَّدْنَ فيها والمَيامِنُ تُودَعُ
إذا قُلْتَ لم تَتْرُكْ مَقالاً لِقائِلٍ وتَرْقىٰ إِلى حَيْثُ الكَواكِبُ تَخْضَعُ
فَما رِقَّةُ الوَرَّاقِ، كم مِنْ مَحاسِنٍ حَوَيْتَ على الجَزَّارِ بالفَضْلِ تَقْطَعُ[3]

---

(١) في م : وإن رفعوه . . . × .
(٢) الغريض ومعبد : من أعلام الغناء في العصر الأُموي .
(٣) الإشارة إلى محمود الورَّاق ، شاعر الزُّهديَّات في العصر العبَّاسي ؛ وإلى أبي الحسين الجزَّار ، الشاعر المصريّ المعروف .

يَعودُ التَّعاويذيُّ عَجزاً كما غدا   من البارعِ المَشْهُورِ شِعْرُكَ أَبْرَعُ[1]
وذِكْرُكَ بَعْدَ الخالِدِيَّيْنِ خالِدٌ   وقَوْلُكَ من قَوْلِ البَدِيْعَيْنِ أَبْدَعُ[2]
فَأَنْتَ خِتامٌ لِلأَفاضِلِ آخِرٌ   إمامٌ إليهِ في الفَضائِلِ يُرْجَعُ
يَفوقُ على العَبْدَيْنِ حُرُّ كَلامِهِ   وفي حِكْمَةِ الإِنْشاءِ كالعَبْدِ طَيِّعُ[3]
فَيا سابقاً في حَوْزِ كُلِّ بَديعَةٍ   تَرَفَّقْ بنا ما في لَحاقِكَ مَطْمَعُ[4]
تَجَمَّلَ كُتَّابُ الرَّسائِلِ إِذْ غداً   صَلاحاً لَهُمْ يُبْدي المَقالَ فَيُبْدِعُ
وَأَضْحىٰ لِعِقْدِ الفَضْلِ واسِطَةً بها   يَكُونُ جَمالَ القَوْمِ إِنْ هُمْ تَجَمَّعُوا
رَعَيْتُ لَكَ الحَقَّ الذي أَنْتَ أَهْلُهُ   وعَهْدُ خَليلي لَيْسَ عِنْدي يُضَيَّعُ
فَإِنِّيَ من آلِ النَّبيِّ ذَوي الصَّفا   لَهُمْ في الوَفا نَهْجٌ قَويمٌ ومَهْيَعُ
فَلَلتَّرْحَةُ الغَبْراءُ عَنَّا تُفَرَّجُ   ولَلدَّوْحَةُ الزَّهْراءُ مِنَّا تُفَرَّعُ
على رَبِّنا مِنَّا صَحيحُ تَوَكُّلٍ   فَلا مَفْزَعٌ إِلاَّ لَهُ فِيهِ نَفْزَعُ[5]
ودُونَكَ مِنِّي في البِعادِ تَحِيَّةً   تَخُبُّ إلى نادي دِمَشْقَ وتُوْضِعُ
يَفوقُ رَضِيّاً مُرْتَضىً قَوْلُها الَّذي   جَرىٰ خَلْفَهُ مِهْيارُ كالعَبْدِ يَتْبَعُ[6]
تَحِيَّةَ ذِي وُدٍّ يَوَدُّ تَقَرُّباً   إِلَيْكَ ويَرْجُو شَمْلَهُ بِكَ يُجْمَعُ

---

(١) التَّعاويذي : أبو الفتح محمَّد بن عبيد الله بن عبد الله ، الشاعر المشهور ، والكاتب المعروف ؛ توفي سنة ٥٨٤ هـ . (وفيات الأعيان ٤/ ٤٦٦) .
والبارع : هو أبو عبد الله الحسين بن محمَّد بن عبد الوهاب ، الشاعر المشهور ، الأديب النَّديم البغدادي ؛ توفي سنة ٥٢٤ هـ . (وفيات الأعيان ٢/ ١٨١) .

(٢) الخالديّان : أبو بكر سعيد ، وأبو محمَّد ، ابنا هاشم ، الموصليان . (ترجمتهما في مقدّمة ديوانيهما) .
والبديعان : بديع الزَّمان الهمذاني ، صاحب المقامات ؛ والبديع الإسطرلابيّ ، الطَّبيب والفيلسوف والفلكي والشاعر .

(٣) أرى أنَّه يقصد بالعبدين : عنترة بن شدَّاد ، وسحيم عبد بني الحسحاس .

(٤) في م : × . . . . نطمع .

(٥) سقط هذا البيت من ب . وفي م : × . . . يُفزع .

(٦) إشارة إلى الشَّريفين : الرضيّ والمرتضىٰ .

ولَوْ لَمْ تُطارِحْني طَرَحْتُ مَقالَتي لِنَظْـمٍ وَنَثْـرٍ مِنْهمـا اليَـدُ أَنْـزَعُ
ولكِـنْ مُكـافـاةُ الجَميـلِ تَعَيَّنَـتْ عَلَـيَّ لِمَـنْ لـي مِنْـهُ يَعْـذُبُ مَشْـرَعُ
وَوازَنْـتُ دُرَّ الشِّعْـرِ مِنْـكَ بِيَـرْمَعـي وَما يَسْتَوِي في الشِّعْرِ دُرٌّ ويَرْمَعُ[1]
ومـا صَنْعَـةُ الآدابِ إِلاَّ شَقـاوَةٌ فَعَنْهـا الـذي يَهْـوىٰ السَّعـادَةَ يُقْلِـعُ
كَفـاكَ الغِنىٰ عـن أَنْ تكـونَ مُـوَقِّعـاً فَمـا ذو العَنـا والفَقْـرِ إِلاَّ المُـوَقِّـعُ

يُقَبِّلُ الأَرضَ المُتوالِيَةَ [٥٨ ب] الدِّيْمَةِ ، الغالِيَةَ القِيْمَةِ ، الزَّاكِيَةَ الشِّيْمَةِ ، الكافِيَةَ وَلِيَّها بِما تَسْمَحُ بِهِ من المِنَحِ أَنْ يَلْمَحَ البَرْقَ أَو يَشيمَهُ ، لا زالَتْ نِعَمُها لَها المَواهِبُ العَميمَةُ ، وهِمَمُها لَها الكَواكِبُ ضَميمَةً .

ويُنْهي ـ بَعد مُوالاةٍ صَحيحَةٍ صَميمَةٍ ، ومُتالاةِ مَديحِهِ الذي يَحْسُدُ المِسْكُ شَميمَهُ ، ومُغالاةٍ في ذِكْرِ مَحاسِنِهِ التي يُوالي إِلى كُلِّ سامِعٍ إِذا ذُكِرَ الخَليلُ تَحِيَّتَهُ وتَسْليمَهُ ـ وُرودَ المُشَرَّفِ العالي ، المُشَرِّفِ لِقَدْرِهِ ، المُسْعِفِ بِبَرِّهِ ، المُسَلِّفِ لِجَبْرِهِ ، المُوجِفِ[2] لِمَيْمونِ نَصْرِهِ ، المُنْصِفِ دُونَ أَهْلِ عَصْرِهِ ، المُتْحِفِ بالإِنْعامِ والجُودِ من شأمِ الوُجودِ لِمِصْرِهِ ؛ فَلَثَمَ آثارَ أَنامِلِهِ ، وغَنِمَ إِيْثارَ فَواضِلِهِ ، وَتَقَلَّدَ عُقودَ جَواهِرِهِ ، وَوَجَدَ سُعودَ زَواهِرِهِ ، وجَنىٰ يانِعَ ثَمَرِهِ واجْتَلىٰ طالِعَ قَمَرِهِ ، فَوَفَّرَ لهُ حِينَ عادَ بِجَميلِهِ أُنْساً ، وَذَكَرَ مَن كادَ لِخُمولِهِ يُنْسىٰ ، وَأَثْلَجَ بِصُدورِهِ صَدْراً وأَبْهَجَ نَفْساً ، وَعَرَّجَ علىٰ طَلَلٍ بالٍ أَثَّرَ فيه امْتِهانُ الزَّمانِ دَرْساً ، فَسَقىٰ هَتَّانُهُ غَرْساً ، وَوَقىٰ إِحْسانُهُ بَأْساً ، وانْتَقىٰ من نُطْقِهِ طِرْزاً بَديعاً فَأَوْدَعَهُ لِرِقِّهِ طِرْساً ، وَرَفَعَ المَملوكُ لَهُ بالابْتِهالِ خَمْساً ، وغَنِمَ منهُ الإِفْضالَ الذي أَلِفَ غَمْراً وغَرَفَ فِيهِ غَمْساً ، وَحَكَمَ لهُ الاتِّصالُ بالصَّلاحِ أَنْ يَفْضُلَ شِهابُهُ في غَزارَةِ الإِنارَةِ شَمْساً .

---

(١) اليَرمع : الخُذروف يلعبُ به الصِّبيان ، وحجارةٌ رخوةٌ إِذا فُتِّتت انفتّت . (القاموس) .
(٢) في ب ، س : المرجف .

ورأىٰ المَملوكُ ما اشْتَمَلَ عليهِ من بَدْأَةِ إِفْضالٍ ، وإِفاءَةِ ظِلالٍ ، وافْتِتاحٍ بإِجْمالٍ ، وإِنْجاحِ آمالٍ ، وشُمولٍ بإِحْسانٍ لا يُحْسِنُ شُكْرَ لَسَنِهِ اللِّسانُ ، وَمَقُولٍ من بَديعِ بَيانٍ ، تَعجزُ العُقولُ بمثلِهِ عن الإِتْيانِ ، وإِن تَعَدَّدَتِ الأَحْياءُ وتَجَدَّدَتِ الأَحْيانُ ؛ فإِذا هو قد كَساهُ من حُلَلِهِ ، وواساهُ بتَفَضُّلِهِ ، وَما تَناساهُ من تَطَوُّلِهِ ، وَبَجَّلَهُ أَوْصافاً ، جَمَّلَتْ لَهُ أَعْطافاً ، وخَوَّلَهُ إِسْعافاً ، يُدِيمُ بِهِ اعْتِداداً ولَهُ اعْتِرافاً ؛ فَجَلَّ إِنعامُهُ أَنْ يُكافىٰ ، واسْتَهَلَّ غَمامُهُ بِسُقيا الرَّحْمَةِ وَوَافىٰ ، وَدَلَّ نِظامُهُ على أَنَّ بَحْرَهُ لا يُهْدي الدُّرَّ إِلاَّ كِباراً ، ولا يُبْدي الجَوْهَرَ إِلاَّ شَفّافاً .

فَتَقَلَّدَ المَملوكُ صَنائِعَهُ ، وَخَلَّدَ بَدائِعَهُ ، وحَمِدَ اللهُ تَعالىٰ على أَن حَفِظَ به صِناعَةَ الأَدَبِ الضَّائِعَةَ ، (وَعَضَّدَ المُلْكَ بِسِهامِهِ النَّابلَةِ الرَّاشِقَةِ ، الصَّائِلَةِ الرَّائِعَة ،)[1] وَنَضَّدَ السِّلْكَ بِفَرائِدِ فَوائِدِهِ الشَّائِعَةِ ، التي تَأْتيها المَعاني الطّائِلَةُ وهيَ طائِعَةٌ .

فأَمَّا الشِّعْرُ : فما أَبو الطَّيِّبِ غَيْرَ عَرْفِهِ ، وما حَبيبٌ غَيْرَ لُطْفِهِ ، وما البُحْتُرِيُّ إِلاَّ قَصيرٌ عن وَصْفِهِ ، وما بَشَّارٌ إِلاَّ أَعمىٰ عن إِدْراكِ طُرَفِهِ بطَرْفِهِ (دُونَ حَتْفِهِ) ، وما ٱبْنا الهانِئَين[2] إِلاَّ كالوانِيَيْنِ من خَلْفِهِ ، وما جَريرٌ غيرُ أَسيرٍ في قَبْضَةِ كَفِّهِ ، وما الفَرَزْدَقُ وإِنْ طَبَّقَ شِعْرُهُ الأَرْضَ إِلاَّ عاجِزٌ عن إِدْراكِ شَأْوِهِ ولم يُوَفِّهِ .

وأَمَّا النَّثْرُ فَما ابنُ عَبَّادٍ إِلاَّ كَعَبْدِهِ ، وما الخَوارزميُّ إِلاَّ من بَعضِ جُنْدِهِ ، وما ابنُ خاقانَ إِلاَّ مُلْتَقِطٌ دُرَّ قَلائِدِهِ من عِقْدِهِ ، (وما ابن عَبْدِ رَبِّهِ إِلاَّ مُغْتَبِطٌ بِجَواهِرِهِ ، لِيَجْعَلَها زِينَةَ عِقْدِهِ ،)[1] وما عبدُ الحَميدِ إِلاَّ مُستفيدٌ في رِسالَتِهِ من

---

(١) ما بين قوسين ساقط من أ .

(٢) الحسن بن هاني (أبو نواس) ، وابن هانىء الأندلسي .

رُشْدِهِ ، وما عبدُ الرَّحيم الفاضِلُ إلاَّ مُتَزَيِّدٌ من رِفْدِهِ ، ناقِصٌ عن مَجْدِهِ .

وَأَمَّا اللُّغَةُ فما ابْنُ فارِسَ من فُرْسانِهِ ، وما الجَوهريُّ غيرَ بَيانِهِ ؛ [٥٩ أ] وما صاحِبُ المُحكَمِ[١] غيرَ إِتْقانِهِ ، وما النِّهايَةُ إلاَّ لإِحْسانِهِ ، وما الأَصْمَعِيُّ إِلاَّ دَعِيٌّ عندَ إِيْقانِهِ ، وما الصَّاغانيُّ إلاَّ ما صاغَهُ إِبْريزُ لِسانِهِ .

وَأَمَّا الحِفْظُ فما حمَّادٌ عندَ رِوايَتِهِ ، وما ابْنُ دُرَيْدٍ عندَ دِرايَتِهِ ، وما الخَليلُ سَمِيُّهُ إلاَّ مُتَخَلٍّ عن السُّمُوِّ لِغايَتِهِ ، وما السِّيرافيُّ إلاَّ سائِرٌ في نُورِ هِدايَتِهِ ، وما خَلَفٌ الأَحمرُ إلاَّ تَحْتَ بَيْضاءِ رايَتِهِ .

وأَمَّا التَّأْليفُ فَما لابْنِ رَشيقٍ عُمْدَةٌ على غَيْرِ مَقالِهِ ، ولا المَيْدانيُّ ذو الأَمْثالِ من أَمْثالِهِ ، ولا ابْنُ القَطَّاعِ إِلاَّ قاصِرٌ عن أَفْعالِهِ ، ولا ابْنُ حَمْدونَ إِلاَّ مُقْتَدٍ في تَذْكِرَتِهِ بِأَقْوالِهِ ، ولا العَسْكَرِيُّ إلاَّ مُنْهَزِمٌ من نِزالِهِ ، ولا النَّحَّاسُ إِلاَّ مُحْتَذٍ في صِناعَتِهِ بِتِمْثالِهِ ، ولا ابنُ مَضاءٍ إلاَّ واقِفٌ عندَ حِدَّةِ ذِهْنِهِ مُقِرٌّ بِكَلالِهِ .

وأَمَّا الكِتابَةُ فما ابْنُ هِلالٍ إلاَّ مُسْتَتِرٌ عندَ تَمامِهِ ، وما ابنُ مُقْلَةَ إلاَّ غاضٌّ بَصَرَهُ عن رِفْعَةِ مَقامِهِ ، وما الوَلِيُّ[٢] عند اسْتِرْسالِ خَطِّهِ وانْسِجامِهِ ، وما ابنُ العَديمِ[٣] عندَ وُجْدِهِ إلاَّ تابِعٌ لأَبيهِ في إِعْدامِهِ ، وما ابْنُ الشِّيرازيِّ[٤] أَهْلاً أَنْ يُوازي قُلامَةً من أَقْلامِهِ .

فَأَحْيا اللهُ تَعالىٰ مَولانا لِلأَدَبِ يُجَدِّدُ دائِرَهُ ، ويُوجِدُ مآثِرَهُ ، ويُنْجِدُ

---

(١) في أ ، ب ، س : وما صاحب الحكم ! والمثبت من م . وصاحب المُحكم : هو ابن سِيْدَه ، عليّ ابن إسماعيل النَّحويُّ اللُّغويُّ الأندلسيُّ المشهور توفي سنة ٤٥٨ هـ . (وفيات الأعيان ٣/ ٣٣٠) .

(٢) هو وليُّ الدِّين العجميُّ ، عليّ بن زنكي ، أخذ الخطّ المنسوب عن ياقوت المستعصمي ، وعنه أخذ عفيف الدِّين محمَّد الحلبي . (صبح الأعشى ٣/ ١٤) . ولعلّ الصّواب : وما الوليُّ [بوَلِيٍّ].

(٣) ابن العديم : الصَّاحب كمال الدِّين عمر بن أحمد بن أبي جرادة صاحب كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » . توفي سنة ٦٦٠ هـ . (الوافي بالوفيات ٢٢/ ٤٢١) .

(٤) لم أعرفه .

عاثِرَهُ ، ويُرْشِدُ ناظِمَهُ وناثِرَهُ ، ويَبَرُّ أَهْلَهُ ، ويُقِرُّ سَهْلَهُ ، ويُعْذِبُ نَهْلَهُ ، ويُذْهِبُ جَهْلَهُ ، ويُؤَلِّفُ جَمْعَهُ ، ويُسْلِفُ صُنْعَهُ ، ويُهَيِّىءُ نَفْعَهُ ، ويُبَوِّىءُ منهُ الرِّفْعَةَ .

ولا أَعْدَمَ أَصْحابَهُ سَحَّانَهُ[1] ، ولا أَفْقَدَ إِخْوانَهُ امْتِنانَهُ ، وَرأَىٰ له سَبْقَهُ ، وَرَعىٰ لَهُ حَقَّهُ ، فقد وَصَلَ في الفُرْقَةِ ، دُونَ الرُّفْقَةِ ، وَأَوْصَلَ رِفْقَهُ ، إِذ قَطَعَ الرِّفْقَةَ ؛ وَقَرَّبَ جَبْرَهُ علىٰ بُعْدِ الشُّقَّةِ ، فَأَذْهَبَ المَشَقَّةَ ، وأَبْقَىٰ بِرَّهُ الذي ما ضَرَّهُ معهُ مَن عَقَّهُ ، بل أَسْعَدَهُ بِما اسْتَعْبَدَهُ واسْتَرَقَّهُ .

وما يتركُ المَملوكُ المُواصَلَةَ بِخِدَمِهِ مع كلِّ بَريدٍ يَسيرُ ، والمُراسَلَةَ بِكَلِمِهِ لِيَلْتَمِسَ من نَحْوِهِ الإِفادَةَ ويَسْتَمِيرَ ، إِلاَّ تَخْفيفاً عن خاطِرِهِ الشَّريفِ من التَّثْقِيلِ ، وتَسويفاً بِأَيَّامِ البُعْدِ لَعَلَّ القُرْبَ يَكُونُ عن قليلٍ ، فَيُشاهِدَ ذاكَ المُحَيَّا[2] الجَميلَ ، ويُساعِدَ على سُبُوغِ التَّأْمِينِ وبُلوغِ التَّأْميلِ ، ويُعاضِدَ من كَرَمِ مَولانا الجَليلِ ، بِنِعَمِ الخَليلِ ، فَيُمْسي وقد أَقامَ بينَ أَهْلِ الشَّامِ في أَعَزِّ قَبيلٍ ، ويُصْبِحَ وما لاهْتِضامِ الأَيَّامِ عليهِ سَبيلٌ .

وفَهِمَ المَملوكُ الإِشارَةَ الكَريمَةَ ، إِلى إِحسانِ المَوالي السَّادَةِ كُتَّابِ الإِنْشاءِ الشَّريفِ بدمشقَ المَحروسَةَ ، حَمِدَ اللهُ صَنيعَهُمْ ، وأَيَّدَ جَميعَهُمْ ، وجَمَعَ في رُبوعِ العَلْيا شَمْلَهُمْ ، وسَمِعَ مَرْفوعَ الدُّعاءِ لَهُمْ ، فَالمَملوكُ يَسْأَلُ إِبْلاغَهُمْ سَلامَهُ ، والنِّيابَةَ عنهُ في شُكْرِ عَوارِفِهِمُ العامَّةَ ؛ واللهُ تَعالىٰ يَحْفَظُ بِطُولِ بَقائِهِ لِلأَدَبِ نِظامَهُ ، ويَلْحَظُ بِجَميلِ انْتِقائِهِ رُتَبَ الزَّعامَةِ فِيهِ والإِمامَةِ ، فَما عندَ نَقْدِهِ نَقْدُ أُسامَةَ ، أَمْ مَنْ قُدامَةُ قُدَّامَهُ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● وكتبتُ إِليهِ ، وقد سَيَّرَ إِليَّ يَطلبُ عَباءَةً سَوداءَ لِيَلْبَسَها ، تَواضُعاً منهُ ،

---

(١) في أ ، ب ، س : سحابه . والمثبت من م .

(٢) في ب : الوجه الجميل . وهما بمعنىٰ .

فَجهَّزْتُها إليهِ ، ومَعها هذِهِ الأَبْياتُ[1] : [من الكامل]

يـا سَيِّـداً مـا زَالَ يُـدْعَـىٰ سَيِّـداً ... حـازَ المَكـارِمَ والعُلـىٰ والسُّـؤْدَدا
شَـرَّفْتَنـي بِـأَوامِـرٍ دَأْبـي لَهـا ... مَهْمـا أَتَـىٰ مَـرْسُـومُهـا أَنْ أَسْجُـدا
وَطَلَبْـتَ بُشْتـاً أَسْـوداً مـن جِلَّـقٍ ... [٥٩ب]ولو اقْتَصَرْتَ لَبِسْتَ حَظِّي الأَسْوَدا
لُبْسُ العَبـاءَةِ والعُيـونُ قَـريـرَةٌ ... خَيْرٌ من الحُلَلِ الحَريرِ مع الرَّدىٰ
فَالْبَسْهُ فَضْفاضَ الذُّيولِ حَكىٰ الدُّجىٰ ... لَـوْنـاً فَـوَجْهُـكَ فَـوْقَـهُ بَـدْرٌ بَـدا

● **فكتبَ هو الجَوابَ إليَّ عن ذلكَ**[2] : [من الكامل]

حَيَّـا دِمَشْـقَ وَأَهْلَهـا غَيْـثُ النَّـدىٰ ... وسَقـىٰ مَعـاهِـدَهـا الحَيـا مُتَعَهِّـدا
دارٌ خَليـلُ الصِّـدْقِ سـاكِـنُ رَبْعِهـا ... مـا عَنْـهُ مِنِّـي بِـالـرِّضـىٰ أَنْ أُبْعَـدا
الفـاضِـلُ المُتَفَضِّـلُ الحَبْـرُ الـذي ... جَمَـعَ المَحـاسِـنَ كُلَّهـا فَتَفَـرَّدا
النَّـاظِـمُ العِقْـدَ الفَـريـدَ قَـرِيْضُـهُ ... والنَّـاثِـرُ الـدُّرَّ النَّفيـسَ مُنَضَّـدا
والكاتِبُ الحَسَناتِ في صُحُفٍ لَهُ ... بيْضٍ لَهـا اسْـوَدَّتْ وَجُـوهٌ لِلْعِـدىٰ
الصَّاحِبُ المَوْلىٰ الجَميلُ صِحابُهُ ... مُتَفَضِّـلاً مُتَطَـوِّلاً مُتَـوَدِّدا
وَصَلَتْ وُصِلْتَ إِلَيَّ مِنْكَ عَوارِفٌ ... قُـرْبـاً وَبُعْـداً بِـرُّهـا لَـنْ يُفْقَـدا
وأَتَـىٰ إِلَـيَّ البُشْـتُ مُقْتَـرِنـاً بِمـا ... لَكَ من يَدٍ بَيْضاءَ كَمْ وَهَبَتْ يَدا
صُـوفٌ بِـهِ لِـذَوِي الصَّفـاءِ تَلَفُّـعٌ ... شَعْـرٌ شِعـارُ مَـن اغْتَـدىٰ مُتَعَبِّـدا
قَـد جـاءَ من جِهَـةِ الصَّلاحِ فَحَبَّـذا ... هُـوَ مِـن لِبـاسِ تُقـىً بِـهِ قـد أَسْعَـدا
هـو حـالِـكٌ لَـوْنـاً كَلَحْـظِ أَغْيَـدٍ ... أَوْ مِثْـلِ حَظِّـي حِيـنَ أَمْسـىٰ أَسْـوَدا
قَـد قُمْـتُ فـي لَيْـلِ الشِّتـاءِ بِـهِ إِلـىٰ ... رَبِّ السَّمـا أَدْعـو لَـهُ مُتَهَجِّـدا[3]

---

(١) الأَبيات في أَعيان العصر .
(٢) القصيدة تنقص أَبياتاً في أَعيان العصر .
(٣) إِلى هنا في أَعيان العصر .

طَلَبي لَـهُ تَـرْكـاً لِـدُنْيـاهُـمْ لَهـا وَخَـرَجْـتُ عَنْهـا زاهِـداً مُتَجَـرِّدا
فَلِـمَ التَّعلُّـقُ بِـالحُطـامِ وأَهْلِـهِ وعَفـافُ نَفْسـي مـانِـعٌ أَنْ أَجْهَـدا
والأَمْسُ فاتَ وَلَيْسَ يَوْمي خالِداً لكِـنْ بِـوَعْـدِ اللهِ لـي ثِقَـةٌ غَـدا
فـاللهُ يُنْهِضُنـا لِنَعْمَـلَ صـالِحـاً واللهُ يُـوقِظُنـا لِـذا قَبْـلَ الـرَّدىٰ
واللهُ يَجْمَـعُ بـاقْتِـرابِـكَ شَمْـلَ مَـنْ يَغْـدُو لِمَـدْحِـكَ مُصْـدِراً أَو مُـورِدا

يُقَبِّلُ كذا ، التي ما زالَ يَأْوِي ظِلَّها ، ويَحْوي فَضْلَها ، ويَرْوي عَنها المَحاسِنَ جَميعَها والمَيامِنَ كُلَّها ، لا بَرِحَتْ تَهْمَعُ وَبْلَها ، وتَتَبَرَّعُ بالجُودِ لِمَن قَصَدَها وأَمَّلَها ، كَمَنْ وَرَدَها وحَلَّها .

ويُنْهي بعد أَدْعِيَةٍ تَصِلُ من أَبْوابِ الإِجابَةِ سُبُلَها ، وأَثْنِيَةٍ ما النَّدُّ نِدَّها ولا المِسْكُ مِثْلَها ، وُرودَ المُشَرَّفِ العالي على يَدِ مَولانا الشَّيخ بَهاءِ الدِّينِ أَبي حامِدٍ ، وَلَدِ سَيِّدنا ومَولانا قاضي القُضاةِ تَقيِّ الدِّين السُّبْكيّ ، أَعَزَّ اللهُ أَحْكامَهُ ، وَوَقىٰ الأَسْواءَ الأَصْلَ والفَرْعَ ، وَأَبْقىٰ[١] في يَدِ عَدْلِهِما زِمامَ الشَّرْعِ ، فَأَفضىٰ المَملوكُ إِليهِ بالقُبَلِ قَبْلَ أَنْ يَفُضَّهُ ، وَأَدَّىٰ من تكريرِ التَّكْريمِ فَرْضَهُ ، وتَسَلَّمَ المَملوكُ ما اقْتَرَنَ بِهِ من إِحْسانِهِ ، وَعَمَّتْ جَوارِحَهُ نِعَمُ مَولانا ، فقامَ عنها لابِساً السَّوادَ بالحَمْدِ خَطيبُ لِسانِهِ ؛ وما أَخَّرَ الجَوابَ عن وَقْتِهِ إِلاَّ لِشَواغِلِ أَفْكارِهِ ، بِتَواصُلِ أَكْدارِهِ ، وإِقْبالِ أَيّامِهِ بِإِقْحامِهِ وإِدْبارِهِ ، وقِلَّةِ أَنْصارِهِ ، وَذِلَّةِ إِقْتارِهِ[٢] ؛ ولكنَّ عِزَّةَ نَفْسِهِ مُسْتَنِدَةٌ إِلى اللهِ تَعالىٰ في إِقْلالِهِ وإِكْثارِهِ ، مُعْتَمِدَةٌ على اللهِ تَعالىٰ في أَهْوالِهِ وأَخْطارِهِ .

● **وكَتَبَ هو إِلَيَّ وقد طُلِبْتُ إِلى القاهِرَةِ المحروسَة في سنة ٧٤٥ :** [من المتقارب]

---

(١) في أ ، ب ، م : وأُلقيَ .
(٢) في ب : افتقاره .

خَليـلَ الصَّفـا مَـرْحَبـاً مَـرْحَبـا طَلَعَـتَ بِـأُفْـقِ العُـلا كَـوْكَبـا
وجِئْـتَ إِلـى مَلْجَـأِ القـاصِـدِيْـنَ علـيّ بـنِ يَحْيـىٰ الجَـزيـلِ الحِبـا
ومُنْجِـدِ هـذا الـوَرىٰ بـالسَّمـاحِ ومَـنْ لَـمْ يَـزَلْ غَـرْسُـهُ مُنْجِبـا
ومَـنْ أَسْلَـفَ الخَيْـرَ والمَكْـرُمـا تِ ومَـن شَـرَّفَ الـدَّهْـرَ والمَنْصِبـا
وحـافِـظِ أَسْـرارِ مَـولـى المُلـو كِ [٦٠ أ] يُـودِعُهـا صَـدْرَهُ الأَرْحَبـا
وتَجْـري الأُجـورُ بِـأَقْـلامِـهِ فَكَـمْ لِلكِـرامِ قَـدِ اسْتَكْتَبـا[1]
وَتَهْـزَأُ إِنْ جُـرِّدَتْ لِلْكِفـا حِ بِسُمْـرِ الـرِّمـاحِ وبِيْـضِ الظُّبـا[2]
ومَـن فـاقَ مَـنْ قَبْلَـهُ فـي الفَخـا رِ وصـارَ لِمَـنْ بَعْـدَهُ مُتْعِبـا
لَـهُ الـرُّتَـبُ البـاهِـراتُ العُلـىٰ لَـهُ الكُتُـبُ العـاطِـراتُ النَّبـا
وإِنْ جَهَّـزَ البُـرُدَ السَّـائِـرا تِ أَبـادَ العِـدىٰ مِقْنَبـاً مِقْنَبـا
وَسَطَّـرَ مِـن خَطِّـهِ فـي الطُّـرو سِ مـا عِنْـدَهُ ابـنُ هِـلالٍ هَبـا
وَقَـد مَـلأَ الصُّحْـفَ إِمْـلاؤُهُ لَطـائِـفَ كـم أَنْجَحَـتْ مَطْلَبـا
وأَعْجَـزَ إِبْـداعُـهُ القـائِلِيْـ ـنَ إِنْ هُـوَ أَوْجَـزَ أَوْ أَسْهَبـا
وبَحْـرُ العُلـومِ المُفيـدُ الصَّـوا بِ وطَـوْدُ الحُلـومِ إِذا مـا احْتَبىٰ[3]
فَعَليـاؤُهُ بَـزَغَـتْ مَشْـرِقـاً ونَعْمـاؤُهُ بَلَغَـتْ مَغْـرِبـا
ولِلنُّجْـحِ أَبْـوابُـهُ جُـرِّبَـتْ وإِنِّـي لَمِـنْ بَعْـضِ مَـنْ جَـرَّبَـا
وَصَيَّـرَنـي جُـودُهُ خـادِمـاً وأَمْطَـرَنـي جُـودُهُ صَيِّبـا
وخَيَّمْـتُ فـي رَبْـعِ مَـوْلـىٰ الكِـرا مِ ومَـن لِلـوَسـائِـلِ مـا خَيَّبـا
جَعَلْـتُ حَـوالَتَـهُ فِـي غَـدٍ علـى جَـدِّيَ المُصْطَفـىٰ المُجْتَبىٰ

---

(١) في أ ، م : ومجري . . . ×.
(٢) في ب : وتهتزّ . . . ×.
(٣) في م : . . . مفيد الصّواب ×.

وَأَدْعُــو لَــهُ إِنْ دَعَــوْتُ البَتُــو ... لَ أُمَّــاً وحَيْــدَرَةً لــي أَبــا

فَــدامَ غِيــاثــاً لأَهْــلِ الــزَّمــا ... نِ يُــرَتِّعُهُــمْ رَوْضَــهُ المُخْصِبــا[1]

أَأَعْلــىٰ الــوَرىٰ رُتْبَــةً فــي البَيــا ... نِ ومَــن لِلْبَــدائِــعِ قَــد رَتَّبــا

عَــلا بِلِقــائِــكَ شَــأْنُ الشَّــآ ... مِ وراعَ يَــراعُــكَ مــاضــي الشَّبــا[2]

لَــكَ الأَدَبُ الحُلْــوُ غَــضُّ الجَنــىٰ ... فَكَــمْ مَــرَّ بِــالسَّمْــعِ مُسْتَعْــذَبــا

وَأَبْــدَعْــتَ نَظْــمَ عُقُــودِ القَــريْـ ... ـضِ وأَبْــدَيْــتَ مَــذْهَبَــكَ المُــذْهَبا

رَقيــقُ الحَــواشــي أَنيــقُ الحُلــىٰ ... يُقــارِنُ مُــرْقِصُــهُ المُطْــرِبــا

فَمِنْــهُ مَطــالِــعُ تَحْــوِي النُّجــو ... مَ ومِنْــهُ المَــرابِــعُ تَــأْوِي الظِّبــا

وَنَضَّــدْتَ نَثْــراً كَــزَهْــرِ الــرِّيــا ... ضِ حــازَ حُلىٰ الحُسْــنِ مُسْتَــوْعِبا

بَــديــعُ الفُصــولِ صَنيــعُ المَقــو ... لِ يَسْتَعْمِــلُ الأَلْيَــقَ الأَنْسَبَــا

وَدُونَــكَ فــي العِلْــمِ مَــن أَلَّــفَ التْـ ... ـتَصــانِيْــفَ مِــنْ قَبْــلُ أَوْ هَــذَّبــا

فَــإِنَّ الخَليــلَ إِمــامُ الكَــلا ... مِ كَــمْ لِــلأَنــامِ بِــهِ دَرَّبــا

وَأَنْــتَ الجَــوادُ الــذي مــا كَبــا ... وَأَنْــتَ الحُســامُ الــذي مــا نَبــا

وقَــد خَطَبَتْــكَ لَهــا المَعْلُــوا ... تُ وحُــقَّ لِمِثْلِــكَ أَنْ يُخْطَبــا

وَعُــدْتَ إِلــى مِصْــرَ عَــوْدَ الــرَّبــا ... بِ حَــلَّ فــأَنْعَــشَ بِنْــتَ الــرُّبــا[3]

وآنَسْــتَ لمَّــا رَجَعْــتَ الــدِّيــا ... رَ وَجَمَّلْــتَ ذا البَلَــدَ الطَّيِّبــا

فَــأَلْبِــسْ يَــراعَــكَ ثَــوْبَ السَّــوا ... دِ ومُــرْهُ بِسَجْعِــكَ أَنْ يَخْطُبــا

وقَلِّــدْ تَقــالِيــدَكَ الفــاخِــرا ... تِ مَــن شَهِــدَ الــدَّسْتَ والمَــوْكِبا

وأَبْــدِ الغَــرائِــبَ مِمَّــا ابْتَكَــرْ ... تَ ولَيْــسَ بَــديعُــكَ مُسْتَغْــرَبــا

---

(١) في م : × . . . حوضه المخصبا .

(٢) في س : علا بمقامك . . . × . وفي م : علا بمقامك شأو . . . × .

(٣) في م : × . . . نبت الرُّبا .

بَـدائِـعُ مَـن حـازَهـا لـم يَـزَلْ بـإِبْـريـزِهـا تـائِهـاً مُعْجَبـا[1]
رَوائِـعُ كَـمْ أَبْهَجَـتْ واعِيـاً وكَـمْ نَهَجَـتْ مَهْيَعـاً أَصْـوَبـا[2]
كَطِيْـبِ الـزَّمـانِ وظِـلِّ الأَمـا نِ وَعَصْرِ الشَّباب وعَيْشِ الصِّبا[3]
فَـدُمْـتَ جَليـلاً بكُـلِّ البـلا دِ خَليـلاً إِلـى الخَلْـقِ قـد حُبِّبـا[4]
يُصـاحِبُهُـمْ مِنْـكَ خُلْـقٌ جَميـ ـلٌ ويَغْـدو احْتِـرامُـكَ مُسْتَصْحَبـا
تَعَلَّـمَ مِـنْ لُطْـفِ أَوْصـافِـكَ الْـ ـحِسـانِ فَـرَقَّ نَسيـمُ الصَّبـا
فَمُنْيَـةُ نَفْسـيَ هـذا الـدُّنُـوُّ وقُـرَّةُ عَيْنـيَ أَنْ تَقْـرَبـا[5]
وسـامِـحْ مُقِـلاً مُخِـلاً بِمـا عَلَيْـهِ لَـكَ الفَضْـلُ قَـد أَوْجَبـا

● **فكتبتُ أَنا إِليهِ الجَوابَ عن ذلك** : [من المتقارب]

أَسَيِّـدَنـا الفـاضِـلَ المُجْتَبـىٰ وَرَبَّ العُـلا والحِجـىٰ والحُبـا
وَمـن سـارَ بَيْـنَ الـوَرىٰ ذِكْـرُهُ فَطـابَ بِـرَيَّـاهُ نَشْـرُ الصَّبـا
ومَـنْ خَطُّـهُ مِثْـلُ زَهْـرِ الـدُّجـىٰ وإِنْ نَتَنـازَلْ فَـزَهْـرُ الـرُّبـا
وَمَـنْ زَفَّ لـي فَضْلُـهُ غـادَةً أَتَتْنـيَ مـن طِـرْسِـهِ فـي خِبـا
فَشَـرَّفَ قَـدْري وأَعْـلاهُ لـي إِلـىٰ أَنْ تَخَيَّلْتُـهُ كَـوْكَبـا
فَـأَهْـدىٰ السُّـرورَ إِلـى خـاطِـرِي وَجَـدَّدَ عِنْـديَ عَهْـدَ الصِّبـا
وأَغْـرَبَ عـن سُـؤْدَدٍ ظـاهِـرٍ ولَكِنَّـهُ فـي العُـلا أَغْـرَبـا
وَنَـزَّهَ طَـرْفـيَ فـي رَوْضَـةٍ سَقـاهـا الحَيـا غَيْثَـهُ صَيِّبـا
وَكَـمْ كَـفَّ عَنِّـيَ مـن مَهْلَـكٍ يَسُـوءُ وَنَـوَّلَنـي مَطْلَبـا

---

(١) سقط البيت من س .
(٢) في ب ، م : . . . . داعياً × . وفي م : × وكم نهجت منهجاً أَصوباً .
(٣) في م : بطيب الزّمان . . . × .
(٤) في م : فدمت خليلاً . . . × جليلاً . . . .
(٥) في م : فمنّيت نفسي . . . × .

فَلَوْ صاغَ قُسٌّ حُلىً مَدْحِهِ ... لَقَصَّرَ فِيهِ وَلَو أَطْنَبا
ولو سابَقَ البَرْقَ في حَلْبَةٍ ... تَخَلَّفَ مِنْ خَلْفِهِ أَوْكَبا
[٦٠ ب] تَرَفَّقْ بِمَنْ ذِهْنُهُ مُظْلِم ... ونُورُ بَدِيهَتِهِ قَد خَبا
فإنَّكَ أَصْبَحْتَ في غايَةٍ ... شُموسُ المَعالي لَدَيْها هَبا
وَعَبْدُكَ أَفْكارُهُ أَجْبَلَتْ ... وقد رابَ مِن هَمِّهِ ما رَبا
وعالَجَ خَمْسينَ عاماً مَضَتْ ... وما ذاقَ شُرْباً لَها طَيِّبا[١]
يُساقِيكَ فيها كُؤوسَ الوَفا ... ءِ شَرَّقَ في الأَرْضِ أَوْ غَرَّبا
ويَحْمِلُ فيكَ لِواءً غَدا ... يَراهُ الوَرىٰ بِالوَلا مُذْهَبا
لَكَ الحَسَبُ الطّاهِرُ المُنْتَقىٰ ... أَطَلَّ على المَدْحِ واسْتَوْعَبا
لَهُ صِلَةٌ بِنَبِيِّ الهُدىٰ ... فَيا حَبَّذا مِنْكَ هذا النَّبا
لَقد سادَ مَنْ أَصْلُهُ قَد عَلا ... وبَيْنَ السِّماكَيْنِ قَد طَنَّبا
وأَمَّا حُضُوري إِلى بابِ مَنْ ... سَما وعَلا في الوَرىٰ مَنْصِبا
فإنَّ السَّعادَةَ قد لاحَظَتْ ... وَحَظِّي أَتىٰ بَعْدَما قَدْ أَبىٰ
أَما تَنْظُرُ البِشْرَ في وَجْهِهِ ... وإِحْسانُهُ الجَمُّ لَنْ يُحْجَبا
وأَكْرَمَ نُزْلي بِإِفْضالِهِ ... وقَد قالَ لي جُودُهُ : مَرْحَبا
أَمينٌ علىٰ المُلْكِ في سِرِّهِ ... تَرُدُّ القَنا كُتْبُهُ والظُّبا[٢]
ويُخْجِلُ صَوْبَ الحَيا كَفُّهُ ... إذا جادَ رَوْضُ الحِمىٰ أَعْشَبا
لَقَد جَمَّلَ المُلْكَ تَدْبِيرُهُ ... وَسَهَّلَ بِالرَّأْيِ ما اسْتَصْعَبا
تَحُوطُ الأَقاليمَ أَقْلامُهُ ... وتَسْقي أَباطِحَها والرُّبا[٣]

---

(١) في م : × . . . أطيبا .
(٢) في س : . . . . في برّه × .
(٣) في م : تجوبُ الأَقاليم . . . × .

فَعُــذراً إذا فِكْــرَتــي قَصَّــرَتْ   وكــانَ جَــوابــي جَــوىً مُتْعَبــا
فــإِنِّــي بنَظْمــي أَلــوكُ الحَصــا   ونَظْمُــكَ عِنْــدَكَ كــالشَّــوْرَبــا[1]
بَقِيْــتَ مَــلاذاً لأَهْــلِ النُّهــىٰ   تَفُــلُّ لِخَطْــبِ الــرَّدىٰ مَضْــرِبــا

● **وكتبَ هو إليَّ وإلى القاضي بَدْرِ الدِّينِ حَسَن الغَزِّي ، وقد تَوَجَّهْنا لِتَلَقِّي الأَميرِ سَيْفِ الدِّينِ أَرْغون الكامِلِيّ لمَّا رُسِمَ لَهُ بِنيابَةِ الشَّامِ المحروسِ ؛ وكانَ السَّيِّدُ المُشارُ إليهِ قد حَضَرَ معهُ ، فكانَ المُلْتَقىٰ في حِمصَ المحروسَة ، وكُنَّا قَد نَزْلنا في المَيْدان ؛ والتَزَمَ حرفَ الميم :** [من البسيط]

كُتَّابَ جِلِّـقَ قَـد جَمَّلْتُـمُ حِمْصـا   وقَـد تَسَـرْبَلْتُـمُ حُسْـنَ الثَّنـا قُمْصـا
مِن ثَمْرِ رَوْضِكُمُ طَيْرُ النُّهىٰ الْتَقَطَتْ   عادَت بِطاناً وراحَتْ نَحوَكُمْ خُمْصا
نِعْــمَ الخَليــلُ تَــلاهُ رِفْعَــةً حَسَــنٌ   فَلَمْ يُطِقْ فَرْقَداً أُفْقُ السَّما غُمْصا
هُمـا رَضِيعـا لَبـانِ الفَضْـلِ لا فُطِمـا   فَكَمْ لِثُدِيِّ العُلا والعِلْمِ قَد مَصَّا[2]
وَنَيِّـرا مَطْلِـعَ الإِبْـداعِ كَـمْ بَهَـرَتْ   أَشِعَّــةٌ لَهُمــا مِــن مُقْلَــةٍ رَمْصــا

يُقَبِّلُ ويَلْثُمُ الأَرْضَ أَمامَهُم ، ويُقَدِّمُ الفَرْضَ إِمامُهُمْ ، ويُحْجِمُ عن لِقائِهِمْ حَيْثُ لا يَبْلُغُ مَقامُهُ مَقامَهُمُ ؛ ويُنْهي أَنَّهُ سُرَّ بِسَماعِ أَنْبائِهِم ، لو رَجا[3] أَنْ يَقَرَّ عَيْناً بِلأْلائِهِمْ ، لأَنَّهُ الصَّادِقُ في اعْتِقادِ وَلائِهِمْ ، النَّاطِقُ بِإِيْرادِ حَمْدِهِمْ وثَنائِهِم ؛ فَتَوَجَّهَ المَملوكُ إِلى سَعيدِ مَحَلِّهِم ، وأَوْجَهَ إِلى مَديْدِ ظِلِّهِم ، فاعْتراهُ سُوءُ الحَظِّ بالحِرْمانِ ، وأَراهُ العَجْزَ عن لَحاقِهِم أَنَّهُ لا يُدْرِكُ لَهُم غُباراً ، ولا يَلْحَقُ السَّوابِقَ في المَيْدانِ ، فاسْتَنابَ المَملوكُ هذِهِ الأَحْرُفَ ، لِتَسْعَدَ بِلِقائِهِم وتَشْرُفُ ، واللهُ تَعالىٰ يَجْمَعُ شَمْلَهُم ، ويُمْتِعُ الأَدَبَ بِمِثْلِهِم ، ولا أَعْرِفَ

---

(١) في أ ، م : × ونظمك عندي . . . .
(٢) في م : . . . لا عُدما × .
(٣) في م : ورجا .

مِثْلَهُم ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ .

● فكتبَ الجَوابَ إِليهِ المولىٰ بَدرُ الدِّينِ الغَزِّيّ : [من البسيط]

يا مَنْ بِأَجْمَلِ أَوْصافِ العُلا خُصَّا ... وعَنْهُ جُلُّ أَحادِيثِ النَّدىٰ قُصَّا
ومَنْ بِهِ حِمْصُ والدُّنْيا وساكِنُها ... عَلَتْ مَحَلاًّ ، فَمَنْ قَد جَمَّلُوا حِمْصا
أَنَلْتَ طارِفَ مَجْدٍ للتَّلِيدِ بِهِ ... زِيادَةً لَيْسَ يَخْشَىٰ بَعْدَها نَقْصا[1]
وطُلْتَ كُلَّ عليٍّ يا حُسَيْنُ فَطِرْ ... فَرْداً فَكُلُّ جَناحٍ عَنْكَ قد قُصَّا
وافْخَرْ بِجَدِّكَ والجَدِّ الشَّريفِ فَما ... تُقْصىٰ إِذا قُلْتَ في القُرْبىٰ ولا تُعْصىٰ
فَإِنَّ فَضْلَ رَسولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ ... حَدٌّ فَيُحْصَرَ في نَظْمٍ ولا يُحْصَىٰ[2]
وقد جَرَيْتَ على أُسْلوبِهِ فَأَقِمْ ... [٦١ أ] إِلَيْهِ وَجْهَكَ واقْصُصْ أَثْرَهُ قَصَّا

● وكتبتُ أَنا إِليهِ : [من الخفيف]

أَيُّها السَّيِّدُ الذي سَوَّدَتْهُ ... في البَرايا مَكارِمُ الأَخْلاقِ
والعَديمُ النَّظِيرِ في كُلِّ فَنٍّ ... فَغَدا سَيِّداً بالاسْتِحْقاقِ
لَم تُزَفَّ الدُّنْيا إِلَيْكَ عَروساً ... قَطُّ إِلاَّ قابَلْتَها بالطَّلاقِ
سُنَّةٌ سَنَّها أَبُوكُمْ عَلِيٌّ ... فِيكُمُ عُدَّةً لِيَوْمِ التَّلاقِ
فَتَعَطَّفْ على تَطَلُّعِ مِصْرٍ ... فَهْيَ في غايَةٍ مِنَ الأَشْواقِ
تَتَجَلَّىٰ لِناظِرَيْكَ عَرُوساً ... فارْتَشِفْ رِيقَ نِيلِها الرَّقْراقِ
وأْمُلِ ساحاتِها نِظاماً ونَثْراً ... في رِقابِ الأَيّامِ كالأَطْواقِ
أَنْتَ صَبٌّ في دَهْرِنا بالمَعالي ... والمَعالي قَليلَةُ العُشّاقِ
والذي قَد تَرَكْتَهُ عَنْكَ فانٍ ... والذي رُمْتَهُ مِنَ اللهِ باقِ

---

(١) في م : أَتيت . . . × .
(٢) في ب : × . . . . في حدٍّ ولا يحصىٰ .

● **فكتبَ هو الجَوابَ إليّ** : [من الخفيف]

يـا خَليـلَ الـوَفـا ويـا ذا الـوِفـاقِ ... لَـكَ حُسْـنُ الخِـلالِ والأَخْـلاقِ
والـذي لَفْظُـهُ فَـرائِـدُ عِقْيـا ... نِ فَمِنْـهُ قَـلائِـدُ الأَعْنـاقِ
وإِمـامُ الشَّـآمِ نَظْمـاً ونَثْـراً ... فـاقَ مَـن قَـد مَضـىٰ على الإِطْلاقِ
كـاتِـبٌ خـاطِـبٌ مُفيـدٌ مُجيـدٌ ... وبَـديـعُ المَنْطِـقِ الـوَسيـعِ النِّطـاقِ
لَـكَ فـي مِصْـرَ والشَّـآمِ أَيـادٍ ... مُـرْسِـلاتُ السَّحـابِ بِـالأَغْـداقِ
أَسْعَـدَتْنـي بِـالـرِّفْـقِ مِنْها ولـم يَبْـ ... ـرَحْ لَهـا الـرِّفْـقُ واصِـلاً بـالـرِّفـاقِ
لـم تَـزَلْ جـابِـراً بِفَضْلِـكَ قَلْبـاً ... حـامِـلاً عِـبْءَ الأَذَىٰ والفِـراقِ
لا تَلُمْني علىٰ نُزولي عن الشَّهْبا ... ءِ وتَـرْكـي السِّبـاقَ لِلسُّبّـاقِ
كُنْـتُ مع شَـرِّ مَعْشَـرٍ كَـم رَمَـوني ... شُلَّـتِ الأَيْـدي مِنْهُـمُ بـاخْتِـلاقِ
لَـم أَزَلْ مُـذْ جـاوَرْتُهُـمْ فـي شَقـاءٍ ... وعَنـاءٍ مُـلازِمٍ وشِقـاقِ
لو أَقامُوا بِمَغْرِبِ الشَّمْسِ كانَ الشْـ ... ـشَـرُّ مِنْهُـمْ يَعُـمُّ أَهْـلَ العِـراقِ
فَخَـروا بـالخَيْـلِ العِتـاقِ علـىٰ مَـنْ ... جَـدُّهُ كـانَ راكِبـاً لِلبُـراقِ
نَحْـنُ أَبْنـاءُ الطُّهْـرِ فـاطِمَـةَ الـزَّهْـ ... ـراءِ الكِـرامِ الأُصُـولِ والأَعْـراقِ
وعَلَـىٰ جَـدِّنـا تُسَلِّـمُ شَمْـسُ الْـ ... أُفْـقِ عِنْـدَ الغُـرُوبِ والإِشْـراقِ
وأَبُـونـا عَلِـيُّ بـنُ أَبـي طـا ... لِـبٍ مُـرْدي العِـدىٰ بِبَيْـضٍ رِقـاقِ

منها :

أَنـا مِـن سـادَةٍ كِـرامِ السَّجـايـا ... فـي العُـلا مـا لِسَبْقِهِـمْ مِـن لَحـاقِ
جَـدُّنـا ٱخْتـارَ دارَ أُخْـرىٰ علـىٰ دُنْـ ... ـيـا غُـروراً وراعَهـا بـالطَّـلاقِ
وهُمـا ضَـرَّتـان مـا ٱجْتَمَعـا عِنْـ ... ـدَ امْـرِىءٍ والخِيـارُ لِلحُـذّاقِ
فَعَلَيْنـا الـدُّنْيـا لَهـا الغَيْـظُ والحِقْـ ... ـدُ وأَجْـرُ الأُخْـرىٰ لَنـا الغَـدَ بـاقِ

● **وكتبَ هو عن الأمير سَيْفِ الدِّين أَرْغون الكامِليّ[1] ، نائِبِ السَّلطَنَةِ الشَّريفةِ بحلَب المحروسَة ، كِتاباً قَرين خَمسينَ غَزالاً جَهَّزَها من صَيْدِهِ إلى الأَميرِ سيف الدِّينِ أَيْتَمِش[2] نائِبِ السَّلطنةِ الشَّريفةِ بالشّام المحروسِ :**

يُقَبِّلُ الأَرضَ ، ويُنْهِي ـ بعد ابْتِهالِهِ بالأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ إلىٰ اللهِ تَعالى أَن يجعلَ أَعداءَهُ كَطَرائِدِ الصَّيْدِ ، ويُلقي حُسَّادَهُ في حَبائِلِ الكَيْدِ ، ويَرْمي شانِئَهُ بِمَرامي المَنايا ، ويَحْمي حِماهُ بالقُوَّةِ والأَيْدِ ـ أَنَّ المَملوكَ من جُملة أَوْلِيائِهِ المُنْتَمينَ ، وأَصْفِيائِهِ الذين ما زالوا باعْتِنائِهِ مُكَرَّمينَ ، فَيَتَعَيَّنُ عليهِ سُلوكُ سَبيلِ الخَدَمِ ، والتَّقَرُّبُ إلى الخاطِرِ الكريمِ بِعاداتِ الوسائِلِ والخِدَمِ .

وكانَ المَملوكُ قد تَوَجَّهَ في هذِهِ الأَيَّامِ إلى مَنْزِلَةِ الباب [٦١ ب] للإِشْرافِ على ما هُنالك مِمّا أَنْعَمَتْ بِهِ عليهِ الصَّدَقاتُ الشَّريفَةُ والكَريمَةُ من الخَيْلِ العِرابِ ؛ وَضَرَبَ المَملوكُ حَلَقَتَيْ صَيْدٍ على الآرامِ ، وظَفِرَ منها بِسَعادَةِ مَولانا بما رامَ ، وَجَهَّزَ المَملوكُ من بَعْضِها على سَبيلِ الأَرْمَغانِ[3] إلى المَطابِخِ السَّعيدَةِ خَمسينَ غَزالاً على يَدِ الوَلَدِ سَيْفِ الدِّين بَهادُر الزَّرْدكاش .

والمَملوكُ يَسأَلُ إِحْسانَ مَولانا العَميمَ في قَبُولِها ، وبَسْطَ العُذْرِ في قَليلِها ، جَبْراً لخاطِرِ المَملوكِ ، وبِرّاً لا يَزالُ يَسْلُكُ بِوَلِيِّهِ من مُوالاةِ الإِحْسانِ أَحْسَنَ سُلوكٍ ؛ وَاللهُ يُمْتِعُ بِبقائِهِ عَصائِبَ الإِسْلامِ ، ويُوقِعُ بِأَعْدائِهِ نَوائِبَ الانْتِقامِ ، ويُمْتِعُ بِكَفالَتِهِ العَلِيَّةِ الشَّأْنِ حِمىٰ الشَّامِ ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ (إِن شاءَ اللهُ تَعالىٰ) .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ عن ذلك :**

---

(١) ترجمته في الوافي بالوفيات ٨/ ٣٥٦ .

(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات ٩/ ٤٨٢ .

(٣) الأَرمغان : كلمة تُركيَّة ، تعني الهَديَّة .

يُقَبِّلُ الأَرْضَ بالمَقَرِّ الشَّريفِ السَّيْفيّ ، لا زالَتْ أَعادِيهِ كَأَشْلاءِ ما يَصيدُ ، وأَيادِيه تُعْجِزُ عن مُكافَأَتِها أَو مُكافَحَتِها المُلوكَ الصِّيْدَ ، ومَواضِيه المُرْهَفَةِ لا المُرَفَّهَةِ تُبيدُ بِها وُحوشَ البِيْدِ ؛ تَقْبيلاً يَنظمُ دُرَّهُ شِفاهاً ، ويُعْظِمُ بِهِ ثَغْراً وشِفاهاً .

ويُنْهي بَعد أَدْعِيَةٍ يَرْفَعُها إلى مَنْ يَعْرِفُها ، وأَثْنِيَةٍ يَصْرِفُها إلى مَنْ يُنَضِّدُ جَواهِرَها ويَرْصُفُها ؛ أَنَّ المِثالَ العالي ، أَعلاهُ اللهُ تَعالىٰ ، وَرَدَ علىٰ يَدِ المَجْلِسِ السَّامي الأَمير سَيْف الدِّين بَهادُر الزَّرْدَكاش مَملوكِ مَولانا أَعَزَّ اللهُ أَنْصارَهُ ، فبادَرَ إلى تَقْبيلِ تاجِهِ ، وهو اسْمُ مَولانا الكريمِ ، فإِنَّهُ أَحْسَنُ ما يُواجِهُ المُواجِهَ ، وَنَزَّهَ ناظِرَهُ في تلكَ السُّطورِ التي تَرَقْرَقَتْ مِياهُ بَلاغَتِها ، وَتَأَنَّقَتْ المَحاسِنُ في صِياغَتِها ، وَشَرَّفَ بذلكَ قَدْرَهُ ، وَشَنَّفَ سَمْعَهُ ، لِما أَوْدَعَ صَدَفُهُ دُرَّهُ ، وَوَصَلَ ما أَنْعَمَ بِهِ مَولانا من الهَدِيَّةِ وهي خَمْسونَ غَزالاً ، فرأَىٰ منها ما هالَهُ ، وشاهَدَ كُلاًّ منها وكَأَنَّهُ من حُسْنِهِ قَمَرُ هالَةٍ ، وَتَعَجَّبَ منهُ كونهُ أُصيبَ بِسِهامِ مَولانا ، وكم أُفْلِتَ من حِبالِهِ ، وتَحَقَّقَ أَنَّ كُلاًّ منها غَزالٌ ما طَلَعَتْ على مِثْلِهِ الغَزالَةُ ؛ فيا حُسْنَها من أَشْلاءٍ على وَجْهِ الثَّرىٰ طَريحَةٍ ، ويا صِحَّةَ ما وَجَدَتْهُ النَّفْسُ من اللَّذَّةِ لمَّا أَصْبَحَتْ جَريحَةً ، كم عَزَّ على غَيرِهِ مَرامُها ، وكم اطَّرَدَتْ في الفَلا آرامُها ، وكم فاخَرَتْ سَوادَ الدَّياجي بِأَحْداقِها ، وكم طاوَلَتِ النُّجومَ بِأَرْواقِها ، وكم نَشَرَتْ مُلاءَةَ غُبارٍ فَتَسَتَّرَتْ بِرُواقِها ، وكم مَضَغَتْ شِيْحاً ، وكم تَنَسَّمَتْ من أَرْضِ نَجْدٍ رِيْحاً ، وكم أَغارَتِ الغِيْدَ بِحُسْنِ المُلْتَفَتِ والجِيْدِ ، وكم مليحٍ[1] يَفوقُ البُدورَ ويَسودُ ، تَمَنَّىٰ ما حازَتْهُ دُونَهُ من العُيُونِ السُّودِ ، حتَّىٰ بَدَتْ لِها جِيادُ مَولانا المُسَوَّمَةُ ، وطَلائِعُ جُرْدِهِ المُطَهَّمَةِ ،

---

(١) « مليح » سقطت من أ ، م .

وسَبَقَتْ إِلَيْها سِهامُهُ المُقَوَّمَةُ ، وَحَنَّتْ إِليهِ حناياهُ المُعَظَّمَةُ ، فلم يُنْجِها من ذلكَ فِرارٌ ، ولا قَرَّ لَها معهُ قَرارٌ ، ولا خَبَّأَها في حُشاهُ نَقْعٌ مُثارٌ ، ولا رَدَّاها عِثْيَرُها[1] غيرَ رَدىً وعِثارٍ ، فَأَصْبَحَتْ كَأَعْدائِهِ الذينَ تَرَقَّىٰ إِليهم حَيْنُهُمْ وَتَرَقَّبَ ، وأَشْبَهَتْ عُيونُها الشَّاخِصَةُ حولَ خِبائِهِ وأَرْحُلِهِ الجَزْعَ الذي لم يُثَقَّبْ[2] ، ولقد جاءَ بها دُرّاً بَهادُرُ المذكورُ ، ورُصِفَتْ حَبَّاتُها علىٰ الثَّرىٰ ، ونَظْمُ حَياتِها مَنْثورٌ ، فَيا حُسْنَها لمَّا تكَرَّعَتْ وَتَجَوَّفَتْ ، وانْتَصَبَتْ على عُيونِها أَلِفاتُ قُرونِها التي تكَوَّفَتْ ، ورَقَّتْ لِمَصْرَعِها في أَوْبارِها قُلوبُ الطَّائِفَةِ التي تَصَوَّفَتْ ، فلقد فَتَحَ مَولانا [٦٢ أ] عليها من البابِ ، ما يَشْهَدُ لَهُ ذَوو الأَلْبابِ ؛ إِنَّهُ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ من مَولانا وظاهِرُهُ من قِبَلِهِ بِسِهامِهِ العَذابُ ، وقد قابَلَ المَملوكُ هذهِ الأَيادِي المُغْدِقَةَ ، والغَوادي المُغْرِقَةَ ، بِشُكْرٍ يَتَّصِلُ سَنَدُهُ ، ويَصِحُّ مَتْنُهُ ، ويَقومُ أَوَدُهُ .

واللهُ يُوزِعُ المَملوكَ شُكْرَ هذِهِ العَوارِفِ التي شَغَلَتِ الجَوارِحَ ، بوَصْفِ هذِهِ الظِّباءِ السَّوانِحِ ، وَأَكَّدَتِ المَوَدَّةُ القَديمَةَ ، والمَحَبَّةَ المُقيمَةَ ، فَمَلأَتْ بالإِخْلاصِ مِضْمارَ الضَّمائِرِ وَجَوّ[3] الجَوانِحِ ؛ وقد أَعادَ المَملوكُ سَيْفُ الدِّينِ بَهادُر بهذِهِ العُبوديَّةِ بعدَما حَمَلَهُ من السَّلامِ ، ما يُقَصُّ على السَّمْعِ الكَريمِ سُطورُهُ ، ومنَ الثَّناءِ ما تَتَضَوَّأُ بُدُورُهُ وَيَتَضَوَّعُ مَنْثُورُهُ ، ومن الدُّعاءِ ما يَرْفَعُهُ في اللَّيْلِ العاتِمِ ، ومن تَقْبيلِ الأَرْضِ ما يَتَشَرَّفُ بِهِ اللَّاثِمُ ، فَيَتَصَدَّقُ مَولانا بالإِصْغاءِ إِلى ما يُنْهِيهِ إِلى مَسامِعِهِ الكَريمةِ ؛ واللهُ تعالىَ يَجْعَلُ السُّعودَ لَهُ أَيْنَما تَوَجَّهَ خَدِيْمَهُ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

---

(١) العِثْيَرُ : التُّراب والعجاج . (القاموس) .

(٢) من قول امرىء القيس : [وقد مضى]

كأَنَّ عيونَ الوحشِ حولَ خِبائنا ... وأَرحلنا الجزعُ الذي لم يثقبِ

(٣) « جوّ » سقطت من أ ، م .

حَرْفُ الخاءِ

٣٥ * خالد بن إسماعيل بن محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن أحمد ابن خالد ابن نَصْر[1] :

القاضي الرَّئيس ، شَرَفُ الدِّين بن القاضي عِمادِ الدِّين بن القاضي شَرَفِ الدِّين بن الصَّاحِبِ فَتْح الدِّين ابن القَيْسرانيّ ، مُوَقِّعُ الدَّسْتِ الشَّريفِ بِالشَّامِ المحروسِ .

● **كتبتُ أَنا إليهِ من الدِّيارِ المِصْريَّةِ المحروسَة أُعَزِّيهِ في وَلَدِهِ محمَّد ، في سنة ٧٣٢ :** [من الطويل]

أَيا شَرَفَ الدِّيْنِ الذي لم تَزَلْ لَنا ... مَـآثِـرُهُ تَـأْتـي بِمَجْـدٍ مُجَـدَّدِ
مَضىٰ ٱبْنُكَ فاصْبِرْ لِلزَّمانِ علىٰ الرَّدىٰ ... فَمِـنْ قَبْلُ عُزِّي خالِـدٌ فـي مُحَمَّـدِ
تَجَـرَّدَ مِـن ثَـوْبِ الحَيـاةِ وَمـا أَتـىٰ ... بِـوِزْرٍ فَـوَلَّـىٰ طـاهِـراً بِـالتَّجَـرُّدِ
وقَـد سـارَ عَـن دارِ المَفَـرِّ نَـزاهَـةً ... وصـارَ إِلـى دارِ المَقَـرِّ المُـؤَبَّـدِ
ومـا كـانَ إلاَّ كَـوْكَبـاً مُتَـوَقِّـداً ... فَـأَخْمَـدَ مِنْـهُ المَـوْتُ نُـورَ التَّـوقُّـدِ
تَصَبَّـرْ فَـإِنَّ المُخْلِصيـنَ لَـكَ الـوَلا ... «يَقولونَ: لا تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَلَّدِ»[2]

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/٣٠٨ وذيول العبر ٣٢٢ ووفيات ابن رافع ١/٣٤٩ والمنتقىٰ من درّة الأسلاك ٣١٥ وتعريف ذوي العلا ١١٧ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/١٣٧ والنجوم الزّاهرة ١٠/٣٢٨ والمنهل الصافي ٥/١٩٩ والدليل الشافي ١/٢٨٣ .
ـ وفاته سنة ٧٥٩ هـ . عن نيّف وخمسين سنةً .
ـ في أ ، م : خالد بن سعيد ! ! .

(٢) العجز مضمّن من بيت طرفة بن العبد : [ديوانه ٦]
وقـوفـاً بهـا صحبـي علـيَّ مَطِيُّهـم ... يقـولـون : لا تهلـكْ أَسـىً وتَجَلَّـدَ

وإنْ كُنْتَ مَعْذُوراً علىٰ النَّوْحِ والبُكا فَما ضَرَّ أَنْ تَغْدو بِصَبْرِكَ نَقْتَدي
وإنْ شِئْتَ إِسْعافاً علىٰ الوَجْدِ والأَسَىٰ فَكَمْ مُسْعِفٍ تَلْقاهُ مِنّا ومُسْعِدِ
إِذا كُنْتَ تَبْقىٰ فالبَنُونُ كَثيرَةٌ تَجِيءُ نُجوماً طالِعاتٍ بِأَسْعُدِ
فَلا تَحْسَبِ الأَقْمارَ خَلْقاً كَثيرَةً فَجُمْلَتُها مِنْ نَيِّرٍ مُتَرَدِّدِ

يُقَبِّلُ الأَرضَ ، لا طَرَقَتْ لَها الخُطُوبُ ساحَةً ، ولا مَدَّ الزَّمانُ إِليها يَداً بغَيْرِ يَدٍ ، ولا راحَةً بغيرِ راحَةٍ ؛ ويُنْهي ما بَلَغَهُ من وَفاةِ الوَلَدِ محمَّد ، رَزَقَ مَوْلانا الصَّبْرَ في رَزِيَّتِهِ ، ولا أَعْدَمَهُ وثَباتِ التَّجَلُّدِ والثَّباتِ على بَلِيَّتِهِ ، فَزادَ ما عِنْدَ المَملوكِ من فِراقِ مَولانا وأَخيهِ لَواعِجَ لا يَقْدِرُ الصَّبْرُ أَنْ يُعالِجَها ، وَسَدَّ الهَمُّ عن النَّفْسِ نَسَماتِ الأَرْواحِ ومَخارِجَها ، وَحَمَلَ المَملوكُ من هَمِّ مَولانا مَا يَعْجَزُ عن شَرْحِهِ ، وَيَتَعَذَّرُ على الزَّمانِ طِبُّ جُرْحِهِ ، وَما أَحَقَّ الذَّاهِبَ بأَنْ يُنْشَدَ[1] : [من الطويل]

فإِنْ تَكُ في قَبْرٍ فَإِنَّكَ في الحَشا وإِنْ تَكُ طِفْلاً فالأَسىٰ لَيْسَ بِالطِّفْلِ
ومِثْلُكَ لا يُبْكَىٰ علىٰ قَدْرِ سِنِّهِ ولكنْ على قَدْرِ المَخِيْلَةِ والفَضْلِ

فَثَبَّتَ اللهُ قَلْبَ مَولانا بِصَبْرِهِ الجَميلِ ، ولا جَعلَ لِلرَّزايا عليهِ بعدَها مُنْعَرَجَ طَريقٍ ولا هِدايَةَ سَبيلٍ، وفي بَقائِكَ ما يُسْلي عن الحَزَنِ، فَما يُظْلِمُ أُفُقُ المَعالي إِذا هَوىٰ كَوْكَبُهُ ، وفيهِ مِنْكُم شُموسٌ وأَقمارٌ ، ولا يُوحِشُ السَّاري مع وُجودِ وُجوهِكُم المُشْرِقَةِ إِذا غابَ كَوْكَبُ سَحَرِهِ ، فَكَواكِبُ السَّحَرِ قَصيرَةُ الأَعْمارِ ، [٦٢ ب] ولا يَتَعَطَّلُ روضُ المَجْدِ إِذا ذَوَتْ منهُ زَهْرَةٌ ، وفيهِ منكُم غُصونٌ لَها بالمَحامِدِ مِنْكُم أَزْهارٌ وأَثْمارٌ ، ولا يَشْغَلِ النَّدامىٰ هذِهِ النَّازِلَةُ وعِندهُم من حُلومِكُم وثَباتِكُمْ أَحاديثٌ وأَسْمارٌ ؛ على أَنَّ هذِهِ كَأْسٌ لا بُدَّ من شُرْبِها ، وإِنَّما يُعَجِّلُ السَّاقي على بعضٍ دُونَ بَعْضٍ، وهذِهِ النُّفوسُ جَواهِرُ شَريفَةٌ، وإِنَّما

---

(١) البيتان للمتنبي ، في ديوانه ٣/ ٤٤ .

أَصْدافُها التي تُودَعُ في بُطُونِ الأَرضِ ، ولله (درُّ) القائِلِ : [من السريع]

النَّـاسُ لِلْمَـوْتِ كَخَيْـلِ الطِّـرادْ   فَـالسَّـابِـقُ السَّـابِـقُ مِنْهـا الجِيـادْ
والمَـوْتُ نَقَّـادٌ علـىٰ كَفِّـهِ   جَـواهِـرٌ يَخْتـارُ مِنْهـا الجِيـادْ[1]

واللهُ تعالىٰ ـ يُمْتِعُ الوُجُودَ بعدَ الذَّاهِبِ من جَدَّيْه بِشَمْسِهِ وعِمادِهِ ، ويَجعلُهُ لكلٍّ منهما فَرَطاً وذُخْراً يومَ بَعْثِهِ ومَعادِهِ ، ويَربطُ بالصَّبْرِ الجَميلِ على قَلْبِ مَولانا الذي عَدِمَ ثَمَرَهُ فُؤادِهِ ، ولا يُذيقُهُ بعدَها حُرْقَةً يَنْشُرُ الطِّرْسُ ذَوائِبَ سُطورِهِ ، ويَلبسُ القَلَمُ لها حِدادَ مِدادِهِ ؛ ومَولانا في دَعَةِ اللهِ وحِفْظِ الحَريزَيْنِ ، وعَيْنُ اللهِ علىٰ وَلَدَيْهِ[2] العَزيزينِ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ، إِن شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

٣٦ * الخَضِرُ بن محمَّد بن الخَضِر بن عبدِ الرَّحمن بن سُليمان بن عليّ[3] :

القاضي زَيْنُ الدِّينِ بن القاضي تاجِ الدِّينِ بن زَيْنِ الدِّين بن جَمال الدِّين بن عَلَمِ الدِّين بن نُورِ الدِّين ، المعروفُ بابْنِ الزَّيْنِ خَضِرِ ، مُوَقِّعُ الدَّسْتِ الشَّريفِ بالقاهرَةِ المحروسَة .

● **كتبَ هو إِليَّ لمَّا طُلِبْتُ إلى الدِّيارِ المِصريةِ [4]في الأَيَّام الصَّالِحِيَّة إِسماعيل ، سنة ٧٤٥ وذلك[4] بعدما تَفضَّلَ المَوالي السَّادَة المُوَقِّعونَ ، وكتبَ كلٌّ منهم إِليَّ شعْراً هَناءً بِقُدومي عَليهِم[5] :** [من الطويل]

---

(١) في س : × جواهر يأخذ منها الجياد . والبيتان لابن النبيه المصري ، في ديوانه ١٠٤ ـ ١٠٥ .
(٢) في ب : وعين الله ناظرةٌ إلى ولديه . . .
(٣) ترجمته في : أعيان العصر ٢/ ٣١٤ والوافي بالوفيات ١٣/ ٣٤٠ وذيول العبر ٣٠٨ والدّرر الكامنة ٢/ ٨٤ والمقفى الكبير ٣/ ٧٥٨ ، والنجوم الزّاهرة ١٠/ ٣٢١ والمنهل الصافي ٥/ ٢٢٥ والدليل الشافي ١/ ٢٨٨ .
ـ مولده سنة ٧١٠ هـ . ووفاته سنة ٧٥٦ هـ .
(٤) ـ (٤) من س .
(٥) الأبيات في أعيان العصر والوافي .

تَـأَخَّـرْتُ فـي مَـدْحـي لأَنِّـي مُقَصِّـرٌ وَفَضْلُ صَلاحِ الدِّيْنِ ما زالَ يَسْتُرُ
خَليــلٌ لَــهُ الآدابُ حَقّــاً يَنــالُهــا جَليلٌ بِهِ الأَصْحابُ تَسْمُو وتَفْخَرُ
لَقَـدْ آنَـسَ الأَمْصـارَ لَمَّـا أَتـىٰ لَهـا وَأَوْحَـشَ رَبْـعَ الشَّـامِ إِذْ كـانَ يُقْفِـرُ
فَـلا شَهِـدَتْ عَيْنـايَ سـاعَـةَ بُعْـدِهِ ولا سَهِـدَتْ شَـوْقـاً إِليـهِ فَتَسْهَـرُ
ودامَ عَلِـيَّ القَـدْرِ يَرْقـىٰ إِلـى العُـلا مَحــامِــدُهُ بَيْــنَ الأَنــامِ تُسَطَّــرُ

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ**(١) : [من الطويل]

تَفَضَّلْـتَ زَيْـنَ الـدِّيْـنِ إِذْ أَنْـتَ أَكْبَـرُ وأَشْرَفُ مِنْ مَدْحٍ بِهِ العَبْدُ يُذْكَرُ
فَشَرَّفْتَ قَدْري حِينَ شَنَّفْتَ مَسْمَعي فَيا مَنْ رَأَىٰ شِعْراً علىٰ الدُّرِّ يَفْخَرُ
فَمـا هـو شِعْـرٌ يَحْصُـرُ الـوَزْنُ لَفْظَـهُ ولكنَّــهُ شَــيْءٌ مــن السِّحْــرِ يُــؤْثَــرُ
يَجــوزُ بِــلا إِذْنٍ علــىٰ الأُذْنِ خِفَّــةً كَــأَنَّ الــزُّلالَ العَــذْبَ منــهُ يُفَجَّــرُ
فَهــا أَنــا منــهُ فــي نَعيــمٍ مُخَلَّــدٍ وعَيْشي بخضرٍ في رُبا مِصْرَ أَخْضَرُ(٢)

● **وكتبَ هو إِليَّ مُلْغِزاً في « قُطن »**(٣) :

يا سَيِّدَ العُلماءِ والبُلَغاءِ ، وقُدْوَةَ الكُتَّابِ والأُدَباءِ ، ما اسْمٌ أَوَّلُ سُورَتَيْنِ من القُرْآنِ ، وَحَرْفٌ من أَوَّلِ سُورَةٍ أُخْرىٰ(٤) ، وهو ثلاثَةُ أَحْرُفٍ ، وتَلْقاهُ ثَمانياً إِذا أُفْرِدَتْ مَجموعُهُ سِرّاً وَجَهْراً(٥) ، أَوَّلُ حُروفِهِ يُنْسَبُ إِليهِ أَحَدُ الجِبالِ(٦) ، وآخِرُها قَسَماً لا يَزالُ(٧) ؛ إِنْ حَذَفْتَ أَوَّلَهُ وصَحَّفْتَ ثانِيهِ فهو « ظَنٌّ » حَقيقتُهُ

---

(١) الأَبيات في أَعيان العصر والوافي .
(٢) سقط البيت من أ ، م .
(٣) النص في أَعيان العصر والوافي .
(٤) سورة « قَ » وسورة « نَ » وسورة « طه » .
(٥) يريد قاف = ٣ وطاء = ٢ ونون = ٣ . فالمجموع ثمانية بحساب الجُمَّل .
(٦) جبل قاف بزعمهم .
(٧) يريد : ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ .

الآمالُ ، أَو صَحَّفْتَ جُمْلَتَهُ كانَ وَصْفَ مُؤْمِنٍ يَجْري على هذا المِنْوالِ[1] ، أَو حَذَفْتَ أَوْسَطَهُ مع التَّحْريفِ كانَ عَبْداً لا يُعْتَقُ[2] ، أَو حَذَفْتَ آخِرَهُ مع بَقاءِ التَّحْريفِ كانَ حَيواناً يَسْرِقُ ولا يُسْرَقُ ، وَيَأْنَسُ ويَنْفُرُ ويُقَيَّدُ بالإِحْسانِ وهو مُطْلَقٌ ، يَطوفُ بالبَيْتِ ، وَيَأْوي في المَنازِلِ إِلىٰ الحَيِّ والمَيْتِ ، ولا يُباعُ ولا يُشْتَرىٰ[3] ، وعنهُ[4] المجازُ حَقيقةً يبلغُ قيمةً تُماثِلُ جَوْهراً ، وإِنْ أَبْقَيْتَ هذا الاسْمَ على حالَتِهِ فَهو شَيْءٌ لا يَسْتَغْني عنهُ مَسجدٌ ولا جامِعٌ ، ولا بِيَعٌ ولا صَوامِعُ ، ولا مُسْلِمٌ ولا كافِرٌ ، ولا قاطِنٌ ولا مُسافِرٌ ، ولا غَنِيٌّ ولا فقيرٌ صابرٌ ، ولا قَوِيٌّ [٦٣ أ] ولا ضَعيفٌ ، ولا مَشْرُوفٌ ولا شَريفٌ ، ولا خائِنٌ وَلا مَأْمونٌ ، ولا حَيٌّ ولا مَن سُقِيَ بِكَأْسِ المَنُونِ ، ومع ذلكَ فهو جَليلٌ حَقيرٌ ، قَليلٌ كَثيرٌ ، يَمْلِكُهُ المالِكُ والمَملوكُ ، والمَلِيُّ والصُّعْلوكُ ، وهو شيءٌ مُمْتَهَنٌ ، ويَعْلُو على رُؤوسِ الأُمَراءِ والوُزَراءِ والمُلوكِ ، قَليلُهُ[5] بالتَّحريفِ فِعْلٌ مَضىٰ ، واسْمٌ إِذا نُطِقَ بِهِ قَد يُرْتَضىٰ ، وهو قد يَبْدو بِهِ النُّور في الدَّياجي ، وعندَ الصَّباحِ يَنقطعُ منهُ أَمَلُ الرَّاجي ، لا يَسْتَغْني بَيْتٌ عنهُ ولا بُقْعَةٌ ، ومع ذلك يُباعُ بِفَلْسٍ ودِيْنارٍ وفوقَ ذلكَ في الرِّفْعَةِ ، وهو بَيِّنٌ واضِحٌ ، فاحْلُلْهُ بِمِيْزانِ عَقْلِكَ الرَّاجِحِ ، إِن شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **فكتبتُ أَنا الجوابَ عنهُ[6] :**

وَقَفَ المَملوكُ على هذا اللُّغْزِ العَجِيبِ ، والمُعَمَّىٰ الذي ما لَهُ في فَنِّه مُماثِلٌ ولا ضَريبٌ ، وعَجِبْتُ منهُ نَباتاً « نَطَقَ » مَعْكُوسُه ، وثُلثاه كِتابٌ تَزْدانُ

---

(١) يريد : فَطِنٌ .
(٢) يريد : قِنٌّ = عبدٌ .
(٣) يريد : قطّ .
(٤) في ب : عينه .
(٥) كذا في أ ، ب ، س ! والصواب : قلبه ، كما في الوافي . وقلبُه : نَطَقَ .
(٦) الجواب في أعيان العصر .

بسُطُورِهِ طُروسُهُ ؛ أَوَّلُهُ يُضافُ إِليهِ أَكْبَرُ الجِبالِ ، ومَجموعُهُ مادَّةٌ للجِبالِ ، أَشْبَهُ بَياضاً بالثَّلْجِ ، ومَحبوبُهُ يَروقُ ويَحْسُنُ بالحَلْجِ ، قد خَفَّ على اللِّسانِ وَزْنُهُ ، وَأَعْجَبَ أَرْبابَ الأَمْوالِ ادِّخارُهُ وخَزْنُهُ ، كُلُّهُ نابتٌ في التُّرابِ ، وثُلُثُهُ سابحٌ في البَحْرِ لا يُسْتَرابُ ؛ إِنْ جَعَلْتَ آخِرَهُ وَسَطاً كانَ فِعْلَ مَنِ انْقَطَعَ رَجاؤُهُ ، واتَّسَعَتْ بِهِ في اليَأْسِ أَرْجاؤُهُ(١) ، وإِن صَحَّفْتَ حُروفَهُ في هذِهِ الحالةِ أَتَتْكَ من الحَرِّ واقِدَةٌ ، وأَصْبَحَتِ العَجاجَةُ وهيَ في الجَوِّ عاقِدَةٌ(٢) ، وإِنْ صَحَّفْتَهُ أَيْضاً كانَ أَمَّةً من الأُمَمِ ، ولَيْسُوا من العَرَبِ إذا عُدُّوا ولا مِنَ العَجَمِ ، يُعَدُّ منهم فِرْعَوْنٌ وجُنودُهُ ، ولَنا فيهم نَسَبٌ وصِهْرٌ يَعِزُّ مُنْكِرُهُ وجَحودُهُ(٣) ، وإِنْ عَكَسْتَهُ في هذِهِ الحالَةِ كانَ آنِيَةً لا مَحالَةَ(٤) ؛ ولهذا اللُّغْزِ أَوْصافٌ أُخَرُ لم تُذْكَرْ ، ولم تُعْرَفْ بعدُ ولم تُنْكَرْ ، وأَضْرَبْتُ عَنها خَوْفَ الإِطالَةِ صَفْحاً ، وعَدَدْتُ هذا القَدْرَ رِبْحاً ، لأَنَّ مَولانا حَرَسَهُ اللهُ مَدَّ فِيهِ الأَطْنابَ ، واسْتَوْعَبَ أَوْصافَهُ بالإِسْهابِ والإِطْنابِ ؛ واللهُ يُديمُ حَياتَهُ لأَهْلِ الإِنْشاءِ ، ويَنْشُرُ مَحامِدَهُ بِلِسانِ الإِذاعَةِ والإِفْشاءِ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

٣٧ * خليل بن كَيْكَلْدي(٥) :

الإمامُ العَلاَّمَة ، المُتَفَنِّنُ ، جامِعُ أَشْتاتِ العُلومِ ، الشَّيخ صَلاحُ الدِّين ابن

---

(١) يريد : قَنط .
(٢) يريد : قيظ .
(٣) يريد : قِبط .
(٤) يريد : طبق .
(٥) ترجمته في : المعجم المختصّ ٩٢ ومعجم شيوخ الذّهبي ١/ ٢٢٣ وأَعيان العصر ٢/ ٣٢٨ والوافي بالوفيات ١٣/ ٤١٠ وذيول العبر ٣٣٥ ووفيات ابن رافع ١/ ٣٥٩ وذيول تذكرة الحفاظ ٤٣ و٣٦٠ وتذكرة النبيه ٣/ ٢٣٥ وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٢٣٩ والسبكي ١٠/ ٣٥ والبداية والنهاية ١٨/ ٦٠٠ ودرر العقود الفريدة ٢/ ٦٣ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ١٦٧ والدّرر الكامنة ٢/ ٩٠ والنجوم الزّاهرة ١٠/ ٣٣٧ والمنهل الصافي ٥/ ٢٨٢ والدليل الشافي ١/ ٢٩٣ والذيل التام ١/ ١٧٣ وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥٢٨ وطبقات المفسرين للدّاودي ١/ ١٦٥ والدارس ١/ ٦٣ ودرة الحجال ١/ ٢٥٨ وشذرات الذهب ٨/ ٣٢٧ والبدر الطالع ١/ ٢٤٥ .
ـ مولده سنة ٦٩٤ هـ . ووفاته سنة ٧٦١ هـ .

العَلائيّ ، مُدَرِّسُ الصَّلاحِيَّةِ بالقُدْسِ الشَّريفِ .

● **كتبَ إليَّ من القُدْسِ الشَّريفِ ، وأَنا يومئِذٍ بِصَفَد المحروسَة في سنة ٧٣٣**[١] **، فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ عن ذلكَ**[٢] : [من الطويل]

أَتـانِـي كِتـابٌ مـا ظَفِـرْتُ بِنِـدِّهِ ... لأَنَّ نَسِيْـمَ الـرَّوْضِ طـابَ بَنَـدِّهِ
وَحَـلَّ فَحَلَّـىٰ نـاظِـرَيَّ ومَسْمَعـي ... بلَفْـظٍ يَفُـوقُ الـدُّرَّ فـي نَظْـمِ عِقْـدِهِ
وأَهْـدىٰ إِلـى قَلْبـي هُـدُوّاً فَقَـدْتُـهُ ... وَأَطْفَـأَ مـن جَمْـرِ الحَشـا حَرَّ وَقْـدِهِ
وَما كُنْتُ أَرْجُو والحَشا تَلِفَتْ ظَماً ... علـىٰ بُخْـلِ دَهْـري أَنْ أَفـوزَ بِـوِرْدِهِ
فَقَبَّلْـتُ مـن شَـوْقـي شِفـاهَ طُروسِـهِ ... شِفـاهـاً فَـرَوَّىٰ غُلَّتـي طِيْـبُ بَـرْدِهِ
وَبـثُّ أُنـاجي فِيـهِ إِخْـلاصَ باطِنـي ... وأَتْلـو لِمـا قَـدْ ضَـمَّ سُـورَةَ حَمْـدِهِ
فإِنْ قُلْتُ رَوْضٌ كانَ في ذا مَحاسِنٌ ... سِوىٰ ما لِرَوْضِ الحَزْنِ من نَفْحِ وَرْدِهِ
وإِنْ قُلْـتُ أُفْـقٌ زادَ هـذا بِـأَنَّـهُ ... بِـهِ كُـلُّ نَجْـمٍ حَـلَّ فـي أَوْجِ سَعْـدِهِ
بَعَثْـتَ بِـهِ جَبْـراً لِكَسْـرٍ أَصـابَنـي ... ومـا كُـلُّ مَـوْلـىً يَشْتَهـي جَبْرَ عَبْـدِهِ
وَحَقَّقْـتُ أَنَّ الـوُدَّ مِنْـكَ مُـؤَكَّـدٌ ... جَزَىٰ اللهُ مَولانا على حُسْنِ قَصْدِهِ
أَقَمْتَ علىٰ عَهْدِ الصَّفاءِ ولم تَخُنْ ... [٦٣ ب] ومِثْلُكَ مَنْ يَرْعىٰ مَواثِيقَ عَهْدِهِ
جَفـانـي أَخِـلاَّئِـي الـذيـنَ أَلِفْتُهُـمْ ... وَأَنْـتَ خَليـلٌ سَـرَّنـي حِفْـظُ وُدِّهِ
إِلَيْكَ صَلاحَ الدِّيْنِ أُهْدي على النَّوىٰ ... تَحِيَّـةَ صَـبٍّ ضـاقَ صَـدْراً لِبُعْـدِهِ
فـإِنْ كـانَ يَلْقـاكَ النَّسيـمُ مُعَنْبَـراً ... فـإِنَّ سَـلامـي فِيـهِ فـاسْمَـحْ بِـرَدِّهِ

● **وكتبَ إِليَّ من القُدْسِ الشَّريفِ في سنة ٧٥٣** : [من الطويل]

سَـلامُ مَشُـوقٍ لا يَـزالُ مُـرَدَّداً ... يَضُـوعُ كَـرَوْضٍ نـاضِـرٍ طَلَّـهُ النَّـدىٰ

---

(١) في هامش أ : لم نجد ما كتبه .
(٢) القصيدة في الوافي .

يُضاهي ثُغورَ الغِيْدِ من أُقْحُوانِهِ تَبَسُّمُهُ والخَدُّ وَرْدٌ تَنَضَّدا
إذا ما بَكَتْ عَيْنُ السَّحابِ بِجَوِّهِ تَرىٰ الزَّهْرَ فِيهِ ضاحِكاً مُتَوَدِّدا[1]
بِهِ أَعْيُنٌ لِلنَّرْجِسِ الغَضِّ حَدَّقَتْ بِجَفْنٍ غَضيضٍ خِلْتَهُ راحَ أَرْمَدا
يَجُرُّ النَّسيمُ الرَّطْبُ فِيهِ ذُيولَهُ فَيَبْدُو بِهِ وَجْهُ الغَديرِ مُجَعَّدا
وتَشْدُو بِهِ الوُرْقُ الهَواتِفُ سَحْرَةً فَيَطْرَبُ غُصْنُ البانِ مِنْها تَأَوُّدا
علىٰ سَيِّدٍ أَرْبَتْ علىٰ ذا صِفاتُهُ فَأَضْحَىٰ بِها بَيْنَ الأَنامِ مُفَرَّدا
وَعَطَّرَ مِنْهُ الكَوْنُ أَنْفاسَهُ التي لَها المِسْكَ يَعْنو بالخُضوعِ تَعَبُّدا
وَطَوَّقَ جِيْدَ العَصْرِ مِنْهُ قَلائِداً لَدَيْها نَفيسُ الأَمْرِ أَصْبَحَ جَلْمَدا[2]
وَسارَ مَسِيْرَ الشَّمْسِ مِنْهُ فَضائِلٌ تُباري النُّجومَ الزَّاهِراتِ تَعَدُّدا
وزانَ بَني العَلْيا مَحاسِنُهُ الَّتي بِها راحَ في كُلِّ المَناقِبِ أَوْحَدا
تَحِيَّةَ مُشْتاقٍ يَوَدُّ لَو انَّهُ مَكانَ الذي خَطَّتْ يَداهُ فَيَسْعَدا
يُرَنِّحُهُ ذِكْراكُمُ كُلَّ ساعَةٍ علىٰ ما بِهِ من حَرِّ شَوْقٍ تَوَقَّدا
يَهِيمُ بِمَغْناكُمْ ويَصْبُو فُؤادُهُ لِمَغْناكُمُ والبُعْدُ قد زادَ في المَدىٰ
فَهَلْ تَسْمَحُ الأَقْدارُ يَوماً بِعَوْدَةٍ فأُصْبِحَ في تِلْكَ المَعالِمِ مُنْشِدا
أَعَيْنَيَّ نَاما طَالَ ما قَد سَهِرْتُما وذاكَ زَمانُ الوَصْلِ أَصْبَحَ مُبْعَدا[3]

يُقَبِّلُ الأَرْضَ مُتَمَسِّكاً من وَلائِهِ بِوَثيقِ العُرىٰ ، مُتَمَسِّكاً من ثَنائِهِ الذي لا يَزالُ الكَوْنُ منهُ مُعَنْبَراً ، مُتَشَوِّقاً لِلِقائِهِ الذي بالمُهَجِ يُسْتامُ وبالنُّفُوسِ يُشْتَرىٰ ، مُتَشَوِّفاً إلىٰ ما يَرِدُ من أَنْبائِهِ التي تَسُرُّ خَبَراً وتُحْمَدُ أَثَراً : [من الطويل]

لَهُ أَضْلُعٌ تُحْنىٰ علىٰ بُرَحائِهِ ويُنْشَرُ منها الرُّوْحُ إمَّا تَذَكَّرا

---

(١) في م : . . . عين السَّحائب نحوه × .
(٢) في س ، م : نفيس الدُّرّ . . .
(٣) في هامش أ : لعلَّه الهجر . أي بدل الوصل . وفي م : × وذاك زمان الهجر أَصبح مُسعدا !

يَهيـمُ غَـرامـاً بِـالنَّسيـمِ لأَنَّـهُ إذا هَبَّ من ذاكَ الجَنابِ تَعَطَّرا[1]

والْيَدَ الَّتي وَكَفَتْ بِوابِلِ جُودِها ، وكَفَتِ المُهِمَّ بِنَتائِجِ سُعودِها ، ومَناهِجِ صُعودِها ، وحاكَتِ السَّحابُ صَيِّبَ عِهادِها ، والجِبالُ الشُّمُّ وَثيقَ عُهودِها ، وحاكَتِ الوَشْيَ المَرْقُومَ ، وسَلَكَتِ الدُّرَّ المَنْظُومَ ، فَهذا يَرْفُلُ في حُلَلِها ، وهذا يَتَحَلَّىٰ بِعُقُودِها : [من الكامل]

فَهِيَ التي تَعْنو الـرِّيـاضُ لِـرَقْمِها وَيَغـارُ مِنْها الـدُّرُّ فـي تَنْضِيـدِهـا
ويَحـارُ أَرْبـابُ البَيـانِ لِنَظْمِهـا فَهُـمُ بِحَضْـرَتِهـا كَبَعْـضِ عَبِيْـدِهـا

ويُنْهِي ذِكْرَ تَلَهُّفِه لِنِيرانِ أَشْواقِهِ التي لَهَبَتْ ، وَتَأَسُّفِه على الأَيّامِ السّالِفَةِ مُذْهَبَةً في خِدْمَتِه لا ذَهَبَتْ ، وتَوَجُّعِه لِهذِهِ الأَزْمانِ التي اسْتَرْجَعَتْ بِالبُعْدِ عنهُ من ذَمائِه[2] ما وَهَبَتْ ، وَتَطَلُّعِه إلى ما يُشَنِّفُ بِهِ الأَسْماعَ من فَضائِلِه التي بها العُقُولُ سُلِبَتْ[3] والقُلوبُ نُهِبَتْ ؛ فَلا يَزالُ يَسْأَلُ الرُّواةَ عَنْها لِيَلْتَقِطَ مِنْها ، وَيَتَحَقَّقَ أَنَّ فَرائِدَها لا يَلْقَىٰ لَها نَظِيراً ولا يُدْرِكُ كُنْهاً ، وكيفَ لا ومِنْها يَتَعَلَّمُ الفاضِلُ[4] ، وإِلَيْها يَفْتَقِرُ السَّعيدُ[5] ، ولَها يَتُوقُ[6] حَبيبٌ ، وَلَدَيْها يَتَأَدَّبُ الوَلِيدُ ، وَعَنْها يَرْوي حَمّادٌ ، وعَلَيها يَعْتَمِدا ابنُ العَميدِ ، [٦٤ أ] ولا تَنْفَكُّ راقِيَةً في دَرَجِ المَزيدِ ، وعَبْدُ الحَميدِ عَبْدُ الحَميدِ .

هذا والعِلْمُ الكَريمُ مُحيطٌ بِصِدْقِ مَحَبَّةِ المَملوكِ وإِخْلاصِها ، وشِدَّةِ حِرْصِه علىٰ تَحْصِيلِ فَوائِدِ مَولانا واقْتِناصِها ، وَأَنَّهُ لا يَزالُ ذاكِراً لِمَحاسِنِه التي ليست

---

(١) في م : × . . . من ذاك الخباء . . .
(٢) في م : من ذمامه .
(٣) في م : هبلت .
(٤) القاضي الفاضل .
(٥) ابن سناء الملك .
(٦) في س ، م : ولها يتودَّدُ .

في غَيْرِهِ مَجموعَةً ، وَمُتَطَفِّلاً على ثِمارٍ من أَفْكارِهِ غيرِ مَقْطوعَةٍ ولا مَمْنُوعَةٍ ، والخاطِرُ الشَّريفُ وهو أَبو الصَّفا على الحَقيقَةِ يَشْهَدُ بذلكَ ، فَلا يَحتاجُ المَملوكُ منهُ إِلى بَيِّنَةٍ عندَ مَولانا المالِكِ ، وَقد حَمَلَهُ ما وُصِفَ علىٰ التَّهَجُّمِ بِمُعَمَّىً بَعَثَ بِهِ ، وَتَوَصَّلَ إِلىٰ الادِّكارِ بِهِ بِسَبَبِهِ ، سائِلاً من كَرَمِ شِيَمِهِ ، الإِغْضاءَ عن دَنِيءِ كَلِمِهِ ، والإِلْغاءَ لِعَثَراتِ لِسانِهِ ، والسِّتْرَ على هَفَواتِ قَلَمِهِ ، فإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِمُباراةٍ تُذْكَرُ ، ولا سَعىٰ في مَيْدانِ مُجاراةٍ تُشْهَرُ ، هَيْهاتَ ، واللهِ إِنَّ الشَّمْسَ لا يُضاهىٰ ، والبَدْرَ لا يُباهىٰ ، والبَحْرَ لا يُماثَلُ ، والسُّحُبَ لا تُساجَلُ ، وأَينَ سَعْيُ الضّالِعِ من رَكْضِ الفُرْسانِ ، وَعِيُّ باقِلٍ من بَلاغَةِ قُسٍّ وبَيانِ سَحْبان؟ ولِكُلِّ أَحَدٍ مَقامٌ يَقِفُ عندَ حَدِّهِ، وكفىٰ بِالمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يَتَعَدّىٰ عن حَدِّهِ، ولكنَّها نَفْثَةُ مَصْدورٍ غَلَبَهُ الشَّوْقُ فَقالَ، وبَغْتَةُ مَعْذورٍ حَمَلَهُ عَليها الإِدْلالُ[1] : [من الطويل]

وأَرْسَلْتُها حَصْباءَ تُرْبٍ بِحَزْنَةٍ ... إِلى أُفُقٍ فِيهِ النُّجومِ جَواري
فَأَلْقِ عَليها سِتْرَ مَعْروفِكَ الذي ... سَتَرْتَ بِها قِدْماً عَلَيَّ عُواري

على أَنَّهُ وإِنْ كانَ زَيْفاً عندَ النَّقْدِ ، وَضَيْفاً لا قِرىٰ له سِوىٰ الرَّدِّ ، وسُكَيْتاً في حَلْبَةِ الرِّهانِ ، وَمَدَراً فلا يُقاسُ باللُّؤلؤِ والمَرجانِ[2] : [من الطويل]

وما ضَرَّ ما يُهْدىٰ إِلَيْكُمْ فَإِنَّهُ ... على ثِقَةٍ بِالفَضْلِ لَيْسَ يَخيبُ
يَكونُ أُجاجاً دُونَكُمْ فإِذا انْتَهىٰ ... إِليكُمْ تَلَقّىٰ نَشْرَكُمْ فَيَطيبُ

واللهُ تَعالىٰ يُمْتِعُ الوُجودَ بِفَضائِلِ مَولانا ، التي سارَت وَسَرَّتْ ، وَوَصَلَتْ وَبَرَّتْ ، وَحَلَّتْ بالأَسْماعِ والقُلوبِ حينَ مَرَّتْ[3] ، وابْتَهَجَتْ بِها النُّفوسُ والعُيونُ ، فهذِهِ لَها أَقَرَّتْ وهذِهِ بِها قَرَّتْ ؛ وها هو :

---

(١) الثاني منهما لأَبي نواس ، في ديوانه ١/١٥٠ (فاغنر) . وروايته في م : × فأَسبلْ . وفوقها : صح . وفي الهامش : فأَلقِ . وفوقها : صح . إشارة إلى صحة الروايتين .
(٢) الثاني منهما للمجنون ، في ديوانه ٥٢ .
(٣) في س ، م : حيث مرَّت .

يا إماماً ثِمارُ عُلومِهِ يانِعَةٌ ، وَأَنْوارُ أَفْكارِهِ ساطِعَةٌ ، وفَضائِلُهُ وفَواضِلُهُ لِشَتاتِ المَحاسِنِ جامِعَةٌ ، وبِعُلُوِّ قَدْرِهِ علىٰ أَهْلِ عَصْرِهِ قاطِعَةٌ ، أَيُّ شَيْءٍ ذِي زَوْجَيْنِ ، تَقَرُّ العُيونُ بِتَصالُحِهِما ، وَتَقَرُّ النُّفُوسُ بِتَناكُحِهِما ، وتُقِرُّ العُقولُ بِعَدَمِ تَسافُحِها ، وَتَقَرُّ القُلوبُ من اسْتِيْلائِهِ عَليها ، وتَضيقُ الصُّدورُ عندَ انْتِسابِهِ إليها ؛ لا يُغادِرُ صَغيرَةً ولا كَبيرَةً إلاَّ أَحْصاها ، وَلا جَليلَةً ولا حَقيرَةً إلاَّ اسْتَوْلىٰ عَليها وَحَواها ، ولهُ وَلَدٌ يُعَدُّ من الصُّلَحاءِ الأَوْتادِ ، وإليهِ يَنْتَسِبُ من جِلَّةِ العُلَماءِ أَفْرادٌ ، وبِعَقْلِهِ يَثِقُ ذَوو الرَّأْيِ والسَّدادِ ، حافِظٌ أَمينٌ ، عاقِلٌ رَزينٌ ، وحاجِزٌ حَصينٌ ، مالِكٌ مَكينٌ ، حاكِمٌ لا يَميلُ ، مُحْكَمٌ ذِكْرُهُ في آيِ التَّنْزيلِ ، مُنْزَلٌ بِالقُدْرَةِ ، مُرْسَلٌ عندَ الفَتْرَةِ ، ثابِتٌ لا يَزولُ ، مُقيمٌ علىٰ عَهْدِهِ لا يَحُولُ ، يَظْهَرُ في أَجْمَلِ زِيْنَةٍ ، ويَجْلُبُ لِصاحِبِهِ الطُّمَأْنينَةَ ، لا يُخْفَرُ جارُهُ ، ولا يُجْهَلُ مِقْدارُهُ ، ولا تَخْفىٰ على مَرِّ الأَيَّامِ آثارُهُ ، [٦٤ ب] ورُبَّما تَعَسَّرَ في أَمْرِهِ ، ورُمِيَتِ النُّفُوسُ بِحَصْرِهِ ، ثُمَّ أَجابَ داعيهِ فَشَرَحَ من صَدْرِهِ .

إنْ عايَنْتَ لَفْظَهُ «فَقْل»[١] ما شِئْتَ في تَصْحِيفِهِ، وإِنْ عايَنْتَ شَخْصَهُ سَرَّكَ بِحُسْنِ تَرْصيفِهِ ، تَأْمُرُ بِهِ إذا ثانِيَهِ حَذَفْتَهُ[٢] ، أَو أَسْقَطْتَ أَوَّلَهُ وصَحَّفْتَهُ[٢] ، أَو خَصَصْتَ بِالحَذْفِ آخِرَهُ وحَرَّفْتَهُ ، وإِنْ عَكَسْتَهُ « لَفَق »[٣] أَعْذاراً لَكَ في عَكْسِهِ ، وبَرْهَنَ لِمَعانِيهِ علىٰ صِحَّةِ حَدْسِهِ ، ومنهُ جَبَلٌ لا تُطْرَقُ مَسالِكُهُ[٤] ، ونَوعٌ من الكِتابِ صَعُبَتْ مَدارِكُهُ ، وباقِيهِ مُرَخَّمٌ جاءَ ذِكْرُهُ في الأَثَرِ[٥] .

---

(١) فقل : تصحيفه : قُفل .

(٢) قفل = قُلْ .

(٣) لفق : عكسه : قفل .

(٤) جبل قاف بزعمهم .

(٥) فُل : ترخيم فلان .

وإنْ ثقَّلْتَهُ كانَ وَصْفاً لِعَزْمٍ فتَرَ ، وَجَمْعِ انْتَثَرَ[1] ، تتزَيَّنُ بِهِ الأَبْكارُ المُوَشَّحاتُ بالدُّرِّ النَّضِيدِ[3] ، ويَكونُ لَها أَجْمَلَ من القِلادَةِ في الجِيْدِ ؛ يَتَنَوَّعُ صُورَةً وَمَعنىً ، ويتَأَنَّقُ فُرادىٰ ومَثْنىٰ ، ويَبْدُو تارَةً ذاتاً وتارَةً لَفْظاً ، ويُجيدُ لِما اسْتُودِعَ أَمانَةً وحِفْظاً .

يُجْمَعُ لَهُ بينَ الحَرِّ والبَرْدِ ، ويَصِحُّ من أَفْعالِهِ العَكْسُ والطَّرْدُ ، ومن أَجْزائِهِ ما يُلْقي نَفْسَهُ في النَّارِ عَمْداً ، على أَنَّهُ قد صُلِيَ بِها حِينَ ضُرِبَ حَدّاً ، ولهُ صاحِبٌ[2] يُجانِسُهُ ويَغْشاهُ كَثيراً ويُلابِسُهُ ، يَسْلُبُهُ إذا حَضَرَ جَميعَ الأَوْصافِ ، ويَجودُ لِغَيْرِهِ بِالمَنِّ والإِسْعافِ .

يُحْمَدُ فِعْلُهُ وإِنْ كانَ يُفَرِّقُ بينَ الزَّوْجَيْنِ ، ويَنْأَىٰ عنهما إذا تَلاقَيا بعدَ البَيْنِ ، طالَما فَرَّجَ الكَرْبَ وأَزالَ الحَصْرَ ، وَتَلا عندَ أَفْعالِهِ سُورَةَ النَّصْرِ ؛ إِنْ حَذَفْتَ أَوَّلَهُ وأَضْعَفْتَ عَيْنَهُ كانَ نَعْتاً يَقْتَضِي زِيْنَةً[3] ، وإِن حَذَفْتَ ثانِيهِ كانَ وَصْفاً للقَدَرِ مَذْكوراً[4] ، فإِنْ عَكَسْتَهُ ذَكَرْتَ بِهِ كَرَماً مَشْهوراً[6] ، وإِنْ صَحَّفْتَهُ كانَ فِعْلاً لا حَرَجَ في تَعاطِيْهِ[5] ، أَو مَكاناً نُهِيَ عَنِ الصَّلاةِ فِيهِ[6] ، وإِنْ حَذَفْتَ ثالِثَهُ وصَحَّفْتَهُ كانَ وَصْفاً لِطارِقٍ يَأْتي بَغْتَةً[7] ، إذا عُنِيْتَ بِأَمْرِهِ وسَهَّلْتَهُ ، وإِنْ صُحِّفَ بعدَما سَقَطَ من أَوَّلِهِ حَرْفانِ ، أَذْكَرَكَ صاحِبَ الإِيْوانِ[8] ، وَواحِدَ فَزارة

---

(١) قُلَّ . قُلٌّ .

(٢) هو مفتاح القُفل .

(٣) فتَّاح .

(٤) مُتاح . وعكسه : حاتم .

(٥) مُباح .

(٦) مناخ الإبل .

(٧) مفاجىء .

(٨) تاج .

ابنِ ذُبْيان[1] ، وباحَ بِسِرِّهِ فَلا كِتْمانُ .

هذا ما تَيَسَّرَ من أَوْصافِهِ عَجِلاً ، وَتَسَيَّرَ إِلى بَيْنِ يَدَيْكَ خَجِلاً ؛ فَأَجِلْ فِيهِ فِكْرَةً أَضاءَتْ أَنْوارُها ، فَحُمِدَتْ آثارُها ، وَعَبَقَ نُوَّارُها ، فَجُنِيَتْ ثِمارُها ، وتُلِيَتْ أَخْبارُها ، فَتَجَمَّلَتْ بِها من الأَقاليمِ أَقْطارُها ؛ لا يَزالُ بَنانُكَ يَرْقُمُ أَحْرُفاً فَيُبْدي زُخْرُفاً ، وبَيانُكَ يَتْلو صُحُفاً فَيُبَوِّأُ مِنَ الجَنّاتِ غُرَفاً ، وبَديعُكَ يُحَلِّي الأَوْلِياءَ عُقوداً ، ويُقَرِّطُهُم شُنُفاً ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ عن ذلكَ :** [من الطويل]

قَرِيضٌ كَما غَنَّىٰ الحَمامُ وَغَرَّدا ... فَباتَتْ لَهُ الأَغْصانُ في الرَّوْضِ سُجَّدا
وإِلاَّ كَما ازْدانَتْ سَماءُ دَياجِرٍ ... فَكَمْ كَوْكَبٍ في أُفْقِها قد تَوَقَّدا
وَنَثْرٌ كَما احْمَرَّتْ خُدودُ شَقائِقٍ ... فَكَلَّلَها لمَّا ازْدَهَتْ لُؤْلُؤُ النَّدىٰ
وإِلاَّ كَما مُدَّتْ مُلاءَةُ سُنْدُسٍ ... من الرَّوْضِ فيها الزَّهْرُ دُرّاً تَبَدَّدا
ولَفْظٌ كَما غادىٰ النَّسِيمُ غَدِيْرَهُ ... حُساماً صَقيلاً ثمَّ ما شاهُ مِبْرَدا
وإِلاَّ كَما هَبَّت صَباً في صَبابَةٍ ... تُعِيْدُ على الأَحْبابِ عَتْباً مُرَدَّدا
وطِرْسٌ كما تَرْنو لِحاظٌ يَزِينُها احْـ ... ـوِرارٌ وتَحْشوها يَدُ الحُسْنِ إِثْمِدا
وإِلاَّ كما وافىٰ لَنا الصُّبْحُ أَبْيَضَ الْـ ... ـمُحَيّا وَوَلاَّنا قَفا اللَّيْلِ أَسْوَدا [٦٥ أ]
وما هَذِهِ إِلاَّ نَوافِثُ ساحِرٍ ... إِذا شاءَ خَلَّىٰ الشُّهْبَ عِقْداً مُنَضَّدا
نَوافِذُ في الأَحْشاءِ حاشا بَيانُها ... يَكونُ من السِّحْرِ الذي قَد تَعَقَّدا
بَعَثْتَ صَلاحَ الدِّيْنِ لي بِرِسالَةٍ ... فَأَصْبَحَ جِيْدُ الدَّهْرِ مِنْها مُقَلَّدا
فَيا حُسْنَها جاءَتْ إِلَيَّ هَدِيَّةً ... وَجَدْتُ على نارِ البِعادِ بِها هُدىٰ
تَعَوَّدْتَ جَبْري حَيْثُ كُنْتَ وإِنَّما ... « لِكُلِّ امْرِئٍ من دَهْرِهِ ما تَعَوَّدا »[2]

---

(١) ناج . وتصحيفه : باح كما سيأتي . والمقصود : ناجية .
(٢) العجز مضمّن من قول المتنبي : [ديوانه ١/ ٢٨١]

فَأَطْلَقْتُ لَفْظي في صِفاتِكَ مادِحاً « وَمَنْ وَجَدَ الإِحْسانَ قَيْداً تَقَيَّدا »[1]
فَأَنْتَ إِمامٌ والوَرَىٰ في العُلا وَرا فَما رُحْتَ تُدْعىٰ فيهِمْ سَيِّداً سُدىٰ
فَيا لَكَ مِن حَبْرٍ وبَحْرِ مَواهِبٍ تُجيدُ الفَتاوِىٰ والفُتُوَّةَ سَرْمَدا
علىٰ هَـٰذِهِ الأَيّامِ ما تَسْتَحِقُّهُ فَكَمْ قد أَضاعَتْ مِنْكَ حَقّاً مُؤَكَّدا
فَلَوْ أَنْصَفَتْ ساوَتْ مَحَلَّكَ بِالسُّهىٰ عُلُوّاً وصاغَتْ نَعْلَ نَعْلِكَ عَسْجَدا
وَلَكِنَّها الأَقْدارُ تَفْعَلُ ما تَشا فَكَمْ حِكْمَةٍ في طَيِّها رَدَّتِ الرَّدَىٰ
وَبَعْدُ فَلي فيها رَجاءٌ وعِنْدَها دُيونٌ مَتىٰ تُقْضَىٰ فَأُصْبِحَ مُنْشِدا
هَنيئاً لِدَهْرٍ أَنْتَ فيهِ مُحَكَّمٌ تَسُرُّ المَوالي فيكَ إِذْ تَكْبِتُ العِدىٰ

يُقَبِّلُ الأَرْضَ التي هيَ لِلعُلومِ رِياضٌ ، ولِلبَرَكاتِ حِياضٌ ، ولِلفَوائِدِ الغَريبَةِ غِياضٌ ، ولِلمَعالي مَعادِنٌ ، ولِلمَكارِمِ مَكامِنٌ ، ولِلمَوائِدِ مَواطِنٌ ، ولِلمُسائِلِ مَسالِكٌ ، ولِلمُباري مَبارِكٌ ، ولِلآراءِ الصّائِبَةِ أَرائِكٌ : [من الوافر]

هِيَ الأَرْضُ التي وَفَّتْ عُلاها وَفاحَ الطِّيبُ فيها مِنَ وَفائِكْ
فَما تَمْشي بِها إِلاَّ وَتَغْدُو مُظَلَّلَةً بِأَجْنِحَةِ المَلائِكْ

ويُنْهي بعدَ دُعاءٍ أَخْلَصَهُ ، وَوَلاءٍ كُلَّما أَطْنَبَ فِيهِ تَوَهَّمَ أَنَّهُ لَخَّصَهُ ، وثَناءٍ جَلَبَهُ من نَفَحاتِ المِسْكِ الأَذْفَرِ إِذْ فَرَّ وخَلَّصَهُ ؛ وَوَصْفِ مَحَبَّةٍ تَعالىٰ فيها وما تَغابىٰ ولا تَرَخَّصَ ، وأَشواقٍ تَعالىٰ الصَّبْرُ عَنْها وما تَعانىٰ غيرَ الصِّدْقِ فيها ولا تَخَرَّصَ ، ولَوْعاتٍ تَمادىٰ أَلَمُهُ فيها وتَمالىٰ عليهِ ، فَما تَصَبَّرَ لَها القَلْبُ ولا تَرَبَّصَ : [من الوافر]

وَذِكْرِ زَمانِ أُنْسٍ مَرَّ حُلْواً وَعَيْشٍ بِالتَّباعُدِ قَدْ تَنَغَّصْ

= لكلِّ امرىءٍ من دهرِه ما تعوَّدا وعاداتُ سيفِ الدَّولةِ الطَّعنُ في العِدا

(١) العجز مضمّن من قول المتنبي [ديوانه ١/ ٢٩٢] وصدره :
وقيَّدتُ نفسي في ذراك محبَّةً×

تَقَنَّصَ فيهِ صِرْفُ البَيْنِ صَبْري   وما زادَ الجَوىٰ حتَّىٰ تَنَقَّصْ

ورودَ المِثالِ العالي ، أَعْلاهُ اللهُ تعالىٰ ، وَمَدَّ بِهِ على القُلوبِ الضَّاحِيَةِ ظِلالاً ، فوقَفَ المَملوكُ منهُ علىٰ رياضٍ يانِعةٍ ، وأَلِفاتٍ كَأَنَّها الغُصونُ المائِسَةُ ، وَفَوْقَها الهَمْزاتُ كالحمائِمِ السَّاجِعَةِ ، وسُطورٍ كالجَداوِلِ أَمْواجُ مَعانِيْها مُتَدافِعَةٌ ، وأَلْفاظٍ صادِقَةِ الحَلاوَةِ في الفَصاحَةِ الصَّادِعَةِ ، ومَقاصِدَ لم تَضِقْ بِعِباراتِها ساحاتُ البَلاغَةِ الواسِعَةِ ، ومَقاعِدِ قَوافٍ تَنَزَّلَتْ في أَماكِنِها كالبُدورِ الطَّالِعَةِ : [من الطويل]

وحَسْبُكَ من فَضْلٍ تَدانَتْ ثِمارُهُ   ولكنْ مَبانِيْهِ على النَّاسِ شائِعَه[(١)]
فَكانَ صَبوحِي مِنْهُ كَأْساً رَوِيَّةً   سُلافَتُها صَفْراءُ لِلْهَمِّ فاقِعَه

فلو رَآهُ الفاضِلُ لَنَقَصَ مِن قَدْرِهِ ، أَو ابْنُ سَناءِ المُلْكِ لَما افْتَخَرَ بقَصْرِهِ في عَصْرِهِ ، ولا أَنْشَدَهُ مَمْلوكُهُ من شعرِهِ ، [٦٥ ب] [(٢)] أَو ابنُ أَبي الأَصبغِ لَما مَدَّ في هذِهِ الصِّناعَةِ يَداً ، أَو القاضي الجليس[(٣)] لَقامَ وَقَعَدَ حَسَداً ، أَو الجَزَّارُ لَتَقَطَّعَتْ من الرُّعْبِ مَصارِيْنُهُ ، أَو السَّرَّاجُ لانْطَفَأَ وَكَثُرَ تَدْخِيْنُهُ ، أَو ابنُ النَّقيبِ لكانَ مُجَرَّداً من مَحاسِنِهِ ، فلا يُسايِرُهُ ولا يُساريه ، أَو الحَمَّامِيُّ لَما عَرَفَ حَرَّ الأَشْياءِ وبارِدَها ، ولا أَخَذَ الماءَ من مَجاريه ، أَو شيخُ الشُّيوخِ[(٤)] لَما وَجَدَ لهُ مُريداً ، أَو ابن لؤلؤ الذَّهبيُّ[(٥)] وشِيْعَتُهُ ، لَقالَتْ لَهم فَصاحَتُهُ : ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا

---

(١) في هامش م : ط : شاسعة .
(٢) الورقة ٦٥ ب و٦٦ أ ساقطة من أ . والمثبت من ب ، س .
(٣) القاضي الجليس : عبد العزيز بن الحسين بن الحبّاب ، الصِّقِلّيّ الأَصل ؛ توفي سنة ٥٦١ هـ . (الوافي بالوفيات ١٨/ ٤٧٣) .
(٤) شيخ الشُّيوخ : عبد العزيز بن محمَّد بن عبد المحسن ، العلاّمة الأَديب الشاعر الحموي ؛ توفي سنة ٦٦٢ هـ . (الوافي بالوفيات ١٨/ ٥٤٦) .
(٥) يوسف بن لؤلؤ الذّهبي ، الأَديب بدر الدّين الدّمشقي الشاعر ؛ توفي سنة ٦٨٠ هـ . (الوافي بالوفيات ٢٩/ ٣٧٨) .

﴿حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء : ٥٠] أو ابنُ النَّبيهِ ، لأَخْمَلَتْهُ هذِهِ الخَمائِلُ ، ولم يُباكِرْ صَبوحاً مع أَهْيَفِ الشَّمائِلِ ، أو ابنُ السَّاعاتي ، لَهَمَّتْ دَرَجاتُ مَجْدِهِ بالسُّقُوطِ ، ونَسِيَ يَوماً كانتِ الرِّيْحُ تكتبُ والغَمامُ يُنَقِّطُ[1] في سُيوط : [من الطويل]

وَلَو أَشْبَهَتْهُ الشَّمْسُ في أَوْجِ أُفْقِها ... لَما شانَها في النَّيِّراتِ هُبوطُ
وَلَو أَنَّ زَهْرَ الدَّوْحِ فازَ بِجِدَّةٍ ... حَواها لَما أَفْنى قِواهُ سُقوطُ

فَعَيْنُ اللهِ على هِذهِ الكلماتِ السَّحَّارَةِ ، والبِحارِ الزَّخَّارَةِ ، والكَواعِبِ التي هيَ بالكواكِبِ سَخَّارةٌ ، والمحاسِنِ التي ما الْتَقَطَ مِثْلَها السَّيَّارَةُ ، والفَضائِلِ التي تَخْتبىءُ الشَّمْسُ منها في الهالَةِ والقَمَرُ في الدَّارةِ ؛ والفوائِدِ التي لو حَلَفَ أَحدٌ أَنَّ السَّمعانيَّ ما سَمِعَ بِها ما لَزِمَتْهُ كَفَّارَةٌ .

يا مَولانا ، دَعْ لَنا من مآدِبِ الأَدَبِ فُضْلَةً بِها نَرْتَزِقُ ، وَخُذْ في فُنونِكَ من عُلومِ الشَّريعَةِ مع أَقْرانِكَ ، فبعضُ الفوارِسِ قد يَعْتَنِقُ ، وَنَفِّسْ لنا ساعَةَ كَرْبٍ ، ولا تُضايِقْنا نَخْتَنِقْ ؛ ودونَكَ الحديثَ ، فَما أَنتَ مِمَّنْ يأْخُذُ بأَطرافِهِ إذا تكَلَّمَ ، واشْتَغِلْ عَنَّا بنَقْدِهِ ، فالبُخاري يُثْني عليكَ ، ومُسْلِمُ لَكَ سَلَّمَ ؛ وجادِلْ فُرْسانَ الكلامِ ، فَسَيْفُها منكَ تَثَلَّمَ ؛ وأَقِمْ أَدِلَّةَ التَّوحيدِ ، فالإمامانِ لو رأَياكَ لَقَدَّماكَ ، وقالا : هذا المُهِمُّ المُقَدَّمُ ؛ وَخَلِّ لَنا مَنْبِتَ الأَدَبِ ، وإِنْ لَمْ نَكُنْ من خَلٍّ بَقْلُهُ ، وَوَلِّ جانِبَكَ هذِهِ التُّرَّهاتِ ، فَأَكْثَرُها اخْبُرْ تَقْلُهُ ؛ وأَعْرِضْ عن مَتاعِها الذي لا فائِدَةَ في حُضُورِ حَضْرَتِهِ ، ولا لَذَّةَ في نَقْلِ نُقْلِهِ ؛ واتركْنا نَهيمُ في أَودِيَةِ القَريضِ ، فَمِنْ أَرَّجانِ أَرَجِهِ ، إلى صِقِلِّيَةِ صَقْلِهِ .

---

(١) يشير إلى قول ابن الساعاتي : [ديوانه ٢/ ٤ ووفيات الأعيان ٣/ ٣٩٦]
والطَّيْرُ يَقرأُ والغَديرُ صحيفةٌ ... والرِّيحُ تكتبُ والغَمامةُ تنقطُ

وَأَمَّا غيرُ ذلكَ، فإِنَّ المُعَمَّىٰ الذي تَضَمَّنَهُ ذَيلُ هذا المِثالِ الكريمِ ، وأَمْسَتْ بِهِ[1] جنَّاتُ غيرِهِ من أَربابِ هذا الفَنِّ وهي كالصَّرِيمِ ؛ فلمَّا انتهىٰ المَملوكُ إِليهِ وَقَفَ له إِلىٰ أَنْ فَكَّ « قُفْلَهُ » وأَتَمَّ فَرْضَ حَلِّهِ ونَفْلَهُ ، وشاهَدَ مَحاسِنَهُ التي عَزَبَتْ عن الأَلْبابِ ، وعَلِمَ بهِ كيفَ يكونُ مَقاصِدُ شيوخِ الآدابِ : [من المجتث]

يــا حُسْــنَ لُغْــزٍ أَتــانــي ... أَقَــرَّ قَلْبــاً وَطَــرْفــا
أُخــراهُ لاحَــتْ عَجيبــاً ... اسْمــاً وفِعْــلاً وحَــرْفــا

وأَمَّا وَصْفُهُ نَثراً : فَقُلْ في ثُلاثيٍّ جُمْلَةُ جُمَّلِهِ مِئتانِ تزيدُ عَشراً[2] ؛ إِنْ جَعَلَتْ آخِرَهُ راءً كان من جُملَةِ البِيْدِ[3] ، أَو زاياً كانَ حَرَكَةً تُقَرِّبُ المكانَ البَعيدَ[4] ، أَو صاداً كان سِجْناً لِلطَّيْرِ الغِرِّيدِ[5] ، أَو طاءً كانَ بَلْدَةً مَعروفَةً في الصَّعيدِ[6] ، وإِنْ صَيَّرْتَ وَسَطَهُ باءً كان ظَرْفاً مَبْنِياً لا يَعملُ فيه الجَرُّ من قَريبٍ ولا بَعيدٍ[7] ، أَو تاءً كان فِعْلاً تَحريمُهُ في الشَّرْعِ المُطَهَّرِ لا يبيدُ[8] ، أَو واواً كانَ ما يُلْفَظُ بِهِ وَلَدَيْهِ رَقيبٌ عَتيد[9] ، أَو ياءً كانَ وَصْفاً لِواحِدِ المُلوكِ الصِّيْدِ[10] ، وإِنْ تَرَكْتَ أَوَّلَهُ حاءً كانَ وَصْفاً لِجَمْعٍ عَديدٍ[11] ، أَو سِيْناً كانَ ضِدَّ

---

(١) في ب : وامتير .
(٢) كلمة « قفل » في حساب الجُمَّل : القاف ١٠٠ . والفاء ٨٠ . واللام ٣٠ . فالمجموع ٢١٠ .
(٣) قفر .
(٤) قفز .
(٥) قفص .
(٦) قِفط .
(٧) قبل .
(٨) قتل .
(٩) قول .
(١٠) قَيْل .
(١١) حفل .

العُلُوِّ البَعيدِ[١] ، أَو طاءً كان صِفَةً للمولودِ الجَديدِ[٢] .

وأَمَّا صاحِبُهُ الذي يُجانِسُهُ ، يَغْشاهُ ويُلابِسُهُ ، فَمتىٰ لَفَظْتَ بِهِ ذكرتَ سَكَّاكيَّ البَيانِ[٣] ، أَو جَمَعْتَهُ كانَ اسمَ تَفْسيرٍ عَظيمٍ للقُرْآنِ[٤] ، أَو ذَكَرْتَ مرادفَ مُفْرَدِهِ[٥] ، كانَ مصنَّفاً لواحِدِ فزارة بن ذُبْيان ؛ وأَمَّا إذا حَذَفتَ ثانِيهِ ، وَعَكَسْتَهُ وصَحَّفْتَهُ ، كانَ حِلْيَةً لِخناصِرِ الإِناثِ والذُّكُورِ[٦] ، وَصِفَةً لِطائِرٍ في الجَوِّ يَدورُ[٧] ، أَو فِعْلاً لهُ إذا تَلَبَّدَ بالأَرْضِ فَلا يَذهبُ ولا يَحورُ[٨] .

ولهُ خَواصُّ أُخرىٰ أَضْرَبَ المَملوكُ عنها ، وخافَ إِنْ سَرَدَها أَوْجَبَ الضَّجَرَ منها : [من البسيط]

أَحْسِنْ بِهِ مِن مُعَمَّىً قد بَعَثْتَ بِهِ ... سَكِرْتُ مِن حَلِّهِ إِذْ راحَ لي راحا
عَمَّيْتَهُ فَدَجا ، وَصَفْتَهُ فَأَضا ... مَعْنىً فَأَهْدَيْتَ لي «قُفْلاً» و«مِفْتاحا»[٩]

واللهُ تَعالىٰ يُمتعُ الأَيَّامَ والأَنامَ بهذا الفَضْلِ الجَلِيِّ الجَليلِ ، والأَدَبِ الذي لا يَجِدُهُ الرُّواةُ إِلاَّ بالقُدسِ ، ولا يأْخُذونَهُ إِلاَّ عن الخَليلِ ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ ، إِنْ شاءَ اللهُ تَعالى .

● **وكتبتُ أَنا إِليه وقد وَرَدَ من القُدسِ الشَّريفِ إِلى دمشق المحروسةِ ، سنة ٧٣٩[١٠] :** [من الوافر]

---

(١) سفل .
(٢) طفل .
(٣) يقصد كتاب « مفتاح العلوم » للسّكاكي .
(٤) تفسير الفخر الرازي اسمه « مفاتيح الغيب » .
(٥) مرادف المفتاح : إقليد .
(٦) خاتم .
(٧) حائم .
(٨) جاثم .
(٩) صدره في ب ، س : عميته قد جا . وفي م : . . . أَوضحتَه فأَضا× .
(١٠) البيتان في أَعيان العصر والوافي .

أَتَيْتَ إِلى دِمَشْقَ وقد تَشَكَّتْ ... إِلَيْكَ لِطُولِ بُعْدٍ وانْتِزاحِ
وكانَتْ بَعْدَ بُعْدِكَ في فَسادٍ ... وَجِئْتَ لَها ففازَتْ بِالصَّلاحِ[1]

● وكتبَ هو إِليَّ جَواباً عن بَيتين تَقَدَّمَ ذِكْرُهما في ترجمةِ الشَّيخ بَهاء الدِّين أَبي حامدٍ السُّبكيِّ ، وهما : [من الطويل]

أَلا خَبِّروني عن صَلاةِ امْرِئٍ غَدَتْ ... يَحارُ بَسيطٌ عِنْدَها ووَجيزُ
تَجوزُ إِذا صَلَّىٰ إِماماً ومُفْرَداً ... وإِنْ كانَ مَأْموماً فليسَ تَجوزُ

● فكانَ ما كتبَ هو : [من الطويل]

بَقيتَ فلا يُلْقىٰ لَكَ الدَّهْرَ مُشْبِهٌ ... وَدُمْتَ لِكُلِّ المَعْلُواتِ تَحوزُ
فإِنَّ الذي ليسَتْ تَجوزُ صَلاتُهُ ... لَهُ العَقْلُ حِرْزٌ دونَ ذاكَ حَريزُ
فقد صارَ مَحفوظاً بِهذا سَمِيُّهُ ... كما جاءَ في لَفْظِ الحياةِ وَجيزُ

وهذا بناءً على ما فَهِمتُهُ أَنَّ مُرادَهُ بالمأْمومِ ، الذي أَصابَتْهُ أَمَّةٌ في رأْسِهِ أَذْهَبَتْ عَقْلَهُ ، فإِنَّ صَلاتَهُ غيرُ صَحيحةٍ لِذَهابِ عَقْلِهِ ؛ وأَردتُ بِقَولي : لَهُ العَقْلُ حِرْزٌ : الدِّيَةَ التي تجبُ في المأْمومَةِ ، فإِنَّ إِيجابَها مانِعٌ من تَعاطِيها ، كما في قولِهِ تَعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] وهذا المُرادُ بِالشَّطْرِ الأَخيرِ من الأَبياتِ ، فقد صارَ العَقْلُ الذي تُذْهِبُهُ الإِمامَةُ المأْمومةُ مَحفوظاً بِإِيجابِ العَقْلِ الذي هو الدِّيَةُ .

* * *

---

(١) وسقط ما بعد ذلك من س ، والمثبت من ب ، م .

رفع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

حرْفُ الرَّاءِ

٣٨ * رِزْق الله بنُ فضل الله[١] :

الفاضِلُ، الكاتِبُ، تاجُ الدِّين، كاتبُ الإِنْشاءِ الشَّريفِ بالقاهرةِ المحروسةِ.

● كتبَ هو إليَّ من القاهرةِ المحروسةِ في سنةِ ٧٤٤[٢]، [٦٦ ب] فكتبتُ أنا الجَوابَ إليهِ عن ذلك[٣] : [من الطويل]

سُطورُكَ أَم راحٌ بَدَتْ في زُجاجِها ... فكانَ سُرورُ القَلْبِ بَعْضَ نِتاجِها
أَتَتْنيَ من مِصْرٍ إلىٰ أَرْضِ جِلَّقٍ ... فَأَهْدَتْ إلى نَفْسي عَظيمَ ابْتِهاجِها
فَيا نَفَسَ الأَسْحارِ في كُلِّ رَوْضَةٍ ... تَيَمَّمْ رُبا مِصْرٍ ولُطْفَ مِزاجِها
وَقِفْ لي علىٰ دِيْوانِ الإِنْشاءِ وِقْفَةً ... وَحَيِّ الكِرامَ الكاتِبِيْنَ مُواجِها
فثَمَّ وُجوهٌ كالبُدورِ تكامَلَتْ ... ولاقِ بها في الفَضْلِ رَوْنَقَ تاجِها
أَئِمَّةُ كُتَّابٍ إذا ما تَرَسَّلُوا ... فَأَقْلامُهُمْ تَرْمي العِدىٰ بانْزِعاجِها
وإِنْ نَظَمُوا قُلْتَ الدَّراري تَنَسَّقَتْ ... وراقَ علىٰ الأَيّامِ حُسْنُ ازْدِواجِها
هُنالِكَ رِزْقُ اللهِ بَيْنَ ظُهورِهِمْ ... فَلا نَفَسَ إِلاَّ ثَمَّ إِبْلاغُ حاجِها[٤]
فَيا لَيْتَ شِعْري هَلْ أَفُوزُ بِقُرْبِهِمْ ... ويَهْدَأُ من عَيْني اضْطِرابُ اخْتِلاجِها

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/ ٣٦٨ والدّرر الكامنة ٢/ ١٠٨ والنجوم الزاهرة ٩/ ١٣١ والمنهل الصافي ٥/ ٣٤٨ والدليل الشافي ١/ ٣٠٤ .
ـ وفاته بعد ٧٤٠ هـ .
ـ في ب ، س : رزق الله بن الفاضل ! . وبين « بن » و« الفاضل » فراغٌ يتّسع لكلمتين . والمثبت من مصادر ترجمته . وفي م : رزق الله الفاضل .

(٢) قال المؤلف في أَعيان العصر ٢/ ٣٦٩ : وكان قد كتب إليَّ وأنا بدمشق أَبياتاً في هذا الوزن والرَّويّ ، إلاَّ أَنّني طلبتُها عند هذا التّعليق ، فلم تَرَ عيني لها أَثراً ، ولا وَجدتُ لمبتدئِها خبراً .
وفي هامش ب : ساقط ما كتبه في الأصل .

(٣) القطعة في أَعيان العصر .

(٤) في ب : × . . . إلاَّ وهو إِبلاغ حاجِها .

● وكتبَ هو جَواباً عن لُغْزٍ كَتَبْتُهُ ، وأَنا بالقاهِرةِ المحروسَة في سنة ٧٤٥ إلى القاضي ناصِرِ الدِّين ابن النّشائي في « عيدٍ » ، وسيأْتي عندَ ذِكْرِه[1][2] : [من مجزوء الرجز]

يــا فــاضِــلاً آدابُــهُ   بهــا الــوَرىٰ تَسْتَــرْشِــدُ
ومَــن علــىٰ عُلــومِــهِ   أَهْــلُ النُّهــىٰ تَعْتَمِــدُ
أَلْغَــزْتُ فــي « عِيْــدٍ » إلــىٰ   عَبْــدٍ إِلَيْكُــمْ يُسْنَــدُ
ولــم يُــؤَخِّــرْ نَظْمَــهُ   إلاّ حَيــاءً يُحْمَــدُ
ولــم يُمــاثِــلْ مَــنْ لَــهُ   فــي ســائِــرِ الفَضْــلِ اليَــدُ
فَــدُمْ سَعيــداً تَنْتَقــي الْـ   آدابَ أَو تَنْتَقِــدُ

* * *

حَرْفُ الزّاي

٣٩ * زَيد بن عبد الرَّحمن[3] :

الشَّيخُ الفاضِلُ ، البارعُ ، الفقيهُ ، العَدْلُ ، القاضي ، زَيْنُ الدِّين المَغْربي ، الشّافعيّ .

● كتبَ إِليَّ مُلْغِزاً[4] :

يا مَولانا ، أَثْقَلَ اللهُ بِفَواضِلِكَ الكَواهِلَ ، وأَخْمَلَ بِفَضائِلِكَ الأَوائِلَ من

---

(١) ترجمة ابن النّشائي ستأْتي برقم ٧٩ ؛ ولغز المؤلف هناك ، وانظره في أَعيان العصر ٢/ ٣٦٩ .
(٢) الأَبيات في أَعيان العصر .
(٣) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/ ٣٨٤ والدّرر الكامنة ٢/ ١١٦ .
ـ وفاته سنة ٧٦٢ هـ . ولعلّه قد قارب السِّتِّين أَو تعدّاها بقليلٍ .
(٤) النص بنثره وشعره في أَعيان العصر .

الأَفاضِلِ[1] ، إِنْ أَمْكَنَ أَنْ تَلْمَحَ هذا اللُّغْزَ اللَّطِيفَ ، وتُعْطِيهِ حَظّاً من سَيَّالِ فِكْرِكَ الشَّرِيفِ ، تُقَلِّدُ المَملوكَ بهِ مانَّةَ الفضْلِ العَميمِ ، ويَتَحَلَّىٰ بوُرودِ لَفْظِهِ كما يَتَحَلَّىٰ بوُجودِ شَخْصِهِ بينَ يَدي سَيِّدٍ كَريمٍ ، وهو :

ما اسْمٌ يَعْتَني الصَّائِمُونَ غالِباً بِتَحْصِيلِهِ ، وَيَتَنافَسُ الأَكابِرُ منهم في جُمْلَتِهِ وتَفْصِيلِهِ ، خُماسِيُّ الحُروفِ في التَّرْصِيفِ والتَّرتيبِ ، مُسَطَّحُ الشَّكْلِ في البَساطَةِ ، كُرِّيٌّ عندَ التَّركيبِ ، إِن حُذِفَ خُمْساهُ رَأَيْتَهُ طائِراً وَسِيماً[2] ، طالَما قَصَّ الأَثَرَ فاهْتُدِيَ بِهِ ، وغالَبَ في طُرقِ اللُّؤْمِ تَميماً[3] ، وإِنْ اخْتُلِسَ أَوَّلُهُ كانَ في الثُّغُورِ الحَصِينَةِ كالِئاً في اللَّيْلِ البَهيمِ[4] ، وفي سُورَةِ القَلَمِ ناراً أَحْرَقَتِ الجَنَّةَ التي أَصْبَحَتْ كالصَّرِيْمِ[5] : [من الطويل]

عَـزَمْـتُ علـىٰ إِهْـدائِـهِ غَيْـرَ مَـرَّةٍ ... إِلىٰ بابِكَ العالي فَأَمْسَكْتُ عن قَصْدي
فَقَـدْ قيـلَ : عـاداتُ الأَكـابِـرِ إِنَّهُـمْ ... بِإِهْدائِهِ أَوْلىٰ فَما جُزْتُ عن حَدِّي
فَأَوْضِحْهُ لي مَعْنىً وإِنْ شِئْتَ صُورَةً ... وإِنْ شِئْتَ فارْسُمْ لي فإِنِّي لَهُ أُبْدي

● **فكتبتُ إِليهِ الجَوابَ ، وهو في « قَطايف » وجَهَّزْتُ إِليهِ شيئاً من ذلكَ :**

[من الطويل]

أَمَوْلايَ زَيْنَ الدِّيْنِ مِثْلُكَ مَنْ يُهْدِي ... نَـداهُ وإِنْ كـانَ الضَّـلالُ غَـدا يَهْـدي
بَعَثْـتِ بِلُغْـزٍ قـد حَـلا مِنْـكَ لَفْظُـهُ ... [٦٧أ] فَأَخْمَلَ ذِكْرَ القَطْرِ فَضْلاً عن الشَّهْدِ
فَسـامِـحْ فَقَـدْ أَوْضَحْتُـهُ لَـكَ صُـورَةً ... علىٰ أَنَّهُ لا بُدَّ من شَرْحِ ما عِنْدي

---

(١) في ب : وأَخمد بفضائلك الفضائل .
(٢) يريد : قطا .
(٣) يشير إِلى قول الطِّرمَّاح : [ديوانه ٥٩]
تميـمٌ بطـرق اللـؤْم أَهـدى مـن القطـا ... ولـو سلكـت سبـل المكـارم ضلَّـتِ
(٤) يريد : طائف .
(٥) الإِشارة إِلى قوله تعالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ [القلم : ١٩ ـ ٢٠] .

يا مَولانا ، هذا لُغْزُكَ[1] بَديعُ المَعنىٰ ، بَعيدُ المَبْنىٰ ، يَتَرَشَّفُهُ السَّمْعُ سُلافَةً ، وَيَتَلَقَّفُهُ البَصَرُ وَرْداً جَنِيّاً مَتىٰ أَرادَ اقْتِطافَهُ ؛ قَد أَغْرَبْتَ في قَصْدِهِ ، وَأَحْكَمْتَ عَقْدَ بَنْدِهِ ، دَلَّني على مَعْناهُ حُسْنُ مَبْناهُ ، وقُرْبُ البَيانِ من مَغْناهُ ، فَلَكَ الفَضْلُ في حَلِّهِ ، وسَحِّ وابِلِهِ وَطَلِّهِ .

ومن غرائِبِ خَواصِّه ، أَنَّهُ أَخَذَ من الحَلاوَةِ واللَّبَنِ حَظّاً ، ومَتىٰ صَحَّفْتَ ثَلاثَةَ أَخْماسِهِ عادَ « فَظّاً » ؛ قد راقَتِ العُيونَ مَلاحَتُهُ ، وحُشِيَتِ القُلُوبَ حَلاوَتُهُ ، يَخْتَصُّ بشَهْرِ رَمضان ، لأَنَّ في قَلْبِهِ حَلاوةً كَحَلاوَةِ الإيْمانِ ، بَعْضُهُ يُقْلىٰ ، وَكُلُّهُ مَحْبوبٌ ، وآخِرُهُ تَحْتَ القَطْرِ ، وَأَوَّلُهُ فوقَ الجَمْرِ المَشْبوبِ ، يَروقُكَ إذا نَثَرْتَ عِقْدَهُ ، وفَصَّلْتَ زَوْجَهُ وفَرْدَهُ ؛ أَشْبَهُ شَيْءٍ بالكَواعِبِ إذا اشْتَمَلَتْ بالمَناشِفِ المُخْمَلِ ، وَأَحْسَنُ ما تَرىٰ ثُرَيَّاها إذا اجْتَمَعَ شَمْلُها وتَكَمَّلَ ، وأَلْيَقُ ما تُنْشِدُ إِذا جَفَّ ثَراها ، وانْفَصَمَتْ عُراها[2] : [من الطويل]

أَلا يا اسْلَمي يا دَارَمَيَّ على البِلىٰ ولا زالَ مُنْهَلاً بِجَرْعائِكِ القَطْرُ

* * *

حَرْفُ السِّيْنِ

٤٠ * سُلَيْمانُ بنِ إبراهيم[3] :

القاضي الفاضِلُ ، عَلَمُ الدِّين ، مُسْتَوفي الصُّحْبَةِ بالشَّامِ المحروسِ ،

---

(١) في أ : يا مولانا لغزك . . .

(٢) البيت لذي الرُّمَّة ، في ديوانه ١/ ٥٥٩ .

(٣) ترجمته في : أعيان العصر ٢/ ٤١٣ والوافي بالوفيات ١٥/ ٣٤٠ وتذكرة النبيه ٣/ ٥٥ والدّرر الكامنة ٢/ ١٤٠ والنجوم الزّاهرة ١٠/ ١٠٨ والمنهل الصافي ٦/ ١٥ والدليل الشافي ١/ ٣١٥ .
ـ وفاته سنة ٧٤٤ هـ . وولادته سنة ٦٧٧ هـ .
ـ في أ : سلمان بن إبراهيم ! .

المعروفُ بابنِ كاتِبِ قَراسُنْقُر .

● كتبَ إليَّ من دمشقَ المحروسَة ، وأَنا بالقاهرةِ سنة ٧٣٣[١] : [من البسيط]

يا غائِباً غابَ عن عَيْني فلَم تَنَمِ ... وذاهِباً فَضْلُهُ قد شاعَ في الأُمَمِ
سافَرْتَ عَنَّا فَطالَ اللَّيْلُ في سُهُدٍ ... فنحنُ بَعْدَكَ في ظُلْمٍ وفي ظُلَمِ
آنَسْتَ مِصْراً وأَوْحَشْتَ الشَّآمَ فَيا ... خُلُوَّهُ من حُلىٰ الآدابِ والكَرَمِ
لِيَهْنِ مِصْرَ صَلاحَ الدِّينِ كَوْنُكَ في ... أَرْجائِها كاتِباً في أَشْرَفِ الخِدَمِ
جَمَّلْتَ دِيْوانَ إِنْشاءٍ حَلَلْتَ بِهِ ... يا خَيْرَ حَبْرٍ يُوَشِّي الطِّرْسَ بالقَلَمِ
فَما مُحَيَّاكَ إِلاَّ بَدْرُ داجِيَةٍ ... وما يَمينُكَ إِلاَّ رُكْنُ مُسْتَلِمِ
سُقْياً لأَيَّامِ أُنْسٍ كانَ رَوْنَقُها ... بِفَضْلِ أُنْسِكَ فِيْنَا وافِرَ القِسَمِ
نَجْني فَضائِلَكَ الغُرَّ الحِسانَ ولا ... نَعْبَأْ بِرَوْضٍ سَقاهُ هاطِلُ الدِّيَمِ
أَقْسَمْتُ لا فَرْقَ ما بَيْنَ الجَواهِرِ في ... عِقْدٍ وبينَ الذي تُبْدي من الكَلِمِ
فاللهُ يُبْقِيكَ ما ناحَتْ مُطَوَّقَةٌ ... فيما تُرَجِّيهِ في سَعْدٍ وفي نِعَمِ

● فكتبتُ أَنا الجوابَ إِليهِ[١] : [من البسيط]

بالَغْتَ في الجُودِ والإِحْسانِ والكَرَمِ ... وَزِدْتَ في شَرَفِ الأَخْلاقِ والهِمَمِ
وما رَضِيْتَ بِغاياتِ الأُولىٰ سَبَقُوا ... إِلى المَعالي ولا تَرْضىٰ بِعَزْمِهِمِ[٢]
حتَّىٰ تَجوزَ علىٰ الجَوْزاءِ مُرْتَقِياً ... إِلى مَعاليَ لم تَخْطُرْ بِفِكْرِهِمِ
وتُدْرِكَ المَجْدَ سَبَّاقاً وشُغْلُهُمُ ... في عَثْرَةِ القَوْلِ أَو في عَثْرَةِ القَدَمِ
كما اجْتَهَدْتُ لَعَلِّي أَن أَفوزَ فَلَمْ ... أَفُزْ سِوىٰ مَرَّةٍ في الدَّهْرِ بالخِدَمِ
وأَبْعَدَتْني اللَّيالي بعدَ ذاكَ وفي ... قَلْبي حَلاوَةُ ذاكَ اللُّطْفِ والشِّيَمِ

---

(١) القصيدة في أعيان العصر .

(٢) سقط عجز هذا البيت وصدر الذي يليه من م . فتلفَّق ما بقي منهما ! .

« فَكُنْتُ كالمُتَمَنِّي أَن يَرىٰ فَلَقاً ... من الصَّباحِ فلمَّا أَن رآهُ عَمِي »(١)
فَلَيْتَ دَهْرِيَ يَسْخُو لِي بِثانِيَةٍ ... حتَّىٰ أَعودَ إِلَيْها عَوْدَ مُغْتَنِمِ
وأَجْتَلي أَوْجُهَ اللَّذَّاتِ سافِرَةً ... عن كُلِّ مَعْنىً حَوىٰ صِنْفاً من النِّعَمِ
[٦٧ب] فَما خَلائِقُكَ الحُسْنىٰ التي بَهَرَتْ ... عَقْلي سِوىٰ زَهَرٍ في الرَّوْضِ مُبْتَسِمِ
أَو نَسْمَةٍ خَطَرَتْ بالبانِ نَفْحَتُها ... ولا أَقولُ سَرَتْ بالضَّالِ والسَّلَمِ
وَما عِبارَتُكَ المُثْلىٰ سِوىٰ دُرَرٍ ... والنَّاسُ تَحْسَبُها ضَرْباً من الكَلِمِ
كم الْتَقَطْتُ ومَولانا يُسامِرُني ... جَواهِرَ الفَضْلِ والآدابِ والحِكَمِ
وكم معانٍ كأَنَّ السِّحْرَ نَضَّدَها ... لم تُبْقِ عِنْدي عَقابيلاً من السَّقَمِ
نَعَمْ وأَبْياتُ شِعْرٍ راقَ مَوْرِدُها ... لم أَنْسَهُنَّ وما بالعَهْدِ من قِدَمِ
آهاً لأَيَّامِنا بالخَيْفِ لو بَقِيَتْ ... عَشْراً وَواهاً عَلَيْها كَيْفَ لم تَدُمِ
يا سَيِّداً بِنَدىٰ يُمْناهُ صَحَّ لَنا ... أَنَّ الغَمامَ بَخيلٌ غَيْرُ مُنْسَجِمِ
وماجِداً جَدَّ في كَسْبِ العُلا فَغَدا ... تَخْشَىٰ الصَّوارِمُ مِنْهُ صَوْلَةَ القَلَمِ
شَوْقي إِلى لَثْمِ ذاكَ الكَفِّ زادَ علىٰ ... شَوْقِ الرِّياضِ إِذا جَفَّتْ إِلىٰ الدِّيَمِ
وَوَحْشَتي لِمُحَيَّاكَ الجَميلِ هل اسْـ ... ـتَوْحَشْتَ قَطُّ لِبَدْرِ التِّمِّ في الظُّلَمِ
وحَسْرَتي لِفَواتِ القُرْبِ مِنْكَ كَما ... تَحَسَّرَ السَّاهِرُ المُضْنىٰ إِلىٰ الحُلُمِ
فَهذِهِ بَعْضُ أَشْواقٍ أُكابِدُها ... في وَصْفِها قَلَمي ساوىٰ لِنُطْقِ فَمي
أَظْهَرْتُ وَجْدِي ولم أَكْتُمْ لَواعِجَهُ ... ومَن يُطيقُ خَفا نارٍ على عَلَمِ

٤١ * سُليمان بن داود بن سُليمان بن محمَّد بن عبدِ الحقِّ(٢) :

الشَّيْخُ الإِمام ، القاضي ، صَدْرُ الدِّينِ ، أَبو الرَّبيعِ بن الشَّيخِ ناصِرِ الدِّين

---

(١) البيت بلا نسبة في الغيث المسجم ٤٠٦١ .

(٢) ترجمته في : الوافي بالوفيات ١٥/ ٣٨١ وأعيان العصر ٢/ ٤٣٦ وتذكرة النبيه ٣/ ٢٣٦ والمنتقى من درّة الأسلاك ٢٦١ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ١٧٠ والدّرر الكامنة ٢/ ١٤٩ والنجوم الزّاهرة ١٠/ ٣٣٦ والمنهل الصافي ٦/ ٣١ والدليل الشافي ١/ ٣١٧ والذيل التام ١/ ١٧٣ والطبقات السنيّة ٤/ ٥١ وشذرات الذهب ٨/ ٣٢٨ .
ـ مولده سنة ٦٩٧ هـ . ووفاته سنة ٧٦١ هـ .

ابن عبد الحَقِّ الحَنَفيّ ، مُوَقِّعُ الدَّسْتِ الشَّريفِ بالقاهرةِ .

● **كتبتُ أنا إليه ، وقد وَرَدَ من الحِجازِ إلى دمشقَ المحروسَة في سنة ٧٥٢ وقد أرادَ العَوْدَ إلى اليَمَنِ :** [من البسيط]

يا مَنْ أَباعَ دِمَشْقَ الشّام باليَمَنِ ... وقَدَّمَ السَّيْرَ لا يَلْوي على سَكَنِ
ما كُنْتُ أَحْسِبُ إنْساناً سِواكَ رأَىٰ ... جَنّاتِ عَدْنٍ فَعَدّاها إلى عَدَنِ
هَذا وكَمْ نِلْتَ في ساحاتِها وَطَراً ... وكم عَمَرْتَ بِها لِلَّهْوِ من وَطَنِ
وكم رَشَفْتَ سُلافاً من أَقاحِ فَمٍ ... وكم رَأَيْتَ بِها بَدْراً على غُصُنِ
وكم ظَفِرْتَ بِمَنْ لولا مَحاسِنُهُ ... ولُطْفُهُ خَلَتِ الدُّنْيا من الفِتَنِ
وَما بَرِحْتَ امْرَأً فينا أَخا حِكَمٍ ... وكُلُّ أَفْعالِهِ تَجْري على سَنَنِ
فكيفَ تُخْدَعُ عن هَذِي المَحاسِنِ أَوْ ... تُجَوِّزُ العَذْلَ فيها مِنْكَ في أُذُنِ
لكنَّ عُذْرَكَ بادٍ في الرُّجوعِ إلى الْـ ... ـمَلِكِ المُجاهِدِ مَولانا أَبي الحَسَنِ
ابْنِ المُؤَيَّدِ ذِي البَطْشِ الشَّديدِ هِزَبْـ ... ـرِ الدِّيْنِ داودَ رَبِّ الفَضْلِ والمِنَنِ
ابنِ المُظَفَّرِ بالأَعْداءِ يُوسفَ لا ... جَفَّتْ مَضاجِعُهُ هَطّالَةَ المُزُنِ
ابنِ المَلِيكِ الذي قادَ العَساكِرَ نُو ... رِ الدِّيْنِ والنَّصْرُ مَعْهُ انْقادَ في رَسَنِ
«العارِضِ الهَتِنِ ابْنِ العارِضِ الهَتِنِ ابْـ ... ـنِ العارِضِ الهَتِنِ ابنِ العارِضِ الهَتِنِ»(١)
مُلوكُ بَيْتٍ إلى أَيُّوبَ نِسْبَتُهُ ... أَكْرِمْ بِبَيْتٍ علىٰ تَقْوىٰ الإِلٰهِ بُني
أَيّامُهُمْ لِلْوَرَىٰ نُورٌ بِلا ظُلَمٍ ... والظُّلْمُ لَوْ حَلَّ في أَفْنائِهِمْ لَفَني
قَد ذَلَّلُوا كلَّ صَعْبٍ من سِياسَتِهِمْ ... بالمُرْهَفاتِ أَو الخَطّارَةِ اللُّدُنِ
سَلُّوا السُّيوفَ فَسَلُّوا من ضَمائِرِها ... ما كانَ فيها علىٰ الأَعْداءِ من إِحَنِ
كم وَرَّدوا خَدَّ أَرْضٍ من عَدُوِّهِمُ ... وقَوَّموا أَوَداً من قامَةِ الزَّمَنِ

---

(١) البيت للمتنبي ، في ديوانه ٤/ ٢١٦ .

وكم أَسالوا دَماً في يَوْمِ حَرْبِهِمُ ... فَخَضَّبوا السَّيْفَ لمّا زَيَّنوا اليَزَني
وأَنْتَ عِنْدَكَ من كلِّ البَضائِعِ في ... شَتّىٰ عُلومِ الوَرىٰ والسُّوقُ باليَمَنِ
فَلَيْسَ يُنْكَرُ أَنْ تُهْدي نَفائِسَها ... [٦٨ أ] لِمَنْ غَدا يَبْذُلُ الغالي من الثَّمَنِ
مَن راحَ يَعْرِفُ ما اسْتَبْضَعْتَ من دُرَرٍ ... بَلْ عِنْدَهُ ضِعْفُ ما تُهديهِ مِن حَسَنِ
وفَضْلُهُ في عُلومِ النَّاسِ فُضَّ لَهُ ... خَتْمُ البَدائِعِ فاسْتَفْتِيهِ وامْتَحِنِ
تَجِدْهُ بَحْراً وَحَبْراً في فَوائِدِهِ ... تُزْري فَصاحَتُهُ بالقالَةِ اللَّسِنِ
وكَفُّهُ وَكْفُهُ بالجُودِ مُتَّصِلٌ ... فَكُلُّ مَنْ هُوَ في تِلْكَ الدِّيارِ غَنِي
نامَ الأَنامُ بِعَدْلٍ طابَ عَيْشُهُمُ ... بِهِ فَهُمْ من جَنىٰ الجَنَّاتِ في جُنَنِ
يُغْنىٰ بِفَصْلِ قَضايا كُلِّ مُشْكِلَةٍ ... حتَّىٰ يُفَرِّقَ بينَ الماءِ واللَّبَنِ
دَعِ المُلوكَ الكِرامَ الذَّاهبينَ فَهَـ ... ـذا سَيْفُ الاسْلامِ لا سَيْفَ بنَ ذِي يَزَنِ
وَمَنْ تكُنْ هذِهِ أَوْصافُ سُؤْدَدِهِ ... تَجِبْ مَدائِحُهُ في السِّرِّ والعَلَنِ
فاحْثُثْ لأَبْوابِهِ العُلْيا بَناتِ سُرىً ... في البَرِّ بالعِيسِ أَو في البَحْرِ بالسُّفُنِ
واسْعَدْ بِرُؤْيَتِهِ وابْشِرْ بِطَلْعَتِهِ ... واملأْ جُفونَكَ بعدَ السُّهْدِ بالوَسَنِ
فَفي تَعِزَّ تَعِزُّ النَّفْسُ مِنْكَ مَتىٰ ... حَلَّتْ وتَغْسِلُ ما لاقَيْتَ من دَرَنِ
فاذْكُرْ هُناكَ مُحِبّاً لَم يَخُنْكَ ولا ... تَنْسَ الوَفاءَ لَهُ إِنْ كُنْتَ ذا شَجَنِ
« إِنَّ الكِرامَ إِذا ما أَسْهَلوا ذَكَروا ... مَن كانَ يَأْلَفُهُمْ في المَنْزِلِ الخَشِنِ »(١)

● **فَكتبَ هو الجوابَ إِليَّ عن ذلك .**

● **وكتبتُ إليه وهو بالقاهرة**(٢) : [من السريع]

ذِكْرُكَ صَدْرَ الدِّيْنِ أَنْساني ... مَلْعَبَ أَوْطاري وأَوْطاني

---

(١) ينسب لأبي تمام في الإعجاز والإيجاز ١٢٥ و٢٢٦ وليس في ديوانه ، ولإبراهيم بن العباس الصولي ، في ديوانه ١٧٧ ولدعبل في ديوانه ٤٦٢ .

(٢) هذه المقدّمة والقصيدة ، ساقطة من س .

واشْتَغَلَتْ نَفْسِي بِتَكْرارِهِ فَاشْتَعَلَتْ مِنْهُ بِنِيرانِ
ومُقْلَتِي عَبْرَتُها مِن دَمِي طافَتْ علىٰ خَدِّي بِطُوفانِ
وُدُّكَ في قَلْبِي غَدا داخِلاً ومِن هَوىٰ غَيْرِكَ بَرَّانِي
أَقْسَمْتُ لو جَهَّزْتُ كُتْبِي علىٰ مِقْدارِ أَشْواقِي وأَشْجانِي
كُلُّ بَرِيدٍ كَلَّ مِن حَمْلِها وَهَجَّ مِنْها كُلُّ هَجَّانِ
يا سَيِّداً فَضَّ لَهُ فَضْلُهُ كِمامَ عِلْمٍ ذاتِ أَلْوانِ
فالحَقُّ ما تَبْعُدُ أَقْوالُهُ مِن ابنِ عبدِ الحَقِّ في شانِ
سِرْتَ إِلى مِصْرَ سَقاها الحَيا تُجاذِبُ العِيسَ بِأَرْسانِ
فَنَوَّلَتْكَ الأَمَلَ المُرْتَجىٰ مِن قُرْبِ ذِي عِزٍّ وسُلْطانِ
وأَجْلَسَتْ شَخْصَكَ في دَسْتِها صَدْراً أَمِيناً غَيْرَ خَوَّانِ
تُوقِعُ إِنْ وَقَّعْتَ في قِصَّةٍ بِكُلِّ ذِي ظُلْمٍ وعُدْوانِ
وتُوصِلُ الحَقَّ إِلىٰ رَبِّهِ وتُرْغِمُ المُبْطِلَ والجانِي
فاهْنَأْ بِما أُوتِيتَ مِنْ رُتْبَةٍ مَكانُها مِن فَوْقِ كِيْوانِ[1]
وَدَعْ مُعادِيكَ يَمُتْ حَسْرَةً ما بَيْنَ سِجِّينٍ وسَجَّانِ
وقُلْ لِدَسْتِ المُلْكِ لا تَنْصَدِعْ فَأَنْتَ في حِرْزِ سُلَيْمانِ[2]

● وكتبَ هو إليَّ من القاهرةِ المحروسَة : [من الوافر]

بَعُدْتَ فَما لأَجْفانِي رُقادُ وَلَيْلِي ما لَهُ أَبَداً صَباحُ[3]
خَلِيلٌ بِنْتُ عَنْهُ وبانَ عَنِّي فَهَلْ لِفَسادِ أَحْوالِي صَلاحُ

---

(١) في ب : × مقامها . . .
(٢) في أ ، ب : . . . لا ينصدع × .
(٣) في أ ، ب : × . . . صلاحُ ! .

● وكتبَ هو إليَّ قرينَ تِيْنٍ مَعَرِّيٍّ وصابونٍ : [من الكامل]

أَهْـدَيْـتُ تِيْنـاً لِلَّـذِي مِـنْ شَـرْطِـهِ ... أَنْ يَفْتَـحَ المَخْتُـومَ بـالمَخْتُـونِ

وخَشِيْـتُ أَنَّ الشَّـرْطَ يَتْبَعُـهُ الجَـزا ... فَـأَتَيْتُـهُ بـالتِّيْـنِ والصّـابـونِ

● فكتبتُ أنا الجوابَ عن ذلك : [من الكامل]

حاشا لِشَرْطِكَ أَنْ يُقابَلَ بالجَزا ... فَيكُـونَ مُحْتـاجـاً إِلـى صَـابـونِ

[٦٨ ب] لـم تُهْـدِهِ تِيْنـاً تَفَتَّـحَ أَبْيَضـاً ... إِلاَّ لأَنْ أَلْقـاهُ بـالـزَّيْتُـونِ

٤٢ * (سُليمان بن داود(١) :

القاضي جمالُ الدِّين بن القاضي عَلَمِ الدِّيْن ، المِصريُّ ؛ كاتبُ الإنشاءِ الشَّريفِ بحَلب المحروسة .

● كتبَ إليَّ عند أوَّلِ قُدومي إليها في شعبان ، سنة ٧٥٩ : [من الكامل]

فَضَـحَ الـذي أَخْفـى هَـواهُ فَبـاحـا ... حُـبٌّ لِحَبَّـاتِ القُلـوبِ أَبـاحـا

وبَكـى فـأَضْحَـكَ عـاذِلِيْـهِ جَهـالَـةً ... وَرَثـى لـهُ حتَّـى الحَمـامُ ونـاحـا

وأَخو الهَوىٰ طَوْعُ الغَرامِ عَصىٰ لِمَنْ ... لاقـىٰ بتَعـدادِ المَـلامِ ولاحـىٰ

هَيْهاتَ هَلْ تَلِجُ المَلامَةُ سَمْعَ مِن ... عِشْـقٍ أَسِيْـرٍ لا يُـريـدُ سَـراحـا(٢)

أَمْ كَيْـفَ يَسْلَـمُ مُسْلِـمٌ مـن فِتْنَـةٍ ... والـدَّهْـرُ قـد مَـلأَ الـوجـودَ مِـلاحـا

(١) ترجمته في : المنتقى من درّة الأسلاك ٤٦٠ والذيل على العبر ٢/ ٤٥٩ ودرر العقود الفريدة ٢/ ١١٢ وإنباه الغمر ١/ ٢٠٩ والدّرر الكامنة ٢/ ١٥١ والنجوم الزّاهرة ١١/ ١٤٤ والمنهل الصافي ٦/ ٣٣ والدليل الشافي ١/ ٣١٨ .
ـ وفاته سنة ٧٧٨ عن نحوٍ من خمسين سنة .
ـ الترجمة بطولها من ب فقط .

(٢) في البيت تقديم وتأخير ، تقديره : سمعَ أَسيرٍ من عشقٍ لا يريدُ سراحا .
وروايته في ط : . . . سمعَ مَن × عشق الأَسيرَ ولا يريدُ سَراحا .

مِـن كُـلِّ ذي قَـدٍّ ولَحْـظٍ فـاتِـكٍ لِلْفَتْـكِ جَـرَّدَ ذابـلاً وصِفـاحـا
خِلْبِ اللّواحِظِ شاطِرِ الحَرَكاتِ مُرْ رِ الهَجْـرِ قـاسٍ لا يَليـنُ جِمـاحـا
كالظَّبْيِ أَو كالغُصْنِ أَو كالصُّبْحِ أَو كـالشَّمْسِ أَو كـالبَـدْرِ لمَّـا لاحـا
فَضَـحَ الغَـزالَـةَ والغَـزالَ مَحـاسِنـاً وَجْهـاً وَجيْـداً جَيِّـداً وَمَـراحـا
يَبْـدُو بِخَـدٍّ نـاعِـمٍ وبِمَبْسَـمٍ فَيُـريـكَ وَرْداً أَحْمَـراً وأَقـاحـا
ومَليحـةٍ مِثْـلُ السُّيـوفِ جُفـونُهـا حَمَلَـتْ بهـا نَحـوَ المُحِـبِّ سِلاحـا
عُلِّقْتُهـا طَـوْعَ الغَـرامِ وخـاطِـرِي هَيْفـاءُ حَـوْراءُ الجَمـالِ رَداحـا
تَجْلـو لنـا وَجْهـاً بَـديعـاً نـاضِـراً ونَـواظِـراً مَـرْضـىٰ الفُتـورِ صِحـاحـا
ومَـراشِفـاً مِثْـلَ العَقِيـقِ وَوَجْنَـةً مِثْـلَ الشَّقِيـقِ ومَنْظَـراً وَضَّـاحـا
وَرَوادِفـاً مثْـلَ الكَثيـبِ يُقِلُّهـا خَصْـرٌ نَحيـفٌ لا يُطِيـقُ وِشـاحـا
تُـرْكِيَّـةٌ تَهْـوىٰ التَّنـافُـرَ والجَفـا تَـرَكَـتْ بِـهِ أَهْـلَ الهَـوىٰ أَشبـاحـا
تَسْقِـي المُحِـبَّ بِكَأْسِهـا وحَـدِيثِهـا ورُضـابِهـا فـي كُـلِّ حيـنٍ راحـا
لَثَمَتْ مَزارِي حِينَ زارَتْ في الدُّجىٰ فَـوَشـىٰ بِنـا واشـي العَبِيـرِ وَبـاحـا
وَضَمَمْتُهـا ضَـمَّ العَفـافِ يُظِلُّنـا ثَـوْبُ الـوَقـارِ فـلا أَخـافُ جُنـاحـا
كـم بـتُّ أَجْنـي مـن ثِمـارِ وِصـالِهـا حُلْـواً وأَغْصـانُ السُّـرورِ كِفـاحـا
شَهْـلاءُ تُبْـدِي نَـرْجِسـاً مـن لَحْظِهـا غَضّـاً ومـن وَجْنـاتِهـا تُفَّـاحـا
للهِ أَيَّـامٌ حَـزِنْـتُ لِفَقْـدِهـا كُنَّـا بِهـا نَقْضِـي السُّـرورَ فِـراحـا
جارَتْ عليَّ وما اجْتَرَحْتُ جِنايَةً وَمَضَتْ وأَبْقَتْ في الفُؤادِ جِراحا
وصَبيحَـةٍ واصَلْتُهـا بِغَبُـوقِهـا وبَكَـرْتُ أَسْتَجْلِـي الـوُجُـوهَ صِبـاحـا
ولَـرُبَّ عَـذْراءِ الـدِّنـانِ سَبَـأْتُهـا مَـعْ مـاجِـدٍ أَلْقـىٰ الـوَقـارَ فَطـاحـا
فـي لَيْلَـةٍ ظَلْمـاءَ خـافٍ نَجْمُهـا فَغَـدَتْ لَنـا حتَّـىٰ الصَّبـاحِ صَبـاحـا
أَيَّـامَ جَـرٍّ تَـرىٰ ذيـولِ شَبيبَتـي مَغْـدىً إِلـى فُـرَصِ الهَـوىٰ ومَـراحـا

قد كُنْتُ أَرْجُو بالقَرِيضِ وبالصِّبا ... دَهْراً بِهِ يَنْجُو الأَدِيبُ نَجاحا
كم قُلتُ لِلأَدَبِ الذي أَسْواقُهُ ... بارَتْ وَضَرَّ رُواتَهُ واجتاحا
ذَهَبَ الصِّبا والشِّعْرُ أُرْخِصُ سِعْرُهُ ... حتّىٰ لقد أَضْحَىٰ القَرِيضُ مُزاحا
قد أَضْحَتِ الشَّهْباءُ تَرْوِي الغَمْرَ عن ... غُمْرٍ وَوِرْدُ رُواتِها الضَّحْضاحا
فأَجابَ بعدَ فَسادِهِ وكَسادِهِ ... إِنِّي لأَرْجُو بالصَّلاحِ صَلاحا
الكاتِبُ السِّرَّ الذي بعُلومِهِ ... أَضْحىٰ لآفاقِ العُلىٰ مِصْباحا
ببَلاغَةٍ إِنْ أَرْعَبَتْ ضاقَ الفَضا ... أَوْ أَرْغَبَتْ حَكَتِ السَّماءَ سَماحا
وبَراعَةٍ مَشْكُورَةٍ مَشْهُورَةٍ ... إِعْجازُها قد أَعْجَزَ المُدّاحا
ويَراعَةٍ كالسَّيْفِ ماضٍ حَدُّها ... أَمسىٰ لأَبْوابِ العُلا مِفتاحا
ومَكارِمٍ بِصَنيعِها مَلَكَ الورىٰ ... فَضَحَ الغُيوثَ بها فَرُحْنَ شِحاحا
بَحْرُ النَّدىٰ ، حَبْرُ العُلُوم ، ببابِهِ ... تَجِدِ المُتاجِرَ بالقَرِيضِ رَباحا
نَدْبٌ إذا انْتَدَبَ البَراعَةَ أَبْصَرَتْ ... حُسّادُهُ القَدْرَ المُطاعَ مُتاحا
يا ماجِداً أَلِفَ المَعالي فاغْتَدَىٰ ... يَهْوي غُدُوّاً نَحْوَها وَرَواحا
قَلَّدْتَ جِيدَ الدَّهْرِ جُوداً سُحْبُهُ ... يَروي البِلادَ عَوالِياً وبِطاحا
أَوْرَىٰ بِنُورِ المَجْدِ قَدْحُكَ زَنْدَهُ ... بِيَمِينِ عِلْمٍ لا يَمَسُّ قِداحا
بُشْرىٰ بَني الشَّهْباءِ مِنكَ بِقُبْلَةٍ ... لِلمَجْدِ قَرَّبَ رَبْعَها فَأَراحا
قُلْ لِلذي صاغَ الثَّناءَ قَلائِداً ... كالمِسْكِ فاقَ شَذَا الرِّياضِ فَفاحا
صَرِّحْ بِمَدْحِ أَخي المآثِرِ والعُلا ... واكْثِرْ فقد مَلَكَ الفَخارَ صَراحا
فَلْيَهْنِ أَهْلَ الفَضْلِ منهُ بفاضِلٍ ... جَعَلَتْهُ عِزُّ عُلومِهِ سَفّاحا
إِنَّهُ صَلاحُ الدِّيْنِ والدُّنْيا الذي ... أَرْجو لَدَيْهِ في العُلومِ فَلاحا
وأَخَذْتَ لِلعِلْمِ الكَرِيمِ فَوارِساً ... تُرْدي العِدىٰ وصَوارِماً ورِماحا
إِذْ صُنْتَ عِرْضاً لا نَظِيرَ لِصَوْنِهِ ... بِمَكارِمٍ تَذَرُ النُّضارَ مُباحا

حَجَّتْ بَنو الآمالِ نَحْوَكَ تَبْتَغي ... منكَ الحِجىٰ يا فاضِلاً جَحْجَاحا
ماتَ الحَسودُ وقد صَعَدْتَ ذُرَىٰ العُلا ... تُحْيي بِطِيْبِ كلامِكَ الأَرْواحا
بِجُنودِ كُتْبٍ كالكتائِبِ قد كَفَتْ ... نَصْرَ المُلوكِ فَلا يُريدُ كِفاحا
كم جَرَّدَوا قبلَ الجِلادِ جدالَها ... فاسْتَأْصَلَتْ فِرَقَ العَدُوِّ فَراحا
مَن قُسُّ ساعِدَةٍ ومَنْ سَحْبان وا ... ئِلَ في الأَوائِلِ ؟ ما تَرَكْتَ فِصاحا
قد شِمْتَ بَرْقَ الشّامِ لَمّا أَنْ عَلا ... بِكُم وأَرْسَلَ وابِلاً سَحّاحا
إنِّي ظَمِئْتُ لِورْدِ بَحْرِ عُلومِكُم ... والوِرْدُ ناءٍ يُتْعِبُ المُلْتاحا
واسْعِفْ بلَفْظِكَ غَرْسَ فَضْلِكَ قد دَنا ... منكَ الوُرُودُ وأَمْكَنَ المُمْتاحا
وامْنَحْ أَحاديثَ الثَّناءِ إجازَةً ... فَعَسايَ أُسْنِدُها إليكَ صِحاحا
واسْمُ على مَرِّ الزَّمانِ وَكَرِّهِ ... يُبْدِ السُّرورُ لِرَبْعِكَ الأَفْراحا

● وكتبَ إليَّ جَواباً ، وقد وقفَ على اللُّغزِ الذي نَظَمْتُهُ في شهر رمضان ، وقد تقدَّم ذلك في ذِكر الشَّيخ شَرفِ الدِّينِ أَحمد بن الحسن ، وفي ذِكْرِ القاضي فخر الدِّين عبد الوهَّابِ : [من السريع]

مَتَّعَنا اللهُ بآدابِكَ الْـ ... ـلاَّتي تُرَوِّي غُلَّةَ القَلْبِ
أَلْغَزْتَ شَهْراً عَظَّمَتْ قَدْرَهُ الْـ ... ـعُجْمُ مَعَ الأَتْراكِ والعُرْبِ
وفيهِ رُمّانٌ تَأَتَّىٰ لَهُ ... أُكُلُهُ حِلاًّ بِلا ذَنْبِ
وَعَكْسُهُ « أُضْمِرَ » معْ حَذْفِ ما ... يُلْقَىٰ لَه قَلْبٌ بِلا قَلْبِ
فَهِمْتُهُ فافْصِحْ لنا سَيِّدي ... عن مُدغَمِ الإجراءِ بالكتبِ
أَجزاؤُهُ في عَدِّها خَمْسَةٌ ... ثُلْثٌ لَهُ كالتَّلِّ بالقَلْبِ
خُمْساهُ خُسْرانٌ وإنْ صُحِّفا ... شَيْءٌ بِما في سِرِّنا يُنْبي
وإنْ عَكَسْناهُ وَصَحَّفْتَهُ ... فَثَوْبُكُمْ بِالفَخْرِ ذو عُجْبِ

● وكتبَ إليَّ قَرينَ عَباءَةٍ بَيْضاءَ ومِئْزَرٍ أَسودَ : [من مجزوء الكامل]

سِـرْ يـا قَـريـضُ لِبـابِ مَـن ... بَحْـرُ العُلـوم بِمَـوْرِدِهْ
واسْـأَلْ قَبـولَ هَـدِيَّتـي ... مَـن عَمَّنـا بِنَـدىٰ يَـدِهْ
قـد دُبِّجَـتْ أَوْصـافُـهُ ... مـن لَـوْنِهـا بِمُنَضَّـدِهْ
فَبَيـاضُهـا مـن كَفِّـهِ ... وسَـوادُهـا مـن سُـؤْدَدِهْ

● فكتبتُ أنا الجوابَ إليهِ : [من مجزوء الكامل]

وافـىٰ قَـريضُـكَ مـاحِيـاً ... ظُلَـمَ الـدُّجـى بِتَـوَقُّـدِهْ
وقَـرينُـهُ الفَضْـلُ الـذي ... عُنُقِـي ازْدَهـى بِمُقَلَّـدِهْ
خَـدٌّ نَقِـيٌّ زانَـهُ ... خَـطُّ العِـذارِ بـأَسْـوَدِهْ
فـأَنـالَنـي مـن جُـودِهِ ... وأَمـالَنِـي بِمُجَـرَّدِهْ
إِن تَبْتَـدِعْ فُقْـتَ الـورىٰ ... وفَضَلْتَهُـمْ إِن تَبْتَـدِهْ

● وتَوَجَّهْنا إلى حماةَ المحروسةَ ، وكان مَعَنا ، فنظرتُ ونحنُ سائرون إلى الطُّرُقِ وتَعاريجِها ، وعَدَمِ اسْتِقامَتِها وتَلَوِّيها ، فقلتُ أنا : [من الوافر]

سَلَكْنـا البِيْـدَ مـعْ سـاداتِ قَـوْمٍ ... لَهُـمْ هِمَـمٌ إِلـى العَلْيـا سَـرِيْعَـهْ
وَوَضْـعُ الطُّـرْقِ يَبْـدو فـي اخْتِـلافٍ ... كَحَيَّـاتٍ قـد انْسـابَـتْ مَـروعَـهْ

● ونَظَمَ المولىٰ جمالُ الدِّين المذكور سُليمان : [من البسيط]

وَأَبْيَضُ الطُّرْقِ يَزْهُو بينَ أَحْمَرِها ... فـاعْجَبْ لَـهُ بَيْـنَ تَلْـوِيـنٍ وتَكْـوِيْـنِ
يَمْشِي اسْتِواءً وطَوْراً يَلْتوي مَرَضاً ... مِثْـلَ الجَـداوِلِ مـا بيـنَ البَسـاتيـنِ)

٤٣ * سَعْدُ الله بن حَيْدَر[١] :

الشَّريفُ السَّيِّدُ الكاتِبُ ، النَّاظِمُ ، سعدُ الدِّينِ ، الحُسَيْنيّ ، البَغْداديّ .

---

(١) ترجمته في : الدّرر الكامنة ٢/ ١٣٢ .
ـ ولادته سنة ٧٢١ هـ .
ـ في أ ، م : الحسنيّ ! . وفي م : سعد الدّين بن حيدر ! .

● كتبَ إليّ بدمشق المحروسة في سنة ٧٥١ : [من الكامل]

إقْـرارُ عـاذِلِـهِ بِـأَنْ لَـمْ يَعْشَـقِ ... عُـذْرٌ لَـهُ ولِكُـلِّ صَـبٍّ شَيِّـقِ[1]
لَـو نـالَـهُ مـا نـالَـهُ مِـن مِحْنَـةٍ ... وَمَحَبَّـةٍ أَبْـدىٰ مَقـالَـةَ مُشْفِـقِ
أَحْبِـبْ بِسُهْـدٍ كـالهُمـومِ مُجَمَّـعٍ ... عِنْـدي وصَبْـرٍ كـالجُفـونِ مُفَـرَّقِ
لا تَعْجَبَـنَّ ولَـن تُطِيـقَ إذا ٱمْتَـلا ... غَرْبُ الـدُّموعِ لِبُعْدِ أَهْلِ المَشْرِقِ
بَخِلـوا بِقُـرْبِهِـمُ ومـا مِـنْ شَـأْنِهِـمْ ... بُخْـلٌ فَمـا فـي النَّـوْمِ يَـوْمـاً نَلْتَقـي
خَيْـرُ البِـلادِ لَـدَيَّ بَغْـدادٌ وَمـا ... والَـتْ وإنْ كَثُـرَتْ مَحـاسِـنُ جِلَّـقِ
فَلَكَـمْ رَأَيْـتُ بِهـا غَـزالاً إنْ رَأىٰ ... شَـرَكـاً أُتِيْـحَ لِصَيْـدِهِ لَـمْ يَفْـرَقِ
أَلْفـىٰ أَبـاهُ علـىٰ المَـوَدَّةِ نـاشِئـاً ... فَـوِدادُهُ خُلْـقٌ بِغَيْـرِ تَخَلُّـقِ[2]
وتَـروقُـكَ الأَشْجـارُ والأَنْهـارُ إنْ ... مَيَّـزْتَ بَيْـنَ مُقَيَّـدٍ أَوْ مُطْلَـقِ
فَتَظَـلُّ نَشْـوانـاً ولـم تُصْبَـحْ طِـلاً ... فَتُـرىٰ قَـرِيْـنَ الإِثْـمِ أَوْ لَـمْ تَغْبَـقِ
وتَشَـمُّ مِـن مِسْـكِ الأَزاهِيـرِ التـي ... تُـزْهَـىٰ لِناظِـرِهـا بِلَـوْنٍ مُـونِـقِ[3]
مِـن أَسْـوَدٍ فـي أَحْمَـرٍ أَوْ أَصْفَـرٍ ... فـي أَبْيَـضٍ أَوْ أَخْضَـرٍ فـي أَزْرَقِ
لَكنَّهـا تَـدَعُ الغَنِـيَّ إذا غَـدا ... تَبَعـاً لِشَهْـوَتِـهِ قَـرِيْـنَ المُمْلِـقِ
لولا صَلاحُ الدِّيْنِ لم يَصْلُحْ بِها ... حـالـي ولـم أَرَ غَيْـرَ بـابٍ مُغْلَـقِ
ذو المَنْطِقِ العَذْبِ الذي قَدْ أَصْبَحَتْ ... تَـروىٰ النُّفـوسُ بِمـائِـهِ المُتَـدَفِّـقِ
لَـو لَـم يَكُـنْ دُرّاً نَفِيْسـاً نَظْمُـهُ ... ما كانَ في صَدَفِ القُلوبِ المُلْصَقِ
كم جاءَ بالمَعْنىٰ البَدِيعِ فَأَجْمَعَ الْـ ... ـفُضَـلاءُ فِيـهِ أَنَّـهُ لـم يُسْبَـقِ
لـولاهُ لـم يُبْـرِزْ ظَـلامُ النَّفْـسِ لِلْـ ... أَبْصـارِ أَنْـوارَ الصَّبـاحِ المُشْـرِقِ

---

(١) في ب : × . . . . ولكل عبد يتقّ ! . وفي م : إقرار عاشقه . . . × .
(٢) في ب : × . . . . ناثباً [= نابتاً] .
(٣) في ب : × . . . الأزاهر والتي × .

يَمْشِي بِمَيْدانِ الطُّروسِ يَراعُهُ هَوْناً فَيُزْرِي بِالجِيادِ السُّبَّقِ
ويَجِيءُ بالمَعْنىٰ المُرادِ مُكَمَّلاً فَيحيلُ أَن يَأْتي بفَضْلٍ مُلْحَقِ
لا فَرْقَ بَيْنَ لِسانِهِ ويَراعِهِ فَكِلاهُما يُبْدِي بَيانَ مُوَفَّقِ
إنْ شاءَ إنْشاءً فأَفْصَحُ مُحْسِنٍ سَعَةُ العِبارَةِ في المَجالِ الضَّيِّقِ
نَسَخَتْ عِبارَتُهُ رِقاعَ الفاضِلِ الْـ ـماضي ولم أَنْطِقْ بغَيْرِ مُحَقَّقِ(١)
لم يَعْلُ إلاَّ ٱزْدادَ حُسْنَ تَواضُعٍ ورَأَىٰ التَّكَبُّرَ شَرَّ وَصْفِ الأَحْمَقِ
يَبْغي الجَهولُ مَكانَهُ أو بَعْضَهُ فَيَظَلُّ مَمْنُوّاً بما لَمْ يُرْزَقِ
إنْ كُنْتُ قد ضَيَّعْتُ أَيَّاماً مَضَتْ بالبُعْدِ عَنْهُ فَلا أُضَيِّعُ ما بَقي
لأَفُوزَ مِنْهُ بقُرْبِ خَيْرٍ أَرْتَجي وأَفوزَ مِنْهُ ببُعْدِ شَرٍّ أَتَّقي
فَلِمِثْلُ شِعْرِي عِنْدَهُ غالٍ إذا هو عِنْدَ ذي جَهْلٍ بهِ لم يَنْفُقِ
شِعْرٌ يَقولُ أَجَدْتَ مَعْناهُ فَلَوْ فاخَرْتَ كُلَّ مُفَوَّهٍ لم يَنْطِقِ
فانْشُرْهُ في الآفاقِ يُنْسَ بذِكْرِهِ ما كانَ يَحْفَظُهُ حُداةُ الأَيْنُقِ
هَذا هُوَ الشِّعْرُ الذي لم يَغْصِبِ الْـ ـمَعْنىٰ وقَلَّ اليَوْمَ مَنْ لَمْ يَسْرِقِ
إنْ يُكْسَ أَسْمالَ العِبارَةِ غَيْرُهُ فَلِباسُهُ من باهِرِ الإسْتَبْرَقِ
فَيَحارُ بَيْنَ حِبائِهِ وثَنائِهِ فِكْري لأَيِّهِما المَدائِحَ يَنْتَقي
وَأَظَلُّ في ظِلٍّ مِن الإحْسانِ بَيْـ ـنَ الرَّوْضِ مِنْهُ والغَديرِ المُتْأَقِ
ونَسيمُ شِعْري لا يَمُرُّ بِرَوْضَةٍ [٦٩ أ] فَيُقالُ مَرَّ بها ولَمّا يَعْبَقِ
لا سِيَّما وقد ارْتَضَيْتُ مَحَلَّهُ من شاعِرٍ جَمِّ المَعاني مُفْلِقِ
مِن شاعِرٍ باللَّمْحِ يُدْرِكُ كُنْهَهُ ويَجُولُ في مَعْنىً بهِ مُتَعَلِّقِ
فَيَرَىٰ حَقيقَةَ أَنَّني لَسْتُ امْرءاً يَرْضَىٰ بِقَوْلٍ مُمَوَّهٍ مُتَمَلِّقِ(٢)

* * *

(١) في ب : × . . . . . تحقق .
(٢) بعد ذلك في س : فكتبتُ أنا جوابه . قلتُ : وليس ثَمَّ جوابٌ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

حَرْفُ الشِّيْنِ

٤٤ * شافِع بن عليّ بن إسماعيل بن عَساكر(١) :

الشَّيْخُ الإمام ، الكاتِبُ البَليغُ ، ناصِرُ الدِّيْنِ الكِنانيّ ، العَسْقَلانيّ ، المِصْريّ ، ابنُ أُختِ القاضي مُحيي الدِّين بن عبدِ الظَّاهر .

● **كتبتُ أنا إليهِ أَسْتَدْعي إجازَتَهُ ، وأَنا بالقاهرةِ المحروسَة سنة ٧٢٨(٢) :**

المَسْؤولُ من إحسانِ سَيِّدِنا الشَّيخِ الإمامِ العالِمِ المُفيدِ القُدْوَةِ ، جامِعِ شَمْلِ الاداب ، قِبْلَةِ أَهْلِ السَّعْيِ في تَحْصيلِهِ والدَّأْبِ(٣) : [من الطويل]

أَخي المُعْجزاتِ الّلائي أَبْدَتْ طُروسَهُ ... كَــأُفْــقٍ بِــهِ لِلنَّيِّــراتِ ظُهــورُ
وما ثَمَّ إلاَّ الشَّمْسُ والبَدْرُ في السَّما ... وهــذا شُمــوسٌ كُلُّــهُ وبُــدورُ

البَليغِ الذي أثارَ أَوابِدَ الكَلِمِ من مَظانِّ البَلاغَةِ ، وأَبْرَزَ عَقائِلَ المَعاني تَتَهادىٰ في تِيْجانِ أَلْفاظِهِ ، فَجَمَعَ بَيْنَ صِناعَةِ السِّحْرِ والصِّياغَةِ ، وأَبْدَعَ في طَريقَتِهِ المُثْلىٰ فَجَلَّتْ عن المِثْلِ ، وأَنْبَتَ في رِياضِ الأَدَبِ غُروسَ فَضْلٍ لا تُقاسُ بِدَوْحاتِ البانِ ولا الأَثْلِ ، وأَظْهَرَ نِظامُهُ عُقوداً حَلَّتْ من الزَّمانِ كلَّ ما عَطَلَ ، وقالَ لِسانُ الحالِ ، مِمَّنْ يَتَعاطاهُ : مُكْرَهٌ أَخاكَ لا بَطَلٌ ، وجَلا عِنْدَ نِثارِهِ كَلماتٍ مَقْصوراتٍ في خِيامِهِ ، وَذَرَّ علىٰ كافورِ قِرْطاسِهِ مِسْكَ خِتامِهِ ،

---

(١) ترجمته في : أَعيان العصر ٢/ ٥٠١ والوافي بالوفيات ١٦/ ٧٧ ونكت الهميان ١٦٣ وفوات الوفيات ٢/ ٩٣ وتذكرة النبيه ٢/ ٢٠٨ والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٤ والمنهل الصافي ٦/ ١٩٦ والدليل الشافي ١/ ٣٤٠ وحسن المحاضرة ١/ ٤٩٣ .
ـ ولادته سنة ٦٤٩ هـ . ووفاته سنة ٧٣٠ هـ .

(٢) نص الاستدعاء في أَعيان العصر والوافي .

(٣) البيتان فقط في نكت الهميان .

ناصرُ الدّين شافِعُ بن عَليّ[1] : [من السريع]

لا زالَ فــي هــذا الــوَرىٰ فَضْلُــهُ ... يَسِيْــرُ سَيْــرَ القَمَــرِ الطّــالِــعِ
حتَّــىٰ يَقــولَ النّــاسُ إِذْ أَجْمَعُــوا ... مــا مــالِــكُ الإِنْشــا سِــوىٰ شــافِــعِ

إجازَةَ كاتِبِ هذه الأَحْرُفِ ما يَجُوزُ لَهُ رِوايتُه من كُتُبِ الحَديثِ وأَصْنافِها ، ومُصَنَّفاتِ العُلومِ علىٰ اخْتِلافِها ، إلى غيرِ ذلكَ كيفَما تأَدَّىٰ إليهِ من مَشايِخِهِ الذين أَخَذَ عنهم ، من قِراءَةٍ أَو سَماعٍ أَو إجازَةٍ أَو مُناولَةٍ أَو وَصِيَّةٍ ؛ وإِجازَةَ ما لَهُ ـ فَسَحَ اللهُ في مُدَّتِهِ ـ من تَأْليفٍ وَوَضْعٍ ، وتَصْنِيفٍ وجَمْعٍ ، ونَظْمٍ ونَثْرٍ ، والنَّصَّ على ذِكْرِ مُصَنَّفاتِهِ وتَعْيِينِها في هذِهِ الإِجازةِ إجازَةً عامَّةً ، على أَحَدِ القولين في مِثْلِ ذلكَ ، واللهُ يُمْتِعُ بِفَوائِدِهِ ، ويَنْظِمُ على جِيْدِ الزَّمَنِ العاطِلِ دُرَّ قَلائِدِهِ ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ .

● **فَكتبَ هو الجوابَ عن ذلك[2] :**

أَمَّا بعدُ ؛ فالحمدُ للهِ الذي أَمْتَعَ من الفُضَلاءِ بكلِّ مُجيزٍ ومُسْتَجِيزٍ ، وأَشْهَدَ من مُعاصري ذَوي الدِّرايَةِ والرِّوايَةِ مَن جَمَعَ بينَ البَسيطِ من عُلُوِّ الإِسْنادِ والوَجِيزِ ؛ نَحْمَدُهُ على نِعَمِهِ (التي) يَجِبُ لَهُ عليها الإِحْمادُ ، ونَشْكُرُه على تَهْيِئَةِ فَضْلِها المُخَوِّلِ شَرَفَ الإِسْعافِ والإِسْعادِ ، ونُصَلِّي على سَيِّدِنا محمَّدٍ ، المُعَظَّمَةُ رُواةُ حَديثِهِ ، وحُقَّ لَهُم التَّعْظِيمُ ، العالِيَةُ قَدْراً وسَنَداً ، مَن شَأْنُهُ التَّبْجيلُ والتَّفْخيمُ ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ [٦٩ ب] آلِهِ وصَحْبِهِ ، وما أَحَقَّهُم بالصَّلاةِ والتَّسْليمِ .

وبعدُ ؛ فإِنِّي وَقَفْتُ على ما الْتَمَسَهُ الإِمامُ الفاضِلُ ، الصَّدْرُ الكامِلُ ،

---

(١) البيتان فقط في نكت الهميان .
(٢) نص الجواب في أعيان العصر والوافي .

المُحَدِّثُ الصَّادِقُ ، العَلِيُّ الإِسْنادِ ، الرّاقي إِلى دَرَجاتِ عُلماءِ الحديثِ النَّبويِّ بِعُلُوِّ رِوايَتِهِ السَّائِرَةِ على رُؤوسِ الأَشْهادِ ، وهو غَرْسُ الدِّينِ خَليلُ بن أَيْبَك[1] : [من الطويل]

وَحَسْبي بِهِ غَرْساً تَسامىٰ أَصالَةً إِلى أَن سَما نَحْوَ السَّماءِ عَلاؤُها
حَوىٰ من بَديعِ النَّظْمِ والنَّثْرِ ما رَقا إِلى دَرَجاتٍ لا يُرامُ انْتِهاؤُها[2]

اسْتَجازَ ، أَعَزَّهُ اللهُ ، بِبَديعِ النَّظْمِ والنَّثْرِ في اسْتِجازَتِهِ ، وقالَ فَأَبْدَعَ في إِبْدائِهِ وإِعادَتِهِ ، وَتَنَوَّعَ في مَقالِهِما فأَسْمَعَ ما شَنَّفَ الأَسْماعَ ، وَأَبانَ عَمَّا انْعَقَدَ على إِبْداعِهِ الإِجْماعُ ، وقالَ فَما اسْتَقالَ ، وَرَتَّلَ آيَ مُحْكَمِ كِتابِهِ ، فَتَمَيَّزَ وَحُقَّ لَهُ التَّمييزُ علىٰ كُلِّ حالٍ .

وقد أَجَبْتُهُ إِلى ما بِهِ رَسَمَ جُمْلَةً وتَفْصيلاً ، وَأَصْلاً وفَرْعاً ، وَأَبْدَيْتُ بِهِ وَجْهاً من وُجُوهِ الإِجابَةِ جَميلاً ، ما يَجُوزُ لي رِوايَتُهُ من كُتُبِ الحَديثِ وأَصْنافِها ، ومُصَنَّفاتِ العُلومِ حَسْبَ إِجازَةِ أُلاَفِها ، حَسْبَما أُجِزْتُ بِهِ من المَشايِخِ الذينَ أَخَذْتُ عَنهم ، وسأَلتُ الإِجازَةَ مِنهم ، بِقِراءَةٍ ، أَو سَماعٍ ، أَو مُناوَلَةٍ ، أَو وَصِيَّةٍ ؛ وما لِيَ من تَأْليفٍ وَوَضْعٍ ، وَنَظْمٍ ونَثْرٍ وَجَمْعٍ .

وَذَكَرَ تَصانِيفَهُ كُلَّها .

● **واسْتَنْشَدَني شَيئاً من نَظْمي ، فأَنْشَدْتُهُ لِنَفْسي**[3] : [من الخفيف]

إِنَّ وِرْدِي مِنَ الحِمامِ قَريبٌ فَلِهذا أَمْسَتْ دُموعي مُفاضَهْ
وَلَكَمْ جَهْدُ ما يَكونُ بَعيداً ومَشِيْبي رَشاشُ تِلْكَ المَخاضَهْ

(١) البيتان فقط في أَعيان العصر .
(٢) في أ : × . . . لا يلام . . . ! . وفي م : × . . . لا يُنال . . . .
(٣) هما في أَعيان العصر .

● فأنشدني لنفسه(١) : [من الخفيف]

قالَ لي مَنْ رَأَىٰ صَباحَ مَشِيْبي عن شِمالٍ من لِمَّتي ويَمينِ :
أَيُّ شَيْءٍ هذا ؟ فَقُلْتُ مُجيباً : لَيلُ شَكٍّ مَحاهُ صُبْحُ يَقينِ

● وأنشدني هو لنفسه(٢) : [من الطويل]

تَعَجَّبْتُ من أَمْرِ القَرافَةِ إِذْ غَدَتْ على وَحْشَةِ المَوْتىٰ لَها قَلْبُنا يَصْبو
فَأَلْفَيْتُها مَأْوَىٰ الأَحِبَّةِ كُلِّهِمْ ومُسْتَوْطَنُ الأَحْبابِ يَصْبُو لَهُ القَلْبُ

● فأنشدتُه أنا لنفسي : [من الوافر]

أَلا إِنَّ القَرافَةَ إِنْ غَدَوْنا تَميلُ لَها القُلوبُ ولا عَجيبا
فَما فِينا مُصابٌ قَطُّ إِلاَّ تَضُمُّ لَهُ قَريباً أَو حَبيبا

● وأنشدني لنفسه أيضاً(٢) : [من الطويل]

وَبي قامَةٌ كالغُصْنِ حِينَ تَمايَلَتْ وكالرُّمْحِ في طَعْنٍ يَقُدُّ وفي قَدِّ
جَرىٰ من دَمي بَحْرٌ بِسَهْمِ فِراقِهِ فَخَضَّبَ مِنْهُ ما علىٰ الخَصْرِ مِن بَنْدِ

● فأنشدتُه أنا لنفسي(٣) : [من المجتث]

قد شَدَّ حِبِّيَ بَنْدا في حُمْرَةٍ مِثْلِ خَدِّهْ
كَخاتَمٍ من عَقيقٍ قد زانَ خِنْصَرَ قَدِّهْ

فقالَ : لوِ اتَّفَقَ لَكَ : خِنْصَرُ خَصْرِهِ ، لَكانَ أَحْسَنَ ؛ فقلتُ : [من المجتث]

في حُمْرَةِ البَنْدِ مَعْنىٰ مِمَّنْ سَباني بِهَجْرِهْ
كخاتَمٍ من عَقيقٍ قد زانَ خِنْصَرَ خَصْرِهْ

* * *

(١) هما في أعيان العصر ، والوافي ، والفوات ، ونكت الهميان ، والدّرر الكامنة ، وتذكرة النبيه ، والنجوم الزاهرة ، والمنهل الصافي ، والدليل الشافي .
(٢) هما في أعيان العصر ، والوافي ، ونكت الهميان ، وفوات الوفيات .
(٣) هما في أعيان العصر .

حَرْفُ العَيْنِ

٤٥ * عبدُ اللهِ بن عليّ بن محمَّد بن سَلمان(١) :

الكاتبُ البَليغُ المُجيدُ ، جَمالُ الدِّين بن الشَّيخ علاءِ الدِّين بن القاضي شَمْسِ الدِّين ابن غانِم ، كاتِبُ الإنْشاءِ الشَّريفِ بالشَّامِ المحروسِ .

● **كتبَ إليَّ عند قُدومي [٧٠ أ] من الرَّحْبَةِ المحروسَةِ ، ودُخولي إلى ديوانِ الإنْشاءِ بالشَّامِ المحروسِ في سنة ٧٣١(٢)** : [من الوافر]

تَقولُ جَماعَةُ الدِّيْوانِ : فيهِ   فَسادٌ لا يُزالُ ولا يُزاحُ
فَقُلْتُ : فَسادُهُ سَيَزولُ عَمَّا   قَليلٍ إذْ بَدا فيهِ الصَّلاحُ

● **فكتبتُ أَنا جَوابَه(٣)** : [من الوافر]

هَويتُ جَماعَةَ الدِّيْوانِ دَهْراً   فلمَّا ضَمَّنا بِدِمَشْقَ مَغْنىٰ
نَظَرْتُ إليهِمُ نَظَرَ انْتِقادٍ   فكنتَ جَمالَهُمْ لَفْظاً ومَعْنىٰ

● **وكتبَ هو إليَّ وأَنا بصَفَد المحروسَة ضَعيفٌ(٣)** : [من الوافر]

كِتابُكَ قد أَتىٰ عَيْني وفيها   فَسادُ نَوىً لِشَوْقي وارْتِياحي
فَجَدِّدْهُ فَلَيْسَ يَزولُ إلاَّ   إذا عادَ الصَّلاحُ إلى الصَّلاحِ

---

(١) ترجمته في : مسالك الأَبصار ١٢/ ٤٦١ وأَعيان العصر ٢/ ٦٩٦ والوافي بالوفيات ١٧/ ٣٥١ وفوات الوفيات ٢/ ٢٠٦ وتذكرة النبيه ٣/ ٥٤ وتعريف ذوي العلا ٢٦ وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٣٨٥ والدّرر الكامنة ٢/ ٢٧٨ .
ـ ولادته سنة ٧١١ هـ . ووفاته سنة ٧٤٤ هـ .
ـ في م : عليّ بن عبد الله بن عليّ . . . ! .

(٢) هما في أَعيان العصر والوافي والدّرر الكامنة .

(٣) هما في أَعيان العصر والوافي .

● **فكتبتُ أَنا جوابَه**[1] : [من الوافر]

كِتـابُـكَ جـاءَنـي فَنَفـىٰ هُمـومـي　　وآذَنَ سُقْـمَ جِسْمـي بـالـزَّوالِ
وأَذْكَـرَ نـاظِـري زَمَنـاً حَميـداً　　تَمَتَّـعَ بـالجَمـالِ مـن الجَمـالِ

● وكنتُ قد وَعَدْتُهُ بعارِيَّةِ رسالةٍ لابن رَشيقٍ ، سمَّاها « ساجورُ الكَلْبِ » وَتَأَخَّرَ إِرْسالُها ، فكتَبَ إِليَّ[2] : [من الخفيف]

يـا جَـواداً عِنـانُـهُ فـي يَـدِ الجُـو　　دِ تَبـاخَلْـتَ لـي بِسـاجُـورِ كَلْـبِ
لا تُضِـعْ رُتْبَـةَ الفَضْـلِ والإِيْـ　　ـثـارِ فـالأَمْـرُ دُونَ بَـذْلِ العَتْـبِ
وإِذا لَـمْ يَكُـنْ مِـنَ العَتْـبِ بُـدٌّ　　فَمُـرادي إِنْ شِئْـتَ غَيْـرُ الكُتْـبِ

● **فَجَهَّزْتُها إِليهِ ، وكتبتُ مَعها** : [من الخفيف]

أَيُّهـا الأَرْوَعُ الـذي فـاقَ مَجْـداً　　لا تُـؤَنِّـبْ مَـن لا أَتـاكَ بِـذَنْـبِ
أَنْـتَ تَـدْري أَنَّ الـوَفـاءَ المُـوَفَّـىٰ　　لي طِباعٌ في الوُدِّ من غَيْرِ كَسْبِ
أَنـا أَخْبـا لـو كـانَ طَـوْقَ عَـروسٍ　　عَنْكَ حتَّىٰ أَصونَ ساجُورَ كَلْبِ ؟

● **وكتبَ هو إِليَّ يوماً**[3] : [من السريع]

قَـد أَصْبَـحَ المَمْلـوكُ يـا سَيِّـدي　　يَخْتـارُ أَنْ يَفْتَـرِعَ الـرَّبْـوَهْ
وقـد أَتـىٰ صُحْبَتَكُـمْ يَبْتَغـي　　فَـأَسْعِفُـوا واغْتَنِمُـوا الخَلْـوَهْ

● **فكتبتُ أَنا جَوابَه ارْتِجالاً**[4] [من السريع]

مـا لـي علـى الـرَّبْـوَةِ من قُـدْرَةٍ　　لأَنَّنـي أَعجـزُ عـن خُطْـوَهْ
وليـسَ مَـرْكـوبـي هُنـا حـاضِـراً　　فَمُـرَّ نَحْـوَ الخَلْـوَةِ الحُلْـوَهْ

---

(١) الأَبيات في أَعيان العصر والوافي .
(٢) الخبر والأَبيات في أَعيان العصر والوافي .
(٣) هما في أَعيان العصر والوافي والدّرر الكامنة .
(٤) هما في أَعيان العصر والوافي .

● وكتبتُ أَنا إِليهِ ، وقد طَوَّلَ الغَيْبَةَ في بَعْلَبَكَّ(١) : [من الرجز]

قَــــرَّبِــــكَ القَلْـــبُ الـــذي أَبْعَـــدْتَـــهُ وقَـــرَّبَـــكْ
يــا نــازِحــاً عــن جِلَّــقٍ ونـــازِلاً فـــي بَعْلَبَـــكْ
لَـــكَ البَـــلاغـــاتُ التـــي أَبْـــدَعْـــتَ فيهـــا مَـــذْهَبَـــكْ
جَـــرَّتْ جَـــريـــراً فـــالتَّـــوىٰ إِلـــى النَّسيـــبِ وأَنْسَبَـــكْ
وكُـــلُّ سَطْـــرٍ كـــالـــدُّجـــىٰ وبَـــرْقُ مَعْنـــاهُ احْتَبَـــكْ
شَـــوارِدُ المَعْنـــىٰ غَـــدَتْ مِيمـــاتُـــهُ مِثْـــلَ الشَّبَـــكْ
أَشْكُـــو لَـــكَ البُعْـــدَ الـــذي تَطْـــويلُـــهُ قَـــد أَعْجَبَـــكْ
زَواكَ فـــي لَيْـــلِ المُنـــىٰ عـــن نـــاظِـــري وَغَيَّبَـــكْ
فـــاطْلَـــعْ عَلَيْنـــا قَمَـــراً حتَّـــىٰ تُنيـــرَ غَيْهَبَـــكْ(٢)
أَنـــا خليـــلُ صُحْبَـــةٍ وِدادُهـــا قـــد جَلَبَـــكْ
حَلْيُـــكَ مِنْـــهُ فـــاخِـــرٌ وسِحْـــرُهُ قَـــد خَلَبَـــكْ
جَلَتْـــكَ أَنْـــوارُ المُنـــىٰ فـــي خـــاطِـــرٍ تَطَلَّبَـــكْ
حُلَّتُـــكَ الحُسْنـــىٰ جَلَـــتْ لـــي فـــي المَعـــانـــي شُهُبَـــكْ
حَلَّتْـــكَ بـــالعِلْـــمِ الـــذي بِـــهِ عَلَـــوْتَ رُتَبَـــكْ
أَبـــو جَلَنْـــكٍ لَـــو رَأَىٰ كمـــا رَأَيْنـــا أَدَبَـــكْ
حَـــلَّ بِـــكَ المَعْنـــىٰ الـــذي جَـــلَّ بـــلِ الحَـــقُّ الْتَبَـــكْ

● فكتبَ هو الجَوابَ إِليَّ عن ذلك(٣) : [من الرجز]

[٧٠ ب] أَمِـــنْ عُقـــارٍ انْسَبَـــىٰ أَمْ مِـــنْ نُضـــارٍ انسَبَـــكْ

---

(١) القصيدة في الوافي بالوفيات .

(٢) سقط عجز هذا البيت من م مع صدر الذي يليه ، فتلفّق ما بقي منهما .

(٣) القصيدة في الوافي بالوفيات .

أَمْ مِن لآلٍ نُظِمَتْ ... علىٰ عَذارى كالشَّبَكْ
أَم نَفَسُ الأَحْبابِ هَبْـ ... ـبَ مَوْهِناً فَأَطْرَبَكْ
نَسَّمَ في دِمَشْقَ فاشْـ ... ـتَمَمْتُهُ في بَعْلَبَكْ
يَحْمِلُ ذِكْراكَ لَقَدْ ... عَطَّرْتَ مِنْهُ مَرْكَبَكْ
يا حاضِراً في خاطِرٍ ... بِحاضِرٍ ما غَيَّبَكْ
وفاضِلاً ذَهَّبَكَ الـ ... ـلّهُ لَنا وَهَذَّبَكْ
في أَيِّ صُورَةٍ لَنا ... فَضِيْلَةٍ قَدْ رَكَّبَكْ
نَسي بِكَ النَّسيبَ مَن ... حَقَّقَ فِيهِ نَسَبَكْ
رَبَّتْكَ لِلعُلومِ نَفْـ ... ـسٌ بَلَّغَتْكَ رُتَبَكْ
أَعْرَبَ عَنْكَ الدَّهْرُ بِالتْـ ... ـتَمييزِ حتَّىٰ نَصَبَكْ
عاجَ بِبَحْرِكَ الوَرَىٰ ... لَمَّا تَراءَوا عَجَبَكْ
سُرَّ بِكَ الرَّأْيُ الذي ... بفَهْمِهِ قَد سَرَبَكْ
حَلا بِذَوْقِ فَهْمِهِ ... نُهاكَ لمَّا جلَبَكْ
أَنْتَ جَليلُ فِطْنَةٍ ... يَعْرِفُ ذا مَن طَلَبَكْ
حَلَّتْكَ فارْتَضَتْ ومَن ... يَرْتَضِ إِلاَّ أَدَبَكْ
خَلَّتْكَ مَعْدومَ النَّظِيْـ ... ـرِ فَرْدَ أَفْرادِ النَّبَكْ
أَنْتَ خَليلٌ لِلعُلا ... وَلِيُّها قَدْ قَرَّبَكْ
حَلَّ بِكَ النَّائِلُ بالنْـ ... ـنَحْلَةِ مِنها أَرَبَكْ
حَكَتْكَ في الذَّكا ذُكا ... ولم تُحاكِ نُخَبَكْ
حَلَّ بِكَ الفَضْلُ فَحَلْـ ... ـلَىٰ لِلْبَرايا كُتُبَكْ
جُلْ بالْيَراعِ يا جَوا ... دُ فيهِ واحْرِزْ قَصَبَكْ
حُلَّتُكَ الفَضْلُ حَبا ... كَها نُهاكَ إذْ حَبَكْ

سَـــدَدْتَ مــــن تَصْحِيـــفِ ذا الـ اسْـــمِ الــــذي قَـــد صَحِبَـــكْ
بَعْـــضَ الـــــذي فَهِمْتَـــــهُ إذاً لِمَعْنـــــىٰ حَبَبَـــــكْ[1]
بِـــكَ اهْتَـــدَيْـــتُ فَهْمَهـــا لمَّــــا رَأَيْــــتُ شُهُبَـــكْ
لا زِلْـــتَ فـــي بِيْـــدِ النُّهـــىٰ تَحْـــدو إِلَيْهـــا نُجُبَـــكْ

● وكتبَ هو على الجزءِ الخامسِ من « التَّذكرة » التي لي :

وَقَفْتُ على المَجموعِ المُتَفَرِّدِ بحُسْنِهِ وحُسْناهُ ، الزَّاهي على الزَّهْرِ في سِنِّه والدُّرَرِ في سَناهُ ، المُشْتَمِلِ على كُلِّ شَذْرَةٍ ، المُحْتَوي على مَثاقيلَ من إِبْريزِ الكَلامِ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [الزلزلة : ٧] اللَّائِقِ جَمْعاً وصُنْعاً ، الرَّائِقِ وَشْياً من الكِتابَةِ لا تُذْكَرُ عِنْدَهُ صَنْعا ، المُظْهِرِ بِكَمالِهِ نَقْصَ ما سِواهُ ، الدَّالِّ بِصِحَّةِ جَمْعِهِ علىٰ تَفَرُّدِ مَن سِواهُ : [من الوافر]

وبـــالـــزَّهْـــرِ المُنَضَّـــدِ فـــي رُبـــاهُ يُشيـــرُ إِلـــىٰ صَنـــائِعِـــهِ الغَمـــامُ

« مِن كُلِّ مَعْنىً وَحيدٍ يَكادُ المَيْتُ يَفْهَمُهُ »[2] ، وكُلِّ لَفْظٍ رَقيقٍ تَكادُ صَفْحَةُ القِرْطاسِ تُسْلِمُهُ ، وكُلِّ زَهْرَةِ كِتابَةٍ تكادُ تُقْطَفُ من أَغْصانِ سُطورِها ، وكُلِّ فِكْرَةِ إِصابَةٍ تكادُ تُقَهْقِهُ بقَعْقَعَةِ الأَوْراقِ من سُرورِها ؛ كَأَنَّما أَلْقَتْ فِيهِ المَحاسِنُ وَدائِعَها ، أَوْ أَجْرَتْ منهُ اللَّطائِفُ يَنابِعَها ، وكَأَنَّما هو لَيْلُ نِقْسٍ أَوْقَدَتْ فِيهِ المَعاني سِراجاً، أَوْ رَوْضَةُ وَرْدٍ مَدَّ عَليها الطِّرْسُ سِياجاً، أَو دُرَرٌ لَها من الأَسْماعِ أَصْدافٌ ، أَو سِحْرٌ لِصَفائِهِ ورِقَّتِهِ لا لِظُلْمَةِ الأَسْدافِ ، أَو طُرَّةُ صَباحٍ يَسْتَمِدُّ النَّهارُ من إِضاءَةِ وَرَقِها ، أَو غُرَّةُ نَجاحٍ تُسامِتُ النُّجومَ بِفَرْقِها فَتَطِنُّ من فَرَقِها ؛ قد رَقَّتْ أَلْفاظُهُ حتَّىٰ لو عُلِّقَ على حَنِقٍ لَسَكَنَتْ عنهُ سَورَةُ غَضَبِهِ ؛ وَأَشْرَقَتْ مَعانِيهِ حتَّىٰ رَمَقَها [١٧١] الأُفُقُ بِأَعْيُنِ شُهُبِهِ ؛ تَنْطِقُ بِشُكْرِ مُؤَلِّفِهِ مَخايِلُهُ، وتَفيضُ

---

(١) في م : × إذا تمنى . . .
(٢) صدر بيت لأبي تمام ، في ديوانه ٤/ ٤٩٠ . وعجزه : حُسناً ويحسده القرطاسُ والقلمُ .

حتَّىٰ من جَداوِلِ سُطورِهِ فَضائِلُهُ، وَتَدُلُّ علىٰ ما لَهُ من أَشْتاتِ المَحاسِنِ من اشْتِمالٍ، وتُشيرُ إلى ما لِلآدابِ بِحَياتِهِ وحِبائِهِ من جاهٍ ومالٍ : [من الكامل]

رَجُلٌ فَضائِلُهُ وأَنْعُمُهُ جازا مَدىٰ سَحْبانَ والسُّحُبِ
وسُرورُ نُعْماهُ وسَوْرَتُهُ هاجا مِنَ القُضْبانِ والقُضُبِ
لَوْ لَمْ تَسِلْ أَنْدا فَضائِلِهِ في مَشْرَعِ الآدابِ لَمْ يَطِبِ
أَلْفاظُهُ الحُسْنىٰ وأَسْطُرُهُ يُنْسِيْنَ ذِكْرَ البانِ والعَذَبِ
وَحُروفُهُ مِثْلُ السُّلافِ بَدَتْ وطَفَا عَلَيْها النَّقْطُ كالحَبَبِ
وسُطُورُهُ كاللَّيْلِ خُطَّ علىٰ خَدِّ الصَّباحِ [بِصَنْعَةِ العَجَبِ][1]
لَو تَعْقِلُ الوَرْقاءُ فِكْرَتَهُ خَلَعَتْ قِلادَتَها مِنَ الطَّرَبِ

زادَ اللهُ عَواصي أَفْكارِهِ على حُكْمِ الزَّمانِ مَنْعَةً ، وجَعَلَ لِفُنونِ آدابِهِ في كُلِّ صَوْتٍ صِيْتاً ، وفي كُلِّ سَمْعٍ سُمْعَةً ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **وحكىٰ لي ، قالَ**[2] :

رأَيتُ البارِحَةَ في المَنامِ ، كَأَنَّ في بَيْتي نَهْراً عَظيماً صافِياً ، وَأَنْتَ من ذلك الجانِبِ وأَنا من هذا الجانِبِ ، وكَأَنِّي أُنْشِدُكَ : [من الخفيف]

يا خَليلي أَبا الصَّفا لا تُكَدِّرْ مَنْهَلاً مِن نَميرِ وُدِّكَ أَرْوىٰ
فَجَميعُ الذي جَرىٰ كانَ بَسْطاً وَلَعَمْري بُسْطُ المَجالِسِ يُطْوىٰ

فقلتَ لي : لا ، بَلْ انظُمْ في زَهْرِ اللَّوْزِ شَيئاً ؛ فأَنْشَدْتُكَ : [من المتقارب]

أَيا قادِمَ الزَّهْرِ أَهْلاً وَسَهْلاً مَلأْتَ البَرايا هَدايا الأَرَجْ
فَوَقْتُكَ فَضٌّ خِتامِ السُّرورِ وعَهْدُكَ فُرْجَةُ بابِ الفَرَجْ[3]

---

(١) في م : × وجه الصّباح . وما بين معقوفين ساقط من الأُصول ، والمثبت من ط .
(٢) الخبر والأبيات في أعيان العصر والوافي .
(٣) في س : بوَقْتِكَ فضٌّ . . . × .

● فكتبتُ أنا إليهِ عندما قَصَّ عليَّ هذهِ الرُّؤْيا[1] : [من الخفيف]

حَـــاشَ للهِ أَنْ أُغَيِّـــرَ عَهْـــداً ... لم يَزَلْ مِن وَفائِكَ المَحْضِ صَفْوا
وإِذا مـا حَـديـثُ فَضْلِـكَ عِنْـدي ... ضـاعَ مِنِّـي فـي نَشْرِهِ كَيْفَ يُطْوىٰ

● وكتبتُ أَنا إِليهِ ، وهو مع نائِبِ الشَّامِ المحروسِ الأَمير سيفِ الدِّين تَنْكز[2] رحمهُ اللهُ في الصَّيْدِ بِغَزَّةَ المحروسَة ، جَواباً عن كِتابٍ وَرَدَ منهُ إِليَّ ، وفيهِ عَتْبٌ كَثيرٌ لانْقِطاعِ كُتُبي عنه[3] : [من مجزوء الكامل]

حَيْـثُ الخِيـامُ بِـرَمْـلِ غَـزَّهْ ... لـي سـادَةٌ عِنْـدِي أَعِـزَّهْ
وَأَنــا كُثَيِّــرُ حُبِّهِــمْ ... وَهُــمُ كَمــا أَخْتــارُ عَــزَّهْ
سِيْمــا جَمــالِهِــمُ الــذي ... فــي فَضْلِـهِ طَـرْفـي تَنَـزَّهْ
مَــوْلــىً بِعَطْــفِ يَــراعِــهِ ... طَــرَبٌ يُــرَنِّحُــهُ وهَــزَّهْ
أَضْحَــىٰ يَــوَشِّـي طِـرْسَـهُ ... ويَحـوكُ بِـالأَسْجـاعِ طُـرْزَهْ
يُمْلــي عَلَيــهِ بَــدائِعــاً ... تَكْسُــو المَهــارِقَ خَيْــرَ بِــزَّهْ
لــو فــاخَــرَ الــرَّوْضُ النَّسِيْـ ... ـمَ بِكُتْبِــهِ لأَبــانَ عَجْــزَهْ
أَلِــفٌ حَكَــتْ غُصْــنَ النَّقــا ... صَــدَحَــتْ عَلَيْــهِ حَمـامُ هَمْـزَهْ
مِــن مِيْــمِ مَيْلــي عَنْــهُ لا ... أَدْخَلْــتُ قَلْبــي تَحْــتَ رِزَّهْ
وَظَفِــرْتُ مِنْــهُ بِمَعْقِــلٍ ... لا تَطْــرُقُ الأَحْــداثُ حِــرْزَهْ
وَبِــهِ تَبَيَّــنَ لــي الهُــدىٰ ... وَحَلَلْــتُ مِــن مَعْنـاهُ رَمْـزَهْ
وَبِــهِ مَــلأْتُ يَــدي غِنــىً ... مِــن فَضْلِــهِ وَفَتَحْــتُ كَنْـزَهْ

---

(١) البيتان في أَعيان العصر والوافي .
(٢) ترجمة الأَمير سيف الدِّين تنكز ، نائب السَّلطنة بالشَّام ؛ في الوافي بالوفيات ١٠/ ٤٢٠ وفيه مصادر ترجمته .
(٣) الرسالة ـ شعراً ونثراً ـ في أَعيان العصر .

فـــــاللهُ يَحْــــــرُسُ مَجْـــــدَهُ ... ويُـــــدِيـــــمُ لِـــــلآدابِ عِـــزَّهْ

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويَصِفُ شَوْقَهُ الذي شَقَّ الجَوانِحَ ، وجَرَحَ الجَوارِحَ ، ومَلأَ الفُؤادَ فَوادِحَ ؛ ويَذْكُرُ حَنينَهُ الذي شَغَلَهُ عن ذاتِهِ ، وأَذْهَلَهُ حتَّىٰ عن تَمَنِّي اللِّقاءِ وَلَذّاتِهِ ، وَنغَّصَ صَفْوَ عَيْشِهِ [٧١ ب] بالبُعْدِ ، وهذِهِ أَحْسَنُ حالاتِهِ .

ويُنْهي وُرودَ المِثالِ الكريمِ ، فتَلَقَّىٰ منهُ أَكْرَمَ وارِدٍ ، وَحَوىٰ من أَلْفاظِهِ الغُرِّ مَصائِدَ الشَّوارِدِ ، وشافَهَهُ مِنها أَلْسُنُ عَتْبٍ لَها في القَلْبِ وَقْعُ السُّيوفِ ، وإِنْ كانَت في فَصاحَتِها مِثْلُ المَبارِدِ ، وَأَضْرَمَتْ في الحَشا نِيراناً لها الزَّفَراتُ دُخانٌ والضُّلوعُ المَحْنِيَّةُ مَواقِدُ ؛ فَقابَلَها بِأَعْذارِهِ المُلَفَّقَةِ ، فقالَتْ حَرارَةُ تِلْكَ السُّطورِ : دَعْنا من عُذْرِكَ البارِدِ ؛ وَنَظَرَ مِن تلكَ الحُرُوفِ المُنَظَّمَةِ إِلىٰ نُوناتٍ كَأَنَّها بَراثِنُ الأُسودِ ، وإِلىٰ مِيماتٍ كَأَنَّها عُيونُ الأَساوِدِ : [من الكامل]

فَكَـأَنَّ ذاكَ الطِّرْسَ أَصْبَـحَ سَلَّـةَ الْـ ... ـحـاوي وهـاتِيْـكَ السُّطـورُ أَفـاعِيـا

ثمَّ إِنَّ المَملوكَ كابَرَ نَفْسَهُ ، وقالَ : رُبَّما تَصَحَّفَ عليهِ ما تَصَفَّحَ ، وتَرَجَّىٰ أَن يَكونَ هذا القَدْرُ هو الذي تَرَجَّحَ ، وجانَسَ بينَ إِساءَتِهِ وعَطْفِهِ ، فذاكَ تَرَنَّمَ ، وهذا تَرَجَّحَ : [من مجزوء الكامل]

ويَـــــدُلُّ هَجْــــرُهُـــــمُ علــــىٰ ... أَنِّـــي خَطَـــرْتُ بِبـــــالِهِـــــمْ

وَعَلَّلَ نَفْسَهُ بِقَولِ الآخَرِ : [من الوافر]

.... ويَبْقَـىٰ الـوُدُّ مـا بَقِـيَ العِتـابُ(١)

وقالَ : هذا هو العَتْبُ المَحمودُ العَواقِبِ ، وهذا التَّأْديبُ الذي يَعْقُبُ

(١) الشطر بلا نسبة في التذكرة الحمدونية ٥/ ٣٣ . وتمامه في التمثيل والمحاضرة ٤٦٥ ؛ وهو لعليّ بن الجهم ، في بهجة المجالس ١/ ٧٢٦ وليس في ديوانه :
إذا ذهـــبَ العتـــابُ فليـــسَ ودٌّ ... ويبقـــىٰ الـــودُّ مـــا بقـــيَ العتـــابُ

الرِّضىٰ ولا يُعاقِبُ ، وقد عادَ المَملوكُ إلى صَوْبِ الصَّوابِ ، وَتَضَرَّعَ من تلكَ السُّطورِ على عَتَباتِ العِتابِ ، وَظَنَّ أَنَّما فُتِنَ ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [صٓ : ٢٤] : [من الوافر]

وهـذا الـذَّنْـبُ أَوَّلُ كُـلِّ ذَنْـبٍ   وآخِـرُهُ إلـىٰ يَـوْمِ الحِسـابِ

فَلْيَغْفِرْ مَولانا لِلمَملوكِ هذهِ الهَفْوَةَ ، ولْيُقِلْهُ عَثْرَةَ هذهِ الخُطْوَةِ التي لم يَلْقَ فيها حُظْوَةً ، واللهُ يُمْتِعُ العُيونَ والنُّفوسَ بِجَمالِهِ وجَلالِهِ ، ويَزِينُ الوُجودَ بِمَحاسِنِهِ التي يَخْجَلُ مِنْها البَدْرُ في كَمالِهِ ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **وكتبَ هو إليَّ من دمشقَ المحروسَة ، وأنا بالقاهرةِ المحروسَة سنة ٧٣٢**(١) : [من الكامل]

ذَكَّـرْتُ قَلْبـي حِيـنَ شَـطَّ مَـزارُهُـمْ   بِهِـمُ فَنـابَ عـن الجَـوىٰ تَـذْكـارُهُـمْ
وبَكـىٰ فُـؤادي وَهْـوَ مَنْـزِلُ حُبِّهِـمْ   وَأَحَـقُّ مَـنْ يَبْكـي الأَحِبَّـةَ دارُهُـمْ
وَتَخَلَّـقَ الجَفْـنُ الهَمـولُ كَـأَنَّمـا   لَمَحَتْـهُ عِنْـدَ غُـروبِهِـمْ أَنْـوارُهُـمْ
وَذَكَـرْتُ عَيْنـي عِنْـدَ عَيْـنِ فِـراقِهِـمْ   لَمَّـا أَثـارَتْ لَـوْعَتـي آثـارُهُـمْ
تَـذْري الـدُّمـوعَ عليهِـمُ وَكَـأَنَّهُـمْ   زَهْـرُ الـرُّبـا وَكَـأَنَّهـا أَمْطـارُهُـمْ
وَيَئِـنُّ مـن حـالـي العَـواذِلُ رَحْمَـةً   لَمَّـا بَكَيْـتُ ومـا الأَنيـنُ شِعـارُهُـمْ
وَيْـحَ المُحِبِّيْـنَ الَّـذيـنَ بِـوُدِّهِـمْ   قُـرْبُ المَـزارِ ولـو نَـأَتْ أَعْمـارُهُـمْ
فَقَـدُوا خَليلَهُـمُ الحَبيـبَ فَـأُذْكِيَـتْ   بالشَّوْقِ في حَطَبِ الأَضالِعِ نارُهُمْ
مَـوْلـىً تَقَلَّـصَ ظِـلُّ أُنْـسٍ مِنْـهُ عَـن   أَصْحـابِـهِ فـاسْتَـوْحَشَـتْ أَفْكـارُهُـمْ
كَـم راقَهُـمْ يَـوْمـاً بِـرُؤْيَـةِ وَجْهِـهِ   مـا لا يَـروقُهُـمُ بِـهِ دِيْنـارُهُـمْ
وَلَكَـمْ بَـدَتْ أَسْمـاعُهُـمْ فـي حِلْيَـةٍ   مـن لَفْظِـهِ وكـذا غَـدَتْ أَبْصـارُهُـمْ

---

(١) القصيدة في أعيان العصر ، والوافي ، والفوات . والأوّل والثاني فقط في الدّرر الكامنة .

كـانُـوا بِصُحْبَتِـهِ اللَّـذيـذَةِ رُتَّعـاً بمَسَـرَّةٍ مُلِئَـتْ بهـا أَعْشـارُهُـمْ
يَتَنـافَسُـونَ علـىٰ دُنُـوِّ مَـزارِهِ فَكَـأَنَّمـا بلُقـاهُ كـانَ فَخـارُهُـمْ
لا غَيَّـبَ الـرَّحْمَـنُ رُؤْيَـةَ وَجْهِـهِ [٧٢ أ] عن عاشِقِيْهِ فإِنَّها أَوْطارُهُمْ
وَجَـلا ظَـلامَ بِـلادِهِـمْ مِـنْ بَعْـدِهِ فَلَقَـد تَسـاوىٰ لَيْلُهُـمْ ونَهـارُهُـمْ
يـا سَيِّـداً لـي لـم تَـزَلْ ثِقَتـي بِـهِ إنْ خـادَعَتْني في الـوَلا أَسْـرارُهُـمْ
أَصَـرَمْـتَ حَبْـلَ مَـوَدَّتـي ولِصُحْبَتي عَرَفَ الطَّريقَةَ في الوِدادِ كِبارُهُمْ
أَم تلْـكَ عـاداتُ القِلـىٰ أَجْـرَيْتَهـا فَكَـذا الأَحِبَّـةُ هَجْـرُهُـمْ ونِفـارُهُـمْ

● فكتبتُ أنا الجوابَ إليهِ[١] : [من الكامل]

أَفْـدي الـذيـنَ إذا تَنـاءَتْ دارُهُـمْ أَدْنـاهُـمُ مِـن صَبِّهِـمْ تَـذْكـارُهُـمْ
فـي جِلَّـقِ الفَيْحـاءِ مَنْـزِلُهُـمْ وفـي مِصْرٍ بِقَلْبِ الصَّبِّ تُوقَدُ نارُهُمْ[٢]
قَـوْمٌ بـذِكْـرِهِـمُ النَّدامـىٰ أَعْـرَضُـوا عـن كـاسِهِـمْ وَكَفَتْهُـمُ أَخْبـارُهُـمْ
وإذا الثَّنـاءُ علـى مَحـاسِنِهِـمْ أَتـىٰ طَـرِبُـوا لَـهُ وَتَعَطَّلَـتْ أَوْتـارُهُـمْ
وإذا هُـمُ نَظَـروا لِحُسْـنِ وُجـوهِهِـمْ لـم تَبْـقَ أَنْجُمُهُـمْ ولا أَقْمـارُهُـمْ
فَهُـمُ البُـدورُ إذا ٱدْلَهَـمَّ ظَـلامُهُـمْ وَهُمُ الشُّموسُ إذا ٱسْتَبانَ نَهارُهُمْ
دَنَـتِ النُّجـومُ تَـواضُعـاً لِمَحَلِّهِـمْ وَتَـرَفَّعَـتْ مـن فَـوْقِهـا أَقْـدارُهُـمْ
وَبِكَفِّهِـمْ وَبِـوَجْهِهِـمْ كَـمْ قَـد هَمَـتْ أَنْـواؤُهُـمْ وَتَـوَقَّـدَتْ أَنْـوارُهُـمْ
أَهْـدىٰ جَمـالُهُـمُ إلَـيَّ تَحِيَّـةً مِنْهـا تُـدارُ علـى الأَنـامِ عُقـارُهُـمْ
أُفُـقٌ وَرَوْضٌ فـي البَـلاغَـةِ فَهْـيَ إمْـ ـمَا زَهْرُهُمْ في اللَّيْلِ أَوْ أَزْهارُهُمْ
لَكَ يا جَمالَ الدِّيْنِ سَبْقٌ في الوَفا لـو رامَـهُ الأَصْحـابُ طالَ عِثارُهُـمْ
وَتَـوَدُّدٌ مـا زَالَ يَصْفُـو وِرْدُهُ حتَّـىٰ تُقِـرَّ لِصَفْـوِهِ أَكْـدارُهُـمْ

---

(١) القصيدة في أعيان العصر ، والوافي ، والفوات .
(٢) في م : × . . . بقلب القلب . . .

وفَضائِلٌ تُبْقي لِقَوْمِكَ سُؤْدَداً حَسُنَتْ بِها بَيْنَ الوَرىٰ آثارُهُمْ
يا ابْنَ الكِرامِ الكاتِبِيْنَ فَشَأْنُهُمْ صِدْقُ المَوَدَّةِ والوَفاءُ شِعارُهُمْ
قَوْمٌ إِذا جازُوا إِلىٰ شَأْوِ العُلا سَبَقُوا إِلَيهِ ولَم يُشَقَّ غُبارُهُمْ
صانُوا وزانُوا باليَراعِ مُلُوكَهُمْ أَسْوارُهُمْ من كُتْبِهِمْ وسِوارُهُمْ
ما مِثْلُهُمْ في جُودِهِمْ فَلِذاكَ قَد عَزَّتْ نَظائِرُهُمْ وهانَ نُضارُهُمْ
ما في الزَّمانِ حُليّ علىٰ أَعْطافِهِ إِلاَّ مآثِرُهُمْ بِهِ وفَخارُهُمْ
تَتَعَلَّمُ النَّسماتُ من أَخْلاقِهِمْ وتَنُوبُ عن زَهْرِ الرُّبا أَشْعارُهُمْ
ولِفَضْلِهِمْ ما ابْنُ الفُراتِ يَعُدُّ فِيْـ ـهِ قَطْرَةً لَمَّا تَمُدُّ بِحارُهُمْ
وحِماهُمُ يَحْمي النَّزيلَ بِرَبْعِهِ من جَوْرِ ما يَخْشَىٰ ويُمْنَعُ جارُهُمْ
بالرَّغْمِ مِنِّي إِنْ بَعُدْتُ ولَمْ أَجِدْ ظِلاًّ تُفَيِّؤُهُ عَلَيَّ دِيارُهُمْ
لو كانَ يُمْكِنُني وما أَحلىٰ المُنىٰ ما غابَ عَنِّي شَخْصُهُمْ ومَزارُهُمْ
وَيْحَ النَّوىٰ شَمْلَ الأَحِبَّةِ فَرَّقَتْ فَمَتىٰ يُفَكُّ من البِعادِ إِسارُهُمْ

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُنْهي بعدَ وَصْفِ أَشْواقِهِ التي تَترادَفُ بُعوثُها ، وتَنْبَعِثُ بِها[1] من الدُّموعِ سُحُبُها وغُيوثُها ، وَتَتضافَرُ على الفُؤادِ المَغْلوبِ أَساوِدُها وأُسودُها ، وإِذا راعَيْتَ السَّجَعَ قُلْتُ : ولُيوثُها : [من البسيط]

وما فُؤادِيَ مُشْتاقاً بِمُفْرَدِهِ بَلْ كُلُّ عُضْوٍ إِلى لُقْياكَ يَشْتاقُ[2]

وُرودَ المُشَرَّفِ العالي ، مُشْتَمِلاً على تلكَ الأَبْياتِ ، بل علىٰ القُصورِ ، سَكَنَتْها حِسانُ مَعانِيهِ التي هُنَّ لَهُ طائِعاتٌ ، وعلى غَيْرِهِ أَبِيّاتٌ ؛ فوقَفَ المَملوكُ لَها واسْتَوْقَفَ ، فَأَثْنىٰ الجَمْعُ عَليها وثَنَوا إِليها الأَعِنَّةَ ، وبَكىٰ واسْتَبْكىٰ ، فاسْتَخْرَجَ لَها خَبايا الدُّموعِ ، لأَنَّها كانَت مَطِيَّةً إِلى تلكَ المَظِنَّةِ ، وذَكَرَ الحَبيبَ

---

(١) « بها » ساقطة من أ . وفي م : وتنبعث بالدموع . . .
(٢) في ب : وما أراني . . . × ! . وفي م : × . . . . مشتاق .

وهو مَولانا ، [٧٢ ب] والمَنْزِلَ وهو دِمشقُ ، فقيلَ : مَعذورٌ مَن ذَكَرَ رِضْوانَ والجَنَّةَ : [من الطويل]

ومَنْ فارَقَ الأَحْبابَ والدَّارَ والهَوىٰ ... يَحِقُّ لَهُ أَنْ تَعْذِرُوهُ وتَرْحمُوا(١)

وعلىٰ ذِكْرِ دمشقَ المَحروسَة ، فَحَيَّا اللهُ وَجْهَها الذي يُسْفِرُ عن طَلْعَةِ القَمَرِ ، وَرَعىٰ اللهُ عُهودَها التي ما تَرَكَتْ بَعْدَها لِلغَريبِ من وَطَنٍ ولا وَطَرٍ ؛ وحَفِظَ اللهُ تُرْبَتَها التي تُطاوِلُ الزُّهْرَ في الأُفُقِ بما تُنْبِتُهُ في الرَّوْضِ من الزَّهَرِ ، وسَقىٰ اللهُ رُبوعَها صَوْبَ السَّحائِبِ ، وإِنْ كانَتْ مع دُموعِ النَّازحِ عَنْها لا تَحْتاجُ إلى سُقْيا المَطَرِ(٢) : [من الطويل]

أَلا يا اسْلَمي يا دَارَمَيٍّ على البِلىٰ ... ولا زالَ مُنْهَلاً بِجَرْعائِكِ القَطْرُ

ويَعودُ المَملوكُ إِلىٰ ذِكْرِ المُشَرَّفِ العالي ؛ فَيا للهِ من فضائِلِ مَولانا ، كم لَها من مُعْجِزٍ في البَيانِ ، وتَرْكِيبِ أَلْفاظٍ يَشُدُّ بَعْضُها بَعْضاً كالبَنانِ ، أَو كما جاءَ كالبُنْيانِ ، وسِحْرِ مَعانٍ هو بِمُفْرَدِهِ عَلَيْها مُعانٌ ، فَحقيقٌ بِأَنْ تكونَ مُشَرَّفاتُ مَولانا لِبُدورِ الأَدَبِ تَماماً ، ولِبَنيهِ تَمائِمَ ، وتُصْبِحَ طُروسُهُ رِياضاً ، لأَنَّ السُّطورَ جَداوِلٌ والأَلِفاتِ غُصونٌ والهَمْزاتِ حَمائِمُ(٣) : [من الخفيف]

أَيْنَ زَهْرُ الرِّياضِ وَهْوَ إِذا ما ... طالَ عَهْداً بالغَيْثِ عادَ هَشِيما
مِن قَوافٍ كَأَنَّما الأَنْجُمُ الزُّهْـ ... ـرُ سَناها زانَ الظَّلامَ البَهيما(٤)

واللهُ يُمْتِعُ بِفَوائِدِ مَولانا الجَمَّةِ ، ويُقِرُّ العُيونَ من كُتُبِه بِبَياضِها وسَوادِها ، فما كُلُّ بَيْضاءَ شَحْمَةٌ ، ولا كُلُّ سَوداءَ فَحْمَةٌ ؛ بِمَنِّه وكَرَمِه إِنْ شاءَ اللهُ تعالى .

---

(١) في ب : × . . . أن يعذروه ويُرحمُ . وفي م : ومن ذكر . . . × .
(٢) البيت لذي الرُّمَّة ، وقد مضىٰ .
(٣) البيتان بلا نسبة في نفح الطِّيب ١/ ٧٨ .
(٤) في م : . . . كأنَّها . . . × .

● **وكتبَ هو إليَّ الجَوابَ أَيْضاً ، وأَنا بالقاهِرَةِ المحروسة**[1] : [من الخفيف]

سـارَ دَمْعـي مِنِّـي إِلَيْـكَ رَسـولا ... حِيـنَ أَخْلَيْـتَ رَبْعَـهُ المَـأْهـولا
وَفُـؤادي اسْتَقَـرَّ إِذْ أَنْـتَ فِيـهِ ... يَتَـراءاكَ بُكْـرَةً وأَصِيـلا
ونَسِيـمُ الصَّبـا تَحَمَّـلَ مـن وَصْـ ... ـفِ اشْتِياقِـي فِيـهِ حَـديثاً طَـويلا
فـاسْتَمِـعْ مـا يُمْلـي النَّسيـمُ بِعِلْـمٍ ... عَـن غَـرامـي إِذْ كـانَ مِثْلـي عَليـلا
تَـرَكَ القَلْـبَ فـي الأَضـالِـعِ يَظْمـا ... فَيُسَقِّيْـهِ الاشْتِيـاقُ غَليـلا
وقَميـصُ الكَـرىٰ مُـزِّقَ فَـإِنْ زا ... رَ خَيـالٌ وَصَّلْتُـهُ تَـوْصيـلا
حَبَّـذا قُـرْبُـكَ الـذي كـانَ أَنْـدىٰ ... فـي فُـؤادِي مـن النَّسيـمِ بَليـلا
وَليـالٍ كـم غـازَلَ الطَّـرْفُ مِـنْ أُنْـ ... ـسِكَ فـي جُنْحِهِـنَّ وَجْهـاً جَميـلا
ومُـدامٍ كَـأَنَّهـا لَـوْنُ دَمْعـي ... عِنْـدَمـا أَزْمَـعَ الحَبيـبُ رَحيـلا
كَـأْسُهـا فـي الـدُّجىٰ تبَـدَّىٰ شِهـاباً ... وكَسـا المَـزْجُ رَأْسَهـا إِكْليـلا
فَتَهَـدَّيْـتُ لِلسُّـرُورِ بِـرُؤْيـا ... هُ وإِنْ كـانَ لِلْهُـدىٰ تَضْليـلا
كـم رَكِبْنـا لَهـا سَـوابِـقَ لَهْـوٍ ... كـانَ جَـرْسُ الغِنـاءِ فيهـا صَهيـلا
قَـرَّبَ اللهُ عَهْـدَهـا مـن لَيـالٍ ... لَـم أَكُـنْ لاقْتِـرابِهِـنَّ مَلـولا
أَتَلَظَّـىٰ جَـوىً وفَـرْطَ حَنيـنٍ ... إِنْ تَـذَكَّـرْتُ ظِلَّهُـنَّ الظَّليـلا
وإِذا مـا احْتَـرَقْـتُ شَـوْقـاً فَقَـوْلـي ... لَيْـتَ لَـمْ أَتَّخِـذْ فُـلانـاً خَليـلا[2]
يـا صَلاحَ الـدِّيْـنِ الـذي فَسَـدَ العَيْـ ... ـشُ لَنـا مُـذْ نَـأَىٰ وَسـاءَ مَقيـلا
قَـدْ أَتَتْنـي أَبْيـاتُـكَ الغُـرُّ تَحْكـي ... نَسَمـاتِ الصَّبـا تَجُـرُّ ذُيـولا
أَو نَبـاتُ الـرُّبـا يُصـافِحُـهُ القَطْـ ... [٧٣ أ] ـرُ فَيَغْدُو (رَطْبَ الحَيا مَصْقولا
فَتَـذَكَّـرتُ مِنْـكَ جُـوداً عَميمـاً ... وَمُحَيّـا طَلْقـاً وفَضْـلاً فَضيـلا

(١) القصيدة في أعيان العصر .
(٢) من قوله تعالى : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٨] .

وَرَأَيْتُ السُّطورَ تَحْكي لَيالي الْـ ـقُرب) حُسْناً ورِقَةً لا طُولا[1]
حَبَّذا عَهْدُهُنَّ والعَيْشُ فِيهِ إِذ أَنا مالِكٌ إِلَيْهِ الوُصولا
كُنْتُ أَجْني ثِمارَ أُنْسِكَ فِيهِنْـ ـنَ فَبُدِّلْتُ بِالنَّوىٰ تَبْدِيلا

ويُنْهي بعدَما غرَّتْهُ بتَخَيُّلِ القُرْبِ أَفْكارُهُ ، وأَغْرَتْهُ من حُلَلِ[2] المَدامِعِ رُسُلُ النَّوىٰ وقد كَنَّ شِعارُهُ ، وأَحْرَقَتِ الطَّرْفَ نارُ الشَّوْقِ إلى خَليلِهِ وَخليلٌ جارُهُ ؛ وُرودَ كِتابِهِ الكَريمِ ، الذي حَلَّ في القَلْبِ مَهابَةً كانَتْ وحُسْنُها كَريمٌ ، وقُوبلَ في الحالتينِ بغايَةِ الإِجْلالِ والتَّكريمِ ، فتَقَلَّدَ المَملوكُ من طِرْسِهِ عُقوداً ، حُروفُها دُرَرُها ، وهَصَرَ من سُطورِهِ غُصوناً مَعانيهِ زَهَرُها ، وَتَخَيَّلَ تِلكَ الأَبْياتِ سِرْبَ ظِباءٍ ، بدَليلِ أَنَّ ميماتِ القافيةِ سُرَرُها ، فَيالله ما أَلْهَجَ أَلْسِنَةَ الحَمْدِ بوَصْفِهِ ، وأَلْهى نَواظِرَ الاسْتِحْسانِ بمَحاسِنِهِ التي كَأَنَّ اليَدَ الكَريمَةَ تَناوَلَتْ طِرْسَهُ من وَرَقِ الجَنَّةِ وعَمَدَتْ إلى خَصْفِهِ ، وَأَهْلاً بِهِ سابقاً في الفَضْلِ لا يُبارِيْهِ إلاَّ ظِلُّهُ ، وسَهْماً قُرْطِسَ في مَقْتَلِ الحوادِثِ نَصْلُهُ ، لَقد تَسلسلَ ذلكَ ماءً ، فَأَوْرَدَ فِكْرَهُ من مَعِيْنِهِ ، ونَصَبَ ذلكَ الطِّرْسَ رايَةَ مَجْدٍ ، فَأَخَّرَ عَنْها عَرابَةَ وتَلَقَّاها بيَمينِهِ[3] .

● [4] **وَوقَفَ على شَيْءٍ من تَعاليقي بالدِّيارِ المِصْرِيَّةِ المحروسَةِ ، وفيها حَلُّ مَنْظومٍ اقْتُرِحَ عليَّ عَمَلُهُ ، فكتبَ إِليَّ :**

ويُنْهي أَنَّهُ وقَفَ في المجموعِ المُبارَكِ على بَيْتَي البُحْتُريّ ، وسَرَّحَ نَظَرَهُ فيما سَمَحَتْ بِهِ القَريحَةُ المُريحَةُ من حَلِّها ، فقَبَّلَ آثارَ اليَدِ التي هيَ للقُبَلِ قِبْلَةٌ ،

---

(١) ما بين قوسين من ب ، س .
(٢) في م : في حلل . . .
(٣) من قول الشّمّاخ : [ديوانه ٣٣٦]
إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ تلقاها عَرابةُ باليمين
(٤) بداية سقط في ب .

ولِلأَمَلِ إلىٰ إدْراكِ النَّجاحِ سُبْلَةٌ ، ولِنَيْلِ النَّفْسِ مَذاقَ الأَمانيِّ نُجْحٌ ، ولِلَيْلِ النَّفْسِ بإِشْراقِ المَعاني صُبْحٌ ، ولِدُرِّ الكَرَمِ وبَحْرِ الكَلِمِ سِلْكٌ ومَسْلَكٌ ، ولِدَقيقِ المَعاني أَمْلىٰ ، ولِرقيقِ الأَلْفاظِ أَمْلَكُ ؛ فلو رَأَتِ السَّماءُ حُسْنَ كِتابَتِها لَما رَفَعَتْ بالجَوْزاءِ رَأْساً ، ولو عَلِمَتْ كَفُّ الثُّرَيَّا أَنَّ عَدَدَ أَنامِلِها خَمْسٌ لَكانَتْ كَواكِبُها خَمْساً ، ولو وَصَلَ إليها فَمُ الفَرْقَدِ لَقَبَّلَها ، ولو رأَىٰ اللَّيْلُ سَوادَ نِقْسِها لاسْتَخْفىٰ في تلكَ الذَّوائِبِ التي أَسْبَلَها ، إِذْ هيَ اليَدُ التي تُشيرُ بباعِها إلى المُشْتَري فَيَغْشىٰ من السَّنا ، ويَمْتَدُّ نَوْءُ ذِراعِها إلى أَرْضِ الطِّرْسِ فَيُنْبِتُ بِها من أَزْهارِ المَعاني نَباتاً حَسَناً .

فنظرَ المَملوكُ إلى تلكَ الأَبْياتِ وهي بآثارِهِ مُحَلاَّةُ المَحَلِّ ، مُقَوَّاةُ الدَّعائمِ بما اقْتَضاهُ رَأْيُهُ الكَريمُ فيها من الحَلِّ ، قد انْتَبَهَ خامِلُها ، وتَحَلَّىٰ عاطِلُها ، واشْتَبَهَ بالحَقِّ من كَلامِ مَولانا باطِلُها ، ولَحَظَتْها بَلاغَةُ مَولانا وكانَ السَّعْدُ إلى حَظِّها أَسْرَعَ من صَدىٰ صَوْتٍ ، وحَفِظَتْ عليها رَوْنَقَ الحَياةِ بعدَ أَنْ كانَ الدَّهْرُ قَد أَطْلَعَ عَليها صُورَةَ المَوْتِ ، وجَعَلَ لِما فيها من كلامِ الأَوَّلينَ ذِكْراً في الآخِرينَ ، وآتاها من الإِسْعادِ بِما لو بَشَّرَها بِهِ بَشَرٌ لَقالَتْ : إِنَّكَ لَمِنَ السَّاخِرين ؛ فلو عَلِمَ أَبو عُبادَةَ بذلكَ لَما هَوَّمَ على عِيْسِهِ ، ولَبَلَغَ قَدْرُهُ أَنْ يُخْرِجَ [٧٣ ب] لَيْثَ الغابِ من خِيْسِهِ ، فإِنَّهُ ما كانَ يَفْرَحُ بِمِثْلِ ذلكَ فيما أَرْسَلَ إِليهِ من طَيْفِ الخَيالِ لَيْلُهُ المُظْلِمُ .

ولقد طَرَقَ مَولانا في مَعاني هذِهِ الأَبْياتِ ما لا طَرَقَهُ مُسْلِمٌ ، ولو عَلِمَ مُسْلِمٌ بذلكَ لَتَناول من هذِهِ الأَلْفاظِ قُطوفاً عَذْبَةَ المَجاني ، وَلَتَلَقَّبَ صَريعَ هذِهِ المَعاني لا صَريعَ تلكَ الغَواني .

فَمن ذلك ما ذَكَرَهُ في اعْتِذارِيَّةٍ ؛ بِكَلامٍ أَقامَ الحُجَّةَ على مَن كانَتِ المَعْذِرَةُ إِليهِ ، وأَوْضَحَ المَحَجَّةَ لِمَن سَيَجيءُ فيما بعدُ عَليهِ ، وسِحْرِ أَلْفاظٍ خَيَّلَ لِلْعاتِبِ

أَنَّه هو الجاني ، وحَضَّهُ على طَلَبِ المَعْذِرَةِ لولا خَوْفُهُ من الذَّنْبِ الثَّاني ، ودافَعَ الحَقَّ بباطِلِه ، وَجَعَلَ الدَّيْنَ على صاحِبِه كما يُقالُ لِماطِلِه : [من الكامل]

فـاللَّفْظُ بَحْـرٌ أَنْـتَ مـالِـكُ طُـرْقِـهِ ... والنُّطْـقُ بَحْـثٌ أَنْـتَ وَجْـهُ دَليلِـهِ
لِـمْ لا يُسـاعِـدُكُ المَقـالُ أَيَصْطَفـي ... مَـن أَهْـلِ هـذا الفَـنِّ غَيْـرَ خَليلِـهِ

ومن ذلكَ ما هو في ذِكْرِ لَهْوَتِهِ ؛ قد حَمِدَتْ مَسراهُ المَسَرَّاتُ فيها من يَدِهِ صُبْحَها ، واعْتَنَقَتْ فيها قُدودُ اللَّاماتِ والأَلِفاتِ التي قد قَرَّرَ أُنْسُهُ صُلْحَها ، وزاحَمَ طَرَبُ أَلْفاظِهِ فيها صَوْتَ العِيْدانِ بالمَناكِبِ ، وَخَيَّلَتْ أَزْهارُ كِتابَتِهِ في أَنْهارِ طِرْسِها ما يَلُوحُ في الماءِ من حَلْيِ الكَواكِبِ ؛ وبَرَزَتْ فيها أَلْفاظُهُ من حُلَلِ المَعاني في أَنْمَقِ نَمَطٍ ، وجُلِّيَتْ حَدائِقُ كِتابَتِهِ عَروساً نَقَّطَتْها الأَحْداقُ بِحَبَّاتِها لا على سَبيلِ الغَلَطِ ؛ وسِحْرُ بَيانِها في سَوادِ النِّقْسِ صِبْغَةَ السَّحَرِ ، وأَجْرىٰ بَنانُهُ لَوْنَ النَّهارِ من الطِّرْسِ في نَهَرٍ ، ولاحَتْ تلكَ الأَبْياتُ كالقُصورِ الآهِلَةِ بالسُّرورِ ، فَتَطَلَّعَتْ أَبْكارُ مَعانيهِ من شُرُفاتِها ، وناحَتْ تلكَ الهَمْزاتُ إِذْ أَشْبَهَتْها في تَغْريدِها حَمائِمُ الدَّوْحِ على أَغْصانِ أَلِفاتِها : [من الوافر]

وخـافَـتْ نـارَ فِطْنَتِـهِ المَعـانـي ... فَقـالَ لَهـا وقـد أُمِـنَ الكَـلامُ
ثِقـي بـالأَمْـنِ فِيـهِ فَـذا خَليـلٌ ... يُـرىٰ فـي نـارِ فِطْنَتِـهِ سَـلامُ

ومِن حَرْبِيَّةٍ أَقامَتِ الحَرْبَ على ساقٍ ، وأَدارَتِ الرَّدىٰ على العِدىٰ ، ولَها من المَحابِرِ كوامِنُ(١) ومن القَلَمِ ساقٍ ؛ لَو تَجَرَّدَتْ كَتائِبُ كُتُبِها ، مُنِيَ الأَعْداءُ مِنْها بِمَعانٍ هيَ حَقيقَةُ المَوْتِ ، ولو تَمَرَّدَتِ القَواضِبُ ، أَرْسَلَتْ علىٰ الفَوْرِ صَوارِمَ من الطُّروسِ لا تَخافُ الفَوْتَ ، ولو أَفْسَدَ الزَّمانُ حالاً ، أَعادَ صَلاحُها ما أَفْسَدَ ، ولو اسْتَأْسَدَ من الأَعْداءِ وَغْلٌ ، بَرَزَتْ من سَوادِ نِقْسِها وبَياضِ

---

(١) في س : كؤوس . وفي م : أَكْؤُس .

طِرْسِها في صُوْرَةِ فَهْدٍ لافتِراسِ ما اسْتَأْسَدَ ، ومن ومن ومن ، وبلاغَةُ مَولانا[١] [٢]يُشيرُ إليها البَليغُ إشارَةَ فَتىً بالعَجْزِ عن الوَصْفِ قَمِنٌ[٢] : [من الخفيف]

فَهْيَ فـي كُـلِّ حـالَـةٍ تَتَبَـدَّىٰ بِمَعـانٍ تَـروقُ مَبْنـىً ومَبْـدا
فَعَلَـتْ بِـالعُقـولِ مـا تَفْعَـلُ الخَمْـ ـرُ وَشَـدَّتْ إلـى المَسَـرَّاتِ شَـدَّا
عَـرْفُهـا كـالعَبيـرِ والـرَّوْضِ لكـنْ هـيَ مـن ذا وذلـكَ أَنمـىٰ وأَنْـدىٰ
بَـرَزَتْ مـن حُـروفِها فـي صُفـوفٍ بِصُنـوفٍ مـن المَحـاسِـنِ تُفْـدىٰ
أَلِفـاتٌ بِهَمْـزِهـا تُخْجِـلُ البَنْـ ـدَ يَقينـاً وتُخْجِـلُ الخُـوْدَ قَـدَّا
وعُيـونٌ تَسْبـي اللِّحـاظَ صَحيحـا تٍ لَهـا فـي رَوْضِ الكِتـابَـةِ أَنْـدا
يـا كَـريمـاً بِـدُرِّ لَفْـظٍ ثَميـنٍ هُـو أَجْلىٰ فـي كُـلِّ عَيْـنٍ وأَجْـدىٰ
[٧٤أ] فُقْ على البَحْرِ في عَطائِكَ وافْخَرْ فَهْـوَ أَعْطـىٰ دُرّاً قَليـلاً وَأَكْـدىٰ
قَـد حَلَلْـتَ الأَشْعـارَ بِـالنَّثْـرِ حَـلاً فـي اسْتِـلابِ العُقـولِ جـاوَزَ حَـدَّا
وَكَسَتْهـا أَلْفـاظُـكَ الغُـرُّ ثَـوْبـاً قَـد حَبـاهـا عِـزّاً وَأَوْرَثَ مَجْـدا
وَفَّـرْتَ وَفْـدَ كُـلِّ سَعْـدٍ عَلَيْهـا فَتَلَقَّـتْ وَفْـراً عَميمـاً وَوَفْـدا
حَفِـظَ اللهُ لِلفَضـائِـلِ ذِهْنـاً مِنْـكَ لـم يُبْـقِ فـي الإجـادَةِ جُهْـدا
عَجِـزَتْ عَنْـهُ كُـلُّ هِمَّـةِ ذِهْـنٍ وتَصَـدَّىٰ كَـرَوْنَـقِ السَّيْـفِ فَـرْدا

لقد[٣] بَلَّغَتْ أَلْفاظُ المَسَرَّاتِ إلى القُلوبِ ، فَأَحْسَنَتِ البَلاغَ ، وبالَغَ قَلَمُهُ في صَوْغِ السُّطورِ بالكَلِمِ المُنْسَجِمِ ، فَوَرَدَ طَرْفَ المَملوكِ لِلكَلِمِ ما ساغَ ولِلقَلَمِ ما صاغَ ؛ فَهَنَّأَ اللهُ يَدَهُ الكَريمَةَ إذْ رَقَتْ إلى سَماءِ السَّماحَةِ ، واسْتَوْلَتْ بِحُسْنِ

(١) نهاية السقط في ب . وجاء فيها : وكتبت أنا إليه ارتجالاً ! ! .
(٢) ـ (٢) ما بينهما من م فقط .
(٣) بداية سقط النص النثري في ب .

الكِتابَةِ على رَوْضَةِ النُّجومِ المُسامِحَةِ في المَساحَةِ ؛ فهيَ اليَدُ التي كَأَنَّما ضَرَبَتِ السَّماءُ فَوْقَها جِسْراً لِعُبورِ السَّحائِبِ على أَمْواهِها ، وكَأَنَّما مَسَحَتْ أَوْجُهَ دُهْمِ اللَّيْلِ ، فَأَثَّرَتْ تلكَ الغُرَرُ من الصَّباحِ في جِباهِها[1][2] : [من البسيط]

يَـدٌ عَهِـدْتُـكَ لِلتَّقْبيـلِ تَبْسُطُهـا فَتَسْتَقِـلُّ الثُّـرَيَّـا أَنْ تكُـونَ فَمـا

انْتَهىٰ المَملوكُ إلى هُنا ، والنَّجْمُ قد أَغْفىٰ بِغَيْرِ نُعاسٍ ، والثُّرَيَّا قد سَقَطَ إلى الغَرْبِ ما كانَتْ مُعَلَّقَةً فِيهِ مِن الأَمْراسِ ، والصُّبْحُ قَد قَدَحَ في أَساريرِ الجُنْحِ شَرَراً ، والأُفْقُ قَد أَهْدىٰ من النَّهارِ كافُوراً واسْتَرَدَّ من اللَّيْلِ عَنْبَراً ؛ واللهُ تَعالىٰ يُسَكِّنُ بوُجودِهِ قَطْرَ عَبَراتِ الفَضْلِ الذي غَلَبَهُ الدَّهْرُ على السَّلَبِ ، ويَصونُ بِجُودِهِ قَطَراتِ اللَّفْظِ التي إذا وَضَعَها حامِلُ قَلَمِهِ نادَتْها القَرائِحُ[3] : [من البسيط]

يا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ [كِنايَةً بِهِما عن أَشْرَفِ النَّسَبِ]

بِمَنِّه وكَرَمِه[4] .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليه :**

أُقْسِمُ بِكَلِماتِ مَولانا التي ما لَها مِثْلٌ على تكاثُرِها في العَصْرِ ، وبِمعانيها التي تَغَرَّدَتْ بِالجَمالِ فَلا جَمْعَ بَيْنَها وبينَ مُخَدَّراتِ القَصْرِ ، وبِسُطورِ أَلْفاظِها التي هي أَشْبَهُ شَيْءٍ بالأَغْصانِ ذَواتِ الهَصْرِ ، وبِطَلاوَةِ تَراكيبِها التي تَبَّتْ يَدا مُجارِيْها وفازَتْ هي بِالنَّصِّ على النَّصْرِ ، وبانْسِجامِ عِباراتِها التي طارَتْ حَمائِمُ هَمْزاتِها السَّاجِعَةِ وَرَمَتْ غَيْرَها بِالحَصِّ والحَصْرِ ؛ لقد جَلَّ مَولانا في حَلْبَةِ

---

(١) من قول ابن نباتة السَّعدي : [معاهد التنصيص ٣/ ٧٢ و٤/ ٢٠٥]
وكـــأَنَّمـــا لطـــمَ الصَّبـــاحُ جبينَـــه فـــاقتـــصَّ منـــه فخـــاضَ فـــي أَحشـــائـــه
(٢) البيت لابن اللَّبانة الدّاني ، من قصيدة في وفيات الأعيان ٥/ ٣٨ .
(٣) البيت للمتنبي ، في ديوانه ١/ ٨٦ .
(٤) من م .

الفَضْلِ ، إلاَّ أَنْ يَكونَ قد جَلَّىٰ ، وسابَقَ فُحولَ هذِهِ الصِّناعَةِ حتَّىٰ سَلَّم كُلٌّ لَهُ الفَضْلَ عِنْدَما صَلَّىٰ : [من البسيط]

أَنَّىٰ يُجارِيْهِ فُرْسانُ الكَلامِ وَمِنْ غُبارِهِ في هَوادِيْهِنَّ ما نَفَضُوا

فابْنُ زَيْدونَ عندَ بَلاغَتِهِ مَنْسوبٌ إلى النَّقْصِ ، وصاحِبُ « الأَغاني » عندَ اطِّلاعِهِ يَهْتَزُّ بالطَّرَبِ والرَّقْصِ ، وابنُ بَسَّامٍ قَطَّبَ من حَسَدِهِ وَعَبَسَ ، والمَيْدانيُّ كَفَّ عِنانَهُ عن مُجاراتِهِ وَحَبَسَ ، والقالي رُمِيَ عندَ أَلْفاظِهِ بالعِيِّ والخَرَسِ ، وابنُ الأَثيرِ(١) من حَلِّ نَظْمِهِ أَصْبَحَ في الحَضيضِ ، وابنُ أَبي الحديد(٢) من فَصاحَتِهِ بعدَ قُواهُ أَصْبَحَ وهو مَهيضٌ ، وابنُ عُمَيْرَةَ(٣) أَمْسَتْ أَبْياتُ نَظْمِهِ وهيَ خَرابٌ ، وأَبو بَحْرٍ(٤) غَدَتْ قَصائِدُهُ إذا الْتَمَحَها الظَّمْآنُ مثلَ السَّرابِ ؛ ولَعَمْري إذا كانَ مَولانا بهذِهِ المَثابَةِ ، فَقد نَفَخَ من المَملوكِ في غَيْرِ ضَرَمٍ ، وطافَ من أَرْكانِ إنْشائِهِ بغَيْرِ حَرَمٍ : [من البسيط]

لَطَّفْتَ رَأْيَكَ في بِرِّي وتَكْرِمَتي [٧٤ ب] إنَّ الكَريمَ على العَلْياءِ مُحْتالُ

ولا بِدْعَ فيما أَتَيْتَ ، فإنَّكَ من أَهْلِ بَيْتٍ كُلٌّ منهمْ كَريمٌ وكاتِبٌ ، وذو فَضْلٍ يَصبحُ المُتَعَلِّقُ بهذا الفَنِّ وهو رائِعٌ في جُودِهِ الرَّاتِبِ : [من الطويل]

لِيَهْنِكُمْ يا آلَ غانِمَ نَبْعَةٌ لَها في رِياضِ الفَضْلِ بِالمَجْدِ أَثْمارُ

---

(١) هو نصر الله بن محمَّد بن محمَّد ، أَبو الفتح ، الجزري الكاتب ؛ توفي سنة ٦٣٧ هـ . (مسالك الأبصار ١٢/٢٦٩) .

(٢) هما اثنان : عزّ الدِّين ، عبد الحميد بن هبة الله المدائني ، توفي سنة ٦٥٥ هـ . (مسالك الأبصار ١٢/٣١٨) .
وأَخوه : موفّق الدِّين ، القاسم بن هبة الله المدائني ، توفي سنة ٦٥٦هـ . (مسالك الأبصار ١٢/ ٣٢٣) .

(٣) هو أَحمد بن يحيىٰ بن أَحمد بن عميرة الضَّبيّ ، صاحب كتاب « بغية الملتمس في تاريخ رجال أَهل الأَندلس » ، المتوفى سنة ٥٩٩ هـ . (مقدمة كتابه) .

(٤) أَبو بحر ، صفوان بن إدريس بن إبراهيم التَّجيبي الأَندلسي ، من أَهل مرسية ، صاحب كتاب « زاد المسافر » ؛ توفي سنة ٥٩٨ هـ . (مقدمة كتابه) .

جَمـالٌ لأَهْـلِ العَصْـرِ حـازَ مَنـاقِبـاً تَـروقُ لَـدىٰ الأَسْمـاعِ مِنْهُـنَّ أَسْمـارُ
تَطوفُ على الأَسْماعِ كاساتُ لَفْظِهِ فَيَحْصُـلُ لِـلأَلْبـابِ مِنْهُـنَّ إِسْكـارُ
وَيَخْلُـبُ عَقْـلَ المَـرْءِ سِحْـرُ بَيـانِـهِ وما كُلُّ مَن عانىٰ المَعانيَ سَحّارُ
ومـا أَنْتُـمُ إِلاّ سَمـاءُ فَضـائِـلٍ مَحـاسِنُـهُ فِيكُـمْ شُمـوسٌ وأَقْمـارُ

فاللهُ يُمْتِعُ الوُجُودَ بفضائِلِه ، ويَنْقُلُ إلى النَّسَماتِ السِّحْرِيَّةِ شَمائِلَ لُطْفِهِ ولُطْفَ شَمائِلِهِ ، ويَجْبُرُ صَدْعَ الأَدَبِ بفَضائِلِه الباهِرَةِ ، ويُحَلِّي عَطَلَ الآدابِ من خَطِّهِ وخِطابِهِ بالعُقودِ الفاخِرَةِ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِه[1] .

● وكتبَ إليَّ وقد مرضَ فلم أَعُدْهُ[2] : [من الكامل]

مَـولايَ كَيْـفَ كَسَـرْتَنـي فَهَجَـرْتَنـي عِلْمـاً بِـأَنِّـيْ كَيْـفَ كُنْتُـمْ راضِـي
أَوْ قُلْـتَ إِنِّـي لا أَعـودُ مُمَـرَّضـاً ظَنّـاً بِـأَنِّـي لا مَحـالَـةَ مـاضِـي

● فكتبتُ الجَوابَ إليه[3] : [من الكامل]

أَرْسَلْتَهـا مِثْـلَ السِّهـامِ مَـواضِـي نَفَذَتْ من الأَعْراضِ في أَغْراضِي
فَـأَتَـتْ وَعَتْبُـكَ قـد تَخَلَّـلَ لَفْظُهـا مِثْـلَ الأَفـاعـي بَيْـنَ زَهْـرِ رِيـاضِ
دَعْنـي مِـن الجَبَـرُوتِ أَوْ مِـنْ أَهْلِـهِ لا تَجْعَلَـنَّ سَـوادَهُـمْ كَبَيـاضِـي
حاشاكَ أَنْ تَمْضي وَسَعْدُكَ قد غَدا مُسْتَقْبَـلاً فِيْنـا وَأَمْـرُكَ مـاضِـي[4]

٤٦ * عبدُ اللهِ بن عبد الرَّحمن بن محمَّد[5] :

الشَّيخُ الإمامُ الفاضِلُ ، الفَقيهُ ، الأَديبُ ، تَقِيُّ الدِّين الحَنْبَليّ .

---

(١) نهاية السقط في ب .
(٢) البيتان في أعيان العصر والوافي .
(٣) الأبيات في أعيان العصر والوافي .
(٤) سقط البيت من ب .
(٥) ترجمته في : الدّرر الكامنة ٢/ ٢٧٠ .
ـ ولادته سنة ٦٨١ هـ . ووفاته سنة ٧٥٧ هـ .
ـ سقطت هذه الترجمة بكاملها من س .

● كتبَ إليَّ وقد عَمِلَ نُسْخَةَ صَداقٍ ، فعابَ ذلكَ عليهِ بعضُ النَّاسِ ، فبعثَ بالنُّسْخَةِ المذكورةِ ، ومعها : [من البسيط]

مـاذا يُجاوِبُ أَهْلُ الفَضْلِ والأَدَبِ ... وَأَهْـلُ مَعْـرِفَـةِ الأَشْعـارِ والخُطَـبِ
ومَـن إِليهِـمْ مـن الأَقْطـارِ قـاطِبَـةً ... شَـدُّ الـرِّحـالِ لِنَيْـلِ العِلْـمِ والأَدَبِ
ومَن بِهِمْ يُقْتَدىٰ في عَصْرِنا وَهُمُ ... أَئِمَّةُ الوَقْتِ من عُجْمٍ ومِن عَرَبِ
كُفِيتُـمُ شَـرَّ ذي جَهْـلٍ وذي حَسَـدٍ ... ولا بُلِيتُـمْ بِـأَفَّـاكٍ وذي كَـذِبِ
هَـلْ هَـذِهِ خُطْبَـةٌ مِمَّـن حَـوىٰ أَدَبـاً ... أَو الذي قَد دَرىٰ ما خُطَّ في الكُتُبِ
أَو جـاهِـلٍ مـا لَـهُ عِلْـمٌ وَمَعْـرِفَـةٌ ... أَو الـذي ليسَ يَـدْري نَـزْرَ مُكْتَتِـبِ
أَو هـل تَـرَوْنَ بِهـا عَيْبـاً يُـدَنِّسُهـا ... أَو رِكَّـةً أَو بِهـا نَـوْعٌ مـن الحَطَـبِ
وهـل إِذا اتَّحَـدَتْ أَسْجـاعُهـا فَتَـرىٰ ... بِحَطِّها ، أَو بِهِ تَعْلو علىٰ القُطُبِ[1]
أَو هـل بِهـا مـن مَعـانٍ لا تَليـقُ بِهـا ... في مِثْلِها فاكْشِفُوا عن وَجْهِ مُحْتَجِبِ
بِمـا تُجيبـونَـهُ فيهـا فَقَـد كَثُـرَتْ ... فيها الأَقاوِيلُ من قَوْمٍ بِذا السَّبَبِ
بَعْضٌ يَقولُ : بِها عَيْبٌ ، وبَعضُهُمُ ... يَقُولُ : كلاَّ وقد صِيغَتْ من الذَّهَبِ
فَبَيِّنُـوا لا عَـدِمْنـا فَضْلَكُـمْ أَبَـداً ... ولا بَـرِحْتُـمْ لَنـا فـي سـائِرِ النُّـوَبِ
هـل الـذي عـابَهـا حَـقٌّ مَقـالَتُـهُ ... أَو جـاهِـلٌ بِفُنـونِ النَّظْـمِ والخُطَـبِ
أَو الـذي قـالَ إِنَّ الـدُّرَّ صِيغَتُهـا ... يَكونُ مِمَّنْ سَرىٰ في مَنْهَجِ الأَدَبِ
فـإِنْ يَكُـنْ قـد أَجـادَ اللَّفْظَ قـائِلُهـا ... لَـهُ أَجيـزوا تَنـالـوا أَعْظَـمَ القُـرَبِ
نَظْمـاً يَكـونُ جَـوابـي يـا أَئِمَّتَنـا ... يَشْفي الصُّدورَ ويَجْلو هَمَّ مُكْتَئِبِ

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ ارْتِجالاً : [من البسيط]

[١٧٥أ] سَأَلْتَ يا فارِسَ الهَيْجاءِ في الأَدَبِ ... عَمَّـا أَتَيْـتَ بِـهِ مِـن أَحْسَـنِ الخُطَـبِ

---

(١) ورد هذا البيت في ب آخر القصيدة استدراكاً .

هَلْ في مَحاسِنِها عَيْبٌ لِمُنْتَقِدٍ أَوْ هَلْ تَراكِيبُها مَحْلولَةُ الطُّنُبِ
وهَل إذا كانَ منْها السَّجْعُ مُتَّحِداً تَعْلو وإلاّ بِهِ تَنْحَطُّ مِن صَبَبِ
فَحاشَ للهِ ما فيها سِوىٰ دُرَرٍ تَنَظَّمَتْ فَوقَ جِيْدِ الخُرَّدِ العُرُبِ
وَنَثْرُها رائِقٌ ما عِنْدَه كَدَرٌ بَلْ قد حَلا فَغَدا ضَرْباً من الضَّرَبِ
وكونُهُ جاءَ في حَرْفٍ يَدُلُّ علىٰ تَمَكُّنِ القَوْلِ حتّىٰ انْهَلَّ كالسُّحُبِ
تَغْدُو بِها اللّامُ عَمَّن لامَ في جَنَنٍ وما لَها في سَماعِ القَوْلِ من أَرَبِ
يَفْتَرُّ مَبْسَمُها في القَوْلِ عن دُرَرٍ وعن أَقاحٍ وعن طَلْعٍ وعن حَبَبِ
وقَد غَدَتْ في رِياضِ الحُسْنِ وَجْنَتُها حَمَّالَةَ الوَرْدِ لا حَمَّالَةَ الحَطَبِ
وبَيْنَها عِنْدَ مَنْ يَدْري مَحاسِنَها وبينَ بَدْرِ الدَّياجي أَقْرَبُ النَّسَبِ
مَصْقولَةٌ كِغِرارِ السَّيْفِ أَرْهَفَهُ في حَدِّهِ ذو بَيانٍ قاطِعٍ ذَرِبِ
فليسَ تَحتاجُ ذا خَطٍّ يُؤَيِّدُها «فَالسَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْباءً من الكُتُبِ»(١)
قَد كِدْتُ أَنْشِدُها لمّا خَلَوْتُ بِها «يا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ»(٢)

● **وكتبَ هو إِلَيَّ أَيضاً قبلَ وُصولِ جَوابي هذا إليهِ :** [من البسيط]

مَن رامَ رَبْعَكَ ما خابَتْ مَقاصِدُهُ ومَن حِياضُكَ قد طابَتْ مَوارِدُهُ
يا مَنْ غَدا وهو فَرْدٌ لا نَظيرَ لَهُ وراحَ وهْو بهذا العَصْرِ واحِدُهُ
حُزْتَ البَلاغَةَ لو قُسُّ بنُ ساعِدَةٍ يَرومُ ما نِلْتَهُ ما طالَ ساعِدُهُ
قد شاعَ فَضْلُكَ في الأَقْطارِ قاطِبَةً يا مَن غَدا وهْو في ذا العَصْرِ ماجِدُهُ
يا مَنْ غَدا في مَراقي المَجْدِ مُرْتَقِياً وراحَ بِالذُّلِّ والتَّبْريحِ حاسِدُهُ

---

(١) العجز مضمّن من قول أبي تمام : [ديوانه ١/ ٤٥]
السَّيفُ أَصدقُ إِنباءً من الكتبِ في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللَّعبِ
(٢) العجز مضمّن من قول المتنبي : [ديوانه ١/ ٨٦]
يا أُختَ خيرِ أَخٍ ، يا بنتَ خيرِ أَبٍ كِنايةً بهما عن أَشرفِ النَّسبِ

إنِّـي سَـأَلْتُـكَ يـا ذا الفَضْـلِ مَسْـأَلَـةً وأَنْتَ مَن لم يَخِبْ في النَّاسِ قاصِدُهُ
سَأَلْتُ عن خُطْبَةٍ قد بِتُّ مُقْتَرِحاً بَـديعَهـا إِذْ نَـأَتْ عَنِّـي شَـوارِدُهُ
قَد أَصْبَحَ العَبْدُ من طُوْلِ المَدىٰ قَلِقاً وقَـد غَـدا وهْـوَ فَـرْحـانٌ مُعـانِـدُهُ
فـإنْ أَجَبْـتَ فَفَضْـلٌ مِنْـكَ يَغْمُـرُنـي وإنَّـي عـارِفُ الإِحْسـانِ حـامِـدُهُ
وإِنْ يَكُـنْ عـاجِـلاً فَهْـوَ المُـرادُ فقَـد طـالَ المِطـالُ ولـم تَظْهَـرْ شَـواهِـدُهُ
واسْلَمْ وَدُمْ لا بَرِحْتَ الدَّهْرَ في دَعَةٍ ومَـن يُعـاديـكَ لـم تَنْجَـحْ مَقـاصِـدُهُ

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ ارْتِجالاً** : [من البسيط]

يـا فـارِسـاً كَـلَّ عَنْـهُ مَـن يُطـارِدُهُ وفـاضِـلاً ضَـلَّ عَنْـهُ مَـنْ يُجـاوِدُهُ
أَبْدَعْتَ في النَّظْمِ مِن بَعْدِ الخُمولِ لَهُ طَـريقَـةً نَفَقَـتْ مِنْهـا كَـواسِـدُهُ
أَقْصِرْ فَقَدْ صَحَّ لي أَنَّ البَديعَ غَدا تُلْقـىٰ إِلَيْـكَ مـن العَلْيـا مَقـالِـدُهُ
نَظْـمٌ بَـديـعٌ خَـلا مـن رِكَّـةٍ وغَـدا من رِقَّـةٍ وهـو حـالـي الثَّغْـرِ بـارِدُهُ
يَظَـلُّ يَخْلُـبُ لُـبَّ السَّـامِعِيْـنَ لَـهُ إذا تَجَلَّـتْ لَهـم مِنْـهُ وَلائِـدُهُ
مِنْ أَجْلِ ذا وَجَبَتْ لِلْفَضْلِ مِنْكَ علىٰ أَهْلِ القَريضِ الذي يُزْهَىٰ مَحامِدُهُ
أَمَّـا الجَـوابُ فـإِنِّـي لـم أُخِـلَّ بِـهِ وحالَةُ الوَقْتِ لم تُهْمَلْ مَقاصِدُهُ
وَجَهَّـزَتْـهُ علـى جَهْـلٍ قَـريحَتـي الْـ ـقَرْحىٰ وعُذْري على التَّقْصيرِ شاهِدُهُ
لأَنَّ أَمْـرِيَ بـادٍ فـي الـوَرىٰ فَلِـذا تَجْـري علـى خَلَـلٍ مِنِّـي عَـوائِـدُهُ
فإِنْ تُسامِحْ فَبالحُسْنىٰ وإِنْ تُرِدِ الْـ ـمُـؤاخَـذاتِ فَـزَيْـفٌ أَنْـتَ نـاقِـدُهُ
واسْلَمْ لِفَنٍّ مَضَتْ في النَّاسِ بَهْجَتُهُ وأَنْـتَ فِيْنـا علـى التَّحْقيـقِ واحِـدُهُ

● **وكتبَ هو إِليَّ بعدَما وَصَلَ الجَوابُ الأَوَّلُ إِليهِ** : [من البسيط]

[٧٥ ب] أَجَبْتَ يا حَبْرَ عِلْمٍ عاليَ الرُّتَبِ جَوابَ حَبْرٍ عَليمٍ جَدَّ في الطَّلَبِ(١)

---

(١) في ب، م: . . يا بحر علمٍ . . . × .

حُزْتَ البَديعَ وحُسْنَ الخَطِّ مَعْ كَرَمٍ فَشاعَ فَضْلُكَ بَيْنَ العُجْمِ والعَرَبِ
أَحْيَيْتَ قَلْبَ عَليمٍ شَفَّهُ سَقَمٌ أَطْفَأْتَ نارَ الذي أَشْفىٰ على عَطَبِ[1]
شَفَيْتَ غُلَّتَهُ ، أَبْرَأْتَ عِلَّتَهُ كَثَّرْتَ قِلَّتَهُ يا واحِدَ الأَدَبِ
إذا تَأَمَّلَ رائِيهِ لِناظِرِهِ وما حَوىٰ من مَعانٍ تاهَ مِن طَرَبٍ[2]
كَأَنَّما اللَّفْظُ دُرٌّ راحَ مُنْتَظِماً بِحُسْنِ خَطٍّ إِلى ياقوتَ مُنْتَسِبِ
كَأَنَّهُ النُّورُ في رَوْضٍ سَرَتْ سَحَراً عَليهِ سارِيَةٌ تَنْهَلُّ في صَبَبِ
وباكَرَتْهُ الصَّبا في ذَيْلِها أَرَجٌ فَفَتَّحَتْهُ فَأَضْحىٰ غايَةَ العَجَبِ
أَزْهىٰ من الرَّوْضِ مَرْآهُ ومَنْظَرُهُ وَذَوْقُهُ قد غَدا أَحْلىٰ من الضَّرَبِ
لَقد غَدا عَبْدُكُمْ بالعِزِّ مُشْتَمِلاً وراحَ حاسِدُهُ بالوَيْلِ والحَرَبِ[3]

● وكتبَ هو إليَّ ، أَحْسَنَ اللهُ إليهِ : [من الكامل]

زَمَنٌ تَقَضَّىٰ بالحِمىٰ ورُبُوعِهِ أَتُرىٰ يَجودُ الدَّهْرُ لي بِرُجوعِهِ
يا راحِلِينَ عَنِ المُحِبِّ نَزَلْتُمُ بِفُؤادِهِ وَقَطَنْتُمُ في رُوْعِهِ
هَلْ عَوْدَةٌ بِالوَصْلِ تَشْفي سُقْمَ مَنْ وَصَفَ الطَّبيبُ لَهُ الدَّوا بِنُقوعِهِ
حَسْبي من الهِجْرانِ يا مَنْ حُسْنُهُ أَزْرىٰ بِبَدْرِ التِّمِّ عِنْدَ طُلوعِهِ
شَرَّدْتَ عن قَلْبي الكَئيبِ قَرارَهُ وَمَنَعْتَ طَرْفي من لَذيذِ هُجوعِهِ
جُدْ بِالوِصالِ لِمُسْتَهامٍ والِهٍ صَبٍّ تَخَدَّدَ خَدُّهُ بِدُمُوعِهِ
وارْحَمْ كَسيرَ القَلْبِ واغْنَمْ أَجْرَهُ واجْعَلْ وِصالَكَ جابِراً لِصُدوعِهِ
ها قد أَتاكَ بِذِلَّةٍ وَتَخَضُّعٍ فارْفُقْ وَرِقَّ لِذُلِّهِ وخُضوعِهِ

---

(١) كذا في أ . ولعلّ الصّواب : أَحييتَ قلبَ عليلٍ . . . × .
وفي ب : . . قلب كئيب . . × .
(٢) في أ : . . . . لناضره × ! .
(٣) وسقط ما بعد ذلك إلى نهاية الترجمة من ب .

أَوَ ما تَخافُ اللهَ في صَبٍّ غَدَتْ ... نارُ الفِراقِ تُشَبُّ بَيْنَ ضُلوعِهِ

ها قَدْ شَكَوْتُ إِلَيْكَ إِنْ لم تُشْكِني ... ويَزولُ عن قَلْبي أَمَضُّ هُلوعِهِ

فَلَيَشْكُوَنَّ العَبْدُ ما قد مَسَّهُ ... من شِدَّةِ البَلْوىٰ إِلى مَقْروعِهِ(١)

بَحْرِ العُلومِ وحَبْرِها مَن صِيْتُهُ ... عَمَّ البِلادَ جَميعَها بِذُيوعِهِ

أَعْني صَلاحَ الدِّيْنِ سَيِّدَنا الذي ... فاقَ الوَرىٰ بِأُصولِهِ وفُروعِهِ

مِنْهُ يَنابيعُ العُلوم تَفَجَّرَتْ ... فالنَّاسُ يَسْتَسْقُونَ من يَنْبُوعِهِ

ولَهُ اليَدُ الطُّولىٰ وكُلُّ مُصَنَّفٍ ... قد فاقَ أَهْلَ الفَضْلِ في مَشْروعِهِ

ما في البَرِيَّةِ مِثْلُهُ في عَصْرِهِ ... كَمْ بَيْنَ آسادِ الشَّرىٰ وسُمُوعِهِ(٢)

أَيُشَبَّهُ البَحْرُ الخِضَمُّ بِجَدْوَلٍ ... أَوْ لَيْثُ غابٍ مُشْبِلٍ بِدُروعِهِ(٣)

هُوَ فارِسٌ يَوْمَ النِّزالِ مُسَرْبَلٌ ... من كلِّ قَوْلٍ صَحَّ في مَجْموعِهِ

ما المُزْنُ يَحْكي جُودَهُ في جُودِهِ ... ونَداهُ قد فاقَ الحَيا بِهُموعِهِ

تُغْني المُلوكَ عن الكَتائِبِ كُتْبُهُ ... فَبِها يَفِرُّ عَدُوُّهُمْ بِجُموعِهِ

يا مَنْ يَرومُ لَحاقَهُ لا تَطْلُبَنْ ... ما لا حَقيقَةَ في الوَرىٰ لِوُقوعِهِ

مَن ذا يُباري الرِّيْحَ عِنْدَ هُبوبِها ... أَم مَنْ يُجاري البَرْقَ حِينَ لُموعِهِ

يا مَلْجَأَ الطُّلاَّبِ يا كَهْفَ الوَرىٰ ... أَيْقَظْتَ هذا العِلْمَ بَعْدَ هُجوعِهِ

إِنْ جاءَ قَوْلٌ فيه خُلْفٌ مُشْكِلٌ ... أَوْضَحْتَ ما قَدْ شَذَّ مِن مَسْموعِهِ

ما إِنْ سَأَلْنا قَطُّ عِلْماً غامِضاً ... إِلاَّ وَكُنْتَ مُقَرِّباً لِشُسوعِهِ

يا أَيُّها البَحْرُ الذي مَنْ أَمَّهُ ... أَمِنَ الزَّمانَ وطَوْلَهُ من نُوعِهِ(٤)

أَخْمَلْتَ ذِكْرَ ذَوي البَلاغَةِ كُلِّهِمْ ... وضِياءَهُمْ أَخْمَدْتَ بَعْدَ سُطُوعِهِ

---

(١) المقروع : السَّيِّد . (هامش أ) .

(٢) السُّموع : أَولاد الضَّبع من الذِّئب . (هامش أ) .

(٣) الدُّروع : أَولاد البقر الوحشيَّة . (هامش أ) .

(٤) النُّوع : العطش . (هامش أ) .

[٧٦أ] فالجَوْهَرِيُّ «صِحاحُهُ» قد كُسِّرَتْ وغـدَتْ بسُـوقِ كَسـادِهـا كَجُـزوعِـهِ
وَكَذا البَديعُ لَدَيْكَ أَضْحىٰ خامِلاً عَـدَلَ الأَنـامُ إِلَيْـكَ عـن مَـوضُـوعِـهِ
وغَــدا المَعَــرِّيُّ الــذي عَــزَّيْتَــهُ حُلَـلَ اللُّغـاتِ مُضَـرَّجـاً بِـدُمـوعِـهِ
وكَسَـرْتَ مِنْـوالَ الحَـريـريِّ الـذي قَـد أَعْجَـزَ النُّسَّـاجَ عـن مَصْنـوعِـه
وعلـىٰ قُـدامَـةَ لا تَـزالُ مُقَـدَّمـاً زَلَّـتْ بـهِ الأَقـدامُ عِنْـدَ قُـزوعِـه[١]
وقَنــاةُ حَمَّــامِ النَّصِيــرِ كَسَـرْتَهـا وقَطَعْـتَ عَنْـهُ المـاءَ عـن يَنْبـوعِـهِ
نُــورُ السِّــراجِ بِنَفْثَــةٍ أَطْفَــأْتَــهُ فَغَــدا الظَّــلامُ مُخَيِّمــاً بِـرُبـوعِـهِ
والفـاضِـلُ القـاضـي تَبَيَّـنَ نَقْصُـهُ وعـن الـرِّيـاضِ أُذِيـدَ بَعْـدَ رُتُـوعِـهِ
فُقْــتَ الأَنــامَ بِسُــؤْدَدٍ وسِيــادَةٍ كـالعَبْـدِ إِذْ فـاقَ الـوَرىٰ بقُطـوعِـهِ
قَــد أَخَّــرَ المَمْلـوكَ حَـظٌّ أَسْـوَدٌ كَيْفَ احْتِيالي في القَضا وَوُقُوعِهِ
إِنِّـي الْتَـزَمْـتُ الـرِّدْفَ قَبْـلَ رَوِيِّهـا كـالضَّـبِّ يَلْـزَمُ حِبَّـهُ لِـرُجـوعِـهِ
خُـذْهـا صَـلاحَ الـدِّيْـنِ نَفْثَـةَ قـاصِـرٍ يَوْمَ السِّباقِ علىٰ مَطِي مَهْقوعِهِ[٢]
لا زِلْـتَ فـي نِعَـمٍ دَوامـاً سَـرْمَـداً ما الطَّيْرُ غَرَّدَ مُسْحِراً في شُوعِهِ[٣]

٤٧ * عبدُ اللهِ بن محمَّد[٤] :

القاضي الفاضِلُ ، وَلِيُّ الدِّينِ ابنِ قاضي القُضاةِ بَهاءِ الدِّين ، أَبي البَقاء [السُّبكيّ] ، مُوَقِّعُ الدَّسْتِ الشَّريفِ بِالشَّامِ المَحروسِ .

● **كَتَبَ إِليَّ مُلْغِزاً** : [من الوافر]

---

(١) القزوع : الاستعمال . (هامش أ) .
(٢) المهقوع : الفرس الذي يكون في زَوره كهيئةِ الهقعة ، وهو عيبٌ في الخيل ، ولا يزال المهقوع مسبوقاً . (هامش أ) .
(٣) الشُّوع : شجر البان . (هامش أ) .
(٤) ترجمته في : درر العقود الفريدة ٢/ ٣٣٨ والذيل على العبر ٢/ ٥٤٨ والدّرر الكامنة ٢/ ٢٩٢ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٣/ ١٢٢ وإنباه الغمر ٢/ ١٤٧ والنجوم الزاهرة ١١/ ٢٩٨ والذيل التام ١/ ٣٣٠ ونزهة النفوس والأبدان ١/ ٨٩ والدارس ١/ ١٧٣ وتاريخ الصالحية ١/ ١٧٣ وشذرات الذهب ٨/ ٤٩٦ .
ـ ولادته سنة ٧٣٥ هـ . ووفاته سنة ٧٨٥ هـ .
ـ سقطت هذه الترجمة من س .

وَمـا اسْـمٌ يـا إِمـامَ العَصْـرِ حَقّـاً ... ويـا مَـنْ حـازَ إِحْسـانـاً ولُطْفـا
ثُـلاثِـيٌّ إِذا مـا الثُّلْـثُ مِنْـهُ ... أُبِيْـنَ غَـدا يَـراهُ النَّـاسُ حَـرْفـا
ومَع عَكْسِ الحُروفِ يَصيرُ فِعْلاً ... لأُنْثـىٰ قـد ثَنَـتْ جِيْـداً وعِطْفـا
وإِنْ صَحَّفْتَـهُ مـن بَعْـدِ عَكْـسٍ ... فَـدَعْـهُ لأَكْبَـرِ الأَعْـداءِ وَصْفـا
يُـرىٰ فَـوْقَ المُلـوكِ بِـلا مِـراءٍ ... وكَـمْ قـد حـازَ تَشْـرِيفـاً وَظَـرْفـا
أَجِـبْ فَلِسَيِّـدي فِكْـرٌ دَقيـقٌ ... عَلَيْـهِ مِثْـلُ هـذا لَيْـسَ يَخْفـىٰ

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ ، وهو في « تاج » : [من الوافر]

لَقَـدْ أَتْحَفْتَنـي بِبَـديـعِ لُغْـزٍ ... حَكـىٰ زَهْـرَ الـرُّبـا لُطْفـاً وَعَـرْفـا
أَدَرْتَ بِـهِ عَلَـيَّ كُـؤُوسَ نَظْـمٍ ... كَـأَنَّ مِـزَاجَهـا عَسَـلٌ مُصَفّـىٰ
أَراهُ « بـاحَ » بـالتَّصْحِيـفِ حتَّـىٰ ... لَقَـد كَشَـفَ المُغَطّـىٰ مِنْـهُ كَشْفـا
فَصِـرْتُ وقـد أَتـانـي رَبُّ « تـاجٍ » ... تُـزَفُّ لَـهُ مَعـانـي النَّظْـمِ زَفّـا
وبـاتَ نُضـارُهُ لِلْجِيْـدِ طَـوْقـاً ... وأَصْبَـحَ دُرُّهُ لِلسَّمْـعِ شُنْفـا
فَـدُمْـتَ تُجِـدُّ لِـلآدابِ رَسْمـاً ... عَفـا وتُجِيـدُ دُرَّ الشِّعْـرِ رَصْفـا

٤٨ * عبدُ الباقي بن عبد المَجيد بن عبد الله بن أَبي المَعالي مَتّى بن أَحمد بن محمَّد بن عيسىٰ بن يوسف[(١)] :

الشَّيخُ الإِمامُ الأَديبُ ، الوَزير ، تاجُ الدِّين اليَمَنيّ ، وزيرُ المَلِكِ المُؤَيَّدِ

---

(١) ترجمته في : مسالك الأَبصار ١٢/ ٤٥٤ وأَعيان العصر ٣/ ١٢ والوافي بالوفيات ١٨/ ٢٣ وفوات الوفيات ٢/ ٢٤٦ وذيول العبر ٢٣٣ ودرر العقود الفريدة ٢/ ٢١٦ ووفيات ابن رافع ١/ ١٧٦ وتعريف ذوي العلا ١٦ والعقد الثمين ٥/ ٣٢١ وتذكرة النبيه ٣/ ٤٤ وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٣٣٤ والدّرر الكامنة ٢/ ٣١٥ والنجوم الزّاهرة ١٠/ ١٠٤ والمنهل الصافي ٧/ ١٣٤ و٢٠٤ باسم عبيد الله بن عبد المجيد والدليل الشافي ١/ ٣٩٣ وشذرات الذهب ٨/ ٢٤١ والبدر الطالع ٢/ ٣١٧ .
ـ مولده سنة ٦٨٠ هـ . ووفاته سنة ٧٤٣ هـ .
ـ هو صاحب كتاب « إِشارة التّعيين في تراجم النُّحاةِ واللُّغويِّين » .

داود صاحبِ اليَمن[١] .

● كَتَبَ بالقاهرة علىٰ كِتابي « جِنان الجناس » في سنة ٧٣٢[٢] : [من الطويل]

جِنـانُ جِنـاسٍ فـاقَ جِنْـسَ جِنـانِ ... يُعيـنُ المُعـانـي فيـهِ جُـلُّ مَعـانـي
لَقَـد نَـوَّعَ الأَجْنـاسَ فيـهِ مُـؤَلِّـفٌ ... طَـرائِـقَ وَشْـيٍ أَو سُمـوطَ جُمـانِ
غَـدا نـاهِجـاً فيـهِ مَنـاهِـجَ لـم يَكُـنْ ... قُـدامَـةُ قِـدْمـاً جـاءَهـا بِبَيـانِ
مَقـاصِـدُ مـا نَجْـلُ الأَثيـرِ مُثيـرُهـا ... بَـدائِـعُ فَضْـلٍ مـن بَـديـعِ زَمـانِ
مُحَـرَّرَةُ الأَلْفـاظِ لكـنَّ حُسْنَهـا ... رَقيـقٌ يُنَسِّينـا جَليـلَ حِسـانِ
إِذا ابنُ فَتى نَجْـلِ الحَـديدِ أَرادَهـا ... تَقـولُ لَـهُ : أَقْصِـرْ فَلَسْـتَ بِـدانـي
[٧٦ب] وما أَنْتَ مِمَّنْ يسْبِكُ التِّبْرَ ناقِداً ... ومـا لَـكَ فـي سَبْـكِ النُّضـارِ يَـدانِ
لقـد أَطْـرَبَـتْ أَبْيـاتُـهُ كُـلَّ سـامِـعٍ ... فَـرائِـدُ مـا جـاءَتْ لَهُـنَّ ثَـوانـي
تَفُـوحُ بِـأَرْواحِ الصَّبـا نَفَحـاتُهـا ... حَظيـرَةُ بـانٍ عنـدَ حَضْـرَةِ بـانِ
لَقَـد صَيَّـرَ الحُسَّـادَ تَـذْرِفُ عِنْـدَهـا ... مَـدامِـعَ شـانٍ فـي مَحـاجِـرِ شـانِ
أَقـولُ لِنَظْمـي حِيـنَ حـاوَلَ شَـأْوَهـا ... رِفيقُـكَ قَيْسِـيٌّ وَأَنْـتَ يَمـانـي
بَقيتَ صَلاحَ الدِّيْنِ لِلْفَضْلِ صالِحاً ... لِحُسْـنِ بَيـانٍ مـن يَـراعِ بَنـانِ

● فكتبتُ أَنا إِليهِ[٣] : [من الطويل]

لآلٍ غَـوالٍ مـن حُلِـيٍّ غَـوانـي ... وتَـرجيـعُ بَـمٍّ بعـدَ خَفْـقِ مَثـانـي
أَم الشَّيْـخُ تـاجُ الـدِّيْـنِ نَظَّـمَ شِعْـرَهُ ... فمـا زَهْـرُ رَوْضٍ مـن حُـلاهُ بِـدانـي
إِمـامٌ زِمـامُ الفَضْـلِ أَضْحـىٰ بِكَفِّـهِ ... يُصَـرِّفُـهُ يَـوْمَـيْ نَـدىً وبَيـانِ
وَزيـرٌ بِتَـدْبيـرِ المَمـالِـكِ عـارِفٌ ... غَـدا النَّـاسُ فـي أَيَّـامِـهِ بِـأَمـانِ

---

(١) في م : صاحب اليمن الميمون ، حرسه الله من الفتن .
(٢) القصيدة في أعيان العصر والوافي .
(٣) القصيدة في أعيان العصر . وزاد هنا في م : جواباً عمّا كتب .

إذا هُوَ جارىٰ الغَيْثَ يَوْمَ سَماحِهِ فَـذاكَ أَوانٌ لَيسَ فيـهِ بِـوانِ
يُشيدُ مَباني المَجْدِ في حَوْمَةِ العُلا بِهَـزِّ يَـراعٍ أَو بِسَـلِّ يَمـانـي
فَـأُقْسِـمُ مـا أَثْنىٰ علـى مـا وَضَعْتُهُ بِشِعْـرٍ ولكِـنْ بِـالجِنـانِ حَبـانـي
جِنـاسٌ بَـديـعٌ لـو تَقَـدَّمَ عَصْـرَهُ أَبـانَ لَنـا فـي ذاكَ عَجْـزَ أَبـانِ[1]
فَشُكْـرِيَ مـا وَفَّـىٰ حُقـوقَ صَنيْعِـهِ وكيـفَ بِشـامٍ شـامَ بَـرْقَ يَمـانـي

٤٩ * عبدُ الرَّحمن بن محمَّد [بن يوسف] بن أَحمد بن عبدِ الدَّائم[2] :

القاضي البليغُ ، تَقيُّ الدِّين ابن القاضي الإمام الفاضل البارع النَّحْويّ مُحبّ الدِّين ، كاتِبُ الإِنْشاءِ الشَّريفِ بالدِّيارِ المِصْرِيَّةِ المحروسَة .

● **كتبتُ أَنا إِليهِ من الشَّامِ المحروسِ ، وهو بالقاهرةِ المحروسَة ، أَوَّلَ دُخولِه[3] الدِّيوانَ :** [من البسيط]

جَمَّلْتَ بـالفَضْـلِ لـلإِنْشـاءِ دِيْـوانـاً وَشِدْتَ لِلْمَجْدِ يَوْمَ الفَخْرِ أَرْكانا
فَسَـوْفَ يَفْتَـرُّ ثَغْـرُ الـدَّهْـرِ مُبْتَسِمـاً عُجْبـاً ويَعْطِـفُ منْـهُ القَـدَّ نَشْـوانـا
أَحْبَبْتَ يا ابْنَ مُحِبِّ الدِّيْنِ صَنْعَةَ مَن قَد أَصْبَحُوا في مَجالِ الفَضْلِ فُرْسانا[4]
قَـوْمٌ إِذا مـا المَعـالـي أَشْـرَفَـتْ لَهُـمُ كانُوا لَها من جَميعِ النَّاسِ أَخْدانا[5]
دِيْـوانُ الانْشـاءِ عَيْـنٌ لِلـزَّمـانِ وقـد أَصْبَحْتَ أَنْتَ لِتِلْكَ العَيْنِ إِنْسانا
وفيـهِ مـنِ سـادَةِ الكُتَّـابِ طـائِفَـةٌ كم أَلْبَسُوا المُلْكَ بالإِنْشاءِ تِيْجانا

---

(١) هو أَبان بن عبد الحميد اللاحقي ، ناظم كليلة ودمنة .
(٢) ترجمته في : درر العقود الفريدة ٢/ ٢٢٣ والذيل على العبر ٢/ ٥٥٥ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٣/ ١٤٥ وإِنباه الغمر ٢/ ١٧١ والنجوم الزاهرة ١١/ ٣٠١ والمنهل الصافي ٧/ ٢١٠ والدليل الشافي ١/ ٤٠٤ ونزهة النفوس ١/ ١٠٨ والذيل التام ١/ ٣٣٥ وشذرات الذهب ٨/ ٥٠١ .
ـ مولده سنة ٧٢٥ هـ . ووفاته سنة ٧٨٦ هـ .
ـ « أَحمد بن » ساقطان من أ .
(٣) في ب : أَوّل وصوله .
(٤) في م : أَحييتَ . . . × .
(٥) في ب ، س ، م : . . . استشرفت لهم × .

وقَلِّدوا بالتَّقالِيدِ التي نَظَمُوا ... حُلِيَّها جِيْدَهُ دُرّاً ومُرْجانا

ويَنْظُرُ النَّاسُ رَوْضاً مِنْهُمُ نَضِراً ... ويَنْشَقُونَ من الأَعْلامِ رَيْحانا(1)

فاجْهَدْ على أَنْ تُرىٰ في العِقْدِ واسِطَةً ... وأَنْ تكُونَ مَحَلاً فَوْقَ كِيْوانا

وليسَ إلاَّ عُلومٌ إنْ ظَفِرْتَ بها ... تَسْحَبْ ذُيولَ العُلا من فَوْقِ سَحْبانا

وَرَأْسُ مالِكَ فيها النَّحْوُ فانْحُ لَهُ ... إنْ شِئْتَ تَمْلِكُ لِلإِنْشاءِ أَرْسانا

حافِظْ علىٰ الدَّرْسِ والإِعْرابِ فَهْوَ إذا ... حَقَّقْتَ من أَكْبَرِ الآلاتِ أَعْوانا

ولا تُفارِقْ حِمىٰ التَّصريفِ إنَّ لَهُ ... فَلأَّتِ قَوْمٍ حَكَتْ رَضْوىٰ وثَهْلانا(2)

وَما يَضُرُّكَ من حِفْظِ الفَصيحِ ومِنْ ... بَعْضِ المَقاماتِ إنْ جانَبْتَ نُقْصانا

وسُنَّةُ المُصْطَفىٰ خُذْ من مَعادِنِها ... جَواهِراً فَضَلَتْ في الصَّرْفِ عِقْيانا

ولِلحَماسَةِ قَوْمٌ في الكِتابَةِ قد ... « طارُوا إلَيْها زُرافاتٍ وَوِحْدانا »

واحْفَظْ من المُتَنَبِّي ما اسْتَطَعْتَ تَجِدْ ... « أَوْفَىٰ البَرِيَّةِ عندَ الشِّعْرِ مِيْزانا »

ما في التَّرَسُّلِ كَنزٌ منه يُنْفَقُ إلْـ ... ـلاَ شِعْرُهُ وسِواهُ راحَ مَجّانا

[77 أ] ومَا التَّرَسُّلُ إلاَّ نَثْرُ سَيِّدِنا ... عَبْدِ الرَّحيمِ فَخُذْ لِلْحُسْنِ أَلْوانا

فاجْعَلْهُ دَأْبَكَ واعْقِلْ من شَوارِدِهِ ... أَوابِداً لم تُرِدْ في الحُسْنِ بُرْهانا

طَريقَةٌ هي مُثْلىٰ في الأَنامِ فَما ... أَرىٰ سِواها مِثالاً قَطُّ أَعْيانا(3)

وانْظُرْ تَوارِيخَ أَقْوامٍ حَدِيْثُهُمُ ... لِلْمَجْدِ نَشَّطَ مَن قَد راحَ كَسْلانا

واكْثِرْ مُطالَعَةَ الآدابِ تَحْظَ بما ... زانَ البَليغَ وَحَلاَّهُ وما شانا

وَلَيْسَ مِثْلُ الأَغاني في مُطالَعَةٍ ... لأَنَّهُ عن جَميعِ الكُتْبِ أَغْنانا

وما البَديعُ بَعيدٌ أَنْ يُطَرِّزَ ما ... تَأْتي بِهِ يا تَقِيَّ الدِّيْنِ إتْقانا

هذا يَسيرٌ ومِثْلي مَنْ يُشيرُ بِهِ ... علىٰ الذي قد غَدا بالعِلْمِ هَيْمانا

---

(1) في س ، م : . . . . . من الأقلام ريحانا .

(2) في س : × زلآت . . . .

(3) في ب : × . . . . ألوانا .

فاحْفَظْ كَلامَ مُحِبٍّ ناصِحٍ جَعَلَ النْـ ـنُصْـحَ الحَقيـقَ لَـهُ دِيْنـاً وإِيْمـانـا

● فكتبَ هو الجَوابَ إليَّ عن ذلك : [من البسيط]

مَـن كـانَ مَحْبـوبُـهُ لِلْهَجْـرِ يَقْظـانـاً قَد باتَ يَرْعىٰ نُجومَ اللَّيْلِ هَيْمانا
صَبٌّ بِمِصْرَ يَرومُ القُرْبَ قد تَخِذَتْ أَحْبـابُـهُ بِـأَعـالـي الشَّـامِ أَوْطـانـا
مُضْنىً كَئِيـبٌ مُعَنّىً مُغْـرَمٌ كَلِـفٌ لا يَبْتَغـي أَبَـداً فـي الحُـبِّ سُلْـوانـا
مـا زالَ يُخْفـي عـن العُـذَّالِ لَـوْعَتَـهُ ويُظْهِـرُ الصَّبْـرَ تَمْـويهـاً وكِتْمـانـا
حتَّىٰ غَـدا دَمْعُـهُ القـاني يَنِـمُّ علىٰ كِتْمـانِـهِ فَـأَعـادَ السِّـرَّ إِعْـلانـا
إِنْ كانَ أَحْبابُنا بالوَصْلِ قَد بَخِلُوا وأَوْرَثُـوا القَلْـبَ بـالإِبْعـادِ أَحْـزانـا
فَلَسْتُ أُشْفِقُ من دَمْعي على بَصَري لأَنَّ كُـلَّ عَـزيـزٍ بَعْـدَهُـم هـانـا
مَـن حَقَّـقَ الأَمْـرَ في دَعْـوىٰ مَحَبَّتِـهِ فَقَـد أَصَـمَّ عَـن العُـذَّالِ آذانـا
ومَـنْ يَكُـنْ لِصَـلاحِ الـدِّيْـنِ نِسْبَتُـهُ فَقَـد غَـدا لابِسـاً لِلْعِلْـمِ تِيْجـانـا
بَحْـرُ العُلـومِ ومَـن سـادَ الـزَّمـانُ بِـهِ لمَّـا عَـلا رُتَبـاً مِـن فَـوْقِ كِيْـوانـا
يُريكَ زُهْرَ النُّجومِ الشُّهْبِ قد نُظِمَتْ مِـن نَظْمِـهِ ويُـريـكَ السِّحْـرَ أَلْـوانـا
رِقـاعُ مَنْثُـورِهِ إِنْ رُمْـتَ تَنْعَتُهـا فَـرَوْضَـةٌ أَنْبَتَـتْ دُرّاً ومُـرْجـانـا
إِذا تَنـاوَلَ قِـرْطـاسـاً لِيَـرْقُمَـهُ بَـذَّتْ بَـلاغَتُـهُ قُسّـاً وسَحْبـانـا
يـا مَـنْ فَضـائِلُـهُ تَسْـري مُغَـرِّبَـةً فَـلا يَـزالُ سَنـاهـا مِنْـهُ يَغْشـانـا
أَتْحَفْتَنـا بِـوَصـايـا مِنْـكَ نـافِعَـةٍ وَزِدْتَنـا بِـوُضُـوحِ الأَمْـرِ تِبْيـانـا
أَقـولُ قَـوْلَ الـذي أَعْيَـتْ صِفـاتُكُـمُ مَقالَهُ فَمَضىٰ في المَدْحِ حَيْرانا :
قَـد شَـرَّفَ اللهُ دَهْـراً أَنْـتَ واحِـدُهُ « وَشَرَّفَ النَّاسَ إِذْ سَوَّاكَ إِنْسانا »(١)

---

(١) من بيت المتنبي : [ديوانه ٤/ ٢٣١]

قَـد شَـرَّفَ اللهُ أَرضـاً أَنـتَ سـاكِنُهـا وشَـرَّفَ النَّـاسَ إِذْ سَـوَّاكَ إِنْسـانـا

٥٠ * عبدُ القاهر بن محمَّد بن عبد الواحد بن موسىٰ الخطيب[١] :

قاضي القُضاةِ بصَفَد المحروسَة ، أَبو بكر ، جمالُ الدِّين البُخاريّ التَّبريزيّ الشَّافعيّ .

● **قرأْتُ عليهِ مُجَلَّدَةً أَنْشَأَها خُطَباً[٢] ، ورُتَّبَها على حُروفِ المُعْجَمِ من أَوَّلِها إِلىٰ آخِرِها بصَفَد المحروسَة سنة ٧٢٤ ، وكتبت عليها[٣] :**

قَرأْتُ هذِهِ الخُطَبَ المَسْرودَةَ على حُروفِ المُعْجَمِ من أَوَّلِها إِلى آخِرِها ، على مُنْشِئِها القاضي جَمالِ الدينِ عبدِ القاهر بن محمَّد التَّبريزيّ الشَّافعيّ ـ لا زالَتِ الطُّروسُ تُوَشَّىٰ وتُوَشَّعُ بكَلامِهِ ، وتُرَصَّفُ وتُرَصَّعُ بِحِكَمِهِ وأَحْكامِهِ ، ومَحاسِنُ أَيَّامِهِ ولَيالِيهِ تُنْشَأُ وتُنْشَدُ ، ودُرَرُ نَثْرِهِ ونِظامُهُ تُنْظَمُ وتُنْضَدُ ـ قِراءَةَ مَن غاصَ اللُّجَّةَ من بَحْرِ حِبْرِها ، وعَلِمَ قِيْمَةَ المُنْتقَىٰ والمُنْتَقَدِ من دَرارِيْها ودُرِّها ، واسْتَشَفَّ [٧٧ ب] مَعانيها المَجْلُوَّةَ في حَبْرِ حِبْرِها ، وَصَدَّقَ مُعْجزَ آياتِها وما شَكَّ في خَبَرِ خُبْرِها ، واسْتَجْلىٰ وُجوهَ عُرْبِها وتَوجيهَ إِعْرابِها ، وَتَحقَّقَ أَنَّ القَرائحَ ما لَها طاقَةٌ على مِثْلِها في بابِها ، وتَنَزَّهَ في حَدائِقِها التي ضُرِبَتْ عَليها أَزْواقُ الأَوْراقِ ، واجْتَلَىٰ أَبْكارَها الغُرَّ فَكانَت حَقيقةً فِتْنَةَ العُشَّاقِ ؛ فَسَرَّحْتُ سَوامَ الطَّرْفِ فيما أَرْضاهُ من رَوْضاتِها ، وَرَشَفْتُ قَطْرَ البَلاغَةِ مِمَّا زُهِيَ من زَهَراتِها : [من الكامل]

وَتَشَنَّفَتْ أُذُني بِلُؤْلُؤِ لَفْظِها   وتَنَزَّهَتْ عَيْنايَ في جَنَّاتِها

---

(١) ترجمته في : معجم الشُّيوخ للذهبي ١/ ٤٠٨ وأَعيان العصر ٣/ ١٢٤ والوافي بالوفيات ١٩/ ٥٤ وفوات الوفيات ٢/ ٣٦٧ ووفيات ابن رافع ١/ ١١٠ وتذكرة النبيه ٢/ ٣٢٠ والدّرر الكامنة ٢/ ٣٩٤ والنجوم الزّاهرة ٩/ ٣٢٥ والمنهل الصافي ٧/ ٣٢٧ والدليل الشافي ١/ ٤٢٣ .
ـ مولده سنة ٦٤٨ هـ . ووفاته سنة ٧٤٠ هـ .

(٢) وسمَّاها « تحفة الأَلبَّاء » . (الوافي) .

(٣) النص بنثره وشعره في أَعيان العصر والوافي .

وَتَـأَمَّلَـتْ أَفْهـامُنـا فَتَمـايَلَـتْ بِتَـرَشُّـفِ الصَّهْبـاءِ مـن كـاسـاتِهـا
فَكَـأَنَّ هَمْـزَ سُطـورِهـا بِطُـروسِهـا وُرْقٌ علـىٰ الأَغْصـانِ مِـن أَلِفـاتِهـا
وَكَـأَنَّهـا وَجَنـاتُ غِيْـدٍ نَقْطُهـا خـالٌ علـىٰ الأَصْـداغِ مـن جِيْمـاتِهـا
للهِ مـا أَطْـرَىٰ وَأَطْـرَبَ مـا أَتَـىٰ فـي هـذِهِ الأَوْراقِ مـن سَجْعـاتِهـا
لا غَرْوَ أَنْ عَقَدَتْ لِسانَ أُولي النُّهىٰ عن مِثْلِها بالسِّحْرِ مِن كَلِماتِها[١]

● **فكتبَ إليَّ**[٢] : [من الكامل]

شَرَّفْتَ غَرْسَ الدِّيْنِ حِيْنَ قَرَأْتَ ما أَمْلَيْتُ من خُطَبٍ أَجَدْتُ شِياتِها
بِفَصـاحَـةٍ لَـو أَنَّ قُسّـاً حـاضِـرٌ لَـرَآكَ تَسْبِقُـهُ إِلـى غـايـاتِهـا
يـا فَخْـرَ دَهْـرٍ أَنْـتَ مِـنْ بُلَغـائِـهِ وعُـلا لَيـالٍ أَنْـتَ مـن سـاداتِهـا
خُطَبي التـي أَنْشَـأْتُها ما أَنْتَ مِن خُطّـابِهـا فَتَجـافَ عـن عَـلاّتِهـا
عَظَّمْتَهـا وبَـرَزْتَهـا وجَبَـرْتَهـا وغَفَـرْتَ مـا قَـد كـانَ مِـن زَلاّتِهـا
فَـلأَنْـتَ أَكْـرَمُ فـاضِـلٍ لَمّـا بَـدَتْ لِعِيـانِـهِ غَطّـىٰ علـىٰ عَـوْراتِهـا
فاسْلَمْ وَدُمْ ما رَنَّحَتْ رِيْحُ الصَّبا أَعْطافَ غُصْنِ الرَّوْضِ في هَبّاتِها

● **وأَنشدَني لنفسِه في « الشَّبّابَةِ »**[٣] : [من الوافر]

ونـاطِقَـةٍ بِـأَفْـواهٍ ثَمـانٍ تَمِيْـلُ بِعَقْـلِ ذي اللُّـبِّ العَفيـفِ
لِكُـلِّ فَـمٍ لِسـانٌ مُسْتَعـارٌ يُخـالِـفُ بَيْـنَ تَقْطيـعِ الحُـروفِ
تُخـاطِبُنـا بِلَفْـظٍ لا يَعِيْـهِ سِـوىٰ مَـن كـانَ ذا طَبْـعٍ لَطيـفِ
فَضِيْحَـةُ عـاشِـقٍ ونَـديـمُ راعٍ وعِـزَّةُ مَـوْكِـبٍ ومُـدامُ صُـوفـي

---

(١) في م : . . . ذوي النُّهى × .
(٢) القطعة في أَعيان العصر .
(٣) الأَبيات في أَعيان العصر والوافي والفوات . وقال في أَعيان العصر : وأَنشدني لنفسه في شبّابة ، وقد وجدتُها فيما بعد في ديوان جوبان القوّاس بخطّه .

● فأَنشدْتُهُ لنفسي مُلْغِزاً في « كَمَنْجا »[1] : [من المجتث]

مـــا اسْـــمٌ إذا خِفْـــتُ هَمَّـــاً رَأَيْـــتُ لِـــي فِيـــهِ مَنْجـــا
يَشْـــدو بلَحْـــنٍ عَجيـــبٍ مِـــنَ الحَمـــائِـــمِ أَشْجـــىٰ
كـــم قَـــدْ شَجـــاكَ بصَـــوْتٍ حُـــروفُـــهُ مـــا تُهَجَّـــىٰ
إنْ لـــم تَجِـــىءْ لَـــكَ طَـــوْعـــاً فـــي الحَـــلِّ فَهْـــوَ كَمَـــنْ جَـــا

٥١ * عبدُ الوهَّاب بن عبدِ الرَّحيم بن عبد الله[2] :

القاضي فخرُ الدِّين ، كاتِبُ الإنشاءِ بالدِّيارِ المصريَّة ، يُعْرَفُ بكاتِبِ الدَّرْجِ ، لأَنَّهُ يَكْتُبُهُ عن نُظَّارِ الخاصِّ الشَّريفِ ، من القاضي جَمال الدِّين جَمالِ الكُفاةِ ، ومَن بَعْدَهُ إلى آخِرِ وَقْتٍ .

● كتبتُ إليهِ مُلْغِزاً بالأَبْياتِ التي تَقَدَّمَتْ في ترجمةِ الشَّيْخِ شرف الدِّين ، وهيَ في شهر رَمَضان ؛ وكانَ القاضي فَخر الدِّين قد وَرَدَ إلى الشَّام صُحْبَةَ رِكابِ السُّلْطانِ المَلِكِ الصَّالِحِ ، في ذلكَ الشَّهْرِ ، وَأَوَّلُها[3] : [من السريع]

يـــا فـــاضِـــلاً أَخْبـــارُ أَشْعـــارِهِ [مَشْهُـــورَةٌ فـــي العُجْـــمِ والعُـــرْبِ]

● فكتبَ هو الجَوابَ إليَّ عن ذلكَ[4] : [من السريع]

[٧٨ أ] يا بَحْرَ أَهْلِ العِلْمِ يا حَبْرَهُمْ وَذا النَّـــدىٰ والمَـــوْرِدِ العَـــذْبِ
يـــا كَـــوْكَـــبَ الفَضْـــلِ الـــذي نُـــورُهُ يَظْهَـــرُ عـــن بُعْـــدٍ وعَـــن قُـــرْبِ

---

(١) الأَبيات في أَعيان العصر .
(٢) ترجمته في : الوافي بالوفيات ١٩/ ٣٠٤ والدّرر الكامنة ٢/ ٤٣٣ .
ـ ولادته سنة ٧١٦ هـ .
ـ سقطت هذه الترجمة من س .
(٣) القصيدة بكاملها في الوافي ، وقد مضت في الترجمة ٨ .
(٤) القصيدة في الوافي .

يا سَيِّداً بالقُرْبِ مِن بابِهِ غفَرْتُ ما لِلدَّهْرِ مِن ذَنْبِ
يا حائِزاً كُلَّ عُلومِ الوَرىٰ وجائِزاً فَوْقَ مَدىٰ الشُّهْبِ
يا باسِمَ الثَّغْرِ ويا جائِداً لِراحَةِ الصَّاحِبِ بالجَنْبِ
يا رائِقَ المَنْطِقِ يا صادِقَ الْـ ـقِياسِ في الإِيْجابِ والسَّلْبِ
ومَنْ لَهُ النَّظْمُ البَديعُ الذي يَسْبي وأَرْبابَ النُّهىٰ يُصْبي
في كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ سامي البِنا يَقولُ لي طَرْفي : هُنا قِفْ بي
هُنِّئْتَهُ شَهْراً شَريفاً أَتىٰ الْـ ـقُرآنُ عن تَفْضِيلِهِ يُنْبي
تَقَبَّلَ اللهُ تَعالىٰ بِهِ أَعْمالَكَ المُرْبِحَةَ الكَسْبِ

● وكتبتُ أَنا إِليهِ قَرينَ دفترٍ من الوَرَقِ الأَبْيَضِ(١) : [من المجتث]

لَمَّا رَأَيْتُكَ بَحْراً ومَوْجُهُ مُتَوالي
يَمُجُّ دُرَّ قَريضٍ علىٰ مَمَرِّ اللَّيالي
أَهْدَيْتُ نَحْوَكَ دَرْجاً لِضَمِّ تِلْكَ اللآلي

● فكتبَ هو الجَوابَ عن ذلك(١) : [من المجتث]

بالَغْتَ في إِخْجالي بفَضْلِكَ المُتَوالي
فَحِرْتُ ما بَيْنَ شُكْرَيْ فَوائِدٍ ونَوالِ
والدَّرْجُ قَد جَمَعَ الحُسْـ ـنَ عاطِلاً وَهْوَ حالي
وسَوْفَ يُمْلأُ مَدْحاً بجُودِكَ المُتَتالي
ومِن مَحاسِنَ تُمْلا مِنْكُمْ بِغَيْرِ مَلالِ
تاللهِ يَقْصُرُ قالي عن شُكْرِ تِلْكَ الأَمالي

---

(١) الأَبيات في الوافي .

٥٢ * عبدُ الوهَّاب بن عليّ بن عبد الكافي[١] :

تَقَدَّمَ تَمامُ النَّسَبِ في ذِكْرِ أَخيهِ الشَّيخ بَهاءِ الدِّين أَحمد .

هو قاضي القُضاةِ الإمامُ العالِمُ ، الفاضِلُ المُفَنِّنُ ، النَّاظِمُ النَّاثِرُ ، الشَّيْخُ تاجُ الدِّين ، أَبو نَصْر ، ابن مَولانا قاضي القُضاةِ تَقِيِّ الدِّين ، السُّبْكيّ الشَّافِعِيّ .

● **كتَبَ هو إِليَّ من دمشقَ المحروسَة ، وأَنا بالقاهِرةِ المحروسَةِ ، في سنة ٧٤٥ :** [من السريع]

غـابَ صَـلاحُ الـدِّيْـنِ عـن جِلَّـقٍ ... فَغـابَ عَنْهـا العِلْـمُ والفَضْـلُ
واسْتَـوْحَـشَ الشَّـامُ لَـهُ واغْتَـدَتْ ... مِصْـرٌ بِـهِ لَيْـسَ لَهـا مِثْـلُ
قَـد عَمُـرَتْ كُـلُّ الأَراضـي بِـهِ ... وطـابَ مِنْهـا الحَـزْنُ والسَّهْـلُ
إِنْ حَـلَّ مِصْـرَ فَهْـوَ نِيْـلٌ لَهـا ... أَوْ جِلَّقـاً فَهْـوَ لَهـا وَبْـلُ

يُقَبِّلُ كذا[٢] ، الغالي قَدْرُها ، العالي ذِكْرُها ؛ ويُنْهي بعدَ دُعاءٍ ما أَحْرَصَهُ على كَوْنِهِ فيهِ يَخْلِصُ ، وثَناءٍ ما أَخْلَصَهُ من مُحِبٍّ صادِقٍ عليهِ يَحْرِصُ ؛ أَنَّهُ منذُ سافَرَ مَولانا وإِلى هذِهِ الأَيَّامِ ، التي هي عندَهُ أَعْوامٌ ، ما طابَ لهُ في هذِهِ البَلْدَةِ مُقامٌ ، وقد كتبَ هذِهِ المُطالعةَ تُنْهي بعضَ الأَشْواقِ ، وتُبْدي ما حَصَلَ لِرافِعِها بِسَبَبِ الفِراقِ ، فأَصْدَرَها تُعْلِمُ اسْتِمْرارَهُ على العُبودِيَّةِ ، وتَسْتَعْرِضُ ما يُعْرَضُ

---

(١) ترجمته في : المعجم المختصّ ١٥٢ والوافي بالوفيات ١٩/ ٣١٥ ووفيات ابن رافع ٢/ ٤٠ والذيل على العبر ٢/ ٣٠٣ ودرر العقود الفريدة ٢/ ٣٧٤ وتعريف ذوي العلا ١٨٩ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٣٧٢ والدّرر الكامنة ٢/ ٤٢٥ والنجوم الزّاهرة ١١/ ١٠٨ والمنهل الصافي ٧/ ٣٨٥ والدليل الشافي ١/ ٤٣٣ والذيل التام ١/ ٢٤٣ والدارس ١/ ٣٧ والقلائد الجوهرية ٢/ ٥٠١ وحسن المحاضرة ١/ ٢٨٣ وشذرات الذهب ٨/ ٣٧٨ والبدر الطالع ١/ ٤١٠ .
ـ مولده سنة ٧٢٨ هـ . ووفاته سنة ٧٧١ هـ .
ـ هو صاحب « طبقات الشافعيّة الكبرىٰ » .

(٢) في ب : يقبّل الأرض . . .

من الخِدَمِ العَلِيَّةِ ، لِيَفوزَ بقضائِهِ إيَّاها ، وتَقَضِّي بعضِ الواجِبِ عليهِ بِقضاياها ، فإنَّهُ لَمْ يَزَلْ في قَلَقٍ يَمْنَعُهُ النَّوْمَ ، وفِكْرٍ يَتَجَدَّدُ لَهُ في كُلِّ يومٍ ، حتَّىٰ سَمِعَ [٧٨ ب] أَنَّ مَولانا يُشَرِّفُ بالحُضورِ بعدَ العيدِ ، وكانَ يومُ سَماعِهِ إيَّاهُ عندَه هوالعيدُ ، واطْمَأَنَّ خاطِرُهُ الذي كانَ في كلِّ وقتٍ هَمُّهُ يَزيدُ ، واللهُ تَعالىٰ يُديمُ ظِلَّهُ المَديدَ ، ويُبْقي على المُسلِمينَ إحْسانَهُ العَديدَ ، حتَّىٰ يقولَ في كلِّ يومٍ مُحْسِناً : هل من مَزيدٍ ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ ، إنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليه** : [من السريع]

إنْ غِبْتُ عن جِلَّقَ يَوْماً فَقَدْ ... رَجَوْتُ أَنْ يَجْتَمِعَ الشَّمْلُ
ولَيْسَ عن عَوْدي إِلَيْها غِنىً ... لأَنَّها لَيْسَ لَها مِثْلُ
فَإِنَّكُمْ شَرَّفْتُمْ رَبْعَها ... وامْتَدَّ لِلنَّاسِ بِها الظِّلُّ
وهَكَذا مِصْرُ سَقاها الحَيا ... كانَتْ بِكُمْ تَفْخَرُ من قَبْلُ

يُقَبِّلُ[1] الأَرْضَ ، لا أَبْعَدَ اللهُ عَهْدَها ، ولا أَنْسىٰ القُلوبَ وُدَّها ، ولا أَعْدَمَ الأَوْلِياءَ ظِلَّها ولا رِفْدَها ، ولا حَرَمَ السَّحائِبَ الهَطَّالَةَ أَنْ تَسْتَمِدَّها ؛ ويَصِفُ أَشْواقَهُ التي تَستعيرُ النَّارُ وَقْدَها ، ومَحَبَّتَهُ التي ما قَطَعَها جَوْرُ البُعْدِ ولا صَدَّها ، وعُبودِيَّتَهُ التي ما أَدَّتْ شَهادَةَ إِخْلاصِها عندَ حاكِمٍ فَرْدِها .

ويُنْهي وُرودَ المُشَرَّفِ الكَريمِ ، فوقَفَ لَهُ مُنْتَصِباً ، وَخَفَّفَ عنهُ بِرُؤْيَتِهِ وَصَباً ، وَذَكَرَ أَيَّامَهُ بدمشقَ فهامَ وَجْداً بِها وَصَبا ، وفَضَّهُ فاسْتَخَفَّهُ الإِعْجابُ بِهِ طَرَباً ، وشاهَدَ سُطورَهُ فقالَ : هكذا تكونُ الرِّياضُ ؛ وعايَنَ لُطْفَهُ فقالَ : هكذا يكونُ الصَّبا ، وانْتَهىٰ إلى ذلكَ الإِحْسانِ الذي أَلِفَهُ ، والفَضْلِ الذي ما أَنْكَرَهُ منذُ عَرَفَهُ ، والجَبْرِ الذي لا يُفارِقُهُ ، وكيفَ تُفارِقُ المَوصوفَ الصِّفَةُ .

---

(١) بداية سقط في ب .

فَأَمَّا الأَبْياتُ الَّلامِيَّةُ ، فإِنَّهُ سَجَدَ خاضِعاً لِها فِكْرُهُ ، وَقَرَّبَها لمَّا قَرَّ بِها قَرارُهُ ، وسُرَّ سِرُّهُ ؛ وعَلِمَ أَنَّ مَولانا بَحْرٌ ، وهذِهِ السُّطُورُ أَمْواجُهُ ، وهذِهِ الأَلْفاظُ دُرَّهُ ، وقال : إنَّ طِرْسَهُ رَوْضٌ ، وَكُلُّ سَطْرٍ فيهِ نَهْرٌ يَحُفُّهُ من الكَلامِ زَهْرُهُ ، ثم اسْتَدْرَكَ الصَّوابَ وقال : لا ، بَلْ أُفُقٌ ، ومِدادُهُ لَيْلُهُ ، ومَعانيهِ أَنْجُمُهُ ، والسَّجَعُ يَقولُ : زُهْرُهُ ؛ فاللهُ يُمْتِعُ الوُجودَ بهذِهِ الفَوائِدِ التي جَواهِرُها تاجِيَّةٌ ، والمَحاسِنِ التي إنْ لَمْ تكُنْ نُكَتُها في الفِقْهِ سُرَيْجِيَّةً فإِنَّها في الأَدَبِ سِراجِيَّةٌ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **ولمَّا وَقفَ على قَولي قديماً**[1] : [من مجزوء الكامل]

يـــا رَحْمَتـــا لِجَـــرِيْـــرَ مِـــن ... قَـــوْلٍ كَفـــانـــا اللهُ عـــارَهْ
« طَـــرَقَتْـــكَ صـــائِـــدَةُ الفُـــؤا ... دِ وَلَيْـــسَ ذا وَقْـــتَ الـــزِّيـــارَهْ »[2]
هـــل كـــانَ يَلْقـــىٰ إِذْ أَتـــا ... هُ خَيـــالُ مَـــن يَهْـــوىٰ خَســـارَهْ
أَوْ كـــانَ قَلْـــبٌ قَـــدْ حَـــوا ... هُ مـــن حَـــديـــدٍ أَوْ حِجـــارَهْ

● **رَأَيْتُهُ قد كَتَبَ :**

لمَّا رَأَيْتُ جُرْأَةَ جَريرٍ في الحُبِّ وجَسارَتَهُ ، حيثُ طَرَدَ الخَيالَ حتَّىٰ نادىٰ المَحبوبُ : يا خَسارَتَهُ ، وعَجِبَ العاشِقونَ الذينَ ما مِنْهُم إلاَّ مَن يَتَمَنَّىٰ التَّعَلُّقَ بِحِبالِ الخَيالِ ، ويَتَعَنَّىٰ[3] في تَرَجِّيهِ ويَرىٰ عَناءَهُ لَذَّةً ، ولو رَكِبَ في طَلَبِهِ جِيادَ الجِبالِ ، [٧٩ أ] ويَتَغَنَّىٰ بِذِكْرِهِ ولو حَمَلَ في طَريقِهِ أَثْقَلَ عِبْءٍ ، وذاقَ أَمَرَّ أَمْرٍ ، ويقولُ : إنَّهُ حُلْوٌ على ما فيهِ ، وما يَبعدُ في قَولِهِ إِذْ لَيْسَ هو أَمَرُّ من الصَّبْرِ في قَولِه : [من الكامل]

---

(١) الأبيات في الغيث المسجم ١/ ٢٤٢ وطبقات السبكي ٩/ ١٥٠ .
(٢) ديوان جرير ٢/ ٩٩٠ .
(٣) الكلمة مكانها بياض في أ . والمثبت من س .

طَرَقَتْكَ صائِدَةُ الفُؤادِ وَلَيْسَ ذا وَقْتَ الزِّيارَةِ فارْجِعِي بِسَلامِ

وَرَأَيْتُ ما رُثِيَ لَهُ بِهِ فلانٌ حيثُ قالَ ـ وَذَكَرَ الأبيات المُتَقَدِّمَة ـ ورَأَيْتُهُ أَبْدَعَ فِيهِ ، فَما بَعْدَهُ كلمةٌ تُقالُ ، وما أَحْسَنَ ما رُثِيَ بِهِ لِجرير في هذِهِ العَثْرَةِ التي لا تُقالُ ؛ يا لَها من عَثْرَةٍ ، خَجِلَتْ لها عِتْرَةُ المُحِبِّينَ ، وَجَرَتْ خَجَلاً على جَرير من أَجْلِها عَبرَةَ السَّامِعِين ، لكنْ لمَّا رَأَيْتُ فُلاناً لم يَذكرْ أَبْشَعَ مَقالَتِهِ التي ما رَأَيْنا غَيْرَهُ بِمِثْلِها فاهَ ، وهيَ قَولُه : فارْجِعِي ، التي أَخَذَتْ من النَّكارَةِ أَوْفَرَ نَصيبٍ وأَوفاهُ ، قلتُ[١] : [من الكامل]

إِنِّي لأَعْجَبُ مِن جَرِيرَ وقَوْلِهِ قَوْلاً غَدَوْتُ بِهِ أُنَكِّرُ حالَهُ
« طَرَقَتْكَ صائِدَةُ الفُؤادِ ولَيْسَ ذا وَقْتَ الزِّيارَةِ » فاسْتَمِعْ أَقْوالَهُ
واعْذُرْ فَلَسْتُ بِقادِرٍ واللهِ أَنْ أَحْكي الذي بَعْدَ الزِّيارَةِ قالَهُ

● وقلتُ أَيضاً[٢] : [من مجزوء الكامل]

هَذا مَقالُكَ يا جَرِيرُ لَدَيَّ أَشْنَعُ ما يُقالْ
هَلْ ثَمَّ وَقْتٌ لَيْسَ يَصْـ ـلُحُ لِلزِّيارَةِ والوِصالْ
أَم قِيلَ قَبْلَكَ فارْجِعي ولِذاكَ ذَنْبٌ لا يُقالْ
أَم كانَ حُبُّكَ كاذِباً فَمَنامُهُ يَنْفي الخَيالْ
أَمْ كانَ قَلْبُكَ مِن حَديـ ـدٍ لَيْسَ تُؤْذِيهِ النِّبالْ

● وكنتُ قبلَ ذلكَ قد قلتُ[٢] : [من مجزوء الكامل]

يا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَحَبْـ ـبَ جَرِيرُ إِذْ أَبْدىٰ اعْتِذارَهْ
إِنْ كانَ يَصْدُقُ حُبُّهُ فالقَلْبُ مِنْهُ كالحِجارَهْ

---

(١) الأبيات في طبقات السبكي ٩/ ١٥١ .
(٢) الأبيات في تعريف ذوي العلا ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

لا بَــــلْ أَشَــــدُّ قَســــاوَةً   وانْظُـــرْ لَـــهُ أَبْـــدىٰ عُـــوارَهْ
إِذْ قـــالَ قَـــوْلاً لـــم يَقُلْـ   ـــهُ عـــاشِـــقٌ أَو ذُو جَســـارَهْ
« طَـــرَقَتْـــكَ صـــائِـــدَةُ الفُـــؤا   دِ ولَيْـــسَ ذا وَقْـــتَ الـــزِّيـــارَهْ »

● وقلتُ : [من مجزوء الكامل]

شُكْـــراً لِنَـــوْمٍ بـــالخَيـــا   لِ أَتـــىٰ فَلـــي مِنْـــهُ البِشـــارَهْ
مُـــذْ جـــاءَ طَيْفُـــكِ فـــي المَنـــا   مِ أَزالَ عـــن عَقْلـــي خُمـــارَهْ
ونَعِمْـــتُ إِذْ هُـــوَ خَيْـــرُ وَصْـ   ـــلٍ لا يُنـــاظَـــرُ فـــي النَّضـــارَهْ
لا إِثْـــمَ فِيـــهِ ولا رَقِيْـ   ـــبٌ حـــاكِـــمٌ يُبْـــدي اقْتِـــدارَهْ
وفَـــرِحْـــتُ لا كَجـــريـــرَ قـــا   لَ بِقَسْـــوَةٍ مِثْـــلِ الحِجـــارَهْ
« طَـــرَقَتْـــكَ صـــائِـــدَةُ الفُـــؤا   دِ ولَيْـــسَ ذا وَقْـــتُ الـــزِّيـــارَهْ »[1]

انْتَهىٰ ما نقلتُه أَنا من خَطِّهِ .

● **وقلتُ أَنا أَسْتَدْرِكُ ما لَمَحَهُ القاضي تاجُ الدِّينِ المُشارُ إِليهِ في هذِهِ المَقاطيع**[2] : [من مجزوء الكامل]

أَمَّـــا جَـــريـــرُ فَلَـــمْ يَكُـــنْ   صَبًّـــاً ولكـــنْ يَـــدَّعـــي
أَوَ مـــا تَـــراهُ أَتَتْـــهُ صـــا   ئِـــدَةُ الفُـــؤادِ فَلَـــمْ يَـــعِ
بَـــلْ قـــالَ جَهْـــلاً : لَيْـــسَ ذا   وَقْـــتَ الـــزِّيـــارَةِ فـــارْجِعـــي
لَـــوْ كُنْـــتُ حـــاضِـــرَ أَمْـــرِهِ   قُلْـــتُ : ارْجِعـــي وَلَـــهُ اصْفَعـــي

● **وكتبَ هو إِليَّ مُلْغِزاً في « نجم »** : [من المجتث]

يـــا أَوْحَـــدَ العُلَمـــاءِ   وواحِـــدَ الأُدَبـــاءِ

---

(١) البيت من م فقط .
(٢) الأَبيات في طبقات السبكي ٩/ ١٥١ .

بَيِّنْ لَنا مَن يُرىٰ في | ظَهْرِ الثَّرىٰ والعَلاءِ
وثُلْثُهُ في عُبابٍ | وَكُلُّهُ في السَّماءِ[1]
وذو الحُروفِ ثَلاثٌ | تَبْدو بِغَيْرِ خَفاءِ
ونُورُهُ قَد هَدانا | في لَيْلِهِ والمَساءِ
مَقْلوبُهُ القَطْعُ فِيهِ | عَن سَيِّدِ الأَنْبِياءِ

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليهِ : [من المجتث]

[٧٩ ب] يا آدَبَ الفُقَهاءِ | وَأَفْقَهَ الأُدَباءِ
ومَنْ تَقَمَّصَ ثَوْباً | لِلْعِلْمِ أَعْرىٰ الكِسائي
أَلْغَزْتَ لي في مُسَمّىً | بادي السَّنا والسَّناءِ
فَنَمَّ لي طَرَفاهُ | بِسِرِّهِ ذي الخَفاءِ
ثُلُثاهُ وَصْفٌ لِفِعْلٍ | حَوَيْتُهُ باعْتِناءِ
يَكونُ مَرْعىً بِأَرْضٍ | وزِيْنَةً لِلسَّماءِ
وَرَأْسُهُ حَيَوانٌ | في البَحْرِ لا في الفَضاءِ
فاسْلَمْ وَدُمْ في نَعيمٍ | وعِزَّةٍ ونَماءِ[2]

● وكتبَ هو إِليَّ مُلْغِزاً[3] : [من السريع]

يا أَيُّها البَحْرُ الذي لَفْظُهُ | دُرٌّ وعِلْمُ النَّاسِ مِن مَدِّهِ
وصاحِبُ الطَّوْلِ الذي فَضْلُهُ | قَصَّرَ كُلُّ الخَلْقِ عن حَدِّهِ
أَنْتَ خَليلُ العِلْمِ أَوْ رَبُّهُ | وَمَن أَتىٰ الوَفْدُ إِلىٰ رِفْدِهِ
ما مَرَّ بي مِثْلُكَ إِلاَّ فَتىً | قَد أَجْمَعَ النَّاسُ على حَمْدِهِ

---

(١) ثُلثه : نون = السّمك .
(٢) نهاية السقط في ب .
(٣) « ملغزاً » من م .

لِـمْ لا وإِنْ لَـم تَـكُ فَـرْعـاً لَـهُ ... فَلِلَّـــذي يَحْـــويـــه أَوْ ضِـــدِّهِ

صَــدْرُكَ مَــوْصُــوفٌ بِمَقْلُــوبِــهِ ... وجــانِبــاهُ الخَيْــرُ مِــن عِنْــدِهِ[1]

وَهْــوَ إِذا مــا حَــذَفــوا وَسْطَــهُ ... أَنْــتَ وَمَــن يُــؤْتــىٰ إِلــىٰ وِرْدِهِ[2]

لا زِلْــتَ ذا مَغْنــىً يُنيــلُ الغِنــىٰ ... ويُلْقَــطُ الجَــوْهَــرُ مِــن عِقْــدِهِ

● **فلم يَظْهَرْ لي ما قالَه ؛ فكتبتُ إِليهِ جَواباً :** [من السريع]

يــا فــاضِــلاً لا شَــكَّ فــي فَضْلِــهِ ... ومــاجِــداً لا طَعْــنَ فــي مَجْــدِهِ

أَنْــتَ الــذي إِنْ قــالَ نَظْمــاً فَقَــدْ ... أَتْعَــبَ كُــلَّ النَّــاسِ مِــن بَعْــدِهِ

أَهْــدَيْــتَ لُغْــزاً لا يُــرىٰ مِثْلُــهُ ... كَــأَنَّــهُ الكَــوْكَــبُ فــي سَعْــدِهِ

لكنَّــــهُ خـــافٍ علـــىٰ أَكْمَـــهٍ ... يَجْهَــلُ رَقْمــاً حُكْــتَ فــي بُــرْدِهِ

فــإِنَّنــي لــم أَلْــقَ بــابــاً إِذا ... حــاوَلْتُــهُ أَدْخُــلُ مِــن عِنْــدِهِ

زِدْهُ بَيــانــاً إِنَّنــي عــاجِــزٌ ... عــن حَــلِّ عَقْــدٍ حَــلَّ فــي عِقْــدِهِ

● **فكتبَ هو إِليَّ :** [من البسيط]

النَّجْـمُ أَنْـتَ وقَـد أَهْـدىٰ دَرارِيْـهِ ... و« البَحْـرُ » أَنْـتَ وهَـذا دُرُّهُ فِيـهِ

للهِ عِلْمُـكَ لَيْـسَ « البَحْـرُ » يُشْبِهُـهُ ... ولَيْـسَ عَبْدُ الـرَّحيـمِ الحَبْـرُ يَحْكيـهِ

كَذاكَ فِقْهُكَ ما الحاوي وواضِعُهُ ... ومــا الإِمــامُ وحَــقِّ الله حــاوِيْــهِ

قَد حُزْتَ بابَ العُلا من غَيْر ما رِيَبٍ ... وَجُـزْتَ مَـن قَـدْرُهُ حَقّـاً مَعـالِيـهِ

جَبَرْتَني وَنَظَرْتَ البَخْسَ من كَلِمٍ ... لِمِثْلِ فَضْلِكَ شَخْصٌ لَيْسَ يُهدِيهِ

وبَعْـدَ ذاكَ أَرَدْتَ العَبْـدَ تَجْبُـرُهُ ... وقُلْـتَ : أَعْجِـزُ عـن حَـلٍّ لِمـا فِيـهِ

حاشاكَ حاشاكَ يا أَذْكىٰ الخَلائِقِ من ... عَجْـزٍ وأَنْـتَ عُبـابٌ مَـن يُـدانِيـهِ

يا فاضِلَ الوَقْتِ زادَ الفَضْلُ مِنْكَ ويا ... رَبَّ النَّدىٰ وأَخاً ما رُحْتُ أَحْكيهِ

---

(١) اللُّغز « بحر » . ومقلوبه : « رحب » . وجانباه « ربٌّ » .

(٢) يقصد : ربّ البيان .

أَنْـــتَ ابْنُــهُ بِمَقَــالِ اللهِ خَــالِقِنــا كُــلُّ ابـنِ آدَمَ حَــيٌّ مِنْــهُ أُحيِيــهِ
لا زِلْتَ تَجْبُرُني والنَّاسَ أَجْمَعَهُمْ فــاللهُ يَحْفَــظُ مَــوْلانــا ويُبْقيــهِ

● **فكتبتُ الجَوابَ عن ذلك** : [من البسيط]

يـا نـاظِمـاً لـم نَجِـدْ فينـا مُبـاريـهِ ويـا جَـواداً فَقَـدْنـا مَـن يُجـاريـهِ
ويـا بَليغـاً تَـرَقّـىٰ فـي فَصـاحَتِـهِ على السِّمـاكِ فَلا خَلْـقٌ يُـدانيـهِ[1]
هــذا قَــريضُــكَ مــن دُرٍّ تُنَظِّمُــهُ أَمِ السُّــلافُ أَدارَتْهــا قَــوافيــهِ
أَلْغَزْتَ يا « بَحْرَ » عِلْمٍ قد طمىٰ ورَبَا ولــم تُكَـدِّرْ بِعِـيٍّ اللَّفْـظِ صـافيـهِ
فـي مـا يَحِـلُّ لِكُـلِّ النَّـاسِ مَيْتَتُـهُ والمـاءُ منـهُ طَهـورٌ جَـلَّ بـارِيـهِ
وأَنْتَ في العِلْمِ يَوْمَ البَحْثِ تُشْبِهُهُ وفـي السَّمـاحَـةِ يَـوْمَ الجُـودِ تَحْكِيهِ
وإِنْ أَفَـدْتَ فلـم تُـذْكَـرْ عَجـائِبُـهُ وإِنْ نَظَمْـتَ فَقَـد هـانَـتْ لآليـهِ
[١٨٠أ] لا زِلْتَ تُظْهِرُ في فَنِّ القَريضِ لَنا بَــدائِعــاً يَجْتَليهــا مِنْــكَ راويــهِ

● **وكتبتُ إليه من حِمص[2] المحروسَة[3]** : [من الكامل]

يـا سَيِّـداً سـافَـرْتُ عَنْـهُ ولـم أَجِـدْ جَلَـدي يُطـاوِعُنـي علـىٰ تَـوْدِيْعِـهِ
إِنْ غِبْـتُ عَنْـكَ فـإِنَّ قَلْبـي حـاضِرٌ يُمْلـي التَّشَـوُّقَ لِلْحِمَـىٰ وَرُبـوعِـهِ
وَكَــأَنَّــهُ بَيْــتٌ تَــوَهَّــمَ شــاعِــرٌ مِـن وَزْنِـهِ فـاحْتـالَ فـي تَقْطِيعِـهِ
فـاحْفَظْـهُ لـي حتَّـىٰ أَعـودَ فَـإِنَّـهُ رَهْـنٌ علـى شُكْـرِ النَّـدىٰ وصَنِيْعِـهِ

● **فكتبَ هو إِليَّ الجَوابَ[4]** : [من الكامل]

يا راحِلاً بِحَشا المُقيمِ علىٰ الوَفا مـا الطَّـرْفُ بَعْـدَكَ مُـؤْذِنـاً بِهُجـوعِـهِ

---

(١) في ب : . . . . . في مقالته × .
(٢) قال السُّبكي : كتبَ إِليَّ مرَّةً وقد سافر إلى مصر ولم يودِّعني .
(٣) الأَوَّل والثاني في طبقات الشافعية للسُّبكي ١٠/ ٦ .
(٤) الأَبيات في الطبقات ١٠/ ٧ عدا الأَخير .

إنْ غِبْـتَ عَنْـهُ فَمـا تَغَيّـرَ مِنْـهُ يـا مَـولايَ غَيْـرُ الجِسْـمِ بَعْـدَ دُمـوعِـهِ
والقَلْـبُ بَيْـتُ هَـواكَ راحَ كَـأَنَّـهُ بَيْـتُ العَـروضِيِّيـنَ فـي تَقْطِيعِـهِ
وَكَـذا يَكـونُ أَخـو الصَّفـاءِ إِذا نَـأَىٰ عَنْـهُ الخَليـلُ أَبـو الصَّفـاءِ جَميعِـهِ[1]

وكتبَ هو إليَّ وقد انْقَطَعْتُ عنهُ لِضَرُورَةٍ ، والتَزَمَ التَّاءَ : [من الكامل]

يا ذا الَّذي قَطَعَ الزِّيارَةَ ما الَّذي لِلْفَصْلِ بَعْدَ الوَصْلِ مِنْكَ قَدِ اقْتَضىٰ
أَنـا لَـمْ أُغَيِّـرْ عـادَتـي مَـع أَنَّهـا مـا قَـد عَلِمْـتَ عَـوائِـدٌ لا تُـرْتَضـىٰ
فَـلأَيِّ شَـيْءٍ أَنْـتَ تَقْطَـعُ عـادَةً مَـرْضِيَّـةً وتَسُـلُّ سَيْفـاً مُنْتَضـىٰ

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ عن ذلكَ مُلتزماً : [من الكامل]

حـاشـا عَـوائِـدَكَ الكَـريمَـةَ أَنَّهـا تُلْفـىٰ إِذا أَنْصَفْتَهـا لا تُـرْتَضـىٰ
يـا مَـنْ إِذا نَظَـمَ القَـريـضَ بَـدِيْهَـةً فاتَ الرَّضِي سَبْقاً وفاقَ المُرْتَضَىٰ
وإِذا أَلاحَ بِفَهْمِـهِ فـي مُشْكِـلٍ جَلَّىٰ دُجاهُ لأَنَّ ذاكَ المُرْتَ ضا[2]
وعِـداتُـهُ تَمْضِـي فَمـا تَحْتـاجُ مِـن كَرَمِ السَّجِيَّةِ في النَّدىٰ أَنْ تُقْتَضىٰ
وإِذا دَجـا خَطْـبُ الـرَّدىٰ فَبِـوَجْهِـهِ وَبِـرَأْيِـهِ يَـوْمَ الكَـريهَـةِ يُسْتَضـا
زِدْني جَفا حُوشِيْتَ مِنْهُ ازْدَدْ وَفا والْقَ الرَّدىٰ بي تَلْقَ سَيْفاً مُنْتَضىٰ
لا زالَ جُـودُكَ صَـوْبَ مُزْنٍ هـاطِلٍ يُطْفي من اللَّأْواءِ جَمْراً مُحْتَضا[3]

● وكتبتُ أنا إليهِ من حلبَ المحروسَة ، وقد عُزِلَ عن مَنْصِبِ القَضاءِ :

[من الطويل]

أَلا مـا لِهـذا العَصْـرِ لا رُزِقَ البَقـا يُغـادِرُنـي مـن حَيْـرَتـي فِيـهِ مُطْـرِقـا

---

(١) وسقط ما بعد ذلك من س إلى آخر الترجمة . ورواية هذا البيت في م : . . أخو الوفاء إذا نأى × .
(٢) المُرْت : المفازة . وضا : أضاءَ .
(٣) محتضاً : متزايداً . (اللسان) .

فَكَـمْ راعَ مِـن رَوْعٍ بِصَـوْبِ مُصِيْبَـةٍ وَكَـمْ زارَ مِـن زُورٍ وَنَـمَّ وَنَمَّقَـا
وكـم خَـصَّ بـالتَّكْـدِيرِ صَفْـوَ مَسَـرَّةٍ وَضَيَّعَ مِـن حَقٍّ وكـم خـانَ مَـوْثِقـا
وأَبْعَـدَ عـن أَوْطـانِـهِ كُـلَّ آلِـفٍ وَرَوَّعَ خِـلاًّ بـالبِعـادِ وفَـرَّقـا
خَليلـي أَبـا نَصْـرٍ أَبْعَـدَ اتِّحـادِنـا أُخِذْنا وأَمْسىٰ الشَّمْلُ مِنَّا مُمَزَّقا[1]
فَغُودِرْتُ رَهْنَ الذُّلِّ في حَلَبٍ كَما بَقِيْتَ غَريبَ الدَّارِ في أَرْضِ جِلَّقا
فَلا أَنا في الشَّهْباءِ لاقَيْتُ راحِماً ولا في دِمَشْقَ أَنْتَ صادَفْتَ مُشْفِقا
وَقد كُنْتُ في حالٍ تَسُرُّ حَواسِدي فَجـاءَ كِتـابٌ مِنْـكَ زادَ الشَّقـاشِقـا
فَغادَرَني سَكْرانَ من خَمْرَةِ الرَّدىٰ كَـأَنِّـي شَـرِبْـتُ البـابِلِـيَّ المُعَتَّقـا[2]
أَبِيْـتُ سَمِيْـراً لِلكـآبَـةِ والأَسـىٰ طَريحاً على فَرْشِ الضَّنىٰ والعَنا لَقىٰ
بِجِسْمٍ غَدا من حادِثِ البَيْنِ مُخْلَقاً وخَـدٌّ بِمُحْمَـرِّ الـدُّمـوعِ مُخَلَّقـا
لَقد زادَني غَيْظاً على الدَّهْرِ كَوْنُهُ أَصـارَكَ فـي أَسْرِ الحَـوادِثِ مُـوثَقـا
ولـم يَرْعَ فيكَ العِلْمَ والحِلْمَ والنُّهىٰ وبَذْلَ النَّدىٰ والعَدْلَ والفَضْلَ والتُّقى
وَحُسْـنَ تَلَقِّـي زائِـرِيـكَ بِطَلْعَـةٍ
[٨٠ب] بِها البِشْرُ يَكْسو الصُّبْحَ في الأُفْقِ رَوْنَقا[3]
وتِلْـكَ التَّصـانِيـفُ التـي كَلِمـاتُهـا كَـدُرٍّ علـى جِيْـدِ الكَـواعِـبِ مُنْتَقىٰ
فَمـا مُحْـرَقٌ إِلاَّ سَقَتْـهُ عُلـومُـكَ الْـ ـحَيـاءَ فَتَبْـدا بـالحَـدائِـقِ مُحْـدِقـا[4]
ودَرْساً غَدا في الفِقْهِ ضَمَّتْ بُحوثُهُ أُصـولاً وتَفْسيـراً ونَحْـواً ومَنْطِقـا
وبَحْثـاً يُـرينـا لِلصَّـوابِ إِذا بَـدا جِيـادُكَ مِـن دُونِ المُجـارِيـنَ سُبَّقـا
ولَفْظـاً غَـدا بـالجَبْـرِ فِيْنـا مُقَيَّـداً وَكَفًّـا غَـدا إِحْسـانُهـا الجَـمُّ مُطْلَقـا

---

(١) في ب : × بعدنا . . . .
(٢) أقحم ناسخ ب سبعة عشر بيتاً من هذه القصيدة ضمن جواب السبكي ، بدءاً من هذا البيت .
(٣) سقط هذا البيت من ب .
(٤) المُحرق : العطشان . وفي ب : فما مترف . . . × .

فكَـمْ راحَ سَمْـعٌ مِن حُـلاكَ مُشَنَّفـاً   وكـم بـاتَ جِيْـدٌ مـن نَـداكَ مُطَـوَّقـا
أَأَيّـامَ تـاجِ الـدِّيْـنِ قـد زِلْـتَ بَعْـدَمـا   نَهَجْـتَ طَـريقـاً لِلصَّـوابِ مُطَـرَّقـا
وأَنْسَيْتَنـا مـا كـانَ يَـذْكُـرُهُ الأُولـىٰ   مَضَوا من زَمانٍ مَرَّ حُلْواً علىٰ النَّقا
وَذُقْنا بِكَ الكَأْسَ التي خَنْدَرِيْسُها   غَـدا زَنْجَبيـلاً فـي اللَّهـاةِ مُـرَوَّقـا
وفَضْلُكَ ما يَخْفىٰ وقَد مَلأَ المَلا   وذِكْرُكَ عَمَّ الأَرْضَ غَرْباً ومَشْرِقا
لَعَمْـرُكَ إِنَّ المَجْـدَ لَيْـسَ بِهَيِّـنٍ   فكمْ سابِحٍ في يَمِّهِ المَوْجُ أَغْرَقا[1]
وما هَضَباتُ الفَضْلِ ممَّا تَطامَنَتْ   لِفـارِعِهـا لا بـالـرُّقِيِّ ولا الـرُّقَـىٰ[2]
لَئِنْ كُنْتَ بَعْدَ الحُكْمِ في النَّاسِ عاطِلاً   فَكَـمْ زَيَّنَـتْ تِيْجـانُ حُكْمِـكَ مَفْـرَقـا
فَمـا الـدَّهْـرُ إلاَّ واهِـبٌ ثـم سـالِـبٌ   ومـا زالَ فـي سَلْـبِ الـوَدائِـعِ شَيِّقـا
وقـد نِلْـتَ مـا تَخْتـارُهُ مـن وِلايَـةٍ   وحُكْمٍ فلا تَجْزَعْ إِذا انْحَطَّ ما ٱرْتَقىٰ
ولا تَنْسَ إِنْ جالَتْ بِفِكْرِكَ خَطْرَةٌ   تَسُـوؤُكَ أَن تَتْلُـو وإِنْ يَتَفَـرَّقـا[3]

● فكتبَ هو الجوابَ إِليَّ عن ذلكَ ، من جُملَتِهِ : [من الطويل]

هُـوَ الـدَّهْـرُ لا يَنْفَـكُّ لِلْحُـرِّ مُقْلِقـا   هو الدَّهْرُ ذو التَّغْييرِ ليسَ لَهُ بَقا
يُغَيِّـرُ حـالاً بعـدَ حـالٍ وذو النُّهـىٰ   صَبورٌ علىٰ الحالَيْنِ جَلْدٌ على الشَّقا
ومَـن يَـكُ بِـاللهِ المُهَيْمِـنِ عـارِفـاً   تَصَبَّـرَ لَـم يَـرْتَـعْ إِذا كـانَ ذا تُقـىٰ
وعِنْدي بِحَمْدِ اللهِ صَبْرٌ بما قَضىٰ   ومَـوْثِـقُ أَمْـرٍ يَمْنَـعُ الشِّعْـرَ مُطْلَقـا
فَلَـولاهُ بـالمَمْلـوكِ كـانَ جَـوابُـهُ   بسيطـاً كَسـاهُ مِـن ثَنـائِـكَ رَوْنَقـا
ولكنْ دَهاني نَحْوَ تَصْرِيفِهِ الذي   دَهـانـي فَـلا أَسطيـعُ واللهِ مَنْطِقـا

● وكتبتُ إِليهِ أُهَنِّئُهُ ، وقد عادَ إلى مَنْصِبِهِ قضاءِ القُضاةِ ، في شوَّال سنة ٧٥٩ : [من الكامل]

---

(١) نهاية الإقحام في جواب السُّبكي في ب .
(٢) سقط من ب .
(٣) الإشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [النّساء : ١٣٠] .

بِرُجوعِ تاجِ الدِّيْنِ قاضي الشَّامِ ... أَضْحىٰ الهَناءُ مُوَفَّرَ الأَقْسامِ
قاضي القُضاةِ الفاضِلُ الحَبْرُ الذي انْـ ... ـقادَتْ لَهُ العَلْيا بِغَيْرِ زِمامِ
نالَ الكَواكِبَ قاعِداً لا قائِماً ... مَن ذا يَسومُ فِعالَهُ ويُسامي
مَن قَوْمُهُ الأَنْصارُ لا عَجَبٌ لَهُ ... إنْ صارَ مُرْتَفِعاً على الأَقْوامِ
والخَزْرَجِيُّونَ الأُولىٰ نَسْلوهُ أَوْ ... فىٰ مَن يَفي لِمُحِبِّهِ بِذِمامِ
وهُمُ أَئِمَّةُ مَن قَضىٰ بينَ الأَنا ... مِ بِيَقْظَةٍ وَهُمُ أُولو الأَحْلامِ
في ذُرْوَةٍ شَمَّاءَ تَعْلو بالتُّقىٰ ... ومَكارِمِ الأَخْلاقِ رُكْنَ شِمامِ
لمَّا تَوَلَّىٰ أَقْبَلَ الخَيْرُ الذي ... قد كانَ في حُجُبٍ من الإِحْجامِ
أَفْنىٰ فَلا يَغْنىٰ مَدىٰ أَيَّامِهِ ... في العِلْمِ لَمْ يَطْعَمْ لَذيذَ مَنامِ
ناءٍ عن الشَّهَواتِ ليسَ تَقُودُهُ الدْ ... دُنْيا إِلى مَغْنىٰ هَوىً وغَرامِ
عارٍ مِن العارِ الذي أَطْمارُهُ ... غَطَّتْ عُوارَ سِواهُ بالآثامِ
مُتَمَسِّكٌ بالحَقِّ في أَفْعالِهِ ... مُتَوَثِّقٌ بالعَدْلِ في الأَحْكامِ(١)
ذِهْنٌ يَغوصُ علىٰ الحَقائِقِ لا كَمَنْ ... [٨١ أ] خاضَ الخَطا أَوْهامَ في أَوْهامِ
انْظُرْ فَتاويهِ التي مِن حُسْنِها ... تُشْفي غَليلَ صَبابَةٍ وهُيامِ
كَتَمَ التُّقىٰ لكنَّهُ لم يَسْتَطِعْ ... كَتْمَ الشَّذا من عَرْفِهِ النَّمَّامِ
هذا الذي قد راحَ فِيهِ مَضَرَّةٌ ... لِلشِّرْكِ مِثْلُ مَسَرَّةِ الإِسْلامِ
في الفِقْهِ مِثْلُ الرَّافِعي والنَّحْوِ مِثْـ ... ـلِ الفارِسي والبَحْثِ كالنَّظَّامِ
وكذا الحديثُ فإِنَّهُ في عِلْمِهِ ... ورِجالِهِ عَلَمٌ من الأَعْلامِ
ولَهُ يَدٌ طالَتْ لِنَقْدِ صَحيحِهِ ... فَلَكَمْ شَفاهُ من ضَنىً وسَقامِ
وكذا أُصُولُ الدِّيْنِ والفِقْهُ انْزَوىٰ ... عنهُ الإِمامُ فلَمْ يَكُنْ بِإِمامِ
وكذا المَعاني والبَيانُ فصاحِبُ الْـ ... ـمِفْتاحِ سَلَّمَهُ لَهُ بِسَلامِ

---

(١) في ب: × مستوثق . . . .

وكـذا القَـريـضُ فَمـا يُشَـقُّ غُبـارُهُ ... لـو كـانَ جـاراهُ أَبـو تَمَّـام
قَـالَ الحَسـودُ وقـد أَتـىٰ تَقْليـدُهُ ... مـا لِلـدُّمـوعِ تَـرومُ كُـلَّ مَـرامِ
فـالصُّبْحُ قَـد مَـلأَ الـوُجـودَ بَشـائِـراً ... رايـاتُهـا خَفَّـاقَـةُ الأَعْـلام
والنَّهْـرُ صَفَّـقَ والغُصـونُ تَـراقَصَـتْ ... طَـرَبـاً لِشَـدْوِ بَـلابِـلٍ وحَمـام
والنَّرْجِسُ انْفَتَحَتْ لَواحِظُهُ وشَمْـ ... ـمَـرَ سـاقَـهُ إِذ عُـدَّ فـي الخُـدَّام
والأُقْحُـوانُ بِـرَوْضِـهِ يَفْتَـرُّ عَـن ... ثَغْـرٍ شَتيـتٍ ضـاحِـكٍ بَسَّـام
والـرَّوْضُ حَلَّـىٰ جِيْـدَهُ بِـأَزاهِـرٍ ... هِـيَ كـالـزَّواهِـرِ فـي أَديـمِ ظَـلامِ
نُشِـرَتْ مَطـارِفُـهُ التـي مـا طَـرَّزَتْ ... مِنْهـا البُـرودَ أَنـامِـلُ الـرَّقَّـام
هـذا وأَصْحـابُ الهَنـاءِ مـن الـوَرىٰ ... مـا بَيْـنَ نَثَّـارٍ إِلـىٰ نَظَّـام
قـد حَبَّـروا الأَمْـداحَ فِيـهِ وحَـرَّرُوا ... أَوْصـافَـهُ بِبَـدائِـعِ الأَفْهـام
وجَلَـوا علىٰ الأَسْماعِ فِيـهِ عَـرائِسـاً ... كـانَـتْ مَـواشِطُهـا مـن الأَقْـلامِ
لـو يَقْـدِرونَ سَعَـوا علىٰ وَجَنـاتِهِـمْ ... وعُيـونِهِـمْ فَضْـلاً عـن الأَقْـدامِ
فَأَرَدْتُ أَن أُجْري سَكيبَ قَريحَتي ... لأَفُـوزَ فيمـا بينَهـم بِمَقـامِ
لا زَالَ فـي سَعْـدٍ مَـدىٰ الأَيَّـامِ مـا ... رَقَصَـتْ زُهـورُ الـرَّوْضِ بـالأَكْمـامِ

يُقَبِّلُ الأَرْضَ ، ويُهَنِّىءُ نَفْسَهُ والأَنامَ ، ولَيالي هذا العَصْرِ والأَيَّامَ ، والقَضايا والأَحْكامَ ، وأَصْحابَ السُّيوفِ وأَرْبابَ الأَقْلامِ ، والمُسلِمينَ قاطِبَةً والإِسْلامَ ، وأَرْبابَ الطَّيالِسِ والأَعْلامَ ، بِما مَنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهِ من هذهِ العَوْدَةِ المُبارَكَةِ ، التي جَمْجَمَ ضَميرُها زَماناً وَصَرَّحَ ، وأَفْشىٰ سِرَّها المُبارَكَ بَعْدَما لَوىٰ عُنُقَهُ حِيْناً ولَوَّحَ ، وقابَلَ نُسْخَةَ ظُهورِها وصَحَّحَ ، فالقُلوبُ قَد امْتلأَتْ سُروراً ، واسْتُطيرَتْ حُبوراً ، والأَبْصارُ قد قَرَّتْ ، والبَصائِرُ قد زادَتْ نُوراً[1] :

[من البسيط]

---

(١) البيت لابن النبيه ، في ديوانه ٩٢ والتذكرة الفخرية ٣٠١ (دمشق) .

وكَوْكَبُ الصُّبْحِ نَجَّابٌ على يَدِهِ   مُخَلَّقٌ تَمْلأُ الدُّنْيا بَشائِرُهُ

ويُنْهي أَنَّهُ لمَّا بَلَغَهُ هذا الخَبَرُ الذي مُبْتَدَأُهُ مَرفوعٌ ، وصِدْقُهُ غيرُ مَطْعونٍ فيهِ ولا مَدفوعٌ ، ومُفْرَدُ لَذَّاتِهِ في الأَسْماعِ لا يُوجَدُ في مَجموعٍ ؛ أَرادَ المُبادَرَةَ بالهَناءِ ، والمُسابَقَةَ إِلى إِظْهارِ هذه المَسَرَّةِ الوافِيَةِ بالنَّعْماءِ ، فَفَكَّ خَتْمَ ضَميرِهِ لمَّا فَكَّرَ ، وَقَدَّ عُنُقَ تَطاوُلِهِ لمَّا قَدَّرَ ، وكَرَّ راجِعاً وأَنابَ واسْتَغْفَرَ ، وقالَ[1] :

[من الكامل]

وَمِنَ العَجائِبِ أَنَّني هَنَّأْتُهُ   وأَنا المُهَنَّأُ فيهِ بِالنَّعْماءِ

[٨١ ب] ثمَّ إِنَّهُ ادَّكَرَ فَأَمْسَكَ ، وقالَ : اذكُرْ يَوْمَكَ وَخَلِّ أَمْسَكَ ، واعْرِفْ لِمَنْ تُخاطِبُ وارْحَمْ نَفْسَكَ ، وتَمَسَّكْ بِأَذْيالِ الإِغْضاءِ ، وَخَفْ نارَ المَهابَةِ أَنْ تَمَسَّكَ ؛ فَأَحْجَمَ المَملوكُ إِذْ ذاكَ ، وقالَ : العَجْزُ عن دَرَكِ الإِدْراكِ إِدْراكُ[2][3] : [من مجزوء الكامل]

وإِذا سَكِرْتُ فَإِنَّني   رَبُّ الخَوَرْنَقِ والسَّديرِ
وإِذا صَحَوْتُ فَإِنَّني   رَبُّ الشُّوَيْهَةِ والبَعيرِ

وقد بَعَثَ المَملوكُ بِهذِهِ القَصيدَةِ المِيمِيَّةِ ، وهي تَعومُ في يَمٍّ من الخَجَلِ ، وَتَجُرُّ وراءَه ذَيْلَ التَّقْصيرِ والوَجَلِ ؛ والمَسْؤُولُ من صَدَقاتِ مَولانا الوُقوفُ عليها ، والصَّدَقَةُ بِنَظَرِهِ إِلَيْها ، وتَغْطِيَةُ مَساويها ، وعَدَمُ عَرْضِها على مَنْ يُناوِيها ؛ واللهُ يُمْتِعُ الأَنامَ بهذِهِ الأَيَّامِ ، ويَجبرُ وَلِيَّها إن عامَ فيما يَراهُ من الإِنْعامِ ، إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

---

(١) البيت للصابي ، وقد مضىٰ .

(٢) صدر بيت للإمام عليّ رضي الله عنه ، في ديوانه ٣٠٤ . وتمامه :

العجزُ عن دركِ الإدراكِ إدراكُ   والبحثُ عن سِرِّ ذاتِ السِّرِّ إشراكُ

(٣) البيتان للمنخّل اليشكري ، في الأغاني ٢١/ ٤ والأصمعيّات ٦١ .

● **فكتبَ هو الجَوابَ إليَّ عن ذلك :** [من الكامل]

أَبــداً لِلَفْظِــكَ بَهْجَــةُ النَّظّــامِ وسَنــاءُ دُرٍّ لاحَ ضِمْــنَ نِظــامِ
وعَــلامَــةٌ شَهِـدَتْ بِـأَنَّـكَ بَيْنَنـا عَـلاَّمَـةٌ قـد فـاقَ كُـلَّ عَـلامـي(١)
هَـلْ ذاكَ نَجْـمٌ في سَماءِ فَصاحَـةٍ راقٍ يَـروقُ لِصـاحِـبِ الأَفْهـامِ
أَوْ جَـوْهَـرٌ فـي البَحْـرِ نـاءٍ غـائِصٌ أَوْ زَهْـرُ رَوْضٍ ضـاحِـكٍ بَسّـامِ
أَو خَنْـدَرِيـسٌ بـالعُقـولِ تَـلاعَبَـتْ لا بَـلْ كَـلامُ إِمـامِ كُـلِّ كَـلامِ
شَيْخِ الكَلامِ وذي النِّظامِ أَخي العِظا مِ مِـنَ الأَنـامِ الـوافِـرِ الأَقْسـامِ
رَبِّ التَّصـانيـفِ التي سـارَتْ ومـا سَـرَّتْ سِوىٰ الفُهَمـاءِ في الإِسْلامِ
ســامٍ علـى الشَّيْـخِ ابـنِ بسّـامٍ لَـهُ فَخْـرٌ علـىٰ نَجْـدٍ وكُـلِّ تِهـامـي
في ذُرْوَةِ الفُصَحاءِ أَصْبَحَ صاعِداً فَهُـوَ ابـنُ سَيّـارٍ بِغَيْـرِ مُسـامـي(٢)
مَعْنـىٰ الكَمـالِ تَظُنُّـهُ فـي لَفْظِـهِ والنَّقْـصُ تَحْسِـبُ فـي أَبـي تَمّـامِ
فَلْتَفْضُـلِ الشَّهْبـاءُ كُـلَّ مَـدينَـةٍ غَــرّاءَ إِذْ أَذْهَبْــتَ كُــلَّ ظَــلامِ
شَـرُفَـتْ بِمَـوْلانـا وقـد شَـرُفَـتْ بِـهِ مِــنْ قَبْلِهــا مِصْــرٌ وقُطْـرُ الشّــامِ
إِيْـهٍ لَعَمْـرُ أَبيـكَ لَهْـوَ فَخـارُ هَـ ـذي الأَرْضِ من قُوصٍ لِدارِ سَلامِ
مُتَيَقِّــظٌ والقَــوْمُ أَيْقــاظٌ وإِنْ تُـرِدِ المَقــالَ فَقُــلْ ذَوو الأَحْــلامِ
حَبْـرٌ مِـنَ الأَعْـلامِ فَـرْدُ زَمـانِـهِ والعَصْــرُ مَمْلــوءٌ مِــنَ الأَعْــلامِ
لا زالَ يَعْلـو والـزَّمـانُ مُسـاعِـدٌ ويَنــالُ مِمّــا شـاءَ كُــلَّ مَــرامِ

يُقَبِّلُ كذا ، شَرَّفَهُ اللهُ وعَظَّمَهُ ، وأَدامَ منهُ لأَوْليائِهِ فَضْلاً يُكاثِرُ مَطَرَ السَّماءِ ودِيَمَهُ ، وأَبْقىٰ منهُ لأَخِلاَّئِهِ خَليلاً لا يَسْتَلِمُ الوَفاءُ إِلاَّ مُلْتَزَمَهُ .

ويُنْهي وُرودَ كِتابِهِ الذي هو أَبْهىٰ من الوَشْيِ المَرْقومِ وأَبْهَجُ ، وأَلْهىٰ

---

(١) في م : × . . . كل غلام .
(٢) في م : . . . أفصح صاعداً × .

بالعُقولِ ؛ لا أَدْري بينَ يَدَيْ مَولانا ما أَقولُ ، لولا الأَدَبُ قالَ اللِّسانُ : مِنَ العُقارِ وأَلْهَجُ ؛ وأَنهىٰ المَملوكُ مُطالَعَةَ أَوامِرِهِ وما طَرَّفَهُ فيه من الحَقائِقِ وأَنْهَجَ ، فَوَجَدَ سَجِيَّةً تَسْحَبُ على البِلادِ ذَيْلَ أَرَجِها ، وتُقابِلُ الإِصْباحَ بِضَوْءِ بَلَجِها ، وتُكافِئُ الكَواكِبَ في دَرَجِها ، وكِتاباً ساطِعاً نُورُهُ ، وشمسُ السَّماءِ في غُروبٍ ، جامِعاً لأَقْسامِ الفَضائِلِ الكثيرَةِ الشُّعوبِ ، [٨٢ أ] طالِعاً في أُفُقِ الفَخارِ علىٰ أَحْسَنِ أُسْلُوبٍ .

ورَدَ في أُخْرَياتِ نَهارِ أَمْسِ ، فقامَ المَملوكُ بِوَظيفَةِ الدُّعاءِ طُولَ لَيْلَتِهِ الذَّاهِبَةِ ، وجلَّىٰ بِأَثْنِيَتِه العاطِرَةِ من ذلكَ اللَّيْلِ غَياهِبَهُ ، وفَرَّقَ في أَعْمالِ الثَّناءِ مَذاهِبَهُ ، ثمَّ خَدَمَ بِها تِلْكَ العَتَباتِ الشَّريفَةِ ، وقد خَدَمَها قَبْلَهُ طالِعُ الصَّباحِ ، وأَشارَ بِها إِلى لَثْمِ تِلكَ الأَرْضِ ، وقد لَثَمَها قُدَّامَهُ مِقْسَمُ الطَّلِّ في ثَرىٰ تلكَ البِطاحِ ، وَجَهَّزَها لِتَفُوزَ بِغَرَضِ[1] التَّقْبيلِ شِفاهاً ، وأَكْثَرُ وُدِّهِ لو سابَقَتِ الرِّياحَ ، واسْتَمَرَّ هو علىٰ الدُّعاءِ الذي باتَ عليهِ في دارِهِ ، وَقَعَدَ مُبْتَهِلاً إِلى أَوَّلِ النَّهارِ ، وسَيَجْرِي عليهِ إِلى تَمامِ نَهارِهِ ، ويَدومُ عليهِ حتَّىٰ يَلْبَسَ اليَوْمُ ثَوْبَ غِيارِهِ ، إِنْ شاءَ اللهُ تعالى[2] .

● **وكتبَ إِليَّ من القاهرةِ المحروسَة ، في شهر ربيعٍ الأَوَّل، سنة ٧٦٤**[3] :

[من مجزوء الكامل]

لا تَبْكِيــــا مـــــاءً تَسَنَّـــــهْ وَدَعِ الـــرُّســـومَ المُسْتَجِنَّـــهْ
خَـــلِّ ٱدِّكـــارَكَ فـــالعُيـــو نُ كَليلَـــةٌ آثـــارَ دِمْنَـــهْ
واهْجُـــرْ غَـــزالاً نـــارُ خَـــدْ دَيْـــهِ إِذا حَقَقْـــتَ جَنَّـــهْ

---

(١) في م : بفرض .

(٢) وسقط إلى نهاية الترجمة من ب .

(٣) طبقات الشافعيّة للسبكي ١٠/ ٩ ـ ٢٠ ؛ وتاريخ الرِّسالة عنده سنة ٧٦٣ . وعشرة أَبيات منها في درر العقود الفريدة ٢/ ٣٧٦ .

وَسْنـــانُ كَــمْ نَبَّهْتُـــهُ والعُجْـبُ يُطْبِـقُ مِنْـهُ جَفْنَـهْ
مُتَغـافِـلٌ أَدْعُـوهُ مِـن وَجْـدٍ إِذا مـا اللَّيْـلُ جَنَّـهْ
فـي النَّفْـسِ حـاجـاتٌ إِلَيْـكَ مـن الـوِصـالِ وفيـكَ فِطْنَـهْ
فَـرْضٌ علـى العَيْـنِ البُكـا إِذْ لَحْظُـهُ لِلْفَتْـكِ سُنَّـهْ
أَحْـوىٰ بَـديـعُ الحُسْـنِ ظَبْـيٌ فـي الحَقيقَـةِ أَوْ كَـأَنَّـهْ
ولَـهُ مَعـاطِـفُ مـا دَعـا هُـنَّ الصِّبـا إِلاَّ أَجَبْنَـهْ
هَـذا وذا مَـعْ أَنَّـهُ لَـم يَلْتَفِـتْ يَـوْمـاً لأَنَّـهْ
ويَخـافُ مـن واشٍ لَـهُ عَيْـنٌ مُـراقِبَـةُ الأَكِنَّـهْ
وفَـمٌ فُضـولـيٌّ تُقِلْـلُ الـرِّجْـلُ مِنْـهُ رَأْسَ فِتْنَـهْ
بَكَـرَ العَـواذِلُ فـي الغَـرامِ يَلُمْنَنـي وأَلُـومُهُنَّـهْ[1]
ويَقُلْـنَ : شَيْـبٌ قَـد عَـلاكَ وقـد كَبِـرْتَ فَقُلْـتُ : إِنَّـهْ
أَبْـرَزْنَ لمَّـا لُمْـنَ قَلْـبـي المُضْمَـراتِ المُسْتَكِنَّـهْ
فَتَحَـرَّكَـتْ نَفْـسٌ علـىٰ نـارِ الصَّبـابَـةِ مُطْمَئِنَّـهْ
قَـد هَجْـنَ حيـنَ عَـذَلْنَهـا وعَـواذِلُ العـانـي يُهِجْنَـهْ
أَنَّـىٰ يَصِـحُّ مـن العَـواذِلِ مَـن نَهـىٰ صَبّـاً وَنَهْنَـهْ
هُـمْ جَمْـعُ تَكْسيـرٍ تَصَـرَّفُ فـي دِفـاعِهُـمُ الأَعِنَّـهْ
فـاهْجُـرْهُـمُ الهَجْـرَ الجَميْـلَ فَكُـلُّ مـا قـالُـوهُ هُجْنَـهْ
واذْكُـرْ صَفـاءَ أَبـي الصَّفـا والخَطْـبُ مُعْتَكِـرُ الـدُّجُنَّـهْ
السَّيِّـدُ اليَقِـظُ الأَغَـرُّ أَخـي الـوَفـاءِ بِـدُونِ مِنَّـهْ
والنَّـدْبُ ذُو الهِمَّـاتِ مـا أَبْـدَأَنَ مـن جُـودٍ أَعَـدْنَـهْ

(١) البيت والذي يليه لابن قيس الرُّقيّات ، في ديوانه ٦٦ . ورواية الأوّل في الديوان :
بَكَـرَتْ عَلَـيَّ عَـواذِلـي يَلْحينَـني وأَلُـو مُهُنَّـهْ

والجُـــودُ مِثْـــلُ الجَـــوْدِ يَسْـ ـقـي الإلْـفَ مِثْلـي أَلْـفَ مُـزْنَـهْ
والعِلْـــمُ كـــالجَبَـــلِ اعْتَلَـــتْ فيــهِ الــرِّيــاحُ فَمــا أَزَلْنَــهْ
والجِـــدُّ يَنْهَـــضُ لَـــو تُعــا لِيْــهِ النُّجــومُ لَمـــا بَلَغْنَــهْ
والأَيْـــدُ يَبْطِـــشُ لَـــوْ تُغــا لِبُـــهُ الأُســـودُ لَمـــا غلَبْنَـــهْ
مُتَـــدَرِّعٌ ثَـــوْبَ التُّقَـــىٰ حِصْنـــاً وتَقْـــوىٰ اللهِ جُنَّـــهْ
مُتَفَنِّـــــنٌ بَحْـــــرٌ إذا جـــارَيْتَـــهُ لـــم تَـــدْرِ فَنَّـــهْ
أَدَبٌ نَضيــــــرٌ يُسْتَحَبْـ ـــبُ لِمَـــنْ لَـــهُ الآدابُ سُنَّـــهْ
وَلَـــهُ بَنـــاتُ الفِكْـــرِ سُنْـ ـنَتُهـــا ٱسْتَهَلَّـــتْ كـــالأَجِنَّـــهْ
فِكَـــرٌ إذا عـــايَـــنَّ مَعْـ ـنىً طـائِـراً فـي الجَـوِّ صِـدْنَـهْ
وعُلـــومُ دِيْـــنٍ لـــم يُخِلْـ ـــلَ خَليلُهـــا فَـــرْضـــاً وسُنَّـــهْ
وجَليـــــلُ قَـــــدْرٍ دَقَّ فَهْـ ـمـــاً لا يُضـــاهـــي التِّبْـــرُ ذِهْنَـــهْ
[٨٢ ب] يـــا أَيُّهـــا الحَبْـــرُ الـــذي جَعَـــلَ الإلَـــهُ الخَيْـــرَ ضِمْنَـــهْ
لـــو فَصَّـــلَ الخَيَّـــاطُ قـــا لَ لِكُـــلِّ مـــا وصَّلْـــتَ حُسْنَـــهْ
أُسْـــدي وأُلْحِـــمُ لَسْـــتُ أَقْـ ـــدِرُ أَنْ أَزيـــدَ عَلَيْـــكَ طَعْنَـــهْ
ولـــو انَّ الأفْـــوَهَ حـــاضِـــرٌ لَعَـــرَتْـــهُ بَيْـــنَ يَـــدَيْـــكَ لُكْنَـــهْ
وغَـــدا الصَّـــرِيْـــعُ بِـــهِ كَـــدِيْـ ـــكِ الجِـــنِّ مِمَّـــا قُلْـــتَ جِنَّـــهْ
دُمْ وابْـــقَ مـــا بَقِـــيَ الـــزْ زَمـــانُ فـــإنْ وَهـــىٰ زَلْـــزَلْـــتَ وَهْنَـــهْ
ولِقَـــدْرِكَ العـــالـــي العُلُـــوْ وُ فَمـــا النُّجـــومُ عُـــلاً يَطُلْنَـــهْ

يُقَبِّلُ كَذا ، لا يُبْعِد اللهُ دارَها ، ولا يُجاوِزُ إلاَّ بالجَوْزاءِ مِقْدارَها ، ولا يُسْمِعُها مِنْ أَنْباءِ مَنْ أَعْلَنَ لَها أَو سارَّها إلاَّ سارَّها ، تَقْبيلاً يَقُومُ بِسُنَّةِ الفَرْضِ ، ويُعْرِبُ عن مَبْنِيِّ وُدٍّ كامِلِ الطُّولِ والعَرْضِ ، ويُفْصِحُ عن خُضوعٍ لِفَضْلِهِ ، فإذا

أَنْشَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُنْشِدٌ : بَلَغْنا السَّماءَ[1] ، تَلا هُوَ ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ [يوسف : ٨٠]
وأَنْشَدَ : [من المنسرح]

مِنَ اَجْلِكَ قَد جَعَلْتُ نَفْسي أَرْضا لِلصَّادِرِ والوارِدِ حتَّىٰ تَرْضَىٰ[2]

ويُنْهي بعدَ وَصْفٍ اعْتَدَّهُ دِيْناً ، فَتَسَلَّمَ كِتابَهُ باليَمينِ ، ثابتٍ يَزيدُ حَلاوَةَ إيمانِهِ في القَلْبِ مَرُّ السِّنين ، باقٍ لا يَتَبَدَّلُ إذا غَيَّرَ النَّأْيُ المُحِبِّينَ[3][4] : [من البسيط]

مَا غَيَّرَ البُعْدُ حالاً كُنْتَ تَعْرِفُهُ ولا تَبَدَّلْتُ بَعْدَ الذِّكْرِ نِسْيانا
ولا ذَكَرْتُ خَليلاً كُنْتُ آلَفُهُ إلاَّ جَعَلْتُكَ فوقَ الكُلِّ عُنْوانا

أَنَّ مُوجِبَ تَأْخِيرِ كُتُبِهِ مَحْضُ الاقْتِداءِ ، والسَّيْرَ على سُنَّتِكُمْ في قِلَّةِ الكُتُبِ مع كَثْرَةِ الوَفاءِ ، وكيفَ لا وقد رَفَعَ أَبو رافِعٍ « مَولىٰ القَومِ منهم »إلى سَيِّدِ الأَنْبياءِ[5] ، وعندَ ذلكَ يَنْقَلِبُ مُعْتَذِراً عن تَهَجُّمِهِ بهذِهِ الضَّراعَةِ ، مُبْتَدِراً إلى ذِكْرِ الفارِقِ حيثُ أَطالَ لِسانَهُ وباعَهُ ، مُزْدَجِراً عَمَّا لَعَلَّهُ ذَنْبٌ إذا عَلِمَ مَولانا بِهِ سامَهُ البُعْدَ وباعَهُ ، فيقولُ : قَيْدُ الحُبِّ أَطْلَقَ لِساني ، فَأَعْرَبَ عن المَبْنِيِّ على السُّكونِ ، وَسَرَّحَ يَدي فَخَطَّتْ ما هو في لَوْحِها المَحفوظِ مَصونٌ ، وأَذِنَ لي فَتَصَرَّفْتُ في الكِتابَةِ ، وكيفَ لا يَتَصَرَّفُ العَبْدُ المأْذُونُ ؛ فَأَصْدَرْتُ هذهِ الوارِدَةَ

---

(١) إشارة إلى قول النابغة الجعدي : [وقد مضى]
بَلَغنا السّماءَ مَجدنا وجدودنا وإنّا لنرجو فوق ذلك مَظْهرا
(٢) في م : . . . . قد جعلت خدّي . . . × . . .
(٣) من قول ذي الرُّمَّة : [ديوانه ٢/ ١١٩٢]
إذا غَيَّرَ النَّأيُ المُحِبِّينَ لم يَكَدْ رسيسُ الهوىٰ من حُبِّ ميَّةَ يَبْرَحُ
(٤) البيتان للزبير بن بكار ، في بهجة المجالس ١/ ٣٦٠ باختلاف في الرواية .
(٥) أخرج الإمام أحمد في مسنده ٨/٦ و٣٩٠ ، أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « يا أَبا رافع ، إنَّ الصَّدقة حرامٌ على محمَّد وعلى آل محمَّدٍ ؛ إنَّ مَولى القومِ من أَنْفُسِهِم » .

مُدِلاً بَأَنِّي منهمْ وهُم مِنِّي وهذا المُنىٰ ، وقلتُ : اسْأَلِي عنهمْ وخَبِّري عَنِّي حاشاكِ مِن عَنا ، وبادِري مَولاكِ ولا تَخْشَيْ أَن يُقالَ : ما أَتىٰ بكِ ها هُنا ؟ وخُذي من شرحِ الحالِ في كلِّ فَنٍّ ، وكوني ممَّن إِذا سَمِعَ صالِحاً أَذاعَ ، ولو سَمِعَ طالِحاً أَو رِيْبَةً لَدَفَنَ ، وأَطْلِقي الدَّمْعَ ولا تَخافي أَن يُقالَ : ما هاجَ الدُّموعَ الذُّرَّفَنَ(١) ، واعْتَمِدِي على المُسامَحَةِ فَهُم أَهْلوها ، واتَّخِذي إِخْلاصَ الوَلاءِ ذَريعَةً أَنْ لا يَنْتَقِدوها ، وثِقِي بِهِمْ فهمْ أَحسنُ النَّاسِ وُجوهاً وأَنْضَرُهُموها(٢) :

[من الطويل]

أَضاءَتْ لَهُمْ أَحْسابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دُجىٰ اللَّيْلِ حتَّىٰ نَظَّمَ الجَزْعَ ثاقِبُهْ

المَملوكُ يُنهي أَنَّه خرجَ من دمشقَ مُسْتَبْشِراً ، وباعَ الأَسْفَلَ بالأَعْلى وتَلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : ١١١] فَحَمِدَ المُشْتَرىٰ ، ووصلَ إِلى مِصرَ مَسْروراً ، وما شَكا إِليهِ جَمَلُهُ طُولَ السُّرىٰ(٣) ، بل حَمِدَ سَيْرَهُ خَيْلُ البَريدِ ، وبَهيمُ اللَّيْلِ وساحَةُ البَيْدا ، وقدمَ فنزلَ جِوارَ البَحْرِ ، فقالوا : نَزَلَ [٨٣ ب] ماءُ السَّماءِ ؛ وكادَ يُنشِدُ(٤) : [من الوافر]

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلا أَمامي تَخُبُّ بِيَ الرِّكابُ ولا وَرائي

---

(١) من قول العجّاج ، في ديوانه ٤٨٨ (عزّة) ٢/٢١٩ (سطلي) :
يا صاح ما هاج الدُّموع الذُّرَّفا

(٢) البيت لأبي الطَّمحان القيني في الإعجاز والإيجاز ١٨٢ والأغاني ١٣/٩ وكامل المبرد ١/٦٨ و٢/٣٤ . وشرح الحماسة للمرزوقي ٤/١٥٩٨ وأشعار اللُّصوص ١/ ٧٤ . ونسبه الجاحظ في الحيوان ٣/ ٩٣ إلى لقيط بن زرارة .

(٣) من قول الرّاجز : [حياة الحيوان « الجمل »]
شكا إِليَّ جملي طول السُّرى يا جملي ليس إِليَّ المشتكى
صبراً جميلاً فكلانا مُبتلى

(٤) البيت للمتنبي ، في ديوانه ٤/ ١٤٥ برواية : ... فلا ورائي × .... ولا أمامي .

ولم يُنْشِدْ(١) : [من الكامل]

ذُمَّ المَنازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوىٰ والعَيْشَ بَعْدَ أُولئِكَ الأَيَّامِ

لِكَثْرَةِ ما لَقِيَ من التَّعظيمِ الذي لو شَعَرَ بِهِ العَدُوُّ لَما نَظَّمَ أَسْبابَهُ ؛ خَيَّمَ المَملوكُ على كَرَمِ اللهِ وسارَ مُتَوَكِّلاً عليهِ يحسبُ كُلَّ خَيْرٍ ، فَمَدَّ اللهُ سُبحانه وتَعالى أَطْنابَهُ ، ووردَ حيثُ قَصَدَ ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور : ٣٩] ولم يَخْشَ لِحُسْنِ ظَنِّهِ من ذي العَرْشِ إِقْلالاً ، ولم يُنادِهِ كلُّ مُحِبٍّ إلاّ بهكذا هكذا وإلاّ فَلالا(٢) ، وقالَ كُلُّ امْرِىءٍ : أَنْتَ الحَكَمُ التُّرْضىٰ حُكومَتُهُ(٣) ، هُناكَ هَنَّاكَ ، وأَنْشَدَ(٤) : [من البسيط]

اللهُ أَعْطاكَ فَضْلاً من عَطِيَّتِهِ

وأَوْلاكَ ، وبالَغَ في البِشْرِ ، وما كُلُّ مَن يُبْدي البَشاشَةَ كائِناً أَخاكَ(٥) ، بل رُبَّما حَسِبْتَهُ إِيَّاكَ .

وأَمَّا زُمَرُ الأَعْداءِ ؛ فكلٌّ منهمْ عَبَسَ وتَوَلَّىٰ ، وتَبَيَّنَ لِوَلِيِّ الأَمْرِ أَنَّ لِمِثْلِهِ يُقالُ : نَوِّلْهُ ما تَوَلَّىٰ ، ونادَيْتُ كُلاً مِن زاجِرَيَّ عن حُضورِ هذِهِ المعركَةِ(٦) : [من الطويل]

---

(١) البيت لجرير ، في ديوانه ٢/ ٩٩٠ .

(٢) من قول المتنبي : [ديوانه ٣/ ١٣٤]

ذي المعالي ، فليعلون مَن تَعالى هكذا هكذا وإلاّ فلا لا

(٣) من قول الفرزدق : [ليس في ديوانه . وهو في خزانة البغدادي ١/ ٣٢]

ما أَنت بالحَكَم التُّرضىٰ حكومتُهُ ولا الأصيلِ ولا ذي الرَّأيِ والجَدَلِ

(٤) صدر بيتٍ لإبراهيم بن هرمة [ديوانه ٢٢٣] وعجزه :

على هَنٍ وهَنٍ فيما مضىٰ وهَن

(٥) من قول الشاعر : [شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١/ ٢٣٣]

وما كلُّ مَن يُبدي البَشاشةَ كائِناً أَخاكَ إِذا لم تُلْفِهِ لك مُنْجِدا

(٦) من قول طرفة : [ديوانه ٣١] وعجزه :

وأن أشهد اللّذّات هل أنت مخلدي

أَلا أَيُّهذا الزَّاجري أَحْضُرَ الوغىٰ

أَوْلىٰ لَكَ فَأَوْلىٰ ، ولقد اسْتَوْلىٰ الحَقُّ على عَرْشِهِ واسْتَوىٰ ، ولم يَكُنْ غيرَ الإِخْراجاتِ جِراحاتُ الأَهْوِيَةِ ، والأَغْراضُ قائِلَةٌ : لا نَبْرَحْ نَحنُ ﴿ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ [طه : ٥٨] .

فلمَّا طلعَ صُبْحُ الحَقِّ على مَن كانَتْ أَمْرَضَتْ قَلْبَهُ ، بانَ وبَدا لَهُ مِن بعدِ ما انْدَمَلَ الهَوىٰ ، قَوْمٌ أَشْرِبُوا في قُلوبِهِمُ المَنْصِبَ فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُم ، وأُعْجِبُوا بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ ضَلَّعَتْ أَعْضاءَهُم ، واسْتَكْلَبُوا على اصْطِيادِ جارِحِهِ ، فَطَرَّحَهُمْ قَتْلىٰ وَرَدَّ أَهْواءَهُم ، لم يَرْجِعوا حتَّىٰ وقفَ الهَوىٰ ، وأَهْلَكَهُمْ كُلُّ نَزَّاعَةٍ لِلشَّوىٰ ، وقُوبِلَ كلُّ أَفَّاكٍ منهمْ بِما نَوىٰ ، لَعِبَ بِهم شَيْطانُ الحَسَدِ ، وشَدَّ وَثاقَهُمُ الذي لا يُوثَقُ بِهِ بِحَبْلٍ من مَسَدٍ ، وطَبَعَ على قَلْبِهِ واغْتالَهُ ، فقلتُ لَهُ : غالَتْكَ إِذن الغُولُ ، بل اغْتَالَكَ الأَسَدُ : [من الكامل]

ولَقَـدْ عَـذَلْـتُ حَلِيمَهُـمْ وَنَهَيْتُـهُ ... فَـأَبـىٰ وقـالَ هَـوايَ أَمْـرٌ مُحْكَـمُ
«وَقَفَ الهَوىٰ بي حَيْثُ أَنْتَ فليس لي ... مُتَـأَخَّـرٌ عَنْـهُ ولا مُتَقَـدَّمُ»(١)
فَـأَرَدْتُ أُطْنِـبُ قـالَ لـي مُتَبَـرِّماً : ... أَطْنِبْ أَوْ اَوْجِزْ حَبْلُ كَيْدي مُبْرَمُ
« أَجِـدُ المَـلامَـةَ فـي هَـواكَ لَـذيـذَةً ... حَسَـداً وبَغْيـاً فَلْتَلُمْنـي اللُّـوَّمُ »(١)

فلَمَّا سَمعتُ قَولَهُ :

أَجِدُ المَلامَةَ في هَواكَ لذيذةً

ورأَيْتُ من قَلْبِهِ المَعاني ما يَحْمِلُهُ علىٰ أَنْ يَجعلَ ضالَّةَ المُؤْمِنِ مَنْبُوذَةً ، ويَطْبَعَ على قَلْبِهِ ، والأَفْئِدَةُ بدونِ هذا مَأْخوذَةٌ ، عَرفتُ أَنَّ العَذْلَ لا يُرْجِعُهُ ، وأَنَّ الحَقَّ خَتَمَ علىٰ قَلْبِهِ فَلا يُنْجِدُهُ الوَعْظُ ولا يُنْجِعُهُ ، وأَنَّهُ لا يَزالُ يُحاوِلُ

(١) البيت لأَبي الشّيص ، في ديوانه ١٠١ ـ ١٠٢ .

سُقوطَ مَن كانَ فوقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ ، وأَنَّهُ لَزِمَ إِطْلاقَ اللِّسانِ فيما لا يَعنيهِ لُزومَ الخَطيبِ للمَنابِرِ ، وكِتابةَ الباطِلِ لُزومَ الأَقْلامِ للمَحابِرِ ، والاشْتِغالَ بِمَنْ تَرَفَّعَ قَدْرُهُ عنهُ لُزومَ الأَعْراضِ للجَواهِرِ ؛ [٨٣ب] عَدَلْتُ عن عَذْلِهِ ، واكْتَفَيْتُ بالحَكَمِ العَدْلِ وعَدْلِهِ ، وَرَفَعْتُ قِصَّتي على يَدَيْ إِحْسانِهِ وَفَضْلِهِ ، وجِئتُ فشاهَدْتُ من الأَميرِ الكبيرِ والسُّلْطانِ ما رَغِمَ بِهِ أَنْفُ الشَّيْطانِ ، وقد عَلِمَتْ بِكُنْهِ ذلكَ عَدنانٌ وقَحْطانُ ، وصِرْتُ المَسؤولَ فيما حَسِبُوا أَنّي أُحاوِلُهُ اسْتِقْراراً ، والمُتَضرِّعَ إِليهِ في العَوْدِ مِراراً ، والمُعْرِضَ عمَّا حَسَدوا عليهِ اسْتِصْغاراً لِقَوْمٍ مَكروا مَكْراً كُبَّاراً .

وَحَفَّتْني مِن اللهِ أَلْطافُهُ ونِعَمُهُ ، وأُطْلِقَ في الثَّناءِ عَلَيَّ - بِفَضْلِ مَن هو كُلَّ يَومٍ في شَأْنٍ - لِسانُهُ وقَلَمُهُ ، وبانَ وَوَضَحَ أَنَّ العَدُوَّ ظَمْآنُ وفي بَحْرِ الغَوايَةِ فَمُهُ ، وكلُّ ذلكَ بِبَرَكَةِ سَيِّدِنا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم سَيِّدِ النَّبِيِّينَ ، فلستُ واللهِ قَدْرَ واحِدَةٍ من هذِهِ النِّعَمِ التي تَقَلَّدْتُ عِقْدَها الثَّمينَ ، ولا أَنا مِمَّن يَفْتَخِرُ ، ولو شِئْتُ لأَنْشَدْتُ(١) : [من الوافر]

وكــانَ لَنــا أَبــو حَسَــنٍ عَلِــيٌّ   أَبــاً بَــرّاً ونَحْــنُ لَــهُ بَنيــنُ

ثمَّ لمَّا كانَ قد امْتَلأَ من ماءِ دِمشقَ بَطْني ، وناداني حَوْضُ الآمالِ : قَطْني ، وسَئِمَتْ نَفْسي صُداعَ الشّامِ ؛ وماذا يَزْدَري الشُّعراءُ وغَيْرُهُم مِنّي ، ورَأَيْتُ هذا الإِكْرامَ الذي بَلَغَ عَنانَ السَّماءِ ، وذكرتُ دمشقَ وما وما وما أَقولُ وكلُّ دمشقَ ما ، قلتُ لمن لامَني فيها(٢) : [من الطويل]

خَليلَـيَّ مـا وافٍ بِعَهْـدِيَ أَنْتُمـا

---

(١) البيت لسعيد بن قيس الهمداني . (معجم شواهد العربية ٣٩٣) .

(٢) عجزه : إذا لم تكونا لي على مَن أُقاطعُ .

ومعاذَ اللهِ أَن أَلومَ أَهْلَ الشَّامِ ، فقد أَحْسَنُوا وأَنْعَمُوا[(١)] : [من البسيط]

وما أُصاحِبُ من قَوْمٍ فَأَذْكُرَهُمْ إِلا يَزيدُهُمُ حُبّاً إِلَيَّ هُمُ

وإِنَّما أَلومُ فِرْقَةً قَلَبُوا الحَقَّ وبَدَّلوا القُرآنَ فَصَمُّوا وعَمُوا .

فصلٌ :

وأَمَّا السَّادَةُ الأَصْحابُ : فالمَخصوصُ منهم بعُمومِ التَّحِيَّةِ ، والمُقبَّلُ كَفُّهُ مِئَةً ، وقالَ السَّجَعُ مِيَّةً ، مَن يَحِنُّ سَلامي كلَّ يومٍ إِليهِ ، سَيِّدُنا الشَّيْخُ عزُّ الدِّين ابنُ شَيخِ السَّلاميَّةِ[(٢)] ، والتَّالي لهذا المُقَدَّمِ والأَنْظارِ ، مَن تَحَقَّقَتْ مَوَدَّتُهُ بعدَ البَحْثِ مَعَ الأَشْباهِ والأَنْظارِ ، وعُرِفَ تَقْواهُ في التَّقَوِيَّةِ[(٣)] واهْتِمامُهُ في المَعروفِ وإِنْ لَمْ يُصْلِحِ العَطَّارُ ، ثمَّ سائِرُ المَخاديمِ ، يَقَبِّلُ المَملوكُ يَدَهُمْ سَيِّداً سَيِّداً ، ويَخُصُّ السَّادَةَ الأَوْلادَ الأَعِزَّةِ فلا يَجِدُ إِلاَّ مُحَمَّداً ، ويَلْتَفِتُ مُتْهِماً ومُنْجِداً[(٤)] ، فَيُنادي : أَصْحابي ، أَيْنَ مَن لا أَعْدِلُ بِهِ أَحَداً ؛ كَأَنَّ صارِمَهُ فَتَكَ فَأَتْبَعَهُ قَوْماً بُوراً ، أَو نَبا فوجَدَ قَصْواً[(٥)] أَسْكَنَهُ قُبوراً ، أَتَراهُ في جِهَةٍ أَم لا تَحويهِ الجِهاتُ ﴿ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾ [الحديد : ١٣] .

---

(١) البيت لزياد بن حمل ، في شرح الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٩٢ .

(٢) عزُّ الدِّين ، ابن شيخ السَّلاميَّة : حمزة بن موسىٰ بن أَحمد بن الحسين ، ينتهي نسبه إِلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، برع في المذهب الحنبليّ والخلاف ، وله تصانيف مفيدة ؛ توفي سنة ٧٦٩ هـ بدمشق . (الدارس ٢/ ٧٥ والوافي بالوفيات ١٣/ ١٨٢ والمنهج الأَحمد ٥/ ١٣١) .

(٣) المدرسة التَّقَوِيَّة : هي من أَجلِّ مدارس دمشق ، داخل باب الفراديس ، شمالي الجامع الأُموي ، شرقي الظَّاهريَّة والإِقباليتين . (الدارس ١/ ٢١٦) .
ولعل المشار إِليه هو : المعمر الصالح كمال الدِّين محمد بن القاضي محيي الدِّين ابن الزَّكي ، المتوفَّى سنة ٧٤٤ هـ .
ودرَّس بعده بالتَّقَوِيَّة القاضي الإِمام تاج الدِّين أَبو نصر عبد الوهاب بن السُّبكيّ . (الدارس ١/ ٢٢٢) .

(٤) في م : متهماً ومغوراً ومنجداً .

(٥) في م : قصوراً .

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ إليهِ عن ذلكَ ، ولو وُفِّقْتُ لَوَقَفْتُ وما كَتَبْتُ[1] :

[من مجزوء الكامل]

وافَىٰ مِثالُكَ لِي كَأَنَّهْ ... صُبْحٌ وَقَد شَقَّ الدُّجُنَّهْ
أَبْصَرْتُهُ واللَّيْلُ أَمْـ ... ـسَىٰ ذا غَياطِلَ مُرْجَحِنَّهْ
وَفَضَضْتُهُ فَأَضاءَتِ الْـ ... أَنْوارُ مِن هَنَّا وَهَنَّهْ
لِحَمائِمِ الأَلْفاظِ مِنْـ ... ـهُ رَنَّةٌ مِنْ بَعْدِ رنَّهْ
فَاللَّحْنُ مِنْهُ مُطْرِبٌ ... مع أَنَّهُ ما فِيهِ لَحْنَهْ
أَبْياتُ شِعْرٍ ضَرَّةٌ ... لِلشَّمْسِ أَوْ لِلْبَدْرِ كَنَّهْ
كَمْ مِنَّةٍ أَوْلَيْتَ مِنْهُ ... وكَمْ بِهِ قَوَّيْتَ مِنَّهْ
هُوَ جَنَّةٌ بَلْ جُنَّةٌ ... في السِّرِّ مِن ناسٍ وَجِنَّهْ
[٨٤ أ] أَمّا البَديعُ فَإِنَّهُ ... أَدْغَمْتَهُ فيهِ بغُنَّهْ
فيهِ بَدائِعُ ما دَرَىٰ ... أَهْلُ البَلاغَةِ ما اسْمُهُنَّهْ
خَلَّفْتَ مِفْتاحَ العُلُو ... مِ مُعَطَّلاً وكَسَرْتَ سِنَّهْ
وقَهَرْتَ عَبْدَ القاهِرِ الْـ ... ـمِسْكِينِ حتَّىٰ حازَ حُزْنَهْ
يا حُسْنَهُ مِن رَوْضَةٍ ... أَزْهارُها لم تُسْقَ مُزْنَهْ
أَبْرَزْتَ فَضْلَ حَلاوَةٍ ... في النِّيلِ كانَتْ مُسْتَكِنَّهْ
فَأَرَىٰ مَعانِيهِ جُزا ... فاً والخَليلُ أَحَبَّ وَزْنَهْ
كَمْ فِيهِ عِلْقٌ مَضِنَّةٍ ... لِمُنَىٰ النُّفوسِ غَدا مَظِنَّهْ
كَنْزٌ مِنَ الأَدَبِ اسْتَغَنْـ ... ـتُ بِهِ علىٰ فَقْرٍ ومِحْنَهْ
هُوَ كَوْمُ تِبْرٍ مِنْهُ آ ... خُذُ حَفْنَةً مِنْ بَعْدِ حَفْنَهْ

(١) الجواب شعراً ونثراً في طبقات الشافعية الكبرىٰ للسُّبكي ١٠/ ٢٠ ـ ٣٢ .

لَـــــوْ أَنَّ جَــــرْوَلَ ذاقَ مِــــن ... جِــرْيــالِــهِ لـم يَلْـقَ سِجْنَــهْ[1]
وَكَــــذا زُهَيْــــرٌ لَـــوْ رَآ ... هُ ذَوىٰ وَمـــا أَصْبَتْــهُ دِمْنَــهْ
وأَرىٰ الحَــــزيــــنَ لأَجْلِــهِ ... كَــمْ أَسْمَــعَ الأَقْــوامَ أَنَّــهْ[2]
وكَــذَلِــكَ الــرَّمَّــاحُ كَــمْ ... فــي شِعْــرِهِ لِلنَّــاسِ طَعْنَــهْ[3]
وجَميـــــلُ قُبِّـــحَ فِعْلُـــهُ ... إِذْ بُــثَّ عَنْــهُ حَـديــثُ بَثْنَــهْ
وَكُثَيِّـــرٌ قَـــد قَـــلَّ حَتْـ ... ـتــىٰ أَرَتْــهُ عَــزَّةُ كُـلَّ إِهْنَــهْ
وأَبـــو نُـــواسٍ لَـــو رَآ ... هُ لَمــا أَقــامَ بِــدَيْــرِ حَنَّــهْ
وغَـــدا فَـــزَوَّقَ كَـــأْسَـــهُ ... وَدَنــا فَــرَوَّقَ مِنْــهُ دَنَّــهْ
وارْتَـــدَّ مُسْلِـــمُ مِنْـــهُ عَـــنْ ... حُــبِّ الغَــوانــي إِذْ صَــرَعْنَــهْ
نَظْـــمٌ يُلَيِّـــنُ قـــاسِيُــو ... نَ ولــو أَبَــىٰ لَنَفَشْــتَ عِهْنَــهْ
وشَفَعْتَـــهُ بِتَــرَسُّـــلٍ ... أَدْرَجْــتَ لــي التَّسْهِيــلَ ضِمْنَــهْ
وَنَقَلْـــتَ فِيـــهِ شَـــواهِـــداً ... عِنْــدَ ابْــنِ مــالِــكَ مُسْتَجِنَّــهْ
لـــو كُنْــتَ فــي عَصْــرٍ مَضــىٰ ... يــا مَــنْ أَعــارَ الشَّمْــسَ حُسْنَــهْ
مـــا جـــاءَ حَـــظُّ الجـاحِــظِ الْـ ... ـمَعْــرُوفِ فــي التِّبْيــانِ تِبْنَــهْ
وبَكـــىٰ ابـــنُ بَسَّـــامٍ إِلـــىٰ ... أَنْ بَــلَّ بــالعَبْــراتِ رُدْنَــهْ
والفَتْـــحُ أَغْلَـــقَ بـــابَـــهُ ... ورَمــىٰ قَــلائِــدَهُ بِمِهْنَــهْ
أَسَفــي علــى عَبْــدِ الــرَّحيْـ ... ـمِ فَــإِنَّــهُ أَخْمَلْــتَ فَنَّــهْ
وأَتَيْـــتَ فِيـــهِ بِمُعْجِـــزا ... تٍ فُتْنَــهُ فَــأَصــابَ فِتْنَــهْ
هُـــوَ مـــالِـــكُ الإِنْشـــاءِ إِنْ ... شــاءَ التَّقَــدُّمَ لَــمْ يُنَهْنَــهْ

---

(١) جرول : الحطيئة ؛ والإشارة إلى سجنه زمن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .
(٢) الحزين الكناني .
(٣) الرّمّاح : ابن ميّادة .

وإِمامُنا لَكِنَّهُ ... إِنْ قِسْتَهُ بِكَ فيهِ لُكْنَهْ
لو عاشَ كانَ أُولو النُّهىٰ ... ما داهَنوا في الحَقِّ ذِهْنَهْ
ولَقالَ كُلٌّ مِنْهُمُ ... والحَقُّ لَم يَكُ فِيهِ هُدْنَهْ
هذا عَليكَ مُقَدَّمٌ ... فاْضْرِبْ بِرَأْسِكَ أَلْفَ قُرْنَهْ
لكنْ جَعَلْتَ الشَّامَ بَعْـ ... ـدَكَ كالجَحيمِ وكانَ جَنَّهْ
ودِمَشْقُ بَعْدَكَ قَدْ تَرَدْ ... دَتْ ثَوْبَ حُزْنٍ فِيهِ دُكْنَهْ
لم يُسْقَ من بَرَدىٰ البَريـ ... ـصُ ولو أَتىٰ أَوْلادُ جَفْنَهْ
وكذاكَ ثَوْرا بَعْدَ بُعْـ ... ـدِكَ ما تَسَنَّىٰ بَلْ تَسَنَّهْ(1)
والجامِعُ المَعْمُورُ كا ... دَ تُزَعْزِعُ الأَشْواقُ رُكْنَهْ
والقُبَّةُ الشَّمَّاءُ لَيْـ ... ـسَ بِجَوِّها لِلنَّسْرِ قُنَّهْ
كانَتْ بِهِ الأَعْطافُ وهْـ ... ـيَ مَوائِدٌ يَمْلأْنَ صَحْنَهْ
والآنَ أَقْفَرَ وَحْشَةً ... وأَسالَ مِنْهُ السَّقْفُ دُهْنَهْ
ودُموعُهُ فَوَّارَةٌ ... قد قَرَّحَتْ بالفَيْضِ جَفْنَهْ
وغَدَتْ قِسِيُّ قَناطِرٍ ... فيهِ من البَرْحا مُرِنَّهْ
ولَكَمْ نُفُوسٌ من نُفُو ... سٍ مُتْنَ حِينَ أَكَلَّ مَتْنَهْ
لَمْ يَبْقَ إِلاَّ زَوْرَةٌ ... لِتُزِيلَ لَمَّا غِبْتَ غُبْنَهْ
فاللهُ خَيَّبَ فيكَ ما ... قالَ الحَسودُ ورَدَّ ظَنَّهْ
قَدْ كادَ حَتَّىٰ كادَ يَمْـ ... ـشي ما تَقَوَّلَهُ عِرَضْنَهْ
عَمَلاً بقَوْلِ مُحَمَّدِ بْـ ... ـنِ يَسيرَ فَهو يَسيرُ سُنَّهْ(2)
« تُخْطِي الأُمورُ معَ الصَّوا ... بِ وقد تكونُ مع المَظِنَّهْ »

---

(1) ثورا : من أنهار دمشق ، وهو فرعٌ من بردىٰ ، لا يزال معروفاً بهذا الاسم .

(2) في أ ، ب : × بن مبير . . . ! وفي م : محمد بن مسير ! . والبيتان الآتيان لمحمد بن يسير في الأغاني ١٤/ ٤٤ وديوانه ١٢٤ .

« كَـمْ مِـنْ مَضيـقٍ فـي الفَضـا ءِ وَمَخْـرَجٍ بَيْـنَ الأَسِنَّـهْ »
[٨٤ ب] مَـولايَ يـا قـاضـي القُضـا ةِ ومَـن عَـوارِفُـهُ شَهَـرْنَـهْ
ومُقِيْـلَ عَثْـرَةِ كُـلِّ مَـنْ قَلَـبَ الـزَّمـانُ لَـهُ مِجَنَّـهْ
ومُبَلِّـغَ الآمـالِ ظَمْـآنـاً تَشَـوَّقَ مـا مَجَنَّـهْ[1]
أَنـا عِنْـدَ غَيْـرِكَ فـي الـوَرىٰ مِمَّـنْ مَعـارِفُـهُ أَضَعْنَـهْ
فَـلِأَجْـلِ ذا أَوْقَعْـتُ نَفْـسي فـي الجَـوابِ بِغَيْـرِ فِطْنَـهْ
خِفْـتُ الحَـريـقَ بِنـارِ تَقْـصيـري وشَيْـبُ الـرَّأسِ قُطْنَـهْ
لكِـنْ أَجَبْـتُ فـإِنْ أَجَـدْتُ فلـمْ أَظُـنَّ ولَـنْ أَظُنَّـهْ
إِنَّ الشُّجـاعَ بِلَحْمِـهِ سَمْـحٌ إِذا لَـمْ يَـرْضَ جُبْنَـهْ
فَـاسْلَـمْ وَدُمْ فـي نِعْمَـةٍ مـا زانَ زَهْـرُ الـرَّوْضِ حَـزْنَـهْ

يُقَبِّلُ الأَرْضَ حيثُ تَضَعُ المَلائِكَةُ بها الأَجْنِحَةَ ، ويَتَّخِذُ الأَنامُ من الدُّعاءِ في مَواطِنِها مَواضِيَ الأَسْلِحَةِ ، ويَفْعَلُ اللهُ بها ما أَحَبَّ ، فإِنَّهُ لا يَجِبُ عليهِ شيءٌ وإِن راعىٰ المَصْلَحَةَ ، ويُعْمِلُ طُلاَّبُ العِلْمِ إِلَيْها كُلَّ يَعْمُلَةٍ[2] : [من البسيط]

كـأَنَّ راكِبَهـا غُصْـنٌ بِمَـرْوَحَـةٍ :

[من الطويل]

وإِنِّـي بِتَقْبيلـي لَـكَ الأَرْضَ والثَّرىٰ علـىٰ كُـلِّ مَـنْ فـاخَـرْتُـهُ لَفَخُـورُ[3]

تَقْبيلاً يُثْبِتُ بِهِ الجَوْهَرَ الفَرْدَ ، فإِنَّ كُلَّ جُزْءٍ منهُ لِلْقُبَلِ يَتَجَزَّا ، ويَحُطُّ بِهِ أَثْقالَ خُطوبٍ أَقْعَدَتْهُ عن اللَّحاقِ بِها عَجْزاً ، ويَتَشَرَّفُ بِمُشافَهَةِ تُرْبِها ، فإِنْ نالَهُ

---

(١) أَي : ماءَ مجنَّة .
(٢) تمامه ، كما في النِّهاية لابن الأثير ٢/ ٢٧٣ : إِذا تَدَلَّتْ بِهِ أَو شاربٌ ثَمِلُ .
(٣) البيت لتميم بن المعزّ الفاطمي ، في ديوانه ١٤٤ .

مِنْها أَقَلُّ الأَجْزاءِ أَجْزا : [من الوافر]

تُـــرابُهُـــمُ وَحَـــقِّ أَبـــي تُـــرابٍ أَعَـــزُّ عَلَـــيَّ مـــن عَيْنـــي اليَميـــنِ

ويُنْهي بعدَ وَلاءٍ حَكَمَ بِتَصْديقِهِ لِما تَصَوَّرَهُ كُلُّ مَنْطِقِيٍّ ومِنْطِيقٍ ، ودَلَّ بالمُطابَقَةِ والتَّضَمُّنِ والالْتِزامِ على أَنَّهُ في الوَفاءِ عَريقٌ عَرِيٌّ من تَلَفِ التَّلْفيقِ ، وأَصْبَحَ وَحْدَهُ وَحَدُّهُ جامِعٌ مانِعٌ ، لأَنَّ جِنْسَهُ القَريبَ هو الإِخْلاصُ وفَصْلُهُ التَّحْقيقُ : [من الطويل]

عُـرِفْـتُ بِصِـدْقِ الـوُدِّ فيـكَ لأَنَّني رَفَعْـتُ بِـلا عَجْـزٍ لِـواءَ وَلائـي

ورَفعِ أَدْعِيَةٍ ما أَخَلَّ بِرَفْعِ فَرْضِها إِنْ بَعُدَ أَوْدَنا ، ولا أَخَذَها إِلاَّ من النَّابِغَةِ حيثُ قالَ : [من الطويل]

بَلَغْنـا السَّمـاءَ مَجْـدُنـا وجُـدودُنـا [وإِنَّـا لَنَرْجُـو فَـوقَ ذلـكَ مَظْهـرا]

ولا أَنْكَرَتْها مَلائِكَةُ القَبولِ إِلاَّ مَرَّةً ، ثمَّ اعْتَرَفَتْ فصارَتْ دَيْدَناً : [من الطويل]

إِذا رُفِعَتْ يَوْماً لِذِي العَرْشِ خَيَّمَتْ لِصِـدْقِ وَلائـي فيـكَ بَيْـنَ السُّـرادِقِ

وبَثِّ أَثْنِيَةٍ ما أَمْسَكَ المِسْكُ مَعها رَمَقَهُ ، ولا ثَبَتَ لَها البَدْرُ حتَّىٰ خُسِفَ لمَّا لَمَحَ مُحَيَّاها ورَمَقَهُ ، ولا طالَتْ دَهاليزُ الأَنْهار بينَ قُصورِ الرَّوْضِ إِلاَّ وأَنْفاسُ الأَزْهارِ مِنْها مُسْتَرَقَةٌ[١] : [من الكامل]

أُثْني عَلَيْكَ ولو تَشاءُ لَقُلْتَ لي : قَصَّـرْتَ فـالإِمْسـاكُ عَنِّـي نـائِـلُ

وُرودَ المِثالُ الذي ما لَهُ نَظيرٌ ولا مِثالٌ ، ولا جَوَّدَ ابنُ العَديمِ في الوُجودِ إِلاَّ على سُطورِهِ ، فإِنَّها لَهُ مِثالٌ ، ولا مَضىٰ لَهُ حُسْنٌ ، حَتَّىٰ تُدْخِلَ سينَ السُّرورِ على حالِهِ فَتُمَيِّزَهُ وتُخَلِّصَهُ للاسْتِقْبالِ ؛ ولا تَلَقَّاهُ شاكي سِلاحٍ من البَلاغَةِ إِلاَّ

(١) البيت للمتنبي ، في ديوانه ٣/ ٢٥٩ .

وراحَ كما قالَ امرؤُ القَيْسِ[1] : [من الطويل]

.... وليسَ بِذِي رُمْحٍ وليسَ بِنَبَّالِ

[من الوافر]

بِلا مِثْلٍ وإِنْ أَبْصَرْتَ فِيهِ لِكُلِّ مُغَيَّبٍ حَسَنٍ مِثالا[2]

كم أَهْدىٰ أَلْطافاً ، وَهَزَّ بالطَّرَبِ أَعْطافاً ، وجَعَلَ القُلُوبَ أَغْراضاً لِسِهامِ مَحاسِنِهِ وأَهْدافاً ، وَجَلَبَ الفَرَحَ ، [٨٥ أ] وَسَلَبَ التَّرَحَ ، فَأَخَذَ تاءً من الثّاني وأَهْدىٰ فاءً ، تَروقُ دُرَرُ أَصْدافِهِ ، وتَفوقُ دَرارِيُّ أَسْدافِهِ ، وكيفَ لا يَهولُ وكلُّ حَرْفٍ منهُ جاءَ لِمَعْنىً ؟ وكيفَ لا يَطولُ وكُلُّ لَفْظٍ منهُ قد اسْتَقَرَّ من البَديعِ بِمَغْنىً ؟ وكيفَ لا يُغْرِبُ والأَبْصارُ تُلْفَتُ إِليهِ بِأَعِنَّةِ الإِعْجابِ وتُثْنىٰ ؟ وكيفَ لا يَطربُ وما فيهِ سَطْرٌ واحِدٌ إِلاّ ويُسْمَعُ منهُ مَثْلَثٌ أَوْ مَثْنىٰ ؟ .

فما أَحْسَنَ ما نَظَمَ وما نَثَرَ ، وما أَجْوَدَ ما جرىٰ في مَيْدانِ الإِنْشاءِ ، وما غَبَّرَ لَمَّا عَبَرَ وما عَثَرَ ، وما أَعَفَّ كلامَهُ فإِنَّهُ لَمْ يَلْتَمِسْ مِن كلامِ غَيْرِهِ شَيْئاً ، وهو يَعْلَمُ « أَنْ لا قَطْعَ في ثَمَرٍ ولا كَثَرٍ » ، وما أَتْقَنَ ما رَتَّبَ وَرَتَّلَ لمَّا ساقَ المَثَلَ والشَّاهِدَ والأَثَرَ ، وما كلُّ مَن أَلْقىٰ القَلائِدَ نَظْماً[3] : [من البسيط]

مِنْ كُلِّ مَعْنىً يَكادُ المَيْتُ يَفْهَمُهُ حُسْناً ويَعْبُدُهُ القِرْطاسُ والقَلَمُ

فقالَ المَملوكُ : اللهُ أَكْبَرُ ، وهيَ لَفْظٌ لا يُقالُ إِلاّ في الصَّلاةِ أَو في الأَذانِ ، أَو عندَ عَجَبٍ ما لَهُ عن العَيْنِ حاجِبٌ ، أَو عندَ خَبَرٍ لا يَأْخُذُ إِذْناً على الآذانِ ، أَو عندَ خَطْبٍ يَطْرُقُ فَيُصْبِحُ مُلْتَثِمُ الحَصىٰ منهُ وهو شَذَّانُ .

وحُقَّ لي أَنْ أَقولَ : اللهُ أَكبر ؛ فإِنَّ هذا أَمْرٌ خَرَقَ العادَةَ ، واسْتَعْبَدَ

---

(١) ديوانه ٣٣ ، وصدره : وليس بذي رُمحٍ فيطعنني به × .
وفي أ : ولا بنبَّال ! .

(٢) البيت للمتنبي ، في ديوانه ٣/ ٢٢٦ .

(٣) البيت لأبي تمام ، في ديوانه ٤/ ٤٩٠ .

السَّادَةَ ، واسْتَقْرَبَ ما اسْتَبْعَدَ من مَدىٰ المادَّةِ ، وأَخْرَجَ الأُدباءَ عمَّا سَلَكُوهُ من الجادَّةِ ، وأَحْرَجَ الكُتَّابَ حتّىٰ كَلَّتْ ظُبىٰ أَقْلامِهِم الحادَّةُ .

ولقد عالَجْتَ ببَديعِهِ جِراحاتِ الفِراقِ ، فَإِنَّهُ لَها كالمَرْهَمِ ، وأَنِفْتُ لِعَجْزي أَنَفَةً جُبِلَ عليها جَبَلَةُ بنُ الأَيْهَمِ ، وأَفْلَسْتُ في جَوابي ، فلو وَجَدْتُ سَطْراً مِثْلَهُ يُباعُ ، كُنْتُ كما قالَ بعضُ العَرَبِ : اشْتَرَيْتُهُ بواللهِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ؛ لأَنَّهُ تَلَعَّبَ بي تَلَعُّبَ الأَفْعالِ بالأَسْماءِ ، والبَطَرِ بأَهْلِ الصِّحَّةِ والنَّعْماءِ ، وخَلَبَني سَجْعَ هذِهِ الحَمامَةِ ، وسَلَبَني زَهْرَ هذِهِ الكُمامَةِ ، وَغَلَبَني سُكْرَ هذِهِ المُدامَةِ[1] : [من الوافر]

ومَن حَكَّمْتَ كَأْسَكَ فيهِ فاحْكُمْ لَـهُ بـإِقـالَـةٍ عِنْـدَ العِثـارِ

وقد عَوَّلْتُ على الفِكْرِ في أَنْ يُلِمَّ شَعْثَ قَريحَتي ويَضُمَّ ، وقلتُ للقَلَمِ : هَلُمَّ إِلىٰ المُساعَدَةِ علىٰ هذا الجَوابِ ، فقالَ : لا أَهْلُمُّ[2] : [من الطويل]

وأَطْرَقَ إِطْراقَ الشُّجاعِ وَلَوْ رَأىٰ مَساغاً لِنابَيْهِ الشُّجاعُ لَصَمَّما

ولمَّا ثَقُلَ علىٰ رَأْسي هذا الجَبَلُ الرَّاسي ، ولم يُفِدْ فِيهِ إِيْناسي قَبْلَ إِبْساسي ، وأَفضَتْ بيَ الحالُ إِلىٰ نِسْيَانِ ما كُنْتُ أَعْلَمُهُ ، ولا غَرْوَ فقد قَرأَ سعيدُ ابن جُبَيْرٍ ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسِي﴾ [البقرة : ١٩٩] وقد قالَ أَبو الفَتْحِ البُسْتيّ[3] : [من البسيط]

. . . . واعْذُرْ فَأَوَّلُ ناسٍ أَوَّلُ النَّاسِ

رَجَعْتُ إِلى ما عِنْدي من فَوائِدِ مَولانا ، أَعَزَّ اللهُ نَوافِذَ أَحْكامِهِ ، وما زَيَّنْتُ بِزَهْرِهِ من مُروجِ تَعْليقي وآكامِهِ ، فلم أَدَعْ بُقْعَةً ، ولا سَبْسَباً إِلاَّ وأَثَّرْتُ فِيهِ

---

(١) من قصيدة للعطوي ، في زهر الآداب ٤٤٨ .

(٢) البيت للمتلمس ، في ديوانه ٣٤ وثمار القلوب ٢/ ٦٢٩ .

(٣) ديوانه ١١٠ . وصدره : نسيت عهدك والنِّسيانُ مُغتفرٌ .

أَثَراً ، وأَثَرتُ نَقْعَهُ ، ولَفَّقْتُ هذا الجَوابَ ، وهو كَمَنْ يُقالُ : من كُلِّ زُوْقٍ رُقْعَةٌ ، حتّىٰ شَمَلَتْني سَعادَتُكَ ، وَحَمَلَتْني بل جَمَّلَتْني إِفادَتُكَ : [من الكامل]

ما زالَ يُوقِنُ مَنْ يَؤُمُّكَ بالغِنىٰ وَسِواكَ مانِعُ فَضْلَهُ المُحْتاجَ

وقد أَثْبَتُ الحَصا عن المُرجانِ ، وضاقَ بي وادي الإِنْشاءِ كما اتَّسَعَ لِمولانا من نَظْمِهِ ونَثْرِهِ المَرْجانِ ؛ وأَمَّا بَيْتُ أَبي الحَسَنِ عليٍّ ، فإِنَّهُ أَحْكَمَ تَأْسيسَ بُنْيَتِهِ ، وَرَفَعَ بكمْ نُونَ قافِيَتِهِ ، وَحَرَّمَ سُكْناهُ على غَيْرِكُمْ ؛ ولو حَرَّكَ مَولانا نُونَ رَوِيِّهِ لَعامَ في بَحْرِ فَضْلِكُمْ ، وما كانَ اللهُ تَعالىٰ أَوْجَدَ هذا البَيْتَ إِلاَّ لهذا البَيْتِ ، ولِلدَّلالَةِ على فَضْلِ الحَيِّ منهُ والمَيْتِ : [من الطويل]

ولا كُلُّ زَنْدٍ يَزْدَهي بِسوارِهِ ولا كُلُّ فَرْقٍ لاقَ مِن فَوْقِهِ تاجُ

وأَمَّا قَولُ مَولانا : وما وما ، وما أَقولُ وكلُّ دمشقَ ما ؛ فهذِهِ نُكْتَةٌ يَأْخُذُ الفاضِلُ حُسْنَها مُبَرْهِناً والغَبِيُّ مُسَلِّماً ؛ وأَمَّا ما وَصَفَهُ من حالِ مِصْرَ المحروسَةِ عليهِ ، وإِقبالِها عليه[1] ، وإِذْلالِها لَدَيْهِ ، فَما يَقولُ المَملوكُ إِلاَّ : [من الطويل]

تَغايَرُ أَقْطارُ البِلادِ مَحَبَّةً عَلَيْكَ فَهذا القُطْرُ يَحْسُدُ ذا القُطْرا

لا بل يَقولُ : [من الطويل]

تَغايَرَتِ الأَقْطارُ فيكَ فَواحِدٌ لِفَقْدِكَ يَبْكي أَوْ لِقُرْبِكَ يَبْسُمُ
وَكُلُّ مَكانٍ أَنْتَ فِيهِ مُبارَكٌ وفي كُلِّ يَومٍ فِيهِ عِيْدٌ ومَوْسِمُ
ولا شَكَّ في أَنَّ الدِّيارَ كَأَهْلِها كما قيلَ تَشْقىٰ بالزَّمانِ وتَنْعَمُ

وَأَمَّا ما وَصَفَهُ من حالِ الحَسَدَةِ الباغينَ ، والمَرَدَةِ الطّاغينَ ؛ فقد رَدَّ اللهُ كَيْدَهُمْ في نَحْرِهِمْ ، وَزَخَرَ تَيّارُ مَولانا فَأَغْرَقَ وَشَلَ نَهْرِهِمْ : [من الطويل]

ولو عَلِمُوا ما يُعْقِبُ البَغْيُ قَصَّروا ولكنَّهم لم يُفْكُروا في العَواقِبِ

ولو لم يَكُنْ مَولانا في هذا الكَمالِ ما حُسِدَ علىٰ ما هوَ عليهِ من غَنائِمِ

---

(١) هما من م .

المَعالي ، ولا وَدَّتِ النُّفوسُ الظَّالِمَةُ أَنْ تُسْلُبَهُ ما وَهَبَهُ اللهُ وهو أَبْهىٰ وأَبْهَرُ من عُقودِ اللَّآلي ، ولا تَمالَؤوا على اهْتِضامِ قَدْرِهِ ، وَكَم هذا التَّمادي في التَّمالي[1] : [من البسيط]

إنَّ العَـرانيـنَ تَلْقـاهـا مُحَسَّـدَةً ولـم تَجِـدْ لِلِئـامِ النَّـاسِ حسَّـادا

فالحمدُ للهِ علىٰ النُّصْرَةِ ، وَضَعْفِ أَقْوالِ أَهْلِ الكُوفَةِ وتَرْجِيحِ أَقْوالِ أَهْلِ البَصْرَةِ ، وما يُغْلَقُ بابٌ إلاَّ ويُفْتَحُ دُونَهُ من الخَيْراتِ أَبْوابٌ ؛ وعلىٰ كُلِّ حالٍ أَبو نَصْرٍ أَبو نَصْرٍ ، وعَبْدُ الوَهّابِ عَبْدُ الوَهّابِ ، وما يَقولُ المَملوكُ في مَولانا إلاَّ كما قالَ الأَوَّلُ : [من الكامل]

مَـن بـالسِّنـانِ يَصُـولُ عِنْـدَ فِطـامِـهِ لَـمْ يَخْـشَ آخَـرَ بـالشِّنـانِ يُقَعْقِـعُ

وما بَقِيَ غيرُ الخُروجِ من هذا الجَوابِ وَثْباً ، وأَن يقولَ لِركابِهِ الشَّريفِ : أَهْلاً وسَهْلاً ورُحْبىٰ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

٥٣ * عليّ بن الحسين بن القاسم بن منصور بن عليّ[2] :

الشَّيخُ الإمامُ، العالِمُ العَلاَّمَةُ، المُفَنِّنُ، ذو الفَضائِلِ المُنَوَّعَةِ، زينُ الدِّين أَبو الحسن بن الشَّيخ جَمال الدِّين بن الشيخ شمسِ الدِّين ، المَوْصِليّ ،

(١) البيت للمغيرة بن حبناء في معجم الشعراء ٢٧٣ وربيع الأَبرار ٣/ ٥٧٧ وبهجة المجالس ١/ ٤١٥ والمستطرف ٢/ ٥٠ ـ ٥١ .
وهو لعمر بن لجأ في ديوانه ١٣٨ والحماسة البصرية ١/ ١٤٢ ووفيات الأَعيان ٦/ ٣٨٣ . وينسب لحاتم الطّائيّ في أَسرار الحكماء ١٣٦ وديوانه ٢٩٤ . واستشهد به سفيان بن معاوية المهلبي في عيون الأَخبار ٢/ ٩ .

(٢) ترجمته في : أَعيان العصر ٣/ ٣٣٥ والوافي بالوفيات ٢١/ ٥٢ وطبقات السُّبكيّ ١٠/ ١٣٦ ووفيات ابن رافع ١/ ٣٢٦ وتذكرة النبيه ٣/ ١٨٥ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٧٠ والدّرر الكامنة ٣/ ٤٣ والنجوم الزّاهرة ١٠/ ٩٧ والمنهل الصافي ٨/ ٦٥ والدليل الشافي ١/ ٤٥٤ والذيل التام ١/ ١٤٠ وبغية الوعاة ٢/ ١٦١ وشذرات الذهب ٨/ ٣٠٥ والبدر الطالع ١/ ٤٤٢ .
ـ مولده سنة ٦٨١ هـ . ووفاته سنة ٧٥٥ هـ .

الشّافعيّ ، ابن شَيْخِ العُوَيْنَةِ[١] .

● **كتبتُ إليهِ، وقد قَدِمَ إلى دمشقَ مُتَوَجِّهاً إلى الحِجازِ ، في سنة ٧٥٠[٢] :**

[من الطويل]

أَلا إِنَّمـا القُـرآنُ أَكْبَـرُ مُعْجِـزٍ ... لأَفْضَـلِ مَـنْ يُهْـدىٰ بِـهِ الثَّقَـلانِ
[٨٦أ] ومِن جُمْلَةِ الإِعْجازِ كَوْنُ اخْتِصارِهِ ... بِـإِيْجـازِ أَلْفـاظٍ وبَسْـطِ مَعـانِ
ولَكِنَّني في « الكهف » أَبْصَرْتُ آيَةً ... بها الفِكْرُ من طُولِ الزَّمانِ عَناني
وما ذاكَ إِلاَّ « اسْتَطْعَما أَهْلَها » فَقَدْ ... نَـرىٰ « اسْتَطْعمـاهُـمْ » مِثْلَـهُ بِبَيـانِ
فَما الحِكْمَةُ الغَرّاءُ في وَضْعِ ظاهِرٍ ... مَكـانَ ضَميـرٍ إِنَّ ذاكَ لِشـانِ

● **فكتبَ هو الجَوابَ عن ذلك[٢] :** [من الطويل]

سَأَلْتَ لِماذا « اسْتَطْعَما أَهْلَها » أَتىٰ ... عـن « اسْتَطْعَمـاهُـم » إِنَّ ذاكَ لِشانِ
وفيهِ اخْتِصـارٌ لَيْسَ ثَـمَّ ولـم تَقِفْ ... علـى سَبَبِ الـرُّجْحـانِ مُنْذُ زَمـانِ
فَهـاكَ جَـوابـاً رافِعـاً لِنِقـابِـهِ ... يَصيـرُ بِـهِ المَعْنىٰ كَـرَأْيِ عِيـانِ
إِذا ما اسْتَوىٰ الحالانِ في الحُكْمِ رُجِّحَ الضْـ ... ـضَميـرُ وأَمَّـا حِيـنَ يَخْتَلِفـانِ
بِأَنْ كانَ في التَّصْريحِ إِظْهارُ حِكْمَةٍ ... كَـرِفْعَـةِ شـانٍ أَوْ حَقـارَةِ جـانِ
كَمِثْلِ : أَميرُ المُـؤْمنيـنَ يَقـولُ ذا ... ومـا نَحْـنُ فيـهِ صَـرَّحُـوا بِـأَمـانِ
وهذا علىٰ الإِيْجازِ واللَّفْظِ جاءَ في ... جَـوابِـيَ مَنْثُـوراً بِحُسْـنِ بَيـانِ
فَلا تَمْتَحِنْ بالنَّظْمِ مِن بَعْدُ عالِماً ... فَلَيْـسَ لِكُـلٍّ بـالقَـريـضِ يَـدانِ
وقد قيلَ : إِنَّ الشِّعْرَ يُزْري بِهِمْ فَلا ... يَكـادُ يُـرىٰ مِـن سـابِـقٍ بِـرهـانِ

---

(١) انظر سبب تلقيب جدِّه الأعلى عليّ بشيخ العُوَيْنَة ، في الوافي ٢١/٥٣ .
(٢) الأبيات في أعيان العصر ، والوافي ٢١/٥٦ و٨٦ ، والدّرر الكامنة ، والأشباه والنظائر للسيوطي ٤/١٣٩ ؛ وستكرر في الترجمة ٥٦ .

ولا تَنْسَنـي عِنْـدَ الـدُّعـاءِ فَـإنَّنـي سَـأُبْـدي مَـزايـاكُـمْ بِكُـلِّ مَكـانِ
وأَسْتَغْفِـرُ اللهَ العَظيـمَ لِمـا طَغـىٰ بِـهِ قَلَمـي أَوْ طـالَ فيـه لِسـانـي

● وكَتَبَ بعدَ ذلكَ نَثْراً فيهِ طُولٌ ؛ وقد ذكرتُ ذلكَ كامِلاً في تَرْجَمَتِهِ ، في تاريخي الكَبيرِ « الوافي بالوفَيات »[1] .

٥٤ * عليُّ بن الحُسينِ [بن عليّ] بن أَبي بكر بن أَبي الخَيْرِ محمَّد[2] :

العَدْلُ الفاضِلُ ، المُحَدِّثُ ، الفَصِيحُ ، البارِعُ ، عِزُّ الدِّين ، أَبو الخَيْر ابن الشَّيْخِ بَهاءِ الدِّين ، المَوْصِلِيّ الحَنْبَلِيّ .

● كَتَبَ هو إِليَّ سُؤالاً[3] : [من السريع]

يـا أَيُّهـا الفـاضِـلُ أَوْضِـحْ لَنـا مُبْهَـمَ أَمْـرٍ لَـمْ يَبِـنْ حُكْمُـهُ
فـي رَجُـلٍ نِسْبَتُـهُ أَشْكَلَـتْ إِذْ كـانَ عَمِّـي وأَنـا عَمُّـهُ

● فكتبتُ أَنا الجَوابَ عن ذلك : [من السريع]

أُمٌّ أَبٍ زَوَّجَهـا مـن أَخٍ لأُمِّـهِ فـافْهَـمْ لِمَـنْ عَمَّـىٰ
فَـأَوْلَـدا بَيْنَهمـا واحِـداً عَمّـاً لِمَـنْ أَمْسـىٰ لَـهُ عَمّـا

● وكتبَ إِليَّ : [من البسيط]

أَبْشِرْ بِوَصْلٍ مِن المَحْبوبِ عن كَثَبِ يا قَلْبُ بالرَّغْمِ مِن ضِدٍّ ومُرْتَقِبِ
فَكَـمْ رَقيـبٍ ثَنـاهُ القُـرْبُ مُكْتَئِبـاً حَيْرانَ نَصْبَ عُيونِ الهَمِّ والنَّصَبِ

---

(١) وكذلك أَورده السيوطي في الأَشباه والنّظائر ٤/ ١٤٠ ـ ١٤٧ .
(٢) ترجمته في : تاريخ ابن قاضي شهبة ٣/ ٢٣٠ وإِنباء الغَمر ٢/ ٢٦٨ والدّرر الكامنة ٣/ ٤٣ والمنهل الصافي ٨/ ٦٣ والدليل الشافي ١/ ٤٥٣ .
ـ وفاته سنة ٧٨٩ هـ .
ـ في س : عليّ بن الحسين بن أَبي الخير موسى ! .
(٣) سقط البيتان وجوابهما من س .

خـابَـتْ مَسـاعِيْـهِ لمَّـا رامَ فُـرْقَتَنـا وأُنْجِحَتْ لي مَساعٍ قَطُّ لم تَخِبِ
مـن غـادَةٍ وَثَبـاتُ اللَّيْـثِ كـامِنَـةٌ في لَحْظِها بَيْنَ أَخْياسٍ من الهُدُبِ
ضَرْبٌ مِن السِّحْرِ يَجْرِي في لَواحِظِها يَحْمي لَمىً طَعْمُهُ أَحْلىٰ من الضَّرَبِ
أَجْرىٰ سَحائِبَ دَمْعي بَرْقُ مَبْسَمِها غَلِطْتُ ما البَرْقُ يَحْكي لَمْعَةَ الشَّنَبِ
وبَـدْرُ تِـمٍّ إذا مـا لاحَ فـي صَعَـدٍ وَلَّىٰ وأَدْبَرَ صَبْري عَنْهُ في صَبَبِ
في الطَّرْفِ مِنْهُ شَبا هِنْدِيَّةٍ قُضُبٍ والقَـدُّ لِيْـنُ قَنـاً خَطِّيَّـةٍ سُلُـبِ
لمَّـا تَسَبَّـبَ فـي قَتْلـي أَراقَ دَمـي يـا وَيْـحَ قَلْبي بِـلا ذَنْـبٍ ولا سَبَبِ
يَظَـلُّ نـاظِـرُهُ مِـن سِحْـرِ نـاظِـرِهِ مـا بَيْـنَ مُبْتَهِـجٍ مِنْـهُ ومُكْتَئِـبِ
لَـمْ أَنْسَـهُ إذْ بَـدا كـالبَـدْرِ طَلْعَتُـهُ في لَيْلِ شَعْرٍ فَوَلَّىٰ البَدْرُ في هَرَبِ(١)
يَجْلو علىٰ النُّدَماءِ الزُّهْرَ في فَلَكٍ قَد صِيْغَ من فِضَّةٍ شَمْساً من الذَّهَبِ
فَهْـيَ العَـروسُ أَتَتْنـا وَهْـيَ لابِسَـةٌ ثَوْبَيْنِ ضِدَّيْنِ من ماءٍ ومن لَهَبِ
فاسْتَجْلِ واشْرَبْ على وَجْهِ الرَّبيعِ فكَمْ [٨٦ب] في وَجْهِهِ إذْ بَدا مِن مَنْظَرٍ عَجَبِ
فالرَّوْضُ يَضْحَكُ بالأَزْهارِ مُبْتَهِجاً لَمَّا بَكاهُ الحَيا من طَرْفِ مُنْتَحِبِ
لكِـنْ شَقـائِقُـهُ شَقَّـتْ مَـلابِسَهـا أَيْدي نَسيمِ الصَّبا في مَأْتَمِ السُّحُبِ
وتَحْـتَ أَسْتـارِ أَوْراقِ الغُصـونِ قِيـا نُ الوُرْقِ شَنَّفَتِ الأَسْماعَ بالطَّرَبِ
كَـأَنَّ فـي كُـلِّ عُـودٍ عُـودَ غـانِيَـةٍ تُجيدُ ضَرْباً ولم تَبْرُزْ من الحُجُبِ
والحِبُّ من سُكْرِهِ قد باتَ يُرْشِفُني مِن رِيْقِهِ العَذْبِ ما يَجْلو صَدا كُرَبي
تَعِبْتُ حتَّىٰ بَلَغْتُ الوَصْلَ مِنْهُ وَما يَجْني الفَتـىٰ راحَـةً إلاَّ مـنَ التَّعَـبِ
ومـا خَلِـيٌّ يَنـامُ اللَّيْـلَ مِثْـلَ فَتـىً يُسَيِّـرُ العَـزْمَ بَيْـنَ الحَـزْمِ والـدَّأْبِ
مِثْـلَ الإمـامِ صَلاحِ الـدِّيْـنِ سَيِّـدِنـا بَحْـرِ العُلـومِ إمـامِ العُجْـمِ والعَـرَبِ
فَشَـأْنُـهُ دَأَبٌ مـا شـانَـهُ مَلَـلٌ والجِدُّ في الجِدِّ غَيْرِ اللَّهْوِ واللَّعِبِ

---

(١) في ب: × . . . . في حرب .

مَلِيْكُ عِلْمٍ بَدا بالجُودِ طالِبُهُ فَقاصِدُ الفَضْلِ مِنْهُ قَطُّ لم يَخِبِ
وجَأْشُهُ جَيْشُهُ والرَّأْيُ رايَتُهُ وفِكْرُهُ النَّبْلُ إنْ يَرْمِي بِهِ يُصِبِ
وما صَفائِحُهُ إلاَّ صَحائِفُهُ فيها اليَراعُ يَنُوبُ السُّمْرَ في النُّوَبِ
مَواهِبُ العِلْمِ والإحْسانِ لي كَثُرَتْ مِنْهُ فَرَوَّتْ ثرىً من رَبْعِيَ الجَدِبِ
مَكارِمٌ قد هَمَتْ كابْنِ الغَمامَةِ مع فَوائِدٍ بِمَعانٍ كابْنَةِ العِنَبِ
يا ذا الرَّفِيْعَيْنِ مِنْ قَدْرٍ ومِن هِمَمٍ يا ذا البَديعينِ من خَطٍّ ومن أَدَبِ
يا ذا المَليحينِ من خَلْقٍ ومن خُلُقٍ يا ذا الرَّجيحينِ من عَقْلٍ ومن أَدَبِ
وُدِّي لَكُمْ جَوْهَرٌ حاشاهُ من عَرَضٍ فَكيفَ عَدَّتْهُ أَعْدائي بِمُخْشَلَبِ
اسْتَجْلِ واسْتَحْلِ مِن مَدْحي مُنَقَّحَةً طابَتْ وطالَتْ ولولا أَنْتَ لم تَطِبِ
وطائِرُ اليُمْنِ في مَدْحي ولَيْسَ لَهُ نَقْدٌ ونَقْرٌ كَمَنْسُوبٍ بِلا نَسَبِ
وما انْتَحَلْتُ كَلامَ النَّاسِ أَسْرِقُهُ كَمِثْلِ ذي أَدَبٍ عارٍ من الأَدَبِ
المَغْرِبيُّ لَدَيْهِ العَقْلُ أَغْرَبُ مِن عَنْقاءِ مُغْرِبَ لم تُوجَدْ ولم تُصَبِ
نَذْلٍ دَنِيءٍ لَئِيمِ الطَّبْعِ ذِي سَفَهٍ لِلْقَوْلِ مُغْتَصِبٍ بِالجَهْلِ مُعْتَصِبِ
الصِّدْقُ مَدْحي ولكنْ قَوْلُهُ كَذِبٌ والفَخْرُ بالصِّدْقِ لَيْسَ الفَخْرُ بالكَذِبِ
مَولايَ رامَ بِعادي عن جَنابِكُمُ فلَمْ يَنَلْ قَطُّ تَنفيساً من الكُرَبِ
وكانَ سَيْرِيَ سَيْراً غَيْرَ مُنْعَكِسٍ وكانَ بُرْجِيَ بُرْجاً غَيْرَ مُنْقَلِبِ
رَأَفْتَ بي ثُمَّ قَد أَوْلَيْتَني نِعَماً أَفْديكَ يا مالِكي مِن مُشْفِقٍ حَدِبِ
فَظِلُّنا بِكَ ظِلٌّ غَيْرُ مُنْتَقِلٍ وَوِرْدُنا مِنْكَ وِرْدٌ غَيْرُ مُؤْتَشِبِ
تَهَنَّ يا مَولايَ بالشَّهْرِ العَظيمِ وبالْـ أَجْرِ العَميمِ وَدُمْ في أَشْرَفِ الرُّتَبِ
واسْعَدْ بِإتْيانِ شَهْرٍ أَنْتَ صائِمُهُ في نِعْمَةٍ في مَدىٰ الأَيَّامِ والحِقَبِ

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إليهِ عن ذلكَ ارْتِجالاً :** [من البسيط]

أَهَذِهِ دَوْحَةٌ مَيَّاسَةُ القُضُبِ أَمْ ثَغْرُ كَأْسٍ تَبَدَّىٰ باسِمَ الحَبَبِ

أَمْ خَـدُّ أَغْيَـدَ قَـد وَشَّـاهُ سـالِفُـهُ فَـلاقَ عَنْبَـرَهُ فـي سـاطِـعِ اللَّهَـبِ
أَمِ السَّمـاءُ كَسـاهـا اللَّيْـلُ حُلَّتَـهُ وَزَيَّنَتْهـا يَـدُ الإِمْسـاءِ بـالشُّهُـبِ
أَمْ عِقْدُ دُرٍّ نَفِيْسٍ قد خُصِصْتُ بِهِ مـن شـاعِـرٍ نَظْمُـهُ يَنْهَـلُّ كـالسُّحُـبِ
رَوىٰ الحَدِيْثَ فَرَوَّىٰ أَنْفُساً ظَمِئَتْ لِصِدْقِ لَفْظٍ خَلا من بِدْعَةِ الكَذِبِ
إِنْ قـالَ حَـدَّثَنـا أَو قـالَ خَبَّـرَنـا فـاسْمَـعْ حَـديثاً تَلَقَّـاهُ مِـنَ النُّخَـبِ
إِيْـرادُ ذي مَنْطِـقٍ جَـزْلٍ فَصـاحَتُـهُ
تَسْمُو على مَنْ سَما في الشِّعْرِ والخُطَبِ(١)
لـو كـانَ قـابَلَـهُ فـي ذلـكَ ابـنُ عَسـا [٨٧ أ] كِرَ لَما كانَ نَجّاهُ سِوىٰ الهَرَبِ
أَوْ جـازَ فـي أُذُنِ الجَـوْزِيِّ مَنْطِقُـهُ لَمـا رَأَيْنـا لَـهُ لُبَّـاً مـن الـرَّهَـبِ
أَهْدَيْـتَ نَحْـويَ عِـزَّ الـدِّيْـنِ غـانِيَـةً مِن نَظْمِكَ المُنْتَقىٰ مَعْسُولَةَ الشَّنَبِ
يـاتَـتْ تُغـازِلُنـي أَلْحـاظُ أَسْطُـرِهـا فَـأَسْكَـرَتْني ولا سُكْـرَ ابْنَـةِ العِنَـبِ
فَهِمْـتُ مِنْهـا مَعـانيهـا فَهِمْـتُ بهـا ومالَ عِطْفي بِها مِن شِدَّةِ الطَّرَبِ
أَنْزَلْتَني فَوْقَ مِقْداري بِمَدْحِكَ لي ولَسْتُ مِمَّن عَلا في شامِخِ الرُّتَبِ
فـإِنَّ فَقْـرِيَ بـادٍ لا خَفـاءَ بِـهِ ولَيْـسَ عِنْـدِيَ إِلاَّ قِلَّـةُ الأَدَبِ
وَأَنْتَ مِمَّنْ سَمَتْ في الفَضْلِ هِمَّتُهُ وجـاءَنـا بِبَيـانٍ بَيِّـنِ العَجَـبِ
وطـارَ كُـلَّ مَطـارٍ فـي حُصـولِ مَعـا نِيْـهِ ولَـمْ يَـكُ فيهـا قـاصِـرَ السَّبَبِ
فَما نَرىٰ حَجَلاً إِلاَّ اكْتَسَىٰ خَجَلاً كَـذا العُقـابُ رَأَيْنـاهـا بِـلا عَقِـبِ
وقَصَّـرَ الصَّقْـرُ عـن شَـأْوٍ تُحـاوِلُـهُ ولو عَلا الجَوَّ لاصْطَدْناهُ بالخَرَبِ(٢)
ومـا أَغَـرْتَ على أَلْفـاظِ غَيْـرِكَ فـي شَـيْءٍ تُحـاوِلُـهُ يـا طَيِّـبَ الحَسَـبِ
ولَـم تَخُـنْ لِخَليْـلٍ قَـد صَفـا ونَفـىٰ عَنْهُ الأَذىٰ والقَذىٰ من سالِفِ الحِقَبِ

---

(١) سقط البيت من ب .
(٢) الخرب : ذكر الحبارىٰ .

كـذا يَكـونُ الكِـرامُ الطَّيِّبُـونَ إِذا ما عامَلوا النَّاسَ في جِدٍّ وفي لَعِبِ
فاعْذُرْ إِذا شابَ هذا النَّظْمَ هَلْهَلَةٌ ولـم تَجِدْ بَيْتَهُ مُسْتَوْثِقَ الطُّنُبِ[1]
واصْفَحْ فَما هيَ إِلاَّ بِنْتَ ساعَتِها بِـلا مُسَـوَّدَةٍ واُغْفِـرْ ولا تَعِـبِ

● وكتبَ هو إليَّ مُلْغِزاً :

يا إِماماً شاعَ ذِكْرُهُ، وطابَ نَشْرُهُ، فَطَيَّبَ الوُجودَ وعَطَّرَ، وفاضِلاً بَيْنَ كُلِّ مُعَميً ومُتَرْجِمٍ، وأَرَّخَ وتَرْجَمَ، وعَمَّنْ غَبَرَ عَبَّرَ، وكَتَبَ فَكَبَتَ الأَعادي، وكَبَتْ من دُونِ خَطِّهِ وحَظِّهِ فُرْسانُ الأَذْهانِ والأَيادي، فَتَخَطَّىٰ قَوامُ قَلَمِهِ وتَخَطَّرَ[2] : [من الطويل]

إِذا أَخَـذَ القِـرْطـاسَ خِلْـتَ يَمِيْنَـهُ تُفَتِّـحُ نَـوْراً أَو تُنَظِّـمُ جَـوْهَـرا

ما اسْمُ ثُلاثيُّ الحُروفِ ، وهو بَعْضُ الظُّروفِ ، ماضٍ إِنْ تُصَحِّفْهُ عادَ فِعْلَ أَمْرٍ ، وإِنْ ضَمَمْتَ أَوَّلَهُ صارَ مُضارِعاً ؛ فاعْجَبْ لِهذا الأَمْرِ ؛ إِنْ أَرَدْتَ تَعْريفَهُ بِأَل تَنَكَّرَ ، أَو تَغَيَّرَتْ عليهِ العَوامِلُ فَهو لا يَتَغَيَّرُ ، كلَّ يومٍ يَزيدُ في بُعْدِهِ ، ولا تَقْدِرُ على رَدِّهِ ، إِنْ نَزَعْتَ قَلْبَهُ بَعْدَ قَلْبِهِ فَهو في لُعْبَةِ النَّرْدِ مَوجودٌ ، وقَلْبُهُ « سَما » فَلا تَنالُهُ الأَحْزابُ والجُنودُ ، وكلُّ ما في الوُجودِ إِلى حالِهِ يَعودُ ، بِهِ يُضْرَبُ المَثَلُ ، ومنهُ انْقَطَعَ الأَمَلُ ، ثُلُثاهُ حَرْفُ اسْتِفْهامٍ ، وإِنْ تَعْكِسْ يَطَّرِدْ ذَلكَ النِّظامُ ، وثُلُثُهُ الأَوَّلُ كَذلكَ ، وعَكسُ ثُلُثَيْهِ يَتْرُكُ الحَيَّ هالِكاً في الهَوالِكِ ، لا يُوصَفُ إِلاَّ بالذَّهابِ ، وليسَ لهُ إِلى هذا الوُجودِ إِيابٌ ، وهو ثَلاثَةٌ وعَدَدُهُ فوقَ المِئَةِ[3] ، وكم رَحَلَ بِفِئَةٍ بعدَ فِئَةٍ ، وُجِدَ وليسَ في الوُجودِ ، بُنِيَ وفيهِ « أُسٌّ » ولكنْ لا في السَّماءِ ولا في الأَرْضِ ولا في هُبوطٍ ولا في

(١) في س : . . . . إذا شاب نَسْجَ النَّظم . . . × .
(٢) البيت لابن المعتزّ ، في ديوانه ١/٤٧٩ وأدب الكتاب للصولي ٨٥ .
(٣) كلمة « أمس » بحساب الجُمَّل (١٠١) . الألف = ١ . والميم = ٤٠ . والسين = ٦٠ .

صُعودٍ ، طَرَفاهُ اسْمٌ لبعضِ الرَّياحينِ المُعَطَّرَةِ[1] ، وَكُلُّهُ جُزْءٌ من الياسَمين لِمَنِ اعْتَبَرَهُ ، مَكْسُورٌ لا يُجْبَرُ ، وغائِبٌ لا يُسْتَحْضَرُ ، أَقْرَبُ من رُجوعِهِ مَنالُ مَعْكوسِهِ ، يُدْرِكُهُ العاقِلُ بِفِكْرِهِ وليسَ من مَحْسوسِهِ ؛ أَبِنْهُ لا زِلْتَ تُزيلُ الإِشْكالَ ، وتُزينُ الأَضْرابَ والأَشْكالَ : [من السريع]

[٧٨ ب] يا مَلِكَ العِلْمِ ويا مَنْ غَدا ... خادِمَهُ في الدَّهْرِ سَعْدُ السُّعودْ
صَريفُ أَقلامِكَ يا سَيِّدي ... يُخْشَىٰ كما يُخْشَىٰ زَئيرُ الأُسودْ[2]
وَخَفْقُ قِرْطاسِكَ مِن تَحْتِها ... كَأَنَّهُ في الوَقْعِ خَفْقُ البُنودْ[3]
ورَأْيُكَ الرَّاياتُ والجَأْشُ جَيْـ ... ـشٌ لا يُلاقىٰ والعُلومُ الجُنودْ
لا زِلْتَ في عِزٍّ وفي نِعْمَةٍ ... تَسُرُّ خِلاًّ وتَسوءُ الحَسودْ

● **فكتبتُ أنا الجَوابَ إليهِ ، وهو في « أَمس »** : [من السريع]

يا فاضِلاً أَقْلامُهُ لَمْ تَزَلْ ... تَحوكُ ما يَكْتُبُهُ كالبُرودْ
وناظِماً إنْ قالَ شِعْراً فَقَدْ ... أَزرَتْ قَوافيهِ بِدُرِّ العُقودْ[4]
ومَن إذا أَلْغَزَ شَيْئاً فَقَدْ ... أَنْجَزَ في الإِبْداعِ مِنْهُ الوُعودْ
ومَنْ لَهُ كالماءِ في رِقَّةٍ ... ذِهْنٌ رَمىٰ جَمْرَ الغَضا بالخُمودْ
بِقَدْرِ ما عِنْدَكَ من خاطِرٍ ... مُتَّقِدٍ أَصْبَحَ عِنْدي جُمودْ

وَقَفَ المَملوكُ على هذا اللُّغْزِ الذي أَبْدَعْتَهُ ، وفَهِمَ بِسَعْدِكَ السِّرَّ الذي أَوْدَعْتَهُ ، فَوَجَدْتُهُ ظَرْفاً مَلأْتَهُ مِنْكَ ظَرْفاً ، واسْماً بُنِيَ لَمَّا أَشْبَهَ حَرْفاً ، ثُلاثيُّ الحُروفِ ، ثُلُثُ ما انْقَسَمَ إليهِ الزَّمانُ من الظُّروفِ ؛ إنْ قَلَبْتَهُ « سَما » ، وَأَراكَ

---

(١) آس .
(٢) في هامش م : ط : صرير .
(٣) سقط البيت من م .
(٤) سقط عجز هذا البيت مع صدر ما يليه ، فتلفَّق ما بقي منهما .

حَرْفَ تَنْفيسٍ ، وما بَقِيَ منه « ما » ؛ ثُلُثاهُ « مَسٌّ » ، وكُلُّهُ بالتَّحْريفِ « أَمْسِ » ، وهو بِلا أَوَّلٍ تَصحيفُهُ « مُبَيَّنٌ » ، وفي عَكْسِهِ « سُمٌّ » تَعَيَّنَ ، الْتَقىٰ فيهِ ساكِنانِ فَبُنِيَ على الكَسْرِ ، وَوَقَعَ بذلكَ في الأَسْرِ ، لا يَتَصَرَّفُ بالإِعْرابِ ، ولا يَدْخُلُهُ تَنْوينٌ في لِسانِ الأَعْرابِ ، يَبْعُدُ من كُلِّ إِنْسانٍ ، ويَنْطِقُ بِهِ ومَا تَحَرَّكَ فيهِ لِسانٌ ، لا يُدْرَكُ باللَّمْسِ ، ولا يُرىٰ وفيهِ ثُلُثا « شَمْسٍ » ، تَتَغَيَّرُ صِيغَتُهُ حالَةَ النِّسْبَةِ إِليهِ ، ويَدْخُلُهُ التَّنوينُ إِذا طَرَأَ التَّنْكِيرُ عليهِ ، مَتىٰ باتَ فاتَ ، ولم يَعُدْ لَهُ إِلَيْكَ الْتِفاتٌ(١) : [من السريع]

أَمْسِ علىٰ ما كانَ مِنْ قُرْبِهِ يَعْجِزُ كُلُّ النَّاسِ عَنْ رَدِّهْ

فَماضِيْهِ ما يُرَدُّ ، وثانيهِ ما يُصَدُّ ، وطَريقُ ثالِثِهِ ما يُسَدُّ(٢) : [من الطويل]

ثَلاثَةُ أَيّامٍ هِيَ الدَّهْرُ كُلُّهُ وما هِيَ غَيْرَ الأَمْسِ واليَوْمِ والغَدِ

قَدِ اسْتَوْعَبَ مَولانا أَوْصافَهُ ، وضَمَّ إِلى دائِرَةِ الحُسْنِ أَطْرافَهُ ، فَما تَرَكَ فيهِ بَعْدَهُ فُضْلَةً تُلْتَقَطُ ، ولا مُعْجَماً يُهْمَلُ أَو يُنْقَطُ ، فلذلكَ لم يَتَمَكَّنِ المَملوكُ فيهِ من العَمَلِ ، ولم يَبْلُغْ من الإِبْداعِ فيهِ نِهايَةَ أَمَلٍ ، وخَبَطَ في هذا الجَوابِ خَبْطَ العَشْواءِ ، فاخْتَلَطَ المَرْعِيُّ بالهَمَلِ ، وقالَ : هذا يَوْمُ صِفِّينَ مع عَلِيٍّ أَو يَوْمُ الجَمَلِ ؟ واللهُ يُمْتِعُ الوُجودَ بهذِهِ الفَوائِدِ العِزِّيَّةِ ، والمَحاسِنِ التي لا تُنْشَرُ مَعَها المَطاوي البِزِّيَّةُ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ، إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ(٣) .

● **وكتبَ هو إِليَّ مُلْغِزاً** : [من المجتث]

يا فاضِلاً ذا عُلومٍ سَمَتْ بِذِهْنٍ شَريفِ
ما اسْمٌ لِشَيْءٍ لَطِيفٍ يَأْتي بِمَعْنىً مُنيفِ

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري ، في شروح سقط الزند ٣/١٠١٦ .
(٢) البيت لأبي العلاء المعري ، في شروح سقط الزند ١/ ٣٥٠ .
(٣) وسقط ما بعد ذلك من س إلى نهاية الترجمة .

مُـــــدَوَّرُ الشَّكْـــــلِ لَكِـــــنْ لَـــــه ثَـــــلاثُ حُـــــروفِ
يَسيـــــرُ طَـــــوْراً بِخَيْـــــرٍ وتـــــارَةً بِحُتـــــوفِ

أَصَمُّ يُصْغي إِلى النَّجْوىٰ ، أَخْرَسُ يُفْصِحُ بالدَّعْوىٰ ، لَهُ لِسانانِ وعَيْنٌ واحِدَةٌ ، وقامَةٌ تَراها عِنْدَ إِسْداءِ المَعرُوفِ مائِدَةٌ ، يَسْجُدُ عندَ سَماعِ الآياتِ ، ويَجْري ولَيْسَ لَهُ رِجْلانِ إِلى الغاياتِ : [من المجتث]

[٨٨ أ] إِذا عَـــلا صَحْـــنَ خَـــدٍّ حَـــلاَّهُ بِـــالتَّحْـــريـــفِ
وإِنْ مَشـــىٰ وَهْـــوَ حـــافٍ سَمِعْـــتَ حُسْـــنَ الصَّـــريـــفِ
وكَـــمْ لَـــهُ مِـــن أَيـــادٍ تُطيـــعُ أَمْـــرَ الكُفـــوفِ
إِنْ ســـاقَ قَـــوْلاً ثَقيـــلاً أَتـــىٰ بِمَعْنـــىً خَفيـــفِ

كَبيرُ القَدْرِ ، صَغيرُ الجِرْمِ ، يُقْطَعُ لِسانُهُ وما أَتىٰ بِجُرْمٍ ، يُحْيي الآمالَ بِيَدٍ ويَقْتُلُ بالأُخْرىٰ ولا يَدي ، وإِذا انْعَكَسَ جَفَّتْ أَعاليهِ وأَسْفَلُهُ نَدي(١) ، شَجَرَةٌ ثَمَرُها يُخْجِلُ اللُّؤْلُؤَ والمَرْجانَ ، غُصْنٌ فَيْنانٌ ، يَميسُ من رِياضِ المَعاني في بُسْتانٍ ، يَسْكُنُ إِلى الرَّاحَةِ فَيُتْعِبُها ويَتْعَبُ ، ويُقْطَعُ إِذْ بِرَأْسِهِ يَلْعَبُ ، كم أَثارَ حَرْباً عَوان ، وَنَفَثَ من عَقْدِهِ سِحْراً جَهِدَتْ مِنْهُ الفُرْسانُ : [من المجتث]

سَهْـــمٌ ويَـــرْمـــي سِهـــامـــاً تُعَـــدُّ فَـــوْقَ الأُلـــوفِ
وافٍ بِكُـــلِّ خَليـــلٍ نـــاسٍ لِكُـــلِّ أَلـــوفِ
فَلَـــمْ تُصَحِّفْـــهُ إِلاَّ رَأَيْـــتَ عِلْـــمَ اللَّطيـــفِ
أَبِنْـــهُ بِـــالقُـــرْبِ مِنْـــهُ وَجُـــدْ بِلَفْـــظٍ ظَـــريـــفِ

في قَلْبِهِ عن التَّوَدُّدِ والانْطِباعِ أَسْفارٌ ، ومِياهٌ تَعْكِفُ عَليها الأَطْيارُ ، إِنْ

---

(١) من قول النابغة الذُّبياني : [ديوانه ٣٧]
كـــالأُقحـــوانِ غـــداةَ غِـــبِّ سَمـــائِـــهِ جفَّـــت أَعـــاليـــهِ وأَسفلُـــه نـــدي

عَصىٰ على غَيْرِكَ أَجابَكَ أَنّى تَدْعُوهُ ، وهو بينَ يَديكَ كالمِقْياسِ يُفَرِّحُ قَلْبَ مَن يَرْجُوهُ ، وكيفَ لا وأَصابعُ البَحْرِ الحُلْوِ تَعْلوهُ ؛ واللهُ يَكْشِفُ بِعِلْمِ مَولانا عَنّا من الجَهْلِ غُمَم ، ويُديمُهُ لِخَدَمِهِ ما جَرىٰ في لَوْحٍ قَلَمٌ ؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ عنهُ ارْتِجالاً ، وهو في « قلم »** : [من المجتث]

يـــا مَـــنْ يَحُـــلُّ المُعَمَّـــىٰ مِنْـــــهُ بِـــــذَوْقٍ لَطيــــفِ
ومَـــنْ تَحُـــلُّ المَعـــانـــي مِنْـــــهُ بِطَـــوْدٍ مُنيــــفِ
ومَــــن إِذا قـــالَ لُغْـــزاً أَتـــىٰ بِشَـــيْءٍ ظَـــريـــفِ
دانٍ إِلـــــىٰ كُـــــلِّ فَهْـــمٍ علـــىٰ القُلـــوبِ خَفيـــفِ

يا مَولانا ، هذا الذي قَصَدْتَ إِلْغازَهُ ، وعَوَّضْتَ عن الحَقيقَةِ مَجازَهُ ، يَسْجُدُ لِبارِيْهِ ، ويَتْعَبُ إِذا كانَ في كَفِّ المَولىٰ مَن يُجارِيهِ ، يُتَرْجِمُ عن ضَميرِ الفُؤادِ ، ويَزينُ البَياضَ بِالسَّوادِ ، يَسْعىٰ علىٰ أُمِّ رَأْسِهِ ، ويَروضُ الطُّروسَ فَيَضِلُّ مَن شَبَّهَ الزَّهْرَ بِأَنْفاسِهِ ، قد أَقْسَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ في الكِتابِ ، وَجَعَلَهُ في البَنانِ نائِباً عن البَيانِ في الخِطابِ : [من المجتث]

كَـــمْ قَـــدْ أَتـــاحَ فُتـــوحـــاً وكَـــــمْ أَتـــىٰ بِحُتـــــوفِ
ولَيْـــسَ يَطْعَـــنُ يَـــوْمـــاً سِنـــانُـــهُ فـــي الصُّفـــوفِ
وكَـــمْ أَبـــاحَ العَطـــايـــا فـــي تـــالِـــدٍ وطَـــريـــفِ
إِذا طَفـــا الجُـــودُ مِنْـــهُ لَـــم يَقْتَنِـــعْ بِـــالطَّفيْـــفِ

أُحاشيكَ من قَلْبِهِ ، وَقَلْبُ بَعْضِهِ من الغَواني تَحَكُّمٌ على القَلْبِ بِسَلْبِهِ ، إِنْ حَذَفْتَ أُولاهُ كانَ حَرْفَ سَلْبٍ ، وإِنْ طَرَحْتَ ثِنْياهُ كانَ أَمْراً من الوَثْبِ ، وإِنْ نَقَصْتَ أُخْراهُ كانَ أَوَّلَ سُورَةِ الإِخْلاصِ ، وإِنْ حَذَفْتَ من إِعْجامِهِ نُقْطَةً في هذِهِ

الحالَةِ فهو كِنايَةٌ في النَّاسِ عن بَعْضِ الأَشْخاصِ[1] : [من المجتث]

قِـــوامُ كُـــلِّ وَزِيـــرٍ ... وَزَيْـــنُ كُـــلِّ شَـــرِيـــفِ
لَـــم يَنْفَـــعِ المَـــرْءَ حَتّـ ... ـتَـــىٰ يُعِيْنَـــهُ بِـــرَدِيـــفِ
لأَنَّـــهُ مَـــعْ سَطـــاهُ ... تَلْقـــاهُ جِـــدَّ ضَعيـــفِ
لكِـــنْ يَـــرُدُّ الـــرَّزايـــا ... مِنْـــهُ بِـــرَأْيٍ حَصيـــفِ

[٨٨ ب] فيـهِ المُنىٰ والمَنونُ ، وآخِرُ وَسَطِـهِ آخِرُهُ[2] ؛ فـاعْجَبْ لِسِرِّهِ المَكْنونِ ، يُلازِمُ الأَسْفارَ وَهو مُقيمٌ ، ويَدْفَعُ المُعْضِلاتِ وهو سَقيمٌ ؛ فَسُبْحانَ مَن سَخَّرَهُ لِلْمَوْلَىٰ يُديرُهُ كيفَ يَشاءُ ، ويُصَرِّفُهُ في فُنونِ الإِنْشاءِ ، لا زالَ البَيانُ طَوْعَ بَنانِهِ ، وَنَفَثاتِ فيهِ ولِسانِهِ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ .

● ([3]) وكتبَ هو إِليَّ من حلب المحروسة : [من السريع]

تَعَطَّـري يـا نَسَمـاتِ الـرِّيـاحْ ... بِنَفْحَـةِ الـزَّهْـرِ إِذا الـزَّهْـرُ فـاحْ
وكُلَّمـا اسْتَعْبَـرَ دَمْـعُ الحَيـا ... فَـرَقْـرِقِيْـهِ فـي خُـدودِ البِطـاحْ
ورَنِّحـي أَعْطـافَ غُصْـنِ النَّقـا ... إِذا تَغَنَّـتْ فِيـهِ ذاتُ الجَنـاحْ
ونَشِّـري مِـنْ طَـيِّ أَوْراقِـهِ ... أُزْراً علـى مِثْـلِ قُـدودِ المِـلاحْ
ونَثِّـري مِـنْ نَظْـمِ أَزْهـارِهِ ... دُرّاً بِـهِ تُـزْهـىٰ عُقـودُ الـرَّواحْ
وصـافِحِـي النَّرْجِسَ فـي مَرْجِهـا ... وغـازِلـي تِلْـكَ العُيـونَ الـوقـاحْ
وَذَكِّـرينـا بِـزَمـانٍ مَضـىٰ ... بالأُنْسِ مع تلكَ الوُجوهِ الصِّباحْ
وَخَبِّـرِي المُشْتـاقَ عنهـمْ فَفـي ... ذِكْـراهُـمُ لِلْقَلْـبِ أَيُّ انْشِـراحْ
يـا وَيْـحَ صَـبٍّ عَنْهُـمُ مـالَـهُ ... إِنْ بَـرَّحَ الشَّـوْقُ بِـهِ مِـن بَـراحْ

---

(١) فل = فلان .
(٢) وسطه « لام » آخره ميم . وهو آخر « قلم » .
(٣) من هنا إلى نهاية الترجمة ، من ب فقط .

إنْ فَسَدَتْ بالبَيْنِ أَحْوالُهُ ... ففي صَلاحِ الدِّيْنِ يَرْجُو الصَّلاحْ
الفاضِلُ الحَبْرُ الكَريمُ الذي ... زانَتْ عَطاياهُ سَماءَ السَّماحْ
وهوَ الذي إن رَقَّمَتْ كَفُّهُ ... طِرْساً فقد حَلَّ الدُّجىٰ في الصَّباحْ
وهو الذي أَعْطافُ أَشْعارِهِ ... تَوَشَّحَتْ بالدُّرِّ أَيَّ اتِّشاحْ
وهو الذي لاحَتْ مَعانِيهِ في ... أَلْفاظِهِ غُرّاً وِضاءً وِضاحْ
لا أَوْحَشَ الرَّحمنُ من وَجهِهِ ... ومن مَعانيهِ الصِّحاحِ الفِصاحْ

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ إِليه** : [من السريع]

جاءَتْ وقد لاحَ مُحَيَّا الصَّباحْ ... أَبْياتُكَ الغُرُّ الوِسامُ الصِّباحْ
ولِلصَّبا بينَ الرُّبا وَثْبَةٌ ... من بعدِما قد أَبْطَأَتْ في البِطاحْ
والأُفْقُ عُطْلٌ من نُجومِ الدُّجىٰ ... والشِّيْحُ من دُرِّ النَّدىٰ في وِشاحْ
فَأَخْجَلَتْ وَجْهَ الحَبيبِ الذي ... لاحَ وقد هامَ بِهِ كُلُّ لاحْ
فَيا لَها خَمْرَةَ نَظْمٍ وقد ... أَصْبَحْتَ يا صاحِ بِها غيرَ صاحْ
ثمَّ اغْتَبِطْ إِنْ لَمْ بِها أَغْتَبِقْ ... ولا اصْطِبارَ لي عن الاصْطِباحْ
وَدِدْتُ أَنَّ البَيْنَ ما بَيْننا ... لم تُطْوَ مِنْهُ شُقَّةُ الانْتِزاحْ
كي أَتَمَلَّىٰ بالثَّواني التي ... تَزُفُّها لي غُدْوَةً أَو رَواحْ
فهيَ قَوافيكَ التي صَيَّرَتْ ... حِمىٰ فُؤادي لِهَواها مُباحْ
فَما عَسىٰ تَطْلُبُ مِنِّي إِذا ... ما امْتَدَّ باعي ساعَةَ الامْتِزاحْ

● **وكتبَ هو إِليَّ أَيضاً من حلب** : [من المتقارب]

أَلا حَبَّذا عِيْشَتي الرَّاضِيَهْ ... وأَيَّامُ صَبْوَتيَ الماضِيَهْ
ويا طِيبَ أَوْقاتِ وَصْلٍ مَضَتْ ... مُدَبَّجَةِ الذَّيْلِ والحاشِيَهْ
ليالِيَ أَنْصِبُ فَخَّ الهَوىٰ ... فَأَقبِضُ ذا المُقْلَةِ السَّاجِيَهْ
ويا حُسْنَ جِلَّقَ من جَنَّةٍ ... قُطوفُ الأَماني بِها دانِيَهْ

رِحــــابٌ مَشـــارِبُهـــا صـــافِيَـــهْ   عِـــذابٌ بَشـــائِـــرُهـــا ضـــافِيَـــهْ
تَمـــايَـــلَ أَغْصـــانُهـــا مُـــذْ شَـــرِبْـــنَ   بكَـــأْسِ الصِّبـــا مـــن يَـــدِ الغـــادِيَـــهْ
جَـــواري أَنْهـــارِهـــا قَـــد غَـــدَتْ   بِجَـــوْهَـــرِ أَزْهـــارِهـــا حـــالِيَـــهْ
مَغـــانٍ يُلَـــذُّ سَمـــاعُ الغِنـــا   بهـــا مـــن هَـــواتِفِهـــا الشَّـــادِيَـــهْ
إذا ســـافَ طِيْـــبَ شَـــذاهـــا العَليـــلُ   كَســـتْ جِسْمَـــهُ حُلَّـــةَ العـــافِيَـــهْ
كَـــأَنَّ الغَمـــامَ إذا جـــادَهـــا   يَميـــنٌ لِسَيِّـــدِنـــا هـــامِيَـــهْ
يَميـــنُ صَـــلاحٍ لِـــديـــنِ الإلَـــهِ   إمـــامٌ لَـــهُ الهِمَّـــةُ العـــالِيَـــهْ
فَـــلا أَوْحَـــشَ اللهُ مِـــنْ وَجْهِـــهِ   ولا زالَ مـــن نِعْمَـــةٍ بـــاقِيَـــهْ

● **فكتبتُ أَنا الجَوابَ عن ذلك** : [من المتقارب]

أَتَتْنـــي أَبْيـــاتُـــكَ الحـــالِيَـــهْ   فَمَيَّـــزْتَ بيـــنَ الـــورىٰ حـــالِيَـــهْ
تَلـــوحُ بُـــدورُ المَعـــانـــي لَنـــا   تَمـــامـــاً بِـــأَسْطُـــرِهـــا الـــدَّاجِيَـــهْ
لَهـــا زُخْـــرُفٌ قَـــد سَبـــا خـــاطِـــري   فَـــأَمَّـــتْ لَهـــا الشُّعَـــرا جـــائِيَـــهْ
فَـــإنْ كُنـــتَ أَهْـــدَيْتَهـــا غـــادَةً   فَـــإنَّ دُمـــوعـــي لَهـــا جـــارِيَـــهْ
وإنْ كُنْـــتَ حَبَّـــرْتَهـــا رَوْضَـــةً   فَعَيْنـــي بِهـــا قَـــد جَـــرَتْ ســـاقِيَـــهْ
لَقَـــد رَوَّضَـــتْ طِـــرْسَهـــا لِلْـــوَرَىٰ   سَحـــائِـــبُ إذْ أَبْكَـــتِ الهـــامِيَـــهْ
ويـــا طِيْـــبَ نَفْحَـــةِ أَزْهـــارِهـــا   فقَـــد أَرْخَصَـــتْ عِنْـــدِيَ الغـــالِيَـــهْ
سُطـــورُكَ أَنْهـــارُ فَضْـــلٍ جَـــرَتْ   وكَـــم لَـــكَ يـــا بَحْـــرُ مـــن راوِيَـــهْ
أَتَتْنـــي وقَـــد عَبَثَـــتْ بِـــي النَّـــوى   ولَـــمْ يُبْـــقِ مِنِّـــي الضَّنـــىٰ بـــاقِيَـــهْ
فَـــأَهْـــدَتْ لِعَيْنِـــيَ طَيْـــفَ الكَـــرَىٰ   فَلَيْـــتَ علـــى عَيْنِـــكَ الـــواقِيَـــهْ
ولكنَّهـــا نَـــزَلَـــتْ فـــي الحَشـــا   بِتَـــأْكيـــدِ خِـــدْمَتِـــكَ العـــالِيَـــهْ
ولَـــم تُطْـــفِ نـــاراً بِغَـــرْزِ الحَشـــا   شَـــريعـــةُ عَيْـــنٍ غَـــدَتْ دامِيَـــهْ
أَلا يـــا عَلـــيَّ القَـــريـــضِ افْتَخِـــرْ   فَشِيْعَتُـــكَ الفِـــرْقَـــةُ النَّـــاجِيَـــهْ

وقـد شَبِـعَ النَّـاسُ مِمَّـا رَوَوْا   ولِلْحُلـوِ وَسْـطَ الحَشـا زاوِيَـهْ)

٥٥ * عليّ بن داود بن يَحيىٰ بن كامِل بن يَحيىٰ بن جُبارة بن عبد المَلِك بن يَحْيىٰ بن عبدِ الملكِ بن موسىٰ بن جُبارَة(١) ، يَنْتَهِي إلى عبدِ الله بن الزُّبَيْرِ بن العَوَّام :

الشَّيْخُ الإمامُ ، العالِمُ العَلاَّمَةُ ، الفَريدُ الكامِلُ ، النَّحويُّ ، الأُصوليُّ ، الفَقِيهُ ، الأَديبُ ، نَجْمُ الدِّين أَبو الحسن ابن القاضي عِمادِ الدِّين ، القَحْفازيُّ الحَنفيُّ .

● **كتبتُ إليهِ أَطلبُ منهُ ما أَستعينُ بِهِ على تَرجمَتِهِ في « تاريخي الكبير » على العادَةِ(٢)** : [من الخفيف]

يـا مُفِيـدَ الـوَرىٰ مَعـانـي المَعـالـي   وإِمـامَ الأَنـامِ فـي كُـلِّ عِلْـمِ
إِنَّ لـي مُعْجَمـاً كَـأُفْـقٍ فَسيـحٍ   أَشْتَهـي أَنْ يُـزانَ مِنْـكَ بِنَجْـمِ

فَتَأَخَّرَ جوابُهُ إليَّ ، فكتبتُ إليه(٣) : [من الطويل]

ظَفِـرْتُ بِـوَعْـدٍ مِنْـكَ بَلَّغَنـي المُنـىٰ   وَجُـودُكَ نَجْـمَ الـدِّيْـنِ لَيْـسَ يَحـولُ
وقـد طـالَ لَيْلـي لانْتِظـارِ وُرودِهِ   ولَيْـلُ الـذي يَـرْعَـىٰ النُّجـومَ طَـويـلُ

● **فكتبَ هو الجَوابَ عن ذلك(٣)** : [من مجزوء الرجز]

يـا سـائِلـي عـن نَسَبـي   ومَـوْلِـدي وَأَدَبـي

---

(١) ترجمته في : ذيول العبر ٢٤٥ وأَعيان العصر ٣/ ٣٥٦ والوافي بالوفيات ٢١/ ٨٣ وفوات الوفيات ٣/ ٢٣ والجواهر المضيّة ٤/ ٢٨٣ ووفيات ابن رافع ١/ ٢١٣ وتذكرة النبيه ٣/ ٧٤ والبداية والنهاية ١٨/ ٤٧٥ وتاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٤٣١ والدّرر الكامنة ٣/ ٤٧ والمنهل الصافي ٨/ ٧٣ والدليل الشافي ١/ ٤٥٥ والذيل التام ١/ ٧٣ والدارس ١/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨ و٢/ ٤٢٦ وبغية الوعاة ٢/ ١٦٦ وشذرات الذهب ٨/ ٢٤٨ .
ـ مولده سنة ٦٦٨ هـ . ووفاته سنة ٧٤٥ هـ .

(٢) البيتان في أَعيان العصر والوافي .

(٣) القصيدة في أَعيان العصر والوافي .

وما قَرَأْتُ في العُلو ... مِ من شَريفِ الكُتُبِ
وَمَنْ أَخَذْتُ ذاكَ عَنْ ... هُ مِنْ شُيوخِ مَذْهَبي
وغَيْرِهِمْ مِمَّنْ حَوَىٰ ... سِرَّ كَلامِ العَرَبِ
وما الَّذي سَمِعْتُهُ ... عَنِ النَّبِيِّ العَرَبي
صلَّىٰ عليهِ الله ما أَحْ ... لَوْلَكَ جُنْحُ غَيْهَبِ
وذِكْرِ شَيْءٍ صُغْتُهُ ... مِنْ شِعْرِيَ المُنْتَخَبِ
وما الذي صَنَّفْتُهُ ... مِن كُتُبٍ وخُطَبِ
لولا وُجوبُ حُرْمَةِ الْ ... قَصْدِ وَرَعْيِ الرُّتَبِ
ما قُلْتُ ذاكَ خَشْيَةً ... مِن حاسِدٍ مُؤَنِّبِ
يَقُولُ إنِّي قُلْتُهُ ... مُفْتَخِراً بِحَسَبي
لكنَّما البُخْلُ بما ... سُئِلْتُ لا يَحْسُنُ بي
والمُقْتَضَىٰ مِنِّي لَهُ ... لا يَأْتَلي في الطَّلَبِ
وَهْوَ خَليلٌ في الرَّخا ... وعُدَّةٌ في الكُرَبِ
وهَمُّهُ في جَمْعِ شَمْـ ... ـلِ الفَضْلِ لا في النَّشَبِ
وما صَلاحُ الدِّيْنِ إلْـ ... ـلاَ في اقْتِناءِ القُرَبِ
هَذا الذي أَوْجَبَ لي ... يا صاحِ كَشْفَ الحُجُبِ(١)
عن مَحْتَدِي ومَوْلِدي ... وفَضْلِيَ المُحْتَجَبِ
فَقُلْتُ غَيْرَ آمِنٍ ... مِن عائِبٍ مُنَدِّبِ
مُخْتَصِراً مُقْتَصِراً ... مُعْتَذِراً من رَهَبي
ما سَتَراهُ واضِحاً ... مُرْتَسِماً عَنْ كَثَبِ(٢)
لا زِلْتَ لِلْفَضْلِ حِمىً ... ولِبَنِيهِ كالأَبِ

---

(١) في م : هو الذي . . . × .
(٢) في ب : ممّا تراهُ واضحاً × .

تَجْمَـــعُ شَمْـــلَ ذِكْـــرِهِـــمْ مُخَلَّـــــداً فــــي كُتُــــبِ

● وأَنشدتُهُ يوماً قَولي بالدِّيارِ المِصْرِيَّةِ[1] : [من البسيط]

رَكِبْتُ في البَحْرِ يَوْماً مَعْ أَخي أَدَبٍ فقـالَ : دَعْنِيَ مِـن قـالٍ ومـن قِيْـلِ
شَرَحْتَ يا بَحْرُ صَدْري اليَوْمَ، قُلْتُ لَهُ: لا تُنْكِـرِ الشَّـرْحَ يـا نَحْـوِيُّ لِلنِّيلـي

فاسْتَحْسَنَ ذلكَ ، وأَنْشَدَني لنَفسه ما كَتَبَهُ هو إِلى [٨٩ أ] الشَّيْخِ بَدْرِ الدِّينِ محمَّد بن بَصْخان[2] ، وقد أَقامَ بمصرَ المحروسَة[3] : [من الكامل]

يـا غـائِبـاً قَـدْ كُنْـتُ أَحْسَـبُ قَلْبَـهُ بِسِــوىٰ دِمَشْــقَ وأَهْلِهــا لا يَعْلَــقُ
إِنْ كـانَ صَـدَّكَ نِيْـلُ مِصْـرٍ عَنْهُـمُ لا غَـرْوَ فَهْـوَ لَنـا العَـدُوُّ الأَزْرَقُ

● فأَنشدتُهُ لنفَسي في مَعنىٰ زُرْقَةِ النِّيلِ[4] : [من الخفيف]

قـالَ خِلِّـي بِـاللهِ صِـفْ أَرْضَ مِصْـرٍ وَقْـتَ كَتَّـانِهـا بِـوَصْـفٍ مُحَقَّـقْ
قُلْتُ : أَرْضٌ بِالنِّيْلِ يُرْوَىٰ ثَراها فَلِهـــذا الكَتَّــانُ نَــوَّرَ أَزْرَقْ[5]

* * *

(١) البيتان في حسن المحاضرة ٢/ ٣٢١ .
(٢) محمد بن أَحمد بن بَصخان ، شيخ القرّاء بدمشق ، توفي سنة ٧٤٣ هـ . ضبطه المؤلف في الوافي ٢/ ١٥٩ بقوله : بفتح الباء الموحَّدة ، وسكون الصّاد المهملة ، وبعد الخاء المعجمة أَلف ونون .
(٣) البيتان في أَعيان العصر والوافي والفوات .
(٤) البيتان في حسن المحاضرة ٢/ ٣٥١ والكشف والتنبيه ٢٩٦ .
(٥) في م : . . . يزهىٰ ثراها × .
(*) وجاء في خاتمة « م » :
تمَّ الجزء الأَوّل من كتاب أَلحان السّواجع بين البادىء والمراجع للمولىٰ العلاَّمة صلاح الدِّين الصَّفدي رحمةُ الله عليه في حادي وعشرين من شهر شوال الكريم أَحد شهور سنة ستّين وأَلف هجريَّة . والحمد لله وحده .